تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليونانى والرومانى
والعصر الاسلامى

وزارة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليونانى والرومانى
والعصر الإسلامى

المجلد الثانى

ألفه
نخبة من العلماء

أمين الخولى
محمد مصطفى زيادة
إبراهيم نصحى
مراد كامل
حسين مؤنس
جمال الدين الشيال
محمد عبد العزيز مرزوق

الموزع
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

القسم الأول

العصر اليونانى والرومانى

مصر في عصر البطالمـــــة

للدكتور ابراهيم نصحى

الفصل الأول ـ دولة البطالمة

الفتح المقدونى ـ قيام دولة البطالمة ـ الفتح الرومانى

حبا الله مصر بوفرة من موارد الخير وأسباب الحياة الكريمة ما جعلها مهد الحضارة والعرفان ، ويسر على الراشدين من حكامها اعلاء شأنها ، ولفت أنظار الطامعين اليها حتى أصبحت قبلة كل دولة تنشد بناء امبراطورية عالمية . فلا عجب انه حين زالت دولة الفرس وقامت على أنقاضها امبراطورية المقدونيين طويت صفحة من تاريخ مصر الطويل وفتحت صفحة جديدة التقت فيها الحضارتان المصرية والاغريقية جنبا الى جنب . فالى أى مدى صدق العلامة ابن خلدون فى قوله ان المغلوب مولع دائما أبدا بالاقتداء بالغالب ؟ سنحاول بقدر ما تسمح لنا المصادر القديمة ، أن نبين الى أى مدى تغيرت أم بقيت على حالها مختلف نواحى الحياة فى مصر على عهد حكامها الجدد .

ورث الاسكندر الأكبر عن أبيه توحيد الاغريق فى عصبة كورنثا بزعامة مقدونيا ومشروع محاربة الفرس ، ذلك العدو المشترك لمقدونيا والاغريق ، لدعم زعامة مقدونيا . ولما كان الفرس يتمتعون بسيادة البحار فان الاسكندر قرر أن يقضى على سيادتهم البحرية بالاستيلاء برا على قواعد الأسطول الفارسى . ولذلك سرعان ما استولى على شواطىء آسيا الصغرى وفينيقيا ومصر وقدمت له برقة فروض الطاعة .

اولا ـ الفتح المقدونى

١ ـ الاسكندر فى مصر :

فتح الاسكندر مصر فى خريف عام ٣٣٢ ، وما كاد يصل الى منف حتى سارع الى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، وتتويج نفسه فى معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء ، لكى يظهر أمام المصريين فى ثوب ملك شرعى خليفة الفراعنة القدماء ، فيضمن اخلاص المصريين وخضوعهم له . لكن الاسكندر لم ينس أيضا أنه يوم خرج من بلاد الاغريق قاصدا فتح الشرق قد أعلن انه رافع لواء الحضارة الاغريقية ، ولذلك أقام فى منف حفلا اغريقيا : رياضيا وموسيقيا .

وبعد أن فرغ الاسكندر من مهامه فى منف وضع أساس مدينة الاسكندرية ثم حج الى معبد آمون فى واحة سيوة ، فقد كان

ذلك المعبد يتمتع بشهرة عالمية تضارع ما كان لأعظم معابد الوحى عند الاغريق . ويبين ان الاسكندر كان يستهدف من وراء زيارة ذلك المعبد النائى تحقيق ثلاث غايات : أولاها ، اثبات صلة نسبه بالآلهة أمام الرأى الدولى العام ، فقد كان على وشك بناء امبراطورية واسعة مترامية الأطراف تضم بين جوانبها عناصر شرقية وعناصر غربية ، وكان يرى أن تأليهه أقوى ضمان لسيطرته على هذه الامبراطورية . وقد كانت غايته الثانية من الحج الى معبد الوحى فى سيوة الحصول على تأييد الاله آمون لمشروعاته التى كانت ترمى الى بسط سيادته على العالم . أما غايته الثالثة فكانت اشباع ميوله للمخاطرة ورغبته فى اقتفاء أثر بطلى الأساطير الاغريقية برسيوس وهرقل اللذين شاع الاعتقاد قديما ان الاسكندر كان ينحدر من سلالتهما وورد فى الأساطير انهما تزودا بمشورة آمون سيوة قبل الاقدام على جلائل أعمالهما .

وحين عاد الاسكندر الى منف أقام حفلا اغريقيا ثانيا ووضع نظاما دقيقا لحكم مصر ثم تركها فى ربيع عام ٣٣١ فى حماية جيش وأسطول مقدونيين ليستأنف منازلة الفرس . وفى العام نفسه أنزل الاسكندر بدارا ملك الفرس هزيمة فاصلة فى موقعة جوجميلا Gaugamela ، ثم أوغل فى أواسط آسيا حتى قلب اقليم البنجاب للاستيلاء على ولايات الامبراطورية الفارسية . وحين عاد الى بابل وافته المنية فى ١٣ من يونية سنة ٣٢٣ ولما يتم الثالثة والثلاثين من عمره . وبوفاة الاسكندر يبدأ فى العالم الاغريقى العصر الذى اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الهيلينستى . ولما كان تاريخ مصر منذ الفتح المقدونى قد أصبح متصلا اتصالا وثيقا بالعالم الاغريقى فان عهد البطالمة ينتمى الى العصر الهيلينستى الذى ينتهى بموقعة اكتيوم فى عام ٣١ ق . م ، تلك الموقعة التى بسط الرومان فى أعقابها سلطانهم على مصر : آخر مملكة هيلينستية .

مؤتمر بابل

وغداة وفاة الاسكندر اجتمع قواده فى بابل ليبحثوا مشكلة حكم الامبراطورية المقدونية التى توفى مؤسسها قبل أن ينظم وراثة العرش وطريقة الحكم فيها ودون أن يترك وصية أو يرشح خلفا له . وبعد خلاف عنيف تم الاتفاق على أنه يرتقى العرش شاب معتوه يدعى فيليب ارهيدايوس Arrhidaeus كان أخا غير شقيق للاسكندر ، مع الاعتراف بحق جنين روكسانا Roxana (زوجة الاسكندر الفارسية) اذا كان ذكرا فى مشاركة فيليب الملك بمثابة شريك تحت الوصاية . وبهذا الحل أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية لكنها لم تكن الا وحدة فى الشكل فقط اذ انها تقسمت فى الفعل بين قواد الاسكندر نتيجة للقرار الذى اتخذه أولئك القواد بتوزيع ولايات الامبراطورية

فيما بينهم ليحكموها بصفة كونهم ولاة من قبل الأسرة المالكة المقدونية . وقد كانت الأطماع التى تجيش فى صدور أغلب هؤلاء القـــواد واضـــحة جلية ، ولذلك فانهم لم يكونوا على استعداد لقبول أوامر الذين كانوا سيحكمون باسم الملكية متى توافرت لديهم القـــوة الكافية لتأييـــد رغبتهم فى الاســتقلال . وقد كان كذلك بين قرارات مؤتمر بابل : أن يكون پرديكاس القائد العام للجيش والمهيمن على شئون الامبراطورية ، وأن يكون كراتروس وصيا على الملك المعتوه وكذلك على طفـل روكسانا عندما يولد ، وحامى شخصيهما وحامل أختام الدولة ، لكن المؤتمر لم يقرر لمن تكون السيطرة والكلمة النافذة ، ألپرديكاس أم لكراتروس ، وبذلك أضاف عاملا آخر من عوامل الشقاق .

ثانيا ــ قيام دولة البطالمة

وقد كانت مصر من نصيب قائد فذ يدعى بطلميوس . فمـــا كانت أهـــداف بطلميوس مؤسس أسرة البطالمة التى حكمت مصر من عام ٣٢٣ حتى عام ٣٠ ق . م . ؟ وما كانت أهداف خلفائه ؟ لكى تتفهم سياسة البطالمة الداخلية على حقيقتها يجب أن نلقى أولا نظرة عاجلة على سياستهم الخارجية وذلك لأن النظم التى وضعوها لحكم مصر تأثرت الى حد كبير بالدور الذى أرادوا أن يلعبوه فى العالم الاغريقى .

ومن الجـــلى أن سياسة مصر الخارجية تتكيف عادة بمجـــوعتين من العوامـــل : احداهما هى العوامل الطبيعية التى جعلت مصر أولا جزءا من وادى النيل ، بل جعلت حياتها متوقفة على مياه هذا النهر ، وجعلت مصر ثانيا وفيرة الخيرات فى بعض النواحى ، مع فقرها الشديد فى بعض النواحى الأخرى ، وجعلت مصر ثالثا حلقة الاتصال بين افريقيا وآسيا وأوربا . ويترتب على ذلك أن تسعى مصر الى انشاء عـــلاقات خارجية لتصريف ما يفيض على الحاجة من منتجاتها واستيراد ما تفتقر اليه ، وأن يكون لنشاط السياسة المصرية ثلاث جبهـــات : احـــداها افريقيـــة والأخـــرى أسيوية والثالثة أوربية . ومن الطبيعى أن يتباين اهتمام مصر بكل جبهة تبعا الظروف الدولية المحيطة بها فى كل عصر . وهذه الظروف الدولية هى المجموعة الثانية من العوامل التى تتكيف بها سياسة مصر الخارجية .

وفى ذلك الصدر من عهد الفراعنة حين كانت مصر ، أو كادت أن تـــكون ، المركز الأوحد للحضارة ، كان طبيعيا أن تستنفد الجبهـــة الافريقية نشاط السياسة المصرية . وحين قامت الى جانب مصر مراكز الحضارة فى آســـيا ، كان طبيعيا أيضا أن يكون للجبهة الأســـيوية كذلك شأن كبير فى الســـياسة المصرية ، ومن ثم لم تعد الجبهة الافريقية تستأثر باهتمام السياسة المصرية . وعنـــدما أخذت تظهر فى شمال البحر الأبيض المتوسط

مراكز جديدة للحضارة استرعت هذه المراكز فى الحال انتباه مصر ، لكنه لما لم يكن لهذه المراكز الحضارية الأوربية حينذاك شأن يذكر بجانب مراكز الحضارة الشرقية فانه لم يكن للجبهة الأوربية الا حظ يسير من اهتمام مصر قبل العصر الصاوى .

وعلى عهد البطالمة كانت الظروف الدولية المحيطة بمصر قد تغيرت تغيرا محسوسا اذ انه حين كان نجم الحضارات الشرقية قد أفل كانت حضارة الاغريق قد قفزت الى الأمام قفزات خاطفة أوصلتها سريعا الى ذروة المجد حتى تضاءلت الى جانبها الحضارات القديمة طراً ، وغدا بحر ايجة أهم مركز للحضارة فى العالم القديم . وقد ازدادت دعائم هذا المركز رسوخا حين أنشأ الاسكندر امبراطوريته وأدخل فى حظيرتها كل مراكز الحضارة القديمة . وعندما توفى الاسكندر فى شرخ الشباب واقتسم قواده امبراطوريته كان لذلك نتائج عديدة يعنينا من أمرها ثلاث : احداها أن عرش مصر آل الى أسرة مقدونية الأصل اغريقية الحضارة ، والنتيجة الثانية ، نشوب صراع عنيف بين قواد الاسكندر دام أربعين عاما وتمخض آخر الأمر عن قيام ثلاث دول فتية على انقاض الامبراطورية المقدونية : هى دولة البطالمة فى مصر ودولة السليوكيين فى سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا . والنتيجة الثالثة هى احتدام المنافسة بين هذه القوى الثلاث ولا سيما بين البطالمة والسليوكيين .

١ — تفكك الامبراطورية المقدونية

ومهما اختلف المؤرخون فى تفسير سياسة البطالمة الخارجية فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الجبهة الأوربية فى نشاط سياسة مصر الخارجية على عهد البطالمة قد غدت الجبهة الرئيسية ، والأمر الآخر ان البطالمة كانوا يريدون انشاء امبراطورية . وسواء أكان بطلميوس الأول وابنه وحفيده من بعده يريدون انشاء امبراطورية عالمية أم امبراطورية بحرية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان يتعين أولا وضع الأساس الذى يقام عليه هذا الصرح ، أى بناء دولة قوية غنية مستقلة فى مصر . ولا ريب فى أن بناء مثل هذه الدولة كان يحتم فصم عرى الامبراطورية المقدونية ومكافحة كل من تحدثه نفسه باحيائها لحساب الأسرة المالكة المقدونية أو لحسابه الخاص . ولذلك فان بطلميوس الأول اشترك فى عدة محالفات كانت أهمها ثلاث : احداها ضد پرديكاس الذى أراد أن يلم شعث الامبراطورية ويوحدها وقرر غزو مصر ليجعل من واليها عظة للولاة الآخرين لكنه فشل أمام خط النيل الحصين ولقى حتفه هناك (عام ٣٢١) . وكانت المحالفتان الأخريان ضد أنتجونوس Antigonos الذى أصبح بدوره خطرا يتهدد سلامة الولاة الآخرين وانتهى الأمر بالقضاء عليه فى موقعة اپسوس Ipsos عام ٣٠١ ق. م. وبموت أنتجونوس ماتت معه فكرة احياء الامبراطورية المقدونية، وكان قد أكد انحلالها واستقلال الولاة كل

منهم بولايته انهم حذوا حذو انتيجونوس ولقبوا أنفسهم ملوكا (عام ٣٠٦ — ٣٠٥ ق . م .) .

ووسط الأطمـــاع الجامحة التى كانت تجيش فى صدور خلفاء الاسكندر استشعر بطلميوس الحاجة الى جيش كبير وأسطول قوى ليفوز باستقلال مصر ويحافظ على هذا الاستقلال ويحرز مكانة سامية فى السياسة الدولية . ولما كانت تحت امرة منافسى البطالمة جيوش وأساطيل من الطراز الأول ، اذ كانت مؤلفة من خـــيرة جنــود العصر ، وأعنى المقدونيين والاغريق ، فقد اعتقد بطلميوس وخلفـــاؤه الأوائل انه لتحقيق سياســتهم الخارجية بل المحافظة على كيان دولتهم ، لابد من أن يكون لهم جيش وأسطول من طراز جيــوش وأساطيل منافسيهم ، ومعنى ذلك ضرورة استقدام الاغريق وأشباههم للخدمة فى قوات البطالمة المحاربة . ولما كانت ثروة مصر الطبيعية قاصرة عن الوفاء بحــاجات الجيش والأسطول فانه كان يتعين اســتيراد الأخشاب والمعادن اللازمة من الخارج . وقد كانت الطريقة المثلى لضمان الحصول عــلى هذه الضروريات هى الاستيلاء عــلى بعض الأقاليم القريبة الغنية بالأخشاب والمعادن .

٢ ـ بناء امبراطورية البطالمة

ولما كانت وفرة المال شرطا أساسيا لبناء الجيوش والأساطيل ، وكانت مصر مع غنى مواردها الطبيعية لا تستطيع مواجهة المطالب الجديدة اذا بقيت شئونها الادارية وحالتها الاقتصادية على ما كانت عليه عند الفتــح المقدونى ، فانه لم تكن هناك مندوحة عن اعادة تنظيم شئون الادارة ، والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا ، وتصدير أكبر قدر ممكن من منتجاتها. وللقيام بهذه الأعمال الانشائية الواسعة كان بطلميوس الأول وخلفـــاؤه فى حاجة الى رءوس أموال والى أعوان مخلصين يستطيعون فهم مراميهم والتفانى فى خدمتهم . ومعنى ذلك ان البطالمة الأوائل كانوا يستشعرون الحاجة أولا الى الاغريق لا لبناء جيوشــهم وأساطيلهم فحسب ، بل أيضا لاعادة تنظيم شئون البلاد الادارية والاقتصادية ، فقــد كانت تتوافر لديهم رءوس الأموال وكذلك الخبرة بأحدث الأساليب الاقتصادية ونظم التجارة السائدة فى عالم البحــــر الأبيض المتوسط . وثانيا الى السيطرة على الطرق البحـــرية لحماية مصر وتنشيط تجارتهـــا الخارجية. فلا عجب ان اعتبر بطلميوس الأول وخلفاؤه سيادة بحر ايجة عماد كيانهم السياسى ومصدر قوتهم وأساس استقلالهم .

وازاء كل هذه العوامل نرى أن بطلميوس الأول حين كان معنيا بالفوز باستقلاله ثم بالذود عنه قد : (١) استولى على برقة لحماية حدود مصر الغربية ، (٢) استولى على جوف سوريا (فلسطين وفينيقيا وجزء من سوريا) وقبرص وبعض الأقاليم الواقعة على شواطىء

آسيا الصغرى الجنوبية وذلك لحماية حدود مصر الشرقية والحصـــول عـــلى المعادن والأخشاب التى يفتقر اليها وادى النيـــل ، والسيطرة على بعض منافذ الطرق التجارية الآتية من الشرق الأقصى ، وضمان سيادة مصر فى بحر ايجه . و (٣) سبق الدول الحديثة الى الاتجار بالحرية فانه تحت ستار انقاذ عصبة بحر ايجة من ربقة انتيجونوس ، طرد حاميات انتيجونوس من عصبة الجزر ووضـــع مكانها حاميات بطلمية للذود عن « الحرية الاغريقية » ، ثم سارع الى بلاد البلوبونيز فوضع حاميات بطلمية فى سيكيون وكورنثا حماية للحرية الاغريقية من أعـــدائها الظالمين ! ولا شك فى أنه لم يهدف من وراء ذلك الا الى الفوز بسيادة بحر ايجة وكسب عطف الاغريق فيسيطر على الطرق التجارية فى العالم القديم ويحصل من العالم الاغريقى على ما يحتاج اليه من الرجال ورءوس الأموال .

ويجب أن نلاحظ أن السيطرة على عصبة جزر بحر ايجة كانت لا تكسب البطـــالمة الا سيطرة جزئية اقتصادية وسياسية على بحـــر ايجة ، وان استكمال السيطرة على هـــذا البحر كان يقتضى فرض حماية مصر عـــلى شواطىء آسيا الصغرى الجنـــوبية والغربية وكذلك الاستيلاء على موانى فلسطين وفينيقيا وقد شيد بطلميوس الأول جانبا مهما من هذه الامبراطورية وترك لخلفائه استكمال بنائها اذ أن السياسة التى وضع هو أساسها لم يحد عنها أحد من خلفائه الأوائل .

وهكذا يتضح لنا انه على عهد بطلميوس الأول اتجهت سياسة مصر الخارجية اتجاها جديدا لم يكن لها به عهد من قبل ، فقد غدت الجبهة الأوربية أو ان شئت الجبهة الأوربية الشرقية أو الجبهة الشمالية محور نشاطها الرئيسى . وقد أفضت الظروف الى اتجاه جديد آخر كان نحو آسيا . حقا ان الجبهة الأسيوية كانت منذ أمد بعيد موضع اهتمام مصر لكن آسيا الصغرى لم تكتسب قبلا من الأهمية فى هذه الجبهة مثل ما أخـــذت تكتسبه منذ أيام بطلميوس الأول . وفضلا عن ذلك فان الاتجاه الأسيوى لم يكن يوما وثيق الاتصـــال بالاتجاه الأوربى للسياسة المصرية على النحو الذى نراه منذ بداية عهد البطالمة .

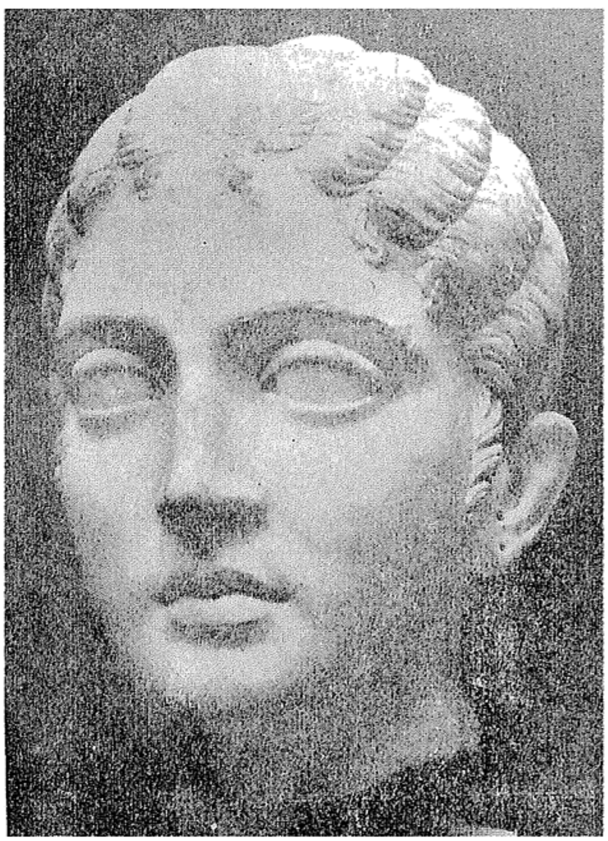
وعنـــدما ارتقى عرش مصر بطلميوس الثانى كانت دولته أقوى دولة فى العـــــالم الهيلينستى . وكانت تليها دولة السليوكيين وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر فى بلاد ما بين النهـــرين وأغلب الولايات الشرقية البعيدة وجانبـــا كبيرا من آســـــيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) . وكانت الدولة الثالثـــة هى مقدونيا وكانت تسيطر على بعض المـــدن الاغريقية فى شبه جزيرة البلقان . وقد عنى بطلميوس الثـــانى أولا بدعم حدود مصر الغربية ، وثانيا بارسال حملة تأديبية الى قبائل النبط فى البتراء ، واخضاع الأدوميين والبحـــر الميت وشرق

الأردن . وذلك لضمان الحصول على التجارة الشرقية القادمة بطريق البحر الأحمر وبلاد العرب . ويتصل بالهدف نفسه اهتمامه بالطرق التى تربط وادى النيل بالبحر الأحمر . وثالثا وطد حدود مصر الجنوبية واهتم بطرق أعالى النيل . ورابعا دعم سلطان مصر فى جوف سوريا . وخامسا استرد ممتلكات مصر على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى التى كان أبوه قد فقدها فى عام ٣٠٦ وأضاف اليها ممتلكات جديدة هناك ، وعلى شاطىء آسيا الصغرى الغربى. وسادسا بسط نفوذه على كريت وثبت سلطانه على عصبة جزر بحر ايجة .

وهكذا يبين أن الاتجاهين الجديدين اللذين ظهرا فى أفق السياسة المصرية على عهد بطلميوس الأول قد استمرا مسيطرين على هذه السياسة فى عهد بطلميوس الثانى أيضا . بل لعل سيطرتهما قد ازدادت قدرا ما فى عهد بطلميوس الثانى على نحو ما يتضح من اتساع نطاق فتوحه فى بحر ايجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى . لكن لعهد بطلميوس الثانى ميزة خاصة ، ففى عهده بدأ اتجاه



رأس تمثال من المرمر
لبطلميوس الثالث .



رأس من المرمر يظن أنها تصور برينيكى الثانية
زوجة بطلميوس الثالث .

جديد كل الجدة فى سياسة مصر الخارجية . وبيان ذلك أن مصر فى عهد هذا الملك كانت أول دولة هيلينستية أنشأت علاقات سياسية مع روما ، ففى عام ٢٧٣ ق . م . أرسل بطلميوس الثانى بعثة الى روما نجحت فى عقد اتفاق بين الدولتين . ويبدو أن هذا العمل كان جزءا من سياسة عامة انتهجها بطلميوس الثانى مع الدول الغربية ، اذ تنهض الأدلة على وجود علاقات قوية حوالى ذلك الوقت بين مصر وسيراكوز أعظم دولة فى صقلية وكذلك بين مصر وقرطجنة . ومن المحتمل أن الدوافع التى أملت على بطلميوس الثانى سياسته الغربية كانت دوافع اقتصادية قبل كل شىء لأن الأسواق الغربية كانت تستطيع المساهمة بقدر كبير فى رخاء مملكته .

ان السياسة الخارجية التى وضع بطلميوس الأول أساسها وسار بطلميوس الثانى على نهجها أصبحت سياسة تقليدية لدى ملوك البطالمة الأوائل . وآية ذلك أن بطلميوس الثالث أيضا لم يكد يرتقى العرش حتى وضع نصب عينيه تحقيق هذه الأهداف نفسها والوصول بها الى نتيجتها المنطقية . فهو لم يستعد فقط الممتلكات التى فقدتها مصر أيام أبيه على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية بل أضاف اليها أملاكا أخرى على تلك الشواطىء وكذلك على شاطىء الدردنيل وفى غاليبولى وتراقيا . أما الحملة التى قام بها بطلميوس الثالث حتى سليوكيا على نهر الدجلة فى مستهل حكمه — عندما توفى أنطيوخوس الثانى ملك سوريا ونشب خلاف عنيف بين زوجه الأولى لاوديكى وزوجه الثانية برينيكى شقيقة ملك مصر — فانها لم تكن الا فى سبيل نصرة أخته والدفاع عن حقوق ابنها ، فهو لم يحاول عندئذ الاحتفاظ بالفتوحات التى تمخضت عنها هذه الحملة كما أنه لم يحاول فيما بعد استغلال الأزمات التى قطعت أوصال امبراطورية السليوكيين لتوسيع رقعة امبراطوريته داخل آسيا ، مع ان الفرصة كانت مواتية له اذ ذاك لاقتطاع ما يشاء من الولايات الشرقية فى تلك الامبراطورية . ولا جدال فى أن امبراطورية البطالمة قد وصلت فى عهد بطلميوس الثالث الى أقصى اتساعها ولا فى أن هذه الامبراطورية كانت امبراطورية بحرية . أما فكرة تكوين امبراطورية عالمية فانها كانت بعيدة عن أذهان البطالمة لأنها حتى اذا كان من الميسور تحقيقها فانه لم يكن من الميسور المحافظة عليها . وجملة القول ان بطلميوس الثالث اقتفى بدقة خطوات أبيه فى اتجاهات السياسة الخارجية نحو الشمال والشرق والغرب .

٣ — بداية النهاية

وعندما ارتقى بطلميوس الرابع عرش مصر وأطلق العنان لشهواته الجامحة ، اعتقد أنطيوخوس الثالث ان الفرصة قد سنحت لسلب مصر جوف سوريا ، غير انه عندما تهيأ

لتحقيق ذلك ترك بطلميوس عبثه ومجونه وخف للدفاع عن امبراطوريته . ومن أجل ذلك أعاد تنظيم الجيش وأدمج للمرة الأولى فى قواته المحاربة عددا كبيرا من المصريين دربهم وسلحهم وفقا لأصول فنون الحرب الحديثة فكان لهم الفضل الأكبر فى الانتصار فى موقعة رفح فى عام ٢١٧ ق . م . ولما كان جيش أنطيوخوس يتكون من الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يعتبرون سادة فنون القتال فى ذلك العصر ، فان النصر الذى أوتيه المصريون فى هذه المعركة وينهض دليلا على أن الجندى المصرى لا ينقصه الا التدريب والسلاح لاثبات كفايته فى ميدان القتال ، أعاد الى المصريين ثقتهم بأنفسهم وحفزهم على القيام فى وجه حكامهم الطغاة الذين أوسعوهم ظلما وارهاقا .

ويتضح مما أسلفناه انه كان للسياسة الخارجية التى اتبعها البطالمة الثلاثة الأوائل هدفان رئيسيان وهما : استقلال مصر أستقلالا تاما سياسيا واقتصاديا ، والتمتع بأكبر قسط من السيطرة على عالم بحر ايجة . وقد نجح أولئك البطالمة والى حد بعيد فى تحقيق هذين الهدفين ، وكان لسياستهم الخارجية أول الأمر جبهتان رئيسيتان احداهما فى الشمال والأخرى فى الشرق ثم أصبحت لها جبهة ثالثة فى الغرب . أما منذ منتصف عهد بطلميوس الرابع فان مصر لم تحاول الا تحقيق الهدف الأول ، اذ أنها اضطرت تدريجا الى طرح تحقيق الهدف الثانى جانبا ازاء ضغط ثلاث قوى فتية وثابة وهى روما وفيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث ، وازاء الضعف الكامن فى البطالمة الأواخر وفى رجالهم الذين ألقيت اليهم مقاليد الحكم ، وازاء الثورات المصرية الخطيرة التى كانت تكاد لا تنقطع منذ عودة المصريين مظفرين من معركة رفح ، وأخيرا ازاء الخلافات العنيفة بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس .

فلا عجب أن اتفق المؤرخون على اعتبار موقعة رفح حدا فاصلا بين العهد الذى بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذى أخذت فيه عوامل الضعف والاضمحلال تدب اليها حتى سقطت هيبتها وذهبت سطوتها ففقدت أملاكها فى الخارج وتزعزع سلطانها فى الداخل ، وأصبحت تتناوبها الغزوات والثورات الى أن انتهى بها الأمر الى افول نجمها وزوال استقلالها .

زوال امبراطورية البطالمة

وقد أثار مخاوف مصر انكباب أنطيوخوس الثالث على لمّ شمل امبراطوريته وتوسيع رقعتها ، فعملت مصر على التقرب من مقدونيا وروما ، لكن اضطرابات مصر الداخلية وخوار عزيمة حكامها وفسادهم شجعت أصحاب المطامع ، أعداءها منهم والحلفاء ، فان فيليب الخامس ملك مقدونيا وصديق مصر اتفق مع عدوها اللدود

أنطيوخوس الثالث علـى اقتسام ممتلكاتها الخارجية . وهكذا سرعان ما فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية ولم يبق لها منها سوى قبرص وبرقة . وقد أفزعت روما أطماع فيليب وأنطيوخوس ،ولذلك فانها ما كادت تخـرج فى عام ٢٠٢ ق . م . منتصرة من صراعها مع قرطجنة حتى اشتبكت مع فيليب ثم مع أنطيوخوس وهزمتهما ، الأول فى عام ١٩٧ والثـانى فى عام ١٨٩ ، وذلك بحجة الدفاع عن حرية الاغريق وأملاك بطلميوس المسلوبة .

٤ ــ وقد مهدت الأحداث السبيل أمام روما لتبسط سلطانها الفعلى على مصر وان احتفظت مصر باستقلالها الاسمى . ويعـزى تغلغل النفوذ الرومانى فى مصر الى عاملين : أحدهما الأخطار الخارجية التى استهدفت لها مصر ولا سيما من ناحية السليوكيين فانهـا ما كادت تتخلص من مخاطـر أنطيوخوس الثالث حتى أقدم أنطيوخوس الرابع عـلى الاستيلاء على قبرص وغزو مصر نفسها مرتين ولم ينقذها من براثنه الا تدخل روما التى أرغمته على الانسحاب من مصر ورد قبرص اليها . والعامل الآخر هو استحكام النزاع بين بطلميوس السادس وأخيه الأصـغر بطلميوس السابع واتخاذهما روما فيصـلا وحكما فى هذا النزاع الدموى الذى استغلته روما الى أقصى حد لتحقيق أغراضها . وبرغم هـذه الأحداث الداخلية الجسيمة وكابوس النفوذ الرومانى الثقيل ، فان مصر لم تنس جوف سـوريا وحاولت مرارا اسـتغلال الاضطرابات التى كانت تقطع أوصـال امبراطورية السليوكيين لاستعادة ذلك الجزء الجميل من ممتلكاتها السابقة ، لكنها باءت بالفشل . ولم تلبث أن فقدت أيضا برقة ، اذا أن بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى كان قد نزل عنها لابنه غير الشرعى بطلميوس ابيون وهذا أورثها لروما فى عام ٩٦ ق. م.

٥ ــ صحوة الموت

وحين بدا محققا ان أسرة البطالمة ستزول فى ظرف سنين قلائل كما زالت من قبـل أسرة السليوكيين ، شـاء القدر أن تشرق شمس البطالمة من جديد اشراقا يخطف الأبصار قبل أن تغيب الى الأبد . وبيان ذلك أن ارتقت عرش مصر عندئذ فتاة موهوبة تمكنت من استخدام قوة روما لتنفيـذ أغراضها حتى كادت أن تجنى من وراء ذلك امبراطـورية عالمية . فقد سيطرت كليوبترة أولا عـلى يوليوس قيصر الى حد انه أصبح مؤكدا انه عندما يقيم نفسه ملكا على روما سيعلن زواجه منها رسميا فتشاركه سلطانه الواسع . لكن نبلاء الرومان لم يلبثوا أن أجهزوا على آمال كليوبترة عنـدما أجهـزوا على قيصر فى عام ٤٤ ق . م .

ومع ذلك لم تلبث كليوبترة أن أوقعت فى شباكها مارك أنطونيوس حين أصـبح الحـاكم المطلق فى النصف الشرقى من

الامبراطورية الرومانية . وقد وضـــع أنطونيوس نفسه وكل ما يملك تحت امـرة كليوبترة ، فانه تزوجهـا وقسم بينها وبين أولادها كل الولايات الرومانية فى آسيا . ولما لم تقنع كليوبترة بالنصف الشرقى فى العالم الرومانى فانها دفعت أنطونيوس لمنازلة أوكتاڤيوس من أجل الفوز بالنصف الغربى أيضا وحكم العالم الرومانى بأجمعه . وهكذا بدا لكليوبترة بعد عشر سنين من تبـــديد أحـلامها بمقتل قيصر أنهـا أصبحت قاب قوسين أو أدنى من أن تصـبح امبراطورة العالم . لكنه لم يكن مقدرا لها أن تحقق أحلامها فقد بدد أوكتاڤيوس تلك الأحـلام بانتصاره فى موقعة اكتيوم (عام ٣١ ق. م.) ودخوله الاسكندرية فى العام التالى وضمه مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

ولابد من أن يستوقف النظر فيما قدمناه أن البطالمة لم يولـوا الجبهة الجنوبية من عنايتهم قدر ما أولاها الفراعنة منـذ أقدم العصور . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة للبطالمة الأواخر الذين اكتنفتهم المخاطر من كل جانب حتى شلت حركتهم . فكيف نفسر ذلك بالنسبة للبطالمة الفاتحين ملوك الأسرة الأوائل ؟ لقـد عرفنـا ان البطالمة الأوائل انصرفوا بوجه عـام الى تكوين امبراطورية بحرية حول شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقية مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل أهمها ظروف النضال مع خلفـاء الاسكندر الأكبر على اقتسام الامبراطورية المقدونية ، وطبيعة أصلهم ونشأتهم ، وما بينهم وبين الاغريق من الوشائج حتى انهم جعلوا اعتمادهم على الاغريق فى تشييد صرح دولتهم ، وتقديرهم ان امبراطورية تتألف من أقاليم تمت بصلة الى الحضارة الاغريقية وتقع بالقرب من مراكز هذه الحضارة تكون أبقى على الدهر وأجدى عليهم وخير نصير لهـم فى تحقيق ما كانوا يهدفون اليه من لعب الدور الأول فى سياسة البحر الأبيض المتوسط الدولية .

ولا ريب فى أن البطالمة قد استشعروا أن مكانتهم الدوليـة — فى عـالم تعتبر فيه الحضارة الاغريقية أرفع الحضارات طرا — كانت تتوقف الى حد كبير على ظهورهم فى ثوب رافعى لواء الحضارة الاغريقية بخلع مسحة ولو ظاهرية من هذه الحضارة عـلى دولتهم . واذا تصوروا ان ذلك كان أمـرا ميسورا فيما يخص مصر فيبدو انهم اعتقدوا انه كان ضربا من المحـال فيما يخص كل وادى النيل . ولعل البطالمة أن يكونوا قد قدروا ان تحقيق وحدة وادى النيـل كان من الممكن أن يحمل فى طياته خطرا داهمـا عليهم باعتبارهم ملوكا اغريقا أخرجوا من أفق تفكيرهم بناء دولة قومية وذلك لأن وحـدة الوادى بما تنطوى عليه من احياء سـيرة الفراعنة العظام ومجد وادى النيل القديم قد تفضى الى بعث أمة وادى النيل من جديد ، فيتلاشى فى أرجاء بلادها الفسيحة رسـل الحضارة الاغريقية ولا يلبث أن يرتقى فرعون

وطنى عرش وادى النيل . ومن ثم فان البطالمة بوجه عام اكتفوا بالمحافظة على سلامة حدود مصر الجنوبية وعقد أواصر الصداقة مـع جنوب الوادى والاهتمام بتجارة الجنـوب والشرق .

ويتضح اذن من كل ما مر بنا انه ازاء الظـروف التى اكتنفت البـطالمة اتخذت سياستهم الخارجية وجهات جديدة صـوب الشمال والشرق والغرب ، فقد قدروا انه كان يمكنهم الاستغناء عن وحدة وادى النيـل بامبراطوريتهم البحرية وبالعلاقات التجارية التى أنشأوها مع الغرب وكذلك مع الجنوب والشرق . لكن يبين ان التوفيق قد أخطأهم فى هذا التقدير ، فمن ناحية كلفهم انشاء هذه الامبراطورية جهـودا مضنية وأموالا طائلة ودفعهم الى ممالأة الاغريق عـلى حساب المصريين واستنزاف موارد البلاد واستثارة عداء الكثيرين عليهم .

ومن ناحية أخرى عندما اشـتد ساعد منافسيهم وأخذت روما تتسع باطراد فى شرق البحر المتوسـط فقد البطالمة امبراطوريتهم البحرية ولم يجدوا فى داخل دولتهم عضـدا كافيا حتى للاحتفاظ بملكهم من العـدوان الخارجى . وهـكذا استنفد البطـالمة قوتهم وأضاعوا ثروتهم فالتهمت روما دولتهم.

الفصل الثانى — إدارة الحـكم

السلطة المركـزية — المـدن الاغريقية — السلطة المحلية — قوات البطالمة

أولا — السلطة المركزية

١ — الملك

منذ انتصر بطلميوس الأول على پرديكاس اعتبر البطالمة مصر ضيعة آلت اليهم بحق الفتح ، لكن لكى يكون سلطانهم دائمـا وسيادتهم راسخة استغلوا المعتقدات الدينية السائدة بين رعاياهم ونصبوا أنفسهم آلهة لهم ، وبذلك أصبح سلطانهم لا يستند الى حق الفتح فحسب بل أيضا الى حق الملوك الالهى . فلا عجب ان الملك بطلميوس كان يعتبر صاحب مصر وسيد رعيته المطلق . فقد كان على رأس الأداة الحكومية وكبـير القضاة والقائد الأعلى للجيش والأسـطول ومصدر القوانين التى يخضع لها جميع سكان البلاد والدساتير التى تعيش فى كنفها المدن الاغريقية وكذلك الجاليات الأجنبيـة التى تكونت خارج تلك المدن .

٢ — الوزراء

ولما كان يتعذر على الملك أن يباشر بنفسه كل السلطات التى يتمتع بها فانه كان يعتمد على مساعدة عدد من الشخصيات الكبيرة . وكان الملك يختار أغلب مساعديه الرئيسيين من بطانته التى كون أفرادها على مضى الزمن بلاطا ينقسم طبقات يميز كل منها عن الآخـر ألقاب فخرية . ولما كان أول هم للملك هو أن تفيض عليه ضيعته بالبركات ، فقد كان وزير المالية أخطر مساعدى الملك شأنا وأوسعهم نفوذا الى حد أنه كان يكاد يسيطر سيطرة تامة على كل نواحى الحياة العامة فى البلاد . وكان هـذا الوزير الخطير يدعى ديويكيتس Dioiketes ، وهو لقب يحمـل معنى « مدير الضيعة » ولذلك يتخذه العلماء دلالة واضحة على أن البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعتهم الخاصة .

وليضمن الملك استدرار الخـيرات من ضيعته كان يجب أن يولى اهتمامه لتصريف العدالة حتى يستتب الأمن وينصرف الناس الى مزاولة أعمـالهم ، ولذلك فان الموظف الـكبير الذى يدعى أرخيـديكاستس Archidicastes ، ومعناه كبير القضـاة يعتبر المساعد الثانى للملك .

وعلى عهد البطالمة الأوائل الذين وجهوا عناية كبيرة الى النهـوض بمرافق البـلاد الاقتصادية واستغلالها على نحو لم يسبق له مثيل كان يوجد وزير للأشغال Architecton

كانت مهمته تحسين نظم الرى وصيانة وسائله ويرجح انه كان يوجد كذلك وزير للحرب يقوم بالاشراف على تجنيد الجيوش ودفع مرتبات الجنود ومنح الاقطاعات .

ولما كان الملك مصدر جميع السلطات والمرجع الأول والأخير فى تنفيذ القوانين ، تستمد منه السلطات المركزية والمحلية نفوذها واليه شخصيا كان يتوجه فيض الشكاوى والالتماسات ومنه شخصيا كان يصدر سيل من الأوامر ، فقد كانت له سكرتيرية خاصة كانت تنقسم قسمين يختص أحدهما بشئون مراسلات الملك ، ويختص القسم الآخر بالأوامر وفيما يظن أيضا بالتوقيع على الشكاوى المرفوعة الى الملك .

وبطبيعة الحال كان يتعذر على الملك وسكرتيريته ووزرائه النهوض بشئون حكم وضعت له نظم دقيقة معقدة فى بلاد غنية متحضرة دون الاستعانة بهيئة كبيرة من الموظفين المدربين . ويعتبر من أعظم أعمال البطالمة نجاحهم فى انشاء هذه الأداة الحكومية الدقيقة فى بلد أجنبى من عناصر لم تتوافر فيها المؤهلات اللازمة لمثل هذا العمل . ولا شك فى أن هذه الأداة الحكومية كانت الى حد ما من تراث الماضى لكنها غدت فى مجموعها أداة اغريقية منظمة تنظيما دقيقا ، ويتألف رؤساؤها ومديرو مصالحها المختلفة وأقسامها المتعددة من اغريق لم يعدهم ماضيهم للاضطلاع بمثل هذه الأعمال المعقدة . واذا كان التوفيق قد حالف هذه الأداة الحكومية على عهد البطالمة الأوائل فانها فسدت فى الشق الثانى من عصر البطالمة وأصبح كل همها ارهاق الأهالى وابتزاز أموالهم . غير أن مرد ذلك ليس الى عيوب فى تصميم الأداة الحكومية ذاتها وانما الى الظروف التى كانت تعمل فيها والأهداف التى وجهت اليها .

ثانيا ــ المدن الاغريقية

وقد كانت فى مصر البطلمية ثلاث مدن اغريقية ، وهى الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس . وبالرغم من انشاء هذه المدن فى مملكة يقوم على رأسها ملك مستبد مطلق السلطة ، ووسط مدن مصرية تخضع لهذا الملك وموظفيه خضوعا تاما وليس لها أى رأى فى حكم نفسها ، فان المدن الاغريقية وان شاركت المدن المصرية فى خضوعها للملك وذلك بوصفه الها لأنه لم يكن لسلطان الآلهة حد ، وفقدت تبعا لذلك سيادتها ، فانها لم تفقد حق ادارة نفسها بنفسها ، أو بعبارة أخرى حق تمتعها باستقلال ذاتى يعطى مواطنيها حق حكم أنفسهم .

وقد كان هذا الاستقلال الذاتى أهم فارق يميز المدينة الاغريقية عن المدينة المصرية والمواطن الاغريقى عن المواطن المصرى ، فقد كان الاغريقى يرى أنه يعيش فى مدن ويشترك فى حكم الجماعة التى ينتمى اليها ، أما المصرى وغيره من الشرقيين فانهم فى نظره كانوا

لا يعيشون الا فى قرى لأنه مهما كان اتساع مواطنهم ومهما جاورت هذه المواطن المدن الاغريقية فانها لم تتمتع بأى نوع من أنواع الاستقلال وانما كانت تخضع لأى حاكم موفد من قبل السلطة المركزية . واذا كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر لم يؤد الى أى تأثير فى نظم المدن المصرية فان نظم هذه المدن الاغريقية كذلك لم تتأثر نتيجة لوجودها الى جانب المدن المصرية . واذا قيل ان مدن مصر الاغريقية لم تكن دولا ذات سيادة فانه يمكن الرد بأن ذلك لم يكن خاصة انفردت بها مدن مصر الاغريقية فقد كان أيضا شأن كافة المدن الاغريقية التى قامت فى الممالك التى أنشئت على أنقاض الامبراطورية المقدونية .

وقد كان انشاء المدن الاغريقية فى مصر أمرا ضروريا ، لأن الاغريق تشبعوا بالفكرة القائلة بأن المدينة هى البيئة الأساسية لحياتهم العامة ، والنظام الطبيعى الوحيد الذى يستطيع أن يعيش فى كنفه الرجال الأحرار ، لأن نظم المدينة الحرة كانت تكفل لمواطنيها حرية القول والرأى والعمل وتبيح لهم المشاركة فى ادارة دفة شئونها وتوفر لهم من أسباب الحياة ما هو خليق بانسان يحترم نفسه وجدير بالاستمتاع بحياته . فلاعجب ان كان الاغريق ينشئون مدينة لأنفسهم حيثما نزلوا فى مكان واتخذوه مستقرا دائما لهم .

١ ــ الاسكندرية

وهى أول مدينة تعرف عن يقين ان الاسكندر قد أنشأها فى خلال حملته . ولعل الاسكندر أن يكون قد توخى من وراء تشييد الاسكندرية ثلاثة أهداف : أحدها انشاء مدينة اغريقية تكون مصدرا لاشعاع الحضارة الاغريقية بين ربوع مصر ؛ وثانيها أن تخلف هذه المدينة صور فى العالم التجارى ولا سيما ان مصر برغم ازدياد علاقاتها مع العالم الاغريقى ازديادا مطردا لم يكن لها على شواطىء البحر الأبيض المتوسط ميناء جدير بها ؛ وثالثها اقامة قاعدة بحرية تدعم سيطرته على بحر ايجة وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد جعل بطلميوس الأول مقره فى منف الى أن اطمأن ، بعد انتصاره فى عام ٣١٢ على ديمتريوس ، الى قدرته على الدفاع عن شواطىء مصر الشمالية . وعندئذ نقل مقره الى الاسكندرية التى أصبحت منذ ذلك الوقت مقر البلاط وعاصمة مصر . وسرعان ما غدت الاسكندرية أكبر مدينة اغريقية فى العالم تفوق فى اتساعها أكبر المدن الاغريقية القديمة ، وغدت كذلك فى طليعة عواصم الحضارة الاغريقية وظلت محتفظة بمكان الصدارة طوال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد الى حد أن حضارة هذين القرنين عُرفت باسم « حضارة الاسكندرية » . واذا كان ما كشفت الحفريات عنه لا يمكن أن يصور حقيقة ما كانت عليه هذه المدينة فى عصرها الزاهر ، لأن أكثر معالم المدينة

القديمة لا يزال مطمورا تحت مبانى المدينة الحديثة فاننا نستطيع أن تتبين مما كتبه شعراء القرن الثالث انهم كانوا يعتبرونها أعظم مدينة فى العالم حيث تتوافر كل نعم الحياة ومباهجها . وحسبنا أن نستشهد بما أورده هيروندااس Herondas على لسان امرأة عجوز تتحدث الى شابة رحل عنها زوجها الى الاسكندرية : « لقد انقضت عشرة شهور منذ سافر ماندريس Mandris الى مصر لكنه لم يرسل اليك كلمة واحدة . ولا شك فى أنه قد نساك وانتهل من منبع سرور آخر ! مصر ! (يقصد الاسكندرية) هناك حيث يوجد معبد الالهة (ارسينوى) وكل شىء يمكن وجوده فى أى مكان آخر : ثراء وملاعب ومجد وراحة وعظمة ومباهج وفلاسفة وذهب وشبان وملك كريم ودار للعلم وخمر وكل الأشياء الطيبة التى يمكن أن تتوق اليها النفس ، ونساء يفقن فى عددهن ويضارعن فى جمالهن الالهات اللائى احتكمن الى باريس » .

ويبدو ان الاسكندر قد اختار المكان الذى شيدت عليه الاسكندرية لبعده عن رواسب فرع النيل الكانوبى ، وسهولة وصول مياه الشرب اليه وقرب بحيرة مريوط وجزيرة فاروس منه ، فقد كانت البحيرة تتصل بالنيل وتهيىء للمدينة ميناء يربطها بداخلية البلاد ، كما أنه بمد جسر من الجزيرة الى الشاطىء يصبح للمدينة مرفآن على البحر ، هما الميناء الكبير والميناء الغربى ، وكان يمكن استخدام أيهما تبعا لهبوب الريح.

وقد وضع تخطيط الاسكندرية المهندس الروديسى دينوكراتس وفقا لأحدث قواعد فن تخطيط المدن . وكانت المدينة مستطيلة الشكل يمتد جانباها الطويلان فى محاذاة البحر من ناحية وبحيرة مريوط من ناحية أخرى . وكانت تشق المدينة شوارع تتقاطع عموديا مع بعضها بعضا موازية بوجه عام للشارعين الرئيسيين فيها ، وكان أحدهما يمتد من باب كانوب (أبو قير) فى الشمال الشرقى الى باب الغرب فى الجنوب الغربى . أما الآخر فكان يجرى من باب الشمس عند بحيرة مريوط فى الجنوب الشرقى الى باب القمر شرقى جسر الهپتاستاديوم الذى أنشىء لربط جزيرة فاروس بالبر .

وقد كانت المدينة تتألف من خمسة أحياء أطلق على كل منها اسم حرف من حروف الهجاء الاغريقية الخمسة الأولى . وكان أهم هذه الأحياء جميعا هو حى القصور الملكية وكان يشغل ربع مساحة المدينة أو ثلثها تقريبا ويطل على الميناء الكبير ويمتد حتى شارع كانوب ويحتوى أهم معالم العاصمة ، فقد كانت توجد فيه القصور الملكية ودار العلم والمكتبة والجيمنازيوم والمحكمة ومدافن الاسكندر الأكبر والبطالمة . أما مضمار

سباق الخيل وساحة الألعاب فانهما كانا يقعان فى أطراف المدينة ، أولهما فى الناحية الشرقية ، وثانيهما فى الناحية الجنوبية الغربية ، فى حى راكوتيس حيث أقيم معبد السيرابيوم .

وفى مواجهة حى القصور الملكية وعلى صخرة شرقى جزيرة فاروس شيدت منارة الاسكندرية المشهورة التى كانت احدى عجائب العالم القديم . وبرغم اندثار معالم هذا البناء الشامخ منذ عدة قرون فانه بفضل نتائج الأبحاث الحديثة نستطيع أن نكون فكرة تكاد أن تكون تامة عن هذه المنارة . ولقد كان يربط الجزيرة بصخرة المنارة جسر مائل يرتفع رويدا رويدا ويقوم على ستة عشر قوسا ويبلغ طوله ٦٨ مترا تقريبا. وشيد حول القسم الأول من المنارة ، لحمايته من طغيان البحر، سور ضخم يبدو انه كان يحيط بكل جوانبه من الخارج افريز لا يُعرف عرضه . وفى الوسط داخل هذا السور أقيمت المنارة نفسها ، وكانت تتألف من ثلاثة أقسام يعلوها المصباح . وكان القسم الأول رباعي والثانى ثمانى والثالث اسطوانى الشكل . أما المصباح فانه كان يتكون من ثمانية أعمدة تغطيها قبة أقيم عليها تمثال يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار تقريبا ، يرجح أنه كان تمثال پوسيدون اله البحار . وقد بنيت المنارة من الحجر وزخرفت بلوحات منحوتة من المرمر والبرونز .

واذا كان كليومنيس النقراطيسى هو أول من بدأ فى تشييد الاسكندرية فانه كان لبطلميوس الأول والثانى أكبر نصيب فى ذلك حتى ليبدو أنه فى عهد بطلميوس الثانى كانت المدينة قد استكملت أهم المظاهر التى اشتهرت بها فى عصر البطالمة والرومان . ومع ذلك فان كل البطالمة تقريبا قد أسهموا فى تجميل الاسكندرية .

ولم يتألف سكان الاسكندرية منذ فجر تاريخها من الاغريق والمقدونيين فقط ، اذ أن هذه المدينة بما توافر فيها من أسباب الكسب والحياة البهيجة الرغدة بوصفها عاصمة البطالمة وثغرا مهما ومركزا صناعيا كبيرا جذبت اليها الناس من كل فج وغدا سكانها سريعا خليطا عجيبا من مختلف الأمم مما جعل استرابون يصفها بأنها « خزان عام » . واذا كان من العسير تتبع ما مر بسكان الاسكندرية من تطورات فانه يمكن الجزم على الأقل بأمرين : أحدهما انهم كانوا مجموعة جاليات من أجناس مختلفة يستمتع بعضها بقدر من الاستقلال الذاتى . ولعل هذا هو ما حدا بالفيلسوف فيلون الى القول بأن الاسكندرية « عدة مدن داخل مدينة واحدة » ، والأمر الآخر انهم كانوا ينقسمون دائما طبقات تأتى فى مقدمتها : طبقة المواطنين ، وكانت تتألف من أفراد أقدم الأسر الاغريقية وأعظمها شأنا ، وكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة . ومثل ما كانت الحال فى أكثر المدن الاغريقية كان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات .



لوحة من الفسيفساء وجدت فى الدلتا والآن فى متحف الاسكندرية ، وهى تصور الاسكندرية بوصفها سيدة البحار . وقد صورت الاسكندرية فى شكل سيدة ترتدى عباءة حربية وتزين رأسها بتاج بحرى وتمسك فى يدها اليسرى زينة مؤخر سفينة .

والرأى السائد اليوم أنه فى عهد البطالمة الأوائل كان لطبقة المواطنين مجلس للشورى Boulé وجمعية شعبية ، لكن يبدو آنه فى عهد أحـــد البطالمة الأواخر ألغيت هاتان المنظمتان اللتان كانتا تعتبران من أهم مظاهر الحياة العامة فى المدن الاغريقية . ولما كانت الاسكندرية تتمتع باستقلالها الذاتى وكان الاستقلال السياسى يستتبع حتما وجــود استقلال قضائى ، فانه كانت للاســكندرية محاكم مستقلة .وبوصف الاسكندرية مدينة مستقلة كان لها حكامها المحليـــون الذين ينتخبهم أفراد طبقة المواطنين . .

٢ ـ نقراطيس

أما نقراطيس ، تلك المدينـــة الاغريقية القديمة التى تأسست فى عهد ابسمتيك الأول فانها كانت شديدة الشبه فى مظهرها الخارجى بأى بلد مصرى ، فقد كانت تتألف من بيوت مبنية من اللبن على جوانب شبكة معقدة من الشوارع والأزقة . لكن نقراطيس مثـــل الاسكندرية وبطوليميس كانت تختلف عن المدن المصرية اختلافا بينا من الناحية السياسية اذ أن مدن مصر الاغريقية لم تخضع للسلطة المحلية ، وان لكل مدينة منها كيانها المستقل ودستورها الذى يكفل لمواطنيها حقـــوقا سياسية تمكنهم من الاشــــــتراك فى حكم مدينتهم وتحد من استبداد السلطة المركزية وممثليها .وتشير القرائن الى أن نقراطيس قد احتفظت فى عصر البطالمة بنظمها بوصــفها مدينة اغريقية حرة . ويسود الاعتقـــاد أن دستورها كان يشبه دستور مسيليا Masslia ويمتاز بمجلس أرستقراطى . وقد كان طبيعيا أن تتضاءل أهمية نقراطيس التجارية بعـــد تأسيس الاسكندرية لكن مخلفاتها الأثرية تدل على أنها كانت لا تزال مزدهرة فى عصر البطالمة الذى احتفظت فيه كذلك بثقافتهـا الاغريقية وأنجبت عددا من أبرز رجال الأدب الاغريقى .

٣ ـ بطوليميس

أما بطوليميس التى أنشـأها بطلميوس الأول غربى النيــل فى أقاصى الصـــعيد (المنشاة بالقرب من أخميم) لتكون مهـدا للحضارة الاغريقية فى الوجه القبلى ومركزا لمقاومة نفوذ العاصمة المصرية القديمة طيبة ، فقد عفا عليها الزمن الى حد أنه يتعذر علينا الجـــزم اذا كانت تشــــبه نقــــراطيس أو الاســــكندرية ، وان كان الأرجح أن مهنـدسى بطلميوس الأول اتخـــذوا من الاســكندرية نموذجا يحتذونه فى تشــييد بطوليميس .

ولا تدع الوثائق سبيلا الى الشك فى أن بطوليميس كانت تنعم بكل النظم الدستورية المألوفة فى المدن الاغريقية ، فقد كان لهـا مجلس شــــورى وجمعية شعبية ومحاكم مستقلة وحكام تنتخبهم هيئة المواطنين . وكان المواطنون ينقسمون قبائل وأحياء ووحدات ويتوافر لديهم ما كانوا يتمتعون به فى بلادهم الأصلية من المعابد والمعاهد والمسارح .

ثالثا ــ السلطة المحلية

أخذ البطالمة عن الفراعنة نظـام تقسيم البلاد الى مديريات ، فقسموا الدلتا ووادى النيـل ــ فيما عدا المناطق التى خصصت للمدن الاغريقية ــ الى مديريات ، كان كل منها يؤلف وحدة ادارية منفصلة عن الأخرى واستحدث البطالمة من التعديلات فى التفاصيل ما يضمن لهم حسن تطبيق هـــذا النظام والسيطرة على البلاد سيطرة تامة . ومن أمثلة ذلك انه حتى الفتح المقدونى كان يحكم كل مديرية مدير Nomarch لكن البطالمة لم يلبثوا أن اعتبروا كل مديرية منطقة عسكرية يسيطر عليها قائد Strategos أجنبى ومدير . ولما كان من اختصاص القائد الاشراف على شـئون المنطقة العسكرية والمدينة جميعا ، فقد أصبح المدير مرءوسا للقائد وتضاءلت أهميته حتى لم يعد له فى القرن الثانى قبل الميلاد نصيب فى الادارة .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عـــدد متفاوت من الأقاليم topoi . وكمـا كان لكل مديرية عاصمتها كذلك كان لكل اقليم عاصمة حيث تتركز ادارته ، وكان كل اقليم ينقسم الى عـــدد من القرى Komai ، كان لكل منها حاكمها الادارى epistates وممثلو الادارة المالية . وكان يشترك فى ادارة شئون القرية جماعة من شيوخها كانوا يعرفون فى خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد باسم شيوخ المزارعين أو شيوخ مزارعى الملك .

ويجدر بالملاحظة أولا أن مديرية الفيوم وكان ثلثا سكانها من الاغريق ، قد اختصها البطالمة بنظم لم تعـــرفها باقى المديريات ، اذ كانت تنقسم ثلاثة أقسام merides على رأس كل قسم منها ابيستاتس . وحـوالى منتصف القـرن الثالث قسمت الأقسام الى نومارخيـات ، والنومارخيات الى أقاليم ، والأقاليم الى قرى . وثانيا ان المنطقة الممتدة من الحدود الجنوبية لمديرية هرموپوليس حتى أسوان كانت تعرف باسم منطقة طيبة ، وأنها منذ عهد بطلميوس الخامس وضعت تحت سلطة حاكم عـام ، وذلك فضلا عن تقسيمها الى عدة مديريات أسندت ادارتها الى عدد من القواد كان لكل منهم نائبه على رأس كل مديرية تقع فى دائرة اختصاصه . وثالثا ، ان بطلميوس الخامس ذهب الى حد اقامة حاكم عام على كل أقاليم مصر بسبب ما ساد البلاد من اضطراب . ومرد النظـام الاداري الذى انفردت به منطقة طيبة وزيدت فيه القيود والضوابط الى الثورات القومية التى اندلع لهيبها على عهد البطالمة الأواخر وكانت مدينة طيبة أهم معاقلها .

رابعا ــ قوات البطالمة

١ ــ الجيش

عرفنا أن مصر كانت جزءا من امبراطورية الاسكندر التى اقتسمها قواده بعد وفاته ، وأن بعض هؤلاء القواد أرادوا بسط سلطانهم عـــلى الولايات الأخـــرى ليبعثوا تلك

الامبراطورية من جديد ، وأن بطلميوس الأول كان ينشد الأستقلال بمصر وبناء دولة قوية غنية فيها . ولذلك رأى هذا العاهل ضرورة تكوين جيش وأسطول قويين يمكنانه من الذود عن حياض مملكته ومن تحقيق أهدافه الخارجية .

وقد اتخذ بطلميوس من القوات التى كان الاسكندر قد تركها فى مصر نواة لبناء قوات أكبر من ذلك وأعظم . واذا كنا لا نعرف كيفية تكوين الجيش البطلمى فاننا نعرف على الأقل انه بعد ما تم تكوينه كان يتألف من ثلاث فئات رئيسية وهى : الفرق النظامية والفرق المرتزقة والفرق المصرية . وتشير القرائن الى أن أكثر أفراد الفرق النظامية كانوا يجندون من مختلف أنحاء شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة . ومع ذلك فان هذه الفرق كانت تدعى مقدونية بسبب انها كانت فى الأصل كذلك ، وبسبب اعتزاز البطالمة بأصلهم المقدونى ، ولا سيما ان الجيش كان يعتبر قبل كل شىء جيش الملك بطلميوس. وتدل الوثائق على أن الفرق النظامية كانت قسمين وهما فرق الفرسان وفرق المشاة ، وعلى أن فرق الفرسان كانت مرتبتين : أولاهما أرفع مكانة من الثانية . وقد كانت فرق المرتبة الأولى تميز بالأرقام ، أما فرق المرتبة الثانية فانها كانت تميز بحسب جنسية أفرادها . وكانت فرق المشاة النظامية تميز بالأرقام وتعتبر أقل مرتبة من فرق الفرسان النظامية وتكون قلب الجيش الى ما قبل معركة رفح فى عام ٢١٧ ق . م .

وكانت الفرق المرتزقة فى جيوش الاسكندر وخلفائه فئتين رئيسيتين . أما الفئة الأولى فتشمل تلك الفرق القومية التى كانت تحتفظ فى الجيش الذى تنضم اليه بملابسها وأسلحتها القومية وتدمج فى ذلك الجيش بسبب نوع السلاح الذى اشتهرت به . وكانت هذه الفئة تكون فرق مشاة خفيفة العدة وتعرف أحيانا باسم سلاحها وأحيانا باسم جنسيتها وأحيانا بالاسمين معا . أما الفئة الثانية فانها كانت تتكون من أولئك الجنود المرتزقة الذين كان يجندهم ضباط مرتزقة اما من بين مواطنيهم واما من أسواق الجنود المعروفة فى العالم الاغريقى . وكان يمكن استخدام جنود هذه الفئة مشاة أو فرسانا . واذا كان الجنود المرتزقة لا يتعاقدون فى الأصل الا على القيام بحملة واحدة ضد عدو معين فانه فيما يبدو أصبح بعض الجنود المرتزقة يكونون فرقا دائمة فى خدمة البطالمة .

وحين وفد بطلميوس على مصر وأخذ يشيد فيها صرح مملكته كانت لا تزال توجد تلك الطبقة الوراثية من المحاربين المصريين . ومن ناحية أخرى كانت تحت امرة منافسى البطالمة جيوش وأساطيل مؤلفة من خيرة جنود العصر وأعنى المقدونيين والاغريق ، الذين أثبتت حملات الاسكندر وخلفائه



نموذجان من الحجر الجيرى للخـــوذات المقدونيه ، عثر عليها بين أطـلال منف (ميت رهينة) حيث وجدت نماذج مماثلة كثيرة ٠



جزء من الخوذة التى توجد الى اليسار فيالصورة العليا ٠ لاحظ تفاصيل الزخرفة ٠

تفوقهم على محاربين ممتازين كالفرس . فماذا فعل البطالمة ؟ لا شك فى أن البطالمة الثلاثة الأوائل اعتمدوا الى أقصى حد فى تكوين جيوشهم على المقدونيين والاغريق لثقتهم فى كفايتهم ، ولخوفهم من ألا يخلص المصريون الطاعة لهم ، ولرغبتهم فى عدم استنهاض همة المصريين وانعاش روحهم القومية ، فالجيش فى كل دولة وفى كل عصر قلب الأمة النابض ، لكن لابد من أن أولئك البطالمة كانوا يخشون أيضا اغفال أمر الجنود المصريين كلية ، وذلك لكيلا ينشر أولئك الجنود روح التذمر فى البلاد . فكيف حل البطالمة الأوائل هذه المشكلة ؟ يبين ان البطالمة الثلاثة الأوائل لم يسرحوا الفرق المصرية لكنهم كانوا لا يعتمدون عليها فى القتال بل يعهدون الى بعضها بأعمال النقل وما أشبه ذلك من الأعمال الثانوية ويسلحون بعضها الآخر بالأسلحة الخفيفة أو بأسلحتها المصرية العتيقة استعدادا للطوارىء فى حالة الضرورة القصوى ، الى أن تهددت بطلميوس الرابع أزمة خطيرة فى وقت نضب فيه معين الرجال فى بلاد الاغريق ، ونقص فيه عدد الجنود الأجانب الذين كان البطالمة قد أنزلوهم فى مصر ، فاضطر بطلميوس الرابع ، لمواجهة هذه الأزمة ، الى تدريب المصريين وتسليحهم مثل الاغريق والمقدونيين وتكوين قلب الجيش منهم . ويحدثنا پوليبيوس بأن ما فعله بطلميوس الرابع كان عملا صائبا فيما يخص الحاضر لكنه كان بدعة خطيرة تتهدد المستقبل . ووصف عمل بطلميوس الرابع بأنه بدعة يدل على أنه لم يسبقه الى ذلك أحد من البطالمة . والخطر الكامن فى هذه البدعة هو ان انتصار المصريين فى معركة رفح على قلب جيش أنطيوخوس المؤلف من الاغريق والمقدونيين أشعل روح الوطنية الكامن فى صدور المصريين وأعاد اليهم الثقة بأنفسهم فانتفضوا ثائرين على البطالمة .

واذا كان المصريون قد أدمجوا فى صلب الجيش على عهد بطلميوس الرابع فانهم كانوا يؤلفون فرقا مستقلة بهم واستمروا يكونون جزءا مستقلا من الجيش حتى نهاية أسرة البطالمة فيما يبدو . ولابد من أن ثورات المصريين على البطالمة الأواخر قد جعلت هؤلاء البطالمة يأسفون على بدعة بطلميوس الرابع ، وذلك لأنهم لم يعتمدوا ثانية على المصريين فى تكوين قلب الجيش ، لكنهم لم يجرأوا على اخراج المصريين من الجيش .

٢ ـ الاسطول

لما كان البطالمة الأوائل قد بنوا امبراطورية بحرية واسعة وأحرزوا انتصارات بحرية كبيرة ، فلا سبيل الى الشك فى أنه كان لهم أسطول بحرى قوى ، لكن ليست لدينا معلومات عن كيفية تكوين هذا الأسطول ولا عن قوته فى العهود المختلفة .

وعلى كل حال يجب أن نفرق بين عنصرين من رجال الأسطول وهما : عنصر المجذفين وعنصر المحاربين . وحيث ان بحارة الأساطيل القديمة كانوا يتألفون من أدنى طبقات السكان ، وان البطالمة وضعوا المصريين فى أسفل الدرك ، فلابد من أن بحارة الأسطول البطلمى كانوا يتألفون من المصريين وهذا هو ما تؤكده الوثائق . ولما كان البطالمة الأوائل قد وضعوا جل اعتمادهم على المقدونيين والاغريق فى تكوين قواتهم البرية فلابد من أنهم فعلوا الشىء نفسه فى تكوين

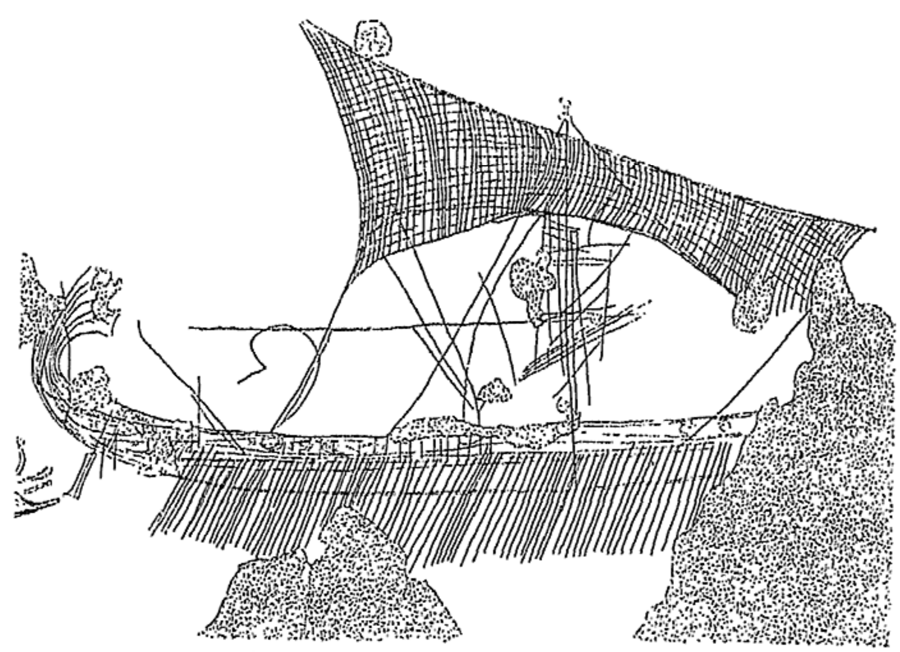
قواتهم البحرية ، اذ لا يعقل ألا يعتمد أولئك البطالمة على المصريين فى تكوين قواتهم البرية ثم يعتمدون عليهم فى تكوين قواتهم البحرية . وعنــدما أدمـــج البطالمة المصريين فى صلب الجيش منذ عهد بطلميوس الرابع ، لا يبعد أنهم فعلوا ذلك أيضا فى الأسطول . ومــع ذلك فاننا نعتقد أنه كما كان الحال فى الجيش، كان أكثر جنـــود البطالمة البحريين وأرفعهم مقاما ، حتى بعد عهد بطلميوس الرابع ، من الاغريق ومن على شاكلتهم .

٣ ـ الشرطة

وكان رجـــال الشرطة يتصلون بالجيش اتصالا وثيقا ، اذ أنه منذ القرن الثالث كان يوجد بين رجال الشرطة محاربون مصريون ، ومنذ القرن الثانى كان رجـــــال الشرطة يساهمون فى تكوين القوات المحاربة .

ويمكن تقسيم رجال الشرطة بوجه عام ثلاث فئات رئيسية ، وهى : أولا ، أولئك الذين كانت مهمتهم ضمان الاحترام اللازم لكبار الموظفين والدفاع عنهم اذا اقتضى الأمر. وثانيا ، رجال الشرطة بأدق معانى الكلمة . وثالثا فئة يقوم أفرادها بمهام مختلفة يصعب تحديدها .

ويبدو أنه فى القرن الثالث كان الضباط وأرفع رجال الشرطة مقاما من الاغريق ، ثم أفسحت صـــفوفهم تدريجا للمصريين . أمـــا رجال الشرطة العاديون فانهم كانوا فى الغالب من المصريين منذ القرن الثالث ، وكان رجال الشرطة المصريون يمنحون اقطاعات متواضعة منـــذ بداية الأمـــر ، أما غير المصريين فانهم كانوا يمنحون مرتبات ، لكن يبدو أنه بمضى الزمن أخذ يتسع نظام منح اقطاعات لرجال الشرطة حتى شملهم جميعا ، ســـواء أكانوا مصريين أم غير مصريين .



هذه صورة احدى سفن ثلاث خططها شخص فى جـدار منزل ديونيزوس فى ديلوس . والصورة تمثل سفينة حربية اغريقية مما كانت تمخر عباب بحر ايجـــه فى أواخر العصر الهيلينستى .

الفصل الثالث — سياسة البطالمة الدينية

لقد عرفنا كيف كان البطالمة يعتبرون أنفسهم سادة مصر بحق الفتح ، لكن لكى يكون سلطانهم دائما وسيادتهم راسخة رأوا أن يقيموا حكمهم كذلك على حق الملوك الالهى ، وأن يحترموا المعتقدات الدينية السائدة بين كافة رعاياهم ، ولذلك كان التسامح الدينى أبرز ما تتصف به سياسة البطالمة الدينية بوجه عام .

أولا — البطالمة والمصريون

١ — اتخاذ صفات الفراعنة

لما كان المصريون يعتبرون فرعون واهب النعم والحياة ومالك الأرض والسيد المطلق على أهليها ، فقد كان من الفطنة واصالة الرأى أن يتخذ البطالمة صفات الفراعنة ، ليتمتعوا بمكانتهم العظيمة وسلطاتهم الشاملة المطلقة ، ويكسبوا ولاء المصريين ويصبغوا مركزهم بصبغة شرعية فى نظرهم ، ولا سيما أن الاسكندر الأكبر كان قد رسم نفسه فرعونا فى منف ، وحمل ثلاثة من الألقاب الخمسة التى درج الفراعنة على حملها منذ غابر الزمن . وتشير القرائن الى أن البطالمة اتخذوا صفات الفراعنة بالتدريج ، ففى الوثائق الهيروغليفية والديموتيقية ما يثبت أن بطلميوس الأول قد حمل بعض ألقاب الفراعنة التقليدية ، وان بطلميوس الثانى والثالث قد حملا هذه الألقاب جميعا . ويستخلص من القرار الذى أصدره الكهنة فى منف عقب موقعة رفح أن بطلميوس الرابع قد ذهب الى مدى أبعد من أسلافه فى التشبه بالفراعنة ، فهو لم يكتف بحمل كافة ألقاب الفراعنة التقليدية بل انه توج أيضا على نهج الفراعنة القدماء ، فكان بذلك أول ملك من ملوك البطالمة اتخذ صفات الفراعنة كاملة . وقد كان طبيعيا أن يقتفى سائر البطالمة المتأخرين أثر بطلميوس الرابع لأنهم كانوا جميعا ملوكا ضعافا ويعملون على مسالأة المصريين .

٢ — احترام الديانة المصرية

وازاء رغبة البطالمة الملحة فى أن يظهروا أمام المصريين فى ثوب الفراعنة الحقيقيين اعترفوا بالديانة المصرية دينا رسميا ، وسمحوا للمصريين بحرية عبادة آلهتهم القديمة . ولكى يثبتوا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية حذوا حذو الفراعنة فى تقديم القرابين للآلهة الوطنية ، ومنح المعابد هبات مالية وعقارية وكذلك حق حماية اللاجئين اليها ، وانشاء المعابد والهياكل أو اصلاحها وزخرفتها ،

وتصوير أنفسهم على جدرانها وكذلك على النقود والأحجار الكريمة فى شكل آلهة مصرية .

ان نبوءة مثل نبوءة « صانع الفخار » التى تتحدث عن تحرير الوطن واجلاء الأجانب واعادة العاصمة الى منف واقامة فرعون وطنى لتعبر تعبيرا بليغا عما كان يجيش فى صدور المصريين من الآلام والآمال وتصور لنا حقيقة مشاعرهم نحو هؤلاء الفراعنة الجدد . وان دلت هذه النبوءة على شىء فهى تدل على أنه مهما أنفق البطالمة من جهد فى الظهور أمام المصريين فى ثوب أسلافهم الفراعنة الوطنيين فان قلوب المصريين لم تطمئن اليهم ولم تعتبرهم فراعنة حقيقيين ولم تر فى الاسكندرية عاصمة للبلاد . فلا عجب ان كان المصريون يتوقون الى فرعون وطنى يقيم فى عاصمة وطنية بعد أن يحرر الوطن من مغتصبيه الأجانب .

٣ ـ موقف البطالمة من الكهنة المصريين

كان رجال الدين المصريين يحتلون منذ عهد بعيد مركزا رفيعا وأهمية خطيرة فى حياة البلاد ، يحسب الملوك حسابهم ويعتبرهم الأهالى مرشديهم وزعماءهم الروحيين ، يستمعون الى نصحهم وينزلون على ارادتهم . وازاء ذلك استقر رأى البطالمة على أن يتخذوا منهم أداة لنشر الهدوء والسكينة فى البلاد ، ولذلك فانهم حين أظهروا اجلالهم واحترامهم للديانة المصرية استنوا من النظم ما يكفل تقليم أظافر رجال الدين وخضوعهم لهم . وقد كان العامل المادى من أهم الوسائل التى لجأ البطالمة اليها للحصول على طاعة القساوسة فانهم أسندوا ادارة أراضى المعابد الى الحكومة ، واستولوا على دخل الضريبة التى كانت المعابد تجبيها من زارعى الكروم والفاكهة والبقول ، وألغوا احتكار المعابد وصناعتى الزيت ونسج الكتان لكى يقللوا من قوة الكهنة ويبسطوا لهم أيديهم أو يكفوها تبعا لموقف الكهنة منهم .

ويبين أن تضييق الخناق على الكهنة قد زج بهم فى صفوف الثوار مما حدا بالبطالمة الأواخر الى محاولة كسب ود الكهنة بشتى الوسائل . ومع ذلك يبدو من تجويد المنح للكهنة فى عهود مختلفة بل فى العهد الواحد نفسه ان الكهنة لم يفلحوا فى استرداد كل حقوقهم وامتيازاتهم السابقة التى كان البطالمة الأوائل قد سلبوهم اياها . وذلك لأنه عندما ضعفت السلطة المركزية وفسدت الأداة الحكومية كثيرا ما عجزت السلطة المركزية عن حمل الموظفين على تنفيذ قراراتها .

ويبدو أن الكهنة قد انقسموا فرقا وأشياعا ازاء سياسة البطالمة نحوهم ، اذ حين كانت العلاقات متوترة بين البطالمة وكهنة آمون فى طيبة كانت العلاقات حسنة بين البطالمة ومنافسى أولئك الكهنة ولا سيما كهنة منف .

ثانيا ــ البطالمة والاغريق

١ ــ عبادة البطالمة عبادة اغريقية عامة

وكما عنى البطالمة بكسب ولاء المصريين وودهم عنوا أيضا بكسب ولاء الاغريق وعطفهم . وقد كان الاغريق يدينون للبطالمة بالامتيازات التى منحوها ، لكن لما كانت غالبيتهم رجالا أحرارا نشئوا فى جمهوريات اعتادوا الاشتراك فى حكمها ، وكانت مصر فى عهد البطالمة ملكية تقوم على حكم الفرد المطلق ، فقد لجأ البطالمة لتبرير مركز هذا الحاكم المطلق الى انشاء عبادة الملوك عبادة اغريقية رسمية عامة فى الدولة حتى لا يرى الاغريق غضاضة فى تمتع أولئك الملوك بتلك السلطة المطلقة .

وبرغم ما يكتنف انشاء هذه العبادة من الغموض ، فاننا نستطيع أن نتبين أربع خطوات . أما الخطوة الأولى فقد خطاها بطلميوس الأول عندما جعل عبادة الاسكندر الأكبر دينا اغريقيا رسميا عاما فى مصر ، له كاهن مقدونى أو اغريقى يتمتع بمكانة رفيعة ويعينه الملك كل عام وتؤرخ باسمه كافة الوثائق فى طول البلاد وعرضها ، سواء ما كان منها مكتوبا باللغة الاغريقية أم المصرية ولما كان بطلميوس خليفة الاسكندر فى حكم مصر ، فقد أصبحت سلطته بعد تأليه الاسكندر مستمدة من مصدر الهى ، وبذلك حق له أن يتمتع بالسلطة الشاملة فى مملكته . وفضلا عن ذلك فان بطلميوس قد وضع على هذا النحو سُنّة تأليه حاكم مصر بعد وفاته ، وسنرى توا الآثار البعيدة التى ترتبت على اتباع هذه السنة .

وتشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثانى هو الذى خطا الخطوة الثانية فى هذه العبادة . وقد كان أول ما فعله هذا الملك انه اتبع سُنة أبيه ، فرفعه الى مصاف الآلهة بعد وفاته . ولم يكن ذلك بدعة فقد كان الاغريق يألفون تأليه موتاهم الذين أسسوا مدنا حرة ، وبطلميوس الأول لم يؤسس مدينة فحسب بل مملكة عظيمة . ويبدو أنه عندما توفيت برينيكى أم بطلميوس الثانى أشركها فى العبادة مع أبيه المؤله .

وقد مهد تأليه بطلميوس الأول السبيل لتأليه سلالته ، لأن تأليه رأس أسرة البطالمة أكسب سلالته صفة غير عادية سمت بهم فوق مستوى سائر البشر ، فلم يكن عسيرا عليهم بعد ذلك أن يرفعوا أنفسهم الى صف مؤسس هذه الأسرة . لكن على حين أن بطلميوس الأول وزوجه رُفعا الى مرتبة الألوهية بعد وفاتهما رُفع سلالتهما من ملوك مصر الى هذه المرتبة فى حياتهم واحتفظوا بها بعد مماتهم . ولم يعد اليوم سبيل الى الشك فى أن بطلميوس الثانى رفع نفسه وزوجه الى مصاف الآلهة فى أثناء حياتهما وعُبد الاثنان معا باسم الالهين الأخوين (ادلفوى Adelphoi) ، وأقيم لهما معبد خاص فى الاسكندرية وقُرنت عبادتها بعبادة الاسكندر

الرسمية العامة فكان يشرف علـى طقوس العبادتين كاهن واحد أصبح لقبه عنـــدئذ « كاهن الاسكندر والالهين الأخوين » ؛ على حين أن عبادة بطلميوس الأول وزوجه برينيكي لم تقرن بعد مع عبادة الاسكندر .

وقد خطا بطلميوس الثالث الخطوة الثالثة فانه سمح باستمرار قرن الالهين الأخويين فى العبادة مع الاسكندر بعد وفاتهما ، ولذلك عندما اقتفى خطوات أبيه ورفع نفسه وزوجه فى حياتهما الى مصاف الآلهة قرن عبادتهما بعبادة سلفيهما والاسكندر . فكانت هذه هى المرة الأولى التى تقرن فيها عبادة الملك الحاكم وزوجه بعبادة سلفيهما وعبـــادة الاسكندر . ومنـــذ ذلك الوقت أصبحت القـاعدة ان كل بطلميوس وزوجه يرتقيـان العــرش يؤلهان ويخلع عليهما لقب الهى يميزهما عن غيرهما من البطالمة المؤلهين وتقرن عبادتهما بعبادة أسلافهما وعبادة الاسكندر ، فنشأت على مر السنين وتعاقب ملوك وملكات البطالمة سلسلة جديدة من الآلهة . وعنـدما لاحظ بطلميوس الرابع ان سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون مع الاسكندر الأكبر فى العبادة الرسمية العامة تبدأ ببطلميوس الثانى وزوجه ، على حين انه كان من حق مؤسس الأسرة وزوجه أن يكونا فى المقدمة ، خطا الخطوة الأخيرة فى تحويل هذه العبادة الى عبادة أسرية بوضـع بطلميوس الأول وزوجه عـلى رأس سلسلة البطالمة المؤلهين الذين يقرنون فى العبادة مع الاسكندر .

٢ ـ احترام الديانة الاغريقية

وقد كان البطالمة مثل غيرهم من المقدونيين اغـريقا فى كل نواحى حياتهم : فى ثقافتهم ودياناتهم والى حد كبير فى أسمائهم ، بل انهم ادعوا انهم من سلالة الآلهة الاغريقية . وازاء عواطفهم الدينية وأصلهم السماوى الاغريقى وتعاليمهم الاغريقية ، كان طبيعيا أن يظهروا احترامهم للديانة الاغـريقية ويعترفوا بهـا ديانة رسمية فى دولتهم .

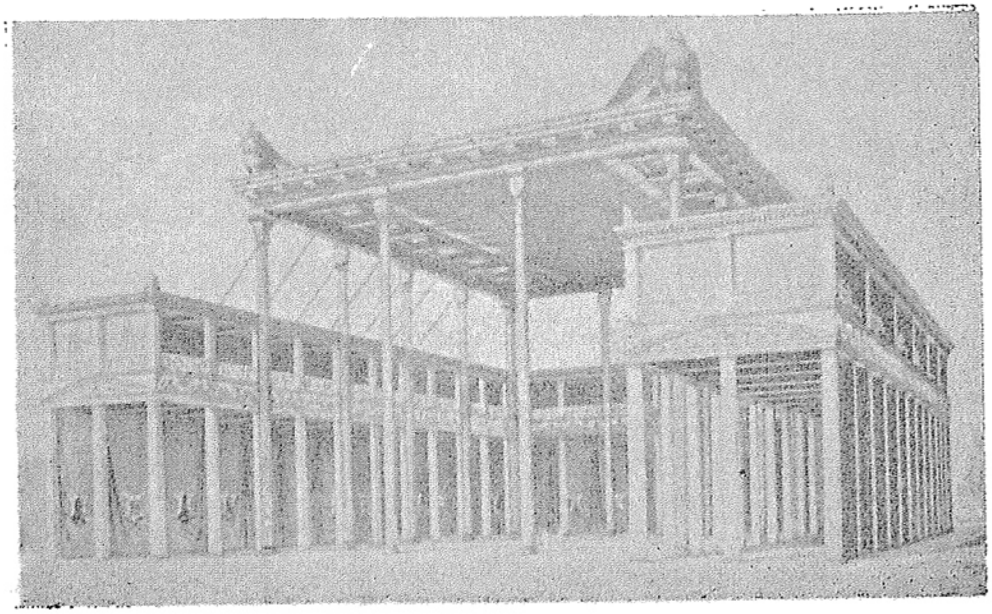
وفضـلا عن كل ذلك كان يوجد دافع سياسى له وزن كبير فى نظر البطالمة ، فقـد كانوا فى حاجة الى رجال ورءوس أمـوال من بلاد الاغريق لتحقيق مشروعاتهم الخارجية والداخلية . ولذلك كان يتعين عليهم كسب عطف الاغريق ، بأن يظهروا أمامهم فى ثوب حماة الحضارة الاغريقية ، وأن يثبتوا للملأ أجمع اجلالهم للديانة الاغريقية . فلم يكتف البطالمة بالاعتراف بالديانة الاغريقية دينـا رسميا فى مصر ، بل أسبغوا عليها شتى مظاهر العطف ، فشيدوا المعابد لآلهتها ، ومنحـوا الضياع لمعـابدها ، وأباحوا للاغريق حرية اقامة شعائرها ، وأقاموا صلات وثيقة مـع أشهر مراكز العبادة فى بلاد الاغريق ، وأنشئوا حفلات دينية على نمط الحفلات الدينيـة الأوليمبية أو الحفلات الأثينية الجامعة ، كان يحج اليها الشعراء والمتبارون من كافة أنحاء العالم الاغريقى . وتصور لنا أشـعار ثيوكريتوس كيف كانت تتجاوب فى شوارع

الاسكندرية فى أثناء اقامة هذه الحفلات اصداء مختلف اللهجات الاغريقية . وتدل الآنية الجنائزية التى عثر عليها فى الاسكندرية وكانت تضم رماد جثث بعض المبعوثين الرسميين الى هذه الحفلات انهم توفوا فى الاسكندرية فى أثناء أداء واجبهم الرسمى .

وكانت أهم هذه الحفلات حفلات البطوليمايا Ptolemaea التى أنشأها بطلميوس الثانى تخليدا لذكرى أبيه المؤله . ويحتمل أن هذه الحفلات التى كانت مثل الحفلات الأوليمبية تقام كل أربع سنوات ، قد أقيمت لأول مرة فى عام ٢٧٩ ق . م . بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة بطلميوس الأول . ويبدو أن المهرجان الذى وصفه كاليكسنوس Callixenos كان بمناسبة احياء هذا الحفل أول مرة .

وقد بدأ كاليكسنوس وصفه الرائع بوصف قاعة الولائم وكانت على شكل سرادق مستطيل شيدت أربعة من أعمدته المصنوعة من الخشب على طراز مصرى فى شكل النخيل . ولم يدخر الملك جهدا ولا مالا فى تجميل هذه القاعة وتزيينها ، فقد علقت حولها ستائر مزركشة وجلود حيوانات مفترسة وصفت على جانبيها مائة أريكة موشاة بالذهب وفرشت أرضها بالطنافس الفارسية ونثرت بالورود والأزهار وزين السرادق بأبدع ما أخرجه المبرزون من المثالين والمصورين وأجمل ما ابتكره أمهر الصناع من الأقمشة المزركشة بالذهب والدروع الموشاة بالذهب والفضة ووضعت فى مكان بارز من السرادق أريكة عرضت عليها آنية كثيرة من الذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة .

ويحدثنا كاليكسنوس بأن المهرجان أقيم فى مضمار السباق ودام من الصباح حتى

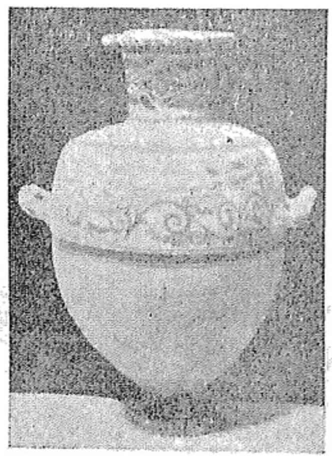


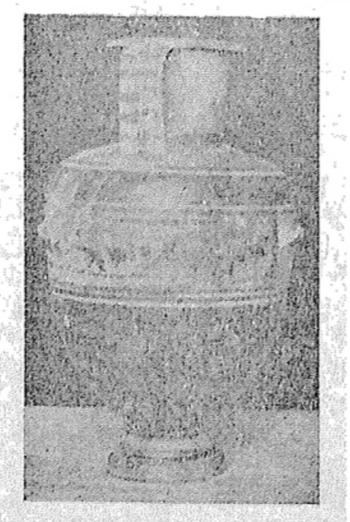
خوان ولائم بطلميوس الثانى على نحو ما وصفه كاليكسينوس وتصوره أحد العلماء المحدثين

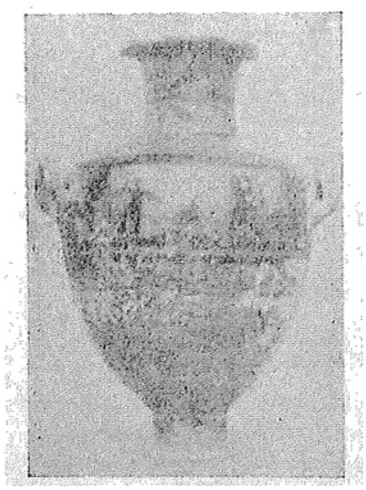
الليل ، ولذلك كان يتقدمه ذلك القسم من المهرجان الذى يمثل نجم الصباح ، ويأتى فى المؤخرة القسم الذى يمثل نجم المساء . وقد تبع نجم الصباح القسم الخاص ببطلميوس الأول وزوجه المؤلهين ، ثم تلت ذلك أقسام أخرى خصص كل منها لاله واحد أو أكثر ، وكان أحدهما للاله ديونيسوس، وآخر للالهين الاسكندر الأكبر وبطلميوس الأول ، وآخر للاله زيوس وغيره من الآلهة ، وكان يصور كل قسم جمهرة من التماثيل والأشخاص تحملهم عربات يتقدمها ويسير خلفها أعداد غفيرة من النساء والرجال والأولاد ، يمثل بعضهم مناظر من القصص الدينية الاغريقية ، ويرتدى بعضهم الآخر أبهى الثياب ويحملون أكاليل الورد أو آنية من الذهب أو الفضة تفيض بالنبيذ أو المأكولات أو البخور أو العطور .

وقد عرضت فى المهرجان أنواع كثيرة من الحيوان والطيور النادرة واشترك فيه ٢٣٫٢٠٠ فارس و ٥٧٫٦٠٠ راجل كاملى العدة . ولعل القسم الذى يمثل عودة









صورة آنية جنائزية مما دفن فيها السفراءالأجانب الذين توفوا فى الاسكندرية عند تمثيل بلادهم فى حفل البطوليمايا .

ديونيسوس مظفرا من الهند كان أروع ما فى هذا المهرجان الفريد الذى كان يسوده روح اغريقى بحت ويغلب عليه طابع حفـــلات ديونيسوس . واذا كان ملك مثل بطلميوس الثانى لم يتصف بالسفه والاسراف بل عُرف بحرصه ودقة نظمه المالية قد أنفق على اقامة هذا المهرجان ما قيمته اليوم حوالى نصف مليون جنيه مصرى ، فان هذا يدلنا على مدى الأهمية التى كان يعلقها على اظهار اهتمامه بمظاهر الحياة الدينية الاغريقية وكذلك على استعراض دلائل ثراء دولته وقوتها أمـــام مبعوثى الدول الأجنبية .

ثالثا ـ الاغريق والديانة المصرية

وقد كان الاغريق ينظـــرون الى الديانة المصرية نظرة اجلال واحترام ، بسبب قـــدم عهـــدها وغموض أسرارها . ودرج الاغريق منذ عهـــد هيرودوتوس على تشبيه الآلهـــة المصرية بالآلهة الاغريقية ، لكن لا ريب فى أن هذا التشبيه لم يكن الا تشـــبيها سطحيا لم ينفذ الى أعماق عواطف الاغريق الدينية بحيث تحتل الآلهة المصرية مكان الآلهـــة الاغريقية ، وآية ذلك ان الاسكندر الأكبر والبطالمة شيدوا معابد مختلفة لكل من آلهة الاغريق وآلهة المصريين . وتشير القرائن الى أن اغريق مصر سواء أكانوا ينزلون فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارج تلك المـــدن قد استمسكوا بعبادة آلهتهم القديمة : زيوس وهيرا وديمتر وافروديتى وغيرها . ولعله قد ساعد على استمساك الاغريق بآلهتهم ، وعدم اقبالهم بوجه عام على الآلهة المصرية تصوير هذه الآلهة فى أشكال تجافى ذوقهم وعقليتهم وتصورهم لما يجب أن يتوافر فى صـــور الآلهة من صـــفات توائم مكانتها الرفيعة . ومع ذلك فان بعض الاغريق ، نتيجة لتلك التشبيهات ، وباعتبارهم نزلاء فى تلك البلاد التى تتمتع بحماية هذه الآلهة ، رأوا من الفطنة واصالة الرأى كسب عطف هذه الآلهـــة . ولذلك فانهم عبدوا بعض الآلهة المصرية تحت أسماء اغريقية ، كما عبدوا أيضـــا بعضـــها الآخر بأسمائها المصرية حين لم تكن لهـــا مرادفات بين آلهتهم ، لكنها كانت تتمتـــع بمحبة كبيرة بين المصريين استرعت أنظـــار الاغريق ، ومثل ذلك بيس Bes وتورت Taurt وســـبك . ولا يبعد أن تبعد فريق من الاغريق للآلهة المصرية على هذا النحو قد أفضى الى مزج بعض الآراء الدينية الاغريقية بالآراء الدينية المصرية ، لكن يجب ألا نبالغ فى قيمة ذلك ، لأنه اذا كان بعض الاغريق لم يروا غضاضة فى بعض الأحيان فى عبادة الآلهة المصرية فان الاغريق جميعا لم ينقطعوا عن عبادة الآلهة الاغريقية حتى خارج المـــدن الاغريقية . فقد كان المجال متسعا أمامهـــم لعمل ذلك ، اما فى الجاليات أو الجمعيـــات الاغريقية أو فى بيوتهم الخاصة .

ومن ناحية أخـــرى استمسك المصريون على الدوام بدياناتهم ، التى كانوا يفاخرون بها

ويعتبرون المذاهب الاغريقية صورة مقنعة لها ، لكنها حديثة العهد ويشوبها كثير من النقص الى حد يستنفر مشاعرهم ضد اتباعها . فلا عجب انه لم يقم دليل واحد على أن الديانة الاغريقية استهوت ولو نفرا قليلا من المصريين .

رابعا ــ البطالمة وعناصر السكان الأخرى

١ ــ اليهود

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الاغريق فى دولة البطالمة . ويرجع استقرار اليهود فى مصر الى عهد بعيد يسبق عصر البطالمة كثيرا ، لكن عددهم ازداد زيادة كبيرة فى أعقاب الفتح المقدونى وكذلك بعد ضم فلسطين الى مصر فى بداية عصر البطالمة . وتشير المصادر القديمة الى انتشار اليهود فى مختلف أرجاء مصر ، لكن أكثرهم كانوا يعيشون فى الحى الرابع فى الاسكندرية . وكان يهود مصر يزاولون مختلف المهن والحرف ، وكان من بينها الاشتغال بالتجارة واقراض الأموال ، لكن ذلك لم يكن وقفا عليهم ولا عملهم الرئيسى . وقد منح البطالمة الجالية اليهودية فى الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتى لم يمنحوه لأى جالية أخرى فى أى مدينة اغريقية ، لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين .

وقد كانت السياسة الدينية التى اتبعها البطالمة بوجه عام ازاء اليهود ، تقوم على أساس التسامح الدينى الذى قامت عليه سياستهم الدينية ازاء المصريين والاغريق ، فانه باستثناء بطلميوس الرابع ، الذى أراد أن يفرض على اليهود عبادة ديونيسوس واضطهدهم عندما رفضوا الارتداد عن دينهم ترك سائر البطالمة الآخرين لليهود حرية العبادة .

ويبدو أن سياسة البطالمة بوجه عام كانت مشبعة بروح العطف على اليهود ، لأن فلسطين كانت واقعة بين شقى الرحى ، أو بعبارة أخرى كانت ميدان سلسلة من الحروب الضروس بين البطالمة ومنافسيهم السليوكيين ، الذين كانوا يتطلعون دواما الى حرمان مصر اياها . وبطبيعة الحال كان عطف البطالمة على يهود مصر يكسبهم تأييد يهود فلسطين ويساعدهم على تنفيذ سياستهم السورية .

٢ ــ الفرس

وتتحدث الوثائق عن كثيرين ممن يدعون « فرسا » أو « فرس السلالة » مع أن أقلهم فقط يحملون أسماء ايرانية ، على حين ان أكثرهم يحملون أسماء اغريقية أو مصرية أو اسما اغريقيا ولقبا مصريا . وتشير الوثائق الى وجود عدد كبير من الفرس بين الجنود وأبناء الجنود فى مصر البطلمية والى أن هؤلاء الفرس استمروا يكونون طبقة خاصة حتى فى العصر الرومانى . ومهما اختلف المؤرخون فى تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك فى أن الفرس كانوا يتمتعون بالحرية الدينية فى مصر البطلمية .

٣ ـ عناصر أخرى

وتشير القرائن الى أن سائر العناصر الأجنبية الأخرى التى استقرت فى مصر ، مثل التراقيين والفريجيين والسوريين والفينيقيين والعرب ، قد أحضرت معها عباداتها وآلهتها كما فعل الاغريق واليهود ، وانها قد تمتعت جميعا بحريتها الدينية فى ظل ذلك التسامح الدينى الذى كان أحد الدعائم الأساسية التى أقام عليها البطالمة سياستهم الدينية .

خامسا ـ ديانة سيرابيس

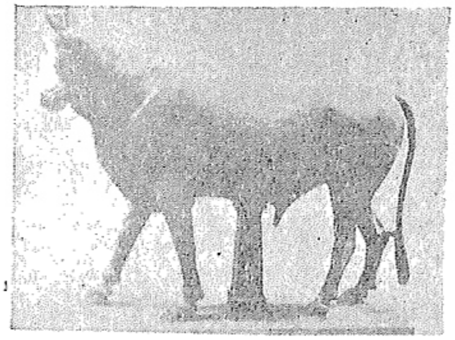
لما كان بطلميوس الأول يعتقد ان ثروة مصر تتوقف على مساهمة المصريين والاغريق معا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ، وان استمرار النفور الدينى الذى كان هيرودوتوس قد لاحظه من قبل لابد من أن يعوق الألفة بين الفريقين ، فانه رأى من الضرورى أن يؤلف بين قلوبهما بانشاء ديانة جديدة تكون رابطة وحدة ووئام بين المصريين والاغريق عندما يشتركون جميعا فى التعبد الى آلهتها ، وبذلك يدركون انهم يتعبدون الى نفس الآلهة وانما كل فريق منهم على النحو الذى كان يألفه . ولابد من أن بطلميوس كان يدرك أن تحقيق هدفه كان يتوقف على نجاح الديانة الجديدة فى أن تخلف ديانة المصريين والاغريق ، وهذا يفسر ذلك الاهتمام الكبير الذى وجهه هو وسلالته الى الديانة الجديدة .

ويحدثنا پلوتارك بأن بطلميوس الأول كون لجنة من علماء الدين المصريين والاغريق لتنفيذ فكرته . وقد استقر رأى اللجنة على أن يكون محور الديانة الجديدة ثالوثا يتألف من سيرابيس Serapis وزوجه ايزيس وابنهما هارپوكراتس Harpocrates ويتفق الجميع على أن ايزيس وهارپوكراتس كانا الهين مصريين . أما سيراپيس ، كبير آلهة الثالوث ، فقد تضاربت الآراء حول أصله ، لكن الرأى السائد اليوم انه كان أصلا الاله المصرى آوزيريس ابيس ، اله العالم الآخر فى منف الذى ترينا بردية ارتميسيا Artemisia ان الاغريق حتى قبل عهد بطلميوس الأول كانوا ينادونه باسم أوسيراپيس Oserapis . وعلى كل حال فان آلهة الثالوث قدمت للاغريق فى شكل اغريقى وللمصريين فى شكل مصرى يبدو التباين بينهما فى أجلى صوره فى حالة سيراپيس الذى قدم للاغريق فى شكل رجل كهل يشبه عن قرب الاله زيوس وأغدقت عليه كثير من صفات الآلهة الاغريقية ، على حين عبده المصريون فى شكل العجل ابيس ، وكان يعرف بعد وفاته باسم أوزيريس ابيس .

واذا كان بطلميوس الأول هو الذى أنشأ عبادة سيرابيس واخفاء الصورة التى قدم فيها هذا الاله لرعاياه الاغريق : فان الأدلة الأثرية تثبت ان بطلميوس الثالث هو الذى شيد المعبد الكبير الذى أقيم لهذا الاله فى حى راقوده بالاسكندرية على ذلك التل الذى



تمثال لسيرابيس .



تمثال للعجل أبيس أهـــداه
الامبراطور هادريان لسيرابيوم الاسكندرية .

لا يزال قائما حتى اليوم فى حى كرموز . وقد ذاعت شهرة مبانى هذا المعبد بما كانت تتضمنه من مكتبة وأروقة وأفنية تقوم فيها الأعمدة والتماثيل ويؤدى اليها سلم كبير يتألف من مائة درجة .

ولا جـدال فى أن الديانة الجديدة قد نجحت من حيث فوزها بعدد كبير من الاتباع فانها لم تنتشر فى مصر فقط بل انتشرت أيضا فى أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، ثم تخطت نطاقه ووصلت شرقا حتى الهند وغربا حتى بريطانيا . لكن النجاح الحقيقى لهذه الديانة يجب أن يقاس بمقدار ما أفلحت فى تأدية الغرض المنشود من اقامتها . فهل حققت هذا الغرض ؟ حقا ان المصريين عبدوا آلهة الثالوث المقدس ، ولكن فى ثوبها المصرى وباعتبارها فى عداد الآلهة التى ظلوا على ولائهم لهـا ، ولم تصبح يوما آلهة هذا الثالوث الآلهـة الوحيدة التى يتعبد المصريون اليها . وكذلك اعتنق الاغريق ديانة هذا الثالوث فقد قدمت لهم آلهته فى ثوب اغريقى بل على انها نظيرة لآلهتهم الاغريقية . ومع ذلك وبرغم ما أظهره الاغريق لآلهة الثالوث المقـــدس من رعاية واحترام فانهم لم ينصرفوا الى عبادتها دون غيرها ، بل ان هذه الآلهة لم تحتل المكان الأول فى عبـادتهم . وآية ذلك أنهم حيثما كانوا ينزلون فى كثرة ، سواء فى مدن مصر الاغريقية أم فى خارجها ، كانوا يقيمون المعابد لآلهتهم الاغريقية . ويكاد يكون من المحقق أن الديانة الحقيقية للاغريق طـــوال عصر البطالمة كانت الى حد عبادة آلهة المدن التى

أتوا منها ، والى حد كبير عبادة المذاهب ذات الأسرار التى كانت معروفة فى بلاد الاغريق وبين اغريق آســيا وانتشرت اذ ذاك فى كل أنحاء العالم الاغريقى ، مثــل مذهب ديمتر ومذهب ادونيس ومذهب ديونيســـوس تزاجريوس Zagreus .

ولا شك فى أن الديانة الجـــديدة قد تمتعت بمكانة كبــيرة ، لكن لما كانت تلك المكانة نتيجة لايحاء الحكومة ، وكانت تلك الديانة ديانة مفتعلة ، وكان البطالمة قد أباحوا لسائر رعاياهم حرية العبادة ، وكانت الديانة الحقيقية لكل من المصريين والاغـريق هى الديانة التى كان يألفها كل من الفـريقين ، فلا عجب ان الديانة الجديدة لم تحقق الغرض المنشود من اقامتها .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصـــادية

الزراعة — الصناعة — التجارة — النقود

أملت اعتبارات كثيرة عـلى البطـــالمة سياســـتهم الاقتصادية ، فقد كان تحقيق أهداف سياستهم الخارجية يتطلب أمـوالا طائلة لبناء الجيوش والأساطيل واكتساب ود الدول ورجال السياسة . وكانوا فى حاجة الى المال أيضا لتنفيذ مشروعاتهم العمرانية . ولما كانت قد استقرت فى البلاد عناصر جديدة من السكان وكان أغلب هـذه العناصر من الاغريق أو ممن لهم ميول اغريقية فانه كان يجب توفير سبل العيش لهذه العناصر وسد حاجاتها .

وقد رأى البطالمة ان الاستجابة الى كل مطالبهم كانت تقتضى زيادة الانتاج المصرى ، ورفع مستوى المنتجات المصرية ، بحيث تسد مصر حاجة كل سكانها ، وتصدر مقادير كبيرة من منتجاتها تكسب بها الأسواق الخارجية ، فيفيض عليها الذهب والفضة وغير ذلك مما تفتقر اليه البلاد من المواد مثـل الأخشاب والمعادن وازاء ذلك عمل البطالمة على زيادة مساحة الأرض المنزرعة ، واستغلال الأرض المنزرعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، والاكثار من المصانع واستخدام كافة الوسائل الفنية المعروفة وتنظيم الانتاج تنظيما دقيقا ، يستغل الى أقصى حد مجهـودات الأهالى والنزلاء الأجانب تحت اشراف ادارة ماليـة يقظة ، وتداول النقد ، وتصدير المنتجات التى تفيض عن حاجة البلاد ، واستيراد المـــواد التى تفتقر اليها ، وتأمين طرق الملاحة .

أولا — الزراعة

ولما كانت الزراعة فى مصر تتوقف على ضبط مياه النيل وحسن تصريفها ، فقد عنى البطالمة بشق القنوات واقامة الجســـور وصيانة هذه المنشآت وقد عنوا أيضا بايصال المياه الى الأراضى المرتفعة ، وابتكر الاغريق آلتين جديدتين لهذا الغرض وهما الســاقية والطنبور ، وسارع المصريون الى الافادة من هاتين الآلتين الى جانب شادوفهم العريق . واستغل البطالمة الأوائل مهـــارة الاغريق الهندســـية ، ودراية المصريين بالزراعة فى استصلاح مساحات واسعة من الأراضى فى الفيوم ، وكذلك فى مناطق أخرى مشابهة لها . وهكذا توفر لدى البطـــالمة من الأراضى

ما مكنهم من اغراء الكثيرين من الاغـــريق بالاستقرار فى البلاد . ولم يدخر البطالمة وسعا فى استغلال الأرض الصالحة للزراعة استغلالا لم يسبق له مثيل ، لكنهم لكيلا يضـعفوا التربة وضعوا نظاما دقيقا للدورة الزراعية ، بحيث كانت الأرض لا تزرع زراعة ثقيلة ثلاثة أعوام متتابعة . وقد كان الحديد من بين المواد التى اهتم البطالمة باستيراد كميات وفيرة منها لسد حاجة البلاد ، وترتب على ذلك أن أغلب الأدوات الزراعية كالفأس والجاروف والمنجل والبلطة وعجل العربات أصبحت تصنع كلها أو بعض أجزائها من الحديد .

ولم يدخر البطالمة جهدا فى توفـــير الأسباب التى تكفل الاكثار من زراعـــة الحبوب وغرس الكروم والفاكهة ومختلف أنواع الأشجار ، وتحسين أصناف كل هذه المزروعات بأقلمة أنواع جديدة منها ، وادخال أنواع عديدة من الحاصلات التى لم يكن لمصر بها عهد من قبل . فتتحدث الوثائق عن زراعة القمح السورى والفارسى والحمص البيزنطى ، وعن استيراد أشجار التين من خيوس وليديا ، وأشجار رمان ليس لثمرها بذور ، وأشجار مشمش تثمر فى العام مرتين ، وكروم تنتج أصنافا متعـددة من العنب ، واستنبات ثوم ليكيا وكرنب رودس وأنواع كثيرة من الأزهار .

ولما كانت الثروة الحيوانية تخدم مطالب الزراعة ومطالب الديانة ومطالب الحيـاة اليومية من غذاء وكساء ، فان البطالمة عنـوا بتنمية هذه الثروة ، وساعدهم عـلى ذلك وفرة المراعى فى البلاد . ومن أجل تحسين الأصواف المصرية استقدم بطلميوس الثانى من الخارج نوعا من الأغنام كانت لأصوافها قيمة كبيرة جدا الى حـد انها كانت تغطى لوقايتها وانها كانت تنزع منها بدلا من أن تجز . وقد أولى البطالمة عنايتهم كذلك الى تربية النحل ، فقد كان عسله يستخدم حيث نستخدم السكر اليوم ، والى تربية الدواجن ، وخاصة الحمام ، لأنه كان أرخص أنواع الترف فى غذاء الأهالى ، وفضلا عن ذلك كانت له أهمية خاصـــة بسبب غنى روثه ووفرته .

وقد كللت جهود البطالمة الأوائل بالنجاح اذ كان أبرز نواحى الحياة الاقتصادية فى مصر فى خلال القرن الأول من حكم أولئك الملوك ازدياد مسـاحة الأراضى المنزرعة ، وازدياد الحاصلات الزراعية بوجه عام والحبـوب بوجه خاص . لكنه كان من المحال وضـد طبيعة الأشياء أن تدوم هــذه النهضـة الاقتصادية . ولا أدل على ذلك مما نلاحظه منذ آخر عهد بطلميوس الثالث من نقص مطرد فى مساحة الأراضى المنزرعة وكذلك فى الماشية وفى عدد سكان القرى . فقـد كان طبيعيا أن تتدهـور الزراعة فى كنف ذلك النظام المالى الكريه الذى وضعه بطلميوس الثانى ، لأنه أبهظ كاهل الأهالى ، ولا سيما

عندما قام على تنفيذه موظفون غير أمنـــاء مما دفع الأهالى الى الفرار من مزارعهم أو تراخيهم فى أداء عملهم ، بل الى الثورة فى وجه الحكومة . وحين كانت نيران الثورات القومية تسرى فى كل أنحاء البلاد سريان النار فى الهشيم ، ووسط الاضطرابات العنيفة التى أثارتهـا الانقسامات بين أفراد أسرة البطالمة ورجعت البلاد أصداءها ، أهملت وسـائل الرى بل عمد الأهالى الى تخريبها . وزاد الطين بلة أعمال التخريب والتدمير والسلب والنهب التى نجمت عن غزوة أنطيوخوس الرابع . وقد بذلت الحـــكومة كثيرا من المجهودات لاصلاح الحالة لكن التوفيق لم يحالفها بوجه عام فى وقف تيار التدهور الذى جرف اقتصاديات البلاد .

ثانيا ــ الصناعة :

كفلت الطبيعة لمصر العوامل التىجعلتها مهد الحضارة ، فقد حبتها بوفرة فى موارد الثروة وفى عدد السكان الذين امتـــاز الكثيرون منهم بالمهارة اليدوية فلا عجب أن قامت فى مصر منذ أمد بعيد صناعات كثيرة ناجحة لم يكن لها منافس فى بعضها ومثل ذلك ورق البردى والمنســـوجات الكتانية والزجاج والخزف اللامع وغير ذلك مما كانت مصر تصدره الى الكثير من بلاد العـــالم القديم .

لكن بلاد الاغريق ما كادت تتقـدم فى شوط الحضارة حتى أخذت صناعاتها تنافس الصناعات المصرية وأصبحت مركز الجاذبية الاقتصادى ، غير انه عقب وفاة الاسكندر الأكبر انتقـــل ذلك المركز الى الممـــالك الهيلينستية العظيمة التى قامت فى مقدونيـا وآســيا ومصر واسترعت أنظار الاغريق ، فهرعت أفواجهم اليها وشــاركوا فى انعاش صناعاتها وباقى نواحى حياتها الاقتصادية . وقد كان لمصر نصيب كبـير من أولئـــك المهاجرين الذين نزحوا اليها من مختلف بلاد شبه جزيرة البلقان وجزر بحر ايجة وآســيا الصغرى .

وقد كانت المشاكل التى واجهها البطالمة فى ميدان الصناعة مماثلة لما واجهوه فى ميدان الزراعة ، وهى توفير سبل العيش لكثير من المهاجرين ، ورفع مستوى الصناعة ، وسد حاجة السوق المحلية والسوق الخارجية . فقد استقرت فى البلاد عناصر جديدة كثيرة أغلبها من الاغريق أو ممن لهم ميول وعادات اغريقية ، وازدادت القوة الشرائية لدى الدول الهيلينستية ، وكذلك اقبالها عــلى المنتجات المصرية . ومن أجل مواجهة كل هذه المطالب واستيراد ما تفتقــر اليه مصر بحيث يكون الميزان التجارى فى صالحها ، أنشأ البطالمة مصانع كثيرة ، واحتكروا انتـــاج بعض الصناعات ، وأشرفوا على انتاج وبيـــع البعض الآخر ، وعملوا أيضا على زيادة انتاج صناعات عديدة ، وتحسين أصنافها ومراعاة ذوق المستهلكين .

وبفضل مهارة المصريين ومواهب الاغريق استطاعت مصر أن تستجيب لكل مطالب الصناعة . وقد ساعد على ذلك أن تداول النقد وفر رءوس الأموال اللازمة للنهوض بالصناعة ، وان الحركة العلمية فى معهد الاسكندرية غزت الصناعة بثمرة تقدم العلوم وان البطالمة الثلاثة الأوائل اهتموا بتنشيط الصناعة اهتماما لم نعرف له مثيلا فى أى عهد من عهود تاريخها الطويل . وقد كانت من أهم الصناعات شأنا فى عهد البطالمة صناعة المنسوجات المختلفة وصناعة الزيت والنبيذ والآنية الفخارية والمعدنية والأخشاب والورق والزجاج . ونستطيع أن نتبين اهتمام البطالمة بسد حاجة الاغريق من انتعاش صناعة المنسوجات الصوفية وتحسين أنواع النبيذ المصرى وانتشار صنعه واستثناء زيت الزيتون من الزيوت التى كانت الحكومة تحتكر استخراجها وبيعها .

وقد اقتبس الاغريق فى عهد البطالمة فنون الصناعة التى كان المصريون قد بلغوا بها فى عهد الفراعنة حدا يقرب من الكمال . وبطبيعة الحال كان شأن الاغريق فى مصر شأنهم فى أى مكان آخر اتصلوا فيه بأساليب الحضارة الرفيعة القديمة ، ومعنى ذلك انهم اقتبسوا أولا فن الصناعة الوطنى ، وتعلموا كل مالم يعلموه منه قبلا ، وكذلك أخذوا عنه بعض المظاهر وأشكال الزخرفة ، ثم صبغوا كل ذلك بالصبغة الاغريقية وجعلوه موائما لذوق الاغريق محببا اليهم . فامتلأت أسواق العصر الهيلينستى بأدوات مصنوعة على أساس الأساليب المصرية فى الصناعة والزخرفة ، وان كان طراز المصنوعات اغريقيا ، ونجد أمثلة طريفة لذلك فى الآنية الفخارية والزجاجية والمعدنية التى كشفت الحفريات عنها .

واذا كان يبين ان أكثر الصناع المصريين بسبب طبعهم المحافظ واعتزازهم بتقاليدهم القديمة ورغبتهم فى سد حاجة عملائهم الذين بقيت غالبيتهم العظمى بعيدة عن كل مظاهر الحضارة الاغريقية ، لم تستهوهم بوجه عام فنون الصناعة الأجنبية ولذلك استمروا فى انتاج سلعهم التقليدية ، فانه يبين كذلك ان بعض الصناع المصريين كانوا ينتجون أيضا سلعا تقلد نظيراتها الاغريقية تقليدا كاملا أو فى بعض نواحيها فقط مثل الشكل أو عناصر الزخرفة أو أساليب الصنعة لكنها مصطبغة بالصبغة المصرية ، فاننا نجد بين الآنية الفخارية والحجرية التى صنعها المصريون فى عصر البطالمة أشكالا كانت مألوفة بين الاغريق . ولا يبعد أن ما حدث فى هذه الصناعة قد حدث كذلك فى صناعات أخرى .

وقد كان من بين نتائج ازدهار الصناعة فى المدن نزوح الكثيرين من الريف اليها ، وكانت الاسكندرية فى مقدمة المدن التى هرعت اليها أعداد كبيرة من العمال والصناع . ومما يجدر بالملاحظة ان أرباب

كل حرفة كانوا يتجمعون معا فى أحياء معينة ويؤلفون نقابات تعاونية . وتدل الوثائق على انه قبل مجيء الاغريق الى مصر لم يسهم العبيد اطلاقا فى حياتها الاقتصادية لكن الحال كان على عكس ذلك فى بلاد الاغريق ، فهل أدت مساهمة الاغريق فى حيـــاة مصر الاقتصادية الى ادخال نشاط العبيــد فى الصناعة ؟ لا يبعد انه فى مدن مصر الاغريقية ، وخاصة فى الاسكندرية ، حيث يرجح انه كان يعيش ٢٠٠ر٠٠٠ عبد ، كانت توجد مصانع يعمل العبيد فيها . أما خارج المدن الاغريقية ، أو على الأقل خارج الاسكندرية ، فاننا لا نجد فى نصوص القوانين الخاصة بنظام العمل سواء فى الزراعة أم الصناعة ما يستدل منه على استخدام العبيد فيهما . ومعنى هذا ان الاغريق لم يغيروا قواعد الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد بوجه عام .

وقد ترتب على كل العوامل التى سلفت الاشارة اليها ازدهار الصناعة فى القرن الأول من حكم البطالمة ، ولما كانت أغلب الصناعات المصرية صناعات زراعية ، فان تدهور الزراعة منذ أواخر عهد بطلميوس الثالث كان يستتبع حتما تدهور الصناعة . وفضلا عن ذلك فان الأسباب التى كان لها أبلغ الأثر فى تدهور الزراعة قد تمخضت عن نتائج مماثلة فى ميدان الصناعة ، حيث فشلت أيضا كل الجهود التى بذلتها الحكومة لوقف تدهورها والنهوض بها من جديد .

ثالثا ــ التجارة :

وقد كان طبيعيا أن يوجه البطالمة عنايتهم الى تجارة مصر الخارجية ، اذ كان ذلك جزء من سياستهم الاقتصادية العـامة التى كانت تستهدف زيادة الانتاج الزراعى والصناعى ورفع مستواه لسد حاجة الســوق المحلية وكسب السـوق الخارجية ، فتفيض عليهم الأموال وكذلك السلع التى تفتقر اليها مصر . ومن أجل تأمين تجارة مصر الخارجية ورواجها عملوا عــلى السيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر ، كما عملوا على ألا تقتصر علاقات مصر التجارية على ممتلكاتها فقط بل أن تكون لمصر علاقات تجارية مع بلاد أجنبية أخرى فى ثلاث نواح وهى : أولا بحر ايجة والبحر الأسود وثانيا الغرب والشمال الغربى وثالثا الجنوب والشرق .

ويجب أن نلاحظ انه لم يكن فى وسع ممتلكات مصر استيعاب كل صادراتها ، وانه اذا كان فى وسع مصر بفضل مواردها الخاصة ووارداتها من ممتلكاتها أن تستغنى الى حد بعيد عن صادرات الدول الأجنبية لسد حاجاتها الحيوية ، فانها كانت لا تزال تفتقر الى بعض حاجاتها الهامة التى لم تتوافر فى امبراطوريتها : كالذهب والفضـة اللازمين لعمـلة البطالمة وشراء حاجاتهم فى مصر وفى خارجها ، وكذلك الصفيح والحديد اللازمين لسد حاجة الجيش والزراعة والصناعة . وقد كانت مصر فى حاجة أيضا الى العطور والبخور

والبهار والأقمشة النادرة والأخشاب الثمينة ، مما كانت تتطلبه بكثرة الطقوس الدينية وحياة الرفاهية والترف لا فى مصر وحدها بل كذلك فى عالم البحر الأبيض المتوسط . وفضلا عن كل ذلك كان البطالمة يهتمون برواج تجارة مصر الخارجية للفوز بثراء عريض يقيمون عليه دعائم قوتهم ، وكذلك لنشر نفوذهم فى أرجاء العالم المتمدن ، فالتجارة دائما تسبق العلم . وقد أسلفنا ان البطالمة كانوا ينشدون ضمان تفوقهم الاقتصادى على منافسيهم ولعب الدور الأول فى السياسة الدولية .

وقد حالف التوفيق البطالمة الأوائل ، فتمتعوا حقبة من الزمن بسيادة سياسية وتجارية فى بحر ايجة ، وأصبحت الاسكندرية من أهم المدن التجارية فى العالم . وكانت أهم المواد التى تصدرها مصر الى أسواق بحر ايجة هى الحبوب الغذائية وورق البردى والمنسوجات الكتانية ، فقد كانت مصر أكبر مركز لانتاج الغلال فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، كما انها كانت تحتكر صناعة لفائف البردى وتصديرها الى كافة أنحاء العالم القديم ، وكذلك كانت تشتهر منذ عهد بعيد بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة . وكانت بلاد الاغريق وآسيا الصغرى تصدر الى مصر الكثير من منتجاتها ، وكان من أهمها القطران والأخشاب والحديد والنبيذ والفاكهة والأسماك المجففة وزيت الزيتون ، لكن المكوس الواقية التى فرضها البطالمة حدت من كمية تلك الصادرات وجعلت الميزان التجارى فى صالح مصر . ولا شك فى أن البطالمة كانوا يأخذون فضة نقية لقاء الجانب الأكبر من صادرات مصر ، بمعنى أن تجارة مصر مع بحر ايجة كانت تمدها بجانب كبير مما تحتاج اليه من الفضة .

ومنذ أواخر القرن الثالث تأثرت تجارة مصر مع بحر ايجة بثلاثة عوامل رئيسية وهى : أولا ، ضياع سيادتها البحرية ، وثانيا ، الشلل الذى أصاب اقتصادها من جراء الاضطرابات الداخلية ، وثالثا ، ما أحرزته برجام وبيثينيا وبونتوس والقرم من التقدم الاقتصادى ، ولا سيما فى الزراعة ، فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد . وليس معنى ذلك انه قضى على تجارة مصر مع بحر ايجة قضاء تاما ، اذ أن القرائن تشير الى أن مصر كانت لا تزال تصدر الى هذه الأرجاء بعض الحبوب فضلا عن بعض منتجاتها الأخرى مثل ورق البردى والمنسوجات الكتانية والمصنوعات الزجاجية . وتشير القرائن كذلك الى أن مصر أصبحت تستورد من بحر ايجة كميات كبيرة من الزيت ، لعله كان من زيت الزيتون .

وقد نجح البطالمة الأوائل فى انشاء علاقات تجارية وثيقة مع الأسواق الغربية ، وجنوا من وراء ذلك فوائد طائلة ، لأن هذه الأسواق كانت تستطيع استيعاب الكثير من المنتجات المصرية ، وكذلك سد الكثير من المطالب المصرية بمد مصر بالخيول من قرطجنة

وصقلية ، وبالفسفور من ايطاليا وصقلية ، وبالفضة من اسبانيا ، وبالقصدير من بريطانيا عن طريق قرطجنة ومسيليا ، وبالحديد من ايطاليا ، والأدلة متعددة على أن علاقات مصر التجارية مع البلاد الغربية كانت نشيطة بوجه خاص فى القرن الثالث قبل الميلاد حتى نشبت الحرب البونية الثانية فشلت هذه العلاقات ، لكن يتبين من القرائن المتعددة انه بعد أن وضعت هذه الحروب أوزارها أخذت تنشط ثانية تجارة مصر مع الأسواق الغربية ، التى احتلت منذ القرن الثانى مكان بحر ايجة وغدت أهم مجال لاستيعاب السلع الهيلينستية. ومما يجدر بالملاحظة أن ايطاليا لم تكن عندئذ فى حاجة الى حبوب مصر قدر حاجتها الى منتجات الصناعة المصرية ومواد الترف التى كانت مصر تستوردها من الصومال وبلاد العرب والهند . وقد ساعد على رواج تجارة مصر مع الغرب تدمير قرطجنة تدميرا كاملا بعد الحرب البونية الثالثة .

وقد أظهر البطالمة اهتماما كبيرا بالتجارة مع الجنوب والشرق من أجل تصريف المنتجات المصرية مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال فضلا عن النبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط ، وكذلك من أجل الحصول من أعالى النيل على العاج وجلود التماسيح وعجول البحر والعبيد وريش النعام ، ومن بلاد الصومال ومن بلاد العرب الجنوبية والهند (وكان العرب يحتكرون التجارة الشرقية القادمة بحرا) على العطور والبهار والبخور والمر والقرفة والعاج والأرز والأصداف واللآلىء والأصباغ والقطن والحرير .

وكانت منتجات أعالى النيل تصل مصر اما عن طريق النيل أو طرق القوافل أو هضبة اكسوم والبحر الأحمر . أما التجارة الشرقية فانها كانت تسلك ثلاثة طرق رئيسية فى سبيلها نحو البحر الأبيض المتوسط : وهى أولا ، طريق الشمال ، وكان يتجه من أواسط آسيا نحو بحر قزوين والبحر الأسود والبسفور والدردنيل . وثانيا ، طريق الوسط ، وكان يأتى من الهند برا أو بحرا الى سليوكيا على الدجلة ثم يتجه الى دمشق وصور ، أو الى أنطاكية ومنها الى افيسوس . وثالثا ، طريق الجنوب ، وكان طريقا بحريا من الهند الى الموانى فى جنوب بلاد العرب أو جنوبيها الغربى ، وكانت أهمها فى عهد البطالمة ادانا وجزيرة سقطرى . وكانت المراكب الهندية تفرغ حمولتها فى قبضة الاعراب ، فقد كانوا يحرصون أشد الحرص على هذه التجارة الى حد انهم كانوا لا يسمحون للمراكب الهندية بدخول بوغاز باب المندب .

ولما كانت منافذ هذه الطرق الثلاثة تقع فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا ، وكان ملوك مصر يحرصون على وضع التجارة الشرقية فى قبضتهم ، فان البطالمة وجهوا عنايتهم فى خلال القرن الثالث الى

الاستيلاء على الأقاليم التى تقع فيها تلك المنافذ . وعندما تلاشى سلطان البطالمة من بحر ايجة وطردوا من آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وفينيقيا فى خلال النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد ، اتجه اهتمام البطالمة ولا سيما فى عهد بطلميوس الثامن عند منتصف هذا القرن الى البحر الأحمر ذاته للسيطرة على تجارة طريق الجنوب قبل بلوغها منافذ ذلك الطريق . ولم يلبث أن امتد هذا الاهتمام الى المحيط الهندى أيضا .

وقد جنى بطلميوس الثامن أطيب الثمار من وراء الجهود التى بذلها لتنظيم الطريق الجنوبى وتأمينه اذ ازدادت باطراد مقادير التجارة الشرقية التى كانت تمر بمصر فى عهده عما كانت عليه فى عهد سلفه وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية عدة عوامل وهى : (١) الاقبال المتزايد على السلع الشرقية (٢) كشف طرق الاستفادة من الرياح الموسمية مما يسر الابحار مباشرة الى الهند دون الالتجاء الى الاعراب ، (٣) ضعف مملكة السليوكيين باطراد (٤) انهيار مملكة سبأ فى عام ١١٥ ق . م .

وهكذا أحيى البطالمة الأواخر سيرة البطالمة الثلاثة الأوائل فى تأمين وتنظيم الطريق البحرى بين مصر وبوغاز باب المندب ، لكن بينما كان البطالمة الأوائل يستهدفون من وراء ذلك تيسير صيد الفيلة واستئناسها ونقلها من أجل استخدامها فى جيوشهم ، وضمان الاتصال بحرا ببلاد النوبة حيث توجد مناجم الذهب ، وبلاد الصومال حيث تتوافر مواد لم يكن لمصر عنها غناء منذ عهد الفراعنة ، كان البطالمة الأواخر يستهدفون تنشيط التجارة مع بلاد الصومال وبلاد العرب الجنوبية والهند . أما صيد الفيلة فقد أصبح غير ذى موضوع نتيجة لاستغناء البطالمة عن استخدام الفيلة فى جيوشهم .

وجملة القول أنه فى خلال القرن الأول من حكم البطالمة ، ازاء ازدهار الزراعة وتقدم الصناعة وتداول النقد ، واتساع ملك البطالمة وعنايتهم بالسيطرة على الطرق البحرية المؤدية الى مصر وعلى منافذ طرق التجارة الشرقية ، وانشاء العلاقات مع الدول الخارجية ، راجت تجارة مصر الخارجية فوصلت منتجاتها شرقا حتى الصين وغربا حتى اسبانيا وشمالا حتى بريطانيا وجنوبا حتى أواسط افريقيا .

وقد صاحب تدهور الزراعة والصناعة ، وانكماش ممتلكات البطالمة الخارجية ، وضعف نفوذهم فى السياسة الدولية انكماش تجارة مصر مع بحر ايجة وكذلك مع الشرق . وازاء نقص موارد مصر نقصا خطيرا وزيادة الاقبال على السلع الشرقية وجه البطالمة الأواخر وخاصة بطلميوس الثامن اهتمامهم لتنشيط تجارة مصر مع الجنوب والشرق . وقد حالف التوفيق أولئك البطالمة فغدا لتلك التجارة شأن كبير كان له أثره فى انعاش تجارة مصر مع الأسواق الغربية بعد أن كانت

الحرب البونية قد شلتها وألحقت بها ضررا خطيرا .

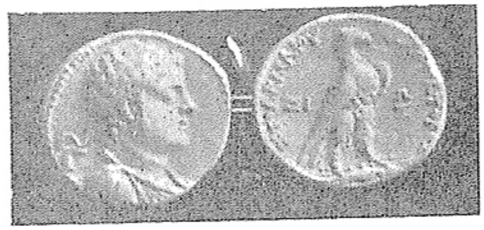
رابعا ــ النقود :

حين كانت المدن الاغريقية وبلاد الفرس تستخدم النقود منذ عدة قرون ، لم تكف مصر عن تنظيم معاملاتها على أساس التبادل ، الا أن هذا لا يعنى أنها كانت تجهل تماما استخدام النقود ، فقد كشفت الحفريات فى نقراطيس وسمنود وبنى حسن فى طبقة من الأرض سابقة على العهد المقدونى عن نقود اغريقية وفارسية ، بعضها أصيلة وبعضها تقليدات محلية . مما يدل على أن هاتين العملتين كانتا متداولتين فى مصر وتسكان فيها قبل الفتح المقدونى ، وان كان تداولها محدودا ، ويبدو أنه كان مقصورا على الاغريق والفرس . فقد كان ملوك مصر فى العصر الصاوى يستخدمون جنودا مرتزقة من الاغريق كانوا يأخذون أجرهم نقدا ، وفى عهد الفرس كانت توجد فى مصر حامية فارسية وكانت مصر تدفع لحكامها الجدد جزية نوعية من الحبوب وجزية نقدية .

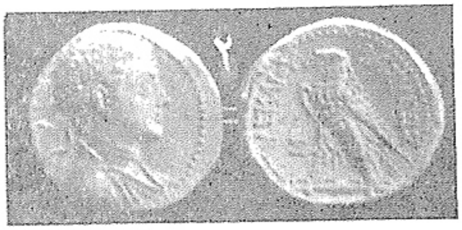
ويعزى الى الاسكندر الأكبر والبطالمة الفضل فى سك عملة أخذ تداولها ينتشر فى مصر رويدا رويدا وان لم يقض كلية على نظام التبادل . وتتألف العملة البطلمية من نقود ذهبية ونقود فضية ونقود برونزية . ومما يجدر بالملاحظة ان النقود الذهبية والنقود الفضية نوعان : أحدهما عادى وكان يسك فى عهد الملك الذى تحمل صورته والآخر تذكارى لتخليد بعض الملوك السابقين وكثيرا ما تحمل العملة الفضية العادية على الوجه صورة بطلميوس الأول مؤسس الأسرة ، واسم بطلميوس الذى حمله كل ملوك هذه الأسرة . وبطبيعة الحال تحمل النقود الذهبية والنقود الفضية غير العادية صور مختلف ملوك وملكات البطالمة الذين سكت هذه النقود لتخليد ذكراهم . وتحمل النقود البرونزية على الوجه فى حالات كثيرة صورا مأخوذة من الأساطير ، كانت أغلبها رأس زيوس آمون ، وفى بعض الحالات رأس الاسكندر أو أحد ملوك أو ملكات البطالمة .

وقد كان الطابع الذى يميز كل نقود البطالمة ، فيما عدا فئة محدودة أغلبها تذكارى ، يصور على الظهر ويتألف من نسر واقف على صاعقة ، وأمامه أو فوق جناحه قرن واحد أو قرنان للرخاء . ونرى على ظهر النقود البرونزية التى سكت عندما كان ايولايوس ولنايوس يتوليان الوصاية على بطلميوس السادس نسرا واقفا على صاعقة وتحت جناحه الأيسر صولجان والى يساره زهرة اللوتس التى تعتبر أهم طابع لنقود بطلميوس السادس البرونزية . ويتميز ظهر النقود الفضية التى سكها بطلميوس الثانى عشر وابنته كليوبترة السابعة بوجود فرع نخلة تحت الجناح الأيسر للنسر وتاج ايزيس أمامه .

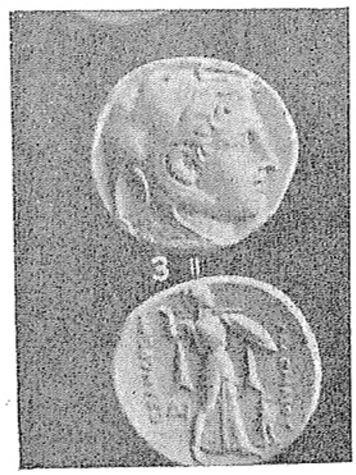
أمثلة لنقود البطالمة :



١



٢



٣



٤



٥

١ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صـــورة نصفية لبطلميوس الرابع ، وعلى الظهـر نسرا واقفا على الصاعقة ٠

٢ ـ قطعة ذهبية تحمل على الوجه صـــورة فضية لبطلميوس الخامس ، وعلى الظهـر نسرا واقفا على الصاعقة ٠

٣ ـ قطعة فضية من عهد بطلميوس الأول تحمل على الوجه رأس الاسكندر ، وعلى الظهر أثينـا پروماخوس ٠

٤ ـ قطعة ذهبية منعهد بطلميوس الأول تحمل على الوجه رأس بطلميوس الأول ، وعلى الظهر نسرا واقفا على صاعقة ٠

٥ ـ قطعة ذهبية سكت تذكارا لأرســينوى الثانية ، وتحمل على الوجه رأس هـــذه الملكة ، وعلى الظهر قرنى الرخاء ٠

وقد كانت العملة الفضية أكثر عملات البطالمة شيوعا على عهد البطالمة الثلاثة الأوائل . وحتى منتصف عهد بطلميوس الثانى لم تكن العملة البرونزية سوى عملة رمزية ، لكن فى النصف الثانى من عهد هذا الملك سكت كميات كبيرة من العملة البرونزية الثقيلة الوزن ليستخدمها الناس بحسب قيمة ما فيها من معدن . وتشير الأدلة الأثرية والبردية التى ترجع الى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد الى أن العملة البرونزية الجديدة قد صادفت نجاحا كبيرا .

ومنذ الفتح المقدونى كانت العملة تسك فى مصر على قاعدة النظام الأتيكى ، لكن بعد أن اتخذ بطلميوس الأول لقب ملك (عام ٣٠٥ ق . م .) بسنين قليلة أصدر عملتين ، فضية وذهبية ، أقل وزنا من العملة القديمة لتنشيط التجارة الخارجية والتوفيق بين العملة وأسعار المعادن النفيسة التى كانت تزداد باطراد فى حالة الفضة وتتناقص فى حالة الذهب . ولم تتفق قاعدة العملة الجديدة اتفاقا تاما مع قاعدة أى عملة معروفة عندئذ ، لكنها كانت تقرب جدا من قاعدة النظام الرودسى . وبعد ذلك أنقص بطلميوس وزن العملتين الفضية والذهبية ثانية باتخاذ قاعدة العملة الفينيقية . وقد احتفظ البطالمة حتى نهاية أسرتهم بهذه القاعدة التى اتبعتها أيضا امبراطوريتهم البحرية وكذلك كل البلاد التى خضعت لنفوذهم بأى طريقة كانت .

وحتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كانت الفضة هى القاعدة الأساسية للعملة البطلمية . لكن عندما قلت الفضة التى كانت مصر تحصل عليها من تجارتها مع بلاد الاغريق وقرطجنة نتيجة لانكماش تجارتها الخارجية بسبب سوء حالتها الاقتصادية ، وضياع ممتلكاتها الخارجية ، وتقلص سيطرتها على الطرق التجارية ، ودخول الحرب البونية الثانية مرحلتها الحاسمة ، اضطرت مصر الى اتخاذ البرونز قاعدة أساسية لنقدها . واذا كان هذا التغيير قد أفضى الى ازدياد تداول العملة البرونزية مع ما يقابل ذلك من نقص تداول العملة الفضية ، فانه لم يؤد الى القضاء كلية على قاعدة الفضة .

ولما كانت حال البلاد الاقتصادية قد أخذت تسير من سيء الى أسوأ ، ونقصت تبعا لذلك موارد البطالمة بينما لم تنقص التزاماتهم ، فانهم لتخفيف هذه الالتزامات على حساب سكان البلاد لجأوا الى زيادة القيمة الاسمية للعملة البرونزية ثلاث مرات منذ حوالى عام ١٨٢ ق . م . حتى سقوط دولتهم ففى آخر عهد بطلميوس الخامس بلغت الأجور والأسعار ١٢٠ مرة كالأجور والأسعار المماثلة فى عهد بطلميوس الثانى والثالث . وعند منتصف القرن الثانى ارتفعت الأجور والأسعار الى ٢٤٠ مرة مثل ما كانت عليه فى عهد بطلميوس الثانى والثالث . وفى خلال القرن الأخير من حكم البطالمة بلغت الأجور والأسعار ٤٨٠ مرة مثل ما كانت عليه فى عهد بطلميوس الثانى والثالث .

الفصل الخامس

النظـــام المـــالى

الادارة المالية — نظام الأراضى — نظـام الصناعات والحرف — نظام التجـارة — ضرائب شتى — نظام جباية الضرائب

أولا — الادارة المالية

يجدر بنا أن نشـــير أولا الى أن نظم البطالمة المالية كانت شرقية فى جوهرها ، فقد كانت تســتند الى أن الملك صاحب الأرض وما عليها وما فى باطنها ، والى أن الأهــالى يطيعون هذا الملك الاله طاعة عمياء . ومع ان البطالمة صبغوا هــذه النظم بصبغة اغريقية قوية تتضـــح فى دقة صياغتها واصطلاحاتها وطريقة تنظيم الضرائب واشراف الادارة المالية على موارد الدولة المختلفة ، وخاصة فى نظام المحاسبة والمراجعة الذى لم يكن لمصر عهــد بمثله من قبل ، الا أن هذه النظم أغفلت الى حد كبير جوهر النظم الاغريقية ، وهو يتلخص فى مبدأين أساسيين : الامتــلاك الخــاص وحرية النشاط الاقتصادى .

وقد كان يختص بحسابات الدخـــل والخرج خزانة مركزية أطلق عليها اســـم « خزانة الملك » . وكان مدير هذه الخزانة يدعى ديويكيتس ، ويمكن تشـــبيهه بوزير المالية عندنا ، فقد كان مسئولا عن كل الادارة المالية فى مصر وفى كل ممتلكاتها الخارجية .

وكانت اختصاصات هذا الوزير فضفاضـــة واسعة ، فهو الذى كان ينظم بأوامره كل شئون الادارة المالية دخلا وخرجا فى مصر وفى ولاياتها ، ويعين موظفى الادارة الماليـــــة ويراقبهم ويعاقب المقصرين منهم ، وتمتـــــد سلطاته على كل الذين يشتغلون باســـتغلال موارد الدولة مثل الأراضى والاحتكارات .

ونستمد معلـــــومات وفيرة عن وثائق زينون البردية عن ابولونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى . ويبـــدو ان ابولونيوس عيّن فى منصبه الكبير حوالى عام ٢٦٢ ق. م. وانه بقى فيه حتى وفاة بطلميوس الثانى ، وانه عزل وصودرت أملاكه قبل العـــام الخامس من عهد بطلميوس الثالث . ويتبين بوضـــــــوح من وثائق زينـــــون ان ابولونيوس لم يقصر نشاطه على مهـــــام منصبه فقط ، فهو لم يكن وزيرا فحسب بل كان أيضا تاجرا وصاحب ضياع ومصـــانع ويمتلك أسطولا بحريا وآخر نهريا . ولعـــل

ابولونيوس كان فى طليعة أولئك الوزراء الذين لا يكتفون بالاضطلاع بأعباء مناصبهم من مكاتبهم ، اذ تحدثنا الوثائق عن طوافه بالمديريات من أجل الاشراف على أعمال مرءوسيه والبت فيما يعرض عليه من المشاكل . وكان يتغيب فى بعض الأحيان عن العاصمة بضعة أشهر ، وتصحبه فى هذه الرحلات حاشية كبيرة من الأعضاء والموظفين فقد كانت لوزير المالية حاشية تبدو كأنها صورة مصغرة لحاشية الملك .

وكان يوجد الى جانب وزير المالية وتحت اشرافه مراجع عام للحسابات والاحصاءات eklogistes كان له ممثلون محليون فى المديريات . وكان لوزير المالية مساعدون كثيرون hypodioiketai يبدو ان كل واحد منهم كان يختص بالاشراف على شئون منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . وكان للادارة المالية المركزية ممثلون كثيرون ينتشرون فى المديريات والأقاليم والقرى ، ويختص كل منهم بمهام معينة تحت اشراف رقابة دقيقة . وكان هذا الجهاز المعقد يكفل الدولة بسط رقابتها على مختلف مرافق البلاد الاقتصادية ، وتطبيق النظم التى وضعت لتلك المرافق ، وجمع كافة البيانات الخاصة بالموارد التى تستمدها الدولة من كافة أنحاء كل مديرية ، وضمان الحصول على كل ما تستحقه الدولة من تلك الموارد .

وقد لجأ البطالمة الى وسائل مختلفة لضمان أداء الموظفين واجباتهم بأمانة ، مثل حلف اليمين ، وتعيين مختلف المراقبين ، لكن هذه الوسائل فشلت فى تحقيق الغاية المنشودة . ومرد ذلك الى ثلاثة عوامل وهى : أولا المسئولية الملقاة على عاتقهم عن دخل الملك ، وثانيا الرشاوى التى كانوا يقدمونها للمسئولين من أجل الحصول على مناصبهم ، وثالثا السلطة المطلقة التى كانوا يتمتعون بها على شعب أذله الحكم الأجنبى وأخضعته القسوة فلا عجب ازاء ذلك ان أساء الموظفون استغلال سلطتهم الى حد انهم أصبحوا فى الواقع أشد خطرا على البطالمة من التاعسين الذين وقعت عليهم المظالم وهبوا ثائرين لفرط شدتها فى وجه البطالمة .

ثانيا ــ نظام الاراضى :

لقد عرفنا ان البطالمة كانوا يعتبرون مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الالهى . وقد ترتب على ذلك ان الملك كان من الناحية النظرية المالك الوحيد لهذه الضيعة ، ومن ثم يمكن تقسيم الأرض فى عهد البطالمة قسمين رئيسيين وهما : أرض الملك ، وأرض العطاء .

١ ــ أرض الملك :

وتشمل كل أرض مصر الصالحة للزراعة التى كان الملك يستثمرها مباشرة بتأجيرها بالمزاد العلنى لمزارعين كانوا يدعون « مزارعى الملك » . وكانت علاقات هؤلاء المزارعين بالملك ترتكز على عقود كانت فى القرن الثالث قبل الميلاد لمدد قصيرة الأجل ، لكنه

كان من بين النتائج التى ترتبت على تدهور الحالة الزراعية وفرار المزارعين من أراضيهم اطالة مدة العقود .

ومع ان مزارعى الملك كانوا رجالا أحرارا ، الا أنه كان يتعين عليهم زراعة الأرض التى استأجروها وعدم مبارحة قراهم طوال موسم الزراعة وحتى يسددوا للملك جميع التزاماتهم قبله . وفضلا عن ذلك فانه لم يكن فى وسع المستأجر أن يزرع الأرض التى استأجرها كما يشاء ، وانما وفقا للتعليمات التى كانت الحكومة تصدرها سنويا لتحدد بمقتضاها المساحة التى يجب زراعتها فى كل مديرية قمحا وشعيرا وأذرة وكتانا وحبوبا زيتية . ولكى تضمن الحكومة زراعة الأرض وجودة البذور ، كانت تفرض على المستأجر أن يقترض منها البذور لقاء فائدة قدرها ٥٠٪ . وكان يتعين على المزارع أن يجمع المحصول وينقله الى الجرن الملكى ويدرسه تحت رقابة حراس مسئولين ، وألا يمس منه شيئا قبل أن يأخذ الملك كل ما يستحقه . وكان ذلك عبارة عن الايجار السنوى مضافا اليه أجر استخدام مواشى الملك والفائدة عن قرض البذور وسلسلة من الضرائب ، فكان لا يتبقى للفلاح بعد ذلك الا أقل من نصف المحصول فى مقابل كل ما أنفقه من جهد . فلا عجب انه لم يكن سعيدا راضيا عن حاله .

وعندما تدهورت الزراعة ازدادت حالة مزارعى الملك سوءا حتى ان الكثيرين منهم لم يجدوا منفذا أمامهم الا ترك العمل والهرب . وعندما أعيت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، اضطرت الى الالتجاء الى الاكراه لتحقيق بغيتها ، لكنها بقدر ما أوغلت فى استخدام هذه الوسيلة استفحل داء هرب المزارعين حتى أصبح وباء متفشيا فى كل أنحاء مصر .

٢ ــ أرض العطاء :

ويبدو أنه لم يكن لعبارة « أرض العطاء » مدلول متفق عليه دواما حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد عندما أصبحت تشمل الأنواع التالية من الأرض :

ا ــ الأرض المقدسة :

كانت ثروة المعابد نوعين ، وكان النوع الأول ملكا خاصا للآلهة . وكانت أهم أملاك الآلهة عبارة عن الأرض التى كان الملوك يمنحونها منذ غابر الزمن لمختلف الآلهة ، حتى أصبحت لأولئك الآلهة ممتلكات واسعة كانت مصدر ثراء الكهنة وأحد أسباب قوتهم ونفوذهم . فقد كان كهنة كل معبد يتولون ادارة أرض معبودهم ، الى أن أسند البطالمة الأوائل ادارة أراضى المعابد المصرية الى الحكومة ليجعلوا العامل المادى سيفا مصلتا على رقاب الكهنة يضمن خضوعهم لسلطانهم . ولا يبعد أن البطالمة كانوا يستفيدون أيضا ماديا من وراء قيام الحكومة بادارة أرض المعابد . وعلى كل حال يبدو ان الحكومة كانت ترد الجانب الأكبر من دخل أراضى

المعـابد فى شكل المرتبات التى كانت تدفعها للكهنة . ويبين أنه حـوالى منتصف القرن الثانى قبل الميـلاد ، ازاء ضعف البطالمة الأواخر وازدياء نفوذ الكهنة ، استرد رجال الدين ادارة الأرض المقدسة .

أما النوع الثانى من ثروة المعابد فكان الكهنة يملكون أو يتمتعون بدخله للقيـام بشئون العبادة ، فقد كان يتصـل ببعض مناصب الكهنة موارد مختلفة تدر عـلى شاغلى تلك المناصب دخلا معينا . ويلوح انه قبل عصر البطـالمة كان الكهنة يستطيعون التصرف فى دخل هـذه الموارد بالبيـع أو التوريث ، لكن البطالمة جعلوا الحـكومة هى التى تبيع مناصب الكهنة وما يتبعها من الموارد دون أن تعطى المشترين حق التصرف فى تلك الموارد . وقد حرص البطالمة عـلى هذا الحق حتى أواخر القرن الثانى قبـل الميلاد ، ومع ذلك تشير بعض الوثائق الى أن الكهنة درجوا فعلا على بيع مناصبهم ورهنها وتأجيرها وتقسيمها وتوريثها .

ب ـ الاقطاعات العسكرية :

لقد سلف القول ان البطالمة ، ولا سيما أوائلهم ، اعتمدوا الى حد كبير على متطوعين من الأجانب فى بناء قوتهم العسكرية . وقد درج البطالمة على منح أولئـك المتطوعين اقطاعات كانت تعتبر بمثابة مرتباتهم فى وقت السلم . وكان البطالمة يتوخون من وراء ذلك : أولا ، ضمان سد حاجتهم الى الجند المدربين كلما اقتضى الأمر ذلك ، دون تحمل نفقات الاحتفاظ بجيش قائم . وثانيا ، ادخال وسائل اقتصادية جديدة فى مصر . وثالثـا نشر الحضارة الاغريقية فى أنحاء البلاد .

وكانت مساحة الاقطاع تختلف بحسب مرتبة الشخص ، وهل هو فى فرق المشاة ، أم فرق الفرسان ذات الأرقام ، أم فرق الفرسان القومية ، وهل هو فى الفرق النظامية ، أم فى فرق الجنود المرتزقة ، أم فى الفرق المصرية .

وفى أول الأمر كان الاقطاع ملكا للتاج ، فكان الملك يستطيع استرداده ولا سيما اذا أهمل رب الاقطاع فى أداء واجباته أو توفى . ولما كان من صـالح الملك أن يخلف رب الاقطاع المتوفى جندى جديد فى الجيش وفى الاقطاع ، وكان من صالح أسرة رب الاقطاع أن تستمر فى استغلال الاقطاع ، فقد أدت على هذا النحو صـوالح الملك وأرباب الاقطاعات الى جعل الاقطاع وراثيا .

وفى القرن الثالث كان الملك يمنـح الاقطاعات عادة من الأرض التى استصلحتها الحكومة . لكن عندما تطورت ملكية كثير من الاقطاعات الى ملكية خاصة ، وأفضى تدهور الزراعة الى نقص مساحة الأرض المنزرعة ، لم يبق هناك مجال لاعطاء الجنود الجـدد سوى تلك الأراضى التى أصبحت لسبب ما خلال سنين الاضطرابات العصيبة فى القرن الثانى قبل الميلاد ضعيفة أو غـير مثمـرة . ولما لم يكن لكثـير من أرباب

الاقطاعات خبرة بالزراعة ، وكانوا كثيرا ما يدعون للخدمة العسكرية ، أو القيام بأعمال الحاميات فى مصر أو فى الخارج ، أو للقيام بالمناورات ، فانهم كانوا عادة يفضلون تأجيرها لمزارعين مصريين .

والى جانب الاقطاعات كان الجنود يمنحون مسكنا . وفى القرى الجديدة كان الملك أو أصحاب الضياع يشيدون لهم بيوتا ، أما فى المدن والقرى الجديدة ، فان الجنود كانوا يمنحون مساكن فى بيوت الأهالى . واذا كان المصريون ،باعتبارهم الغالبية العظمى من سكان البلاد ، قد تحملوا الجانب الأكبر من عبء ايواء الجنود ، فان الاغريق كانوا يشاركونهم تحمل هذا العبء منذ القرن الثالث قبل الميلاد .

ج ـ أرض الهبات :

وهذه الأرض نوعان ، كان أحدهما عبارة عن أرض يُعتبر دخلها بمثابة مرتب موظف الحكومة الذى منح هذه الأرض . أما النوع الآخر فكان عبارة عن الضياع الكبيرة التى أغدقها البطالمة على أصحاب الحظوة لديهم من كبار موظفيهم المدنيين والعسكريين ، الذين اتصفوا بوفرة النشاط وحسن التدبير .

وتشير الوثائق الى أن الهبات قد تشمل أرضا زراعية فقط ، أو أرضا زراعية وقرية واحدة ، أو عدة قرى فقط ، والى أن الهبة كانت منحة شخصية لا يجوز التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو التوريث ، والى أن الأرض الصالحة للزراعة فى الضياع الموهوبة كانت تعامل مثل أرض الملك ، أى انها كانت تدفع للتاج ايجارا وضرائب .

د ـ أرض الامتلاك الخاص :

تتبين من الوثائق انه كانت توجد فى جهات متفرقة فى مصر مساحات كبيرة من الأرض يمتلكها الأفراد . وتشير الوثائق الى أنه فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد كانت زراعة الكروم وبساتين الفاكهة فى الأرض التى هجرت بسبب جفافها أو طغيان المياه عليها تكسب الزراع حق امتلاك هذه الأرض امتلاكا تاما . ولا يبعد ان هذه القاعدة كانت متبعة منذ القرن الثالث أيضا . وكان الأفراد يمتلكون كذلك امتلاكا حرا أراضى البناء وما عليها من مبان . ويبدو أن البطالمة قد عملوا منذ بداية عهدهم على ازدياد مساحة أرض الامتلاك الخاص . فقد كان ذلك يساعد على اتساع مساحة الأرض المنزرعة ، وعلى نشر غرس الكروم وبساتين الفاكهة ، وعلى وجود طبقة من أصحاب الأملاك تمد البطالمة بأعداد وفيرة من الموظفين والملتزمين وضامنيهم الذين يمكن الرجوع على ممتلكاتهم فى حالة عدم الوفاء بالتزاماتهم .

وتتبين من الوثائق انه كانت توجد فى جهات متفرقة ، وخاصة فى الوجه القبلى ، مساحات من الأرض تزرع حبوبا ويمكن التصرف فيها بالبيع والشراء والرهن

والتوريث . ومع ذلك لا نستطيع اعتبـارها ملكا حرا لأربابها لعدة أسباب ، أهمها ان أرباب هذا النوع من الأرض كانوا يدفعون عنها ايجارا للتاج ، وان الملك كان يستطيع استرداد هذه الأرض . وازاء ذلك لا يبعد ان أرباب هـذه الأرض كانوا لا يملكون أرضهم ملكا حرا وانما يملكون فقط حق استغلالها ويستطيعون التصرف فى هذا الحق مما جعل هذا النوع من الأرض شديد الشبه بالأرض المتملكة امتلاكا حرا .

ثالثا ـ نظام الصناعات والحرف

لقد كانت فى حوزة البطالمة كميات وفيرة من المواد الخام ، كما كانت تحت امرتهم أعداد كبيرة من الصناع المهرة ، وهكذا توافر لديهم العاملان الأساسيان اللذان يكفلان اسدرار أرباح وفيرة من الصناعة . وقد ترتب عـلى استغلال هذين العاملين استغلالا منظما دقيقا الى ما يعرف باحتكارات البطالمة أو بالاقتصاد الموجه فى ميدان الصناعة البطلمية . فقد كان البطالمة يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كليا ، مثل استخراج الزيت والملـح والجعة واستغلال المناجم والمحاجر ودباغـة الجلود والمصارف المالية ، ويشرفون عـلى البعض الآخـر ويحتكرونه احتكارا جـزئيا مثل صناعة النسيج والورق وتربية النحـل والماشية والدواجن . وسنكتفى فى هذا المقام بالكلام عن صناعتى الزيت والنسـيج وعن المصارف المالية .

١ ـ صناعة الزيت :

كانت لهذه الصناعة شأن كبير فى مصر منذ عهد بعيد ، لكنها ازدادت شأنا فى عصر البطالمة ، فقد صاحب استصلاخ الأرض البور زراعة مساحات واسعة نباتات زيتية ، ووجه البطالمة عناية كبيرة الى تنظيم هذه الصناعة تنظيما دقيقا ، لزيادة الانتاج وتحسـين الصنف . ومعلوماتنا عن هذه الصناعة أوفى منها عن أى صناعة أخرى .

ويتبين من اللوائح الخاصة بتنظيم هذه الصـناعة ان البطالمة كانوا يتوخون ثلاثة أهداف رئيسية وهى : أولا ، قصر استخراج الزيت عـلى الملتزمين الذين اشـتروا من الحـكومة حق التزام صـناعة الزيت من السمسم أو الخـروع أو القرطم ، لكن الحكومة كانت تسمح للمعابد بأن تصنع من زيت السمسم فى خلال شهرين ما تحتاج اليه فى عام واحد . وثانيا ، ألا يستخرج أحـد الزيت خفية والا قدم للمحاكمة وفرضت عليه عقوبات صارمة ، وثالثا ، أن تتوفر المـادة الخام والأيدى العاملة لدى ملتزمى هـذه الصناعة . فقد كانت تحدد كل عام مساحة الأرض التى تزرع نباتات زيتية ، وتفرض على الأهالى بيع المحصول كله بسعر معين لملتزم صناعة الزيت فى المنطقة ، وتحظر عـلى عمـال صناعة الزيت مبارحة المديرية الى مديرية أخرى .

وكان الملتزم يشـترى حق الالتزام فى

منطقة معينة لمدة عامين ، ويتعين عليه عدم استخراج الزيت من كل الحبوب الزيتية التى يشتريها ، بل اختزان كمية معينة منها بمثابة احتياطى للعام التالى .

ولكى يستفيد الملك من احتكار الزيت الى أقصى حد لم يتوان فى حماية الانتاج الداخلى من المنافسة الخارجية الشديدة ، فقد كان سعر الزيت فى العالم الاغريقى أقل بكثير منه فى مصر . ولذلك تقرر ألا يسمح لأحد باستيراد الزيت من الخارج للمتاجرة فيه أو أكثر من استهلاكه الشخصى لمدة ثلاثة أيام ، وفى هذه الحالة كان عليه دفع ضريبة تعادل ٥٠٪ تقريبا من سعره ، لكن يبين انه فى القرن الثانى قبل الميلاد رفعت الحكومة الحظر الذى كانت قد فرضته من قبل على استيراد الزيت الأجنبى . وتقدر الأرباح التى كان البطالمة يجنونها من وراء احتكار صناعة الزيت وبيعه بسبعين فى المائة فى حالة زيت السمسم و ٣٠٠٪ فى حالة زيت الحنظل .

٢ ـ صناعة النسيج :

ويتبين من الوثائق المختلفة ان الحكومة كانت تحدد مساحة الأرض التى يجب زرعها كتانا ، وتحتم أن يباع لها بسعر معين مقدار معين فقط من محصول الكتان . وكانت الحكومة تبذل قصارى جهدها حتى يزاول النسيج فى كل مديرية أكبر عدد ممكن من الأنوال .. وكان على كل مديرية أن تقدم للحكومة كمية معينة فقط من الأقمشة والملابس التى أنتجتها . ويبدو ان هذه الكمية كانت نسبة معينة من انتاج الأنوال العاملة . وفى حالة العجز عن السداد كان يتعين دفع ثمن المنسوجات بحسب ما حددته اللوائح . وكذلك فى حالة هبوط المنسوجات عن المستوى المطلوب كانت تفرض غرامات من أجل المحافظة على مستوى الصناعة . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تفرض على الناسجين دفع ضريبة لعلها كانت ضريبة الترخيص بمزاولة النسيج .

ولما كانت الحكومة لا تشترى كل محصول الكتان ولا تفرض على الناسجين أن يقدموا لها كل منتجاتهم فانه يتبين من ذلك انها كانت لا تحتكر هذه الصناعة احتكارا كليا مثل صناعة الزيت ، وان كانت تشرف عليها وتسهم فيها . ولابد من أن الكتان الذى كانت تفرض بيعه لها بسعر معين كان يصنع فى مصانع ملكية غير مصانع الأهالى .

ويمكننا أن تتبين مما أوردناه ان دخل الحكومة من الصناعات التى كانت لا تحتكرها احتكارا كليا كان عبارة عن نسبة معينة من انتاج المشتغلين بها ، وضريبة لمزاولة هذه الصناعات .

٣ ـ المصارف المالية :

ويبدو ان عملية استبدال النقود وسائر الأعمال المصرفية قد وجدت فى بلاد الاغريق

منذ أخذ تداول النقد ينتشر ويعم فى تلك البلاد . أما مصر فانها لم تعرف المصارف المالية بأدق معانى الكلمة الا عندما أنشئت فى كل أرجائها بعد الفتح المقدونى .

وكان وزير المالية يشرف على المصرف الملكى الرئيسى فى الاسكندرية وفروعه فى عواصم المديريات والأقاليم والقرى . وكانت توجد صلة وثيقة بين هذه المصارف الملكية وبين فروع الخزانة الملكية فى أنحاء البلاد ، لكن يجب عدم الخلط بينهما لأنهما وان اتفقا فى الاسم كان لكل منهما اختصاص معين . فقد كانت المصارف الملكية تقوم بالأعمال المصرفية العادية ، أما أعمال فروع الخزانة الملكية فانها كانت مقصورة على تسلم كافة الأموال الأميرية على اختلاف أنواع مصادرها سواء من الأهالى أم من الملتزمين أم من الموظفين المكلفين بجمعها . وعندما أنشئت فى القرن الثانى قبل الميلاد ادارة حساب الملك الخاص أدى ذلك الى انشاء خزائن جديدة تدعى « خزائن الحساب الخاص » الى جانب الخزائن الملكية .

وكان الملك يبيع حق ادارة المصارف الملكية لملتزميه بمقتضى عقود كانت مدة سريانها أحيانا سنتين وأحيانا خمس سنوات وأحيانا أكثر من ذلك . وكان الملك يضمن للملتزمين احتكار بيع النقود وشرائها واستبدالها ، ويقدم لهذه المصارف على الأقل جانبا من أموالها . فقد كان يتعين على الخزائن الملكية فى القرى وفى المدن دفع ما تتسلمه من الأموال العامة الى المصارف الملكية ، كل فى منطقته كل عشرة أيام . ومن ثم يتبين لنا ان بيع التزام أعمال المصارف كان يمثل الأرباح التى يجنيها الملك من صافى دخله .

وقد كان مديرو المصارف أو على الأصح ملتزمو ادارتها من الاغريق ، وكذلك كان أيضا عملاؤهم . ولعل اقتصار أعمال المصارف وحركة تعاملها على الاغريق يرجع الى فقر غالبية المصريين وقلة الفتهم باستخدام النقود . ولا يبعد أنه كان يرجع كذلك الى أن المصريين كانوا يفضلون أن يحذوا حذو آبائهم وأجدادهم ويضعوا أموالهم فى حماية الآلهة . فقد كانت المعابد منشآت مالية هامة تقوم بالكثير من أوجه نشاط المصارف المالية .

رابعا ـ نظام التجارة

١ ـ التجارة الداخلية

ويتبين من الوثائق ان تجارة الحبوب الغذائية فى مصر كانت حرة فيما عدا الكميات التى كان الملك يحتم على بعض الزراع أن يبيعوها اياه بسعر معين ليسد بها فيما يبدو حاجة المديريات التى تفتقر الى ما يكفيها من الحبوب . ومعنى ذلك ان الاتجار فى الحبوب الغذائية كانت تشوبه بعض القيود ، ومن ثم لا يمكن القول بأنه كان حرا حرية مطلقة .

أما الحبوب الزيتية فان الحكومة كانت تفرض بيع كل محصولها بسعر محدد لملتزمى صناعة الزيت . وكان حق بيع الزيت يباع

للملتزمين بمقتضى مزاد علنى . ومما يجدر بالملاحظة ان المزايدة لم تكن على سعر الزيت لأن الملك كان يحدد سعر البيع بالتجزئة ، وانما على كمية الزيت التى تباع يوميا فى كل مكان .

وكانت الحكومة تحتم بيع مقدار معين لها من محصول الكتان بسعر معين . أما بقية المحصول فلم يكن خاضعا لأى قيد ، وكان يباع فى الأسواق بأسعار متفاوتة .

ويتبين من كل ما سلف صحة ما يذهب اليه البعض من أنه لم يكن للتجارة الحرة وجود فى مدن مصر وقراها ، اللهم الا اذا استثنينا الاسكندرية فيما يلوح .

ويبدو انه فى حالة السلع التى كانت الحكومة تحتكر صنعها وبيعها أو تحتم اعطاءها نصيبا معينا منها كانت الحكومة تعتبر تجارة التجزئة بمثابة عملاءها الذين يساعدونها على بيع السلع للأهالى . والمرجح أن كل أصحاب الحوانيت كانوا يضطرون الى الحصول من الحكومة على تراخيص لمزاولة البيع ، والى اعطاء الحكومة فى مقابل ذلك جانبا كبيرا من أرباحهم .

ويتضح من احدى وثائق القرن الثالث قبل الميلاد ان وزير المالية كان يقسم السلع قسمين : أحدهما ، السلع التى حددت الحكومة أسعارها ، ويبدو أن هذه السلع كانت عبارة عن منتجات الصناعات التى كانت الحكومة تحتكرها كليا أو جزئيا ، مثل الزيت والمنسوجات ، ومن المرجح أيضا الملح والمعادن والعطور . أما القسم الثانى فكان يشمل السلع التى لم تحدد الحكومة أسعارها وكان يبيعها الأشخاص الذين اشتروا من الحكومة حق انتاجها وبيعها . فقد كان كثير من الحرف والصناعات خاضعا لنظام قوامه أن يستأجر ملتزم من الحكومة حق انتاج سلعة وبيعها فى منطقة معينة مثل صناعة الجعة . لكن فى بعض الأحيان كان حق البيع وحده هو الذى يُستأجر مثل بيع اللحوم والعدس المطهى . ولا شك فى أن أغلب هؤلاء الملتزمين كانوا يحددون السعر وفقا لحالة العرض والطلب ، لكنه لكيلا يغالى التجار فى أرباحهم ، رأى وزير المالية ألا يترك لهم الحبل على الغارب ، ولذلك طلب الى وكلائه أن يحددوا لهم أرباحا معقولة ، ومعنى ذلك انه حتى فى حالة السلع التى كانت الحكومة لا تحدد أسعارها رسميا لم يكن الاتجار مطلقا ومحررا من كل قيد ، لأن الأسعار كانت خاضعة لنوع من الاشراف . وليس معنى ذلك ان كافة السلع التى لم تكن لها أسعار محددة كانت خاضعة لاشراف الحكومة ، اذ تشير الوثائق الى أن أسعار الحبوب الغذائية كانت تتفاوت من وقت الى آخر ومن مكان الى مكان ، كما تشير الى أن الأثرياء كانوا يجنون منها أرباحا فاحشة ، ولعل مرد ذلك الى أن الملك كان أكبر تاجر للحبوب الغذائية .

ويمكن أن نوجز موارد الحكومة من التجارة الداخلية فى :

(أ) الأرباح التجارية التى تجنيها من المواد التى كانت تحتكر صنعها وبيعها أو استيرادها وبيعها .

(ب) الأجر الذى تجبيه نظير السماح بالتزام صنع وبيع السلع أو بيعها فقط .

(جـ) الضرائب التى كانت تفرضها على تجار التجزئة .

(د) الضرائب التى كانت تفرضها على الأهالى لقاء شراء مادة كانت الحكومة تحتكر صنعها أو استخراجها مثل الملح والجعة .

(هـ) المكوس والعوائد التى كانت الحكومة تحصلها عند نقل السلع من منطقة الى أخرى .

٢ ـ التجارة الخارجية :

ويمكن تقسيم واردات مصر من ممتلكاتها ومن سائر بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبلاد الشمالية الغربية قسمين : وأحدهما المواد التى كانت مصر تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن والخيول ، ونرجح ان اللازم منها لسد حاجة الجيش والأسطول وباقى مصالح الحكومة والمنشآت العامة كان استيراده وقفا على الملك ، أما ما يلزم من هذه المواد لسد حاجة الأفراد فكان التجار هم الذين يستوردونه ويدفعون عنه مكوسا جمركية معقولة . وكان القسم الآخر يشمل سلعا تنتج مصر مثلها ، وكان التجار هم الذين يستوردون هذه السلع ويدفعون عنها مكوسا مرتفعة . ويتبين من الوثائق ان البضائع المستوردة من الخارج على الأقل فى عهد بطلميوس الثانى كانت أربع فئات بحسب المكوس الجمركية التى تجبى عنها ، وكان قدرها ٥٠٪ عن الفئة الأولى و ٣٣٪ عن الفئة الثانية و ٢٥٪ عن الفئة الثالثة و ٢٠٪ عن الفئة الرابعة . وكانت الفئة الأولى تشمل الزيت وعدة أنواع من النبيذ الفاخر فيما يبدو ، والفئة الثانية نبيذ خيوس وثاسوس وكذلك التين ، والفئة الثالثة العسل والجبن واللحوم والأسماك المجففة والكوامخ والاسفنج والجوز والرمان والآنية الفخارية ، والفئة الرابعة الصوف .

ومما يجدر ملاحظته انه اذا كانت هذه المكوس الجمركية تبدو مرتفعة جدا بالقياس الى المكوس التى كانت تجبى فى باقى بلاد البحر الأبيض المتوسط ، فان هذه المكوس البطلمية كانت تقابل الضرائب المفروضة على منتجات البلاد ، فقد كانت ضريبتا ٥٠٪ و ٣٣٪ اللتين يدفعهما مستورد النبيذ الاغريقى تقابلان ضريبتى النصف والثلث المفروضتين على زراعى الكروم ، وكذلك كانت ضريبة ٢٥٪ المفروضة على العسل الأجنبى تقابل ضريبة الربع المفروضة على النحالين فى مصر ، وضريبة ٢٥٪ المفروضة على الأسماك المجففة تقابل ضريبة الربع المفروضة على صائدى الأسماك المحليين .

أما الزيت فقد كان استيراده محظورا فى القرن الثالث قبل الميلاد الا للاستعمال الخاص ، وكان يفرض عليه مكوس قدرها ٥٠٪ ويتعين بيعه فى الحال للملك بسعر محدد.

ويبين مما أسلفناه ان المكوس الجمركية المرتفعة لم يقصد بها حماية المنتجات المصرية لذاتها ، وانما قصد بها حماية موارد الحكومة من تلك المنتجات .

اما عن واردات مصر من الجنوب والشرق فانه يرجح ان الملك كان يحتكر شراء هذه السلع عندما كان التجار ينقلونها الى مصر أو ممتلكاتها . ولا يبعد ان الملك كان يحتم بيع هذه السلع له بسعر محدد بمجرد وصولها، ولم تكن العطور والبخور والمر تستهلك عادة فى شكلها الخام بل تحول الى روائح ومساحيق وأدوية ، لكننا لم نجد بعد فى الوثائق شيئا عن النظام الذى كانت تقوم عليه صناعتها ، وان كنا لا نستبعد ان البطالمة كانوا يحتكرون هذه الصناعة . ولا يستبعد أيضا ان البطالمة كانوا يحتكرون تصدير هذه السلع فى شكلها الخام وكذلك بعد صنعها .

ويحتدم اليوم جدل عنيف بين العلماء حول من كان يقوم بتصدير السلع الأخرى من مصر ، فقد سبق أن عرفنا ان صادرات مصر الى العالم الغربى لم تقتصر على سلع الجنوب والشرق فحسب بل كانت تشمل أيضا منتجات مصرية كانت أهمها الحبوب والورق والمنسوجات الكتانية ، وان مصر كانت تصدر الى الجنوب والشرق كثيرا من مصنوعاتها مثل المنسوجات والزيوت والآنية الزجاجية والأسلحة وغيرها من معدات القتال ، وكذلك النبيذ المستورد من البحر الأبيض المتوسط . ونحن نرى ان الملك كان يسهم فى تجارة الصادرات لكنه لم يحتكرها ، وان كان يشرف عليها اشرافا دقيقا من أجل الحصول من التجار على ضرائب نظير مزاولتهم هذا العمل ، وكذلك من أجل الحصول على المكوس الجمركية ، وقبل كل شيء من أجل ضمان عدم استنزاف كل منتجات البلاد فى التصدير ، خشية أن يقل المعروض فى الأسواق المحلية فترتفع أسعار المعيشة تبعا لذلك مما يفضى حتما الى زيادة تكاليف الانتاج فتقل أرباحه !

خامسا ــ ضرائب شتى

وبالاضافة الى الضرائب المتعددة التى فرضها البطالمة على مزارعى الملك ومختلف أرباب الأراضى والمشتغلين بالحرف والصناعات والتجارة ، فرضوا على رعاياهم ضرائب شتى درت عليهم دخلا وفيرا . ولعل أهم هذه الضرائب المتنوعة كانت الضرائب التى فرضوها على : (١) المبانى (٢) العبيد (٣) تسجيل العقود (٤) البيع والشراء (٥) المزادات (٦) انتقال ملكية الأملاك الثابتة (٧) الميراث (٨) استخدام الموانى (٩) استخدام الطرق الخ .. وذلك فضلا عن السخرة وعدد من الضرائب الاضافية .

سادسا ـ نظام جباية الضرائب

وقد لجأ البطالمة الى نظام الالتزام فى جباية الضرائب نوعية كانت أم نقدية . وكان الملتزمون لا يقومون بجباية الضرائب ، لكنهم كانوا يسهمون فى الاشراف علـى جبايتها ، لأنهم بمقتضى تعاقدهم مـع الملك كانوا يضمنون له الحصول مما التزموه من الضرائب على قدر معين من المواد أو المال .

وكان يُشهر سنويا فى المزاد دخل كل ضريبة على حدة فى منطقة معينة لم تزد اطلاقا فى أى حالة على مديرية واحدة ، وكان يتعين الاعلان عن المزاد وكل ما ينطوى عليه مـدة كافية تسمح للراغبين فى المزايدة بتعرف دقائق ما سيشهر فى المزاد . وكان المزاد يرسو على من يضمن للحكومة أكبر حصيلة ممكنة من ضريبة بعينها . وتشير الوثائق الى أنه كان يمكن السماح بفتح باب المزايدة من جديد بعد انتهائها ، بشرط ألا تقل الزيادة المعروضة عن ١٠٪ مما كان المزاد قد رسا عليه . وكان يتعين على الملتزمين الذين يرسو المزاد عليهم أن يقدموا أشخاصا يضمنون الوفاء بما تم التعاقد عليه . وكان يتعين على الضامنين أن يقدموا ممتلكاتهم رهنا للوفاء بالالتزام المتعاقد عليه ، بشرط أن تكون هذه الممتلكات خالية من أى التزامات أخرى .

وكان يقوم بجباية الضرائب موظفون حكوميون تحت اشراف مراقبين مختلفين وكذلك ملتزم الضريبة . ولما كانت مصالح هؤلاء جميعا واحدة ، بسبب ما فرضه عليهم القانون من العقوبات اذا أخفقوا فى أداء سهامهم ، فقد كان طبيعيا أن يتعاونوا جميعا على دافعى الضرائب . وهكذا كان هؤلاء التاعسون تحت رحمة أشخاص كل همهم هو الخلاص من المسئولية الملقاة على عاتقهم ، دون نظر الى صالح دافعى الضرائب الذين ساءت حالهم على مضى الزمن بسبب ما أُرهقوا به .

وكان ما يجمعه المحصلون يودع لحساب الملتزم فى الخزائن الملكية ان كان نقدا ، وفى المخازن الملكية ان كان عينا . واذا تبين بعد الحساب الختامى آخر العام وجود زيادة فى ايراد حصيلة الضريبة ، فانها كانت تؤول الى الملتزم . أما اذا وجد عجز فانه كان يُطلب الى الملتزم وضامنيه المساهمة فى سداده . وكان ذلك يستتبع الاستيلاء على أملاك الملتزم والضامنين حتى يُسدد العجز .

ويبدو ان مهنة التزام الضرائب كانت مصدر ربح غير قليل فى بداية عهد البطالمة ، بدليل التنافس فى المزايدة وكثرة عدد الملتزمين . لكن يبدو ان الحال قد تبدلت فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، والا لما نصت لوائح بطلميوس الخامس على اعطاء الملتزم مرتبا فى حالة وفائه بما التزم به وعدم حصوله على مكسب من عمله .

الفصل السادس

القضـــــاء

القانون المدنى — القانون الجنائى — الهيئات القضائية

لما كان المصريون أهالى البلاد ويؤلفون الغالبية العظمى من سكانها ، ولهم عادات وتقاليد راسخة وقوانين ونظم جللها الزمن بالمهابة والوقار ، وكان الاغريق أكثر العناصر الأجنبية عددا وأجلهم شأنا وأوفرهم حظا من الحضارة ، فقد أدخل البطالمة كل هـــــذه الاعتبارات فى حسابهم عند وضـــع نظامهم القضائى . وبيان ذلك انهم احتفظوا للمصريين بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم ونظمهم الموروثة ، فكانت تطبق عليهم قوانينهم المدنية التقليدية التى أطلق الاغريق عليها اســـم « قوانين البلاد » .

أما اغريق مصر فانهم كانوا ثلاث فئات وهى فئة مواطنى المدن الاغريقية ، وفئة أعضاء الجمعيات القوميـــة وفئة الاغـــريق الذين لم يكونوا مواطنين فى المـــدن الاغريقية ولا أعضاء فى جمعيات قومية . ولما كان لكل مدينة وجمعية مجموعة من القوانين الاغريقية الخاصة بها وتعرف « بقوانين المواطنين » وكانت قوانين كل مجموعة تختلف عن الأخرى فانه من أجل التيسير بين القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع .

واذا كان البطالمة قد سمحوا للمصريين والاغريق بتنظيم معاملاتهم وفقا لأحـــكام القوانين المدنية التى كان يألفها كل منهما ، فانهم أصدروا للفريقين قانونا جنائيا موحدا وفرضـــوا عليهما اتباع قواعد موحـــدة للاجراءات القضائية .

أولا ــ القانون المدنى

١ ــ الاحوال الشخصية :

لقد كان طبيعيا أن توجد فوارق عديدة بين التشريعين المصرى والاغريقى ، ونرى مثلا واضحا لهذه الفوارق فى نظرة كل منهما الى المرأة ، فقد كانت المرأة تتمتع فى كنف القانون المصرى بمكانة اجتماعية وقدر من الاستقلال لم تعترف بهما الشرائع الاغريقية . وآية ذلك ان المرأة المصرية كانت لا تتزوج الا بمحض ارادتها وبشروط كانت عادة ثقيلة على الزوج الى حد انها كانت تجعل تعدد الزوجات أمرا متعذرا فى الواقع وان كان مباحا من حيث

المبدأ . وكانت أيضا تستطيع الانفصال عن زوجها متى شاءت ، ومطالبته بالصداق الذى نص عليه فى عقد الزواج ، والتصرف فى نفسها وفيما تملك دون أى قيد أو شرط . على حين ان المرأة كانت فى نظر القانون الاغريقى قاصرا ، ومن ثم فى حاجة الى وصى شرعى عليها فى كل تصرفاتها . لكن البطالمة ساووا بين المرأة المصرية والمرأة الاغريقية ، لا برفع الثانية الى المكانة الأولى ، وانما بالهبوط بالأولى الى مستوى الثانية حتى لا تضيق المرأة الاغريقية بحالتها . ونلمس الأثر الاغريقى أيضا فى بعض الشئون الخاصة بالميراث مثل استخدام الوصايا ، وحق أحد الزوجين فى أن يرث الآخر ، وحق الشخص فى قبول الميراث أو رفضه . ومن ناحية أخرى أثر القانون المصرى فى القانون الاغريقى الخاص بالأحوال الشخصية ، فقد أخذ الاغريق عن المصريين عقود الزواج الخاصة باثبات كل المسائل المالية ، والقواعد الخاصة بسيطرة الأبوين على أبنائهما ، وبعض أحكام الميراث مثل حق البنت فى الارث بالتساوى مع الولد وانما بشرط عدم وجود وصية تنافى ذلك .

ويعتقد كثير من العلماء ان القانون المصرى كان يعترف بنوعين من الزواج يدعو العلماء أحدهما « الزواج الكامل » والآخر « زواج المتعة أو التجربة » . ويفسر النوع الأول بأنه زواج يثبت وجوده عقد رسمى يتضمن الوعد بأن يحيى الطرفان معا حياة زوجية وكذلك شروطا خاصة بالصداق وغير ذلك من العلاقات المادية بين الطرفين ولا سيما حقوق الأولاد . أما النوع الثانى من الزواج فيفسر بأنه زواج لفترة محددة قد يتحول بعدها الى زواج كامل أو قد ينتهى فى آخر تلك الفترة ، دون أن تترتب عليه التزامات دائمة بين الطرفين . ويتفق العلماء اليوم على أن الزواج بين المصريين كان يقوم على اتفاق شفوى بين الطرفين ، أما العقد الذى يصحبه فانه كان لا يتمم الزواج وانما يثبت وجوده وينظم العلاقات المادية بين الطرفين ويحفظ حقوق الأولاد .

أما عن الزواج بين الاغريق ، فانهم فى الاسكندرية وبطوليميس كانوا يحررون عقدين أحدهما مدنى والآخر دينى . وكان الاغريق الذين يعيشون خارج هاتين المدينتين يعرفون نوعين من العقود وهما « عقود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » . وقد كان هذان النوعان من العقود يمثلان نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج ، ويقصد بهما تنظيم العلاقات الشخصية والمادية بين الطرفين واثبات حقوق الأولاد .

ووفقا للقانونين المصرى والاغريقى كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقة من صورتين يثبت فيهما انه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر .

ويفرق القانونان المصرى والاغـريقى تفريقا واضحا بين الأحرار والعبيد . وكان العبيد ثلاث فئات وهي : عبيد الملك ، وعبيد الأفراد ، وعبيد المعابد .

وقد كان من حق المصريين والاغريق على السواء عمل وصيات . ولكى تكون الوصية صحيحة كان يتعين أن يحررها موثق العقود ، لكنه كان فى وسع الموصى أن يقوم بذلك ثم يقدمها الى موثق العقود ، وفى الحالتين كان يجب اتمام ذلك بشهادة الشهود . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون المصرى يرتب الورثة طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذى كانت أخته تساوى معه فى مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقى يعطى الأبناء الأسبقية فى وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبنـــاء متساوية ويحق للبنات المشاركة فى الارث اذا لم يكن قد اخذن مهورهن .

٢ ـ الاحوال العينية :

ويعتبر تحرير العقــود وتسجيلها أيسر السبل لاثبات حقوق الملكية فى جمـــاعة متحضرة . وقد كان تحرير العقود فى مصر الفرعونية وقفا على كتبة ينتمون الى الجماعات المقدسة ، أما فى عصر البطالمة فان تحـرير العقود لم يعد مقصورا على أولئك الكتبة ، فقد احترف هذه المهنة أفراد من ســـائر الناس . وقد كانت العقود تحرر اما وفقـا لأحكام القانون المصرى أو أحكام القــانون الاغريقى . والى جانب العقود المكتوبة كان العرف المصرى يعرف الاتفاقات الشفوية ، وكان على المدين الذى ينكر أنه تعاقد شفويا على دين أن يقسم على صحة ما يقول .

ولضمان تنفيــذ العقـــود بأمانة كان المصريون والاغريق يضـــعون فيها شروطا جزائية كانت مألوفة فى القانون الاغريقى ، مما يدل على ان قانون الدين الاغريقى قد طبق فى مصر على المصريين والاغريق سواء بسواء منذ بداية عصر البطالمة . ولابد من أنه قد سبق ذلك الغــــاء قانون الملك المصرى بوكخوريس الذى كان لا يسمح بحبس المدين أو استعباده .

ومن أجل ضـــمان حقوق الدائنين كان القانون المصرى يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها عـــلى شروط جزائية ، فانه منذ القدم كان الدائنون يحتاطون بوسائل متعددة ضـــد ســـوء نية المدينين أو عسرهم المالى . واحـــدى هـــذه الوسائل تشــــبه ما نسميه اليوم « برهن الحيازة » ، ومعنى ذلك أنه عند عمل القرض يقدم المدين للدائن بمثابة ضمان عينا تعادل قيمتها عـــلى وجه التقريب المبلغ الذى استدانه على أن يتعهد الدائن برد العين عندما يستوفى دينه . أما الوسيلة الثانية فتشـــبه

ما نعرفه « بالرهن الضمانى » وهو فى معناه القانونى حق الدائن على عين تبقى فى قبضة المدين غير ان قيمتها تضمن سداد الدين . أما الوسـيلة الثالثة فانها تماثل ما نعرفه « بالبيع الوفائى » وتتلخص فى أن يبيع المدين للدائن العين المقدمة ضمانا للدين مع احتفاظ الأول بحق استرجاع عقاره عند سـداد الدين .

ووفقا لأحكام القانون المصرى كان التزام المدين قبل الدائن لا ينتهى بسداد الدين بل استرداد العقد الذى منح الدين بمقتضاه . أما وفقا لأحكام القانون الاغريقى فان التزام المدين كان فى الأصل ينتهى بسـداد الدين لكن لم يلبث أن ساد بين الاغريق المبـدأ المصرى القائل ببقاء الالتزام قائما طالما بقى العقد سليما . ولذلك كانت تتخذ عدة وسائل لمواجهة ذلك ، كان من بينها حصول المدين على ايصال يثبت فيه انه لم يعد للدائن حقوق قبله ، أو رد العقد مصـحوبا بعقد جديد يتضمن النص فيه عـلى زوال كل التزامات الدائن لدى المدين .

ويتصل اتصالا وثيقا بالقروض الفوائد التى تجبى عنهـا . وتدل الوثائق البردية الحديثة على أن أقصى سعر مسموح به رسميا للفائدة على القروض كان ٢٪ شهريا أى ٢٤٪ سنويا . وبرغم ارتفاع هـذا السعر فانه لم يكن كافيا لسد جشع المرابين ، ولذلك فانهم لكيلا يقعوا تحت طائلة القانون كانوا يلجأون الى الحيلة بادماج الفائدة فى المبلغ الواجب سداده دون النص فى العقد عـلى سعر الفائدة . وفى حالة عدم الوفاء بالدين فى الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة معينة ينص عليها فى العقد . وكان القانون الاغريقى يسمح بأن تصل هذه الغرامة الى مثل الدين الأصلى ، أما القانون المصرى فكان يكتفى بنصف ذلك ، وهـو مـا كان يحدث عادة حتى فى حالة العقود الاغريقية .

وكان القـانونان المصرى والاغريقى يعترفان بحق الأفراد فى مباشرة أعمالهم عن طريق الوكلاء ، وبالالتجاء الى التحكيم فى حالة حدوث خلاف على تفسير أحكام العقود ، وبتأليف شركات تجارية أو صناعية لمباشرة أعمال عامة أو خاصة . وكانت الأعمال العامة التى تتكون الشركات من أجل مباشرتها تشمل التزام الضرائب واحتكارات الحكومة ، وكان الشركاء مسـئولين أمام الدولة عن العجز الناجم عن عدم الوفاء بالتزاماتهم . وسـواء أتألفت الشركة لمباشرة أعمال عامة أم خاصة كان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابى يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته .

وكان القـانونان المصرى والاغريقى يتضمنان أحكاما مسهبة تبين حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أراض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو عمال . وكان يستطيع مستأجر أى نوع من أنواع الأرض أن يؤجر الأرض من الباطن الا اذا نص فى عقد الايجار الأصلى على خلاف ذلك .

ولكل صفقة من صفقات البيع المصرية كان يحرر عقدان ، يطلق على أحدهما « عقد المال » وعلى الآخر « عقد التنازل » . وكان ينص فى الأول على تسلم البائع ثمن العين المبيعة وعلى أن « قلبه راض » للدلالة على اتمام الاتفاق بين الطرفين عن طيب خاطر . وكان ينص فى العقد الثانى على تنازل البائع للمشترى عن كل ماله من حقوق على العين المبيعة .

وكما كان لتفاعل كل من التشريعين المصرى والاغريقى مع بعضهما بعضا نتائج واضحة فى قوانين الأحوال الشخصية ، كذلك كان لهذا التفاعل نتائجه فى قوانين الأحوال العينية . وتبدو مظاهر الأثر الاغريقى فيما أدخل على القوانين المصرية من الأحكام وحماية الملكية الفردية . أما الاغريق فانهم أخذوا عن المصريين بعض أحكام القانون المصرى الخاصة بالالتزامات و « الرهن الضمانى » و « البيع الوفائى » وأهم نصوص عقدى المال والتنازل التى أدمجوها فى عقد واحد شاع استخدامه فى البيوع .

وتتبين من الوثائق انه فى عصر البطالمة كان الحكم الذى تصدره محكمة مصرية لا يعتبر قاطعا ونهائيا الا اذا صحبه عقد تنازل عن الدعوى . ويبدو ان العرف الاغريقى قد تأثر بهذا المبدأ المصرى فى بعض الحالات .

ثانيا ــ القانون الجنائى :

وكان القانون الجنائى البطلمى يفرق بين خمسة أنواع من الجرائم وهى :

١ ــ الجرائم التى ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الاشارة أو الفعل أو التهديد بالاعتداء واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين والسرقة والحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتزوير والتدليس .

ومما يسترعى الانتباه انه فى كل هذه الجرائم كانت اقامة الدعوى من شأن المعتدى عليه الى حد أنه اذا لم يمثل أمام المحكمة ليتولى مهمة الاتهام برئت ساحة المتهم .

٢ ــ الجرائم التى ترتكب ضد الخزانة الملكية . وكانت هذه الجرائم فئتين رئيسيتين: احداهما الجرائم التى تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر فى دخل الدولة من الضرائب ، وكان يمكن أن يرتكبها دافعو الضرائب أو عمال المالية أو الملتزمون أو غيرهم ممن يسهمون فى التزام الضرائب .

وكانت الفئة الأخرى تشمل الجرائم التى ترتكب ضد الخزانة الملكية لمساسها بصوالح أرض الملك والاحتكارات .

ومما يجدر بالملاحظة انه فى حالة اختصام فرد مع الخزانة الملكية حظر على المحامين الدفاع عنه ضد مصالح الخزانة والا تعرضوا لعقوبة صارمة .

٣ — جرائم الخيانة العظمى ، وقد كان القانون البطلمى لا يفرق بين الدولة والتاج ، ومن ثم يعتبر الجرائم التى ترتكب ضد الدولة جرائم ضد التاج . وقد ترتب على فكرة حق الملوك الالهى انه أضفيت على هذه الجرائم صبغة دينية وكان يفصل فيها على هذا النحو . وكانت هذه الجرائم تشمل عدم تقديم الاحترام الواجب للملك وأسرته ، والثورة ضد الملك ، والحنث بالقسم الملكى .

٤ — اساءة استخدام الحقوق العامة ، كأن يغير الشخص بدون وجه حق لقبه الجنسى والسياسى .

٥ — الجرائم الدينية ، وتتحدث الوثائق البردية البطلمية عن انتهاك حرمة الأماكن المقدسة ، وعن اساءة استخدام حق الالتجاء الى المعابد .

ثالثا — الهيئات القضائية :

وكان الملك يعتبر كبير القضاة فى البلاد ، لكنه كان عادة ينيب عنه قضاة آخرين للفصل فى المنازعات بين رعاياه . ونحن نعتقد انه لم توجد عندئذ تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الجنائى ، وان كنا نعتقد انه كانت توجد تفرقة بين الجرائم الخطيرة أو العامة مثل الخيانة العظمى والقتل ، وبين الجرائم العادية أو الخاصة مثل مختلف أنواع الاعتداء على الأشخاص أو أموالهم . ونحن نرجح ان سائر المحاكم كانت تنظر فى القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية ، أما الجرائم الخطيرة فلا يبعد انها كانت من اختصاص محكمة خاصة لعلها كانت ما تدعوها المصادر القديمة « محكمة الملك » .

ويمكن تقسيم الهيئات القضائية فى عهد البطالمة الى أربعة أنواع وهى : (١) محاكم المصريين ؛ (٢) محاكم الاغريق ؛ (٣) المحاكم المختلطة ؛ (٤) محاكم القضاء الخاص .

١ — محاكم المصريين

وتتبين من وثائق القرن الثانى قبل الميلاد ان محاكم المصريين كانت تتألف من ثلاثة قضاة من الكهنة المصريين ، فضلا عن عضو آخر لم يكن قاضيا ولكنه كان يقوم بدور هام جدا ، وهو تلخيص القضايا وتحضيرها وتلاوة الوثائق أمام المحكمة عند انعقادها وتنفيذ ما تصدره من الأحكام . ويدل اسم هذا العضو واسم منصبه على أنه كان اغريقيا . ولعل البطالمة قد استحدثوا مهمته تيسيرا لتصريف العدالة فى المحاكم الوطنية ، ولا سيما بعد أن وضعوا قانونا جنائيا موحدا للمصريين والاغريق . وكانت هذه المحاكم تختص بالفصل فى قضايا المصريين وكذلك القضايا المدنية التى يكون موضوع النزاع فيها عقدا مصريا حتى ولو كان أحد طرفى الخصومة اغريقيا .

٢ — محاكم الاغريق

وكانت توجد فى مصر عدة أنواع من المحاكم الاغريقية ، وأكثر المعلومات التى

لدينا تخص « محاكم القضاة الأغريق » ، وكانت محاكم متنقلة للفصل فى قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون فى مختلف أرجاء مصر ولم يكونوا مواطنين فى احدى مدن مصر الاغريقية . ويبدو ان مهمة هؤلاء القضاة الاغريق لم تكن مستديمة وانما لمدة معينة لا نعرف مداها على وجه التحديد ، وان كل هيئة من هذه الهيئات القضائية الاغريقية كانت تتألف من ثلاثة قضاة وعضو يلخص القضايا ويحضرها وكاتب ومحضر . وكانت كل هيئة تختص بالفصل فى قضايا منطقة معينة تشمل عددا من المديريات . ويرجح ان المحكمة كانت لا تنعقد الا فى عواصم المديريات المختلفة والمدن الكبيرة .

وتذكر وثيقة بردية مشهورة نوعين جديدين من المحاكم الاغريقية فى الاسكندرية كان أحدهما يتألف من عشرة محلفين وملخص القضايا ومحضرها ، وكان الآخر يتألف من محكمين يعملون تحت اشراف حارس القوانين . ولعل النوع الأول هو الذى كان يفصل فى قضايا هيئة المواطنين عندما يفشل النوع الثانى فى فض الخلاف وديا بين المتخاصمين . واذا كنا نسلم بوجود محكمة القصر أو محكمة الملك فى عهد البطالمة ، فاننا لا نعرف كيفية تكوينها ولا نستطيع الجزم باختصاصاتها .

وكانت لبطوليميس أيضا محاكمها الخاصة بالفصل فى قضايا مواطنيها باعتبارها مدينة اغريقية . وفضلا عن ذلك فان محكمة القضاة الاغريق المتنقلة كانت تنعقد فيها مثل ما كانت تنعقد فى الاسكندرية للفصل فى قضايا الاغريق وغيرهم من الأجانب الذين ينزلون هناك . أما المدينة الاغريقية الثالثة فى مصر ، وهى نقراطيس ، فاننا لا نعرف شيئا على الاطلاق عن القضاء فيها .

٣ ــ المحكمة المختلطة

وقد كان طبيعيا أن يؤدى التعامل بين المصريين والاغريق الى نشوب قضايا يكون طرفا الخصومة فيها من جنسيتين مختلفتين . وتحدثنا وثائق القرن الثالث قبل الميلاد عن محكمة مختلطة لا نعرف كيفية تكوينها ولا مدى اختصاصاتها ، لكننا نرجح أنها كانت تختص بالفصل فى القضايا المدنية وكذلك القضايا الجنائية العادية بين المصريين والاغريق . ولا يبعد أن هذه المحكمة قد فقدت كثيرا من أهميتها عندما نقصت اختصاصاتها نتيجة لأحكام القرار الذى أصدره بطلميوس الثامن ايوارجتيس الثانى فى عام ١١٨ ق . م . بأنه اذا نشب خلاف بين مصرى واغريقى نتيجة لعقد محرر بينهما فان لغة هذا العقد هى التى كانت تقرر نوع القانون الذى يطبق وتبعا لذلك نوع المحكمة التى يعرض الخلاف عليها . فاذا كان العقد مصريا فان القانون المصرى هو الذى كان يطبق ومحكمة القضاة المصريين هى التى كانت مختصة بالفصل فى الموضوع . أما اذا

كان العقد اغريقيا فان القانون الاغريقى هو الذى كان يطبق ومحكمة القضاة الاغريق هى التى كانت صاحبة الاختصاص فى الفصل فى الدعوى . أما اذا نشب خلاف بين طرفين مصريين فانه كان يتعين عرض الأمر على محكمة القضاة المصريين . ويبدو ان القرار لم يشر الى القضايا التى تنشأ بين طرفين اغريقيين لأنه لم يكن هناك أى لبس فى أن ذلك كان من اختصاص محاكم القضاة الاغريق . ولما كان هذا القرار خاصا بالقضايا المدنية فلابد من أن القضايا الجنائية بين طرفين ينتميان الى جنسيتين مختلفتين قد بقيت من اختصاص المحكمة المختلطة .

٤ ــ محاكم القضاء الخاص

وقد كان يدخل فى نطاق « القضاء الخاص » أولا الشكاوى الموجهة ضد موظفى الادارة وعمال المالية وثانيا القضايا التى يمس موضوعها موارد الملك وثالثا القضايا التى تخص الأشخاص الذين يخدمون موارد الخزانة حتى اذا كان موضوع هذه القضايا لا يمس تلك الموارد . وقد كان يفصل فى كل هذه المشاكل الملك وكبار موظفيه أو هيئات قضائية يرأسها هؤلاء الموظفون . ولما كان لأكثر هذه القضايا صبغة مالية ، فقد كان يقوم بدور كبير فى القضاء الخاص وزير المالية ومساعدوه .

ويبدو ان البطالمة قد أنشأوا أيضا محاكم خاصة لرجال الجيش ، فقد وصلت الينا من الفيوم وثائق تحدثنا عن نظر قضايا بين رجال من الجيش أمام محكمة مثل محكمة العشرة التى مر بنا ذكرها عند الكلام عن القضاء فى الاسكندرية .

الفصل السابع

الحيـــاة الاجتماعيـــة

الاغريق — المصريون — الثورات القومية المصرية

أولا — الاغريق

١ — حالهم على عهد البطالمة الاوائل

عرفنا ان البطالمة الثلاثة الأوائل كانوا فى حاجة ملحة الى الاغـريق لتكوين جيوش وأساطيل من طراز جيوش وأساطيل منافسيهم وكذلك لاعادة تنظيم شئون الادارة والنهوض بمرافق البلاد الاقتصادية واستغلالها استغلالا منظما دقيقا . وازاء كل ذلك كان يتعين على البطالمة ألا يكتفوا فقط بفتح أبواب مصر على مصاريعها للأجانب ، بل أن يجزلوا لهم العطـاء ويمنحوهم مركزا ممتازا فى وطنهم الجديد ، ليضمنوا استمرار وفودهم على مصر بكثرة واستقرارهم فيها على الدوام . وينبغى أن نتذكر انه فى ذلك الوقت كان العـــالم الاغريقى هو كل شىء ، وان الحضـــارة الاغريقية كانت أسمى الحضـــارات وأرفعها شأنا ، وان حضارة الناس كانت تقاس بمقدار حظهم من تلك الحضارة ، وان البطالمة كانوا لا يستطيعون أن يبنوا لأنفسهم مجدا شامخا فى نظر العالم الاغريقى باعتبارهم فراعنة مصر مهما أنفقوا فى بلاد الاغريق من الأموال . ولذلك كان يجب أن يكون مظهر مصر اغريقيا وأن تبرز مصر فى ذلك العالم باعتبارها دولة اغريقية لا دولة شرقية .

وازاء الظروف الخـارجية التى أحاطت ببطلميوس الأول حين كان يرسى قواعـــد دولته فى مصر ، كان يتعين عليه أن يعمل على اجتذاب الاغريق الى مصر والاستقرار فيهـا بشتى الوسائل ، دون أن يهمل فى الوقت نفسه مشاعر المصريين . ولعله لم يتخذ منف عاصمة له فى بادىء الأمر ارضـاء للمصريين فحسب ، بل أيضا أو قبل كل شىء لأنه كان أكثر أمنا فيها من الاعتداءات الخارجية ، إذ أنه ما كاد يستشعر مقدرة جيشه وأسطوله على تأمين مركزه فى الاسكندرية حتى نقل مقره الى هذه المدينة الاغريقية . واذا كان قد استخدم بعض المصريين فى المناصب الادارية الهامة أو سمح لهم بالاستمرار فيها ، فانه يبدو محتملا أنه اتخذ أغلب مساعديه الاداريين من رجال على شاكلته فى التدريب والتفكير . وقد ضمن لهؤلاء الاغريق والمقدونيين مثـــل ما ضمن لاخوانهم فى شتى نواحى الحيـاة المصرية أجرا طيبا ومركزا ممتازا .

ولا جدال فى أن السياسة العامة التى اتبعها بطلميوس الثانى كانت تستهدف ممالأة الاغريق على حساب المصريين ونشر الحضارة الاغريقية فى أرجاء البلاد . وتشير كل الدلائل الى أن بطلميوس الثالث قد سار على نهج سياسة أبيه . ويبين ان البطالمة الأوائل قد أقاموا حكمهم فى مصر باعتبارهم غزاة فاتحين فلم ينسوا أو يتناسوا اطلاقا أصلهم الأجنبى ولم يعتمدوا فى تأييد سلطانهم الا على الاغريق والمقدونيين الذين كانوا يشاركونهم الفخار بأصلهم والاعتزاز بحضارتهم .

وقد كان أول مظاهر عطف البطالمة الأوائل على الاغريق تهيئة البيئة المناسبة لمعيشتهم ، ولذلك عنوا ببناء الاسكندرية ومنحها مظاهر الحياة الخليقة بالمدن الاغريقية حتى غدت أعظم هذه المدن فى البحر الأبيض المتوسط . وأنشأ بطلميوس الأول مدينة بطوليميس ووفر لها كل أسباب الحياة الاغريقية . وفضلا عن ذلك فان نقراطيس ، تلك المدينة الاغريقية القديمة ، استمرت تنعم بما ألفته من نظم الحياة الاغريقية وأساليبها . وقد كان هدف البطالمة من وراء كل ذلك أن يحتفظ الاغريق الذين ينزلون فى هذه المدن بحضارتهم الاغريقية فى طول مصر وعرضها .

أما الاغريق الذين ضاقت بهم مدن مصر الاغريقية ، فانهم تفرقوا بين جنبات الوادى واستقروا فى المدن والقرى المصرية القديمة أو فى القرى الجديدة التى أنشأها لهم البطالمة وخاصة فى الفيوم . واذا كنا نجد بين هؤلاء الاغريق عددا من مواطنى مصر الاغريقية ، فان أكثرهم كانوا أصلا مواطنى مدن أخرى فى العالم الاغريقى . وعند استقرار هؤلاء الاغريق فى وطنهم الجديد حتم البطالمة عليهم الاحتفاظ بلقبهم السياسى القديم عند ذكر أسمائهم فى الوثائق الرسمية . وقد كان سكان مصر من غير أهلها الوطنيين ينقسمون طبقات متفاوتة فى المرتبة تميزها ألقاب سياسية وجنسية ، وكان محظورا الانتقال من احدى طبقات السكان الى طبقة أخرى دون الحصول على اذن بذلك من الملك .

وقد كان الاغريق يؤلفون جماعات كانت أهمها شأنا تلك الجماعات القومية التى كان أغلبها يتصل اتصالا وثيقا بالجيش ، ويتألف كل منها ممن ينتمون الى قومية بعينها . وقد كان لكل جماعة من هذه الجماعات مجموعة قوانينها الخاصة ويظهر فيها بوضوح أثر المدن الأيونية والدورية والأيولية التى وفد منها أعضاؤها فى الأصل . واذا كان البطالمة قد اعترفوا بقوانين هذه الجمعيات فانهم مع ذلك عملوا على التنسيق بينها بما كانوا يصدرونه من مختلف أنواع الأوامر الملكية . وقد كانت هذه الجماعات منظمة على نمط المدن الاغريقية ، وتتمتع بقدر من الحكم الذاتى ، ولكل منها حكامها وكهنتها ومقرها فى مكان معين .

وكانت تلي هذه الجمعيات فى الأهمية

أو لعلها كانت تتصل بها جمعيات رجـــال الجيمنازيوم فقد كان الاغريق ، حيثما نزلوا سواء فى المدن الاغريقية أم فى المدن والقرى المصرية ، يتمتعون بهذه المعاهد الجليلة الشأن التى كانت قوام الحياة الاجتماعية والفكرية فى بلاد الاغريق منذ أقدم العصور .

وكانت تأتى بعد ذلك فى الأهمية جمعيات اغريقية كان لهـا طابع دينى أو اجتمـاعى . ويُعزى انتشار هذه الجمعيات بين اغريق مصر الى ميل هؤلاء الاغريق الى لون من الحياة الاجتماعية يعيضهم الى حد عن جانب من حياة « المدينة » كان عزيزا عليهم قريبا الى قلوبهم ولكنهم حرموه فى مصر ، اذ لم يكن أغلب اغريق مصر مواطنين فى مـــدن يشتركون فى مجالسها وانتخاباتها ، فلا عجب أن شغفوا بتلك الجمعيات لتوفر لهم الاجتماع والمناقشة والانتخاب .

٢ ـ علاقاتهم بالمصريين

ولا جدال فى أن أولئك الأجانب ، الذين وفدوا على مصر أفواجا تلو أفواج فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد ، كانوا يكونون طبقة منفصلة من سكان البلاد تفصلهم فوارق شاسعة عن أهليها . فقد كان مركز هؤلاء الأجانب الاجتماعى والسياسى والاقتصـــادى مختلفا عن مركز المصريين وأكثر منه امتيازا . وحين كان الاغريق فى القرن الثالث يؤلفون الطبقة العليا فى البلاد ، ويقبضون على أرفع المناصب ، ويســـتمعون بخيرات مصر ، ويعتبرون أنفسهم أهل حضارة رفيعة دونها كافة الحضـــارات الأخرى ، ويعيشون فى أوساط خاصة بهم ، ويحيون حيــاتهم التى اعتادوا أن يحيوها فى بلادهم ، كان المصريون يؤلفــون الطبقة السفلى ، ويشعرون بأنهم سلبوا كرامتهم كما سلبوا خيرات بلادهم ، ومـــع ذلك اســـتمروا يحتفظـــون بعاداتهم وتقاليـــدهم ويذكرون مجدهم التالد . وازاء كل ذلك نستطيع أن نوقن تماما بأن الزواج بين المصريين والاغريق فى الشطر الأول من حكم البطالمة كان أمرا بعيد الاحتمال . ومع ذلك لا يجوز الجزم بأنه لم يحدث عندئذ أى تزاوج على الاطلاق .

٣ ـ حالهم على عهد البطالمة الأواخر

وهكذا كان قوام سياسة البطالمة الأوائل أن يشركوا الاغريق فى حكم البلاد والسيطرة على المصريين ، وان يوفروا لأولئك المحظوظين أسباب الرزق المتسع وأساليب الحيـــاة التى توافق مزاجهم الرقيق ، ففاز الاغريق بكل الغنم وتحمل المصريون كل الغرم . أما منذ عهد بطلميوس الرابع فقد أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة المصريين تنطوى على افساح بعض المجال لهم الى جانب الاغريق أملا فى كسب ودهم وولائهم ، لكن البطالمة لم يذهبوا الى حد مساواة المصريين الاغريق . ولا أدل على ذلك من أنه ما زال أغلب رجال الجيش وقوادهم وكبار الحكام من الاغريق ، وما زالت الضياع تمنح للاغريق ، وما زالت

أكبر الاقطاعات تمنح للاغريق ، ولم يعتبر فى عداد الطبقة العليا الممتازة من سكان البلاد الا الاغـريق والمصريون القـلائل الذين اصطبغوا بصبغة اغريقية .

واذا كان بعض المصريين قد تأغـرقوا ، نتيجة لاقبالهم عـلى التعليم الاغريقى حتى أصبحوا يكتبون الاغريقية ويقرأونها بسهولة ولاتخاذهم ملابس اغريقية وأسـماء اغريقية فأكسبتهم هذه المسحة الاغريقية مكانة ممتازة هى مكانة الاغريق ، فان بعض الاغريق أيضا قد تأقلموا اذ أنهم تعلمـوا اللغة المصرية وعبدوا آلهة مصرية واتخذوا أسماء مصرية وعادات مصرية .

٤ ـ علاقاتهم بالمصريين

ويبدو أنه فى الشطر الثانى من حـكم البطالمة عندما انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق ، وتأغرق بعض المصريين وتأقلم بعض الاغريق حدث شيء من التقارب بين العنصرين المصرى والاغريقى ، ونشأ عن ذلك فى اعتقاد كثير من المحدثين أسر مختلطة اغريقية — مصرية . ويستدل على هـذه الظاهرة بأن الوثائق تتحـدث عن كثيرين ممن يحملون أسماء مصرية واغريقية ، ولذلك لم يعـد الاسم منذ القرن الثانى قبل الميلاد دلالة على الجنسـية . ونحن لا نرى ان الجمـع بين الأسماء المصرية والاغريقية يدل حتما فى كل حالة على تزاوج بين المصريين والاغريق ، فلم يصل الينا بعـد وثيقة زواج أو طلاق واحدة بين طرفين أحدهما مصرى والآخـر اغريقى . وقد يكون الجمع بين الأسـماء المصرية والاغريقية نتيجة لاصـطباغ بعض المصريين بالصـبغة الاغريقية أو أقلمة بعض الاغريق ، مما حدا بالفريق الأول الى اضافة أسماء اغريقية الى أسمائهم المصرية ، وبالفريق الثانى الى اضافة أسماء مصرية الى أسمائهم الاغريقية . ولسنا فى حاجة الى الذهاب بعيدا التدليل على صحة ما نراه ، فلا يزال بين ظهرانينا كثير من المصريين ممن لم يكونوا ثمرة تزاوج مختلط وانما ثمرة أبوين مصريين كانت ثقافتهما انجليزية أو فرنسـية فأعطيا أبناءهما أسماء انجليزية أو فرنسية . ومـع ذلك لا نسـتبعد أن يكون قد حـدث فى الشطر الثـانى من عصر البطالمة تزاوج بين المصريين المتأغرقين والاغـريق المتمصرين . لكننا نستبعد أن يكون ذلك التزاوج قد حدث بالكثرة التى يتوهمها البعض ، اذ أن تلك الفئة من المصريين والاغـريق لم تكن الا أقلية بالنسبة للغالبية العظمى من الاغريق والمصريين الصميمين ، وانه اذا كان الشـطر الثانى من عهد البطالمة قد شـهد تقاربا بين المصريين والاغريق ، فقد شهد أيضا ثورات المصريين القـومية عـلى البطالمة والاغريق ، ولابد من أن تلك الثورات قد حدت من أثر ذلك التقارب . ولو صـح أن التزاوج بين العنصرين المصرى والاغريقى قد شـاع فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، لما بقى سكان البلاد منقسمين طبقتين مختلفتين فى المرتبة ،

احداهما عليا وتتألف من الاغريق وأشباههم والأخرى سفلى وتتكون من المصريين الصميمين .

٥ ـ فئات الاغريق

وقد كان الاغريق ومن على شاكلتهم من الأجانب المقيمين فى مصر يتألفون من الفئات التالية :

أولا — فئة الموظفين ، وكانت تشمل الموظفين المدنيين والعسكريين .

ثانيا — فئة أرباب المهن الفنية ، وكانت تشمل العلماء ورجال الأدب والأطباء والمحامين والمعلمين والمعماريين والمصورين والمثالين والفنانين ومحترفى الألعاب الرياضية .

ثالثا — فئة رجال الأعمال ، وكانت فئة كبيرة من الأثرياء متوسطى الحال الذين يمتلكون أراضى وعقارات ويشتغلون بالتزام بعض الحرف أو الصناعات أو جباية الضرائب .

رابعا — فئة أرباب الحرف اليدوية ، وكانت فئة كبيرة تتألف ممن كانوا يتكسبون قوتهم من الأعمال المضنية فى الزراعة والصناعة والتجارة كعمال وصناع وما أشبه ذلك .

٦ ـ حضارة اغريق مصر

ولما كان الاغريق قد أحضروا معهم من بلادهم دياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وكانوا يخضعون لقوانين اغريقية ويحاكمون أمام محاكم اغريقية ، ويعيشون عادة فى أوساط اغريقية ينشئون فيها مدارسهم ومنتدياتهم وجمعياتهم ، وكانت أفواج الاغريق تفد على مصر باستمرار حتى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد فتطعمهم بدماء جديدة ، وكانت لا توجد قرينة على تزاوجهم مع المصريين حتى نهاية القرن الثالث ، وكانوا يعتزون بحضارتهم الاغريقية ، ولا سيما انها كانت مصدر ما يتمتعون به من الخير العميم فى مصر ، فلا شك فى أنه وسط هذه الظروف قد حافظ اغريق مصر على ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فبقوا اغريقا خالصين حتى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد .

ولا جدال فى أن اغريق مصر كانوا يعيشون فى أوساط اغريقية بوجه عام ، لكن يجب ألا ننسى ان هذه الأوساط ، حتى فى المدن الاغريقية ، كانت تقوم فى بيئة غريبة عن الحياة الاغريقية الى أقصى حد ، ولذلك فان المحافظة على قوة الروح الاغريقى بين اغريق مصر كانت لا تتوقف على استمساكهم بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فحسب ، بل كذلك على تغذية هؤلاء الاغريق على الدوام بدماء اغريقية جديدة من بلاد الاغريق تكون بعيدة عن كافة المؤثرات الغريبة عن الروح الاغريقى . لكن منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد انقطع وفود أفواج جديدة من الاغريق بسبب نقص عددهم فى بلادهم ، فكان طبيعيا أن يضعف الروح الاغريقى تدريجا بين اغريق مصر . ومع ذلك فانه مهما ضعف هذا الروح قد بقى اغريق مدن مصر

١

الاغريقية اغريقا خالصين نتيجة لعدم الاعتراف بالزواج بينهم وبين المصريين فى هذه المدن ، وتتيجة لاستمرار المعاهد والمدارس الاغريقية فى متابعة نشاطها ، ولا سيما ان الاسكندرية كانت لا تزال منارة الحضارة الاغريقية وتتمتع بشهرة عظيمة فى العلوم والفلسفة والآداب .

ان العامل الذى أدى الى ضعف الروح الاغريقى فى مدن مصر الاغريقية كان له أثر أقوى بطبيعة الحال خارج هذه المدن ، ولا سيما انه منذ أواخر القرن الثالث أصبحت اقطاعات الاغريق وراثية ، وبذلك أصبحت لأرباب هذه الاقطاعات مصالح دائمة فى البلاد . وقد كانت رعاية هذه المصالح تتطلب منهم أن يداروا أهل البلاد والا يشمخوا بأنوفهم عليهم . وفى الوقت نفسه أخذ البطالمة يتبعون سياسة جديدة فى معاملة المصريين ، فانهم منذ عهد بطلميوس الرابع أخـذوا يفسحون المجال أمام المصريين ويمنحونهم من الامتيازات ما رفع من شأنهم وضيق شقة الفارق بينهم وبين الاغريق وساعد على التقرب بين العنصرين ، حتى لا يبعد أن يكون قد تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية — الاغريقية .

وقد أسهمت هذه العوامل المختلفة فى اضعاف الروح الاغريقى بين اغريق الأقاليم ، غير انه لما كانت الصبغة الاغريقية تكسب صاحبها مركزا ممتازا مهما كانت جنسيته ، فهل تشك فى أن غالبية الاغريق استمسكوا بحضارتهم الاغريقية ؟ يبدو لنا انه مهما ضعف روح اغريق الأقاليم حتى كانوا يختلفون اختلافا كبيرا عن الاغريق القدماء ، وانه اذا كان بعض الاغريق قد عبدوا آلهة مصرية وتعلموا اللغة المصرية وتزوجوا مصريات واتخذوا أسماء وعادات مصرية ، فان أغلبهم بقوا اغريقا خالصين ، وذلك بفضل أثر مدن مصر الاغريقية ، وأثر معاهد الاغريق وجمعياتهم ومدارسهم التى كانت توجد حيثما وجد عدد كاف من الاغريق ، وكذلك بفضل ما كان الاغريق يتمتعون به من مكانة ممتازة فى البلاد .

ثانيا ــ المصريون :

١ ــ البطالمة والطبقات المصرية المختلفة

ولا ريب فى أن العناصر الأجنبية لم تكن سوى أقلية تعد بالآلاف بالنسبة الى المصريين الذين كانوا يعدون بالملايين . وكانت تأتى فى مقدمة المصريين الطبقة الأرستقراطية بشقيها الدنيوى والدينى . ويبدو أن بطلميوس الأول سمح للأرستقراطية المصرية الدنيوية بالاحتفاظ بممتلكاتها وبشىء من السلطان فى الادارة . لكننا لا نسمع شيئا على الاطلاق عن هذه الأرستقراطية منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يبعث على الاعتقاد بأن البطالمة عملوا منذ أواخر عهد بطلميوس الأول على حرمان هذه الأرستقراطية بالتدريج أملاكها ومناصبها الادارية . ولعله لم يبق من هذه الأرستقراطية الا نفر كان قليل العدد محدود الثروة يتولى مناصب فى الفرق المصرية فى الجيش .

وتشير الأدلة الأثرية الى أن الأرستقراطية المصرية الدينيـة كانت تتمتع فى بداية عصر البطالمة بممتلكات واسـعة . وحين أدرك البطالمة ما كانت تتمتع به هذه الأرستقراطية من نفوذ كبير وثروة عريضة عملوا على تقليم أظافرها واذلالها . ومع ذلك كان الكهنـة المصريون ، حتى فى الشطر الأول من حكم البطالمة ، يكونون فئة ممتازة بين الأهالى ، فقد كانوا عادة يُعفون من الأعمال الجبرية ويؤدون مهام عملهم دون تدخل الحكومة فى شئونهم . وبعد موقعة رفح واشتعال لهيب الثورات القومية ، اضطر البطالمة الى النزول عن صلفهم وجبروتهم واتباع سياسة جديدة فى معـاملة رجال الدين ردت اليهم أغلب امتيازاتهم .

ولا ريب فى انه ازاء انقـراض الأرستقراطية الدنيوية تقريبا ، وازاء المنح التى اضطر البطالمة الأواخر الى اجـزالها للكهنة المصريين ، وازاء مكانة هؤلاء الكهنة ونفوذهم بين الأهالى فى طول البلاد وعرضها أصبحت طبقة الكهنة أهم الطبقات المصرية .

وقبل عصر البطالمة كانت تلى الأرستقراطية بشقيها الدينى والدنيوى ، طبقـة المحاربين المصريين . وقد رأينا كيف فقدت هـذه الطبقة مكانتها الممتازة فى حيـاة البلاد على عهد البطالمة الأوائل ، بسبب اعتماد أولئـك البطالمة فى تكوين قواتهم البرية والبحرية على العناصر الأجنبية ، وعدم استخدام الجنود المصريين حتى موقعة رفح الا فى أعمـال الجيش الثانوية ، وقصر منح البطالمة الأوائل على جنودهم المقدونيين والاغريق . فلا عجب ان شعر الجنود المصريون ، كغيرهم من سائر طبقـات المصريين بذل الاحتـلال الأجنبى وذاقوا مرارة الاهانة والحرمان ، فأسـهموا فى الثورات القومية حتى بعـد الامتيازات التى مُنحوها عقب موقعة رفح . ولا شـك فى أن حال هذه الطبقة قد تحسنت فى الشطر الثانى من عهـد البطالمة لكنه كان تحسينا نسبيا بالقياس الى ما كانت عليه قبل ذلك ، فقد كان الجنود الأجانب لا يزالون يكوّنون الجـانب الأكبر من القوات البطلميـة ، ويتمتعون بأرفع المناصب وأكبر الاقطاعات .

وكانت طبقة الموظفين تلى هـذه الطبقة قبل عصر البطالمة . وكانت هذه الطبقة تتألف من كتبة متفاوتى الدرجات . ويبدو أن فئتهم العليا اختفت تدريجا ولم يبق فى خـدمة الحكومة من الموظفين المصريين الا فئة صغار الكتبة الذين اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية ونظم العمل الجديدة والخضوع لرؤسائهم الجـدد . ولم تكن المناصب الحكومية المتواضعة التى يستطيع المصريون توليها فى خلال القرن الثالث قبل الميلاد مصدر خـير عميم لشاغليها ، فقد كانت مسئولياتها أكثر من نفعها . أما فى الشطر الثـانى من عصر البطالمة فقـد سُمح للمصريين بتولى بعض المناصب الرئيسية فى الادارة المحلية .

وكان يأتى فى مؤخرة الطبقات الاجتماعية ملايين المصريين ، وكان يشتغل أكثرهم بالزراعة وبعضهم بالصناعة والتجارة ، وكانوا كالعادة عماد حياة البلاد الاقتصادية ، ولذلك كانوا أكثر تأثرا من غيرهم بذلك النظام الاقتصادى الكريه الذى وضعه البطالمة للبلاد . ولما كان الهدف الرئيسى لهذا النظام جعل الدولة أو بعبارة أخرى الملك غنيا ، فقد كان يتعين توجيه كل جهود الأهالى نحو تحقيق هذا الهدف .

وفى كنف هذا النظام الصارم ، اذا كانت الفرص التى أمام الطبقات المختلفة لاثراء نفسها قليلة فانها كانت منعدمة بالنسبة لغالبية المصريين الذين ألقيت عليهم أثقل الأعباء ، فقد كان ينبغى على هذه الغالبية أن تخدم موارد الحكومة بطريقة من الطرق ، أما بمثابة زراع الملك ، أو عمال فى مصانعه أو فى مصانع تعمل لحسابه أو فى مصانع تؤدى له ضرائب معينة فضلا عما تقدمه له من انتاجها ، أو تجار تجزئة ، أو رعاة ، أو صيادين ، أو يشتغلون بالنقل البرى أو المائى ، ويدفعون جميعا ضرائب معينة نظير مزاولتهم أعمالهم . والى جانب كل هذه الأعمال العادية التى كانت الحكومة تستمد منها دخلا كبيرا ، كان يفرض على الأهالى أداء كثير من الخدمات الاجبارية . وبرغم كل الأعباء التى أثقل بها كاهل غالبية الزراع والصناع والعمال المصريين ، وكانت أشد وطأة مما ابتلوا به فى أى وقت مضى ، فان حالهم لم تتحسن ، لأن الملك لكى يفوز بأكبر قدر من الربح عمل على انقاص تكاليف الانتاج الى أدنى حد ممكن ، وتبعا لذلك على عدم رفع مستوى معيشة الطبقة الكادحة .

وتتيجة للتبعات الثقيلة التى كان المصريون يرزحون تحتها يبين انه لم يكن على شىء من اليسر من ملايينهم المشتغلين بالزراعة والصناعة والتجارة الا نفر قليل ، كان بعضهم زراعا ناجحين وشاءت ارادة الله أن تمنحهم الحكومة اذنا باستصلاح بعض الأراضى وزرعها كروما أو فاكهة ، وبذلك أصبحوا فى عداد أرباب أراضى الامتلاك الخاص . أما البعض الآخر فانهم كانوا صناعا ناجحين يزاولون صناعات لم تحتكرها الحكومة احتكارا كليا ، وبذلك لم تغلق دونهم باب الكسب اغلاقا كاملا .

وهكذا نرى انه لم تنسج من بطش البطالمة فئة واحدة من فئات المصريين ، وذلك حين كان أولئك الملوك يوفرون للاغريق وأشباههم أسباب الحياة الرغدة الكريمة . واذا كانت حال الكهنة والجنود وموظفى الحكومة ونفر قليل من الزراع والصناع فى الشطر الثانى من عصر البطالمة أفضل من حال الغالبية العظمى من المصريين ، فان حال هؤلاء القلائل من المصريين ، الذين كانوا أسعد حظا من سائر مواطنيهم ، كانت أسوأ كثيرا من حال العناصر الأجنبية . ومن

ثم نستطيع أن نتصور الفارق الهائل بين حال الأجانب وحال المصريين بوجه عام .

٢ ـ حضارة المصريين

وتشير جميع القرائن الى أن المصريين بوجه عام استمروا يعيشون كما كان يعيش أجدادهم من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، يعبدون آلهتهم ، ويخضعون الى حد كبير لقوانينهم الفرعونية . وكان المصريون يلتقون اما فى أندية جمعياتهم ، أو فى بيوت الأعيان كما هى الحال اليوم فى الريف ، أو فى المعابد ليستمعوا الى قادتهم الروحيين ويعبروا لهم عن مظالمهم .

ولما كانت الأمية فاشية بين المصريين ، وكانت أعرق المدارس المصرية وأوسعها انتشارا وأبعدها أثرا فى الناس هى المدارس الملحقة بالمعابد ، وكانت هذه المدارس هى المعاقل الحصينة للثقافة المصرية ، وكان رجال الدين الحراس الأوفياء على تراث الماضى ، فاننا نستطيع أن نوقن أن غالبية المصريين كانوا بعيدين حتى عن مظاهر الحضارة الاغريقية ، وان مدارس المعابد قد أغلقت أبوابها دون الثقافة الاغريقية . ومع ذلك لا شك فى ان المصريين الذين شغلوا مناصب فى الحكومة قد اضطروا الى تعلم اللغة الاغريقية لأنها أصبحت اللغة الرسمية ، ولا شك أيضا فى أن أكثر أولئك الموظفين الذين تعلموا الاغريقية لم يكن حظهم من الحضارة الاغريقية الا يسيرا . ولعل الطبقة العليا من المصريين رأت فى تعلم الاغريقية والانتهال من موارد الثقافة الجديدة استكمالا لمؤهلات أفرادها ، فاستخدمت مدرسين خصوصيين أو أدخلت أبناءها فى المدارس الاغريقية المنتشرة فى مختلف أرجاء البلاد . ولعل ذلك كان أيضا شأن تلك الفئة القليلة من المصريين الذين أخذوا على عهد البطالمة الأواخر يعملون على صبغ أنفسهم بصبغة اغريقية طمعا فى الفوز بمركز يعادل مركز الاغريق . لكن لما كانت الطبقة العليا وكذلك فئة الوصوليين قليلتى العدد ، وكان حظ أكثر موظفى الحكومة المصريين من الثقافة الاغريقية تافها ، وكانت الغالبية العظمى من المصريين أميين ، فلابد اذن من أن تغلغل الثقافة الاغريقية بين المصريين كان محدودا .

وقد أسلفنا انه لم يحدث تزاوج بين المصريين والاغريق فى القرن الثالث قبل الميلاد وانه فى الشطر الثانى من عصر البطالمة تمصر بعض الاغريق وتأغرق بعض المصريين ، مما جعل من الميسور حدوث تزاوج بين المصريين المتأغرقين والاغريق المتمصرين ، وانتشار الأسماء المختلطة بين هذين الفريقين . ولابد من أنه قد صحب ذلك أن استبدل أولئك المتأغرقون بثيابهم المصرية ثيابا اغريقية . لكن اذا كان من المسلم به ان أغلب المصريين لم يعرفوا شيئا من اللغة الاغريقية وآدابها ، وانهم بطبيعة الحال لم يتزاوجوا مع الاغريق على الأقل لكثرة عددهم وقلة عدد الاغريق ،

فلابد أيضا من أنهم لم يتخذوا أسماء اغريقية ولا ثيابا اغريقية .

وجملة القول ان المصريين بوجه عام ، وقد كانت لهم عادات ثابتة تقوم على أسس حضارة وديانة ترجعان الى أقدم العصور بقوا مصريين خالصين فى مجموعهم ، على حين أن نفرا منهم اصطبغوا فى تعليمهم وملبسهم وأسمائهم بصبغة اغريقية تدل القرائن على انها لم تنسهم قوميتهم ولم تكن أكثر من طلاء خارجى لم يمس جوهرهم .

ثالثا ـ الثورات القومية

١ ـ الاسباب

وليس من العسير أن نتصور شقاء المصريين بعد أن عرفنا كيف سلبهم البطالمة استقلالهم ، وكيف أثقلوا كاهلهم بالضرائب الفادحة والتكاليف المرهقة ، وكيف وضعوا أيديهم على كل موارد البلاد بشكل لم يسبق له مثيل ، وكيف قضوا على الأرستقراطية المصرية الدنيوية ، وكيف أذلوا الأرستقراطية الدينية والمحاربين المصريين ، وكيف وفروا للاغريق أسباب الحياة التى يألفونها فى بلادهم ومنحوهم أرفع المناصب وأخصب الضياع وأوسع الاقطاعات . ولم يتحمل المصريون كل ما لقوه من عنت وعسف فى سبيل آلهتهم أو ملوكهم الوطنيين ، الذين يعتنقون نفس المعتقدات الدينية ، ويتكلمون نفس اللغة ، ويحيون نفس الحياة ، وانما فى سبيل ملك أجنبى وجنس أجنبى بأسره اصطفاه ذلك الملك لمشاركته فى حكم البلاد، وارغام أبنائها على بذل أقصى الجهد فى استغلال مرافق البلاد الاقتصادية . فلا عجب اذن أن نبضت قلوب المصريين بكراهية الأجانب ، وان انفجر مرجل غضبهم فى وجه مغتصبى بلادهم ، فقد تضافرت فى اشعال لهيب الثورات المصرية ثلاثة عوامل لها أبعد الأثر فى حياة الناس فى كل زمان ومكان ، وهى العامل الدينى والعامل القومى والعامل الاقتصادى .

ووسط هذه الظروف كان من اليسير أن يندلع لهيب الثورة لأى سبب ، فقد امتلأت النفوس غضبا وحقدا ، وتوفر جيش الثورة من ملايين الزراع والصناع والعمال الذين كانوا يضيقون أشد الضيق بالنظام الاقتصادى الصارم الذى استحدثه أو أحكم ضوابطه بطلميوس الثانى . ولم يفتقر الثوار الى قادة وزعماء ، فان النبلاء المصريين ، وقد عصف البطالمة بمكانتهم وثروتهم وامتيازاتهم ، وكذلك رجال الدين ، وقد كسر البطالمة ولا سيما أوائلهم شوكتهم ، كانوا جميعا يحنون الى استعادة ما كانوا ينعمون به فى الماضى من الكرامة والعزة والثراء .

٢ ـ الثورات

ونستخلص من الوثائق ان المصريين قد أظهروا نقمتهم على ذلك النظام الاقتصادى البغيض منذ عهد بطلميوس الثانى ، اذ تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ بين المزارعين ، كانت تنتهى باضرابهم عن

العمل وفرارهم الى المعابد للاحتماء بالآلهة . وقد أخذت هـذه الاضطرابات تزداد عنفا على مضى الزمن ، فوقعت فى عهد بطلميوس الثالث أول ثورة شعبية . لكن أشد ثورات المصريين عنفا وأطولها بقاء لم تقع الا بعـد انتصارهم فى موقعة رفح ، فقد كان ينقص المصريين الحافـز الذى يعيد اليهم ثقتهم بأنفسـهم ويزكى روح الوطنية الكامن فى صدورهم فيخلصوا بلادهم من نير الأجنبى مثل ما تخلص أجدادهم من الهكسوس بعد حكم دام مدة قرن تقريبا .

لقد صبر المصريون على بلائهم كارهين الى أن تبين لهم من انتصارهم فى موقعة رفح ان تفوق الاغريق عليهم لم يكن الا وهما ، وانهم على الأقل ند لأولئك السادة الذين أوسعوهم بطشا واستغلالا . فلا عجب انه ما كاد الجيش يعود من رفح حتى تأججت نار الثورة بين المصريين .وقد بدأت الثورة فى الدلتا فى عام ٢١٦ ق . م . ولم يأت عام ٢٠٦ حتى كانت قد اشتدت وامتد لهيبها الى مصر الوسطى ومصر العليا : وقد بقيت نار الثورة مستعرة فى البلاد حتى عام ١٨٤/١٨٣ ق . م . عندما وقعت سايس فى قبضة بطلميوس الخامس الذى مثّل بالزعمـاء المصريين أفظع تمثيل بعد أن أمّنهم عـلى حياتهم ليشجعهم على التسليم .

ولم يكد بطلميوس السادس ينجو من شبح أنطيوخوس الرابع المخيف حتى واجه فى عام ١٦٥/١٦٤ ق . م . الثورة التى قام بها زعيم مصرى متأغرق يدعى ديونيسيوس پتوسيرابيس كان يتولى منصبا كبـيرا فى القصر الملكى ، ويتمتع بنفـوذ كبير بين المصريين ، وقام بدور ممتاز فى الحرب ضد أنطيوخوس . ويبدو أن ديونيسيوس كان يريد استغلال الشقاق الأسرى بين بطلميوس السادس وأخيه الصـغير للتخلص من الأخ الأكبر باستثارة خواطر الاسكندريين ضده ، حتى اذا ما تم له ذلك استنفر وطنية المصريين ضد الأخ الأصغر ، وبذلك ينقذ البلاد من مغتصبيها . لكن التوفيق بين الأخوين أفسد عـلى ديونيسيوس خطته ومكن بطلميوس السادس من هزيمته . غير ان ديونيسيوس تمكن من الفرار واشعال لهيب الثـورة فى البلاد ، فاضطر بطلميوس السادس الى القيام بحملة حتى النوبة لاخماد هذه الثورة .

ويرى بعض المؤرخين ان مصر رجعت اصداء الخلاف بين بطلميوس الثامن وأخته كليوبترة الثانية وانقسمت فريقين ، وانه كان يؤيد كليوبترة الثانية الاسكندرية أو عـلى الأقل جانب من الاغريق وكذلك اليهـود وجانب من الجيش ، عـلى حين كان يؤيد بطلميوس الثامن بقية الجيش وكثـير من المصريين أو من المحتمل غالبيتهم بزعامة الكهنة وان هذه الحرب الأهلية كانت مزيجا من النزاع الأسرى والثورة القـومية . ونحن نعتقد ان هذه الحرب كانت فعلا مزيجا من

النزاع الأسرى والثورة القومية ، وان تفسير ما حدث هو انه كان لكليوبترة الثانية حزب يضم الجانب الأكبر من اغريق مصر والمتأغرقين وخصوم كهنة آمون ، ولذلك كان الموقف الطبيعى لغالبية المصريين هو مناهضة ذلك الحزب اشفاء لغليل حقدهم على الاغريق ومن هادنهم من المصريين ، فبدوا كما لو كانوا يناصرون بطلميوس الثامن ، أو بعبارة أخرى لم يكن تأييد غالبية المصريين لبطلميوس الثامن حبا فيه وانما كراهية لأنصار خصمه .

وقد تجددت الثورة فى عهد بطلميوس التاسع وكانت مثل سابقاتها وليدة عوامل دينية وقومية واقتصادية .وقد تفاقمت الحال فى منطقة طيبة الى حد ان بطلميوس التاسع رأى أن الطريقة المثلى لقطع دابر الثورة هى القضاء على طيبة لأنها كانت دائما مهد الثورات ومعقل الثائرين ، ولذلك فانه بعد حرب دامت ثلاث سنوات استولى على طيبة وخربها تخريبا شديدا (عام ٨٥ ق . م .) .

ويبين ان تخريب طيبة قد قصم ظهر الثورة لكنه لم يقض عليها قضاء مبرما ، اذ تشير الدلائل الى حدوث اضطرابات فى عام ٧٨/٧٩ وفى عام ٦٣/٦٤ وكذلك فى عام ٥٨ ق . م .

وقد خرج المصريون من كفاحهم الطويل يجرون أذيال الخيبة بسبب افتقارهم الى ما امتازت به عليهم قوات البطالمة من النظام والأسلحة والعتاد والأموال ، وبسبب عدم اتحادهم ، فان فريقا مهما من المصريين بدلا من أن يشتركوا فى مناهضة الحكم الأجنبى الجائر اشتركوا فى مناهضة مواطنيهم ، أو على الأقل وقفوا منهم موقفا سلبيا ، وذلك اشباعا للأحقاد الشخصية وسعيا وراء مصالحهم المادية ، فكانوا بذلك مطية للأجنبى وجزءا من أداة تنفيذ سياسته الاستعمارية .

واذا كان المصريون قد فشلوا فى التخلص من طغاتهم الأجانب ، فانهم على الأقل أرغموهم على النزول عن صلفهم وجبروتهم ، والنظر اليهم بعين جديدة فى الشطر الثانى من حكمهم . وفضلا عن ذلك فان الثورات القومية كانت من أهم الأسباب التى أضعفت دولة البطالمة وعجلت بالقضاء عليها .

الفصل الثامن

الآداب ـــ العلوم ـــ الفنون

سنقصر الكلام فى هذا الفصل على الآداب والعلوم الاغريقية ، لأن مصادرنا تغفل اغفالا تاما الآداب والعلوم المصرية فى خلال هـذا العصر .

أولا ــ الآداب :

١ ــ دار العلم والمكتبة

يرجح ان بطلميوس الأول هو الذى خطا حوالى عام ٢٩٠ ق . م . الخطوة الأولى فى سبيل انشاء دار العلم والمكتبة ، فقد فطن ذلك العاهل الأديب الى أنه اذا كانت القوة ضرورية للذود عن حياض مملكته وتوسيع رقعتها ، فان رعاية العلم والفن كانت أنجع وسيلة تكسبه وسلالته المجد والخلود . ومن ثم أخذ يدعو الى الاسكندرية الكثير من فحول شعراء الاغريق وأدبائهم وعلمائهم وفلاسفتهم وفنانيهم . وقد كان فى طليعة ضيوفه ديمتريوس الفليرى الذى أوحى اليه بانشاء دار العلم (الجامعة) والمكتبة .

وقد أنشئت دار العلم على نمط مدارس أثينا الفلسفية ، اذ يبدو أن بطلميوس الأول اقتفى أثر المدارس الفيثاغورثية فجعل دار العلم فى الاسكندرية تلتف حول عبادة آلهات العلم والفن ، ولذلك سميت موئل هـذه الآلهات . وقد شيد بطلميوس لهذه الدار مبنى فى الحى الملكى ، أعد بحيث يكون مركزا للبحث العلمى وفى الوقت نفسه مسكنا للعلماء ، حيث كان الملك يستضيفهم على نفقته فضلا عما كان يجريه عليهم من المرتبات ، لكيلا تشغلهم مطالب الحياة عن الانصراف كلية الى البحث والدرس. ولم يكن الهدف الأول لهذا المعهد التعليم وانما البحث العلمى ، ومع ذلك كان العلماء يلقون المحاضرات فى القاعات العامة وما أشبه ذلك فى المدينة . ويبدو من الدور الذى قامت به الاسكندرية فى الحركة العلمية أن كل فروع البحث العلمى كانت ممثلة فى جامعتها .

ولكى يتيسر للعلماء الاضطلاع بمهمتهم أنشئت المكتبة الكبرى . واذا كان بطلميوس الأول هو الذى وضع نواة هـذه المكتبة بجوار دار العلم فان بطلميوس الثانى هو الذى تعهد المكتبة برعايته حتى غدت أعظم المكتبات فى العالم القديم . ويبدو أنه أنشأ كذلك المكتبة الصغرى التى كانت تكون جزءا من معبد السيرابيوم . ونحن نميل الى الأخذ بما تذكره بعض المراجع القديمة من أنه عندما أحرق يوليوس قيصر

الأسطول المصرى فى خلال « حرب الاسكندرية » ، وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المبانى المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران ، بدليل ان أنطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد من مكتبة برجام .

وقد أدى علماء الاسكندرية خدمات جليلة للأدب الاغريقى ، عندما ابتدعوا فن نقد النصوص القديمة بمقارنة المخطوطات المختلفة ، وحققوا أصول كثير من المؤلفات القديمة . ولعل أهم ما يدين به المحدثون لعلماء الاسكندرية ما بذلوه من الجهد فى تحقيق الأشعار الغنائية والمسرحيات ، وكان فن النقد الاسكندرى يرتكز على قواعد ثابتة قويمة تخالف تماما قواعد فن النقد التخيلى الذى ابتدعه الرواقيون فيما بعد فى برجام .

٢ ـ الشعر

وتعتبر الاسكندرية بحق عاصمة الأدب الاغريقى فى العصر الهيلينستى ، حتى انه يندر أن نسمع أن أحدا من فحول شعراء ذلك العصر لم يزر الاسكندرية أو يعيش فيها لينعم برعاية ملوكها وينهل من موارد علمها . فلا عجب أن كافة أنواع الشعر الاغريقى ، فيما عدا الكوميديا ، قد تأثرت فى خلال هذا العصر بالشعر الاسكندرى .

وكانت أحب ألوان الشعر الى قلوب الاسكندريين الشعر القصصى والمرثيات والشعر الغنائى والمقطوعات القصيرة . وقد كان هذا الشعر اغريقيا خالصا ، واستمد بعضه من الفنون القديمة ، والبعض الآخر من عواطف المعاصرين وخيالاتهم . ولذلك فانه بينما يُعتبر بعض الشعر الاسكندرى تجديدا لبعض فنون الشعر القديمة ، يُعتبر البعض الآخر مبتكرات جديدة فى شكلها وفكرتها . وعلى كل حال فان جميع ألوان الشعر الاسكندرى لا تمت بصلة الى مصر أو شعبها ، حتى ان ثيوكريتوس عندما كان يتغنى بوصف الطبيعة كان لا يصف جمال الطبيعة فى مصر وانما فى جزيرة كوس أو مدينة سيراكوز . وكان الشعراء الاغريق لا يعرفون عن مصر ، حتى بعد ما عاشوا فيها ، الا ما قرأوه فى القصص الاغريقية أو ما كتبه هيرودوتوس وأفلاطون ، وكانوا لا يوجهون عنايتهم الى شىء من المميزات المحلية الا ما لا يستطيعون استخدامه فى اطراء الملك الذى يرعاهم .

ولعل أهم مميزات الشعر الاسكندرى انه كان خاليا من العواطف السياسية والشعور بالتقوى نحو الآلهة القديمة ، فى حين انه كان كلفا بآفاق العلم المتسعة ، وتصوير المشاعر الانسانية ، وامتداح الحياة البسيطة التى تخالف حياة الناس اليومية المعقدة وتصوير الواقع تصويرا دقيقا .

ويعتبر كاليماخوس أبرز شعراء

الاسكندرية فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وكان لا يزال يقرض الشعر فى الشطر الأخير من حياته فى عهد بطلميوس الثالث . ولم يولد فى مصر شاعر هيلينستى من الطراز الأول الا ابولونيوس الذى أطلق عليه لقب الرودسى ، لأنه استقر فى رودس وأصبح أحد مواطنيها بعد طرده من منصب أمين المكتبة الكبرى .

وكان من أشهر شعراء القرن الثالث ثيوكريتوس السيراكوزى ، الذى عاش فترة فى الاسكندرية وأصبح شاعر بلاط بطلميوس الثانى . واذا كان العصر الذهبى للشعر الاسكندرى لم يعمر أكثر من نصف قرن يمتد من حوالى عام ٢٩٠ الى عام ٢٤٠ ق . م . ، فان الشعر الذى يصور حياة الريف بقى منتعشا حتى القرن الأول قبل الميلاد .

٣ – النثر

ولم يكن للاسكندرية فى النثر الهيلينستى من الأثر مثل ما كان لها فى الشعر . وقد تأثر النثر فى هذا العصر بعاملين كان لهما أسوأ الأثر فيه . أما العامل الأول فهو أثر المشائين ، اذ أن غرامهم بجمع الحقائق كما هى أفضى الى الخلط بين الحقائق والقصص دون أى تمييز بينها . أما العامل الثانى فهو أثر ايسقراط وتلاميذه وكانوا يختلقون الوقائع ليكون أثر الحوادث فى النفس عميقا ، أو يحورون الحقائق ليكون لها مغزى ظاهر . ويعتبر ساتيروس أشهر مؤرخى الاسكندرية الذين تأثروا بالمشائين ، وكلايتارخوس أبرز مثل لمؤرخى الاسكندرية الذين تأثروا بمدرسة ايسقراط .

ومن حسن الحظ انه فى الوقت الذى خضع فيه التاريخ لتلك المؤثرات التى أفسدته ، وجد أشخاص يميلون الى الحقيقة وشاركوا فعلا فى الأحداث التى كتبوا عنها ، مثل بطلميوس الأول الذى استمد معلوماته فيما كتبه عن الاسكندر من الوثائق الرسمية ومن مذكراته ومشاهداته الخاصة ، فكان كتابه فريدا فى بابه يومئذ ، لكنه مع الأسف لم يصل الينا الا بعض منه عن طريق اريانوس .

وفى عهد بطلميوس الأول كتب هكاتايوس من أبدرا عن تاريخ مصر من وجهة نظر الاغريق . والتاريخ المصرى الذى يمكن أن يوثق به منذ ذلك العصر هو ما كتبه مانتو كبير كهنة هليوبوليس ، واعتمد فيه على الوثائق الهيروغليفية وأهداه لبطلميوس الثانى ، وكان كتابا ضخما يقع فى ثلاثة أجزاء .

واذا كان التاريخ يحتل مكان الصدارة فى نثر العصر الهيلينستى ، فقد كان للجغرافيا مكان هام فيه ، الى حد أن ما كتبه فيها العالم الجغرافى اراتوستثينس يعتبر أعظم مثل للنثر الاسكندرى . وقد كانت سعة اطلاع هذا العالم وتبحره فى مختلف العلوم والفنون مضرب الأمثال ، فانه كتب فى الشعر والفلسفة وقواعد اللغة وفقه اللغة والتاريخ والجغرافيا ،

لكن مؤلفاته فى العلمين الأخيرين فاقت سائر ما كتبه . وأهم مؤلفاته فى الجغرافيا كتابان كان أحدهما بحثا « فى قياس أبعاد الكرة الأرضية » قدر فيه محيط الكرة الأرضية تقديرا يثير الاعجاب .

ثانيا ــ العلوم :

١ ــ الطب والجراحة :

وقد بلغت العلوم الاغريقية شأوا بعيدا فى العصر الهيلينستى بعد الخطوات الموفقة التى خطتها قبل ذلك العصر . وقد تقدم الطب بوجه خاص تقدما كبيرا ، وكان أبرز علماء الطب فى الاسكندرية هروفيلوس العالم فى التشريح ، واراسيستراتوس العالم فى وظائف الأعضاء . وقد كانت أبحاث هروفيلوس التشريحية تدور حول المخ والأعصاب والكبد والرئتين وأعضاء التناسل ووجه هذا العالم عناية كبيرة الى دراسة المخ والأعصاب والقلب وضربات النبض . وتدل الأبحاث على انه كان يستخدم أداة بديعة لتقدير سرعة النبض . وقد كان طبيعيا أن يؤدى تقدم التشريح الى تقدم الجراحة . ومن أسباب مجد طب الاسكندرية اختراع آلات جديدة للجراحة ، واستخدام هذه الآلات بمهارة فائقة .

وكان اراسيستراتوس أكثر توفيقا من هروفيلوس فى أبحاثه عن القلب والمخ ، وذهب الى مدى أبعد منه فى التفرقة بين الأعصاب الحساسة والأعصاب المحركة .

وحوالى عام ٢٨٠ ق . م . أسس فيلينوس مدرسة طب جديدة فى الاسكندرية تدعى المدرسة التجريبية . وقد كان فيلينوس أحد تلاميذ هروفيلوس ، لكن مدرسته تغاضت عن التشريح والفسيولوجيا ، لأنها كانت ترى ان الطب ليس مختصا الا بعلاج الأمراض دون الوقوف على أسبابها . ولذلك فان واجب الطبيب هو أن يعطى العلاج الذى يشفى أعراض الداء التى يراها ، على أن يهتدى الى ذلك بملاحظاته الشخصية والتعليم والحالات المتشابهة . ولا يبعد أن المدرسة التجريبية قد أدت للطب خدمة كبيرة بمناهضة الميول النظرية التى كانت على الدوام أحد مواطن الضعف فى الطب الاغريقى .

٢ ــ علما الحيوان والنبات

وقد كان على رأس المشتغلين بدراسة علمى الحيوان والنبات فى العصر الهيلينستى عالمان بارزان ، كان أحدهما تلميذا نابها لأرسطو يدعى ثيوفراسطوس ، وقد فشل بطلميوس الأول فى استمالته ، والآخر يدعى استراتون وكان معلم بطلميوس الثانى . وأهم ما أصابته دراسة الحيوان فى هذا العصر ان العالم الاغريقى أصبح يألف عددا كبيرا من الحيوانات . ولا شك فى أنه قد ساعد على ذلك حديقة الحيوان التى أنشأها بطلميوس الثانى ، وكانت تضم عددا كبيرا من مختلف أنواع الحيوان والطيور والزواحف .

أما علم النبات فقد كان أكثر توفيقا بفضل

أبحاث ثيوفراسطوس التى رفعت دراسة النبات الى مستوى العلم البحت ، وتمخضت عن معلومات تثير الدهشة فى كثير من الأحيان لأن الميكروسكوب لم يكن معروفا عندئذ ، ولأن علم الكيمياء كان لا يزال فى المهد . ومهما كان من أمر كشوف هذا العالم فانها لا يمكن أن تقارن بفضله فى وضع أساس علم النبات وفى تمهيد السبيل لمن أتى بعده من الباحثين المتأخرين .

٣ ـ العلوم الرياضية

وتحتل الهندسة مكانة سامية بين رياضيات العصر الهيلينستى ، التى فاقت فى تقدمها سائر فروع العلم الأخرى . فان الهندسة كانت أساس كل الرياضيات عند الاغريق لعدم درايتهم بالأرقام . ولعل ما بلغته الهندسة من الاتقان كان سببا فى عدم تفكير الاغريق فى اختراع الأرقام ، ولا سيما أن الهندسة كانت تشمل الكثير مما يعتبر اليوم من علم الجبر . ولا يمكن المبالغة فى تقدير الخدمات التى أسداها اقليدس الى الرياضيات . ويبدو أن هذا العالم كان يعاصر بطلميوس الأول ، وعلى كل حال فانه أسس فى الاسكندرية مدرسة تعلم فيها كثير من الرياضيين المبرزين . ويقترن اسم اقليدس بأشهر مؤلفاته وهو كتاب فى الهندسة يعرف باسم « العناصر » . ولم يعمر كتاب فى العالم ، باستثناء الكتب السماوية ، مثل ما عمر هذا الكتاب ، الذى استمر تلاميذ الهندسة فى مختلف أنحاء العالم يستخدمونه منذ العصر الهيلينستى حتى عهد قريب جدا . وأهم ما يمتاز به هذا الكتاب ما اختاره فيه اقليدس من المعلومات المسلم بها كالتعاريف والفروض والبديهيات ، ولا سيما النظريات التى تستحق أن تسمى « عناصر » ، لأنها أساسية وتفوق غيرها فى الأهمية وفى التطبيق . وقد وضع اقليدس كتبا أخرى لم تكن مقصورة على الهندسة ، بل شملت فروع الرياضيات كما كانت معروفة عندئذ .

ويتصل علم الفلك بالهندسة اتصالا وثيقا ، ويدين اغريق العصر الهيلينستى بقدر من الفضل غير قليل لعلماء بابل ، الذين جمعوا منذ عهد بعيد ملاحظات تجريبية عن الأجرام السماوية . وقد كان من أبرز علماء الفلك أريستارخوس من ساموس ، الذى عاش فى القرن الثالث وكان أول من نادى بأن الأرض لا تدور حول نفسها فقط وانما تدور أيضا مثل الكواكب حول الشمس . أما أعظم علماء الفلك فى الاسكندرية وفى العالم القديم قاطبة فقد كان يعيش فى القرن الثانى قبل الميلاد ويدعى هيبارخوس ، وقد كان أعظم كشوفه تحديد الاعتدالين الربيعى والخريفى ، وتقدير متوسط طول الشهر القمرى تقديرا يبعث على الدهشة ، لأنه لا يقل الا بثانية واحدة عن التقدير المقبول اليوم .

وكان أرخميدس السيراكوزى أعظم عبقرية مبتكرة بين علماء الرياضيات الاغريق.

وقد اخترع أرخميدس لولبه المشهور (الطنبور) لرفع الماء عندما كان يقيم فى مصر، لكنه كان لا يعلق أهمية كبيرة على مثل هذه الأشياء التى كان يعتبرها مجرد تسلية، فقد كان يتفق مع أفلاطون فى الرأى القائل بأن الفيلسوف يجب ألا يستخدم علمه فى الأشياء العملية. وحسبنا أن نذكر أنه وضع أساس علم التفاضل والتكامل فى اللانهاية وعلم دراسة الموائع والمبادىء الأولية فى الميكانيكا.

وقد نشطت كذلك فى عهد البطالمة الأوائل دراسة الميكانيكا وكان أبرز علمائها كتسيبيوس الأكبر، الذى يحتمل انه عاش فى عصر بطلميوس الثانى أو الثالث. وقد ابتكر هذا العالم آلات تعمل بالقوة الهوائية وأخرى بالقوة المائية. ويأتى بعد هذا العالم بحوالى ربع قرن فيلون البيزنطى الذى وضع كتابا فى تسعة أجزاء على الأقل يدعى مجموعة الميكانيكا.

ثالثا ـ الفنون

وسنقصر الكلام هنا على فنى المعمار والنحت، لأننا لا نعرف عن موسيقى العصر الهيلينستى أكثر من أنها كانت تلعب دورا هاما فى حياة العامة والخاصة، ولأنه لم يبق من التصوير الا القليل النادر الذى نراه على جدران المقابر.

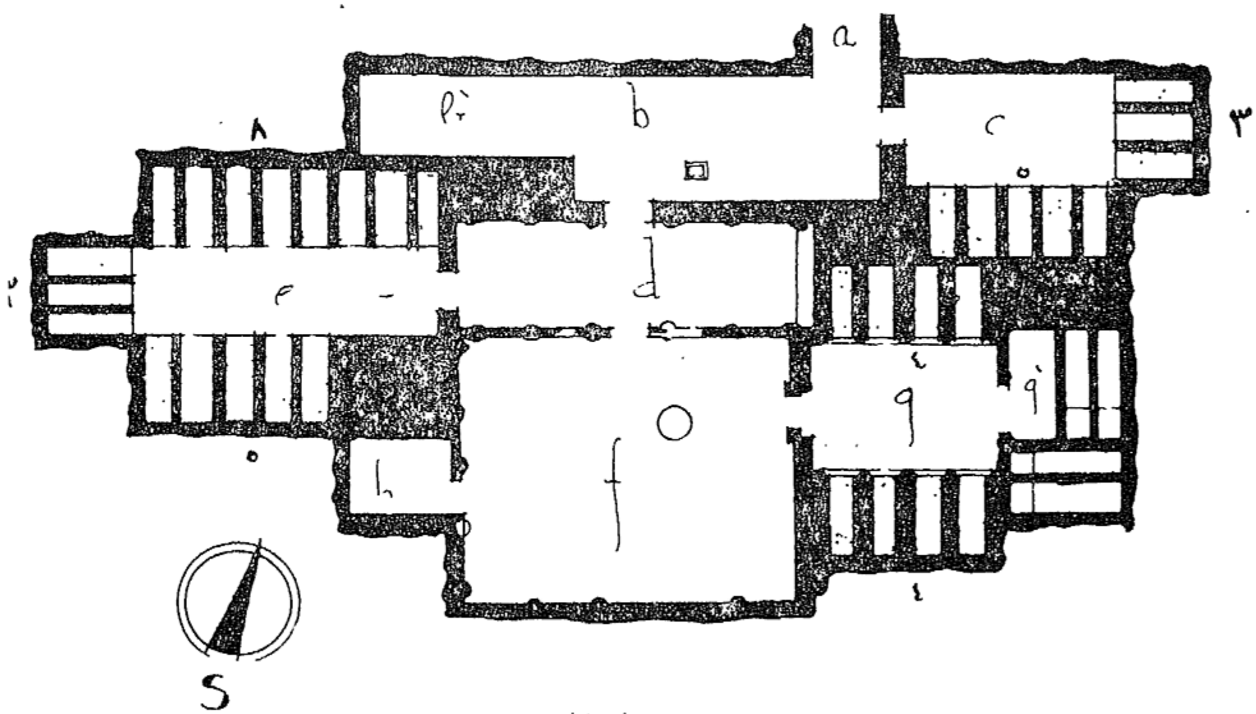
١ ـ المعمار

سنتناول فى ايجاز أقسام هذا الفن وهى: المقابر والمنازل والمعابد عند الاغريق وعند المصريين، وسنبين اذا كان الفن المصرى والفن الاغريقى قد تأثر أحدهما بالآخر أم بقى كل منهما خالصا نقيا.

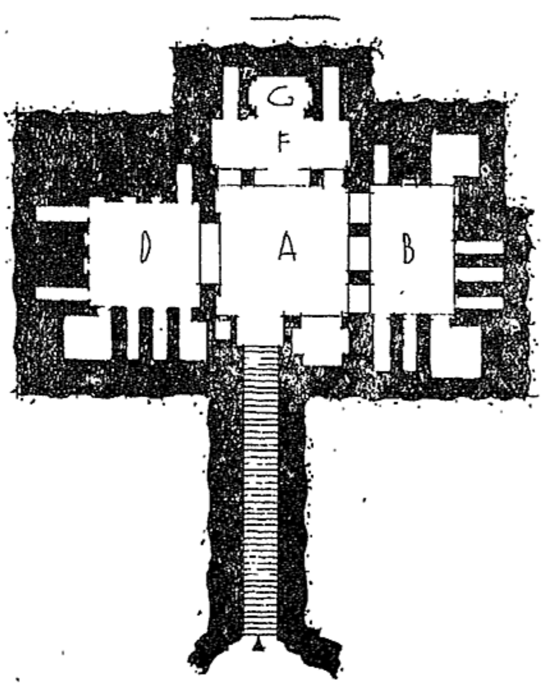
ا ـ المقابر

وتدل نتائج الحفريات على أن اغريق مصر قد استخدموا مقابر من ثلاثة أنواع: كان أولها عبارة عن حفر تنحت فى الصخر أو تحفر فى الأرض، ونجد أمثال هذه المقابر البسيطة فى مختلف أنحاء العالم الاغريقى. وأهم مظاهر النوع الثانى الدفن فى فجوات مستطيلة الشكل تبنى أو تنحت فى جوانب دهليز أو غرفة. واذا كان هذا النوع فينيقى الأصل، فقد خلع الاغريق عليه طابعا اغريقيا. والنوع الثالث مقدونى الأصل، لكنه اغريقى فى تخطيطه وعمارته وزخرفته ويسمى مقابر الأرائك.

وتمتاز مقابر الأرائك التى ترجع الى القرن الثالث والنصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد بأنها تتألف من سلم وفناء مكشوف وغرفة أمامية وغرفة خلفية تقع جميعها على محور واحد. أما مقابر الفترة التى تمتد من منتصف القرن الثانى حتى نهاية عصر البطالمة فقد كانت أبرز عناصرها هى فناء أوسط تحيط به الغرف. وقد تطورت هذه المقابر من مقابر ذات أريكة مثل مقبرة سوق الورديان حيث كان الدفن يتم فى تابوت على شكل الأريكة يوضع فى الغرفة الخلفية، الى مقابر ذات أريكة وفجوات مثل مقبرة الشاطبى



مقبرة الشاطبى



مقبرة حديقة أنطونيادس

حيث استعملت الأريكة والفجوات فى الدفن الى مقابر ذات فجوات وأريكة مثـل مقبرة سيدى جابر ومقبرة حديقة أنطونيادس حيث استخدمت الفجوات فقط فى الدفن ولم تكن الأريكة الا زخرفة بارزة ، وأخيرا الى مقابر ذات فجوات ومحاريب حيث اختفت الأريكة تماما وكان الموتى يدفنون فى الفجـوات وفى توابيت كالصناديق كانت توضع فى المحاريب .

ومما يجدر بالملاحظة انه اذا كان طابع عمارة هذه المقابر وزخرفتها اغريقيا ، فانها لم تخل أحيانا قليلة من بعض العناصر المصرية ، وكذلك كانت أيضا حال النصب الجنائزية .

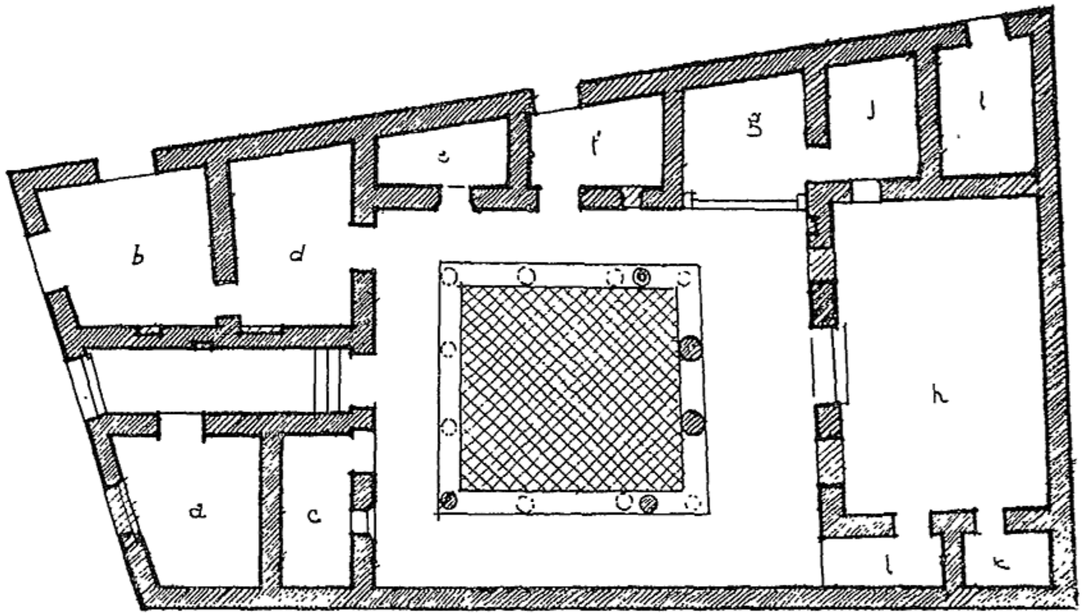
أما المصريون فانهم ، سواء أكانوا يعيشون فى الاسكندرية أم فى المدن والقرى المصرية ، قد احتفظوا بأساليب دفنهم التقليدية . فكانوا يدفنون موتاهم اما فى مقابر قديمة أعـادوا استخدامها ، أو فى مقابر حديثة كانت على نوعين . وأحد هذين النوعين بسيط يتألف من بئر تنشأ فى قاعها فجوة يدفن فيها الميت . وكان هذا النوع المتواضع من المقابر شائعا جدا فى عصر البطالمة . وكانت مقابر النـوع الثانى تتألف من هيكل جنائزى صغير تنزل من أرضيته بئر كان الميت يدفن فى قاعها . ولما كانت مقابر هذا النوع أغنى من مقابر النوع الأول ، فان هذا يفسر قلة عدد مقابره فى عصر يمتاز بفقر أهالى البلاد بوجه عـام فقرا مدقعا .

وباستثناء مقبرة پتوزيريس التى اختلط فى زخرفة بعض أجزائها الطراز المصرى مـع الطراز الاغريقى كانت المقابر المصرية البطلمية مصرية خالصة فى عمارتها وزخرفتها ونصـبها الجنائزية .

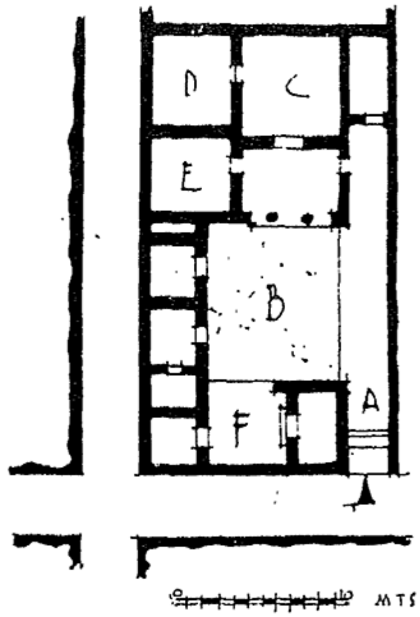
ومن ثم يمكن القول بأن المصريين والاغريق قد احتفظوا بوجه عام بطرازعمارتهم الجنائزية



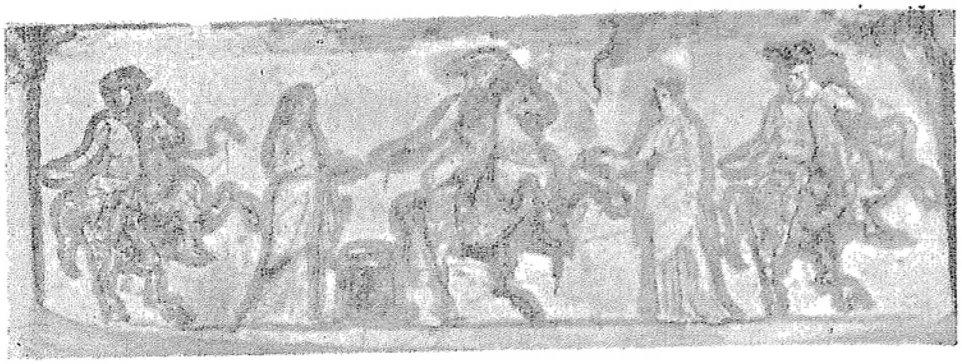
صورتان كانتا تزينان جـدران منزل فى پومپيى ، لكن يبدو من خصائص عمارة المبـانى التى فى الصورتين أن هـذه المبـانى كانت هيلينستية وتمـاثل ما أقيم منهـا فى مصر أو آسيا الصغرى وسوريا .



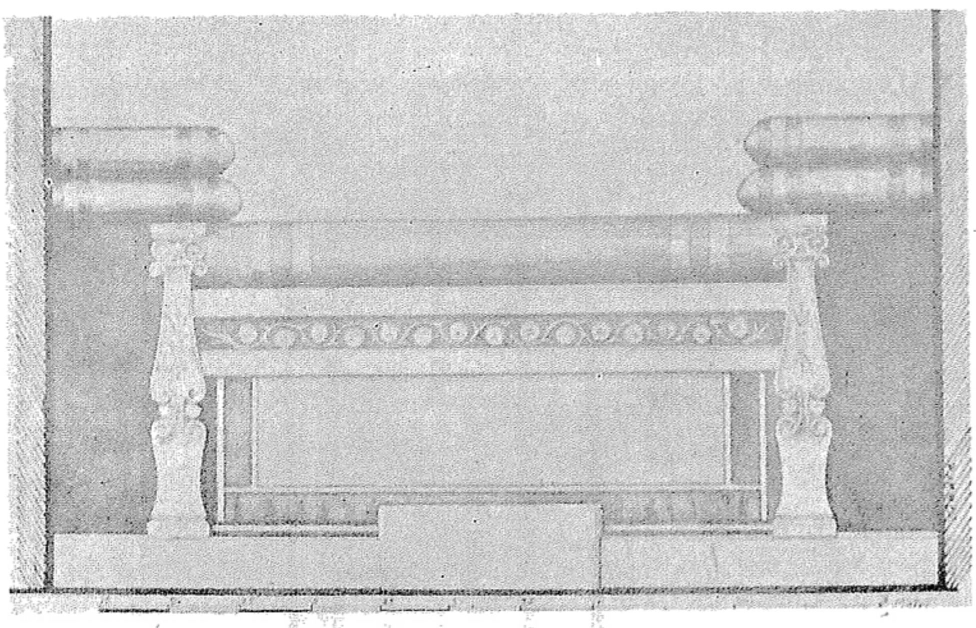
منزل في ديلوس



منزل في پرأييني



لوحة تزخرف فناء المقبرة رقم ١ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية ، وتصور اللوحة ثلاثة فرسان بينهم سيدتان . ويبدو أنهم كانوا جميعا أفراد أسرة مقدونية نبيلة دفنت فى هذه المقبرة.



تابوت فى شكل أريكة فى المقبرة رقم ٣ بمصطفى كامل برمل الاسكندرية . وهذه الأريكة الجنائزية ، وقد صنعت من الحجر وطليت بالجص والألوان ، تعطينا صورة رائعة عن المستوى الرفيع الذى بلغته صناعة الارائك، التى كانت تستخدم فى الحياة الدنيا ، وتصنع من الخشب وترصع بالعاج والمعادن والخشب النفيس ، وتفرش بالطنافس والوسائد .

خاليا من التأثيرات الأجنبية ، فيما عدا بعض العناصر الطفيفة التى تسللت فى بعض الحالات من أحد الطرازين الى الآخر ، وتنهض بذلك دليلا على المدى المحدود الذى بلغته محاولة مزج طرازى العمارة المصرى والاغريقى .

ب ـ المنازل

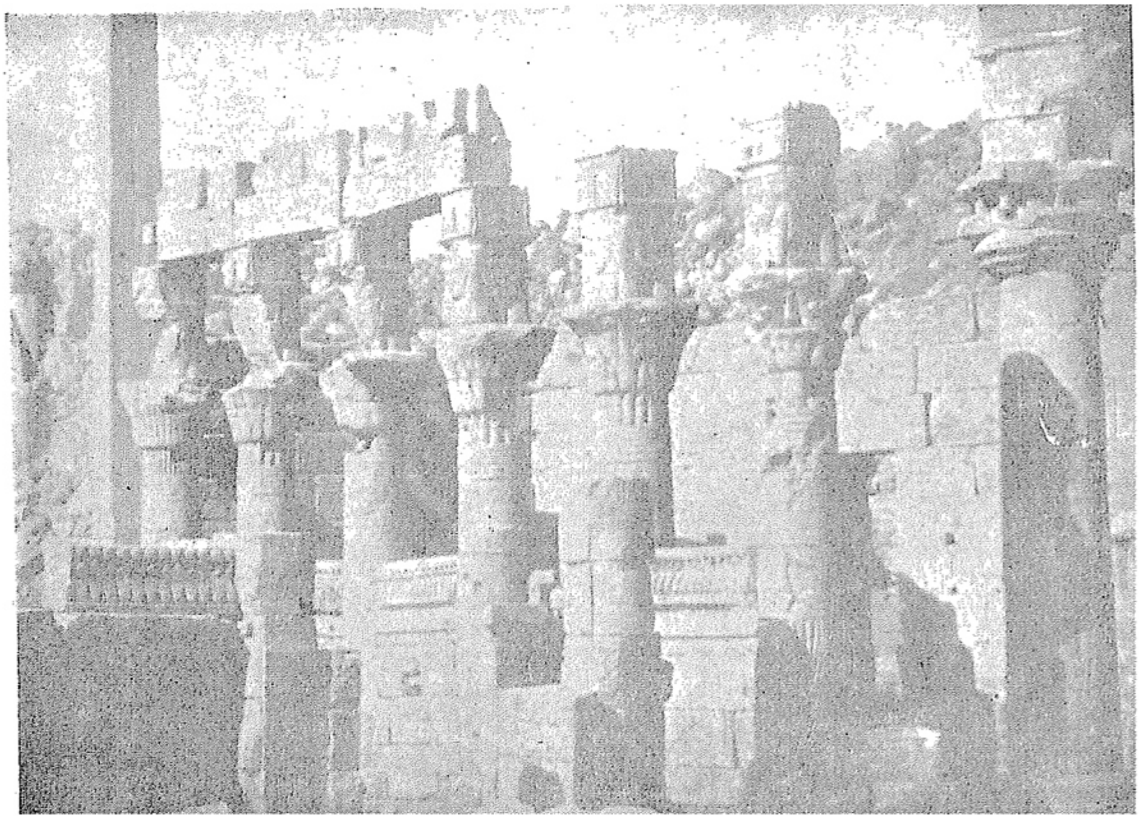
ومع أنه لم يعثر فى مصر كلها الا على عدد قليل من المنازل الاغريقية فى الفيوم ، فانه بفضل معلوماتنا عن المنازل الاغريقية فى باقى أنحاء العالم الاغريقى ، والأدلة المستمدة من الوثائق البردية ومقابر الاسكندرية وسفينة بطلميوس الرابع التى كانت تعتبر قصرا عائما ، نستطيع أن نستخلص أن اغريق الاسكندرية قد استخدموا ، مثل معاصريهم فى سائر أنحاء العالم الاغريقى ، نوعين من المنازل يشبه أحدهما النوع الذى كان شائعا فى پرايينى بالأناضول فى القرن الثالث قبل الميلاد ، بدليل ان مقابر سوق الورديان والشاطبى والأنفوشى وسيدى جابر تتألف من العناصر الرئيسية التى كانت توجد فى ذلك النوع من المنازل . أما النوع الثانى فيشبه ذلك النوع من المنازل الذى اشتهرت به جزيرة ديلوس فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ووجدت عناصره الرئيسية فى مقبرتى حديقة أنطونيادس والمكس .

وتشير القرائن الى أنه كانت توجد منازل اغريقية فى بطوليميس وبعض مدن الفيوم ، ومن المحتمل أيضا فى نقراطيس . أما فيما عدا ذلك فيبين ان الاغريق وكذلك المصريين كانوا ينزلون فى منازل مصرية لم تكن الا استمرارا لأنواع المنازل التى كشفت عنها الحفائر فى تل العمارنة ، فهى مثلها تتألف من مدخل وصالة وسطى وغرف للنوم ومطبخ ومخازن ، ويجب أن نبين أن اتخاذ الاغريق فى الريف منازل من الطراز المصرى لا يرجع الى تأثيرات حضارية وانما الى الظروف وحدها التى أملت ذلك ، فقد كان أغلب هؤلاء الاغريق جنودا وبعضهم تجارا ، وكان الجنود يمنحون مساكن فى بيوت مصرية . ومن المحتمل أن هؤلاء الجنود والتجار لم يعيشوا من قبل فى منازل تختلف كثيرا عما وجدوه من المنازل المصرية . ولذلك يبدو طبيعيا أن اغريق الأقاليم بوجه عام استعملوا المساكن المصرية التى وجدوها فيما نزلوا به من المدن والقرى المصرية . ولعله بمضى الزمن وتناسب هذه المنازل مع البيئة ألف الاغريق سكناها .

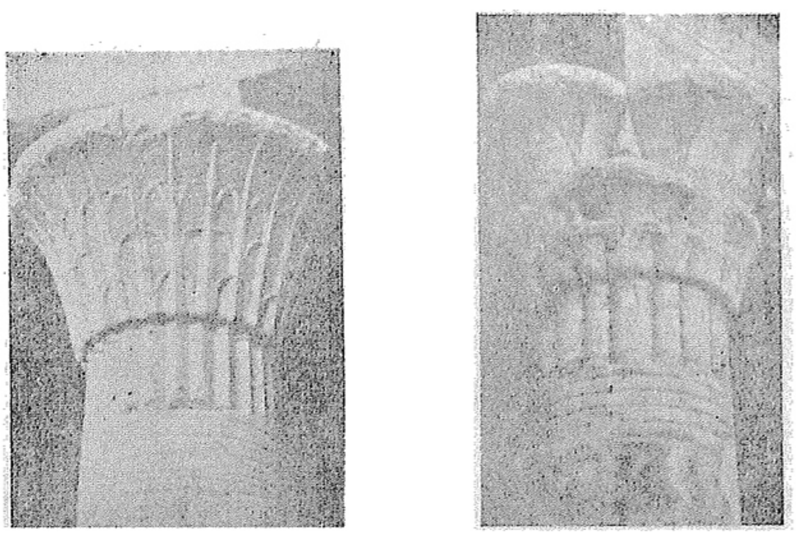
أما عن طابع عمارة المنازل البطلمية وزخرفتها فان القرائن توحى بأنه قد بقى بوجه عام مصريا خالصا أو اغريقيا خالصا .

ج ـ المعابد

وتحدثنا المصادر القديمة بأن الاسكندر الأكبر والبطالمة قد شيدوا معابد للآلهة الاغريقية مثل ما شيدوا للآلهة المصرية ، لكن لسوء الحظ لم تكشف الحفائر عن بقايا أى معبد اغريقى كبير ، وان كانت قد كشفت عن بقايا معبد دورى صغير يبدو أن طرازه الاغريقى لا تشوبه أى تأثيرات مصرية ، كما



معبد نكتانبو بجزيرة فيلة .



نوعان من رؤوس الأعمدة المركبة .

كشفت أيضا عن بقايا كل طرز الأعمدة الاغريقية . واذا كانت هذه البقايا تمتاز بطابعها المحلى ، وهو طابع الاسكندرية ، فان أغلبها اغريقى بحت . ومع ذلك فقد عثر على بعض تيجان للأعمدة تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية ، لكن يُستبعد انها كانت مستخدمة فى معابد اغريقية أو مصرية لأن مثل هذه العمائر الدينية تتصف دائما بالمحافظة والاستمساك بالتقاليد . واذا كان الأفراد من سائر الاغريق قد حرصوا بوجه عام على أن يكون طابع مساكنهم فى الدنيا وفى الآخرة اغريقيا ، فاننا لا نشك فى أن معابد الآلهة الاغريقية كانت أكثر استمساكا بتقاليد العمارة الاغريقية .

وقد كشف عن عدد كبير من المعابد التى أقيمت فى هذا العصر للآلهة المصرية ، وهى مصرية صميمة فى تخطيطها وعمارتها وزخرفتها ، ولا أدل على ذلك من أن الأثريين لم يستطيعوا تأريخها تأريخا صحيحا قبل حل طلاسم اللغة المصرية القديمة . وتمتاز هذه المعابد بظاهرتين وهما : أولا ، كثرة ما استخدم فيها من الأعمدة التى يُطلق على رءوسها الرءوس المركبة ، ونعتقد أن المصريين ابتكروها فى أثناء نهضة العصر الصاوى . وثانيا ، كثرة ما استخدم فى صالات الأعمدة بوجه خاص من جدران قصيرة تبلغ نصف ارتفاع الأعمدة تقريبا . وليست هذه الجدران القصيرة غريبة على العمارة المصرية ، اذ نجد أمثلة لها فى معابد الدولة الحديثة .

وجملة القول ان العمارة الدينية فى عصر البطالمة ، سواء أكانت مصرية أم اغريقية ، لم يتطرق اليها أى تأثيرات أجنبية .

٢ ــ النحت :

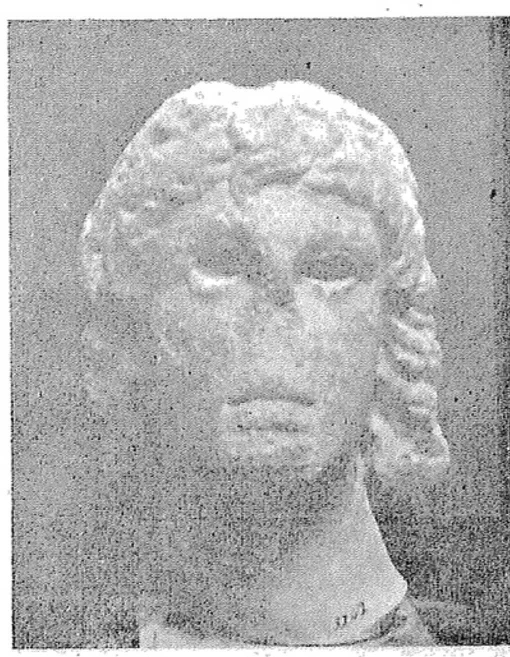
وتشير الدلائل الى أنه كانت للاسكندرية مدرسة للنحت الاغريقى ذات مميزات خاصة تختلف عن مميزات سائر مدارس النحت الهيلينستية ، والى أنه اذا كانت هذه المدرسة ، مثل المدارس الأخرى المعاصرة ، قد استمدت طرازها من تراث أساطين الفن الاغريقى فى القرن الرابع ، فانها لم تلبث أن انفردت بطابع معين كان أخص مميزاته عدم ابراز عظام الوجه والجسم ، وعدم معالجة تفاصيل الشعر ، وعدم استخدام الزوايا الحادة ، وصقل السطح صقلا شديدا . لكن الاسكندرية لم تستخدم هذا الطراز المثالى فحسب ، لأنها يوم ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت تمخضت عنه الأبحاث التى سارت قدما فى جامعتها ، وكان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم ، ابتكرت طرازا واقعيا يوائم هذا الفرع من الفن .

وتدل المخلفات التى كشفت عنها الحفريات على أن الفنان الاغريقى لم يحتكر فن النحت فى مصر على عهد البطالمة . فقد استمر الفنان المصرى يزاول نشاطه لا على جدران المعابد ونصب الموتى فحسب ، بل فى شتى الميادين التى كان أسلافه يألفونها منذ غابر الزمن .

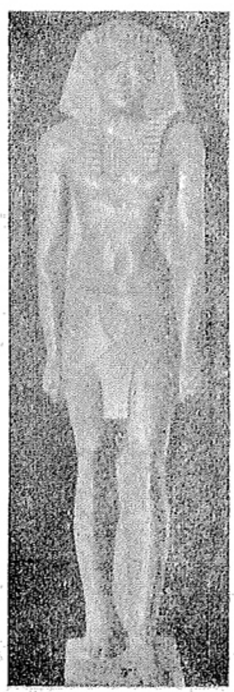
وتتكشف دراسة فن النحت فى عصر البطالمة عن : أولا ، ان أكثر النقود التى سكها البطالمة وأغلب قطع النحت التى ابتكرتها مدرسة الاسكندرية اغريقية فى طرازها وعناصرها وصفتها ، وان أكثر قطع النحت المصرية مصرية بحتة فى صفتها ومظهرها وجوهرها .

وثانيا ، ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز ، مثل تصوير زهرة اللوتس أو قرص الشمس وسط قرنين على نقود بعض البطالمة ، فهذه عناصر مصرية ومع ذلك فان طراز تلك النقود اغريقى . ومثل قطعة تصور رأس الاسكندر الأكبر بطراز اغريقى ، لكن القطعة مصنوعة من الجرانيت أو البازلت وهما مادتان غريبتان عن الفن الاغريقى . ومثل تمثال يصور ملكا أو ملكة من أسرة البطالمة بطراز مصرى . ولما كان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز ، لأنه أبرز صورة لأفكار الفنان وأفصح مظهر لطابع حضارته ، فان اختلاط العناصر أو الصنعة لا يمكن أن ينهض دليلا على امتزاج الطرازين المصرى والاغريقى وتبعا لذلك على امتزاج تينك الحضارتين وتفاعلهما . لقد كان اختلاط العناصر نتيجة طبيعية لاجتماع الاغريق والمصريين فى بيئة واحدة ، وكذلك لقدرة الفنان على أن يكيف

مثلان لقطع النحت التى تختلط فيها العناصر دون الطرز



رأس للاسكندر الأكبر مصنوعة من الجرانيت لكن طرازها اغريقى .



تمثال لبطلميوس الزمار مصنوع من الجرانيت وطرازه مصرى .

نفسه حسب الظروف التى يعيش فى كنفها ، وليس نتيجة لتفاعـــل الحضارتين المصرية والاغريقية ، لأن هذه العناصر ظواهر سطحية على حين ان الجوهر نفسه وهو الطراز قد بقى مصريا أو اغريقيا خالصا .

وثالثا ، ان فى عدد قليل من قطع النحت محاولات ظاهـــرة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى ، لكن قلة عدد هـذه القطع يدل على أن المصريين والاغريق قد أدركوا بذوقهم الفنى الرفيع عبث مثل هذه المحاولات لبعد الشقة بين الطرازين . وتدل مقارنة هذه القطع بالقطع الأخرى التى كان طرازها مصريا بحتا أو أغريقيا بحتا على أن الأخـيرة لا تفوق الأولى فى العدد فحسب بل كذلك فى القيمة الفنية . ولعل أولئك الفنانين الذين حاولوا فى عصر البطالمة مـــزج الطرازين المصرى والاغريقى فى فن النحت يشبهون الموسيقيين المصريين الذين يحاولون اليوم عبثا مـــزج الموسيقى الشرقية بالموسيقى الغربية .

انه لم توجد الا طريقة واحدة ناجحة لمزج مثل هذين الفنين اللذين كانا يختلفان عن بعضهما اختلافا بعيد المدى . أما هذه الطريقة فهى أن يفنى أحدهما فى الآخر بأن يتغلب أحدهما على الآخر بحيث يقضى عليه قضـــاء مبرما . لكن ذلك كان عزيزا عـــلى الاغريق باعتبارهم سادة البلاد وأصحاب حضـــارة كانوا يعتبرونها أسمى الحضارات جميعا ، كما كان عزيزا أيضا على المصريين ، فقد كانوا لا يزالون يذكرون مجـــدهم التالد ويعتزون بتقاليدهم ولا سيما ان الفن عندهم كان وثيق الصـــلة بالديانة وانهم كانوا شـــديدى الاستمساك بدياناتهم .

ومما يجدر بالملاحظة أن القيمة الفنية لقطع النحت الاغريقية أخذت تقل بعد بداية القرن الثانى قبل الميلاد . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لضعف الروح الاغريقى بين اغريق مصر فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ، لكن كما بقى الاغريق محتفظين بطابعهم خالصا نقيا برغم ما اعتور روحهم من الضعف ، فان فنهم قد بقى كذلك محتفظا بنقاء طرازه برغم ما طرأ عليه من تدهور .

وقد كان طبيعيا أيضـــا انه حين انتعش الروح القومى بين المصريين عقب موقعة رفح أن ينتعش فنهم كذلك ، لكنه لم يكن انتعاشا طويل الأمد بسبب الفشل الذى انتهت اليه ثورات المصريين .

ولما كانت النقود ترينا انهـــا قد بقيت اغريقية خالصة فى طرازها حتى نهاية عصر البطالمة ، وكانت النصب الجنائزية ولوحات المعابد قد بقيت كذلك مصرية خالصـــة فى طرازها حتى آخر هذا العصر ، فاننا لا نعدو الحقيقة حين نقرر ان كلا من الفنين المصرى والأغريقى قد احتفظ بوجه عام ابان ازدهاره وابان تدهوره بطابعه خالصا نقيا من أثر الفن الآخر ، طالما بقى هذان الفنان منتعشين فى مصر البطلمية ، اذ يبدو أن النـــاس كانوا

يدركون ادراكا صحيحا انه تفصل بين الفنين فوارق لا يمكن تخطيها ، وان قطع الفن التى تختلط فيها العناصر دون الطرز تعكس أثر البيئة لا أثر الحضارة التى يعبر عنها الطراز . أما تلك المحاولات التى كانت تستهدف مزج الطرازين فانها قليلة فى عددها محدودة فى جهدها ضئيلة فى قيمتها الفنية بحيث يمكن اعتبارها انعكاسا لنزوات فردية أو ذوق فنى ينقصه التهذيب .

* * *

ولا ريب فى أن الفن البطلمى يعطينا صورة صحيحة عن الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر البطالمة . لقد شهدنا أن غالبية الفن الاغريقى وغالبية الفن المصرى كانت اغريقية خالصة أو مصرية خالصة . ولذلك لابد من أن أغلب الاغريق وأغلب المصريين قد بقوا خالصين فى جوهرهم .

وترينا بعض الآثار عناصر خليطة لم يكن لها أثر فى طابعها الجوهرى . وهذا يدل على أن الجنسين قد التقيا واختلطا ، لكن لم ينقل أحدهما عن الآخر الا بعض المظاهر الشكلية فقط .

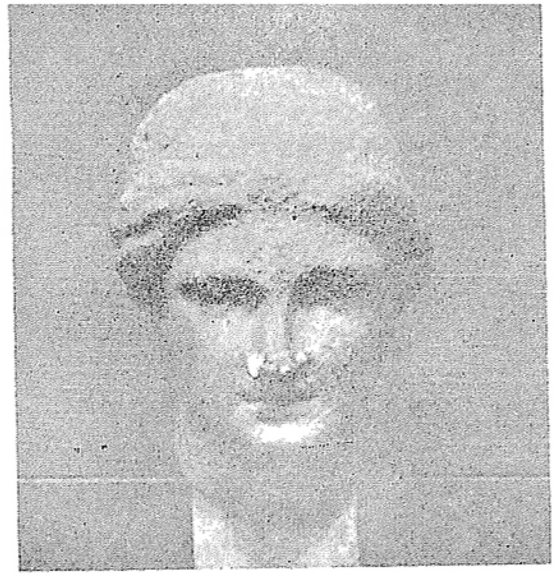
ونرى كذلك محاولات قليلة غير ناجحة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهذا يشير الى أن محاولة مزج الجنسين كانت كذلك محدودة وغير موفقة .

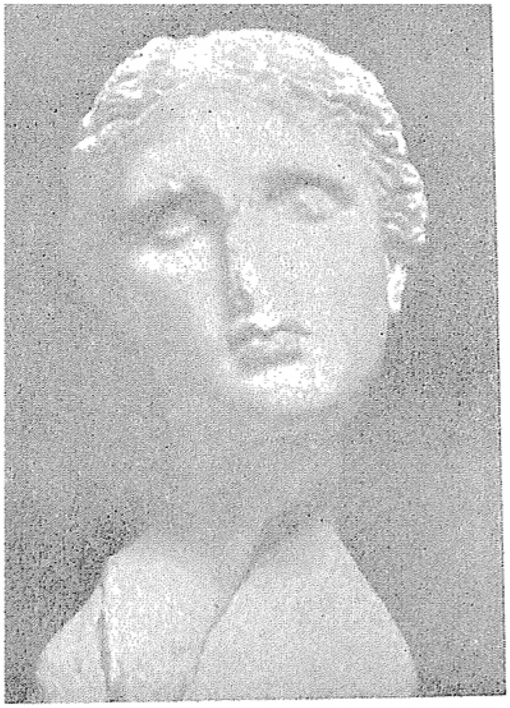
وبما انه يبدو جليا واضحا ان تدهور الفن الاغريقى قد حدث فى أعقاب انقطاع وفود الاغريق على مصر ، فانه يمكن القول ان ضعف الروح الاغريقى فى مصر لم يبدأ قبل القرن الثانى قبل الميلاد ولم يكن نتيجة لاختلاط الاغريق بالمصريين .

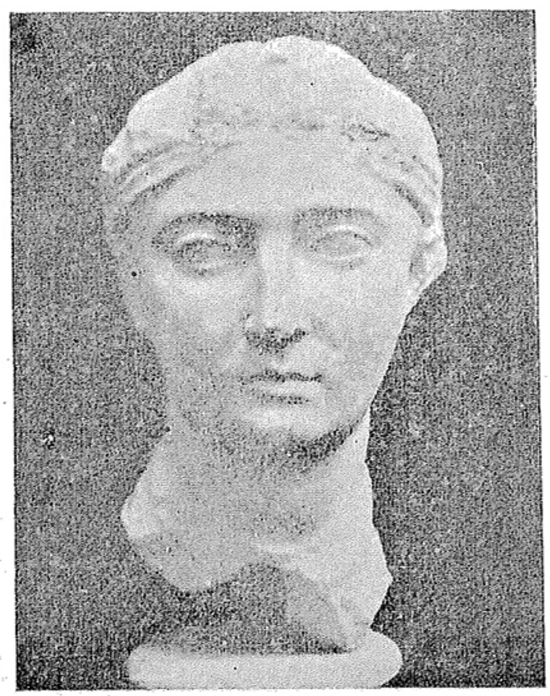
وكما بقى الفن الاغريقى اغريقيا حتى نهاية عصر البطالمة مهما انحط مستواه ، فلابد من أن الروح الاغريقى قد بقى كذلك اغريقيا مهما اعتوره من الضعف .

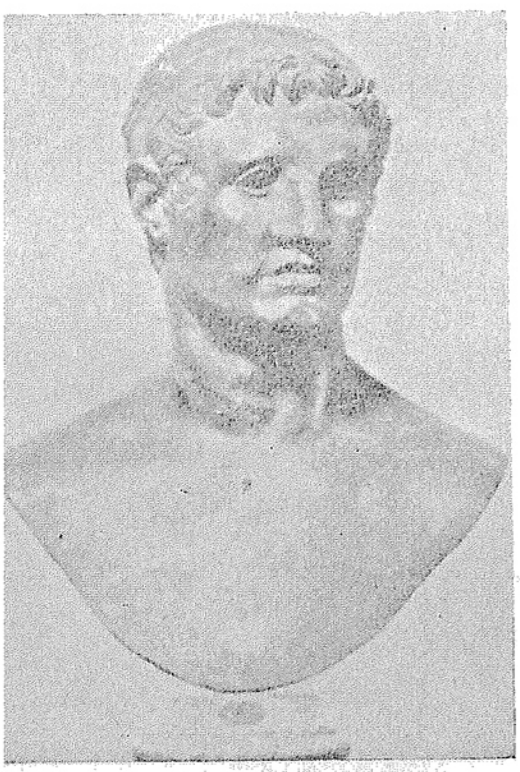
ويبدو اذن من كل ما مر بنا ان نتائج الأدلة المستمدة من الآثار ، تؤيد النتائج التى استخلصناها من مختلف المصادر الأدبية .

أمثلة لمراحل تطور فن النحت الاغريقى فى عصر البطالمة .



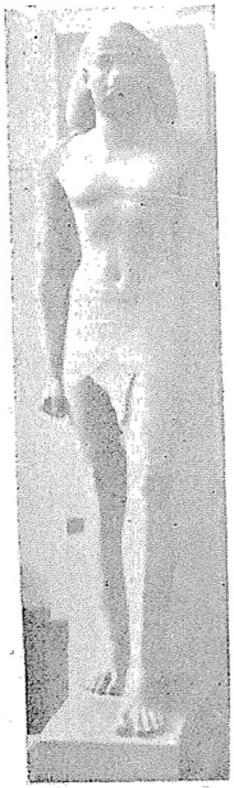




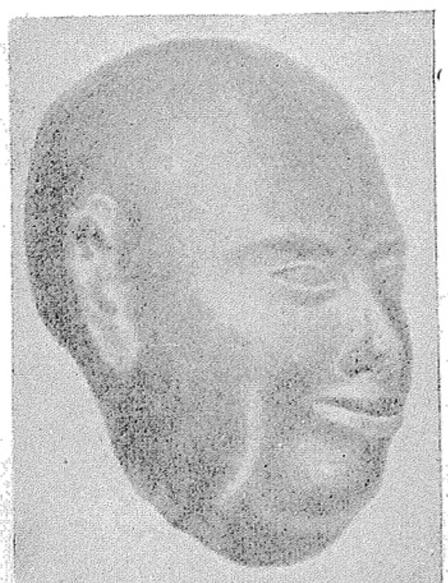


أمثلة لمراحل تطور فن النحت المصرى فى عصر البطالمة :

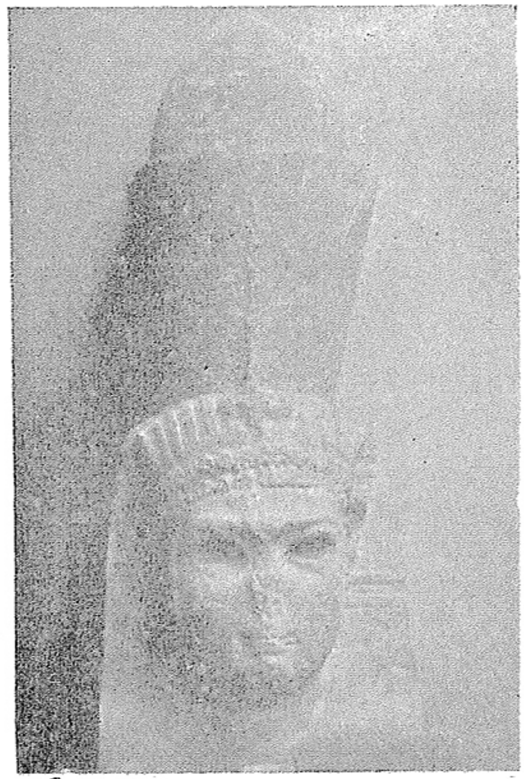


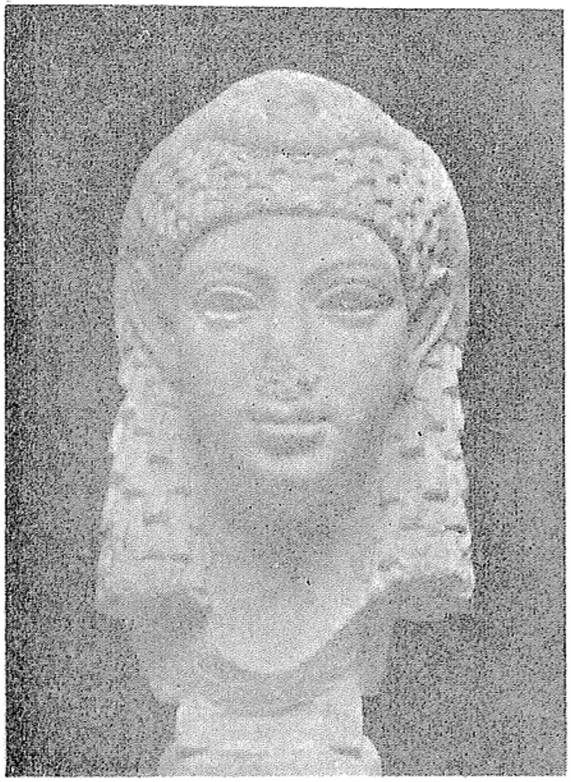






أمثلة لمحاولة مزج الطرازين المصرى والاغريقى.







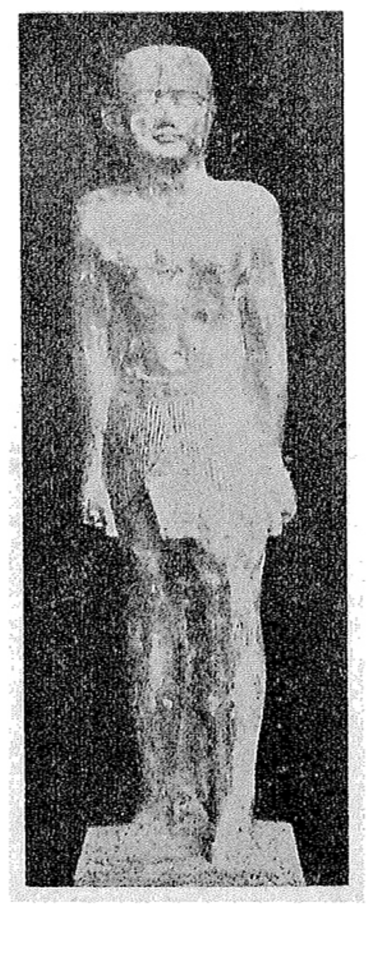




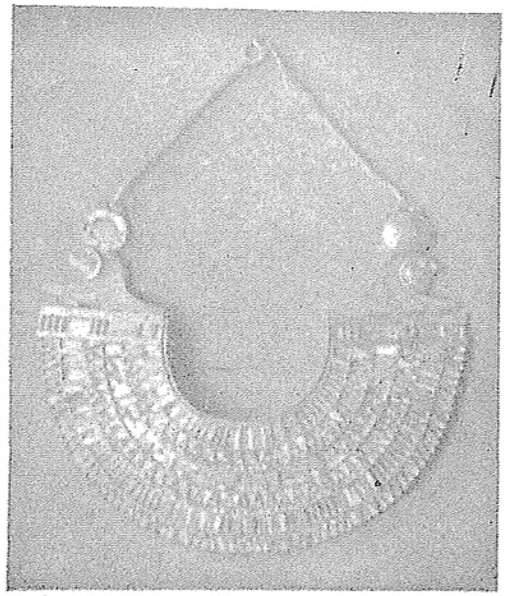


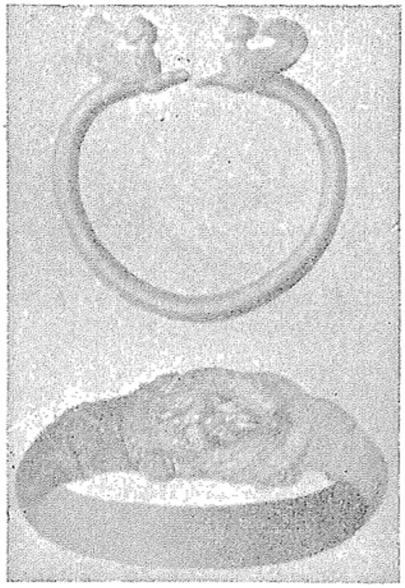
تمثالان صغيران من البرونز لقزمين ، رجل وامرأة ، يؤديان رقصة ، عثر عليهما مع أشياء أخرى فى قاع البحر عند المهــدية بالقرب من صفاقس فى تونس ٠

ولما كان استخدام الأقزام وتصـــويرهم شائعين فى مصر على عهد الفراعنة وكذلك البطالمة فانه لا يبعد أن هذين التمثالين كانا من صنع الاسكندرية ٠



تمثال كاهن وهو مصرى فى ثيابه وشكله وطرازه

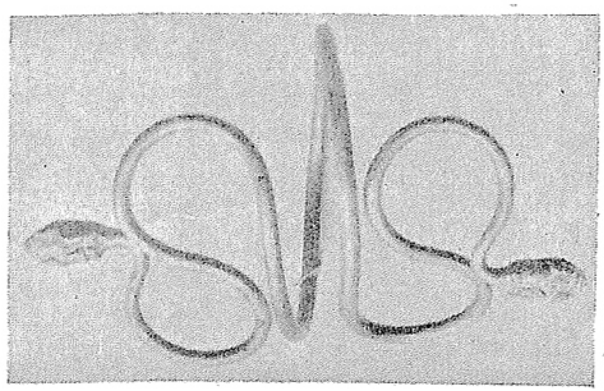


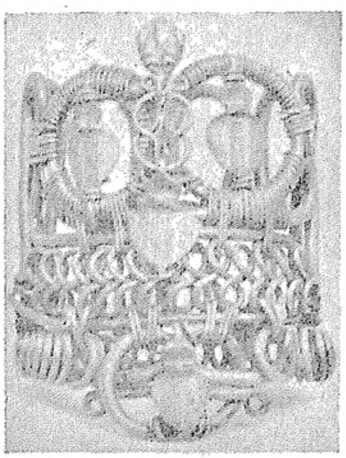


٢ ١

١ ـ عقد صغير من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، وهو مصرى فى الشكل والصناعة والطراز .

٢ ـ سواران من الذهب ينتهى أحدهما بجزءى أبى هول مجنح وهو مصرى فى نوعه لكنه اغريقى فى تصفيف شعره . أما السوار الآخر فينتهى بمشبك فى شكل عقدة يوجد فى تجويفها أيروس محلق .





سواران من الفضة عثر عليهما فى البلامون بمديرية الدقهلية . والسوار الأول على شكل ثعبان طوى جسمه حلقات ، والسوار الثانى يتألف من أسلاك تلتف وتتشابك مع بعضها ثم تنتهى برءوس ثعابين وهلال . والأساور التى تحاكى الثعابين فى شكلها شائعة فى الفن الاغريقى . وقد وجدت فى مصر وفى بلاد ما بين النهرين أمثلة تحاكى السوار الثانى فى شكله وزخرفته .

أمثلة تصور صناعة البرونز الاغريقية فى مصر



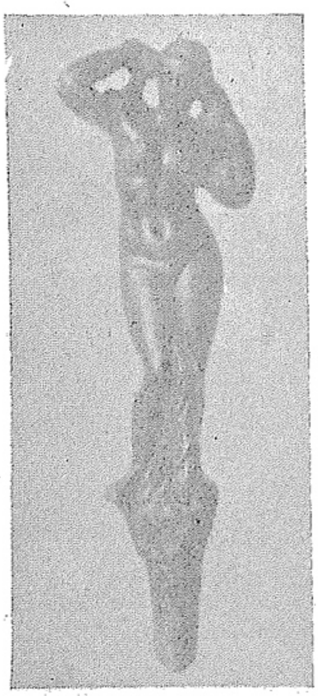
١



٢



٣



٤

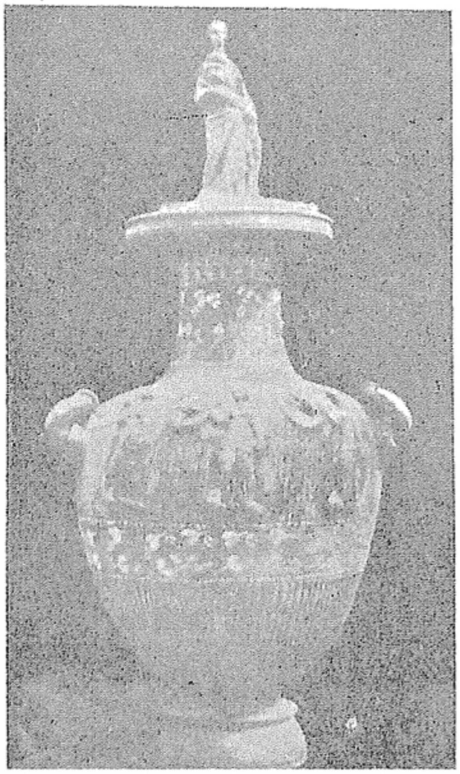
١ ـ لوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لهرقل وعلى كتفه الأيسر جلد الأسد وفى يده اليسرى مضربه المشهور ٠

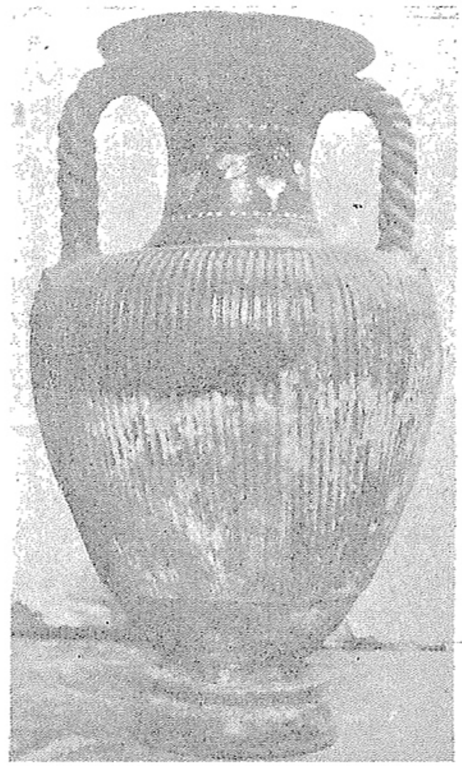
٢ ـ نموذج من الجص للوحة برونزية مزينة بصورة نصفية لبطلميوس الأول

٣ ـ تمثال صغير يصور أتيس على ظهر أسد٠

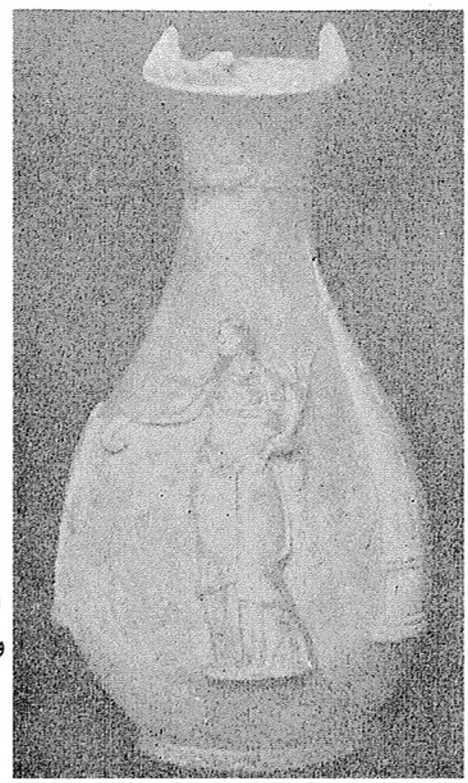
٤ ـ رأس مشبك شعر فى شكل أفروديتي وهى تحزم شعرها ٠

أمثلة من الأوانى فى مصر البطلمية

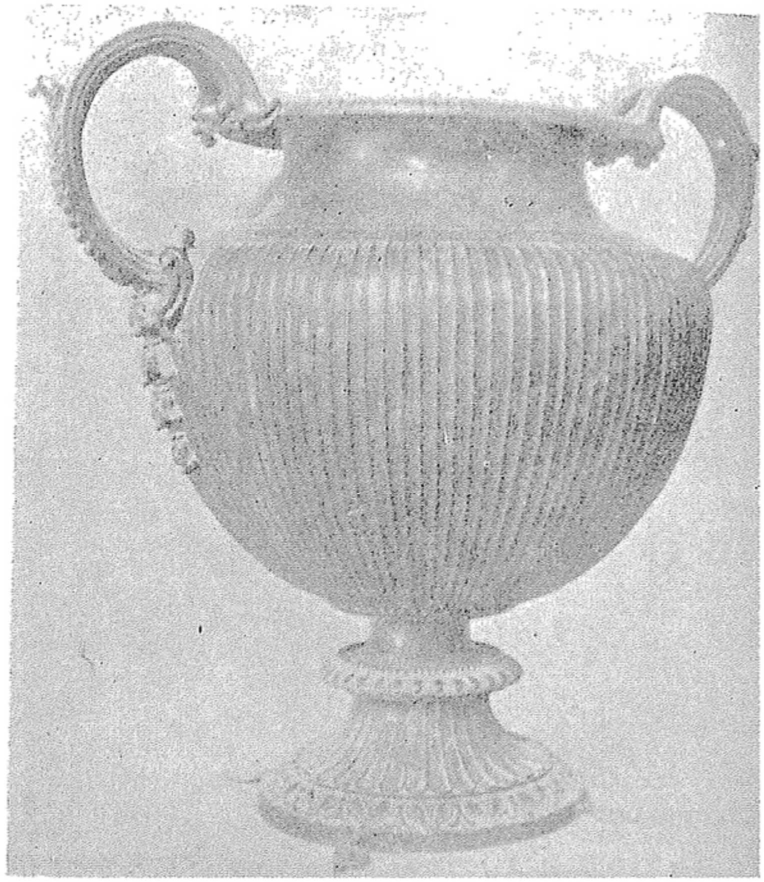




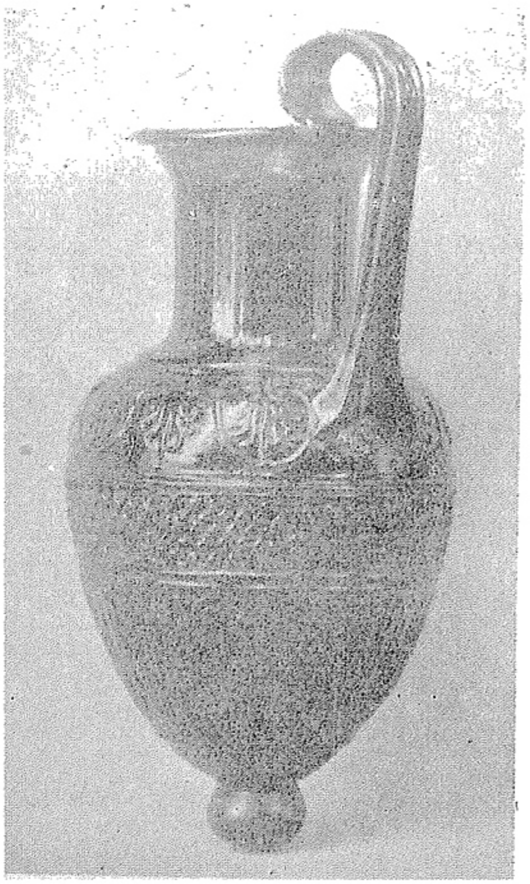
نوعان من الآنية الفخارية الجنائزية التى كانت شائعة فى القرن الثالث قبل الميلاد فى الاسكندرية ·



اناء من الخزف اللامع كان يستخدم فى القرن الثالث قبل الميلاد فى تقديم القرابين فى المعابد والهياكل المخصصة لعبادة البطالمة المؤلهين ·



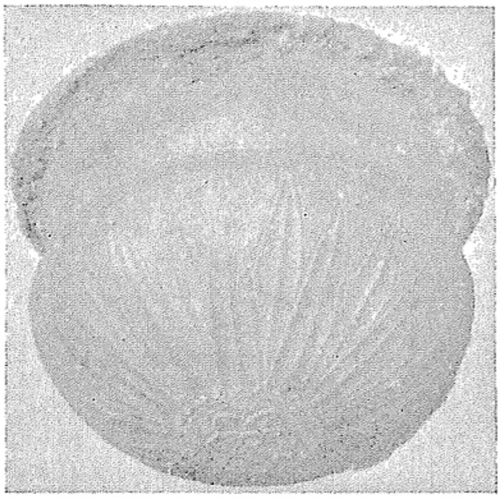
اناء من البرونز من العصر الهلينستى المتأخر

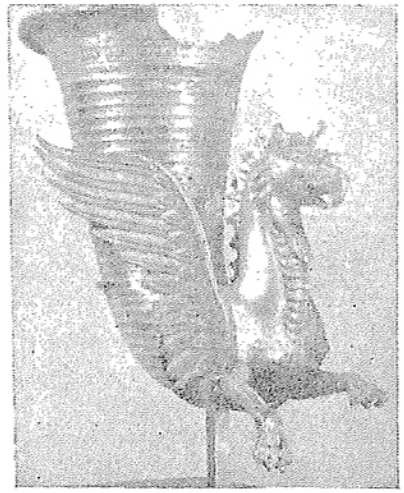


اناء زجاجى من العصر الهلينستى المتأخر



نرى فى وسط هذه الصورة كأسا من الزجاج ذات يدين ، وحولها لوحات زجاجية صغيرة كانت تستخدم للزخرفة .



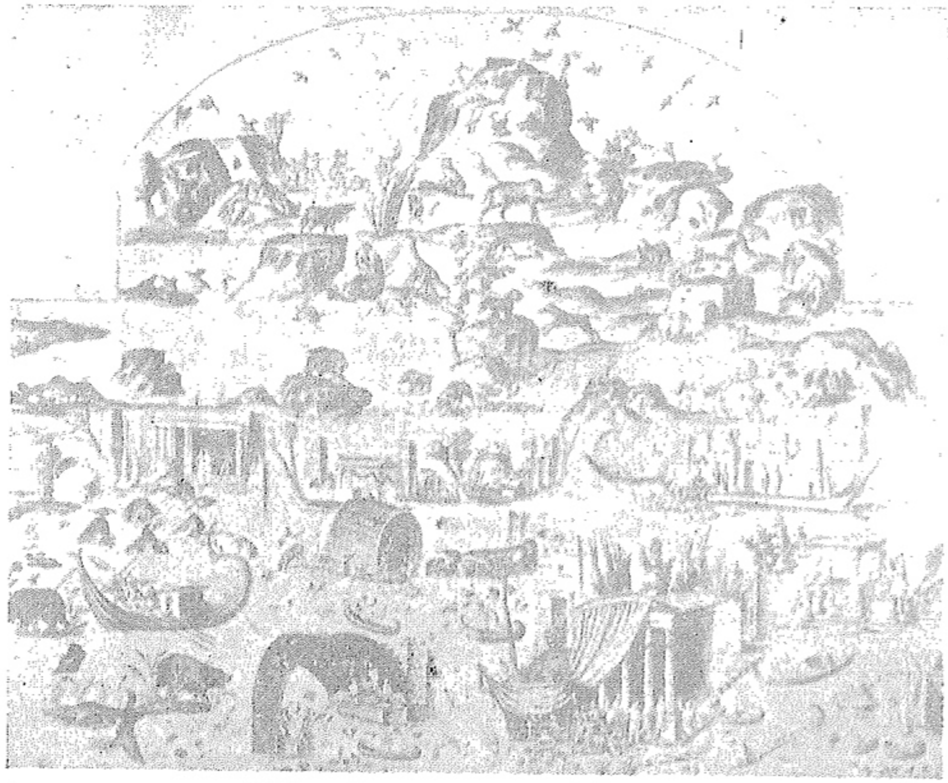


(٢) (١)

١ ـ كأس من الفضة فى شـــكل قرن ينتهى بجزع حيوان خرافى مجنح • صناعة اغريقية •
٢ ـ وعاء من الفضة اغريقى فى شكله ، فهويشبه الآنية المجارية لكنه مصرى فى صـــناعته



ـ تضم هذه اللوحة تمثالا صغيرا من الصلصال المحروق مصنوعا محليـــا لكن طرازه اغريقى • وتضم كذلك عددا من الآنية الفخارية بعضـــها اتيكى وبعضها اغريقى مصنوعة محليا وبعضها مستورد من ايطاليا • وتصور هـــذه اللوحة ازدهار الفن الاغريقى فى مصر البطلمية ، وكذلك قيام علاقات تجارية نشيطة بين مصر وأثينـــا وكذلك فيما يبدو بين مصر وجنوب ايطاليا •



لوحة من الفسيفساء تصور فى جزئهـا العلوى مناظر وحيوانات سودانية وفى جزئهـا الأسفل منظرا عاما لمصر وقت الفيضان ٠

الفصل الأول

مصر فى عصر الرومان (٣٠ ق م — ٢٨٤ م)

للدكتور ابراهيم نصحى

مصر تصبح ولاية رومانية

١ — الفتح الرومانى :

أخذ نفوذ روما يزداد تدريجيا فى مصر منذ أيام بطلميوس الخامس ، بل أصبح مصير مصر متعلقا بمصير الصراع الحزبى فى روما منذ وفاة بطلميوس التاسع فى عام ٨٠ ق . م . لكن بالرغم من كل ذلك ظل البطالمة يحتفظون على الأقل باستقلالهم الاسمى . وعندما ارتقت كليوبترة السابعة عرش مصر فى عام ٥١ ق . م . واندلع لهيب الحروب الأهلية فى روما لعبت كليوبترة دورا كادت أن تجنى من ورائه امبراطورية واسعة على حساب الرومان مما أفضى الى صراع روما مع كليوبترة وهو الصراع الذى تمخض عنه القضاء على دولة البطالمة .

وبيان ذلك ان كليوبترة مدت يد المساعدة الى پومپى الأكبر فى صراعه مع قيصر ، لكن لم يكن نصيب پومپى سوى الهزيمة ففر الى الاسكندرية حيث قتله رجال البلاط ليبرهنوا لقيصر الذى تبعه الى هناك ان مصر قد قطعت علاقاتها مع أعدائه وبذلك لم يبق ثمة داع لغزو مصر . الا أن قيصر دخل الاسكندرية ، وبعد حرب قصيرة عنيفة تعرف « بحرب الاسكندرية » وطد مركز كليوبترة على العرش بينما وطدت كليوبترة سيطرتها على قيصر فأصبح طوع أمرها . ويبدو انهما اتفقا على أن تعلن كليوبترة زواجهما فى مصر بينما يرجىء قيصر اعلان هذا الزواج فى روما حتى يقيم نفسه ملكا هناك ، فعندما أنجبت كليوبترة طفلا من قيصر سجلت على جدران معبد أرمنت انها أنجبت طفلا من قيصر الذى خالطها فى صورة آمون — رع . ومعنى ذلك انها فى نظرها ونظر رعاياها المصريين كانت زوجة قيصر الشرعية . وسرعان ما خفت كليوبترة الى روما وأقامت الى جانب قيصر انتظارا لليوم الموعود الذى يقيم فيه نفسه ملكا ويعلن رسميا زواجه منها وترتقى معه عرش الأمبراطورية الرومانية . لكن هذه الآمال العراض لم تلبث أن انهارت عندما استثارت مطامع قيصر غضب الجمهوريين الرومان فقضوا عليه فى مارس عام ٤٤ ق. م.

وقد بادرت كليوبترة بالهرب الى مملكتها وأخذت ترقب فى قلق الصراع الذى نشب فى العالم الرومانى بين قتلة قيصر وأعـوانه دون أن تناصر فريقا على آخر ، حتى اذا ما انتصر أصدقاء قيصر وكان على رأسـهم أنطونيـوس وأوكتافيوس (أغسطس) فى خريف عام ٤٢ ق . م . ذهب أنطونيوس ليتولى أمر الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية وأرسل هـذا القائد المغوار الى كليوبترة يستدعيها الى كيليكيا لتجيب عن تجنبها معاونة أنصـار قيصر . وما كادت كليوبترة تصل الى طارسوس حتى أحرزت نصرا حاسما على قلب أنطونيوس . وعنـدما عادت الى الاسكندرية سارع الى اللحاق بها وقضى فى صحبتها شتاء عام ٤١/٤٠ ق . م . مستمتعا بتلك « الحياة الفريدة » التى خلد الكتاب والشعراء ذكراها فى النفـوس وفى الآداب ، والتى منذ تلك اللحظة شدت على الدوام وثاق قلبه وعقله الى الاسكندرية . لكن الأحداث الخطيرة التى وقعت فى العالم الرومانى فى ربيع عام ٤٠ ق . م . انتزعته كارها من جانب كليوبترة واضـطرته الى العودة الى روما حيث أصلح ما بينه وبين أغسطس وتزوج من أخته أوكتافيا وحصل عـلى الاعتراف بسلطانه عـلى الولايات الشرقية . وقد ظل أنطونيوس بعيـدا عن كليوبترة حتى عام ٣٧ ق . م . عندما ذهب الى سوريا ليتولى الاشراف على حملته ضد پارثيا . ولما كان شوقه الى كليوبترة قد استبد به فانه استدعاها الى جانبه وأعلن زواجه منها واعترافه بالتوأمين اللذين أنجبتهما منه . وبعد انتهاء حملته الفاشلة عاد الى مصر فى أوائل عام ٣٥ .

وفى العام التالى وجه حملته الى أرمينيا وعاد منها مظفرا الى الاسكندرية حيث أقام مهرجان انتصـاره ، وكان القواد الرومان المنتصرون يقيمون مهرجاناتهم عادة فى روما . وقد أثار ذلك غضب الرومان لأنهم رأوا فيه دليلا على ان أنطونيوس كان يريد جعـل الاسكندرية عاصمة للامبراطورية واشـتد غضب الرومان عندما أتاهم نبأ حفل آخـر أقيم بعد ذلك بأيام قليلة فى الاسـكندرية واشـترك فيه أنطونيوس ونودى فيـه بكليوبترة ملكة الملكات ووزعت على أبنائهما الولايات الرومانية فى الشرق . وهكذا رأت كليوبترة للمرة الثانية انها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح امبراطورة العالم ، فقد كانت تسيطر عندئذ على النصف الشرقى من العالم الرومانى وكذلك على أعظم قائد فى هذا العالم ولم يبق الا أن ينتصر أنطونيوس على أغسطس فى الصراع المقبل المحتـوم بينهما لكى تحقق كليوبترة حلمها الذى بدده أول مرة مقتل قيصر . ولذلك لم تدخر كليوبترة وسعا فى تحريض أنطونيوس على اتخاذ العدة لمنازلة أغسطس . وقد أجاب أغسطس على ذلك باثارة الرأى الرومانى ضد غريمه واعلان الحرب على ملكة مصر لا عـلى أنطونيوس لكيلا يتهمه أحد باشعال نار حرب أهلية .

وبعد أن حشد أنطونيوس قوات كبيرة فى بلاد اليونان أضاع فرصته باتخاذ موقف الدفاع فساءت حال قواته ماديا ومعنويا . وعندما التحم الفريقان فى سبتمبر عام ٣١ ق . م . عند اكتيوم انتصر أغسطس وفرت كليوبترة وأنطونيوس الى الاسكندرية . وقد استبد اليأس بأنطونيوس من جراء خيانة رجاله الذين انضم كثيرون منهم الى جانب أغسطس فلم يقم بأى اجراء للدفاع عن مصر عندما زحف عليها أغسطس . واذ رأت كليوبترة عبث المقاومة عرضت على أغسطس أن تنزل عن عرشها والتمست منه اقامة أحد أبنائها مكانها فأجابها بعبارات ملتوية لكى لا يكشف النقاب عن حقيقة نواياه نحوها . وفى اليوم الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق . م . قبل أن يدخل أغسطس الاسكندرية قضى أنطونيوس على حياته بينما كانت كليوبترة قد اختبأت فى مقبرتها حيث أودعت كنوزها وهددت بأن تشعل النار فى المقبرة فتقضى على نفسها وكنوزها وكذلك على آمال أغسطس اذا لم يقم أحد أبنائها على العرش . ولما كان أغسطس يريد أن يعرض كليوبترة فى مهرجان انتصاره ويستشعر حاجة ملحة الى كنوزها فانه ما كاد يدخل الاسكندرية حتى لجأ الى الحيلة واستولى على الملكة وكنوزها . وعندما لم يعد لدى كليوبترة أدنى شك فى أن أغسطس ينوى أن يقودها أسيرة الى روما واجهت الموقف بشجاعتها المعتادة وأنقذت نفسها من ذلك العار والهوان بالقضاء على حياتها (١٠ أغسطس) . وسرعان ما تخلص أغسطس من أبناء كليوبترة ليطوى صفحة الماضى ويبدأ فصلا جديدا فى تاريخ مصر التى أصبحت منذ ذلك الوقت ولاية رومانية . وقد قرر السناتو الرومانى اعتبار أول أغسطس عام ٣٠ ق . م . — وهو يوم سقوط الاسكندرية فى قبضة الرومان — عيدا وطنيا فى روما وبداية للتقويم المحلى فى مصر .

ولا أدل على مقدار كراهية الرومان لكليوبترة وخوفهم منها من روح الشماتة والسخافة التى تتكشف فيما كتبه فحول شعراء عصر أغسطس للاشادة بانتصار هذا الامبراطور وهزيمة كليوبترة . ولما كانت روما تسيطر عندئذ ولعدة قرون بعد ذلك على كل العالم المتمدن وكان الكتاب والشعراء المعاصرون قد تباروا فى كسب ود الامبراطور المنتصر بتلطيخ سمعة كليوبترة ورميها بكل نقيصة يمكن أن يصورها الخيال المغرض دون أن يجرؤ أحد من أنصار كليوبترة على الدفاع عنها فان كتابات خصومها قد ظلت حتى اليوم المصدر الوحيد الذى يستقى منه تأريخها وتبعا لذلك كان لهذه الكتابات أبلغ الأثر فى كل ما كتب عنها منذ العصور القديمة حتى اليوم ولا سيما ان الصورة التى صورت فيها استهوت الشعراء

وكتاب القصة . لكن عندما أخـذ بعض الباحثين المحدثين فى تمحيص أقوال القدماء ومقارنة بعضها ببعض تبين لهم ان هـذه الصورة مزيفة وان كليوبترة كانت ملكة طموحة أبية وأماً رءوما وفية وانها لم تكن أكثر من غيرها من نساء الاسكندرية أو روما تبذلا واستهتارا بل لعلها كانت أكثر من غيرها من سـيدات الطبقة الراقية وقارا واحتشاما .

٢ ـ سياسة أباطرة الرومان فى مصر :

عنـدما فتـح أغسطس مصر أثبت فى السجلات الرسمية العبارة التالية : « ضممت مصر الى سلطان الشعب الرومانى » . ويرى كثير من الباحثين ان معنى ذلك واضـح لا لبس فيه ولا غموض وهو ان أغسطس ضـم مصر الى الامبراطورية الرومانيـة وأصبحت احـدى ولاياتها ، تستغل روما مواردها مثل موارد غـيرها من الولايات الرومانية لصالح الشعب الرومانى . ولا أدل على وضوح هذا المعنى فى ذهن القدماء من أن المؤرخين سويتونيوس وتاكيتوس وديون كاسيوس وغيرهم وكذلك الجغرافى استرابون وصفوا مصر بأنها ولاية رومانية . ومع ذلك ما زال بعض البـاحثين يعتقدون ان مصر لم تكن ولاية بالمعنى المعروف وانما كانت ملكا خاصا للامبراطور وترتبط بشخصه ، وذلك لأنها كانت تخضع مباشرة لسلطانه ولأن نظـام حكمها كان يختلف اختـلافا جوهريا عن نظام الحـكم فى الولايات الأخرى ، ولأن اسم مصر لم يرد فى السجلات الرسـمية المعاصرة مقرونا بكلمة ولاية ولاسيما انه فى « اثر أنقرة » المشـهور — الذى اقتطفنا منه العبارة التى أوردناها فى صدر هذه الفقرة — لا يصف أغسطس مصر بأنها ولاية مع انه يتحدث فى الفقرة التالية لذلك عن احتمال تحويل أرمينيا الكبرى الى ولاية . ويعتقد البعض الآخر من الباحثين ان مصر كانت ولاية يتولى الامبراطور ادارتها باسم الشعب الرومانى على هدى تقاليدها ومقتضيات ظروفها .

والواقع ان مصر لم تكن ملكا خاصـا للامبراطور كما أنهـا لم تكن ولاية عادية كسائر الولايات الرومانية ، فقد أدخـل أغسطس فى تقديره عدة اعتبارات : أولا ، ان مصر بلاد غنية آهلة بالسكان تتمتع بمركز استراتيجى من اليسير الدفاع عنه ، وثانيا ان موارد هذه البلاد طائلة وتستطيع أن تسـد حاجة الشعب الرومانى الى الحبوب وأن تملأ خزائن روما بالأموال بعـد أن استنزفتها تكاليف الحروب الأهلية . وثالثا ، ان هذه البلاد فى حاجة الى حكومة قوية لنشر الأمن فى أرجائها والنهوض بمرافقها الاقتصادية بعد تدهورها من جراء ضعف البطالمة الأواخر وما عانته من آثار الثورات القومية والغزوات الأجنبية والانقسامات بين أفراد أسـرة البطالمة . ورابعا انه يجب اتخاذ الحيطة دون

وقوع هذه البلاد فى قبضة شخصية تستطيع الاستقلال بها وحرمان روما مواردها بل تهديد كيان روما ذاتها على نحو ما حدث فى عهد كليوبترة .

وازاء هذه الاعتبارات كان لولاية مصر الرومانية مركز فريد فى الامبراطورية الرومانية فقد وضع فيها أغسطس من الفرق الرومانية والقوات المساعدة ما يؤمن سلامتها . وفضلا عن ذلك وضعها أغسطس تحت اشرافه المباشر ، وفى عام ٢٧ ق . م . عندما قسمت الولايات الرومانية الى ولايات خاضعة للسناتو وولايات خاضعة للامبراطور كانت مصر فى عداد الولايات الأخيرة . ولم يقم أغسطس على مصر حاكما عاما من طبقة السناتو وانما من طبقة الفرسان ولم يحمل هذا الحاكم كغيره من حكام الولايات الرومانية لقب نائب أغسطس أو قائمقام قنصل (proconsul) أو قائمقام پرايتور (propraetor) وانما لقب پرايفكتوس (praefectus) أى وال أو حاكم عام ، وكان لقبه الرسمى « حاكم عام الاسكندرية ومصر » فقد اقتفى الرومان أثر الاغريق فى اعتبار الاسكندرية وحدة منفصلة عن مصر ومجاورة لها (ad aegyptum) .

والى جانب كل ذلك وضع أغسطس قاعدة تقرر بمقتضاها ألا يزور مصر أحد من رجال السناتو و لأى رجل ذائع الصيت من طبقة الفرسان يمتلك نصاب أعضاء السناتو الا باذن خاص من الامبراطور . وقد احترم خلفاء أغسطس هذه القاعدة الى حد أنه عندما أنفذ الامبراطور تيبريوس ولى عهده چرمانيكوس الى الشرق لتنظيم بعض ولاياته وانتهز هذه الفرصة لزيارة مصر ومشاهدة آثاراها ، آخذه الامبراطور مؤاخذة شديدة لأنه دخل مصر دون استئذانه متخطيا بذلك القاعدة التى وضعها أغسطس .

وقد ظل الأباطرة يحرصون على مراعاة القواعد التى وضعها أغسطس الى أن قلت ثروة مصر ولم تعد المصدر الرئيسى لقمح روما فلم يعد الأباطرة يرون حتى فى تعيين أحد من رجال السناتو فى مصر خطرا يتهددهم . وكان الامبراطور ماكرينوس (٢١٧ — ٢١٨) أول من خرج على القواعد التى وضعها أغسطس بأن عين الى جانب حاكم مصر مساعدا له من رجال السناتو . ولا أدل على نقص أهمية مصر فى القرن الثالث مما فعله الامبراطور سڤروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) اذ انه عندما ثار عليه بعض الجنود عين زعيمهم حاكما على مصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

وقد اعتمد الرومان فى توطيد سلطانهم فى مصر على القوة قبل كل شىء فأقاموا حاميات عسكرية فى الأماكن الرئيسية التى تمكنهم من السيطرة على كافة أنحاء البلاد . ولذلك

وضعوا حامية رومانية فى نيقوبوليس (Nikopolis) على بعد أربعة أميال شرقى الاسكندرية (ما بين مصطفى كامل وجليم برمل الاسكندرية) ، لتلقى الرعب فى سكان العاصمة التى أثبتت الحوادث انها كانت أشد معاقل الثائرين خطرا فى الدلتا فى أيام البطالمة الأواخر . وأقام الرومان حاميات أخرى فى بابيلون باعتبارها مفتاح الوجه البحرى ، وفى منطقة طيبة التى كانت مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة ، وفى أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية ، وعلى الطرق المؤدية الى البحر الأحمر ، وكذلك على شواطىء هذا البحر لضمان سلامة التجارة الشرقية التى استرعت انتباه حصيفى الرأى من الأباطرة مما حدا بهم منذ عهد أغسطس الى العمل على بسط النفوذ الرومانى على الشواطىء الآسيوية والافريقية للبحر الأحمر لتحويل التجارة فى هذا البحر الى موانيه المصرية على نحو ما فعل البطالمة من قبل .

ولم يكتف الرومان بالاعتماد على القوة وحدها لتأييد حكمهم فى مصر بل لجئوا أيضا الى الأساليب السياسية . فقد كان أهم عناصر السكان بعد فئة الرومان المصريون والاغريق واليهود ، وكان يقطن فى الاسكندرية أكبر مجموعة من الاغريق واليهود ، ورأى الأباطرة فى اخضاع الاسكندرية أكبر ضمان لاخضاع مصر . ولتحقيق هذا الهدف اتبعوا مبدآهم المعروف، مبدأ « فرق تسد » . فعلى حين رفض أغسطس ومن خلفه من أباطرة القرنين الأول والثانى أن يعيدوا الى اغريق الاسكندرية « مجلس الشورى » الذى عرفته مدينتهم منذ تأسيسها الى أن ألغاه أحد البطالمة الأواخر منحوا اليهود كافة الحقوق والامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى عصر البطالمة . وقد والى الأباطرة هذه المنح على اليهود على الرغم من أن الاغريق التمسوا من سادتهم حرمانهم اياها فاستمر اليهود ينتظمون فى جالية مستقلة لها رئيس ومجلس من شيوخهم ودار لسجلاتهم وبيع لممارسة شعائرهم الدينية . فتملك الغضب قلوب الاغريق الذين عز عليهم زوال ملك البطالمة وخضوعهم لأمة لم ترتفع الى مستوى حضارتهم ومحاباة الرومان لليهود . وقد زاد فى نقمة الاغريق على اليهود ان هؤلاء بادروا الى الترحيب بالرومان والالتفاف حولهم فحقد الاغريق على الرومان واليهود وأخفت عداوة الاغريق لليهود كرهم الدفين للرومان . لكن اذا كان الأباطرة قد أباحوا لليهود التمتع بامتيازاتهم وحقوقهم القديمة فانهم أبوا عليهم التمتع بالحقوق المدنية التى كان الاغريق يتمتعون بها ، فحقد اليهود أيضا على الاغريق ولا سيما ان الأباطرة بوجه عام لم يخفوا عطفهم على الحضارة الاغريقية فقد شملوا برعايتهم معاهد الاغريق ومنتدياتهم وأبقوا اللغة الاغريقية لغة البلاد الرسمية

ولم تستعمل اللغة اللاتينية الا فى الجيش واللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . ومن ثم لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين الاغريق واليهود . وسنرى ان الشقاق بين اليهود والاغريق كان كالحمى الخبيثة المتقطعة التى تخف وطأتها وتهدأ حينا ثم تعود الى الظهور وتشتد حينا آخر ، وان سياسة « فرق تسد » كانت سياسة خرقاء لم يكتو بنارها الاغريق واليهود فحسب بل الرومان أيضا .

ولم يكد يمض عام على الفتح الرومانى حتى شبت فى طيبة نار ثورة يبدو أنها كانت خطيرة مما حدا بأول حاكم عام رومانى لمصر — كورنيليوس جالّوس — الى أن يقود بنفسه القوات الرومانية لقمعها . ويحدثنا استرابون بأن الحاكم العام أخمد فى وقت قصير نيران الثورة التى اشتعلت فى طيبة بسبب الضرائب . وقد سجل كورنيليوس على النصب الذى أقامه فى جزيرة فيلة انه واصل زحفه جنوبا حتى جزيرة فيلة حيث استقبل سفراء ملك النوبة وان هذا الملك قبل الحماية الرومانية وعينه حاكما على الاقليم الممتد من الشلال الأول حتى الشلال الثانى وكان يعرف باسم ترياكونتا سخوينوس .

ويبدو أن الثورة لم تشب فى مصر العليا فحسب بل فى أنحاء أخرى من مصر اذ يقول استرابون انه عندما ثارت هيروؤنپوليس (تل المسخوطة فى شرق الدلتا) هاجمها كورنيليوس جالوس وأخضعها بعدد قليل من الجنود .

وعندما رأى أغسطس ان نشوة النصر قد أسكرت كورنيليوس جالوس عزله وولى مكانه ايليوس جالوس وعهد اليه فى الاتفاق مع القبائل التى كانت تنزل على شواطىء البحر الأحمر فى بلاد العرب والصومال والحبشة اذا لم يتمكن من اخضاعها ، وذلك لتأمين سلامة تجارة مصر مع أواسط أفريقيا والهند . ولما لم يوفق ايليوس فى حملته كان نصيبه العزل ولا سيما ان تغيبه عن مصر مع جانب كبير من حاميتها شجع النوبيين على نقض اتفاقهم مع كورنيليوس جالوس وعلى الاغارة على أسوان وفيلة والفنتين ونهبها وأسر بعض الأهالى والاستيلاء على تماثيل أغسطس .

وقد سارع الحاكم الجديد پترونيوس الى كبح جماح النوبيين وردهم على أعقابهم والاستيلاء على عاصمتهم نپاتا . وعندما استرد الأسرى والتماثيل قفل راجعا صوب الشمال حيث حصن قصر ابريم وترك فيها حامية ثم عاد الى الاسكندرية . لكن بعد ذلك بعامين أسترد النوبيون قصر ابريم فانبرى لهم پترونيوس وانتزعها منهم وعزز تحصيناتها . ولم يلبث النوبيون أن طلبوا الصلح فاستجاب أغسطس الى مطلبهم وكان الصلح ينص على اعفاء النوبيين من دفع الجزية وعلى احتلال الرومان المنطقة الممتدة

بين أسوان والمحرقة حيث أقام الرومان بعض مراكز عسكرية ودام السلام فترة طويلة فى الجزء الشمالى من النوبة . وينهض كل هذا دليلا على السياسة التى وضع أغسطس أساسها واتبعها خلفاؤه من بعده .وتتلخص فى العناية بطرق التجارة مع الشرق والجنوب وتأمين الحدود الجنوبية دون الاهتمام بتوسيع نطاق الامبراطورية فى تلك الأصقاع .

ولم يكد پترونيوس يفرغ من النوبيين حتى شُغل باخماد ثورة فى الاسكندرية . وعندما عادت السكينة الى البلاد وجه عنايته الى الأعمال الداخلية وخاصة تطهير الترع القديمة وشق ترع جديدة واصلاح الآبار التى تقع على الطرق الصحراوية التى تربط النيل بالبحر الأحمر مما أدى الى انتعاش حالة البلاد الاقتصادية . ويلوح ان أغسطس شعر بضرورة اضعاف رجال الدين المصريين الذين ازدادت قوتهم وممتلكاتهم فى أواخر عصر البطالمة ، فقد أمر پترونيوس بالاستيلاء على جانب من أراضى المعابد واسناد ادارة جانب آخر منها الى الحكومة مع السماح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضى لسد حاجة المعابد .

وقد ساد السلام فى مصر فى خلال أواخر حكم أغسطس ومعظم حكم خليفته تيبريوس (١٤ — ٣٧) مما أدى الى انقاص عدد الحامية الرومانية فى مصر . وقد ساعد على استتباب الأمن سهر تيبريوس على حماية سكان البلاد من جور الحكام وملتزمى الضرائب اذ أنه شدد الرقابة على الحكام واستبدل فى حالات كثيرة بنظام التزام الضرائب تعيين موظفين لجباية الضرائب فأخذت ثروة البلاد فى الانتعاش .

وفى عهد كاليجولا (٣٧ — ٤١) آتت سياسة « فرق تسد » أُكلها فقد استعرت عندئذ نار العداء بين الاغريق واليهود ، اذ أن الاغريق سخروا من الأمير اليهودى اجريپّا Agrippa عند مروره بالاسكندرية (أوائل أغسطس عام ٣٨) فى طريقه الى ارتقاء عرش مملكة صغيرة على حدود بلاد اليهود فى فلسطين . ولما كان الاسكندريون قد عرفوا اجريپا منذ بضع سنين رجلا مفلسا متلافا يتهرب من سداد ديونه ، فانه هالهم أن يصبح ذلك اليهودى المتلاف ملكا بين عشية وضحاها وأن يروا اليهود يستقبلونه استقبال الملوك العتاة ، ولذلك استقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للنيل من اجريپا ومن اليهود فى شخصه . فنظموا موكبا هزليا قدامه رجل معتوه عصبوا رأسه باكليل من لحاء البردى ووضعوا فى يده صولجانا من ساق البردى وطافوا به فى شوارع المدينة وهم يرددون كلمة سريانية معناها الملك . لكن ما أن أفاق الاسكندريون من نشوتهم حتى خشوا عاقبة سخريتهم من اجريپا فقد كان صديق الامبراطور وصاحب حظوة

لديه ، فرأوا انه لن ينقذهم من ورطتهم الا أن يوقعوا بين اليهود والامبراطور . ولما كان الامبراطور قد أمر باقامة تماثيله فى جميع المعابد وكان اليهود لم ينفذوا أمر الامبراطور لأن اقامة تماثيل البشر فى معابدهم كان يدنسها ، فان الاسكندريين ادعوا بأنهم لم يتظاهروا ضد اجريبا الا لعدم امتثال اليهود لأمر الامبراطور . واتخذوا من ذلك ذريعة ليدخلوا المعابد اليهودية ويقيموا فيها تماثيل الامبراطور . وعندما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور وبذلك أفلحوا فى حمل الحاكم الرومانى فلاكوس على حرمان اليهود امتيازاتهم . وانتهز الاسكندريون فرصة وقوف الحاكم الرومانى الى جانبهم للتنكيل باليهود ونهب حوانيتهم وتخريب دورهم وبيعهم . وبطبيعة الحال لم يقف اليهود بلا حراك وانما هبوا للدفاع عن أنفسهم وذويهم وبيعهم وممتلكاتهم ، فاشتبك الفريقان فى صراع عنيف دون أن يتدخل الحاكم الرومانى فلاكوس لوضع الأمور فى نصابها اذ أننا لا نعرف انه فعل شيئا سوى تجاوزه حدود الحكمة بالقاء القبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء مجلس شيوخ اليهود والأمر بجلدهم فى الحادى والثلاثين من أغسطس بالرغم من انهم كانوا معفين من هذه العقوبة . وعندما تمكن اجريبا من اقناع الامبراطور بعزل فلاكوس أرسل كل من الفريقين المتنازعين وفدا لعرض قضيته أمام الامبراطور لكنهما لم يظفرا منه بطائل .

وعقب ارتقاء كلاوديوس (٤١ — ٥٤) العرش أصدر منشورين اعترف فى أحدهما ليهود الاسكندرية بالحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل عهد كاليجولا ، ومنح بمقتضى المنشور الآخر الحقوق ذاتها لكل الجاليات اليهودية فى كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية . وعندما علم اليهود بذلك ظنوا ان الفرصة مواتية للثأر من الأغريق ، فاستعر القتال بين الفريقين لكن الامبراطور أمر الحاكم باخماده بكل وسيلة ممكنة . وما أن هدأت الحال حتى بادر كل من الاغريق واليهود بارسال وفد الى روما . ويستخلص من « رسالة كلاوديوس الى الاسكندريين » ان الوفد الاغريقى قدم فروض الطاعة والولاء للامبراطور وسرد مظاهر الحفاوة التى كان اغريق الاسكندرية يريدون اغداقها عليه وطلب اعادة امتيازاتهم القديمة كما عرض قضيتهم ضد اليهود . ويبدو أ نالاغريق أرادوا أن يستخدموا مع كلاوديوس الوسيلة نفسها التى استخدموها مع كاليجولا بتقديسه لكنه اقتفى أثر سياسة تيبريوس فرفض أن يؤله ولم يقبل مما عرضوه عليه ما يرفعه فوق مستوى البشر وأيد ما كانوا يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه تهرب من منح الاسكندرية مجلسا للشورى . فقد جاء فى هذه الرسالة « أما أن المجلس كان مجمعا مألوفا بين ظهرانيكم على عهد ملوككم القدماء فهذا ما لا علم لى به لكنكم تعلمون جيدا انه

لم يكن لكم مجلس فى عهد الأباطرة الذين سبقونى . ومن الواضح ان هذا المطلب الجديد الذى تتقدمون به لأول مرة قد يكون مفيدا للمدينة ولحكومتى ولذلك فانى كتبت الى ايميليوس ركتوس لبحث الموضوع وموافاتى بما اذا كان يجب انشاء هذا المجلس وطريقة تكوينه اذا كان ثمة داع لذلك » . ومن اليسير أن تتبين من هذا الرد ان الاسكندريين استندوا فى طلبهم الى أنهم كانوا يتمتعون بمجلس فى عهد ملوكهم القدماء . ولعل امبراطورا مؤرخا مثل كلاوديوس لم يجهل نظم الاسكندرية فى عهد ملوكها القدماء لكنه تظاهر بالجهل لأنه لم يشأ اتخاذ تقاليد الملوك القدماء سابقة تلزمه بما يجب اتباعه . ومع ذلك فانه لكى لا يبدو متعسفا وعد بالفصل فى مطلب الاسكندرية على ضوء المصلحة العامة وعهد فى بحث الأمر الى الحاكم العام . ومن ثم يعتبر رد كلاوديوس قرينة على تمتع الاسكندرية بمجلس فى عهد البطالمة .

وقد أيد كلاوديوس كذلك ما كان اليهود يتمتعون به من حقوق وامتيازات لكنه رفض منحهم الحقوق المدنية ونصح الاغريق واليهود بالتسامح وحذرهما تحذيرا شديدا من العودة الى تطاحنهما الدموى . واذا كانت الحال قد هدأت بعد ذلك ببضع سنين فان النزاع لم يلبث أن تجدد ثانية .

وتتجاوب أصداء هذا النزاع فى تلك البرديات التى يدعوها الباحثون المحدثون « أعمال الاسكندريين » أو « أعمال الشهداء الوثنيين » بسبب ما بينها وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » من تشابه مرده فى الحالين الى صياغة الوثائق فى قالب مضابط لمحاكمات يلقى فيها المتهمون خطبا طويلة ويندون بمثالب الحكم الرومانى ويتبادلون مع الامبراطور عبارات قارصة عنيفة . و « أعمال الاسكندريين » تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان ولذلك صادفت رواجا كبيرا لا فى الاسكندرية فحسب بل فى كل أنحاء مصر وتعتبر نموذجا للأدب الاغريقى الشعبى الذى كان يرمى الى الاشادة ببطولة زعماء الاسكندرية واثارة البغضاء ضد الحكم الرومانى . ولا يبعد أن تكون هذه الوثائق قد نقلت على نحو ما من مذكرات الامبراطور وترجمت الى الاغريقية وأضيفت اليها بعض العناصر الخيالية التى استمدت من التمثيليات الفكاهية المعاصرة والقصة الاغريقية الطويلة وذلك لجعلها أكثر مواءمة للدعاية السياسية . وتشير القرائن الى أن « رجال الجيمنازيوم » — وكانوا أوسع الاسكندريين ثقافة وأعرقهم أصلا وأرفعهم مكانة وكذلك أعمقهم كرها للحكم الرومانى — هم الذين كانوا الرأس المفكرة واليد العاملة وراء صدور «أعمال الاسكندريين» .

ولما كانت هذه الوثائق تختلف عن بعضها بعضا اختلافا كبيرا فى الأسلوب والانشاء فانه لا يمكن قبول الرأى القائل بأنها من تأليف كاتب واحد ولا سيما ان بعضها يرجع الى القرن الأول أو مطلع القرن الثانى وان كان أكثرها يرجع الى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث عندما اشتد عداء الاسكندريين للرومان وخاصة الامبراطور كركلا .

ومهما كان من أمر «أعمال الاسكندريين» فانه ما ان هدأت الحال بين الفريقين حتى حج الرسل من جديد الى روما ، لكن النصر كان حليف اليهود هذه المرة اذ أن الامبراطور أمر باعدام زعيمى الاغريق . وقد أثبتت هذه الأحداث انه بينما كانت الاسكندرية فى حاجة الى حامية عسكرية كبرى لاستتباب الأمن فيها كان يكفى بقية البلاد عدد يسير من الجنود ، ولذلك فانه منذ ذلك الوقت نقلت الى معسكر نيقوپوليس الحامية التى يرجح انها كانت تنزل عند قفط أو طيبة .

ويبدو أنه فى عهد كلاوديوس نشطت تجارة الاسكندرية مع الهند نشاطا كبيرا نتيجة للعناية التى أولاها الرومان لتأمين الملاحة فى البحر الأحمر بقطع دابر القراصنة ونشر نفوذهم فى تلك الأصقاع . ويقال انه حوالى هذا الوقت استولى الرومان على عدن ، وان ذلك كان احدى الخطوات التى اقتضاها تأمين التجارة مع الهند ازاء ازدياد قوة مملكة اكسوم منذ منتصف القرن الأول الميلادى لأنها من ناحية أخذت تتوغل فى أعالى وادى النيل على حساب مملكة مرو وتبعا لذلك هددت الطريق البرى بين مصر وأواسط أفريقيا . ومن ناحية أخرى كانت تحاول الحصول على قاعدة لها فى جنوب بلاد العرب ,وكان ذلك يمكنها من قطع الطريق البحرى مع الشرق ، لكن الرومان قضوا على هذه المحاولة ببسط حمايتهم على مملكة الحميريين والاستيلاء على عدن وجزيرة سقطرى . ولدرء الخطر الذى كان يتهدد أعالى وادى النيل يقال ان نيرون (٥٤ — ٦٨) أرسل فى عام ٦١ بعثة عسكرية لاستكشاف بلاد النوبة الجنوبية تمهيدا لارسال حملة كبيرة الى تلك البلاد وانه بينما كان الجنود يحشدون فى الاسكندرية لهذا الغرض اندلع لهيب الثورة فى چودايا مما استدعى استخدام أولئك الجنود فى اخمادها وان حامية الاسكندرية شغلت بالمحافظة على الأمن فيها لأن النزاع القديم بين الاغريق واليهود تجدد مرة أخرى اذ ذاك ولم ينته قبل القضاء على عدد كبير من اليهود يزعم المؤرخ اليهودى يوسف انهم كانوا يبلغون خمسين ألفا . واذا كانت هناك قرائن كثيرة تؤيد ما قيل عن اتساع مملكة اكسوم ,ونشاط الرومان لوقفه ، فان ثمة قرائن أخرى تثير الشك حول ذلك ، وفى ضوء معلوماتنا الراهنة يتعذر ترجيح كفة على أخرى .

وعندما احتدم الصراع علـى العرش فى روما عقب وفاة نيرون قامت مصر لأول مرة منذ أصبحت ولاية بدور سياسى هام فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، اذ أنها شقت عصا الطـاعة عـلى ڤيتلّيوس (Vitellius) وشـاركت فى اقامة ڤسپاسيانوس (Vespasianus) ، حـاكم جودايا وقائد الحملة ضد اليهود ، امبراطورا (٦٩ — ٧٩) . وقد زار ڤسپاسيانوس الاسكندرية فى طريقه الى ارتقاء العرش فكان أول امبراطور شهدته العاصمة القديمة بعد أغسطس منـذ قرن تقريبا . وقد استقبله الاسكندريون استقبالا حافلا لم يلبثوا أن ندموا عليه عندما فرض عليهم ضرائب جديدة وأحيا ضرائب كانت قد ألغيت .

وقد عنى تيتوس (٧٩ — ٨١) باظهار اجلاله واحترامه للآلهة المصرية اذ أنه زار منف واشترك فى حفل تنصيب عجل ابيس جديد وارتدى التاج التقليدى على نحـو ما جرى عليه الفراعنة فى مثل هذه المناسبات . فكان ذلك بدء سياسة جديدة تتميز باظهـار العطف نحو الآلهة المصرية . لكن تيتوس لم يعمر طويلا ليتعهد السياسة التى وضـع أساسها ونلمس أثرها فى الرعاية التى أسبغها دوميتيانوس (٨١ — ٩٦) على عبادة ايزيس فى ايطاليا ذاتها ، وكذلك فى ظهور الآلهـة المحلية على نقود الاسكندرية منـذ ذلك الوقت .

وقد نعمت مصر بالسكينة والهدوء خلال حكم نرڤا (Nerva) ، ٩٦—٩٨) ولم يقع فيها شىء ذو بال فى الشطر الأول من حكم ترچان (٩٨— ١١٧) الا محاكمة جايوس ڤيبيوس ماكسيموس (C. Vibius Maximus) — وكان الحاكم العام من ١٠٣ الى ١٠٧ — لاتهامه بالربا وابتزاز الأموال واسـتغلال النفوذ وافساد خلق غلام ثرى يدعى ثيون . وتكشف الوثائق التى تتناول هذه المحاكمة عن مثالب الحكم الرومانى فى مصر ومـدى السلطة الواسعة التى كان يتمتع بها حاكمهـا العام وكانت لا تقل عن سلطة الملوك فلا عجب ان أساء استغلالها كثيرون ممن أسندت اليهم ويبدو انه كان نصيب هذا الحاكم الفاسـد العزل من منصبه والاعدام فقد وُجد اسمه مطموسا فى بعض النقوش وكان ذلك هـو الاجراء الذى يتبع عادة فى حالة الذين كانوا يدانون لارتكابهم جريمة ضد الدولة كالخيانة العظمى ويحكم عليهم بالاعدام .

ولم تنقض بعد ذلك بضـع سنين حتى تجدد النزاع بين اليهود والاغريق فى عام ١١٠ أو ١١٣ واحتكم الفريقان الى تراچان فآخذ الاغريق على مسلكهم وهدأت الحال حتى العام التالى عندما ثار اليهود الا أن الحكومة تمكنت من القضاء على تلك الفتنة بسهولة . لكن اليهود كانوا يشعرون بقلق شديد لأن الرومان كالوا لهم ضربات شديدة منـذ ثورتهم فى فلسطين فى عام ٦٦ ، فقد دمروا

معبدهم الأكبر فى أورشليم وأرغموهم على دفع ضريبة الدينـــارين لمعبـــد چوپيتر كاپيتولينوس فى روما بدلا من معبد أورشليم وأغلقوا معبد ليونتوپوليس فى مصر وصادروا جميع ممتلكاته ، وأخذوا يعتبرونهم جماعة مشاغبة يجب أخذها بالحزم . ازاء كل ذلك أضمر اليهود حقدا دفينا للرومان وأخــذوا يتطلعون الى الفرصة التى تتيح لهم الخلاص من ربقتهم . وقد ظن اليهود ان فرصتهم قد سنحت عندما تحرج مركز الامبراطور فى أثناء الحملة التى قام بها فى الشرق ، ففى عام ١١٥ اندلعت نيران ثورة اليهود فى قبرص وفى مصر وفى قورينائية (برقة) ، وفى عام ١١٦ انقلبت الثورة الى حرب ضروس راح ضحيتها اعداد كبيرة من الاغريق والرومــان فى قبرص وقورينائية . لكننا لا نعـــرف ما حدث فى الاسكندرية فى بداية الأمر وا نكنا نعرف أن اليهود أعملوا القتل بين الاغريق المقيمين فى ريف مصر مما حدا بهم الى الالتجـــاء الى الاسكندرية حيث شاركوا الاسكندريين فى القضاء على كل من وصلت اليه أيديهم من اليهود . وفى شتاء ١١٦ زحف يهود قورينائية على مصر لكنهم بدلا من أن يحاولوا اقتحام الاسكندرية اتجهوا نحو الأقاليم وانضموا الى اليهود المقيمين هناك وسيطروا على بعض الجهات فسلبوا ونهبوا وحرقوا وخربوا كما سولت لهم نفوسهم . وقد تفاقمت الحال الى حد أن الحكومة اضطرت الى تجنيد فرق من المزارعين المصريين لكن القتال بقى مستعرا حتى منتصف أغسطس عام ١١٧ عندما أنهكت حرب چودايا الثانية قوى اليهود بعد وفاة ترچان وارتقاء هادريان العرش .

وقد أدخلت فى عهد ترچان عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بنــــاء قلعة جديدة على شاطىء النيل عند بابيلون قوت قبضة الرومان على الدلتا وحمت بداية القناة التى أمر ترچان بحفرها لربط النيـــل بالبحر الأحمر ، وكانت تخرج من النيل عند بابيلون وتمر بهليوپوليس وتلتقى بمجرى القناة القديمة التى حفرها بطلميوس الثانى قبل دخولها وادى الطميلات .

وعندما انتهت ثورة اليهود وجه هادريان (١١٧ — ١٣٨) عنايته الى اصلاح ما أتلفته الثورة فأقام عـــددا من المبـــانى العامة فى الاسكندرية وأمر باعادة النظر فى الضرائب مما أدى الى انقاص جانب كبير منها فى حالات عديدة . وفى عام ١٣٠ زار هادريان مصر وكان أهم آثار تلك الزيارة الرعـــاية التى أولاها الامبراطور لعلماء الاســـكندرية وفنانيها وكذلك تأسيس مدينـــــة أنطينوؤپوليس (الشيخ عبادة) حيث غرق فى النيل خليله أنطينوؤس (Amtinoos) . ولا شــك فى أن هادريان قد أراد بتأسيس هذه المدينة أن يخلد ذكرى خليله الوفى ، وكذلك اقـــامة مركز جديد للحضارة الاغريقية فى قسم من البلاد كان يفتقر اليه اذ أنه على حين كانت

توجـــد فى مصر السفلى مدينتان اغريقيتان وهما الاســكندرية ونقراطيس ، كما كانت توجد فى مصر العليا مدينة اغريقيــة وهى بطوليميس (المنشاة بالقــرب من أخميم) لم توجد مدينة اغريقية واحـــدة فى مصر الوسطى ، وتحقيقا لهذا الغــرض استخدمت المدينة الجديدة عددا غير قليل من مواطنيها من بطوليميس التى كانت معقـــلا قديما للحضـــارة الاغريقية فى مصر العليا . وقد أنشئت المدينة الجديدة عــلى نمط اغريقى ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا وقسم مواطنوها ، مثــل مواطنى المـــدن الاغريقية الأخرى الى قبائل وأحيــاء . لكن بالرغم من الصبغة الاغريقية العـــامة التى اتسمت بها هذه المدينة فانها لم تخل من عناصر مصرية وتأثيرات مصرية اذ أن أنطينوؤس ، الذى نُصب فيها الها محليا ، كان يعبد تحت اســم أوزير أنطينوؤس (Osirantinoos) ، وشبه بالمعبود المصرى بيس (Bes) . هــذا الى أنه أبيح لسكان المدينة الجـــديدة حق التزاوج مع المصريين وهو ما كان محظورا فى المدن الاغريقية الأخرى . وتشجيعا لتجارة أنطينوؤپوليس أمر الامبراطور بانشاء طريق جديد بين النيل والبحر الأحمر ليصــل بين الثغر المشهور برينيقى وبين المدينة الجديدة . وقد أفلح الطريق الجديد فى اجتذاب جانب من التجارة التى كانت تمر بالطريق القديم بين برينيقى وقفط لكنه لم يمض وقت طويل حتى كانت الأمور قد عادت الى سابق عهدها .

وعند أواخر أيام هادريان شهدت مصر آخر ثورات اليهود لكن يبدو انها لم تكن ذات بال . وقد ســادت السكينة فى عصر أنطونينــوس پيــوس (Antoninus Pius) (١٣٨ — ١٦١) اللهم الا اذا استثنينا فتنة وقعت فى الاسكندرية وقتل فى أثنائها الحاكم العام (١٥٣) مما أثار نقمة الامبراطور على المدينة الا أنه يقال انه زارها بعد ذلك وشيد فيها مضــمار سباق الخيل (Hippodrome) وبوابتى « الشمس » و « القمر » عند طرفى الشـــارع الرئيسى الذى كان يجتـــاز الاسكندرية من الجنوب الى الشمال .

واذا كان المصريون قـــد أخلدوا الى السكينة منذ الثورات التى قاموا بها فى أوائل حكم الرومان فانه فى عهد ماركوس أورليوس (١٦١ — ١٨٠) نشبت بينهم فى الدلتا ثورة عنيفة عُرفت « بحرب الرعاة » وهزمت فى خلالها الفرق الرومانية وكادت الاسكندرية أن تقع فى قبضة الثائرين الا أن النجدة التى قدمت من سوريا بقيادة اڤيديوس كاسيوس قضت عـــلى تلك الثورة (١٧٥) ونادت باڤيديوس كاسيوس امبراطورا لكنه لم يلبث أن قضى عليه بعد ذلك بقليل . وبرغم ان الاسكندرية لم تدخر وسعا فى تأييد كاسيوس فان الامبراطور عفا عنها ، بل ان الذين قاموا بأدوار رئيسية فى هذه الحركة مثل أســرة كاسيوس وحاكم مصر العام عندئذ جايوس

كالفيسيوس ستاتيانوس (C. Calvisius Statianus) لم يلقوا اذ ذاك الا عقابا طفيفا بالقياس الى تهمتهم الخطـيرة . لكن عنـدما ارتقى كومودوس (Commodus) (١٨٠ — ١٩٢) العرش أعـدم كل أفراد أسرة كاسيوس وكذلك قادة الاسكندريين الذين أسهموا فى هذه الحركة .

وقد خلف كومودوس على العرش لمـدة ثلاثة شـهور (ينـاير — مارس ١٩٣) الامبراطـور پرتيناكس (Pertinax) ولوثائق هذا العهد القصير أهمية خاصة فهى ترينا كيف أن نبأ هاما مثل ارتقاء امبراطور جديد العرش كان يستغرق وقتا طويلا للانتقال من روما الى مصر ، وذلك انه نودى بالامبراطور الجديد فى روما فى اليوم الأول من شهر ينـاير سنة ١٩٣ على حين ان حاكم مصر العـام لم يصدر أوامره للاحتفال بهذه المناسبة لمدة خمسة عشر يوما الا فى السادس من شـهر مارس . ونعرف ان پرتيناكس قتل فى روما فى الثامن والعشرين من شهر مارس ومع ذلك فان اسم هذا الامبراطور يظهر فى تأريخ وثيقة من الفيوم فى التاسع عشر من شهر مايو .

وعندما قـتل پرتيناكس نادت مصر بحاكم سوريا پسكنيوس نيجر (Pescennius Niger) امبراطورا لكن ما كاد الأمر يستتب فى روما لسڤروس (١٩٣ — ٢١١) حتى قـضى عـلى نيجر . وعنـدما زار سڤروس مصر اقتفى أثر هادريان فيما أقامه من الأبنية العامة فى الاسكندرية وفى سك النقود تخليدا لزيارته وفى زيارة آثار مصر . وأهم من ذلك انه فى عام ٢٠٢ منح الاسكندرية وكل عواصم المديريات مجالس للشورى . ولعل ذلك كان جـزءا من سياسة تستهدف من ناحية دعم النفوذ الرومانى باعطائه فى المـدن صبغة اغريقية ، ومن ناحية أخرى تحسين أداة جمع الضرائب . وفضلا عن ذلك فانه أدخـل تعديلات كثيرة على القوانين التى كان معمولا بها فى مصر .

وعندما ارتقى كركلا (٢١١ — ٢١٧) العرش ومنح فى عام ٢١٢ حقـوق المواطنة الرومانية بمقتضى قانونه المشهور (Constitutio antoninio) لسـكان الامبراطـورية الرومانية بما فى ذلك المصريين لم يؤد ذلك الى تغيير وضعهم فقد ظلوا أدنى الطبقات الاجتماعية شأنا فى مصر . وعندما زار كركلا الاسكندرية فى عام ٢١٥ وسخر منه أهلها لظهوره بمظهر أبطال عظام مثل الاسكندر ولقتله أخيه « جيتا » صب عليهم جام غضبه فأعدم زعماءهم وأطلق جنوده على المدينة فخربوها وأعملوا القتل بين سكانها ، كما أنه ألغى الحفلات العامة وأقام حاميات فى المدينة ذاتها وأوقف الانفاق على الجامعة .

وأهم ما يمتاز به عهد ماكرينوس (٢١٧ — ٢١٨) هو ما سلفت الاشارة اليه من أنه كان أول من خرج على القاعدة التى وضعها أغسطس وتقرر بمقتضاها ألا يتقلد أحـد من رجال السناتو مناصب ادارية فى مصر ، اذ أن ماكرينوس عين لحاكم مصر مساعدا من رجال السناتو مما يدل على نقص أهميـة مصر عما كانت عليه فى بداية العهد الرومانى . وأبلغ من ذلك فى الدلالة على نقص أهميـة

مصر فى القرن الثالث انه عندما وقعت فتنة فى الحرس الامبراطورى على عهد سقروس اسكندر (٢٢٢ — ٢٣٥) عين الامبراطور زعيم الثوار حاكما عاما لمصر لا ارضاء له وانما لاقصائه الى مكان لا يستطيع فيه أن يهدد مركزه .

وكانت نتيجة نقص أهمية مصر انها لم تلعب أى دور فى سلسلة المنازعات التى وقعت فى أواخر النصف الأول من القرن الثالث من أجل ارتقاء عرش الامبراطورية وقبلت عن طيب خاطر ارتقاء امبراطور بعد آخر وغلب على أحداث مصر سبات عميق استغرقت فيه حتى كان عهد دكيوس (Decius) (٢٤٩ — ٢٥١) الذى نشطت فيه حركة المسيحية فى مصر مما حـدا بالحكومة الى توجيه اهتمامها اليها واتخاذ العدة لمنع انتشارها . وفى هذا العهد أيضا أغارت قبائل البلميس على الحدود الجنوبية لأول مرة بعد اغارتها السابقة فى عهد أغسطس . ولعل هذه الاغارة تتصل باتسـاع مملكة اكسوم التى دعمت مركزها فى وادى النيل على حساب مملكة مرو وكانت تضغط على القبائل النوبيـة من الجنوب فتدفعها نحو الحدود المصرية . وبعد ذلك استأنفت مصر سباتها عندما دبت المنازعات فى الامبراطورية من جديد خـلال المدة التى دامت من عام ٢٥١ الى عام ٢٦٨ وتعاقب فيها الأباطرة بسرعة غريبة .

وقد كان أهم ما حدث بعد ذلك هو أن زنوبيا ملكة پالميرا (تدمر) زحفت على مصر واستولت عليها (٢٦٩ — ٢٧٠) وبرغم أنها بعد عدة محاولات أفلحت فى دحر الجيوش الرومانية فانها لم تشأ أن تستقل بمصر بل اعترفت بسلطان روما ، لكن لم يكد ينقضى عـلى ذلك عامان حتى أفلح أورليانوس (٢٧٠ — ٢٧٥) فى القضاء على نفوذ پالميرا فى مصر واستولى على پالميرا ذاتها ، لكن عقب عودة أورليانوس الى روما ثارت پالميرا وبعد ذلك الاسكندرية لارتباط البلدين بصلات تجارية وثيقة فعـاد الامبراطور الى الشرق وقضى على الفتنة فى پالميرا ثم فى الاسكندرية وبعد ذلك ترك مصر تحت امـرة پروبوس وعهد اليه برد قبائل البلميس على أعقـابها وكانت قد انتهزت فرصـة تلك الأحداث للزحف على مصر العليا حتى قفط . وقبـل انتهاء پروبوس من طـرد البلميس وتهدئة الوجه القبلى نودى به امبراطورا (٢٧٦ — ٢٨٢) عقب وفاة أورليانوس (٢٧٥) وحكم تاكيتوس القصير (٢٧٥ — ٢٧٦) .

ولم يضع انتصار پروبوس على البلميس الا حدا مؤقتا لمناوشاتهم فقد أخذوا يجددون اغاراتهم كل عام ممـا اضطر الامبراطور وقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) الى جعل حدود مصر الجنوبية عنـد أسـوان بدلا من هيراسيكامينوس (المحرقة) ودعـوة بعض قبائل الصحراء التى كانت تعرف باسـم النوباداى للسكن فى وادى النيل لحمـاية حدود مصر الجنوبية .

الفصل الثانى

أداة الحكم

لم يترتب على دخول مصر حظيرة الامبراطورية الرومانية تغييرات هامة فى ادارة البلاد لأن سياسة روما بوجه عام فى خلال فتوحاتها فى الشرق كانت تقضى بتجنب التدخل ما أمكن فى نظم البلاد التى كانت تتمتع بادارة منظمة ، ولذلك اتبع الرومان فى حكم البلاد النظام نفسه الذى وضعه البطالمة اللهم الا اذا استثنينا بعض التعديلات التى اقتضت الظروف ادخالها ، فكأن قدوم الرومان لم يكن أكثر من انتقال الحكم من أسرة الى أخرى انتقالا لم يكن مصحوبا بانقلابات أو اضطرابات أكثر مما كان يحدث عادة على عهد الفراعنة عندما كانت أسرة حاكمة جديدة تخلف أسرة أخرى .

١ ـ السلطة المركزية :

ولما كانت روما فى حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة فى تخفيف عبء ماليتها وفى امداد شعبها بمقادير وفيرة من القمح ، وكان فى وقوع مصر فى يد قوية مناوئة للامبراطور أو فى قيام اضطرابات بين الأهالى ، خطر يهدد كيان الامبراطور ، فقد حرص الأباطرة الأوائل على أن تكون مصر خاضعة لاشرافهم مباشرة وعلى ألا يتولى رجال السناتو أو من فى مرتبتهم مناصب ادارية فى مصر أو يدخلوها دون استئذانهم ، وعلى أن يكون نظام الحكم فيها أوتقراطيا ، وعلى أن يتولى المناصب الرئيسية فى السلطة المركزية رومان يوفدهم الأباطرة من قبلهم ويستبقونهم فى مناصبهم أو يعزلونهم كما يتراءى لهم .

وقد وضع على رأس السلطة المركزية حاكم عام (praefectus) كان يتمتع بمعظم السلطة التى كانت من نصيب الملك فى عهد البطالمة ، فانه كان يهيمن على ادارة البلاد العامة وشئونها المالية والقضائية والحربية تحت اشراف الامبراطور مباشرة . وكان يتحتم عليه عدم مغادرة مصر فى خلال مدة حكمه ، كما كان يجب عليه عند انتهائها انتظار وصول خليفته . وفى حالة خلو منصبه فجأة بسبب الوفاة أو لأى سبب آخر كان ينوب عنه عادة مساعده فى الشئون القضائية

وكان يدعى بالاغريقيـــــة ديكايودوتس (Dikaiodotes) ، وباللاتينيـــة يوريديكوس (Juridicus) ، فقد كان يساعد الحاكم العام على الاضطلاع بمهام منصبه فئة صغيرة من كبار الموظفين الرومان من الجلى أن هـــذا المساعد أو المستشار القضائى كان أخطرهم شأنا وأرفعهم مقاما . وكان للحاكم العـــام مساعدان فى الشئون المالية وهما الديويكيتس (dioiketes) والايديولوجوس (idiologos)

ومن أجل تسهيل الادارة العامة قسمت البلاد منـــذ أوائل أيام الامبراطورية ثلاثة أقسام وهى مصر السفلى ومصر الوســطى ومصر العليا ، وأسندت ادارة كل قســم الى ابيستراتيجوس (epistrategos) رومانى ، وكان الامبراطور هو الذى يعين حكام هذه الأقسام الا أنهم كانوا يخضعون للحــاكم العــــام مباشرة ويستمدون منـــه معظم سلطتهم ، وكان اختصاصهم اداريا بحتا ، غير ان الحاكم العام كان ينيبهم عنه فى الفصل فى القضايا وكان لهم حق مطلق فى دراســة الشكاوى والتحكيم فى المنازعات . ولم يكن لهم أى اختصاص فى الادارة المالية أكثر من سماع الشكاوى بسبب اجحاف فى تقــدير الضريبة أو ما شابه ذلك . وكان لهم شــأن كبير فى تعيين موظفى المديريات ، ويرجح ان قراراتهم كانت نهائيــة فيما يختص بتعيين الصغار من هؤلاء الموظفين لكن يبــدو ان موافقة الحــاكم العــام كانت ضرورية فيما يختص بتعيين كبارهم .

٢ - السلطة المحلية فى القرنين الأول والثانى :

وكان كل قسم من أقسام مصر الثــلاثة ينقسم الى مديريات ، على رأس كل منها قائد (strategos) كان يلى حاكم القسم فى المرتبــة ويتلقى منه جميع الأوامر فيما عدا ما يتصل منها بالشئون المالية اذ كان يرجع فى ذلك الى الادارة الماليــة المركزية فى الاســكندرية . ولم يكن للقائد أى اختصاص حربى ، لكن نفوذه كان يمتد الى جميع نواحى الادارة المدنية ، اذ كان رئيس الشرطة وكثيرا ما كان ينوب عن الحاكم العام فى الفصل فى القضايا . وكان للقائد دائما الحق فى القاء القبض على مخالفى القانون وفى النظر فى الشــكاوى واجراء تحقيق ابتدائى فى القضايا ومحاولة فض النزاع وديا أما اذا تعذر ذلك فانه كان يحيل المتخاصــمين الى المحاكمة وقد كان القائد مسئولا كذلك عن تقــدير وجمـــع الضرائب فى مديريته وعن اســتغلال أراضى الحكومة واحتكاراتها .

وكان النومارخ لا يزال معروفا فى عهد الرومان الا أنه ازاء سلطة القائد المدنية كان أهم ما تبقى له من اختصاصات هو الاشراف على تقدير وجمع الضرائب المختلفة . وقد أدى نقص أهمية مركزه الى ازدياد عـــدد النومارخى اذ كان يعين لكل مديرية اثنان أو أكثر .

وكان يلى القـــائد فى المرتبة « الكاتب

الملكى » وكان ينوب عن القائد فى أثناء تغيبه أو خلو مركزه . وكانت أهم اختصاصاته تتعلق بالشئون المالية فى الادارة المحلية مما حمل البعض على الاعتقاد بأنه كان بمثابة مراقب على تصرفات القائد فى الشئون المالية . وكان يجيء بعد الكاتب الملكى رؤساء دار السجلات الرسمية . فقد أنشأ الرومان الى جانب دار السجلات المركزية بالاسكندرية دورا مماثلة فى عواصم المديريات . وعلى مر الزمن أصبحت كل من هذه الدور تنقسم قسمين ، يختص أحدهما بحفظ جميع المكاتبات الرسمية وكشوف الضرائب وقوائم التعداد وسجلات الأراضى ، ويختص القسم الآخر بتسجيل الأراضى والمنازل والعبيد . وكان يشرف عادة على كل من هذين القسمين رئيسان .

ومما يجدر بالملاحظة ان مناصب الادارة المحلية ، ابتداء من القائد ، كان يشغلها اغريق فيما عدا المناصب الدنيا منها فقد كان يتولاها مصريون . واذا كان يبدو من ذلك ان الموظفين كانوا يختارون بوجه عام من الطبقات ذاتها التى كانوا يختارون منها فى عصر البطالمة فانه مع ذلك قد طرأ تغيير هام على طابع الخدمة الحكومية ، ففى عهد البطالمة كان موظفو الحكومة يتألفون من موظفين دائمين اختاروا خدمة الحكومة مهنة لهم يتكسبون منها قوتهم ، أما فى عهد الرومان فانه لم يأت القرن الثانى حتى كان موظفو الحكومة ، باستثناء كبارهم ، يتألفون من رجال لا يتولون مناصبهم الا لفترة قصيرة وقسرا عنهم .

وكان مقر ادارة كل مديرية فى عاصمتها ، ولم تتمتع تلك العواصم باستقلال محلى فى القرنين الأولين من حكم الرومان اذ كانت ضرائبها ورجال شرطتها تحت اشراف القائد لكن يبدو أن أغسطس أنشأ فى كل منها عددا من المناصب البلدية التى استعيرت أسماؤها واختصاصاتها من نظم المدن الاغريقية . وفى بداية الأمر كان يتولى كل منصب سنويا متطوع ثرى كان ينفق من ماله الخاص على كل ما يتطلبه النهوض بأعباء منصبه وكان تولى هذه المناصب يعتبر شرفا يعتز به الناس ويتطلعون الى الحصول عليه ، فكان الأهالى عندئذ ينتخبون أفضل المرشحين لتولى هذه المناصب . لكن بمضى الزمن لم تعد هناك حاجة الى الانتخاب ، فقد ازدادت على مر الأيام صعوبة الحصول حتى على مرشح واحد لكل منصب بسبب ما كانت هذه المناصب تفرضه على شاغليها من أعباء مالية كانت تتزايد باستمرار فى الوقت الذى سارت فيه حالة البلاد الاقتصادية من سيء الى أسوأ . فمن أجل التغلب على صعوبة شغل هذه المناصب لجأت الحكومة الى الارغام والحث على انقاص نفقات هذه المناصب كما لجأت الى اشراك أكثر من شخص واحد فى تحمل أعباء كل منصب . ففى القرن الثانى جرت العادة بأن يتولى أعباء

منصب مدير الجيمنازيوم شخصان كانا يتناوبان كل شهر مباشرة مهام هذا المنصب . ونعرف أنه فى أوكسيرينخوس بلغ عدد مراقبى السوق العامة فى خلال القرن الأول خمسة ، وكان عدد مراقبى التموين عند نهاية القرن الثانى أربعة . وكان التطور الطبيعى لهذه الخطوة انشاء لجنة لكل منصب عند أواخر القرن الثانى .

وكان هؤلاء الحكام هم مدير الچيمنازيوم (gymnasiarch) ، وكان يتولى رعاية شئون الجيمنازيوم الذى كان مركز الحياة الاجتماعية ومعهدا للتربية البدنية والعقلية ، وثانيا (exegetes) ، وكان يشرف على الحاق الشبان بمنظمة تدريبهم (ephebeia) وتعيين الأوصياء للسيدات والمربين للقاصرين ويبحث الشروط الواجب توافرها فيمن يضمون الى طبقة المتمتعين بالامتيازات ، وثالثا مراقب التعليم (kosmetes) ، ورابعا الكاهن الأكبر (archiereus) ، وخامسا مراقب التموين (eutheniarch) ، وسادسا مراقب السوق العامة (agoranomos) ، وكان يتولى أيضا توثيق العقود . وكان يوجد الى جانب هؤلاء نفر من الحكام يرجح المؤرخون انهم كانوا يعينون فقط عندما كانت الظروف تستدعى ذلك مثل (epimeletai) وكان يعهد اليهم فى الاشراف على الأشغال العامة . وكان يوجد فى كل عاصمة من هذه العواصم ما يشبه الجمعية العامة للمواطنين .

وكان يمثل السلطة المركزية فى ادارة تلك العواصم قائد المديرية وكان يهيمن على نظامها المالى ويشرف على حفظ الأمن فيها ، وكذلك الكاتب الملكى وكان مسئولا عن امداد السلطة المركزية بكافة المعلومات التى تحتاج اليها لفرض الضرائب ، كما كان مسئولا عن اعداد أسماء الأشخاص اللائق اختيارهم للوظائف المحلية التى كانت وظيفته من بينها . وكان يوجد عادة فى كل مدينة كاتبان يتوليان العمل فيها لمدة ثلاث سنوات .

وكانت كل مديرية تنقسم الى عدد من القرى يدير الشئون المحلية فى كل منها جماعة من شيوخها يبدو أن عددهم كان يتفاوت تبعا لعدد سكان كل قرية . وكان شيوخ القرية بمثابة حلقة الاتصال بين الأهالى والحكومة فى دفع الضرائب . وكان عليهم أيضا أن يراقبوا فلاحة أراضى القرية وأن يمدوا الحكومة بما تطلبه من العمال أو الجنود لخدمتها وقت الحاجة . وكانوا كذلك مسئولين أمام القائد عن حالة الأمن فى قراهم. ونحن لا نعرف كيف كانوا يختارون لكن يرجح أن خدمتهم كانت فرضا اجباريا على ثراة كل قرية لمدة سنة دون أى مقابل . ولعل منشأ هذا النظام يرجع الى رغبة الحكومة الرومانية فى ايجاد وسيلة محلية تزيد من اطمئنانها الى الحصول على ضرائب القرى فقد كان أولئك الشيوخ مسئولين شخصيا عن سداد ضرائب قراهم .

وكان يمثل السلطة المركزية فى كل قرية رئيس الشرطة (arehepodos) وكان يهيمن على حفظ الأمن فيها ، وكاتب القرية وكان مســـئولا عن موافاة السلطة المركزية بكل ما يلزمها من بيانات لأغراض الضرائب فهو الذى كان يعد قوائم بسكان القرية ومقدار ما يملكه كل منهم وموارده . وكان أيضـــا مسئولا عن اعداد بيان بالأشخاص الصالحين لاختيارهم للوظائف المحلية التى كانت وظيفته من بينها. وكان القائد يختاره بالقرعة من قائمة الأشخاص التى أعدها سلفه ، وكان يتـــولى وظيفته لمدة ثلاث سنوات ، وكان لكل قرية عادة كاتبها لكن فى بعض الحالات كان يعهد فى شئون قريتين أو ثلاث قرى الى كاتب واحد . وكان يخصص دخل بعض الضرائب لمواجهة ما يتطلبه منصبه من تكاليف .

واذا كان البطالمة قد حرصـــوا على أن يدرجوا فى قوائم أسماء سكان البلاد وجنسية كل منهم والطبقة التى ينتمى اليهـــا ، فان الرومان أدخلوا نظام التعداد وكان يجرى كل أربعة عشر عاما ويعرف باسم « التسجيل المنزلى » ، فقد كان يتعين على مالك كل منزل أو مستأجره أن يقـــدم الى الموظفين المختصين اقرارا بجميع سكان منزله ويقسم على صحة السانات التى قدمها . وكان أولئك الموظفـــون يقـــومون بفحص (epikpisis) هذه البيانات والتأكد من صحتها لأنه بناء عليها كانت السلطات المختصة تعد سجلات وافية بأسماء جميع سكان البلاد تبين بدقة الطبقة التى ينتمى اليهـــا كل منهم وكذلك حالته من حيث الاعفاء من الضرائب جميعها أو بعضها أو الالزام بدفع الضرائب كاملة . وفى الفـــترة الواقعـــة بين تعدادين كانت شهادات الوفاة والميلاد تستخدم ســـنويا لتصحيح البيانات الواردة فى هذه السجلات وجعلها مطابقة للواقع .

ولما كانت الحكومة ترقب بحرص شديد الانتماء الى الطبقات الممتازة بسبب ما كان يترتب على ذلك من التمتع بامتيازات لهـــا أهميتها لا من حيث أداء الضرائب فحسب بل أيضا من حيث دخول منظمة تدريب الشباب (ephebein) والجيمنازيوم ، فانهـــا كانت لا تسمح بتســـجيل أى شخص فى طبقة من هـــذه الطبقات الا بعد فحص (epikresis) الطلب المدعم بالمســـتندات الذى كان والد الشخص أو الوصى عليه يتقدم به عادة فى الثالثة عشرة من عمره أى قبل تسجيل اسمه فى منظمة تدريب الشباب وفى قوائم دافعى الضرائب ، ففى سن الرابعة عشرة كان الشبان يدمجون فى منظماتهم ويتعين دفـــع ضريبة الرأس وبعض الضرائب الأخرى . وقد كان الانتماء الى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضى اثبات انتماء والدى الشخص الى تلك الطبقة . وكان فى استطاعة العبيد الانتماء الى تلك الطبقات اذ كان القانون يسمح لهم بالتمتع بوضع سادتهم القانونى بعد فحص حالتهم .

٣ - المدن الاغريقية :

وقد كانت الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس وأنطينوؤپوليس هى المدن الوحيدة التى تتمتع بقدر من الاستقلال الذاتى فى حكمها المحلى . وبرغم ان معلوماتنا عن دستور كل منها طفيفة الا أنها تكفى لترينا انها كانت تتمتع بمزايا خاصة تختلف فى كل منها عن الأخرى باختلاف أصلها وتاريخها .

أما الاسكندرية فيجمع الباحثون على أن الأباطرة منذ أغسطس حتى سبتميوس سڤروس لم يسمحوا لها بمجلس للشورى لكى لا يتيحوا لأهلها المغرمين بالثورات معقلا لثوراتهم ولكى يجعلوهم تحت سلطان الحاكم العام مباشرة . واذا كانت بعض القرائن تشير الى أنه منذ أوائل العصر الرومانى كان لمواطنى الاسكندرية مجلس يتألف من ١٧٣ عضو ، والى أن هذا المجلس كان حلقة الاتصال بين روما ومواطنى الاسكندرية فان الدلائل لا تدع مجالا للشك فى آنه لم يكن مجلسا له صفة رسمية أو سلطة تشريعية فهو لم يكن أكثر من هيئة اجتماعية . ومثل ما كانت عليه الحال فى عهد البطالمة كانت نخبة اغريق الاسكندرية تنقسم الى قبائل وأحياء وتكوّن هيئة المواطنين الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة ، وكان أهمها ان التمتع بهذه الحقوق كان شرطا أساسيا للحصول على حقوق المواطنة الرومانية وللاعفاء من ضريبة الرأى ومن تولى المناصب العامة قسرا خارج الاسكندرية . وفى العصر الرومانى أيضا كانت توجد كذلك فئة انصاف المواطنين وكانوا لا يسجلون فى الأحياء ولا يتمتعون بكل امتيازات المواطنين الكاملين . وكان للاسكندرية جماعة من الحكام يتألفون من مثيل حكام عواصم المديريات فضلا عن ممثلى السلطة المركزية . ولسنا نعرف كيفية اختيار حكام الاسكندرية، لكن لما كانوا يقومون بدور بارز فى ثورات هذه المدينة ضد الحكومة ، وكانت « أعمال الشهداء الوثنيين » تصورهم فى شكل زعماء المدينة ، فان كل ذلك يوحى بأنه لم يكن للحكومة يد فى تعيينهم . وقد كان الامبراطور هو الذى يمنح حقوق المواطنة ، وكان الحاكم العام هو الذى يحاكم من يدمج فى هيئة المواطنين أشخاصا لم تتوافر لديهم شروط التمتع بحقوق المواطنة وكذلك الذين يمارسون هذه الحقوق دون وجه حق . ويبدو انه لم يعد لمحاكم المدينة وجود فقد أصبح الفصل فى القضايا من اختصاص الحاكم العام والذين كان ينيبهم عنه على نحو ما سنرى عند الكلام عن النظام القضائى . وبطبيعة الحال كان شأن المدن الاغريقية الأخرى شأن الاسكندرية من حيث انه لم يعد لها محاكم قضائية خاصة . وكان يحفظ الأمن فى المدينة قائدها ورئيس شرطتها . والواقع ان الحكومة الرومانية هى التى كانت تشرف على كافة نواحى الادارة فى المدينة ، أما النواحى الثقافية والدينية وتدريب الشباب واقامة الحفلات وتنظيم الألعاب فان حكام المدينة (archontes) هم الذين كانوا يتولون أمرها .

أما نقراطيس فيظهر أنها ظلت تتمتع بدستورها القديم بدليل ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن هادريان أعطى أنطينوؤپوليس دستورا على نمط دستور نقراطيس . وكانت أبرز عناصر هذا الدستور وجود هيئة مواطنين وعدد من الحكام ومجلس للشورى .

ويبدو أن بطوليميس أيضا احتفظت بدستورها الاغريقى القديم أى أنه كان لها مجلس للشورى وجمعية شعبية وهيئة حكام تنتخبهم هيئة مواطنين كانوا ينقسمون الى قبائل وأحياء . وفى عصر هادريان وثانية فى عصر أنطونينوس بيوس قامت باهداءات وصفت نفسها فيها بأنها مدينة اغريقية (polis) . وبالرغم من أن بطوليميس كانت عاصمة مديرية طينة (Thinis) ، أى مقر حكومة تلك المديرية ، الا أنه يرجح أن تلك الحكومة لم تتداخل فى شئون المدينة .

وقد مر بنا أن أنطينوؤپوليس أنشئت على نمط اغريقى ومنحت مجلسا للشورى ودستورا اغريقيا وقسم مواطنوها ، مثل مواطنى المدن الاغريقية الأخرى ، الى قبائل وأحياء . وبطبيعة الحال كان يدير شئونها جماعة من الحكام يختارون من مواطنيها . ومما يجدر بالملاحظة أن دستور هذه المدينة سمح بالتزاوج بين مواطنيها والمصريين على حين أن هذا التزاوج كان غير مشروع فى المدن الاغريقية الأخرى .

٤ ـ التعديلات التى أدخلت فى القرن الثالث :

شهد القرنان الأول والثانى من حكم الرومان زيادة مطردة فى الزام الأشخاص القادرين بتولى المناصب الحكومية والبلدية . ومن حيث المبدأ كان النظام يقضى بألا يرغم شخص على تولى وظيفة قبل انقضاء ثلاث سنوات على توليه وظيفة مماثلة مرة سابقة . وكان يعفى من الارغام على تولى الوظائف المواطنون الرومان وقدماء المحاربين ومواطنو الاسكندرية وأنطينوؤپوليس المقيمون خارج هاتين المدينتين ، وكذلك الأطباء العموميون وأساتذة دار العلم فى الاسكندرية والفائزون فى المباريات العامة والعجزة وعدد معين من كهنة كل معبد . لكن عندما قل عدد الأشخاص اللائقين لتولى هذه الوظائف ازداد تدريجيا تغاضى الحكومة عن هذه الاعفاءات .

وعندما زار الامبراطور سپتميوس سڤروس مصر فى عام ١٩٩/٢٠٠ ورأى ان الاضمحلال قد أخذ يدب الى موارد البلاد وان الادارة المحلية على وشك التداعى ، أدخل بعض التعديلات على نظام الادارة المحلية ، مؤملا أن يصلح بذلك ما أفسده الدهر . وقد كان أهم هذه التعديلات منح الاسكندرية وعواصم المديريات مجالس للشورى . واذا كانت الاسكندرية قد حققت على هذا النحو أمنية قديمة عزيزة عليها فانه انتقص من قدر هذه المنحة اسباغها على العاصمة المجيدة القديمة وعلى عواصم المديريات سواء بسواء . ولم يترتب على فوز

عواصم المديريات بهذه المنحة تمتعها بالحكم الذاتى تمتعا كامــلا فقد ظل القائد صاحب السلطة العليا فى المديرية فضلا عن أنه كان يسيطر على مجلس الشورى وعاصــمة المديرية حيث كان مقره الرسمى . واذا كان النظام الجديد قد بدا فى صورة ميزة جاد بها الامبراطور فانه فى الواقع كان عبئا جديدا ألقى على عاتق الموسرين الذين كان أعضــاء مجالس الشــورى يختارون من بينهم وكان عددهم يبلغ المائة فى كل عاصمة مديرية . وقد انتقلت الى كل مجلس من هـــذه المجالس المسئولية عن الشــئون المالية فى المديرية بأجمعها وتعيين وضمان حكام العاصمة ومدير المصرف الرئيسى فى المديرية وجباة الضرائب فى كل أنحاء المديرية ومراقبى دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضى (dekaprotoi) ، ومما يجــدر بالملاحظة ان المسئولية غــدت مسئولية جماعية فقد كان كل حاكم من حكام العاصمة وكل عضو فى مجلس الشــورى مسئولا عن تقصيره الشخصى وتقصير زملائه سواء بسواء . وقد كان مجلس الشــورى يتولى الاشراف العام على الادارة فى عاصمة المديرية فى حين ان حكام العاصــمة كانوا يقومون بتنفيذ ما يدخل فى دائرة اختصاص كل منهم . وقد أصبحت القــاعدة انه لا يمكن التحلل من تولى منصب من مناصب الحكم المحلى أو عضوية مجلس الشورى الا بتنازل المرشــح عن ثلثى ما يملكه للشخص الذى رشحه ليحل مكانه .

ويرجح بعض المؤرخين أنه عندما أنشئت مجالس الشورى عين أعضاء فيها أولئك الذين لم يسبق ترشيحهم لتولى مناصب الحــكم المحلى فى عواصم المديريات فى حين انه يتبين من بردية من منتصف القرن الثالث الميلادى انه لم يكن هناك أى فارق من حيث النصاب المالى بين أصحاب مناصب الحكم المحــلى وأعضاء مجلس الشورى العاديين . لكن هذا لا يستتبع حتما أنه عند انشــاء مجالس الشورى لم يعين أعضاء فيها أولئك الذين لم يرشحوا من قبل لمناصب الحكم المحلى . وعلى كل حال اذا كانت هناك أى فوارق بين الفريقين فى بداية الأمر فانه ما وافت نهاية القرن الثالث حتى كانت هــذه الفوارق قد زالت تماما الى حــد أن كلمة حاكم محلى (archon) أصبحت ترادف كلمة عضو مجلس الشورى (bouleutes) .

وقد أدى انشــاء مجالس الشورى الى انشاء مناصب ادارية جديدة كان أهمهـــا منصب رئيس المجلس (prytanis) ، وكان يرأس المجلس وينفذ قراراته ؛ ومنصب أمين المدينة (hypomnematographos) ؛ ومنصب syndikos، وكان مستشار المجلس فيما يتعلق بالشئون الدستورية ؛ ومنصب tamias ، وكان يختص بشئون المدينة المالية ؛ ومنصب رئيس الشرطة فى المدينة (nuktostrategos) .

وقد تضمنت التعديلات الادارية الجديدة تقسيم المديرية الى أقاليم ، وتبع ذلك احياء

وظيفة حاكم الاقليم (toparch) ، وكان يعين لكل اقليم مراقبان على دخل الحكومة من كافة أنواع الأراضى (dekaprotoi) ، وعدد من جباة الضرائب (praktores) .

وكان أهم التعديلات التى أدخلت على ادارة القرى احياء وظيفة حاكم القرية (komarch) ، والقضاء تدريجيا على اختصاص الشيوخ وكاتب القرية ، فقد أسندت شئون الادارة الى حكام القرى وكانوا عادة اثنين فى كل قرية ، يبدو انهما كانا يتوليان هذا المنصب لمدة عام واحد . وكان حكام القرية يرشحون خلفاءهم ومن تحتاج اليهم الادارة من موظفين ، لكنهم كانوا لا يتولون مهامهم قبل موافقة قائد المديرية وحاكم القسم على اختيارهم .

ولا شك فى أن التعديلات التى أدخلها سپتميوس سڤروس على نظام الادارة اعتراف صريح باخفاق النظام القديم ، ولا شك أيضا فى أنه لم يبغ من وراء منح الأهالى قدرا من الاستقلال المحلى الا انعاش حالة البلاد الاقتصادية وايجاد وسيلة تعطى الامبراطور ضمانا أكبر للحصول على الضرائب ، لكن لا هذه التعديلات ولا الحقوق الرومانية التى منحها كركلا لسكان البلاد أفلحت فى انعاش الحالة الاقتصادية ، بل أخذت تسير من سيىء الى أسوأ مما حفز الامبراطور دقلديانوس الى اعادة تنظيم الادارة من أسفلها الى أعلاها .

ولا مراء أن السبب الأساسى فيما أصاب البلاد من فقر وتدهور يرجع الى أن الرومان لم يستهدفوا من وراء كافة النظم التى وضعوها لحكم مصر وكافة التعديلات التى أدخلوها على تلك النظم الا استغلال البلاد الى أقصى حد وضمان الحصول على ما فرضوه عليها من مختلف الالتزامات دون نظر الى صوالح الشعب ورفاهيته . وليس مرد ذلك الى أن الرومان كانوا يريدون التنكيل بمصر وانما مرده الى أن تفانيهم فى أن تفيض مصر بالخيرات على روما أعماهم عن مراعاة صوالح مصر . ولو انهم كانوا بعيدى النظر لقدروا ان افقار مصر سيؤثر عاجلا أو آجلا فيما تجنيه روما من مصر لكن ازاء تبعة المسئولية الملقاة على عاتق الحكام وقصر مدة حكمهم لم يفكر كل منهم الا فى يومه وكأنه اتخذ شعارا له « ومن بعدى الطوفان » .

٥ ـ الشرطة :

اقتفى الرومان أثر البطالمة أول الأمر فى حفظ الأمن والنظام فى أنحاء البلاد بحراس (phylakitai) مسلحين ومنظمين على أسس حربية . وتشير القرائن الى أن هذا النظام بقى متبعا فى الدلتا حتى القرن الثانى . لكن يبدو أن الرومان لم يلبثوا أن استبدلوا بهذا النظام نظاما مزدوجا ألقيت بمقتضاه تبعة حفظ الأمن والنظام على شرطة مدنيين كانوا يعينون من أهالى كل منطقة وكذلك على الجيش

الرومانى . وكان رجـــال الشرطة المدنيون يدعون بوجه عام حراسا أو خفرا أو حفظة الأمن (phylakes) ، لكن كثيرا ما كانت تطلق ألقاب خاصة على الذين يناط اليهم عمل معين مثل حفـــظ الأمن فى ساحات الألعـــاب أو السجون أو الطرق الصحراوية ، غير انهم كانوا جميعا يختارون للخـدمة فى الأقاليم التى يعيشون فيها ويرجح ان مدة خدمتهم كانت عاما واحدا . وكان يتعين عليهم أن يؤدوا يمينا للخدمة بأمانة ونزاهة وأن يقدموا للحكومة ضـامنين لحسن أدائهم مهمتهم . وكانوا ينقسمون وحدات أساســها المدينة أو القرية . وكانوا فى المدينة تحت رياســة القائد مباشرة ، أما فى القــرية فانهم كانوا تحت رياسة موظف خاص يدعى(archepodos) ولم يكن لهذا الموظف اختصاص قضـائى برغم أنه كان يتداخل بين المتخاصـــمين لصالحتهم وان المتخاصمين كانوا يلجأون اليه لفض منازعاتهم . وكان يكلف بالقاء القبض على المجـــرمين بناء على أوامر يتلقاها من السلطات المختصة ؛ كما كان يكلف بتنفيذ أوامر الحكومة .

وقد صحب انشاء مجالس الشورى فى عواصـــم المديريات تنظيم قوة للشرطة فى عاصمة كل مديرية كانت مستقلة عن قــوة الشرطة فى المديرية فقد ظهر فى القرن الثالث على رأس رجال الشرطة فى عاصمة كل مديرية موظف يدعي (nuktostrategos) بينما استمر رجال الشرطة فى كل قرية تحت امرة الموظف الذى مر بنا ذكره (archepodos) . وليس هناك دليل على أن رئيس شرطة عاصـــمة المديرية كان يعين من قبل مجلس الشـورى أو يخضـــع لتوجيهــاته . وأغلب الظن ان الحكومة الرومانية كانت تهيمن دائما عـلى رجال الشرطة فى كافة أنحاء البلاد بما فى ذلك الاسكندرية وغيرها من المدن الاغريقية .

وكان الجيش الرومانى يخصص لحفظ الأمن والنظام فئة قليلة من الجنود يبدو انها كانت أفعــل أثرا من الشرطة المدنيين . وفى أغلب الأحوال كانت كل فئة من هؤلاء الجنود تحت قيادة صف ضابط (centurion) كانت تقدم اليه الشكاوى كما كانت تصــدر منه الأوامر لالقــاء القبض على المتهمين . وتشير القرائن الى أنه فى بعض الأحيان كان يصدر الى شرطة القرية ما يتراءى له من التعليمات .

٦ ـ الجيش الرومانى :

عندما فتح أغسطس مصر كانت حامية مصر الرومانية تتألف من ثلاث فرق رومانية (legiones) ، وتسع كتائب مساعدة من المشاة (cohortes) ، وثلاث فصـائل من الفرســان (abae) وزعت على المراكز الاستراتيجية فى البـــلاد لنشر السكينة والنظام فى أرجائها ولضمان حمايتها من الاعتداءات الخارجية . فوضعت فى نيقوپوليس احـــدى الفرق الرومانية وثلاث كتائب مساعدة لالقاء الرعب

فى قلوب الاسكندريين الذين اشتهروا بميلهم الى الشغب والثورة ، ووضعت فرقة رومانية أخرى فى بابيلون للسيطرة على الوجه البحرى ويرجح ان الفرقة الثالثة وضعت فى منطقة طيبة التى كانت مهد الثورات الوطنية ضد البطالمة ، ووضعت ثلاث كتائب مساعدة عند أسوان للدفاع عن الحدود الجنوبية ووزعت الثلاث الكتائب المساعدة الباقية والثلاث الفصائل فى مختلف أنحاء البلاد لحماية الحدود الشرقية وتأمين الطرق الصحراوية وحراسة المناجم . لكن سرعان ما تبين ان هذه القوات كانت تزيد على الحاجة ولا سيما بعد اطمئنان الرومان الى سلامة الحدود الجنوبية فأمر تيبريوس بسحب احدى الفرق الرومانية الثلاث . وعندما أثبتت الأحداث ان الاسكندرية كانت أخطر على الرومان من منطقة طيبة أمر كلاوديوس بنقل الحامية الرومانية التى كانت تنزل عند قفط أو طيبة الى معسكر نيقوبوليس .

وفى عهد نيرون حشدت مؤقتا فى الاسكندرية فرق رومانية أخرى للقيام فى رأى الباحثين بالحملة التى كان هذا الامبراطور يعتزم توجيهها ضد مملكة اكسوم لكن حال دون القيام بها اندلاع الثورة فى جودايا مما استدعى استخدام تلك الفرق فى اخمادها . وفى عهد تراجان أدخلت عدة تغييرات على نظم مصر الحربية كان أهمها بناء قلعة جديدة على شاطىء النيل عند بابيلون واضافة فرقة جديدة (فرقة تراجان الثانية) يرجح أنها حشدت للخدمة فى الشرق وأنزلت مؤقتا فى مصر لكنها لم تغادرها حتى سحبت الاشتراك فى حرب الدانوب .

ولم يأت عهد أنطونينوس پيوس (١٣٦ — ١٦١) حتى كان عدد الفرق الرومانية فى مصر قد أنقص الى فرقة واحدة لكن يبدو من ناحية أخرى ان عدد الكتائب المساعدة والفصائل قد زيد . ويتبين من الوثائق انه على مر الأيام اتجه الرومان باطراد الى التجنيد محليا لملء الأماكن التى تخلو فى صفوف الحامية الرومانية فى مصر .وليس معنى ذلك انهم اعتمدوا على المصريين فى ذلك وانما الأرجح على مواطنى المدن الاغريقية وعواصم المديريات .

وكان يحرس شاطىء الدلتا أسطول (classis Augusta Alexandrina) يرجح أن أغسطس هو الذى أنشأه وان كان لا يرد له ذكر فى مصادرنا قبل عصر نيرون . وكانت المهمة الأولى لهذا الأسطول الدفاع عن البلاد وحراسة القمح المنقول من الاسكندرية الى ايطاليا ، لكننا نسمع منذ عصر هادريان انه كان يقوم كذلك بحراسة النقل المائى فى داخل البلاد .

الفصل الثالث

السياسة الدينية

لما كان الرومان قد دأبوا فى الظروف العادية على اتباع سياسة التسامح الدينى مع رعاياهم ما دام ذلك لم يتعارض والاحتفاظ بسيطرتهم عليهم ، فانهم تمشيا مع هذه السياسة لم يتدخلوا فى المعتقدات الدينية لرعاياهم فى مصر سواء أكانوا من المصريين أم الاغريق أم اليهود . فلا عجب اذن ان استمر كل عنصر من هذه العناصر فى اقامة شعائر ديانته القديمة . ولا أدل على أن أغلب المصريين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة من ان الأقطاب الأوائل للمسيحية وجهوا حملات لاذعة ضد عبادة الحيوان ، بل انه بعد انتشار المسيحية فى مصر واعتراف الدولة بها رسميا فى القرن الرابع للميلاد بذل المسيحيون جهودا كبيرة للقضاء على الوثنية فى مصر وساعدهم على ذلك انه عندما ارتقى الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) العرش فرض المسيحية قسرا فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية . وقد نفذ قرار الامبراطور دون هوادة فى الاسكندرية والوجه البحرى حيث ذهب الرهبان فى تنفيذه الى أبعد مدى ومن ورائهم رجال الادارة يشدون أزرهم ، اذ كان القرار يقضى باغلاق كل المعابد التى كانت القرابين تقدم فيها ، لكن الرهبان استمدوا من ذلك القرار السلطة ليهدموا المعابد . اما فى الوجه القبلى فان سلطة الحكومة لم تكن من القوة بحيث تستطيع تنفيذ ذلك القرار ، حتى اذا شاء رجال الادارة تنفيذه ، وكان أغلبهم فى الواقع مسيحيين غير متحمسين أو اداريين متبصرين لم يروا من الحكمة فرض دين معين على الشعب دون رغبته . ومع ذلك مازلنا نرى حتى اليوم على جدران المعابد آثار المحاولات التى بذلت لمحو صور الآلهة القديمة . ولا جدال فى ان كل ذلك ينهض دليلا على ان جانبا كبيرا من المصريين استمسكوا أمدا طويلا فى العصر الرومانى بعبادتهم القديمة . ويجب الا يغيب عن البال ان أهل الريف وهم يؤلفون دائما جانبا كبيرا من السكان فى مصر أكثر محافظة من أهل المدن وكذلك أكثر منهم تمسكا بأهداب الدين .

وقد احتفظ كثير من اغريق مصر أيضا بعبادتهم القديمة . ويجب ألا يتبادر الى

الذهن ان ذلك كان مقصورا على مدنهم الاغريقية فحسب بل يبدو ان ذلك كان شأنهم أيضا حيثما وجدت لهم مراكز حضارية خارج تلك المدن . فالقرائن تشير الى انهم كانوا يقيمون شعائر عبادتهم القديمة لا فى الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس وانطينوؤپوليس فحسب بل أيضا فى الفيوم وهرموپوليس (الأشمونين) وأوكسيرينخوس (البهنسة) . لكن لا جدال فى ان عدد اغريق مصر الذين بقوا على ولائهم لآلهتهم القديمة قد تناقص على مر الزمن . فقد مر بنا ان الاغريق منذ عهد هيرودوتوس وطوال عصر البطالمة كانوا يشبّهون الآلهة المصرية بالآلهة الاغريقية وانهم كثيرا ما عبدوا الآلهة المصرية الى جانب آلهتهم الاغريقية باعتبارهم نزلاء البلاد التى كانت تتمتع بحماية تلك الآلهة . ونستطيع أن نتصور انه كلما أصبح الاغريق أكثر ألفة بالآلهة المصرية نتيجة لطول استقرارهم فى البلاد والاختلاط بأهليها أو التزاوج معهم كثر تقربهم الى هذه الآلهة وتبع ذلك تسرب بعض الأفكار الاغريقية الى بعض المذاهب المصرية التى كان يمارسها الاغريق والمصريون المتأغرقون . واذا كان من الجائز بوجه عام ان اغريق المدن الاغريقية وعواصم المديريات لم يصدفهم التعبد الى الآلهة المصرية عن التعبد الى آلهتهم الاغريقية فما لا شك فيه ان عامة الاغريق المنتشرين فى أرجاء البلاد أصبحوا بالتدريج أقرب الى المصريين منهم الى الاغريق ولم ينقض وقت طويل قبل أن تستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم على مر العصور . ومن ثم نقص عدد أتباع الديانة الاغريقية تبعا لعدد الذين تمصروا وبطبيعة الحال أيضا تبعا لعدد الذين اعتنقوا المسيحية .

ولما كان اليهود يقفون فى الشئون الدينية بمعزل عن كافة سكان مصر سواء أكانوا من المصريين أم من الاغريق أم من الرومان، فانهم استمروا يتابعون عبادتهم دون أن تتأثر طقوسهم أو معتقداتهم بأى تأثيرات أجنبية . وقد انتشرت بيعهم فى أغلب مدن مصر الكبرى واستمر معبدهم الكبير فى ليونتوپوليس يباشر نشاطه الى أن أمر ڤسپاسيانوس فى عام ٧٣ باغلاقه بعد تدمير أورشليم ومعبدها فى أعقاب ثورة اليهود على روما، وذلك لكى لا ينتقل نفوذ المعبد الكبير فى فلسطين بعد زواله الى معبد ليونتوپوليس . وقد شهدت مصر التطور الوحيد الذى طرأ على الأفكار اليهودية وكان يتمثل فى تكوين طائفة من النساك أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط حيث أخذت تمارس حياة من التقشف والزهد منصرفة عن أمور الدنيا الى الدرس والتأمل . وكان يسمح للرجال والنساء على السواء بالاندماج فى هذه الطائفة ، وكان يخصص لكل عضو من أعضاء الطائفة صومعة صغيرة ينزوى فيها وحيدا لمدة ستة

أيام ولا يخرج منها للالتقاء مع اخـوانه فى البيعـة الا فى يوم السبت من كل أسبوع وكذلك فى يوم الحفل الذى كان يقام كل خمسين يوما . ولم يكن هذا اللون من حياة التنسك غير معروف فى مصر من قبل . وآية ذلك أولئك النساك الذين تحدثنـا الوثائق بأنهم كانوا ينقطعون للعبـادة فى سيرابيوم منف فى عهد البطالمة . ويعتقد بعض الباحثين ان المبشرين البوذيين هم الـذين نقلوا من الهند الى مصر فكرة التنسك . لكن البعض الآخر من الباحثين وان كانوا يسلمون بأن مثل أولئك المبشرين كانوا يفدون على مصر فى عهد البطالمة وبأن مذهب سيرابيس كان يتألف من مزيج عجيب من الأفكار ، الا انهم يجدون من العسير أن يتصوروا أن يكون اليهود مع شـــدة تعصبهم لديانتهم قـد اقتبســوا أى عادات من ديانة أجنبيـــة ، ويرجحون أن تكون طبيعـة مصر هى التى أوحت لليهود بعادة التنسك ، فالصحراء فى مصر شـــديدة القرب من أى شخص يريد اعتزال العالم ، وللصحراء جاذبيـة خاصـة الاحساس بها أسهل كثيرا من وصفها ، ومن اليســير أن تستهوى أفئـدة الذين شغلوا بالتعمق فى أمور الدين . ومهما يكن من أمر فان التطور نفسه قد حدث بعد ذلك بقليل بين المسيحيين فى مصر فانتشرت بينهم عادة التنسك فى الأديرة ، وهى العادة التى انتقلت من مصر الى كل أنحـــاء أوربا ويعتبرها البعض أهم خدمة أسدتها المسيحية المصرية للمسيحية الأوربية .

وازاء استمساك المصريين بمعتقـداتهم الدينيـــة نرى ان الأباطرة الرومان لكى يصبغوا مركزهم بصبغة شرعية فى نظـــر المصريين حذوا حذو البطالمة من قبل فاتخذوا صفة الفراعنة . بل ان حاكم مصر الرومانى أيضا كان يتشبه بالفراعنة ، فلا يركب النيل وقت الفيضان ، ويقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاعه ويمثل دور فرعون فى غير ذلك من شتى المظـاهر . وشيد الأباطرة المعابد للآلهة المصرية أو أضافوا الى مبانى المعابد القائمة أو أكملوا مبانيها أو زخرفتها وصوروا على جدرانها وعلى النصب الرسمية فى زى الفراعنة وأوضاعهم .

وقد كان الرومان فى بادىء الأمر ينظرون الى معتقدات المصريين الدينية نظرة احتقـار وازدراء لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون الى تعرف أسرارها فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أســاطير . وما عتم الغزاة الفاتحون أن خضعوا لسلطان تلك الآلهـة وشـــاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى عبادتها وتقديم القرابين اليهـــا بل أقاموا التماثيل والمعـــابد لبعضها حتى فى روما العظيمة ذاتها . ولعل أبلغ ما يدل على التغير الفكـــرى الذى طرأ على الرومان من حيث تقديرهم للآلهة المصرية البحت أن أغسطس أبى واستكبر أن يرى العجل المقدس ابيس ،

لكن تيتوس شهد الاحتفال بتكريسه ولم يدخر وسعا فى اظهار احترامه لآلهة المصريين، فوضع بذلك أساس سياسة جديدة نلمس أثرها فى بدء تصوير الآلهة المحلية فى المديريات على نقود الاسكندرية منذ عصر دوميتيانوس (٦١ — ٩٦) وكذلك فى تشبيه زوجة تراجان بالآلهة حاتحور .

واذا كان الرومان منذ وطأت أقدامهم مصر لم يتعرضوا لمعتقدات المصريين الدينية فانهم فى الوقت نفسه حرصوا ، كما فعل البطالمة الأوائل ، على ألا يتركوا الحبل على الغارب لرجال الدين المصريين لكى لا يصبحوا اداة لنشر روح الثورة فى البلاد ، كما حدث فى عهد البطالمة الأواخر . ولذلك قضى أغسطس بحرمان المعابد جانبا من أراضيها واسناد ادارة جانب آخر الى الحكومة لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من هذه الأراضى لتوفير حاجات المعابد . وفضلا عن ذلك وضعت ادارة المعابد تحت اشراف الحكومة ويرجح ان الحاكم العام الرومانى هو الذى كان يتولى هذا الاشراف حتى عصر هادريان عندما أصبح ذلك من اختصاص موظف رومانى كبير كان يدعى ايديولوجوس (idiologos) ، ويحمل لقب « كبير كهنة الاسكندرية ومصر بأجمعها » . وترينا الوثائق كيف كان هذا الموظف يشرف اشرافا دقيقا على كل ما يجرى فى المعابد فقد كان يخضع لتعليماته ترتيب الوظائف الكهنوتية وتوليها ومباشرة الكهنة مهامهم بل الملابس التى يرتدونها . وكان يبعث بمفتشيه الى المعابد ليبحثوا شئون ادارتها ويأمر بالقبض على الذين يعصون أوامره وبارسالهم الى الاسكندرية . وكان يتولى الادارة الفعلية فى المعابد جماعة من الشيوخ يختارون سنويا من بين الكهنة وعندما أنشئت مجالس الشورى فى مستهل القرن الثالث آل الاشراف على شئون المعابد المالية الى موظفين كانت المجالس تعينهم وتراقب أعمالهم .

ومما يجدر بالملاحظة ان ما عرفناه من أمر الرومان حيال الآلهة المصرية لا يعنى انهم انصرفوا عن عبادة آلهتم الاصلية ، فقد ادخلوا عبادة هذه الآلهة فى مصر كما أدخل الاغريق من قبل عبادة آلهتم الاغريقية . وقد أخذ الرومان أيضا عن الاغريق تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة — مثل أغسطس بزيوس اليوثريوس (Eleutherius) ونيرون باجثادايمون (Agathadadaemon) — وشيدوا المعابد للأباطرة لكننا نفتقر الى أدلة قاطعة على عبادة الآباطرة وانشاء المعابد لهم فى أثناء حياتهم . وعلى كل حال فان الرومان لم يفرضوا على المصريين هذه العبادات خشية الاصطدام بالشعور القومى وهو ما كان الرومان يبذلون جهدهم لاتقائه . وقد أخذ الرومان كذلك عن الاغريق عبادة ثالوث الاسكندرية المقدس — سيرابيس وايزيس وحاربوقراط

— وعبادة الآلهة المصرية التى أسبغت عليها أسماء اغريقية .

لقد عرفنا ان الرومان أقاموا سياستهم الدينية على أساس التسامح الدينى وانهم أباحوا للمصريين والاغريق واليهود حرية الاحتفاظ بعباداتهم القديمة . فما كان موقفهم من المسيحية عندما أخذت تنتشر فى مصر ؟ ان معلوماتنا طفيفة عن بدء انتشار الدين الجديد فى مصر لكن الباحثين لا يميلون الى قبول القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذى أسس كنيسة الاسكندرية وان كانوا يعتقدون ان قرب مصر من فلسطين جعلها فى طليعة البلاد التى تسرب اليها الدين الجديد فى خلال القرن الأول وأخذ ينتشر خفية هناك ولا سيما فى الاسكندرية والوجه البحرى ، وأصبح عدد المسيحيين كافيا لتنصيب أساقفة للاسكندرية . وقد ازداد أعوان المسيحية فى القرن الثانى وخاصة عندما نُصب ديمتريوس فى آخر عهد كومودوس (١٨٠ — ١٩٢) أسقفا للاسكندرية وعلى يده تمت رسامة قسس كثيرين تبعا لانتشار المسيحية. ومع ذلك فان المسيحية لم تترك أى أثر فيما عثر عليه حتى الآن من برديات القرن الأول . ولا نستمد من برديات القرن الثانى الا معلومات طفيفة عن مدى تأثير المسيحية وان كنا نتبين منها ان المسيحية توغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا .

وقد أدى انتشار المسيحية الى اثارة مخاوف الرومان ومن ثم عملوا على اضطهاد دعاتها وأنصارها باعتبارهم عنصرا خطرا يتهدد سلامة الدولة لعدم مشاركتهم فى اقامة شعائر الديانة الرسمية ، فقد كانوا لا يقدسون تماثيل الأباطرة ولا يعبدون « الروح الحارس » للامبراطور ولا « روما المؤلهة » . وقد كان بدء اضطهاد المسيحيين فى مصر اضطهادا منتظما فى خلال حكم سپتميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١) وبلغ أشده فى أواخر عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) . وتركت هذه الاضطهادات أثرا عميقا فى النفوس الى حد ان الكنيسة المصرية استمرت بضعة قرون تستعمل لتأريخها « عصر الشهداء » ابتداء من حكم دقلديانوس . لكن وسائل الاضطهاد المختلفة لم تقف فى سبيل انتشار الدين الجديد حتى تمت له الغلبة فى عصر قسطنطين الأول (٣٢٣ — ٣٣٧) عندما اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية .

ومما يجدر بالذكر انه فى القرنين الثانى والثالث قامت الاسكندرية بدور كبير فى التقريب بين أسمى الأفكار فى الوثنية والأفكار التى انبثقت من المسيحية . فالى جانب « الجامعة » القديمة التى استمرت تتابع دراساتها الوثنية نشطت المدرسة المسيحية الكبرى التى أسسها پنتاينوس (Paataenus) ، وكانت أصول الايمان تعلم فيها عن طريق السؤال والجواب .

الفصل الرابع

السياسة الاقتصادية

١ ــ الزراعة والصناعة والتجارة :

لما كان الرومان فى حاجة ملحة الى الانتفاع بموارد مصر الطائلة وكان مقدار ما يجنونه منها يتوقف على مقدار ثروة مصر وكانت أحوال مصر الاقتصادية قد تدهورت فى عهد البطالمة الأواخر من جراء ضعفهم وتخاذلهم وما عانته البلاد من آثار الثورات القومية والانقسامات الأسرية والغزوات الأجنبية ، فقد وجه الرومان عنايتهم الى اقامة حكومة قوية نزيهة والى النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية .

ففى الزراعة عنى أغسطس وحصيفو الرأى من خلفائه بضبط مياه النيل وحسن تصريفها وما يتطلبه ذلك من كرى الترع القديمة وانشاء ترع جديدة والمحافظة على الجسور فلا عجب ان استرابون يحدثنا بأنه قبل الفتح الرومانى كان يتعين ارتفاع منسوب مياه النيل الى ١٤ ذراعا لانتاج محصول وفير فى حين أن بلوغ منسوب المياه ثمانى أذرع كان يؤدى الى حدوث مجاعة . اما بعد الفتح الرومانى فقد أصبح ارتفاع منسوب المياه الى اثنى عشر ذراعا كافيا لانتاج محصول وافر جدا وفضلا عن ذلك فان البلاد كانت لا تشكو من أى ضائقة حتى عندما كان منسوب المياه لا يبلغ أكثر من ثمانى أذرع .

وكانت مصر تنتج عددا كبيرا من المحاصيل الزراعية كان القمح أهمها ثم يأتى بعد ذلك الشعير والكتان والخضروات والنباتات الزيتية والبردى والكروم والبلح والزيتون . ويقال ان مصر كانت تزرع أيضا القطن لتستخدم تيلته فى صناعة ملابس الكهنة .

وقد عنى الأباطرة المصلحون بالنهوض بالصناعة لسد حاجات السوق المحلية من ناحية وتصدير كميات كبيرة من ناحية أخرى فتعوض مصر على هذا النحو جانبا من الجزية التى كانت تدفعها لروما سنويا . ويبدو ان حكام مصر من الرومان حيثما وجدوا الاحتكار الحكومى باهظ النفقات قليل الأرباح نزلوا عنه للأهالى فكانت الحكومة تحتكر بعض الصناعات مثل استخراج الملح والمعادن وقطع الأحجار وتترك صناعات أخرى لنشاط الأفراد .

لكن من العسير فى ضوء معلوماتنا الحالية اعطاء صورة كاملة صحيحة عن مدى حرية النشاط الاقتصادى فى الصناعة . وتشير القرائن الى ان الاسكندرية غدت مركزا صناعيا كبيرا لكنها لم تنفرد بالنشاط الصناعى فكانت توجد مراكز صناعية فى مختلف أنحاء البلاد مثل ارسينوى (الفيوم) وأوكسيرينخوس (البهنسة) وپانوپوليس (اخميم) وطيبة . ومن المرجح ان تقراطيس احتفظت على الأقل ببعض ما كان لها من الأهمية الصناعية القديمة . وتحدثنا البرديات عما كان هناك نشاط صناعى فى قرية تبتونيس بالفيوم ويرجح انها لم تنفرد دون غيرها من قرى مصر بمثل هذا النشاط . فتذكر البرديات ان أهل تبتونيس كانوا يشتغلون بنسج الأقمشة وصباغتها وصنع الزيت والجعة والحلى والأدوات المعدنية .

وكانت صناعة الزجاج من أرقى الصناعات المصرية حتى انه ليعزى الى مصر ابتكار فن تشكيل الزجاج بالنفخ حوالى بداية العصر المسيحى ، ويحتمل ان مصر كانت تحتكر صناعة المكعبات الزجاجية الصغيرة اللازمة للفسيفساء . وكانت مصر تحتكر كذلك صناعة الورق وتنتج منه أصنافا عديدة راقية . واشتهرت مصر أيضا بمنسوجاتها الكتانية الدقيقة وبصناعة العطور والمساحيق والأدوية والصحاف والكؤوس المصنوعة من الفضة أو الذهب .

وقد اهتم الرومان كذلك بتجارة مصر الخارجية فراجت رواجا كبيرا ولا سيما بعد تطهير البحر الأبيض المتوسط من القراصنة ونشر نفوذ الرومان على شواطىء البحر الأحمر واصلاح الآبار الواقعة على الطرق الصحراوية التى تربط النيل بالبحر الأحمر وشق طرق جديدة لهذا الغرض واقامة الحاميات على جوانب هذه الطرق لاستتباب الأمن فى تلك الجهات .

٢ - النقود :

لما كان أغسطس وخلفاؤه قد حرصوا على ابقاء مصر وحدة سياسية واقتصادية منعزلة عن باقى الامبراطورية الرومانية فانهم أصدروا لمصر عملة خاصة بها لم يكن لها أية قيمة خارجها ولم يسمحوا بتداول العملة الرومانية البرونزية والفضية فيها وان كانوا فيما يبدو قد سمحوا بتداول العملة الرومانية الذهبية لكن لما كانت الأدلة على التعامل فى مصر بهذه العملة طفيفة فانه يبدو ان تداولها هناك كان محدودا جدا ، وهكذا انفردت مصر بوضع لم يكن له مثيل فى أى ولاية رومانية أخرى . ففى الولايات الغربية غدت العملة الرومانية سريعا الوسيلة الوحيدة للتعامل وفى الولايات الشرقية برغم إنه كانت تسك محليا عملة برونزية (وفى قيصرية وانطاكية بعض فئات العملة الفضية) فان الناس كانوا دائما يتداولون فئات العملة

الرومانية الفضية والبرونزية . ولما لم تكن للعملة التى تسك فى مصر قيمة خارجهـــا وكانت روما تحصل على جانب من الجزية المصرية نقـــــدا فلا بد من ان رومـــا كانت تحصـــل على هــــذه الجزية النقـــدية من أرصدة صادرات مصر الخارجية ومن ثم كانت الجزية النوعية والجزية النقدية تلقيان عبئا كبيرا على موارد مصر .

وقد كان الرومان يسكون العملة المصرية فى الاســـكندرية وتشـــير الأدلة الى انه لم تصدر عن دار السكة فى هذه المدينة أى عملة فضية أو ذهبية فى العصر الرومانى . ففى عهد أغسطس كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية ومع ذلك كان يطلق على العمـــلة ذات الأربع دراخمات عملة فضـــية من باب التأدب فقط .

وفى عام ١٩/٢٠ ميلادية قرر تيبريوس أن تســـك الاســـكندرية عمـــلة ذات أربع دراخمـــات من مـــزيج يتألف مـــن البرونز والفضة بنسبة ٣ : ١ وان تستمر الاسكندرية فى سك الفئـــات الصغرى من العمـــــلة البرونزية . وقد بقى معمولا بالنظـــام الذى وضعه تيبريوس حتى عام ٢٩٦ مع تعديلات طفيفـــة فى نسبة مزيج القطـــع ذات الأربع دراخمات وكذلك فى شكل العملة فقد كان على نمط طرز العملة البطلميـــة حتى عصر فسپاسيانوس عندما أخذت تسك على نمط العملة الرومانية. ومنذ أواخر القرن الثانى أخذت قيمة العملة ذات الأربع دراخمات فى الهبوط باستمرار ، وأسرعت خطى هــــذا الهبوط فى النصف الثانى من القرن الثالث الى حد ان وزن هذه العملة أصبح لا يزيد الا قليلا على نصف وزن مثيلاتها فى عهـــد تيبريوس فضلا عن انه لم يعد فيها من الفضة الا قدر طفيف جدا ينقص كثيرا عمـــا كان عليه فى الماضى . وقد صحب هبوط قيمـــة هذه العملة نقص العملة البرونزية سريعـــا وسك عملات من الرصـــاص باسم المديريات المختلفة حلت محل العملة البرونزية . وتشير الوثائق البردية الى أنه قـــد صحب هبوط العملة كذلك ارتفاع الأسعار والأجور أيضا لكن الأجور لم ترتفع بالمعدل ذاته مما كان له دون شك أثر فى ضيق الناس بحالهم .

٣ ـ المصارف المالية :

كان يوجـــد مصرف رئيسى عـــام فى الاسكندرية ومصرف مركزى عام فى عاصمة كل مديرية . وكانت هذه المصارف العـــامة تؤدى مهمتى اســـتلام أمـــوال الـــدولة وصرفها ، وكان يقوم على ادارة كل مصرف مواطن مـــن أثرياء عاصمـــة المديرية كانت تفرض عليه مهمة ادارة المصرف مدة معينة . وتحدثنا الوثائق عن ثلاثة أنواع أخرى من المصارف فتطلق على أولها اسم مصـــارف التسجيل (chrematistike trapaza ، ويبـــدو انها كانت تباشر مهمتى مكاتب التسجيـــل والمصارف المالية . وتطلق الوثائق على النوع

الثـانى اسم مصـــارف استبدال النقـود (Kollybistike trapaza) ويبدو ان مهمتهـــا الأولى كانت استبدال النقـود المصرية بأى عملة أجنبية ترد من الخـارج . اما النوع الثالث فيسمى المصارف الخاصـة (idiotikc trapaza) ، ويبين انهـا كانت تستمد رءوس أموالهـا من الأفراد وتؤدى مختلف أنواع الأعمال المصرفية ، ولم يقتصر نطاقهـا على عمليات الأفراد فحسب بل كان يشمل أيضا عمليات حكومية .

ويعتقـــد بعض الباحثين ان الحكومة كانت تحتكر كافة الأعمال المصرفية وتؤجر ادارة المصارف الخاصـــة لمن يتقدم بأكبر عطاء لقاء ذلك لكن المعلومات التى لدينـا حتى الآن لا تسمح بتأييـد هـذا الرأى أو تفنيده وان كان يبدو معقولا ومحتملا .

ومما يجدر بالملاحظة ان المعابد لم تنقطع عما درجت عليه منذ أقدم العصر من مباشرة أعمال شبيهة بالأعمال المصرفية مثل اقراض النقود واستلام الودائع . وفى مجتمع زراعى مثل مصر الرومانية كان أمناء مخازن الحبوب (sitologi) ، كذلك يؤدون مهمـة المصارف الخاصة .

٤ ـ حالة البلاد الاقتصادية :

لقد كانت النتيجة الطبيعية لقيام حكومة قوية قديرة لا تنقصها النزاهة مكان حكومة عاجزة فاسدة ازدياد الرخاء على الفور لكن استناد الحكومة القوية القـادرة الى نظرية فاسدة كان لا بد من أن يجعلها على مر الأيام أشد خطرا على البـــلاد وأكثر ضررا من حكومة أقل منها قوة ومقدرة . فقـــد كان الرومان لا يبغـون مـن وراء سـياستهم الاقتصادية فى مصر الا غرضا واحدا وهـو استغلالها لمنفعتهم الخاصة . واذا كانت آراء بعض الأباطرة قد تفـاوتت عن آراء البعض الآخر فان ذلك التفاوت لم يكن فى المبـدأ نفسه وانما فى مقدار ذلك الاستغـلال ، اذ بينما كانت الحكمة تملى على بعضهم تجنب تكليف البلاد ما يزيد على طاقتها لا شفقـة بالبلاد أو أهليها بل شفقة بأنفسهم كيلا يجف معين البلاد نرى أن البعض الآخر قد ضرب بتلك الحكمة عرض الحائط وراح يبتز كل ما تملك البلاد . وحسبنا انه حتى فى عهـد أغسطس كانت الجزية النوعية أربعة أمثال ما كان البطـالمة الأوائل يجبونه . ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هنـاك فارق آخر هام بين البطالمة والرومان وهو ان معظم ما كان البطالمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيهـا اما معظم ما كان الرومان يستنزفونه من مصر ، عينا كان أم نقدا ، فانه كان ينقل الى روما وتخسره مصر كلية .

ويبدو لأول وهلة ان القرن الأول من حكم الرومان (من أغسطس الى آخر حكم نيرون أى من ٣٠ ق . م . — ٦٨ م) حمل فى طياته رخاء عميما . لكن اذا دققنا النظـر

وجدنا ان ذلك الرخاء كان من نصيب روما قبل كل شيء ومن نصيب الاسكندرية الى حد . اما مصر ذاتها فقد كانت البقرة الحلوب التي درت تلك الخيرات حتى أخذت تظهر بوادر اضمحلالها ، اذ ان كل نظام الحكومة كان موجها الى غاية واحدة هى تمكين الدولة من استعباد الفلاح فى خدمتها وابتزاز أموال دافعي الضرائب . وترينا القواعد المالية التى كان الايديولوجوس يسهر على تنفيذها (Gnomon Idiou Logou) والقوانين الخاصة بتأجير الأراضى أو جباية الضرائب شدة حرص الحكومة على مطالبة مزارعيها بأعلى الايجارات دون أن يعنيها فى قليل أو كثير ان كان لم يتبق لهم بعد ذلك الا أقل القليل لقاء كل جهدهم المضنى الشاق . ولا غرو فقد كان شعار كل رجال الحكومة مراعاة صوالح الخزانة العامة دون أى اعتبار آخر . وتنبئنا الوثائق بأنه فى عصر تيبريوس (١٤ — ٣٧م) كان المزارعون يهربون من ضريبة الرأس والسخرة ويحتمون فى الأدغال والمستنقعات حتى ان بعض القرى هجرت بأكملها تقريبا . وتحدثنا بردية من عهد نيرون (٥٤ — ٦٨م) بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد نقص عددهم نقصا شديدا . وترينا بردية من هذا العهد أيضا بأن العبء لم يبهظ كاهل دافعي الضرائب فقط بل جامعيها أيضا مما حدا بالجباة الى أن يجأروا بالشكوى من سوء الحال والا اضطروا تحت ضغط عجزهم المالى الى عدم القيام بتحصيل الضرائب . وتتجاوب أصداء هذه الحال فيما كتبه الفيلسوف اليهودى فيلون الذى عاصر الامبراطورين كاليجولا (٣٧ — ٤١) وكلاديوس(٤١—٥٤) فهو يحدثنا عن قرى بأكملها بل بلاد اقفرت من سكانها بسبب شدة وطأة الضرائب ، وعن الزج فى السجن بالزوجات والأطفال والتنكيل بهم للارشاد عن الأماكن التى آوى اليها الهاربون من تسديد الضرائب ، ويروى كيف ان جباة الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث الموتى الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب لارغام ذويهم على سداد المتأخرات . وتحدثنا وثيقة من حوالى عام ٦٩ م عن ارغام الناس على التعهد بالتزام جباية الضرائب وعلى استئجار الأراضى العامة وعن « العيون » الذين وجدوا مرتعا خصبا فى التبليغ عن المتهربين من الوفاء بالتزاماتهم للايديولوجوس وعن مزارعين فى مختلف أنحاء البلاد أرهقتهم ضرائب جديدة غير مشروعة . وقد ناء الأهالى أيضا بعبء امداد الحاميات الرومانية بما كانت تحتاج اليه وامداد رجال الادارة بحاجاتهم فى أثناء تنقلاتهم من مكان الى آخر وذلك فضلا عن سلسلة من الضرائب الثقيلة المرهقة .

وفى خلال القرن الثانى من حكم الرومان (من جلبا الى آخر حكم ماركوس أوروليوس أى من ٦٨ — ١٨٠) عنى الأباطرة

المستنيرون بعدم ابهاظ كاهل مصر فانتعشت حالها الاقتصادية بعض الوقت لكن بما انهم لم يعملوا على استئصال شأفة الداء باصلاح نظام الحكم اصلاحا جوهريا فان الحال لم تلبث أن عادت الى سيرتها الأولى . ومنذ منتصف هذه الفترة بدأت تظهر البوادر التى تدل على أن ثروة البلاد كانت آخذة فى التدهور . ولا أدل على ذلك التدهور من التوسع فى تطبيق مبدأ الالزام (Leitourgia) . وقد كان البطالمة عادة يعهدون فى جباية الضرائب الى ملتزمين يتقدمون طواعية للاشتراك فى مزادات تعقد لكل ضريبة على حدة ، وكان المزارعون يقبلون عن طيب خاطر على استئجار أراضى الملك ، اما فى أوقات الأزمات فأن البطالمة لم يحجموا عن ارغام الأشخاص اللائقين على تولى الوظائف أو التزام الضرائب أو استئجار أراضى الملك . غير ان التجاء البطالمة الى وسيلة الارغام لم يكن القاعدة السائدة ولم يحدث الا فى ظروف استثنائية . واذا كان الرومان قد اقتفوا أثر النظام البطلمى أول الأمر فانهم لم يلبثوا ان طرحوه جانبا وأخذوا يتبعون بالتدريج فى خلال القرن الأول مبدأ « الالزام » وتوسعوا فى اتباع هذا المبدأ توسعا كبيرا فى خلال القرن الثانى .

وترينا الوثائق البردية انه عندما تدهورت حال البلاد الاقتصادية وكان المشتغلون بالتزام الضرائب لا يتقدمون بعطاءات مرتفعة كالتى كانوا يتقدمون بها فى أيام الرخاء كانت الحكومة اما ترغمهم على التعاقد معها بالشروط القديمة أو تجبى الضرائب مباشرة عن طريق جباة تعينهم فى مناصبهم قسرا . ويبدو ان الأمر لم يستدع الالزام فى حالة الوظائف الكبرى مثل وظيفتى القائد والكاتب الملكى لكن الحال كانت مختلفة فى كل الوظائف الحكومية الصغرى فقد كان يشترط فيمن يتولى كل وظيفة من هذه الوظائف نصاب مالى معين وكلما خلت وظيفة فى احدى القرى أو عواصم المديريات كان على كاتب القرية أو كاتب العاصمة أن يرسل الى القائد قائمة بأسماء الأشخاص اللائقين لتولى الوظيفة الشاغرة ، أو بعبارة أخرى أسماء الأشخاص الذين تتوافر فيهم شروط تولى الوظيفة ولا يحق اعفاؤهم من توليها . وبعد أن يبحث القائد قائمة الأسماء كان يرسلها الى حاكم القسم (epistrategos) الذى تقع المديرية فى نطاقه ويختار الحاكم بالقرعة الشخص الذى يتولى الوظيفة الشاغرة . وكان على هذا الشخص أن يشغل المنصب الذى اختير له مدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام . ويرجح أن أولئك الموظفين كانوا يتقاضون أجرا الا انه لم يكن كافيا لمواجهة ما تتطلبه وظائفهم من نفقات . وفضلا عن ذلك فانهم كانوا مسئولين بأملاكهم بل بأشخاصهم عن كل

ما يحدث من تقصير أو عجز أو خسارة مالية للحكومة . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك القضاء على طبقة الفلاحين الموسرين .

ولكى نتبين لماذا ناء الموسرون بعبء مناصب حكام عواصم المديريات وأخذوا يتهربون من توليها كلما استحكمت حلقات الأزمة الاقتصادية يجب أن نذكر بعض هذه الأعباء . ففى حالة مدير الجيمنازيوم مثلا كان عليه أن يتحمل ثمن ما يحتاج اليه الجيمنازيوم من الزيت لتدليك الذين يمارسون الرياضة هناك وكذلك ثمن الوقود اللازم للاستحمام وقد كلف البند الأخير وحده أحد مديرى الجيمنازيوم فى خلال العام الذى تولى فيه منصبه ٢٠٠٠ دراخمة. وكان على مراقب التموين أن يتحمل نفقات صيانة طواحين الحبوب والمخابز فضلا عن أى عجز فى امداد عاصمته بحاجتها من الحبوب .

وتحدثنا احدي البرديات عن ان مراقبا سابقا للتموين ترك دينا قدره ٢٠٨٠ دراخمة « ثمنا للقمح » الذى اشتراه عندما كان يتولى منصبه . وفضلا عن ذلك كان ينتظر من حكام العواصم أو على الأقل كبارهم مواجهة أى نفقات تتطلبها احتياجات مدنهم حتى ولو لم تتصل مباشرة بمهام أعمالهم اذ نعرف مثلا ان كبار حكام ارسينوى كانوا يسهمون شهريا فى دفع نفقات المياه التى تحتاجها المدينة . ولا أدل على ثقل أعباء هذه المناصب مما تحدثنا به الوثائق عن المحاولات التى بذلها شخص يدعى اخيليوس (Achilleus) لكى لا يتولى فى عام ١٩٢ منصب مراقب التعليم فى هرموپوليس لأن حالته المالية كانت لا تساعده على مواجهة تكاليفها . ويبدو ان تكاليف هذا المنصب كانت باهظة جدا لأن اخيليوس طلب اعفاءه من تولى هذا المنصب مع استعداده لتولى منصب exagetes ، على ألا ينفق أكثر من ١٢٠٠٠ دراخمة على أعباء هذا المنصب لكن محاولات اخيليوس ذهبت أدراج الرياح و « توج » فى منصبه . وتدل الوثائق على ان أعباء وظيفة مدير الجيمنازيوم كانت أثقل من أعباء وظيفة مراقب التعليم فقد كانت تبلغ فى هرموپوليس بعد الاقتصاد الشديد فى النفقات ٢٤٠٠٠ دراخمة . فلا عجب ان ازدادت باطراد صعوبة الحصول على مرشحين لتولى هذه المناصب طواعية مما أفضى تبعا لذلك الى الالتجاء الى الارغام لشغل هذه المناصب وان كانت الحكومة قد حرصت باستمرار على الاحتفاظ بمظاهر التطوع للخدمة وعلى اسدال ستار كثيف حول مناوراتها لارغام ذوى اليسار على شغل هذه المناصب . واذا كانت أعباء المناصب الادارية الصغرى قد قضت على طبقة الفلاحين الموسرين فان أعباء مناصب حكام عواصم المديريات قد قضت كذلك

على طبقة الموسرين فى تلك العواصم . ولا أدل على ذلك من أن كثيرين منهم كانوا يؤثرون الفرار من مواطنهم لأنه وان كان فرارهم سيؤدى الى مصادرة أملاكهم فقد كان سيترتب على بقائهم وتولى مناصبهم تحمل متاعب هذه المناصب فضلا عن تكاليفها التى كانت ستستنفذ تلك الأملاك .

وقد امتد الارغام الى تأجير الأراضى كذلك لأنه بقدر ما ساءت حال الزراعة وناء الأهالى بثقل الأعباء المفروضة عليهم حتى فر الكثيرون منهم من قراهم ، ازدادت تبعا لذلك مساحة أراضى الدولة التى لم يتقدم أحد لاستئجارها وزراعتها . ومع ذلك استبقت الحكومة الضرائب والايجارات بالمعدل القديم ذاته وأخذت تلجأ الى وسيلتين ، واحداهما ارغام احدى القرى على زراعة الأراضى غير المستأجرة الموجودة فى قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضى ودفع ايجارها . اما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضى الدولة بالأراضى الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضى على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها . وفى هذه الحالة كانت المسئولية أول الأمر مسئولية فردية لكنها غدت مع الزمن مسئولية جماعية . وترينا الوثائق ان ايجار أراضى الأفراد هبط هبوطا كبيرا فى النصف الثانى من القرن الثانى . ولعل تفسير ذلك انه عندما توسعت الحكومة فى الالتجاء الى الارغام لتأجير أراضيها أصبح يتعذر على الأفراد الحصول على مستأجرين لأراضيهم فاضطروا الى انقاص ايجارها تبعا لنقص الاقبال على استئجارها .

وليس تاريخ مصر الاقتصادى فى خلال القرن الثالث من حكم الرومان (من كومودوس الى أول حكم دقلديانوس أى من ١٨٠ — ٢٨٤) سوى سلسلة متصلة الحلقات لاضمحلال مستمر يسير من سيىء الى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع فى تطبيق مبدأ الالزام فى مختلف النواحى ، مع اهمال نظام الرى فازداد حال الزراع سوءا وأصبح عملهم غير مثمر حتى ان كثيرين منهم لم يجدوا مناصا من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل أى الفرار من مواطنهم مفضلين اما العمل فى المدن أجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضى دون زرع . مما حدا بالامبراطور كركلا الى أن يصدر فى عام ٢١٥ . قرارا يقضى بطلب الزراع من الاسكندرية ليعودوا الى الأرض التى هجروها . واذا كان هذا القرار قد نجح فى تحقيق الهدف الذى أصدره من أجله فلا بد من أن يكون قد ترتب عليه ارتفاع أجور العمال وتكاليف الانتاج فى الاسكندرية . وعلى كل حال نستبعد أن يكون قد نجح طويلا فى وقف تيار الهجرة الى الاسكندرية،

فقد كان يساعد على هذه الهجرة عاملان رئيسيان وأحدهما حاجة المراكز الصناعية بوجه عام والاسكندرية بوجه خاص الى اليد العاملة ، والعامل الآخر شظف المعيشة وثقل الأعباء وسوء الحال فى المناطق الريفية حيث كان يزيد الحال سوءا على سوء ان الحكومة كانت لا تنقص قيمة الضرائب المطلوبة من مختلف نواحى البلاد حتى بعد فرار الأهالى . وكانت نتيجة ذلك أن أخذت قيمة الضرائب تزداد على من بقوا فى بلادهم بنسبة الذين كانوا يفرون منها وان أمعنت الحكومة فى الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة . ولعل أكبر العبء كان يقع على التاعسين الذين كانوا يرغمون على الاشراف على جباية الضرائب فى قراهم ، اذ أن الحكومة كانت تستولى على ممتلكاتهم حتى تسدد الضرائب جميعها ، وليس أبلغ فى الدلالة على تصوير سوء الحالة الاقتصادية فى خلال القرن الثالث من القرائن المتعددة على اقفار الريف من سكانه ، ومما تحدثنا به الوثائق عن فرار المكلفين بتولى المناصب الحكومية المحلية أو تهديدهم بالفرار وعن الصعوبة المتزايدة فى شغل المناصب البلدية الى حد ان السلطات فى ارسينوى عندما عجزت عن ايجاد المرشحين اللازمين من مواطنيها لشغل المناصب البلدية هناك لجأت الى اجبار القرويين على ذلك برغم القانون الذى كان سبتميوس سفروس قد أصدره لتحظير ذلك ، فرفض القرويون الاستجابة الى ما أمروا به ورفعوا شكواهم الى الحاكم العام فنظر القضية فى النصف الأول من عام ٢٥٠ . وعندما حاول محامى ارسينوى الدفاع عن تصرفها بقوله : ان القانون الذى يتذرع القرويون بحمايته قد صدر عندما كانت المدن لا تزال تنعم بالرخاء رد عليه الحاكم العام « ان حجة الرخاء ، أو على الأصح تدهوره ، قائمة بالنسبة للقرى والمدن سواء بسواء » ، مما يدل على أن الأزمة الاقتصادية كانت عامة شاملة . ولا أدل على تدهور مرافق البلاد الاقتصادية بوجه عام من تدهور قيمة العملة سريعا فى خلال هذا القرن ، فكانت لذلك أيضا آثار بعيدة المدى فى الصناعة والتجارة الخارجية فقد صحبه غلاء المعيشة واستبدال نظام الاقتصاد الطبيعى تدريجيا بالنقود . واذا كانت قد بذلت بعض المحاولات فى أواخر القرن الثالث على عهد الامبراطور پروبوس (٢٧٦ — ٢٨٢) لاصلاح وسائل الرى مما أدى الى انتعاش كثير من القرى فان هذا الانتعاش كان محدودا قصير الأمد ولم يفلح فى وقف تيار التدهور بدليل انه قد جاء فى خطاب رسمى من حوالى عام ٢٨٩ ان منصب « مراقب التموين » فى أوكسيرينخوس بقى شاغرا فترة طويلة قبيل ذلك التاريخ . فلا عجب اذن أن نضب معين البلاد بسبب السياسة الخرقاء التى اتبعها الرومان فى

خلال الثلاثة القرون الأولى من حكمهم مما حدا بالامبراطور دقلديانوس الى ادخال تعديلات جديدة على نظام الحكم فى مصر .

واستكمالا للصورة التى حاولنا اعطاءها لحالة مصر الاقتصادية فى خلال العصر الرومانى يجب أن نذكر شيئا عن العبيد . وتشير القرائن الى أن نشاط العبيد فى الزراعة كان قليلا نسبيا ويكاد أن يكون مقصورا على الضياع الكبيرة وحتى فى هذه الضياع لم يستخدم العبيد على نطاق واسع. وكيف يمكن تفسير ذلك فى ضوء ما تحدثنا به الوثائق عن فرار الأهالى من الأرض وترك مساحات واسعة غير منزرعة ؟ أو بمعنى آخر لماذا لم يلجأ الناس أو الحكومة الى العبيد لاستثمار الأرض التى هجرها المزارعون الأحرار ؟ لعل خير تفسير لذلك ان الناس كانوا يخشون اضافة تبعات جديدة الى تبعاتهم دون الحصول على ما يعوضهم عن ذلك ، وان الحكومة كانت تفضل الالتجاء الى سلاح الارغام لاستثمار تلك الأراضى فمن ناحية كانت هذه الوسيلة أقل كلفة وأكثر ربحا وأضمن عاقبة من استخدام العبيد ، ومن ناحية أخرى لعل الحكومة كان يراودها الأمل فى أن يؤدى اشفاق الهاربين من ازدياد التبعات على ذويهم الذين بقوا فى قراهم الى وقف فرار المزارعين .

ويبدو ان مساهمة العبيد فى النشاط الصناعى كان مقصورا على المدن الاغريقية وخاصة الاسكندرية ، لكن ليس معنى ذلك أن الصناعة فى تلك المدن لم تقم الا على أكتاف العبيد وانما معناه ان العبيد أسهموا مع الأحرار فى الصناعة هناك . اما فى المراكز الصناعية الأخرى فيبدو بوجه عام انه لم يوجد للعبيد مجال فيها بسبب وفرة اليد العاملة وقلة أجرها ودرايتها المتوارثة بفنون الصناعة . ويبين ان عددا كبيرا من العبيد كانوا يشتغلون خدما فى المنازل وكتبة ومحاسبين فى المصانع والمتاجر وراقصين وموسيقيين فى الفرق التى كانت تجوب البلاد للترفيه عن الناس فى الأعياد والحفلات العامة .

وكان العبد يعامل معاملة صاحبه من حيث الضرائب وأعمال السخرة فى تطهير القنوات وصيانة الجسور . ولا توجد لدينا أدلة كثيرة عن تجارة العبيد فى مصر وان كانت الوثائق تشير الى وجود تجارة نشيطة فيهم والى أن الحكومة كانت تشرف اشرافا دقيقا على تصديرهم وتفرض غرامات معينة على الذين يخالفون تعليماتها . وكانت قيمة العبد تتفاوت تفاوتا كبيرا تبعا لعمره وصفاته ومهارته وكذلك تبعا لنوعه ذكرا كان أم أنثى .

الفصل الخامس

النظـــــام المـــالى

أولا ــ الادارة المالية :

كان الحاكم العام يرأس الادارة المالية فى مصر مثل ما كان يرأس كافة فروع الادارة الأخــرى ولم يكن من اختصــاصه تحديد مقدار الجزية التى تدفعها مصر فقــد كان من اختصاص الامبراطور الذى كان يقــرر سنويا مقدار الدخل ويصدر أوامر مفصلة عن كيفية جمعه وكانت هــذه الأوامر توجه الى الحاكم العام فيبلغها الى قواد المديريات وسائر المختصين فى المدن والقرى ، ويسهر على تنفيذها . لكن لما كان الحاكم العــام مسئولا آخـــر الأمر عن جمــع الضرائب وموافاة روما بنصيبها وكانت تطــرأ عوامل فوق طاقة البشر تؤثر فى المحصول وتستتبع انقاص الضرائب فانه أوكل الى الحاكم ربط الضرائب فى كل منطقة وتعديلها تبعا لمقتضيات الأحوال على ضوء التقارير التى كانت ترفع اليه من المختصين . وكان للحاكم العــــام مساعدان رئيسيان فى الشئون المالية وهمــا الديويكيتس والايديولوجوس اللذان يبدو جليا أنهما ورثا لقبيهما من عصر البطالمة وان كان قد طرأ على اختصاصاتهما بعض التغيير الذى اقتضاه تغير الظروف . ففى عصر البطالمة كان الديويكيتس على رأس الادارة المالية وكان الايديولوجوس مرءوســـــه المختص بجانب معين من الشئون المالية . أما فى عهــد الرومان فقــد انتقلت سلطة الديويكيتس الى الحاكم العام وانحط مركزه الى المرتبة الثـــانية ويرجح أنه أصــبح مســــاويا للايديولوجوس فى مرتبته وان كان يتعــذر تحديد الصلة بينهما ومعرفة مدى اختصاص كل منهما لكن يبدو ان الديويكيتس كان الرئيس الفعــــلى للادارة الماليـــة وان الايديولوجوس كان يختص بالفصـــــل فى قضايا الخزانة العامة ، وبادارة الأراضى التى آلت الى الخزانة العامة وكذلك بالاشراف على أراضى المعابد ودخلها ، ولكى يتاح له الاضطلاع بهذه المهمة الأخيرة كان يحمــل لقب كبير كهنة مصر . وعلى كل حال ليس من الاسراف فى الرأى اعتبار الديويكيتس والايديولوجوس مستشارى الحاكم الفنيين فى الشئون المالية ولا يبعد أنهما كانا يرقبان تصرفاته مراعاة لصوالح الامبراطور . وكان هذان الموظفان يشرفان على عــدد كبير من المرءوسين الذين كانوا ينتشرون فى مختلف

أنحاء البلاد لكنهم يبقون على اتصال مباشر بالادارة المالية المركزية فى الاسكندرية ، واذا كان من الممكن تبين مهام بعض هؤلاء المرءوسين مثل پروكيراتور (procurator) نياپوليس وكان يشرف على نقل القمح من داخل البلاد الى المخزن العام على مقربة من الاسكندرية توطئة لشحنه الى روما ، ومثل البروكيراتور أو سياكوس (procurator usiacus) ، وكان المساعد الأول للايديولوجوس فى الاضطلاع بمهام منصبه ؛ فانه يتعذر معرفة اختصاص البعض الآخر من هؤلاء المرءوسين .

وقد سبقت الاشارة الى أن قائد كل مديرية كان مسئولا عن تقدير الضرائب وجمعها واستغلال أراضى الحكومة واحتكاراتها فى مديريته والى انه كان لكل مديرية نومارخيان كانا يشرفان على تقدير وجمع مختلف الضرائب فى المديرية . وكانت الادارة المالية المركزية فى الاسكندرية هى التى تقدر فئات الضرائب المختلفة التى تجبى من كل مكان وشخص فى مصر على ضوء البيانات التى يقدمها كاتب القرية والكاتب الملكى فى المديرية ويراجعها النورمارخيان والقائد بعد أن يمحصها عدد من عمال المالية المحليين مثل الـ epikretes والـ laographos وكانا يختصان ببحث حالة الأشخاص الذين تفرض عليهم ضريبة الرأس والـ geometres والـ horiodeiketes والـ episkeptes ، وكانوا يختصون بالبيانات المتعلقة بمساحة الأراضى وحدودها وانتقال ملكيتها أو تغيير غلتها من أجل تقدير الضرائب على الأراضى . وتحدثنا الوثائق عن اشتراك الموظفين الأخيرين فى لجان يبدو انها كانت تؤلف سنويا من السكان المحليين لبحث حالة الأراضى بعد الفيضان وتقدر الضريبة المستحقة عليها .

وقد ذكرنا آنفا انه بعد انشاء مجالس الشورى فى عواصم المديريات انتقل الى كل مجلس من هذه المجالس المسئولية عن الشئون المالية فى المديرية بأجمعها .

ثانيا ــ هدف النظام المالى :

وتختلف القواعد التى أقام عليها الرومان نظامهم المالى فى مصر اختلافا جوهريا عن القواعد التى اتبعها البطالمة وذلك لعدة أسباب أهمها أولا ان البطالمة كانوا يستهدفون بناء دولة قوية غنية فى مصر تكفى نفسها بنفسها وتستطيع الذود عن حياض استقلالها السياسى والاقتصادى فكانوا يريدون ملء خزائنهم لتحقيق أهداف سياستهم وسد تكاليف حكومتهم ونفقات قصورهم وتبعا لذلك كانوا ينفقون فى مصر أكثر ما يجمعونه منها . اما على عهد الرومان فان مصر غدت جزءا من امبراطورية تحكم من روما وكان الأباطرة يستهدفون تقوية مركزهم وتقوية الامبراطورية وملء خزائن

روما بعد أن نضب معينها من جراء الحروب الأهليــة وتدهور حالة ايطاليا الاقتصــادية بوجه عام والزراعة بصفة خاصة فعملوا على استغلال مصر الى أقصى حد ونقل جانب كبــير من ثروتهــا الى روما لتحقيــق تلك الأهداف . والسبب الثانى ان البطالمة كانوا يستمدون جانبا كبيرا من دخلهم من الحرف والصناعات الكثيرة التى احتكروها وكذلك مــن المكوس والعــوائد الجمركيــة التى فرضوها على الواردات . اما الرومان فكانوا يريدون ارضاء الطبقات الاجتماعية الجديدة فى ايطاليا من أصحاب رءوس الأموال الذين كانوا يستغلون ثروتهم فى الصناعة والتجارة ويتطلعون الى استغلال السوق المصرية . فلا عجب ان النظام المالى الذى وضعه الرومان لمصر لم يكن الا اداة لاعتصار ثروة البلاد بطريقة أو أخرى ، وانه لم يكن من شــأن التعديلات التى أدخلت على تطبيق هـــذا النظام الا جعله أشد فتكا وضراوة كلمـــا ازدادت البلاد فقرا .

ثالثا ــ نظام الأراضى :

ولكى نتبين موارد الدولة من الزراعــة يجب أن نأتى أولا على نظام الأراضى . ولا يقل نظام الأراضى فى عهد الرومان تعقيدا عنه فى عهــد البطالمة . وان كان قد احتفظ ببعض مظاهر النظام القديم فانه قضى على بعضها الآخر وأدخلت عليه مظاهر جديدة .

وكل ما يمكننا استنتاجه من أكداس الوثائق عن هذا النظــام يتلخص فى تقسيم الأراضى على النحو التالى فى ضوء معلوماتنا الحالية :

١ ــ أراضى الدولة ، وكانت تتألف من فئتين مــن الأراضى احداهمــا « الأراضى الملكية » التى كانت فيما سبق ملكا للبطالمة وأصبحت منذ الفتح الرومانى أرضا أميرية تملكها الدولة . وكانت الفئة الأخرى عبارة عن الأراضى التى انتزع الأباطرة ملكيتها من المعــابد ومن بعض أرباب الاقطــاعات العسكرية ومن بعض الرومان أصــدقاء انطونيوس . وقد كان يباع جانب من هذه الفئة من الأرض ويفرض عليه من الضرائب ما كان يفرضه على أراضى أرباب الاقطاعات وغيرها من أراضى الامتلاك الخاص لكنــه كان يحتفظ بالجانب الأكبر من هذه الفئــة من الأرض ويطلق عليـــه اسم « الأراضى العــامة » (ager publicus) . وكان الديويكيتس يشرف على ادارة « الأراضى الملكيــة » والايديولوجــوس على ادارة « الأراضى العامة » وكان هذان الموظفــان يؤجران هــذه الأراضى الى مستأجرين اما يقومون بأنفسهم على استغلالها أو يؤجرونها من الباطن . وترينا كثير من عقود الايجــار انها كانت لمدة خمس سنوات . وكان مزارعو « الأراضى الملكيــة » يدعون « المزارعين الملكيين » ومزارعو « الأراضى العــامة » يدعون « المزارعين العموميين » الا انه بمرور

الزمن زالت الفوارق بين الفريقين وأصبح اللقب الثانى يطلق على جميع مزارعى هذه الأراضى كافة . وقد كان يحق للدولة طرد المستأجر فى أى وقت تشاء ولأى سبب تراه. واذا لم يتقدم أحد لاستئجار بعض هذه الأراضى كانت الحكومة تلجأ الى وسيلة من اثنتين واحداهما ارغام احدى القرى على زراعة الأراضى غير المستأجرة الموجودة فى قرية مجاورة واعتبار القرية الأولى بأجمعها مسئولة عن زراعة تلك الأراضى ودفع ايجارها وضرائبها . أما الوسيلة الأخرى فكانت عبارة عن الحاق قطع من أراضى الدولة بالأراضى الخاصة وارغام أصحاب هذه الأراضى على زراعة تلك القطع وتأدية ايجارها وضرائبها .

٢ — أملاك الأباطرة الخاصة ، (oustiake gé) ، وكانت تتكون من الأراضى التى كان البطالمة قد أغدقوها على أصحاب الحظوة لديهم وانتزعها أباطرة القرن الأول منهم ، ويرجح انهم احتفظوا ببعضها ومنحوا البعض الآخر لنفر من كبار الرومان . وقد كان بعض من تمتعوا بهذه المنح أفراد من أسرة الامبراطور مثل دروسوس وزوجته ، وأصدقاء الامبراطور مثل ميكناس ، وأفراد من الأسرة المالكة فى چودايا ، وكذلك بعض أعيان الاسكندرية . وقد كانت هذه الأراضى الممنوحة فى أغلب الأحيان معفاة من الضرائب .

ومنذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى أخذ الأباطرة يستردون أغلب تلك المنح لأنهم رأوا ان فى منح نبلاء الرومان هبات واسعة ما يساعد على تقوية شوكتهم ويجعلهم فى مركز يهدد سلطان الامبراطور بل قد يصل بهم الى حد التطلع الى العرش ، كما رأوا بوجه عام ان منح الأراضى لأشخاص يقيمون بعيدا عنها يؤدى الى اهمال الأرض ونقص غلتها فلم يأت عهد تيتوس حتى كان أغلب هذه الأراضى — ان لم يكن كلها — قد عاد الى حوزة الامبراطور. وقد اتبع الأباطرة سياسة جديدة بمنح طائفة من المزارعين حق استغلال تلك الأراضى لمدد طويلة . وكانوا يرمون من وراء ذلك الى تحقيق غرضين : وأحدهما ، ايجاد طبقة من المزارعين الموسرين تسند اليهم المناصب ؛ والآخر ، الاطمئنان الى حسن استغلال الأراضى وما يتبع ذلك من ازدياد دخل الحكومة .

٣ — أراضى الامتلاك الخاص (iidotike ge' ouscai) وكانت تتكون من عدة فئات:

أ — الاقطاعات العسكرية التى لم تنتزع ملكيتها ولا يعرف بعد الأساس الذى اتبع فى نزع أو تثبيت ملكية أراضى أرباب الاقطاعات . وكل ما نعرفه هو ان جانبا من هذه الأراضى بقى فى قبضة أشخاص مختلفين كان امتلاك تلك الأراضى يعطيهم حق الاعفاء من الخدمة فى الجيش الرومانى ومن ضريبة

الرأس ومن الارغام على استغلال الأراضى الملكية أو العامة المجاورة لهم اذا لم يتقدم أحد لاستئجارها . وكان عليهم عند انتقال ملكية ما بيدهم من أراض ان يدفعوا ضريبة خاصة (katolochismos) ، وكان أرباب هذه الأراضى يؤدون الضرائب التى فرضت عليها منذ عهد البطالمة .

ب — الاقطاعات التى منحت لقدماء المحاربين الرومان .

جـ — الضياع التى كان الأباطرة فى بعض الأحيان يقتطعونها من أراضى الدولة ويمنحونها لبعض الأفراد مع احتفاظ الدولة بحق اسمى لملكيتها . ويصعب تحديد كيفية معاملة هذه الضياع من حيث الضرائب لكن يرجح أنها لم تدفع جميعا الضرائب بمعدل واحد وان هذا المعدل كان يتوقف على شروط المنحة فى كل حالة .

د — جانب من الأراضى التى انتزعت الدولة ملكيتها وباعتها .

ويبدو ان نطاق أراضى الامتلاك الخاص قد اتسع تدريجيا ولا سيما فى القرنين الثانى والثالث . ولعل توسع الحكومة فى الزام الأهالى بتولى المناصب قد شجع هذا الاتجاه اذ كان يتعين على الذين يتولون المناصب ان تكون لديهم أملاك خاصة اذا أريد تحميلهم تبعة عدم النهوض بالتزامات مناصبهم .

٤ — أراضى المعابد ، يرى بعض المؤرخين ان پترونيوس ، ثالث حكام مصر فى عهد اغسطس ، انتزع ملكية جميع أراضى المعابد وأصبحت جزءا من «الأراضى العامة» واذا كان لا شك فى ان ملكية جانب كبير من أراضى المعابد قد انتزع ، فان الأرجح أن أغلب ما انتزع ملكيته كان من الأراضى التى منحها البطالمة الأواخر للمعابد وكان الكهنة أنفسهم يقومون بادارتها ، أما الأراضى المقدسة القديمة فقد بقيت ملكا للمعابد الا أن الحكومة هى التى كانت تتولى ادارتها على نحو ما كانت عليه الحال فى الشطر الأول من عصر البطالمة ، لكنه سمح للكهنة بزراعة جزء من الأراضى المقدسة لسد حاجات المعابد ، وكانت الحكومة تجبى ضرائب محددة عن هذا النوع من الأرض فى حين ان ذلك الجزء من أراضى المعابد الذى انتزع ملكيته كان يؤجر مثل غيره من أراضى الدولة ولم تحصل الحكومة منه الا على الايجار .

٥ — أراضى الدخل prosodou ge ويمكن ارجاع نشأة هذه الفئة من الأراضى الى منتصف القرن الأول على الأقل لكن ماهيتها مازالت مثار الجدل بين الباحثين . ومع ذلك يبدو محتملا انها كانت أراضى آلت الى التاج ملكيتها أما مؤقتا أو دائما لسبب أو لآخر وكانت تؤجر مثل أراضى الدولة وانما لقاء ايجار مرتفع جدا .

٦ — أراضى المدن ، ويرجح أن هذه الأراضى كانت تتكون من الأراضى التى كان يملكها مواطنو تلك المدن وآلت الى مدنهم

بسبب انقراض نسل أصحابها أو تركهم اياها هبة لتلك المدن والقرى ، ففى القرن الثانى كانت مدينة الاسكندرية تملك أرضا قرب قرية يوهمريا فى الفيوم ، وفى القرن الثالث كانت كل من مدينتى ارسينوى وهرموپوليس ماجنا تملك أرضا . وكانت هذه المدن تؤجر أراضيها وتعتبر مسئولة عن الضرائب المستحقة عليها أمام حكومة المديرية التى توجد فيها الأراضى شأنها فى ذلك شأن الأفراد الذين يملكون أراضى ويؤجرونها .

وقد كان دخل الدولة من الأراضى يتألف من ايجار أراضيها ومن الضرائب التى كانت تفرضها على أنواع الأراضى الأخرى وبعض الضرائب التى كانت تفرضها على أراضيها . وكانت الضرائب التى تفرضها الدولة على الأراضى تتوقف على نوع المزروعات ومقدار جودة الأرض وحالة فيضان النيل . ولذلك كانت الأراضى تقسم قسمين رئيسيين واحدهما أراضى البساتين والآخر الأراضى الزراعية . وكان القسم الأخير ينقسم أيضا قسمين أحدهما الأراضى التى تغمرها المياه والآخر الأراضى التى لا تغمرها المياه . ولا جدال فى أن الأراضى التى تغمرها المياه كانت عبارة عن الأراضى التى تقع فى الحياض وتغطيها مياه الفيضان . اما القسم الآخر فأغلب الظن انه كان عبارة عن أراضى تقع فى الحياض ولكنها مرتفعة فلا تصلها المياه اذا كان منسوب الفيضان واطئا ، لكن بعض الباحثين يرى انه من الجائز أن هذه الأراضى أو بعضها كانت تقع خارج الحياض وتروى ريا دائما

ومن أجل ذلك كله كان كاتب القرية مكلفا باعداد سجل بكافة أنواع الأراضى التى فى زمام قريته وبموقع كل نوع منها ومساحته وأربابه ومقدار استحقاق الحكومة من ايجارات أو ضرائب عن كل قطعة أرض فى منطقته وكذلك باعداد تقرير سنوى عن محاصيل تلك الأراضى وعما كان يطرأ على حالها من تغيير . وكان السجل يراجع سنويا لجعله مطابقا للواقع . وتوجد أمثلة كثيرة لالتماسات قدمها أصحاب الأراضى أو مستأجروها يصفون فيها حالة أراضيهم ويطلبون تخفيض الايجار أو الضرائب بسببها . وفى الظروف غير العادية مثل تأخر الفيضان عن موعده أو هبوطه دون منسوبه العادى كان الحاكم العام يصدر تعليمات لتقديم مثل هذه الالتماسات وكانت توجه للقائد أو الكاتب الملكى أو كاتب القرية . وكان كاتب القرية أو شيوخها يقومون ببحث أولى يقدم على أثره كاتب القرية تقريرا عن حالة أراضى قريته والضرائب أو الايجارات المستحقة من كل جزء منها . وكان هذا التقرير يتخذ أساسا للفحص الذى تقوم به لجنة تشكل لهذا الغرض وتقدم لكاتب القرية تقريرا بنتائج عملها فيقوم بتعديل سجله وفقا لهذا التقرير ويبلغ النتيجة للقائد

والكاتب الملكى لتصحيح قوائم الضرائب والايجارات .

ويبين من القرائن المختلفة ان كاتب القرية كان يعتمد على جهوده الشخصية لجعل سجلاته مطابقة للواقع من حيث التغييرات فى ملكية الأراضى أو استئجارها أو مستأجريها .

وكانت أهم ضرائب الأراضى هى ضريبة الحبوب وكانت تجبى نوعا من كل ما يزرع حبوبا من أراضى الامتلاك الخاص وأراضى المدن والأراضى المقدسة التى كان الكهنة يقومون على استغلالها ، وكان دخل هذه الضريبة يكوّن جانبا من جزية القمح التى كانت مصر تدفعها لروما . وكان دخل الدولة من ايجار أراضيها يدفع أيضا نوعا ويكون الجزء الباقى من الجزية . وكان معدل هذه الضريبة يتراوح بين ثلاثة أرباع الأردب وأردبين عن كل أرورة تبعا لحالة الأرض والنوع الذى تنتمى اليه . وكان على الزراع أن ينقلوا كل محصولهم الى جرن القرية حيث يدرس تحت اشراف موظفى الحكومة وشيوخ القرية وبعد حصول الدولة على استحقاقها من ضرائب أو ايجارات كان يطلق سراح باقى المحصول لكن المزارعين كانوا مسئولين عن نقل استحقاقات الدولة الى المخزن المحلى للقمح تمهيدا لنقله الى الاسكندرية ولا تنتهى مسئوليتهم الا بعد حصولهم من أمين المخزن (Sitologos) على ايصال باستلام المستحق عليهم .

وكان نقل القمح يتطلب جمالا وحميرا لنقله من المزارع الى المخزن المحلى ثم من المخزن الى أقرب مجرى مائى حيث كانت تحمله سفن صغيرة الى النيل فتقوم بنقله سفن كبيرة الى الاسكندرية . وكانت الدولة تملك بعض دواب الحمل لكن يبدو انها لم تكف لسد الحاجة فى وقت المحصول ولذلك كانت السلطات المحلية تفرض على أصحاب الجمال والحمير والسفن الصغيرة أن تضع تحت تصرفها ما يكفيها من هذه الوسائل لنقل القمح الى النيل حيث كانت تتولى أمر شحنه ونقله منظمات الملاحين تحت اشراف الحكومة التى كانت تلزمهم بذلك ويبدو ان اليهود والاسكندريين كانوا يسهمون فى هذه العملية . ولكى تتبين ضخامة هذه العملية حسبنا أن نذكر انه فى عام ٤٢ نقل من أحد أقسام مديرية الفيوم ربع مليون أردب من القمح ، وانه فى عهد أغسطس كان مقدار الجزية النوعية التى تدفعها مصر سنويا يبلغ عشرين مليون (modii) ، أى ستة ملايين أردب . وفى كل ربيع كانت نقابات أرباب السفن فى الاسكندرية تتولى نقل هذه الجزية النوعية من الاسكندرية الى روما . وليس من اليسير أن تتبين على وجه الدقة من الذى كان يتحمل نفقات نقل الايجارات والضرائب النوعية من المزارع حتى تصل الى روما لكن يبدو أن مستأجرى

أراضى الدولة وأرباب الأراضى كانوا يتحملون نفقات النقل حتى النيل على حين كانت الحكومة تتحمل نفقات النقل من الموانى النيلية حتى المخزن الرئيسى عند الاسكندرية ومن هناك الى روما .

وكان الذين يفلحون أرضهم بساتين أو كروما أو تينا أو بلحا أو زيتونا يخضعون لسلسلة من الضرائب تدفع نقدا . وكانت احدى هذه الضرائب (geometria) تدفع فى الفيوم بمعدل ٥٠ دراخمة عن كل أرورة من أراضى الكروم و ٢٥ دراخمة عن كل أرورة من باقى أنواع أراضى البساتين . لكن هذا المعدل لم يكن واحدا فى كل مكان ولا على كل نوع من أنواع الأراضى التى تدفع هذه الضريبة . وكانت أراضى البساتين تدفع ضريبة أخرى (apomoira) لا نعرف شيئا عن معدلها فى مصر العليا لكننا نعرف انه كان فى الفيوم ٣٠٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة من أراضى الكروم و ١٥٠٠ دراخمة عن كل أرورة من باقى أنواع أراضى البساتين . وعندما كانت هذه الضريبة تجبى بالعملة الفضية كان هذان المبلغان يعادلان على التوالى عشر دراخمات وخمس دراخمات فضية . وكانت تجبى عن كافة أراضى البساتين سواء أكانت ملكا للدولة أم للأفراد ضريبة ثالثة (eparourion) بمعدل واحد قدره ٢٠٠٠ دراخمة برونزية (أى ٦ دراخمة فضية) عن كل أرورة من هذه الأراضى باستثناء الأراضى المغروسة بأشجار الزيتون فانها كانت تدفع ألف دراخمة عن كل أرورة .

وكانت تفرض على كافة أنواع الأراضى، ما عدا الأراضى المقدسة فيما يبدو ، ضريبة (naubion) كان مقدارها لا يحدد تبعا لنوع غلة الأرض وانما تبعا لنوع ملكيتها . وكان أرباب هذه الأراضى يؤدون هذه الضريبة لقاء اعفائهم من العمل شخصيا فى السخرة على الجسور والقنوات . وترينا الوثائق انه فى مديرية الفيوم كان أرباب الاقطاعات يدفعون ١٠٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة وباقى أرباب أراضى الامتلاك الخاص يدفعون ١٥٠ دراخمة برونزية عن كل أرورة لكن احدى وثائق أوكسيرينخوس من عام ١٠٧/١٠٨ ترينا ان معدل هذه الضريبة كان ٢٠٠ دراخمة عن كل أرورة . ويستوقف النظر ان مزارعى الأراضى الملكية كانوا يدفعون أيضا ١٥٠ دراخمة عن كل أرورة مما يوحى بأن هذه الفئة من المزارعين كانت تعفى من السخرة لقاء دفع هذه الضريبة التى لم تكتف بها الحكومة الرومانية من أجل انشاء وصيانة الجسور والقنوات . فقد كانت تفرض لهذا الغرض أيضا ضريبة (chomatika) بمعدل ثابت قدره ٦ دراخمات و ٤ أوبول على كل شخص غير معف من الضرائب .

وازاء الصلة الوثيقة بين الزراعة

والحيوان لعل هنا أنسب مكان للكلام عن موارد الحكومة من الحيوان فى العصر الرومانى . وقد مر بنا ان الدولة كانت تملك دوابا للحمل وليس فى الوثائق ما يدل على ان الحكومة كانت تؤجر هذه الدواب للأفراد . وكانت الدولة تملك أيضا عددا كبيرا من الأغنام والماعز تشير الأدلة الى أن الحكومة كانت تؤجرها لمستأجرى أراضيها لقاء أجر معين سنويا . وكذلك فى القرن الثالث عندما أخذت الضياع الكبيرة تمتص الملكيات الصغيرة وتلك الأجزاء من أراضى الدولة التى أصبح يتعذر استغلالها استغلالا مثمرا كان أصحاب هذه الضياع يؤجرون أغنامهم ومعيزهم لمستأجرى أراضيهم.ويتبين من الوثائق ان عامة الأهالى كذلك كانوا يملكون الكثير من الحيوانات المستأنسة وانه كان يتعين عليهم أن يقدموا سنويا للادارة المالية فى المديرية التى يعيشون فيها تقريرا عما يملكونه منها وان الحكومة كانت تجبى ضرائب على الأغنام والماعز والخنازير والجمال والعجول والحمير والخيول بمعدل معين فى كل مديرية عن كل رأس من كل نوع .

رابعا ــ الحرف والصناعات :

لما كان هدف البطالمة هو أن يستمدوا من الصناعات والحرف أكبر قدر ممكن من الدخل فانه لم يمل سياستهم فى تنظيمها الا تحقيق هذا الهدف . ومن أجل ذلك كانوا يتبعون ثلاث وسائل فقد كانوا اما يحتكرون بعض الصناعات والحرف احتكارا كاملا أو يبيعون لأحد الأفراد حق احتكار مزاولة صناعة أو حرفة ما فى منطقة بعينها ، أو يسمحون لمن يشاء مزاولة صناعة أو حرفة بذاتها ويفرضون عليهم أداء ضريبة عن مزاولة عملهم ودفع نسبة من أرباحهم . وفى الحالة الأخيرة كان لا يحدد عدد المشتغلين فى كل صناعة أو حرفة الا عاملان كان أحدهما مقدرة كل منطقة على استيعاب انتاج أرباب الحرف والصناعات هناك . وكان العامل الآخر نقابات أرباب الحرف والصناعات فقد درجت نقابة أرباب كل حرفة أو صناعة على تحديد عدد المشتغلين بهذه الحرفة أو الصناعة .

وما زال تنظيم الحرف والصناعات فى مصر أيام الرومان مثار جدل وخلاف بين العلماء بسبب قلة الأدلة وغموضها بحيث يتعذر الوصول الى نتائج قاطعة فى ضوء معلوماتنا الحالية . واذا كان يمكن القول بوجه عام بأنه فى العصر الرومانى اتبعت الحكومة فى تنظيم واستغلال الحرف والصناعات الوسائل ذاتها التى كانت متبعة من قبل فى عصر البطالمة فلا جدال فى أنه قد طرأت بعض التغييرات على تلك الوسائل ، ولا فى أن الحكومة نزلت عن عدد كبير من احتكاراتها الكاملة فى عصر البطالمة ، فقد أورد هايشلهايم قائمتين بالاحتكارات الكاملة

فى هذين العصرين ويتبين من هاتين القائمتين ان عدد هذه الاحتكارات كان تسعة عشر فى عصر البطالمة وأحد عشر فى العصر الرومانى . وعلى كل حال فان قلة الأدلة عن نظم الاحتكارات فى العصر الرومانى يوحى بتناقص أهميتها فى هذا العصر .

وليس فى الأدلة ما يثير الشك فى أن الحكومة الرومانية اقتفت أثر البطالمة فى احتكار استغلال المناجم والمحاجر واستخراج الملح والصودا (nitron) والشبه (alun)[٤]، ولدينا أدلة محدودة على أن الرومان كانوا كالبطالمة يفرضون ضريبة على المستهلكين لقاء حق شراء الملح . ويبدو انه حينما كانت تجبى ضريبة لقاء استهلاك سلعة من السلع كانت الحكومة تحتكر صنع هذه السلعة أو استخراجها فى تلك المنطقة . ويبدو أن صناعة الجعة فى عصر البطالمة اتخذت بالتدريج شكل نظام يقوم على بيع حق انتاجها للأفراد أو المعابد وفرض ضريبة على المستهلكين ، وان هذا النظام ظل قائما فى العصر الرومانى وان كانت الدولة لم تعد تمد صناع الجعة بما كانوا يحتاجون اليه من الشعير على نحو ما كانت تفعل فى عصر البطالمة .

وتوحى الأدلة بأنه فى العصر الرومانى لم تعد الحكومة تحتكر صناعة الزيت احتكارا كاملا على نحو ما كانت تفعل فى عصر البطالمة ، فكل ما لدينا من الأدلة يشير الى أن معاصر الزيت كانت ملكا للأفراد أو المعابد والى أن المنتجين بوجه عام كانوا يقومون بدور تجار التجزئة . ويرى بعض الباحثين ان سيطرة الحكومة على هذه الصناعة فى الفيوم كانت لا تتعدى الزام المنتج الذى يريد بيع زيته أن يحصل على ترخيص بذلك من النومارخ . والواقع اننا نعرف ان صاحب معصرة زيت فى قرية هرقليا بالفيوم دفع لقاء حق البيع فى عام واحد ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول الى جانب بعض الرسوم الاضافية . لكن الوثائق ترينا أيضا انه كانت تجبى أكثر من ضريبة واحدة على صناعة الزيت فى الفيوم وغيرها من أنحاء البلاد . واذا كنا نعرف ان احدى هذه الضرائب كانت تجبى عن الأدوات المستخدمة فى استخراج الزيت فانه يتعذر معرفة ماهية البعض الآخر . ولا يبعد ان الحكومة كانت تبيح الاشتغال بصناعة الزيت لمن يشاء على أن يدفع على الأقل ضريبتين كانت احداهما ضريبة مزاولة هذه الصناعة وكانت الأخرى ضريبة على الانتاج وتقدر على أساس الأدوات المستخدمة فى ذلك ، هذا الى جانب ضريبة عن الترخيص ببيع الانتاج .

وتشير الأدلة الى أنه فى بداية العصر الرومانى كانت بعض مستنقعات الدلتا فى حوزة الأفراد والى أنه فى الفيوم كانت بعض المستنقعات على الأقل تكوّن جزءا من ضيعة الامبراطورة يوليا أغسطا وورثة جرمانيكوس ويتبين من الوثائق ان الامبراطورة كانت

تبيع منتجات هذه المستنقعات عن طريق ملتزم كان يشترى منها حق بيع هذه المنتجات وكان هذا الملتزم يبيع حقه لآخرين ، وان هـذا النظـام ظل متبعا بعـد أن آلت ضيعة الامبراطورة الى التاج . ويتبين من الوثائق أيضا ان الحكومة كانت تجبى ضريبة على الورق فى الفيوم وفى الاسكندرية . ولا يبعد أنه مثل ما كانت عليه الحال فى الشطر الثانى من عصر البطالمة كانت توجـد فى العصر الرومانى مصانع حكومية وكذلك مصانع أهلية للورق وان هذه المصانع الأخيرة كانت تبتاع من الحكومة حق مزاولتها هذه الصناعة .

وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار فى مصر لكن أمـر تنظيمها يكتنفه غموض شديد وان كنا نعرف انه فى الوجه القبـلى كان المشرف عـلى الأنوال (histonarch) يعطى للناسـجين تراخيص باقامة أنوالهم ومزاولة عملهم ، وان شخصا يدعى هرون قدم طلبا الى « اسـيون والتسعة المشرفين الآخرين » عـلى تأجير احتـكار الدباغة للحصول على حق الاشراف لمدة عام واحـد على الأنوال فى قرية ارخلايس (Archelais) بالفيوم لقاء أجر قدره ٣٠٠ دراخمة فضية تدفع على أقساط شهرية متساوية الى جانب بعض الرسوم الاضافية . ونعرف كذلك ان الناسجين سواء فى الفيوم أم فى مصر العليا كانوا يدفعون على أقساط شـهرية ضريبة يميل أغلب المؤرخين الى اعتبـارها ضريبة ترخيص لمزاولة المهنة لكنهم لا يتفقون عـلى الأساس الذى كانت هـذه الضريبة تربط بمقتضاه ولا على تفسير ما يبدو فى الوثائق من تفاوت فى قيمة هذه الضريبة من مديرية الى أخرى . ولما كانت أقمشة الفيوم تلعب دورا هاما فى الصادرات الى البلاد الشرقية على حين انه لم يرد ذكر أقمشة الوجه القبلى فى التجارة الخارجية فان أحـد الباحثين لا يستبعد أن الانتاج من أجل التصدير فقط كان يخضع لرقابة المشرف على الأنوال وقد كنا نقبل هذا الرأى لو أن المشرف عـلى الأنوال لم يوجد الا فى الفيوم وحدها لكننا وجدناه فى الوجه القبلى كما مر بنا ذكره . ومن ناحية أخرى تتبين من وثائق لم يعثر عليها فى الفيوم فحسب بل أيضا فى أوكسيرينخوس وهرموپوليس ان الحكومة كانت تفرض على المشتغلين بالنسيج فى كل منطقة امدادها بقدر معين مما تحتاج اليه من ملابس لرجال الجيش والشرطة وغيرهم لقاء أجر معين ، مما يوحى بأن هـذه التبعة لم يتحملها الناسجون فى مديرية بعينها فقط وانما فى كل أنحـاء البلاد . واذا كان ما لدينا من أدلة لا يدع مجالا للشك فى اشراف الحكومة على صناعة النسـيج واسـتغلالها اسـتغلالا كبيرا فان غموض الأدلة لا يدع مجالا لتبين أمـر تنظيمها الذى يبدو انه كان أكثر تعقيدا من صناعة الدباغة التى كانت تتصل بها اتصالا وثيقا ويبدو ان الحكومة كانت تبيع لشخص

واحد أو أكثر حق الاشتغال بها فى منطقة بعينها . ويلوح ان ذلك كان الحال أيضا فى صناعات الآجر والحلى الذهبية والعطور والمساحيق . فالوثائق تحدثنا عن تعهد شخص بأن يدفع للحكومة ثمانين دراخمة فضية الى جانب بعض الرسوم الاضافية نظير حق صنع وبيع الآجر لمدة سنة فى كركثويريس (kerkethoeisr) بالفيوم مع السماح له باعطاء هذا الحق لآخرين ، وعن رجلين كانا يدفعان للحكومة ٢٦٤ دراخمة فضية سنويا نظير صناعة الحلى الذهبية فى يوهيميريا (Euhemeria) بالفيوم لمدة أربع سنوات ؛ وعن رجل يدعى كاستور كان قد اشترى من الحكومة نصف الحصة فى حق بيع العطور وصنع المساحيق فى اقليم ثميستس بالفيوم فتقدم اليه رجل يدعى سارابيون ليشترى منه ربع هذا الحق باستثناء حق البيع فى أيام السوق والأعياد .

وكانت الحمامات العامة فى الوجه البحرى ملكا للأهالى أو البلديات أما فى الوجه القبلى فكانت تملكها الحكومة أو تسيطر عليها المعابد . وفى الوجه البحرى كان أصحاب الحمامات يدفعون للحكومة ضريبة قدرها ثلث الأرباح أو ثلث الدخل أما فى الوجه القبلى فكان الأهالى يدفعون ضريبة ثابتة لمواجهة نفقات الحمامات العامة وصيانتها .

والأدلة الخاصة بصيد الأسماك مقصورة على منطقة الفيوم ويتبين منها أن الحكومة كانت تبيع حق مزاولة الصيد فى كل منطقة وكذلك كان الذين يشتغلون بالملاحة فى النيل يبتاعون من الحكومة حق مزاولة عملهم فى منطقة معينة .

ولا يتسع المقام هنا لتناول مختلف الصناعات والحرف ويبدو أن كل ما يمكن استخلاصه من الأدلة هو أنه اذا كانت الحكومة الرومانية قد نزلت عن كثير من الاحتكارات التى كانت قائمة فى عهد البطالمة فانها قد احتفظت ببعض هذه الاحتكارات وظلت على كل حال قابضة على ناصية مزاولة الحرف والصناعات المختلفة الى حد انه كان لا يتيسر لأحد مزاولة أى حرفة أو صناعة الا بترخيص من الحكومة اما لقاء نسبة من الأرباح أو الدخل أو لقاء أجر ثابت ، وفى بعض الحالات لقاء الاثنين معا . وكانت الحكومة اما تعطى الترخيص مباشرة للذين يزاولون بأنفسهم أى حرفة أو صناعة أو تؤجر حق مزاولة صناعة أو حرفة ما أى بعبارة أخرى حق احتكار تلك الصناعة أو الحرفة فى مدينة أو قرية لشخص واحد أو جماعة من الأشخاص لقاء ما كانت تحصل عليه لو أنها منحت التراخيص لأفراد مختلفين فى ذلك المكان . وكان هؤلاء المستأجرون اما يباشرون بأنفسهم حق مزاولة الحرفة أو الصناعة أو يؤجرون ذلك الحق من الباطن . وجملة القول ان كل من كان يزاول أى حرفة أو صناعة كان يدفع عنها للحكومة

ضريبة واحدة أو أكثر وحتى الذين كانوا يتعلمون الحرف والصناعات كانوا يدفعون هذه الضريبة بمجرد بلوغهم سن الرشد . وكان كل الذين يزاولون صناعة أو حرفة من الصناعات والحرف الرئيسية يؤلفون نقابة سواء أكانوا رجالا أم نساء وكانت النساء تؤدى الضرائب المفروضة على أعضاء النقابة أسوة بالرجال .

خامسا ـ التجارة

(أ) التجارة الخارجية :

تشير الدلائل الى أن الاسكندرية غدت فى العصر الرومانى أهم مركز تجارى فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ولما كان الرومان قد ألغوا المكوس الجمركية عندهم وكانوا يريدون تشجيع التجارة بين مصر والامبراطورية الرومانية بوجه عام وروما بوجه خاص فلا يبعد أن يكونوا على الأقل خففوا المكوس الجمركية الفادحة التى كان البطالمة يفرضونها على الواردات الأجنبية من بلاد البحر الأبيض المتوسط . ويحدثنا استرابون بأن السفن كانت تبحر من مصر الى روما مكتظة بالبضائع وتعود اليها خالية الوفاض أو بشحنات قليلة . واذا كنا لا نشك فى صحة رواية استرابون عن الوقت الذى كتب فيه أى فى بداية العصر الرومانى فانه ازاء قلة الأدلة يتعذر علينا أن نقرر على وجه اليقين اذا كانت الحال قد استمرت على هذا المنوال بعد ذلك ولم تزدد الواردات من الغرب ، لكننا نميل الى الاعتقاد ان الحال استمرت طوال العصر الرومانى على ما كانت عليه أيام استرابون . وذلك لأن مصر بفضل غنى مواردها الطبيعية لم تفتقر الا الى الأخشاب الجيدة والمعادن وتبعا لذلك اقتصرت وارداتها من الغرب بوجه عام على هذه المواد فضلا عن بعض أدوات الترف . أما صادرات مصر الى بلاد البحر الأبيض المتوسط فانها كانت تشمل الى جانب السلع الشرقية مقادير مختلفة من منتجاتها الصناعية مثل الورق والزجاج والمنسوجات والعقاقير ، ومن منتجاتها الزراعية مثل الزهور والبلح فضلا عن الحمام والمواشى من أجل تقديم القرابين وكذلك التماسيح وعجول البحر وغيرها من الحيوانات المائية من أجل الاستعراضات . ويحتمل أن مصر كانت تصدر كذلك جانبا من حبوبها علاوة على الجزية السنوية التى كانت روما تقتضيها منها .

ويجب ألا يفوتنا أن الجزية النوعية والمالية كانت تلقى على موارد البلاد عبئا ثقيلا كان لابد من أن يؤدى سريعا الى نضوب معين البلاد لو لم يعوض الى حد بعدة وسائل كان فى مقدمتها زيادة الصادرات على الواردات والمكوس الجمركية وأرباح تجار الاسكندرية من التجارة الشرقية ونفقات السياح الذين كانوا يفدون بكثرة لمشاهدة معالم البلاد والاستمتاع بطقسها وكذلك نفقات الطلاب

الذين كانوا يأتون لتلقى العلم فى الاسكندرية ، فضلا عن نفقات جيش الاحتلال والأداة الحكومية واقامة المنشآت العامة . وبفضل قلة تكاليف المعيشة وبالتالى قلة تكاليف الانتاج استطاعت منتجات مصر الصناعية والزراعية أن تنافس منتجات عالم البحر الأبيض المتوسط . واذا تركنا الجزية جانبا يبدو أن الميزان التجارى كان فى صالح مصر .

ويروى استرابون أيضا ان الاسكندرية كانت تحتكر التجارة مع الهند وبلاد الصومال . ومن المرجح أن جانبا كبيرا من التجارة بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية كان يمر بمصر . ويحدثنا پلينيوس بأن التجارة مع الصين والهند وبلاد العرب كانت تستنزف سنويا من الامبراطورية الرومانية قدرا غير قليل من ذهبها وفضتها ، ومن الجائز ان المبلغ الذى ذكره پلينيوس لا يمثل ثمن كل الواردات الشرقية لأنه وفقا لهذا الكاتب نفسه كانت مصر تصدر منسوجاتها الكتانية لقاء وارداتها الشرقية . ويتبين من مصادر أخرى ان مقادير الصادرات الى الشرق كانت كبيرة .ويحدثنا استرابون بأنه كانت تجبى مكوس جمركية على السلع الواردة الى مصر من الشرق والصادرة اليه وبأن أثمن الشحنات القادمة من الهند والحبشة وأغلى السلع ثمنا كانت تدفع أكثر المكوس الجمركية ارتفاعا مما يوحى بأن فئات المكوس الجمركية كانت تتفاوت تبعا لقيمة السلع المستوردة . لكن من الجائز أن يكون هذا النظام قد تغير بعد عهد أغسطس الذى كتب فيه استرابون فأحد مصادرنا القديمة الذى يرجع قطعا الى تاريخ متأخر عن منتصف القرن الأول الميلادى يحدثنا بأن الحامية الرومانية فى ليوكى كومى (Leuke Kome) كانت تجبى على الواردات مكوسا جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ من قيمتها . وقد أثير جدل كبير حول هذه المكوس التى كانت تجبى فى ليوكى كومى لكنه لم يثر من الاعتراضات الجدية ما يدعو الى التشكك فى جباية هذه المكوس المرتفعة هناك . ومع أنه لا توجد أدلة مباشرة عن المكوس الجمركية التى كانت تجبى فى الموانى المصرية الواقعة على شاطىء البحر الأحمر ، الا أنه فى ضوء الرسوم الجمركية التى فرضها الرومان فى ليوكى كومى لا يبعد أن يكون الرومان قد استبدلوا بالنظام البطلمى الذى كان يفرض مكوسا جمركية متفاوتة على السلع المختلفة وكان لا يزال قائما فيما يبدو أيام استرابون » نظاما قوامه فرض مكوس جمركية ثابتة قدرها ٢٥٪ على مختلف السلع الشرقية الواردة الى الموانى المصرية . وعلى كل حال لا جدال فى أن الرومان كانوا يجبون فى الموانى المصرية مكوسا جمركية على التجارة الشرقية ، فالوثائق تحدثنا بأنه فى عهد الامبراطور كلاوديوس كان حق التزام هذه

المكوس يباع لجماعات من الملتزمين الرومان . واذا كان من العسير معرفة قيمة هذه المكوس الجمركية فانه من الجائز ان المكوس الجمركية على الواردات الشرقية كانت أعلى منها على الصادرات الى الشرق تشجيعا لهذه الصادرات لكى ينقص تبعا لذلك العجز فى الميزان التجارى بين الامبراطورية الرومانية والبلاد الشرقية . ويحدثنا پلينيوس بأن السلع الشرقية كانت لا تصل الى روما الا بعد أن يتضاعف ثمنها مائة مرة مما يوحى بارتفاع المكوس الجمركية فى مصر — طريقها الرئيسى الى روما — وضخامة أرباح تجار الاسكندرية الذين كانوا يقومون بدور رئيسى فى هذه التجارة .

ومن العسير أن نتبين فى ضوء معلوماتنا الحالية النظام الذى كان متبعا فى صادرات مصر ووارداتها فى العصر الرومانى أو الى أى مدى كانت الحكومة تشرف على تجارة مصر الخارجية لكن من المرجح ان كل من كان يشتغل فى هذه التجارة كان يدفع للحكومة ضريبة أو أجرا لقاء الترخيص له بذلك أسوة بما كان متبعا فى التجارة الداخلية .

(ب) التجارة الداخلية :

ويتبين من الوثائق انه كان يتعين على كل من يبيع أى سلعة أن يحصل من الحكومة على ترخيص بذلك وأن يدفع للحكومة مبلغا معينا كل شهر أو كل سنة . ومن العسير أن نتبين أساس تقدير هذا المبلغ لأنه كان يتفاوت فى المكان الواحد تبعا لنوع السلعة كما كان يتفاوت كذلك من مكان الى آخر عن السلعة الواحدة . ومثل ذلك انه كان يتعين على كل من يبيع الزيت فى أرسينوى أن يدفع للحكومة ثمانى دراخمات شهريا على حين نرى انه فى أوكسيرينخوس كان السيرابيوم لا يدفع الا ست دراخمات فى العام لقاء حق بيع الزيت . وقد سلفت الاشارة الى الرجل الذى تعهد بدفع ٨٠ دراخمة فضية و ٨٠ أوبول فى العام لقاء حق بيع الزيت بالتجزئة فى قرية هرقليا بالفيوم . وهكذا نرى انه اذا كانت الحكومة أحيانا تسمح لمن يشاء الاتجار فى الزيت بأن يفعل ذلك ما دام يدفع لها ضريبة الترخيص بذلك كانت أحيانا أخرى تسمح لشخص واحد باحتكار البيع فى منطقة معينة . وكانت الحكومة تمنح حق بيع الملح فى كل منطقة لمن يتقدم لها بأكبر عطاء لقاء الحصول على هذا الحق .

وكان بائعو الخضروات فى معبد قرية سوكنوپايونيسوس (Soknopaiou Nesus) بالفيوم يدفعون ١٢ دراخمة على حين يبدو ان بائعى الخضروات فى قرية تبتونيس بالفيوم أيضا كانوا يدفعون ثمانى دراخمات وثمانية أوبولات . ونلاحظ أن تجار المساحيق فى ارسينوى كانوا يدفعون الضريبة أحيانا بمعدل ٣٦ دراخمة شهريا وأحيانا أخرى بمعدل ٦٠ دراخمة بل انه فى الشهر الذى

كانوا يدفعون فيه ٣٦ دراخمة كان شخص آخر يدفع ثمانى دراخمات فقط على حين كان المعدل فى أوكسيرينخوس ٤٠ دراخمة . ونجد انه بينما كان بائعو الجعة يدفعون ١٦ دراخمة شهريا كان أحد أولئك البائعين يدفع ثمانى دراخمات فقط . وفى بعض الحالات كان ترخيص الحكومة بانتاج سلعة ما يشمل أيضا بيعها مثل الآجر والحلى الذهبية على نحو ما رأينا عند الكلام عن الصناعات والحرف .

ويتبين من المصادر القديمة أنه كان يوجد مركز عند سخديا لجباية العوائد على التجارة المتبادلة بين الاسكندرية وداخلية البلاد ، ومركز فى منف لجباية العوائد على التجارة بين مصر الوسطى والدلتا ، ومركز فى هرموپوليس لجباية العوائد على التجارة بين مصر العليا ومصر الوسطى . ومعنى ذلك أن الرومان كانوا يجبون عوائد على التجارة المتبادلة بين الثلاثة الأقسام الرئيسية التى كانت البلاد تنقسم اليها وكذلك بين هذه الأقسام والاسكندرية باعتبارها وحدة منفصلة عن هذه الأقسام .

ويتبين أيضا من مصادرنا أنه كانت تجبى كذلك عوائد عن تبادل السلع بين مديرية وأخرى . والى جانب ذلك كانت تحصل رسوم اضافية فى بعض أنحاء البلاد لتحقيق أغراض مختلفة ، ففى الفيوم مثلا كانت تجبى رسوم لحراسة الطرق الصحراوية وفى منف وأسوان كانت تجبى رسوم لصيانة الميناء . أما فى قفط فانه كانت تحصل رسوم على جوازات السفر من هذه المدينة وموانى البحر الأحمر . وكانت هذه رسوم تتفاوت تبعا لحالة كل مسافر ، فقد كان قائد الدفة يدفع ١٠ دراخمات والبحار العادى ٥ دراخمات وبنّاء السفن ٥ دراخمات والصانع ٨ دراخمات والعاهرة ١٠٨ دراخمة وزوجة الجندى ٢٠ دراخمة الخ .. فقد كان يتعين الحصول على ترخيص لمغادرة البلاد وتفرض غرامات على الذين لا يحترمون هذه القاعدة .

سادسا ــ ضرائب شتى

والى جانب ما ذكرناه من الضرائب على الأراضى والحرف والصناعات والتجارة كانت الحكومة تجبى كذلك سلسلة من الضرائب المختلفة اذ يبدو أن الرومان لم يتركوا بابا دون أن يطرقوه لزيادة دخل الحكومة . ويمكن أن نوجز بعض هذه الضرائب فيما يلى :

١ — ضريبة الرأس (laographia) وكانت أهم الضرائب التى تدفع نقدا ولعلها لم تكن ضريبة استحدثها أغسطس وانما ترجع الى عصر البطالمة عندما كانت تعرف باسم آخر (Syntaxis) . ومن الجائز أن يكون أغسطس قد زاد معدلها وفرضها على أشخاص كانوا معفين منها حتى عهده ، فأول وثيقة ورد فيها ذكر أداء هذه الضريبة فى العصر الرومانى ترجع الى عام ٢٢/٢١ ق . م . وقد كانت هذه الضريبة لا تدفع بمعدل واحد حتى فى

المديرية الواحدة ولا فى المدينة الواحدة فقد اختلف هذا المعدل من حى الى آخر فى مدينة طيبة . وفى الفيوم كان المصريون يدفعون ٤٠ دراخمة أما أفراد الفئات الممتازة من مواطنى عواصم المديرية وسلالة أرباب الاقطاعات فكانوا يدفعون ٢٠ دراخمة . على حين يبدو أنه فى مديرية أوكسيرينخوس كان المصريون يدفعون ١٦ دراخمة والفئات الممتازة ١٢ دراخمة ، وانه فى مديريتى منف وهرموپوليس كانت هذه الفئات تدفع ٨ دراخمات . وهكذا يتبين أولا ، ان هذه الضريبة لم تفرض بمعدل واحد فى كل أنحاء البلاد سواء على المصريين أم على الفئات الممتازة . وثانيا ، ان هذه الفئات لم تدفع دائما نصف ما كان المصريون يدفعونه . وثالثا ، انه فى بعض المديريات كانت الفئات الممتازة تدفع أكثر مما يدفعه المصريون . أما المواطنون الرومان وعدد معين من كهنة كل معبد ومواطنو الاسكندرية وفيما يبدو أيضا مواطنو المدن الاغريقية الأخرى فانهم كانوا يعفون من تلك الضريبة التى كان لا يدفعها الا الذكور الذين كان عمرهم يتراوح بين الرابعة عشرة وسن الاعفاء . ويرجح أن هذه السن كانت فى ارسينوى الستين لكن يبدو أنها زيدت الى الخامسة والستين ثم السبعين فيما يلوح . ويبدو أنه كان يعفى أيضا من ضريبة الرأس أساتذة جامعة الاسكندرية والرياضيون والفائزون فى مباريات الحفلات الدينية وكذلك بعض موظفى الادارة المحلية مثل الكاتب الملكى وكاتب الاقليم وكاتب القرية .

٢ — ضريبة التاج ، وتشير القرائن الى زوال هذه الضريبة بعد منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان البلاد فى عهد كركلا . وترجع هذه الضريبة الى عهد البطالمة وتستمد نشأتها من تقديم هدية للملك نوعا أو نقدا بمناسبة ارتقائه العرش أو بمناسبة أخرى . ويحتمل أنه فى أوائل عهد الرومان كانت هذه الضريبة لا تجبى الا فى مناسبات خاصة لكننا نتبين من الوثائق أنه منذ أواخر القرن الثانى أصبحت هذه الضريبة تجبى سنويا بانتظام حتى النصف الثانى من القرن الثالث عندما أصبحت تجبى كل خمس سنوات . وقد شهدت هذه الضريبة تطورا آخر وهو أنها على مر الزمن أصبحت تجبى من جميع أرباب الأراضى بدلا من جبايتها من فريق معين منهم . وقد وعد الامبراطور سفروس اسكندر بوقف جباية هذه الضريبة لكن يبدو أنه لم يلبث أن عدل عن ذلك لأن الوثائق ترينا أنها جبيت على الأقل مرتين فى عهده بعد صدور هذا الوعد .

٣ — ضريبة خاصة لاقامة تماثيل للاباطرة ، فمن حين لآخر كانت تجبى أيضا ضريبة لاقامة تماثيل للامبراطور الحاكم فى مختلف المدن . وتتبين من سلسلة من الوثائق عثر عليها فى أسوان أن هذه الضريبة جبيت

هناك فى عامى ١٠٤ و ١١٤ لاقامة تمثالين لتراجان ، وفى عام ١٢٨ لاقامة تمثال فيما يبدو لهادريان وفى ١٤١ لاقامة تمثال لانطونينوس پيوس ، وفى عام ١٦٢ لاقامة تمثال لكل من أوريليوس وڤيروس وذلك عدا جبايتها فى الأعوام ١٣١ و ١٣٩ و ١٤٤ لطلاء بعض تماثيل الأباطرة بالذهب . وقد كان مقدار هذه الضريبة قليلا اذ أن أكثرها ارتفاعا كان أربع دراخمات فى عام ١٤١ وعشر دراخمات فى عام ١٦٢ لكن مهما كان مقدارها قليلا فلا شك فى أن تكرار جبايتها كان يلقى عبئا ثقيلا على كاهل الأهالى الذى أبهظته كثرة الضرائب . وتشير القرائن الى أنه كانت تجبى ضريبة مماثلة من أجل اقامة معابد للأباطرة .

٤ — وكان الرومان يفرضون ضريبة قدرها ٢٪ على كل ما يباع فى الأسواق وكذلك ضريبة على بيع الممتلكات الثابتة يبدو أن مقدارها طوال القرنين الأول والثانى كان ١٠٪ من ثمن الشراء ثم زيدت فى القرن الثالث . وكان الرومان يفرضون على الرهونات ضريبة قدرها ٢٪ . أما ضريبة ٥٪ التى كانت تجبى عن تحرير الأرقاء والتركات فانها كان لا يدفعها الا المواطنون الرومان ولم تتأثر بها مصر الا عندما منح كركلا حقوق المواطنة الرومانية لكل السكان فى مصر مع باقى سكان الامبراطورية .

٥ — مؤنة الجنود الرومان ، ان معلوماتنا طفيفة عن الوسائل التى اتبعها الرومان فى مصر حتى أواخر القرن الثانى من أجل توفير المؤونة اللازمة للحامية الرومانية لكن القرائن توحى بأن الحاكم العام كان يحدد سنويا كمية الحبوب التى يحتاج اليها كل معسكر ويفرض على بعض الزراع فى كل مديرية تقديم تلك الكمية بسعر منخفض يحدده الحاكم العام . ولا بد من أن يكون الأهالى قد ضجوا بالشكوى من هذا النظام لأننا نجد أنه فى عام ١٨٥ قد استبدلت به ضريبة صغيرة (annona militaris) على أرباب الأراضى التى تزرع حبوبا . وكان الأهالى يكلفون أيضا بايواء الجنود الذين كانوا ينزلون بينهم فى أثناء انتقالهم من مكان الى آخر . ويبدو أن الجنود كانوا يسيئون استغلال هذا الحق فقد وصل الينا عدد من الأوامر التى اضطر الحكام الى اصدارها لتحذير الجنود من اقتضاء أموال أو خدمات من الأهالى دون الحصول على اذن خاص بذلك ولبيان أن حقهم كان مقصورا على ايوائهم فقط .

وكان يفرض على الأهالى أيضا توفير الحاجيات اللازمة للحاكم العام وصحبه عند طوافهم بأنحاء البلاد ، وكذلك للامبراطور وحاشيته عند زيارته مصر وتنقله فى أرجائها . وقد كان ذلك عبئا ليس هينا اذ تحدثنا احدى الوثائق بأنه بمناسبة زيارة الحاكم العام لهرموپوليس أدرجت أسماء ٥٢ شخصا لاعداد الاحتياجات اللازمة وكانت تتضمن خبزا ولحما وسمكا ودواجن وبقالة ووقودا

فضلا عن علف دواب الحاشية والحمير اللازمة للانتقالات المحلية . واذا كان ذلك الشأن فى حالة زيارة الحاكم العام فانه يمكننا أن نتصور ما كان الأهالى يكلفون بتقديمه فى حالة زيارة الامبراطور .

٦ — ويمكن اعتبار تسخير الأهالى للعمل فى تطهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة يبدو أنه لم يعف من أدائها الا الموظفون والاسكندريون والفئات التى كانت تدفع نقدا ضريبة السخرة (naubion) . وكان نظام السخرة يختلف من مكان الى آخر اذ بينما كان يفرض على الفلاح فى طيبة أن يشتغل فى تطهير أو صيانة مساحة معينة تسمى naubion كان يطلب منه فى الفيوم أن يشتغل عددا معينا من الأيام كان عادة خمسة أيام كل عام فى الفترة الواقعة بين بداية يونية ومنتصف أغسطس .

وكانت هناك ضرائب محلية للخفر أو الشرطة ومواجهة نفقات المنشآت العامة مثل الحمامات والأسواق والمعابد وغير ذلك . هذا الى أنه من حين لآخر كانت تجبى ضرائب اضافية لسد العجز فى حصيلة بعض الضرائب التى كانت تجبى بانتظام . وفضلا عن ذلك كانت تفرض ضرائب على فئات معينة من سكان البلاد لا تدفعها فئات أخرى مثل ضريبة اليهود وضريبة أرباب الاقطاعات وضريبة الشرطة .

ومما يجدر بالملاحظة أنه فى بداية العصر الرومانى كان معدل الضرائب معتدلا لكن على مر الزمن زيد معدل الضرائب وعددها . ولما لم يكن فى وسع موارد مصر ولا نفقات روما على شئون الادارة والمنشآت العامة سد كل العجز الناجم عن الجزية النوعية والنقدية التى كانت روما تستولى عليها فقد استتبع ذلك حتما خراب البلاد الاقتصادى .

سابعا — نظام جباية الضرائب

يتسم نظام الرومان الضريبى فى مصر بظاهرتين واحداهما انه باستثناء بعض الضرائب لم يفرض على كل أنحاء البلاد دفع الضرائب ذاتها ولا بمعيار واحد فكانت أنواع الضرائب وكذلك معاييرها تختلف من مديرية الى أخرى .

والظاهرة الأخرى أنه لم يتبع نظام واحد فى جباية الضرائب . فقد اتبع الرومان جباية الضرائب بطريق الالتزام حتى عصر تيبريوس عندما نسمع للمرة الأولى عن جباة موظفين (praktores) الا أن هذا النظام الجديد لم يقض على سابقه بأكمله فقد ظلت بعض الضرائب مثل العوائد والمكوس الجمركية وضريبة ٢ ٪ على المبيعات تجبى حتى أواخر القرن الثانى وفقا للنظام القديم .

وحتى نهاية القرن الثانى كان كاتب كل قرية يعد كشفا بأسماء أهلها الذين لديهم نصاب معين ويختار القائد من بينهم جباة كانوا يؤدون عملهم لمدة ثلاث سنوات بعد أن يوافق حاكم القسم (epistrategos) على اختيارهم. وكان أولئك الجباة يعتبرون مسئولين عن أى عجز فى حصيلة الضرائب المقررة على منطقة

كل منهـــم ولذلك كانوا يوغلون فى جمـــع الضرائب تفاديا لحدوث هذا العجز . ويحدثنا فيلون بأن قرى بأكملهـــا هجـــرت بسبب ما أنزله جباة الضرائب من ارهاق بأهلها .

وكان هؤلاء الجباة لا يتولون أمر ضريبة الحبوب اذ أنه حتى نهاية القرن الثانى كان أمناء المخازن (sitologoi) هم الذين يتسلمون هذه الحبوب ، على حين يبدو أن مهمة جباة الحبوب (praktores sitikon) كانت مقصورة على جمـــع متـــأخرات هـــــذه الضريبـــة . أما فى القرن الثالث فان الموظفين الذين كانوا يدعون (dekaprotoi) هم الذين كانوا مسئولين عن جمع هذه الضريبة ويتعذر علينا أن نتبين علاقتهم بأمناء المخـــازن وجباة الحبـــوب . وللتفرقة بين جباة الحبوب والجبـــاة الذين كانوا يجبون الضرائب النقـــدية أطلق على الفريق الأخير منذ عهد تراجان اسم جبـــاة المـــال (praktores argyrikon).

الفصل السادس

النظام القضائي

لقد مر بنا أن البطالمة احتفظوا للمصريين، بقدر ما تسمح الظروف ، بقوانينهم التقليدية التى أطلق الاغريق عليها اسم « قوانين البلاد » . وتشير القرائن الى أن الرومان قد أبقوا على هذه القوانين بوجه عام ، اذ أنهم عدلوا بعضها مثل ما عدل البطالمة أيضا بعضا آخر .

وقد عرفنا كذلك أن اغريق كل مدينة اغريقية وجمعية قومية كانوا يخضعون لمجموعة معينة من القوانين تعرف « بقوانين المواطنين » وانه من أجل التنسيق بين هذه المجموعات من القوانين وكذلك من أجل تنظيم معاملات الاغريق الذين لم ينتموا الى تلك المدن والجمعيات كان البطالمة يصدرون أوامر ملكية مختلفة الأنواع . وقد أبقى الرومان على بعض هذه الأوامر الملكية كما أبقوا على قوانين الاسكندرية وبطوليميس وكذلك على قوانين نقراطيس التى طبقوها فى انطينوؤپوليس ، لكنهم أدخلوا بعض التعديلات على القوانين المعمول بها .

وسبق القول بأنه تنظيما للفصل فى القضايا التى تنشب بين طرفين أحدهما مصرى والآخر اغريقى أصدر بطليموس الثامن يورجتيس الثانى فى عام ١١٨ ق . م . قرارا يقضى بأن لغة العقد موضوع الخلاف هى التى يجب أن يتقرر بموجبها نوع القانون الذى يطبق للفصل فى هذا الخلاف . ولسنا نعرف الى أى حد طبقت هذه القاعدة فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن قاعدة مماثلة كانت تطبق على الأقل فى قضايا الزواج وذلك أنه فى حالة عقد زواج مصرى بين طرفين أحدهما مصرى والآخر اغريقى كانت أحكام القانون المصرى هى التى تطبق أما فى حالة عقود الزواج الاغريقى فان أحكام القانون الاغريقى هى التى كانت تطبق .

وبطبيعة الحال ازاء ظهور عنصر جديد من السكان فى العصر الرومانى وهو عنصر المواطنين الرومان دخل القانون الرومانى مصر لتطبيقه على أولئك المواطنين وصدرت بعض القوانين لتنظيم العلاقات القانونية بين المواطنين الرومان وسكان مصر الذين كانوا أكثرهم فى نظر الرومان أجانب (peregrini) ، وكذلك لبيان الاختصاصات القانونية التى أعطيت للحاكم العام واعادة تنظيم الهيئات

القضـائية التى كان من حقها الفصـل فى القضايا .

ومما يجدر بالملاحظة أن القوانين المحلية قد تأثرت بالقـانون الرومـانى عن طـريق تشريعات الأباطرة وقرارات الحكام وأحكام المحاكم .

أولا ـ القانون المدنى :

١ ـ الأحوال الشخصية :

ولما كان الرومان مثل الاغريق يعتبرون المـرأة قاصرا ومن ثم فى حاجـة الى وصى شرعى عليها فى كل تصرفاتها فان المرأة المصرية لم تسترد فى العصر الرومانى مكانتها القديمة بل بقيت على حالها منذ ساوى البطالمة بينها وبين المرأة الاغريقية . ولا سبيل الى الشك فى أن المصريين كانوا يعـرفون فى العصر الرومـانى « الزواج الكامل » و « زواج المتعة أو التجربة » وهما نوعا الزواج اللذان سـبق الكلام عنهما فى سياق الحـديث عن الزواج عند المصريين فى عصر البطالمة .

وكما كانت عليه الحال فى عصر البطالمة كان اغريق الاسـكندرية وبطـوليميس فى العصر الرومانى يحررون عقدين أحـدهما مدنى والآخر دينى ، وكان باقى الاغـريق يعرفون نوعين من العقود وهما « عقـود الاتفاق » و « عقود المعاشرة » وكانا نوعين من التوثيق لنوع واحد من الزواج . لكن كثيرا ما كان يكتفى بتحرير « عقد الاتفاق » وحده دون تحرير « عقد المعاشرة أيضا » .

وكان يثبت قيام الزوجية عنـد الرومان المعاشرة الزوجية وعقـد الزواج الذى كان يسجل فى سجلات خاصـة تعرف بسجلات الزواج .

ووفقا لأحكام القانون عنـد المصريين والاغريق والرومان سواء بسواء كان لكل من الطرفين حق الطلاق . وكان الطلاق يتم بمجرد انفصال الطرفين وتحرير وثيقـة من صورتين يثبت فيها أنه لم يعد لأحد الطرفين حقوق قبل الطرف الآخر وبذلك كان يحق لكل منهما أن يعقد زواجا جديدا .

واذا كان مسموحا قبل العصر الرومانى اتخاذ أكثر من زوجة واحـدة فانه لم يعـد عندئذ مسموحا بذلك لأى عنصر من عناصر السكان فى مصر ، لكنه كان مسموحا لغير الرومان بتزاوج الاخوة من أخواتهم الى أن اختفت هذه العادة الذميمة بعد القرن الثالث الميلادى .

وتشـير القـرائن الى أن الزواج بين الاغريق والمصريين كان غير معـترف به فى الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس بدليل أن هادريان أصدر قانونا لاباحته فى انطينوؤ پوليس وان لوائح الايديولوجـوس كانت تعتبر الزواج بين « المواطنـين » (astoi) والمصريين زواجا غير متكافىء . وتدل كثرة الزيجات المختلطة فى الريف على أن القانون لم يحظرها هناك .

وأكثر حالات الزواج بين الرومان كانت بين طـرفين رومانيـين وتعتبر مشروعـة (iusta matrimonia) ومـع ذلك كثـيرا ما تزوج مواطنـون رومان من أجانب لكن هـذه الزيجات كانت تعتبر غـير مشروعة (iniusta matrimonia) وكان الأبنـاء ثمـرة هذه الزيجـات يعتبرون أجـانب ويحملون أسماء أجنبية .

ويفرق القانون عند المصريين والاغريق والرومان تفريقا واضحا بين الأحرار والعبيد.

وكان العبيد فى العصر الرومانى ثلاث فئات وهى عبيد الامبراطور وعبيد الأفراد وعبيد المعابد الذين خلفهم فيما بعد عبيد الكنيسة .

وقد كان من حق المصريين والاغريق والرومان عمل وصيات . وكانت وصايا الرومان تحرر باللاتينية ثم تترجم الى الاغريقية الى أن أصدر اسكندر سفروس قراره بتحرير وصايا الرومان باللغة الاغريقية على نحو ما كان يفعل المصريون والاغريق . وكانت وصايا الجنود الرومان وقدماء المحاربين تخضع لقواعد عسكرية خاصة . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون المصرى يرتب الورثة طبقات تأتى فى مقدمتها طبقة الأولاد ، وكان يحق للابن الأكبر أن يأخذ نصيبا يعادل ضعف نصيب أخيه الأصغر الذى كانت أخته تتساوى معه فى مقدار النصيب . وكان من حق الأحفاد الحصول على نصيب أبيهم اذا توفى قبل جدهم . وفى حالة عدم وجود وصية كان القانون الاغريقى يعطى الأبناء الأسبقية فى وراثة آبائهم ، وكانت أنصبة الأبناء متساوية ويحق للبنات المشاركة فى الارث اذا لم يكن قد أخذن مهورهن . وفى حالة زواج مواطنة من أجنبى كان قانون الاسكندرية لا يسمح لأبناء هذا الزواج بأن يرثوا أمهم . وفى حالة عدم وجود أبناء وأحفاد كان حق الارث يؤول الى الزوج أو الزوجة ثم يأتى بعد ذلك فى المرتبة والد المتوفى . وكذلك أعطى القانون الرومانى للأبناء الأسبقية وأنصبة متساوية فى وراثة آبائهم .

٢ - الأحوال العينية :

وكان المصريون والاغريق والرومان يتعاملون اما بمقتضى عقود مكتوبة أو اتفاقات شفوية . وفى حالة انكار دين عقد بمقتضى اتفاق شفوى كانت تتبع القاعدة المعروفة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وقد مر بنا أنه من أجل ضمان حقوق الدائنين كان القانون فى عصر البطالمة يعترف بوسائل أخرى قديمة العهد غير تسجيل العقود والنص فيها على شروط جزائية . وقد بقيت هذه الوسائل جميعا معمولا بها فى العصر الرومانى بل ان ما لم يكن مألوفا منها بين الرومان مثل « البيع الوفائى » وما كانت اللوائح تحظر على المواطنين الرومان أتباعه مثل تسليم عقود ملكية العين المرهونة الى الدائن شاع استخدامه بين الرومان أنفسهم .

واذا كان البطالمة جعلوا سعر الفائدة ٢٪ شهريا أو ٢٤٪ سنويا فان الرومان جعلوا هذا السعر ١٪ شهريا أو ١٢٪ سنويا . وفى حالة عدم الوفاء بالدين فى الوقت المحدد كان يفرض على المدين غرامة ينص عليها فى العقد كانت عادة نصف قيمة الدين الأصلى .

وكان القانون عند المصريين والاغريق والرومان يعترف بتأليف شركات تجارية أو

صناعية أو غير ذلك لمباشرة أعمال عامة ، وخاصة . وكان يحدد علاقة الشركاء بعضهم ببعض عقد كتابى يثبت فيه حقوق كل شريك وواجباته . وقد حدد هذا القانون حقوق الطرفين اللذين يتعاقدان على استئجار أرض أو مبان أو عبيد أو ماشية أو سفن أو عمال ، وأباح لمستأجر الأرض أن يؤجرها من الباطن الا اذا نص فى عقد الايجار الأصلى على خلاف ذلك .

وقد استمر المصريون فى العصر الرومانى يحررون عقدى المال والتنازل لكل صفقة من صفقات البيع . أما الأغريق فكانوا يكتفون عادة بعقد واحد يتضمن النص على استلام البائع ثمن العين المبيعة وتنازله عن كل حق له عليها . وكانت العقود لا تضمن للمشترين حقوق ملكيتهم كاملة الا اذا حررها الموظفون المختصون وأثبت انتقال الملكية فى السجلات الخاصة بذلك وأديت الضريبة المقررة .

ثانيا ـ القانون الجنائى :

وكان القانون الجنائى فى العصر الرومانى يفرق بين ثلاثة أنواع من الجرائم وهى :

١ — الجرائم التى ترتكب ضد شخص الأفراد أو ممتلكاتهم . وكانت هذه الجرائم تشمل القتل والاعتداء على الغير بالقول أو الفعل أو الاشارة أو التهديد بالاعتداء ، واستخدام القوة لتحقيق مأرب معين ، والسرقة ، والحاق الضرر بممتلكات الغير والغش والتدليس . وكانت اقامة الدعوى فى كل هذه الجرائم من شأن المعتدى عليه وأسرته . أما فى حالات معينة مثل قتل الموظفين فان الدولة هى التى كانت تقيم الدعوى .

٢ — الجرائم التى ترتكب ضد الخزانة العامة وكانت تشمل التزوير فى الحسابات واختلاس الأموال العامة والسرقة من ممتلكات الدولة أو ضياع الأباطرة . ولم يعد محظورا فى العصر الرومانى استخدام المحامين فى القضايا التى يختصم فيها الأفراد مع الخزانة العامة .

٣ — الجرائم التى ترتكب ضد الدولة وكانت تشمل جرائم الخيانة العظمى واساءة استخدام الحقوق العامة والجرائم الدينية التى كانت معروفة فى عصر البطالمة ، وكذلك حيازة الأسلحة دون ترخيص بذلك واعتداءات العصابات المسلحة التى كانت تهيم على وجهها فى أنحاء البلاد .

ثالثا ـ الهيئات القضائية :

ان معلوماتنا عن النظام القضائى فى مصر فى عهد الرومان طفيفة جدا حتى أننا كثيرا ما نجابه مشاكل متعلقة به دون أن نستطيع ابداء رأى فيها ، لكننا نعرف على كل حال أن الحاكم العام كان على رأس هذا النظام وصاحب الكلمة العليا فى كل أنحاء البلاد فى القضايا المدنية والجنائية (iurisdictio وكذلك imperium mixtum) فكان

يتمتع بحـق مصادرة الأمـلاك والحكـم بالأشغال الشاقة فى المناجم والمحاجر وكذلك الحكم بالاعدام ، ولم يكن هناك سبيل الى الاستئناف من أحكامه سوىأمامالامبراطور.

وكان المجلس القضائى للحاكم العـام يتكون منه بوصفه رئيسا ومن مساعدين له نعرف أنهـم كانوا يختـارون فى الولايات الأخرى من جنسية المتخاصمين لكن ليس فى استطاعة أحد أن يجزم بشيء فيما يتعلق بمصر وان كنا نعرف أن المساعد الأول للحاكم العام فى الشـئون القضـائية فى مصر كان الديكايودوتس Dikaiodotes . ولسنا نعرف اذا كان لهذا الموظف اختصـاص قضـائى مستقل أو اذا كان يستمد سلطته القضائية من الحاكم العام لكن بما أنه لم يشترط فى اختيار الحكام معرفة القانون وكانوا تبعـا لذلك فى حاجة الى خبراء فنيين يعاونونهم فى أداء مهمتهـم القضـائية فاننـا نرجـح أن الديكايودوتس كان المستشـار القـانونى للحـاكم العـام ويقوم بدور Legati iuridici فى الولايات الرومانية الأخرى . وتتحـدث الوثائق أيضا عن موظف قضائى آخر كان له شأن كبير فى الشـئون القضـائية فى عصر البطالمة وهو الارخيديكاستس .

وكان الحاكم العام يعقد مجلسه القضائى فى الاسكندرية فى شـهرى يونية ويوليـة للفصل فى قضايا مديريات غرب الدلتا ، وفى پلوزيون فى شهر يناير للفصـل فى قضـايا مديريات شرق الدلتا ، وفى منف فى شهرى مارس وابريل للفصل فى قضايا باقى المديريات الا أنه كان أحيانا يرى داعيا لعقد مجلسه القضائى فى أماكن أخرى سواء فى الدلتا أم فى مصر الوسطى أم فى مصر العليا .

ولم يستأثر الحاكم العـام بالفصـل فى القضايا اذ يرى بعض الباحثين ان محـاكم القضاة الاغـريق (chrematistai) التى كانت موجـودة فى عصر البطالمة ظلت قائمـة وان الحاكم العام كان يعهد اليها فى الفصـل فى قضايا المستندات ، وان الأرخيـديكاستس أيضا كان يقوم بمثل هذه المهمة اما بمفرده أو بالاشتراك مع محكمة القضاة الاغريق ، وأن الايديولوجوس كان يفصل فى قضايا الخزانة العامة .

وكان رؤساء الأقسام الادارية الرئيسية (epistrategoi) ينوبون عن الحاكم العام فى الفصل فى القضايا فضـلا عن انهـم كانوا يقومون بالتحكيم فى المنازعات . وكان حكام المديريات (strategoi) أيضـا يفصـلون فى القضايا ، واذا كانوا على مر الأيام فقـدوا هـذا الاختصاص فانهم اسـتمروا يؤدون ما كانوا يقومون به منذ عصر البطـالمة من التحكيم فى المنازعات ، وتقـديم القضـايا والمتهمين للمحكمة بعد الفشل فى محـاولة فض النزاع وديا والقيام بتحقيق مبدئى فى القضايا ، والقاء القبض على مخالفى القانون.

وكثيرا ما كان الفلاحون يلجـأون الى شيوخهم ورجال الشرطة لفض منازعاتهم بدلا من اتخاذ الاجراءات القضائية المعتادة .

الفصل السابع

الحيـاة الاجتماعيـــة

أولا ـ عدد السكان وحالهم :

فى عهد نيرون كان عدد سكان مصر عدا الاسكندرية يبلغ سبعة ملايين ونصف مليون نسمة وليست لدينا أى معلومات عن عـــدد سكان الاسكندرية فى العصر الرومانى وان كنا نعرف أن الاسكندرية غدت فى هـــذا العصر أكبر مركز تجـارى فى شرق البحـــر الأبيض المتوسط وأكبر مركز صناعى فى مصر وثانى مدن الامبراطورية الرومانية ولذلك يحتمل أن عدد سكانها لم يقل كثيرا عن عدد ســكان روما . ويبـــدو انه ازاء نشـــاط الاسكندرية الصناعى وثرائها ومباهج الحياة فيها وشظف الحياة وبؤسها فى الريف المصرى أخذ كثيرون من أهل الريف يهاجرون اليها منذ القرن الثانى مما حدا بالامبراطور كركلا الى اصدار قرار فى عام ٢١٥ بابعاد القرويين عن الاســـكندرية . لكن لابد من أن هـــذه المدينة قد عانت كثيرا من المذابح وأعمـــال التدمير التى حلت بها من جـــراء العداء بين الاسكندريين واليهـــود وغضب كركلا على المدينة وثورتها ضد اورليانوس . ويبـــدو أيضا انه ازاء نشاط الاسكندرية التجارى كان ينزل فيها عدد كبير من الأجانب الذين كانوا يعيشون فيها بصفة دائمة تقريبا .

وبينما كان أهل الاسكندرية يعيشون عيشة راضية هانئة لفرط نشاطهم الصناعى والتجارى مع قلة الأعباء الملقاة عليهم كانت حال أهل باقى البلاد ولا سيما المزارعين تسير من سيىء الى أسوأ بسبب تزايد التزاماتهم باطراد فترينا وثائق القـــرن الثـــانى ازديادا مستمرا فى عـــدد الذين كانوا يهـــربون من قراهم ، وعددا غير قليل من الأوامر التى كان الحكام يصدرونها لحث المزارعين على العودة الى مواطنهم ، وأمثلة كثيرة على الالتجاء الى سلاح الارغام لزراعة الأراضى المهجورة وملء المناصب المحلية والبلدية . وتدل القرائن على أنه فى القرن الثالث هجرت قرى بأكملهـــا تقريبا فى الفيوم ، وتفاقمت صعوبة شـــغل المناصب المحلية والبلدية ، وازداد عدد الذين كانوا يهربون من مواطنهم ويتكسبون قوتهم من أعمال الســـطو والنهب . ولا أدل على هبوط مستوى المعيشة وفقر الأهـــالى فى القـــرى من أن البيان الذى قـــدمه لموظفى التعداد رجل يملك عشر منزل يرينا أنه كان

يسكن فى هذا الحيز الصغير ستة وعشرون شخصا . ولا شك فى أن هذا المنزل لم يكن بناء ضخما وانما مثل غيره من عشرات المنازل القروية التى كشفت الحفريات عنها فى قرية كرانيس (كوم أوشيم) وهى مبنية من اللبن وتتألف من عدد من الغرف الصغيرة على النحو المألوف .

ثانيا ـ طبقات السكان :

درج الرومان منذ عهد أغسطس على تقسيم سكان مصر طبقات متباينة فى المرتبة على النحو التالى :

١ — الرومان وكانوا الطبقة العليا فى البلاد وقليلى العدد اذ كانوا يتألفون من كبار الحكام وبعض رجال الأعمال وكذلك من قدماء المحاربين الذين منحوا حقوق المواطنة الرومانية عند تسريحهم ورغبوا فى الاستقرار فى مصر . وقبل ادماجهم فى هذه الطبقة كان يتعين فحص (epikrisis) حالة كل منهم لكى يتمتعوا هم وأولادهم بالحقوق والامتيازات التى كان أفراد هذه الطبقة يتمتعون بها ، وكانت هذه الحقوق والامتيازات تشبه ما كان المقدونيون يتمتعون به فى عهد البطالمة ، ولم يكونوا خاضعين لسلطة القواد فى المديريات التى كانوا يعيشون فيها وانما لسلطة حكام الأقسام (epistrategoi) والحاكم العام لمصر . ومما يجدر بالملاحظة أن غالبية « المواطنين الرومان » الذين تتحدث الوثائق عنهم فى القرن الثالث كانوا من الاغريق والشرقيين والمصريين الذين اكتسبوا حقوق المواطنة الرومانية .

٢ ـ الاغريق :

(أ) وضعهم وفئاتهم :

كان الاغريق يتألفون من فريقين رئيسيين يعيش أحدهما فى المدن الاغريقية ويعيش الآخر فى المدن والقرى المصرية . وكان كل من هذين الفريقين يتألف من فئتين رئيسيتين، فالفريق الأول كان يتألف من فئة مواطنى المدن الاغريقية وفئة عامة الاغريق فى هذه المدن . وكان الفريق الثانى يتألف من فئة عامة الاغريق وكانوا يعيشون كيفما اتفق دون الاندماج فى جماعات منظمة . أما الفئة الثانية فكانت أوفر حظا من الثراء والثقافة وحيثما كان يعيش عدد كاف من أفراد هذه الفئة كانوا منذ عصر البطالمة يكوّنون جاليات منظمة تنظيما دقيقا عملوا على أن يوفروا فيها من أسباب الحياة ما يعيضهم عن الحياة فى المدن الاغريقية . ولما كان الجيمنازيوم من أبرز مظاهر الحياة الاغريقية لأنه كان بمثابة المنتدى فضلا عن كونه مركزا للتربية البدنية والعقلية ، فانه حيثما أنشأ الاغريق مدينة . أو جالية أنشأوا كذلك جيمنازيوم . وكان هذا المركز الاجتماعى والثقافى والرياضى يتصل اتصالا وثيقا بمنظمة

تدريب الشباب ، وكان التحاق الفتى الاغريقى بهذه المنظمة فى الرابعة عشرة من عمره شرطا أساسيا لادراج اسمه فى قائمة مواطنى المدينة أو الجالية وللسماح له بدخول الجيمنازيوم .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجاليات الاغريقية كانت لا تتألف أصلا الا من الاغريق لكن القرائن تشير الى أنه فى أواخر عصر البطالمة كان من الممكن أن يندمج فيها عدد من الأغراب ممن توافرت فيهم شروط معينة لعل الثقافة الاغريقية كانت فى مقدمتها. ونعتقد أنه للتمييز بين الفريقين كان الاغريق من أعضاء الجالية يدعون «أهل الجيمنازيوم» (hoi apo gymnasiou) وغيرهم من أعضائها المتأغرقين يدعون « الشركاء فى عضوية الجالية » (sympoliteuomenoi) ولما كان أعضاء الجاليات الاغريقية قد أصبحوا فى العهد الرومانى يؤلفون طبقة تتمتع بامتيازات معينة وكان التسجيل فى أى طبقة من الطبقات الممتازة يقتضى فحص حالة الراغبين فى ذلك واثبات انتماء الأبوين الى تلك الطبقة فانه يبين من ذلك أنه لم يعد ميسورا اندماج غرباء متأغرقين فى عداد الجاليات الاغريقية .

ويبدو أنه من أجل المحافظة على الحضارة الاغريقية فى المديريات ، وتوفير لون من الحياة يوائم الاغريق ويماثل ما كانوا يستمتعون به فى المدن الاغريقية فى مصر وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى وسوريا ، وكذلك من أجل رفع مستوى عواصم المديريات ، عمل الرومان على لم شعث الجاليات الاغريقية وتركيزها فى عواصم المديريات . ولضمان تحقيق ذلك ألغوا ما كان يوجد من الجيمنازيا فى القرى وأضفوا صفة رسمية على جيمنازيا عواصم المديريات وأنشأوا فى تلك العواصم حمامات عامة وأضاءوا شوارعها ليلا . واعتبر الرومان أعضاء الجاليات الاغريقية — سواء أكانوا يعيشون من الأصل فى تلك العواصم أم انتقلوا للمعيشة فيها — مواطنى تلك العواصم ، كما اعتبروا « أهل الجيمنازيوم » أرفع أولئك المواطنين قدرا فكانت المناصب البلدية لا تسند الا اليهم . ومما يجدر بالملاحظة : أولا — أن مواطنى عاصمة أى مديرية لم يشملوا كل سكان تلك العاصمة وحتى وان كانوا من الاغريق . وثانيا — أن أولئك المواطنين كانوا يطالبون الرومان باعفائهم اعفاء كاملا من دفع ضريبة الرأس على أساس أنهم من سلالة أرباب الاقطاعات. ولتفسير هذا المطلب يجب أن نذكر شيئين : وأحدهما أن أغلب أعضاء الجاليات أن لم يكن كلهم كانوا أصلا من رجال الجيش وتبعا لذلك كانوا من سلالة أرباب الاقطاعات . والشىء الآخر انه اذا كان الرومان قد نزعوا ملكية أراضى بعض أرباب الاقطاعات فانهم ثبتوا ملكية أراضى البعض الآخر ومنحوهم

امتيازات معينة كان من بينها فيما يبدو الاعفاء من ضريبة الرأس اعفاء كاملا .

ويرى فريق من الباحثين أن الحكومة الرومانية كانت تفرق تفرقة واضحة بين الاغريق الذين كانوا يعيشون فى مدن مصر الاغريقية ، وكذلك الاغريق والمتأغرقين الذين كانوا ينزلون فى عواصم المديريات من ناحية، وبين المصريين من ناحية أخرى باعتبارهم dediticii ، أى الأهالى الذين خضعوا للرومان بعد الفتح بلا قيد ولا شرط فوضعوهم فى أسفل درك وفرضوا عليهم كافة الالتزامات وخاصة ضريبة الرأس وكانت تعتبر رمزا مميزا لخضوعهم واستسلامهم . وقد اتخذ فريق آخر من الباحثين من المعلومات المستمدة من الوثائق البردية عن ضريبة الرأس أساسا للمناداة برأي آخر نحبذه وفحواه أن الحكومة الرومانية كانت تعتبر جميع سكان مصر « مصريين » أو بعبارة أخرى أجانب (peregrini) باستثناء المواطنين الرومان ومواطنى الاسكندرية وفيما يرجح مواطنى نقراطيس وبطوليميس وانطينوؤ پوليس وسلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم وكذلك عددا معينا من كهنة كل معبد ، وأن هؤلاء جميعا أعفوا من دفع ضريبة الرأس التى كان باقى سكان البلاد يدفعونها ، غير أن أولئك الباقين لم يدفعوا هذه الضريبة بمعدل واحد اذ أن مواطنى عواصم المديريات كانوا يدفعونها مخفضة أما باقى سكان هذه العواصم وكذلك سكان القرى فكانوا يدفعونها كاملة . ومعنى ذلك أن الحكومة الرومانية كانت تقسم الاغريق ثلاث فئات ، كانت احداها تشمل مواطنى المدن الاغريقية وفيما يبدو أيضا سلالة أرباب الاقطاعات فى الفيوم ، وكانت الحكومة الرومانية تضعهم فى مصاف المواطنين الرومان وتعفيهم من ضريبة الرأس اعفاء كاملا ، أما الفئة الثانة فكانت عبارة عن مواطنى عواصم المديريات وكانت الحكومة تعتبرهم أقل مكانة من الفئة السابقة وتفرض عليهم دفع ضريبة الرأس مخفضة . أما الفئة الثالثة فكانت تشمل عامة الاغريق من سكان القرى وعواصم المديريات والمدن الاغريقية على حد سواء وكانت الحكومة تفرض عليهم دفع ضريبة الرأس كاملة .

وينهض هذا دليلا على مدى اجلال الرومان للحضارة الاغريقية ورغبتهم فى التمييز بين أكثر الاغريق تحضرا من ناحية وبين عامة الاغريق وجموع المصريين من ناحية أخرى . فلا عجب أن استبقى الرومان اللغة الاغريقية لغة رسمية للبلاد فلم تستعمل اللاتينية الا فى الجيش أو فى اللوائح المتعلقة بالقانون الرومانى . وفضلا عن ذلك احتفظ الرومان للاغريق بالمناصب الكبرى التى تلى المناصب الرئيسية التى احتفظوا بها لأنفسهم.

وقد كانت لدى الطبقات الممتازة من الاغريق فرص واسعة للثراء لكن التبعات الثقيلة التى ألقيت عليهم أبهظت كاهلهم

واستنزفت مواردهم على مر الزمن . ولعل أسعد الأغريق حظـا كانوا مواطنى المـدن الاغريقية بوجـه عام والاسكندرية بوجـه خاص . ومع ذلك فان أولئـك المواطنين لم ينظروا بعين الرضى الى حكم الرومان فقد سبقت الاشارة الى أن عـداء الاسكندريين لليهود كان يخفى فى طياته عداءهم للرومان ، وذلك لأن معاداة اليهود كانت أسلم عاقبة من مناصبة الرومان عداء سافرا . وسبقت الاشارة كذلك الى أن «أعمال الاسكندريين» التى صادفت رواجا كبيرا لا فى الاسكندرية فحسب بل فى كل أنحاء البلاد كانت تعبر عن كراهية الاغريق الشديدة لليهود وكراهيتهم الأشد للرومان . وهذا أبلغ دليـل على أن الاغريق بوجه عام كانوا يكرهـون الحكم الرومانى كرها شديدا ويتمنون زواله .

وتحدثنا وثيقة من القرن الثانى للميـلاد بأن التزاوج بين الاغريق والمصريين كان يعتبر غير مشروع فى نقراطيس ، ومن المرجح أن ذلك كان الحـال أيضـا فى الاسـكندرية وبطوليميس بسبب الرغبة فى المحافظة على العنصر الاغريقى . فلماذا اذن أبيح التزاوج فى انطينوؤ پوليس ؟ يرجع البعض أن يكون السبب فى ذلك هو رغبة الامبراطور هادريان، مؤسس هذه المدينة ، فى صبغ المصريين بصبغة اغريقية عن طريق مزجهم مع الاغريق فى بيئة تسودها التأثيرات الاغريقية لكن لو صح أن هذا كان الهدف الحقيقى لكان تحقيقه أتم وأوفى فى المدن الاغريقية الأخرى التى كانت معاقل قديمة للحضارة الاغريقية وذات تقاليد راسخة وتضـم أعـدادا أكبر من الاغريق ويتيسر فيها المزج بين الاغريق والمصريين على نطاق أوسع . لعـل السبب اذن فى اباحـة التزاوج فى أنطينوؤ بوليس هو انه لم يتيسر اجتذاب عدد كاف من الاغريق الى هذه المدينة مما اقتضى الاعتماد فى تكوين هيئة مواطنيها على كثير من المصريين الذين لابد من أنهم كانوا من المتأغرقين تيسيرا للتآلف بينهم وبين رفاقهم من الاغريق . ومن أجل ضمان وحدة المدينة ونموها نص فى دستورها على امكان التزاوج بين العنصرين . ونعتقد أن لهـذا النص دلالة ذات مغزى ، فهذا النص ينطوى ضمنا على أن التزاوج كان غير مشروع على الأقل فى المدن الاغريقية الأخرى والا لما نص على تحليـله فى انطينـوؤ پوليس . بقى أن نتساءل عما اذا كان التزاوج محظورا خارج المدن الاغريقية الثلاث الأخرى (الاسكندرية ونقراطيس وبطوليميس) ؟

يتبين مما أسـلفنا ، أولا أنه فى العصر الرومـانى كان يعيش خارج هـذه المـدن الاغريقية الثلاث فريقـان من الاغريق كان أحدهما عبارة عن مواطنى عواصم المديريات الذين كانوا يؤلفون طبقة ممتازة وكان الفريق الآخر عبـارة عن الاغريق الذين لم يكونوا أصلا أعضاء فى جاليات اغريقيـة أو كانوا أعضاء فى جاليات وآثروا البقاء فى قراهم على

الانتقال الى عواصـــم المديريات وتيســيرا للكلام عن أفراد هذا الفريق فلنطلق عليهم عامة الاغريق . وثانيا أن التسجيل فى طبقة من الطبقات الممتازة كان يقتضى بحث حالة الراغبين فى ذلك للتأكد من انتماء الأبوين فى كل حالة الى تلك الطبقـــة . واذا جـــاز أن القانون كان لا يحظـــر التزاوج بين مواطنى عواصم المديريات وبين المصريين فانه كانت تحظره مراعاة صوالح أبناء أولئك المواطنين، أى ضمان انتمائهم الى الطبقة الممتازة. والواقع أن لوائح الايديولوجوس لا تدع مجـــالا للشك فى أن التزاوج كان محظورا بين الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة . وبما أن عامة الأغريق لم ينتموا الى طبقة اجتماعية ممتازة . فانه لم يحظر تزاوجهم مع المصريين قانون ولا مراعاة صوالح . ولعلهم نتيجـــة لطول استقرارهم فى البلاد وعدم ممارستهم أساليب الحياة الاغريقية مع اختلاطهم بأهالى البلاد وتعبدهم الى الالهة المصرية أصبحوا شديدى الشبه بالمصريين وتزاوجوا معهم ولم ينقض وقت طويل قبل أن يستوعبهم الأمة المصرية فيمن استوعبتهم .

(ب) حضارة الاغريق :

ولا جـــدال فى أن المدارس والمعـــاهد الاغريقية كانت أهم دعامة للحضارة الاغريقية فهى التى كانت تفتح للنـــاس آفاق الفكـــر الاغريقى وتغذى عقولهم ونفوسهم بثماره

ولا جدال أيضا فى أن الأداب والفنون كانت أسمى مظـــاهر هـــذه الحضـــارة التى ظلت الاسكندرية أهم مراكزها فى العصر الرومانى وبفضلها بقيت الحضارة الأغريقية منتعشة فى مصر طوال هـــذا العصر . فقـــد شـــهدت الاسكندرية عنـــدئذ نشأة فلاســـفة وكتاب وجغـــرافيين مثـــل فيلون واخيلّس تاتيوس وبطلميوس ، وكان للأقاليم أيضـــا نصيبها فى هذه الحركة الأدبية فقد ولد العالمان اثينايوس ويولوكس فى نقراطيس والفيلسوف فلوطين فى أســـيوط (ليكوپوليس) . والبرديات الوفيرة التى كشف عنها فى أوكسير ينخوس (البهنســـة) — وكانت عاصـــمة احـــدى مديريات مصر الوسطى — خير شاهد على شغف المثقفين فى هذه العاصمة الريفية بقراءة مختلف ألوان الأدب الاغريقى الى حد يثير الدهشة . فالبرديات لا تقتصر على عيـــون الأدب الاغريقى القديم مثل أشعار هوميروس وقصائد هيسيود بل تتضمن كذلك أغـــانى سافو وروايات ماناندر وقصائد كاليماخوس فضلا عن كثير من المؤلفـــات التى كان بعض الباحثين المحدثين يظنون أنها لم تكن متداولة عندئذ مثل أجزاء من قصائد الشعراء الغنائيين كأناشيد الشكر وغيرها من منظومات پندار والشـــعراء المعـــاصرين وكذلك روايات ايسخيلوس المفقودة وروايات سوفوكليس ويوريپيديس واريسطوفانيس . ولما لم تكن لاوكسيرينخوس أى ميزة خاصـــة على أى

عاصمة أخرى من عواصم المديريات فلا بد من أن الحال كان مماثلا فيها جميعا وهــذا يدل على أمرين وأحدهما وجود جمهور كبير من الشعراء وتبعا لذلك وجود تجارة رائجة فى الكتب ، والأمر الآخر أنه كان فى متناول المثقفين فى طول البلاد وعرضها مجموعة كبيرة من المؤلفات الاغريقية التى لم يصــلنا منها الا قدر طفيف .

وبقدر ما كانت الأمية فاشية بين عامــة الأغريق كان أثرياؤهم وأهل الطبقة الوسطى منهم يقبــلون على التعليــم . وكان التعليم الأغريقى يعنى بتربية الجسم والعقــل معا ، وكانت التربية البدنية تشمل الألعاب الرياضية وكذلك التدريبات شبه العسكرية الخاصــة بالشباب . أما التربيــة العقلية فكانت على ثلاث مراحل يباشر أولاها المدارس الأوليــة ويرجح أنهــا كانت من الطــراز الأغــريقى المألوف ونستطيع أن نتبين مما عثر عليه من الأدوات التى كان التــلاميذ يســتخدمونها بكثرة (كسر الفخــار والألواح الخشــبية المكسوة بالشمع والأوراق البردية) انهم فى المرحلة الأولية كانوا يتعلمون القراءة والكتابة تدريجيا بادئين بالحروف الأبجــدية فتكوين المقاطع فالكلمات فالجمل ثم نقل فقرات من كتب معينة والتمرين على الاملاء والانشاء . وكان التلاميذ يدرســون الأدب والنحــو والحســاب . وكانت أشــعار هومــيروس تستخدم على نطــاق واسع فى كل مراحــل التعليم فقد كان التلاميذ يكلفون بنقل بعض الأبيــات للتمــرين على كتابتها أو شرحها والتعليق عليهــا أو لتكون مــادة لدرس فى الأخلاق . وكان يعنى بهذه الناحية عناية كبيرة فقد كان المدرسون يختارون كثيرا من الحكم والأمثال لتمرين التلاميذ على المطالعة .

ويبدو أن المرحلة الثانية كانت مقصورة على أبناء الصــفوة الممتازة فى عاصــمة كل مديرية وهى التى كان يطلق عليها « أهــل الجيمنازيوم » فقد كانت تلك الطبقة تتألف ممن التحقوا فى صــباهم بمنظمــة تدريب الشباب وتعلموا فى الجيمنــازيوم اذ كان الالتحاق بهذه المنظمة يخول حق الالتحــاق بالجيمنازيوم ويقتضى اثبات انتماء الأدب الى هذه المنظمة وانحدار الابن من أبوين حرين . وكان التلاميذ يدرسون فى هذه المرحلة النحو والبلاغة والأدب والفلسفة والرياضــيات . ويبــدو أن الذين كان يعز عليهم دخــول الجيمنازيوم لكن مواردهم كانت تسمح لهم بمتابعة الدراسة كانوا يلجأون الى مدرسين خصوصيين لهذا الغرض . وكان ذلك أيضا حال الذين يريدون تعلم مواد خاصة مثــل الموسيقى أو الاختزال . وتحدثنا بردية بأن أحد مواطنى أوكسيرينخوس أرســل عبده لتعلم الاختزال على يدى معلم مختص حدد مدة الدراسة بعامين على أن يقتضى أجره على ثلاث دفعات ، كانت أولاها فى البداية والثانية والثالثة عند بلوغ العبد مرحلتين معينتين من التقــدم .

أما المرحلة الثالثة أو مرحلة التعليم العالى فيبدو أنها كانت مركزة فى الاسكندرية وان كانت الوثائق تشير الى وجود أساتذة جامعة الاسكندرية فى أنحاء مختلفة فى البلاد . وقد كانت جامعة الاسكندرية أساسا معهدا للبحث أكثر منه للتدريس ويحتمل أنه كان متروكا لأساتذتها مطلق الحرية فى أن ينصرفوا الى البحث كلية أو فى القاء المحاضرات الى جانب القيام بأبحاثهم . لكن فى القرن الثالث عندما أوقفت الحكومة الانفاق على الجامعة لم يجد الأساتذة أمامهم مفرا من التدريس أو أداء أى عمل آخر لتكسب قوتهم . فنجد مثلا أحد أساتذة الجامعة يتولى منصب قائد مديرية الفيوم ولا جدال فى أنه كان يتعذر القيام بمهمة التدريس بانتظام فى الاسكندرية فى خلال الأعوام الثلاثة التى تولى فيها منصبه الادارى فى الفيوم . ومنذ أسس پنتاينوس (Pantaenus) المدرسة المسيحية الكبرى فى الاسكندرية فى القرن الثانى لم تعد الجامعة المركز العلمى الوحيد هناك ، فقد قامت المدرسة على أكتاف أساتذة عظام نافسوا أساتذة الجامعة الوثنيين وكان لنشاطهم العلمى آثار ملموسة ونتائج باقية على الزمن.

ويتبين من الوثائق البردية أن الاغريق بوجه عام كانوا يميلون الى اشاعة البهجة فى نفوسهم باقامة مختلف الولائم للغذاء أو العشاء واقامة الحفلات الخاصة بأعياد الميلاد أو المناسبات الاجتماعية الخاصة الأخرى .

وفضلا عن ذلك فانه فى الأعياد الدينية وأعياد جلوس الأباطرة على العرش وأعياد ميلادهم كانت تقام حفلات عامة تتخللها الاستعراضات والمهرجانات . والى جانب ذلك كانت تقام من حين لآخر حفلات رياضية يتبارى الناس فيها فى مختلف الألعاب الرياضية من جرى وملاكمة ومصارعة وما الى ذلك . وكانت توجد حتى فى عواصم المديريات مسارح أو قاعات للموسيقى كانت تمثل فيها عادة الكوميديات الشعبية والتمثيليات الهزلية ومن حين لآخر روايات من التراجيديا الكلاسيكية ومن « الكوميديا الجديدة » . وكانت أيضا تجوب البلاد فرق للموسيقى والرقص والألعاب البهلوانية .

٣ ــ اليهود :

لقد مر بنا عند الكلام عن عصر البطالمة أن اليهود كانوا ينتشرون فى مختلف أرجاء البلاد لكن أكثرهم كانوا يعيشون فى الاسكندرية وأن البطالمة منحوا الجالية اليهودية فى الاسكندرية قسطا من الحكم الذاتى لم يمنحوه لأى جالية أخرى فى أى مدينة اغريقية لكنهم لم يمنحوهم حقوق المواطنين . وفى كنف الرعاية التى استظل اليهود بها فى عهد أكثر ملوك البطالمة ازدهرت حالهم وزاد عددهم حتى بلغوا فى أوائل عهد الرومان مليون نسمة كان خمسهم تقريبا يعيش فى الاسكندرية . وقد عرفنا أن الرومان

أقروا الامتيازات التى اكتسبتها الجالية اليهودية فى الاسكندرية منذ عهد البطالمة لكنهم فرضوا على يهود هذه الجالية ويهود مصر جميعا أداء ضريبة الرأس كاملة .

ويحدثنا فيلون بأن يهود الاسكندرية كانوا يتكونون من الفئات التالية : ١ — أصحاب رءوس الأموال ٢ — المشتغلون فى النقل البحرى ٣ — تجار التجزئة ٤ — الصناع وأصحاب الحرف ٥ — المشتغلون بالزراعة فى الأراضى المحيطة بالاسكندرية . وتشير الدلائل الى أنه منذ عصر البطالمة كان يهود الاسكندرية يميلون الى اتخاذ أسماء اغريقية وارتداء ملابس اغريقية ويقبلون على تعلم الاغريقية والتزود من الثقافة الاغريقية . واذا كان بعضهم قد انحرفوا عن اليهودية أو صبأوا فان أغلبهم استمسكوا بدياناتهم وحرصوا على مراعاة تقاليدهم وعاداتهم . واذا أضفنا الى ذلك ممالأتهم للرومان أدركنا لماذا كان اليهود فى نظر الاغريق عنصرا غريبا عنهم كريها اليهم لا يقبلونه فى مجتمعهم ويرون الخير كل الخير فى قطع دابره مما أفضى الى تلك المنازعات الدامية التى سبق الكلام عنها .

وكان المجتمع اليهودى خارج الاسكندرية يتكون من الفئات التالية : ١ — أصحاب الأراضى ٢ — أصحاب المهن الحرة من المشتغلين بالتجارة وأعمال النقل فى النيل ومن موانى البحر الأحمر واليها . ٣ — أرباب المهن الوضيعة والعبيد المحررين. واذا كان أكثر يهود الريف ثراء حاولوا التشبه بالاغريق فانه لم يسمح لهم بالاندماج فى المجتمع الاغريقى . أما جموع يهود الريف وكانوا يشاركون المصريين بيئتهم ويمارسون المهن والحرف ذاتها فان القرائن تدل على أنهم تشبهوا بالمصريين فشاعت الأسماء المصرية بينهم بل عثر فى مصر الوسطى على تابوت خشبى يحمل نقوشا عبرية ويحتوى على مومياء محنطة كما عثر أيضا فى الفيوم على موميات تحمل صور أصحابها وأسماء يهودية، ومع ذلك ازاء قلة الأدلة التى لدينا يصعب الجزم بأن كل يهود الريف قد تأثروا بالبيئة المصرية الى حد أنهم كانوا جميعا يحنطون جثث موتاهم . فقد توافرت لهم فى الريف أسباب الاحتفاظ بدينهم ومتابعة حياتهم الخاصة اذ أن القرائن تشير الى أنهم فى الوجهين البحرى والقبلى كانوا ينتظمون فى جاليات لكل منها بيعتها والى انهم فى بعض المدن مثل ارسينوى وأوكسيرينخوس وادفو كانوا يقيمون فى أحياء خاصة بهم . وتشير القرائن أيضا الى أن ثورة ١١٥ — ١١٧ لم تفض الى القضاء على المجتمع اليهودى فى الريف المصرى ، وكل ما فى الأمر أن هذا المجتمع قد أصابه عندئذ من الكوارث ما تطلب وقتا طويلا ليعيد بناء كيانه ويستأنف نشاطه من جديد .

واذا كان الرومان قد أظهروا عطفهم على

اليهود بالاعتراف لهم بامتيازاتهم القديمة فان اليهود لم يرضوا عن الرومان لأنهم رفضوا ادماج يهود الاسكندرية فى عداد مواطنى تلك المدينة ولم يخموهم من عداء الاسكندريين لهم وفرضوا على يهود مصر ضريبة الرأس كاملة ، وكالوا لهم ضربات شديدة منذ ثورة فلسطين فى عام ٦٦ مما أفضى الى ثورتهم الخطيرة فى عهد تراجان التى كانت محاولة يائسة جريئة للتخلص من نير الحكم الرومانى . ولا يدل استسلام اليهود بعد ذلك ومسالمتهم للرومان على رضائهم عن الحكم الرومانى بقدر ما يدل على رضائهم بحكم الظروف التى كانت أقوى منهم .

٤ ــ المصريون :

(أ) فئاتهم :

كان المصريون فىالعصر الرومانى يتألفون من عدة فئات ، كانت فئة الكهنة أعظمها شأنا وأرفعها مقاما وأوسعها نفوذا مما حدا بالرومان الى اقتفاء أثر البطالمة الأوائل فى اضعاف قوة رجال الدين المصريين . فانتزعوا ملكية جانب من أراضى المعابد وأسندوا الى الحكومة ادارة جانب آخر من هذه الأراضى ووضعوا رجال الدين تحت سيطرتهم وأنقصوا عدد المعابد التى تتمتع بحق حماية اللاجئين اليها . واذا كانت الحكومة الرومانية قد أعفت أول الأمر عددا معينا من كهنة كل معبد من دفع ضريبة الرأس فانها عملت بعد ذلك على انقاص هذا العدد . ولا جدال فى أن الغالبية العظمى من رجال الدين المصريين احتفظوا بثقافتهم القديمة الخاصة التى كانوا يتوارثونها ويتعاونون على المحافظة عليها ويعملون على بث تعاليمها فى نفوس مواطنيهم . ومع ذلك يصعب أن نتصور أن النابهين منهم على الأقل لم يأخذوا بقسط من الثقافة الأغريقية .

وكانت تلى هذه الفئة فى الأهمية فئة أصحاب الأراضى وكان أفرادها على شىء من اليسر ودأب كثير منهم على التشبه بالاغريق فتعلموا الاغريقية واتخذوا أسماء اغريقية وملابس اغريقية وتزاوجوا مع عامة الاغريق المنتشرين حولهم فى أرجاء البلاد . ومع ذلك لم تكن صنعتهم الاغريقية الا طلاء خارجيا فقد كان من العسير فصم صلتهم بالماضى وتغيير طابع عقليتهم أو دخائل نفوسهم بسبب استمساكهم بدياناتهم التقليدية . وعلى كل حال من الراجح أن صبغتهم الاغريقية لم تكسبهم أى ميزة من ناحية وضعهم القانونى بمعنى أن الحكومة الرومانية لم تساوهم بمواطنى المدن الاغريقية ولا حتى بمواطنى عواصم المديريات ، ولم تعتبرهم الا مصريين عليهم ما على سائر المصريين من تبعات . بل لعلهم من هذه الناحية كانوا أسوأ حظا من غيرهم من المصريين اذ أن الأمر فى حالهم لم يقف عند حد أداء الضرائب المفروضة عليهم

بل كان يتعدى ذلك الى الاسهام فى زراعة الأرض المهجورة وأداء الضرائب المفروضة عليها . وفضلا عن ذلك كانت الحكومة تختار منهم صغار موظفيها المحليين لالمامهم بالاغريقية ولما لديهم من أملاك كانت تستطيع أن تستوفى منها استحقاقاتها فىحالة قصورهم عن النهوض بالتزامات وظائفهم على نحو يحقق لها أغراضها كاملة . ولعله كان يكون جانبا من هذه الفئة فئة المحاربين المصريين التى ارتفع شأنها فى الشطر الثانى من عصر البطالمة ومنح أفرادها اقطاعات لا بأس بها . وعلى كل حال فانه لم يعد لفئة المحاربين المصريين القديمة كيان مستقل فى العصر الرومانى فقد منع المصريون من الانخراط فى سلك الفرق الرومانية حتى فى القرن الثانى عندما اضطر الرومان الى التجنيد محليا فالرومان لم ينسوا ما حدث فى عصر البطالمة عندما أدى الاعتماد على المصريين فى موقعة رفح (عام ٢١٧ ق.م) الى انعاش الروح القومية فى البلاد واندلاع لهيب الثورات الوطنية ضد البطالمة . ولذلك كان التجنيد المحلى فى العصر الرومانى — على الأقل حتى منح المصريون حقوق المواطنة الرومانية بمقتضى دستور كركلا — مقصورا على الاغريق والشرقيين المقيمين فى مصر . ومع ذلك كان يسمح للمصريين بالعمل فى أسطول مسينوم فقط .

وكان يأتى فى مؤخرة المؤخرة عامة المصريين وكانت غالبيتهم العظمى تشتغل بالزراعة وكثيرون منهم يمارسون مختلف الحرف والصناعات . وقد فرض الرومان عليهم جميعا كافة الالتزامات وأداء ضريبة الرأس كاملة وحرموا عليهم استعمال اللغة الديموتيقية حتى فى عقود معاملاتهم الخاصة.

(ب) حضارة المصريين :

واذا كانت الأمية فاشية بين عامة الأغريق فلا جدال فى أنها كانت فاشية كذلك بين جموع المصريين الذين استمروا يعيشون كما كان أجدادهم يعيشون من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ، مستمسكين بدياناتهم الى أن اعتنقوا المسيحية طوعا أو كرها .

وهكذا يبدو أن الغالبية العظمى من المصريين كانت تعيش بمعزل عن الحضارة الاغريقية فلم يظفر بحظ منها الا قلة قليلة . واذا كانت المعابد الكبرى قد احتفظت بالمدارس الملحقة بها فقد انقضى ذلك العهد الزاهر الذى بلغت فيه بعض هذه المدارس شأوا بعيدا ونزلت مدارس المعابد عن تلك المكانة السامية لجامعة الاسكندرية ومدرستها المسيحية الكبرى . وازاء اقبال الموسرين من المصريين على التعليم الاغريقى وتفشى الأمية بين جموع المصريين وتحظير استعمال الديموتيقية حتى فى العقود الخاصة لا يبعد أن تكون سوق المدارس الأهلية القديمة قد كسدت الى حد اضطرت معه الى

اغلاق أبوابها . ولعل أهم ما صحب انتشار المسيحية فى مصر الى جانب انشاء المدرسة المسيحية الكبرى فى الاسكندرية كان قيام بعض المدارس لاعداد القساوسة واستبدال الانجيل بهوميروس فى المدارس التى كانت منتشرة فى عواصم المديريات وسبق الكلام عنها فى معرض الحديث عن التعليم الاغريقى.

(ج) ثورات المصريين

وبرغم الفشل المرير الذى انتهى اليه كفاح المصريين ضد البطالة ، وبرغم القوة الكبيرة التى وضعها الرومان فى مصر فانه لم تكد تمضى شهور قليلة على الفتح الرومانى حتى هب المصريون ثائرين على الغزاة الجدد. وقد رفع لواء الثورة ضد الرومان منطقة طيبة التى مر بنا أنها أقضت مضاجع البطالمة بتزعمها الحركات الثورية ضدهم مما حدا ببطلميوس التاسع الى شن حرب ضروس على العاصمة الوطنية القديمة طيبة وتخريبها تخريبا . ويبدو أن الثورة الجديدة بلغت من الخطورة حدا اضطر معه أول حاكم رومانى لمصر (كورنيليوس جالوس) الى تجريد حملة قوية لقمعها . ويبدو كذلك أن الثورة لم تقتصر على مصر العليا بل أسهمت فيها الدلتا أيضا اذ أن استرابون يحدثنا بأنه عندما ثارت هيروؤنپوليس (تل المسخوطة فى شرق الدلتا) زحف عيلها كورنيليوس جالوس وأخضعها .

ولا تذكر المصادر القديمة نشوب ثورات عامة بين المصريين بعد ذلك الا الثورة المعروفة « بحرب الرعاة » التى وقعت فى عام ١٧٢ فى منطقة الدلتا الساحلية شرقى الاسكندرية . وقد تزعم هذه الثورة كاهن مصرى يدعى اسيدوروس واشترك فيها جموع كبيرة من المزارعين تمكنوا من القضاء على الحامية الرومانية فى منطقتهم وكذلك من هزيمة الكتائب الرومانية التى تصدت لهم ، حتى خيف من وقوع الاسكندرية فى قبضتهم مما اقتضى استدعاء نجدة من سوريا خف على رأسها افيديوس كاسيوس حاكم تلك الولاية (عام ١٧٥) . وقد لجأ افيديوس الى حيلة المفاوضات حتى نجح فى بث الفرقة بين صفوف الثوار ثم قاتلهم متفرقين وانتصر عليهم فنادت به الفرق السورية امبراطورا لكنه لم يلبث أن لقى حتفه بعد ذلك بقليل .

وليس أبلغ فى الدلالة على سوء الحكم الذى أقامه الرومان فى مصر من أنه لم يصادف رضا من أى فريق ممن كانوا يعيشون فى مصر عندئذ سواء أكانوا من الاغريق أم اليهود أم المصريين .

الفصل الثامن

الآداب والعلوم والفنون

عرفنا أنه فى العصر الرومانى كانت الاسكندرية لا تزال مدينة عظيمة وتعتبر ثانى مدينة فى الامبراطورية الرومانية بعد روما مباشرة وان الرومان كانوا يعطفون على الحضارة الاغريقية ويجلونها ويكلأون جامعة (دار العلم) الاسكندرية برعايتهم . لكن الاسكندرية لم تعد عاصمة دولة خطيرة ومقر بلاط فخور كان يضع نصب عينيه جعلها عاصمة الحضارة الاغريقية ويعنى بأن يجتذب اليها أبرز رجال الفكر والفن وبأن يوفر لهم من الرعاية ما يحفز هممهم ويشحذ قرائحهم . ومع ذلك فان الاسكندرية تابعت نشاطها وكان لها نصيب الأسد فى حياة مصر العقلية وان كانت لم تحتكر انجاب البارزين من رجال الفكر والقلم فقد ولد فى نقراطيس العالمان اثينايوس ويولوكس ، وفى ليكوپوليس (أسيوط) الفيلسوف فلوطين . ولا أدل على احتفاظ الاسكندرية بمكانتها العالمية مما تشير اليه المصادر القديمة من شغف النابهين من الغرباء بالوفود عليها حتى أواخر القرن الثانى الميلادى اما لينهلوا من مواردها مثل پلوتارخ ولوكيانوس وماركوس انطونيوس پولمون ، أو ليعرضوا مواهبهم فى سوقها العملية مثل ديون وايليوس اريستيدس . وذلك فضلا عن الكثيرين من الطلاب الأجانب الذين ظلوا يقصدون الاسكندرية لتلقى العلم فيها وخاصة الطب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل .

أولا — الآداب

١ — دار العلم (الجامعة) والمكتبة :

وقد استمرت الجامعة مدة طويلة مركزا للبحث العلمى ومقرا للعلماء تستضيفهم فيه الدولة على نفقتها وتجرى عليهم المرتبات . واذا كان الأصل فى التعيين فى الجامعة أن يتوقف على مكانة الشخص العلمية أو الأدبية فان القرائن توحى بأن المعايير لم تلبث أن تغيرت فمثلا عين هادريان رجلا يدعى پانكراتس كل ما يعرف عنه أنه سبح بحمد الامبراطور وخليله انطينوؤس فى قصيدة وصل الينا جزء منها . وتحدثنا وثائق القرن الثانى بأنه كان بين رجال الجامعة عندئذ بعض كبار رجال الدين والموظفين المدنيين والضباط الرومان بل أحد الرياضيين . وقد أضاف

الامبراطور كلاوديوس الى مبنى الجامعة ملحقا حمل اسمه وكانت تتلى فيه يوميا مؤلفات هذا الامبراطور المؤرخ . ولا ريب فى أنه عندما أوقف كركلا فى صدر القرن الثالث الانفاق على الجامعة كان لذلك أثر بعيد المدى فى نشاط البحث العلمى اذ أنه لم يعد فى وسع الأساتذة الانصراف الى بحوثهم مع القاء بعض المحاضرات من حين لآخر بل أصبح يتعين عليهم التدريس أو أداء أى عمل آخر لقاء أجر يتعيشون منه . وقد نزلت بالجامعة نكبة أخرى فى عام ٢٦٩/ ٢٧٠ عندما انقض جنود زنوبيا على حى بروخيون وأوسعوه نهبا وتخريبا ولم تنج مبانى الجامعة من هذا التدمير الذى لم يفض على كل حال الى القضاء على الحياة العلمية والأدبية فى الاسكندرية اذ نجد تنويها عنها واشادة بها فيما كتبه المؤرخ اميانوس ماركلينوس حوالى نهاية القرن الرابع الميلادى .

وقد مر بنا أنه عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول المصرى فى خلال « حرب الاسكندرية » فى عام ٤٧ ق.م. وامتد اللهب الى رصيف الميناء وأحرق المبانى المجاورة له ، ذهبت المكتبة الكبرى طعما للنيران بدليل أن انطونيوس عوض كليوبترة عن تلك الخسارة الفادحة باهدائها ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد من مكتبة برجامون . وقد كانت توجد فى الاسكندرية مكتبتان أخريان ، كانت احداهما ملحقة بمعبد السيرابيوم وكانت الأخرى ملحقة بمعبد قيصر . وقد ظلت هذه المكتبات تمد الباحثين بما يحتاجون اليه من المصادر والمراجع الى أن ذهب بعضها ضحية لأعمال التخريب التى قام بها جنود زنوبيا والبعض الآخر ضحية للصراع بين المسيحية والوثنية عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمى للدولة .

وقد تابع علماء جامعة الاسكندرية فى العصر الرومانى ما ابتدعه أسلافهم فى عصر البطالمة من تحقيق النصوص الأدبية ونقدها والتعليق عليها . وقد كان من أبرز هؤلاء الباحثين فيلوكسينوس الذى ذاعت شهرته فى عهد تيبريوس الى حد انه دعى للتدريس فى روما . وقام معاصره پامفيلوس بجمع عدد هائل من التعبيرات النادرة التى استخدمت فى الآداب الكلاسيكية. وكلف اريستونيكوس بالدراسات الهومرية فشرح هوامش اريستارخوس ونقدها وأكملها . وحوالى الوقت ذاته أخرج ثيون معجما للتراجيديا والكوميديا ووضع تعليقات لأعمال شعراء الدراما واپولونيوس الرودسى . وذاعت أيضا عندئذ شهرة اپيون الذى نال تقدير تيبريوس وان كان الامبراطور ضاق ذرعا بثرثرته والاشادة بنفسه . وقد ألف اپيون معجما للأشعار الهومرية سطا عليه يوستاثس . وقد كان أبرز فقهاء القرن الثانى اپولونيوس « المتزمت » ونيكانور وايليوس ثيون .

٢ ـ الشعر :

يحتل شعر الاسكندرية مكانا متواضعا بين آدابها فى العصر الرومانى ، فالاسكندرية لم تعرف فى هذا العصر شاعرا بارزا واحدا يمكن مقارنته بكاليماخوس أو ابولونيوس أو ثيوكريتوس ، وان عرفت جمهرة من من الشعراء المتواضعين الذين حافظوا على تقاليد الشعر الاسكندرى من حيث خلوه من العواطف السياسية والشعور بالتقوى نحو الالهة القديمة وكذلك من حيث كلفه بآفاق العلم المختلفة وتصوير المشاعر الانسانية والاشادة بالحياة البسيطة لكنهم لم يكونوا شعراء مطبوعين وانما يصطنعون الشعر اصطناعا . ولعل أبرز أولئك الشعراء المتواضعين اثنان كان أحدهما دنيس الاسكندرى الذى عاصر هادريان وألف قصيدة جغرافية وصف فيها ليبيا والجانب الأكبر من آسيا وأوربا معتمدا فى ذلك على خريطة العالم البطلمى اراتو سثينيس . وقد قدر لهذه القصيدة أن تعمر طويلا فانها ترجمت الى اللاتينية واستخدمت فى تدريس الجغرافيا فى المدارس . أما الشاعر الآخر فانه كان من أبناء واحة سيوة ويدعى سوتريخوس وألف قصيدة فى وصف مسقط رأسه وأخرى فى مدح الامبراطور دقلديانوس وعددا آخر من القصائد عن ديونيسوس والاسكندر الأكبر وغير ذلك من شتى الموضوعات .

٣ ـ النثر :

وقد تأثر نثر الاسكندرية فى العصر الرومانى باتجاهات مدارسها الفلسفية التى تمتعت بمكانة كبيرة ولا سيما ان الفلاسفة على اختلاف نحلهم ومذاهبهم كانوا يعتبرون فى ذلك العصر أطباء النفوس . واذا كانت مختلف المدارس الفلسفية القديمة قد تابعت نشاطها فان الفيثاغورثية الجديدة احتلت مكان الصدارة بينها الى أن اندمجت فى خلال القرن الثالث فى الأفلاطونية الجديدة . وكانت الفيثاغورثية الجديدة تتألف من عناصر استمدت من الفيثاغورثية القديمة ومن فلسفات أفلاطون والمشائين والرواقيين ومزجت سويا على نحو يوائم الاتجاهات الدينية المعاصرة فقد وجهت عناية خاصة الى التأملات الدينية والمذاهب الخلقية . وقد كان للفيثاغورثية الجديدة أثر كبير أولا فى الأفكار اليهودية عن طريق الفيلسوف اليهودى فيلون الاسكندرى وثانيا فى الأفكار المسيحية عن طريق كليمنس (Clemens) واوريجينيس (Origenes) وثالثا فى الأفلاطونية الجديدة .

ويعتبر فيلون أعظم المفكرين اليهود الذين يمثلون التقاء اليهودية والوثنية كما تعتبر مؤلفاته نموذجا لانتاج يهود الاسكندرية الأدبى فى العصر الرومانى . ويتبين مدى تأثر فيلون بالفيثاغورثية الجديدة من أنه استعار منها الكثير من أفكاره ومنهجه فى وضع فلسفته التى كانت تستهدف الخروج

بالفلسفة اليهودية من أفقها الضيق الى أفق أوسع بعد تجريدها من كل مظاهرها العنصرية . وعندما قام فيلون بشرح التوراة والتعليق عليها عالج ذلك بالطريقة الرمزية على نهج الفيثاغورثية الجديدة فتحولت الشخصيات الدينية فى التوراة الى مجرد رموز للأفكار المجردة واكتسبت التعاليم الموسوية مظهرا جديدا جعلها رمزا لأفكار اغريقية عميقة .

وقد كان كليمينس ومن بعده اوريجينيس أبرز أساتذة المدرسة المسيحية الكبرى فى الاسكندرية . ويمثل هذان الأستاذان اتجاها جديدا للمكرين المسيحيين استبدل بمناصبه الوثنية عداء شديدا يكشف عن ضعفها ويرد الاعتداء عن المسيحية — استبدل الاتجاه الجديد بذلك الدعوة الى الالمام بثقافة العصر واستخدام أساليب الفلسفة فى نشر العقيدة المسيحية وتفسيرها . وقد جمع كليمينس الى قوة ايمانه بالمسيحية الالمام الواسع بالأدب الاغريقى وبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين الثقافة الاغريقية والديانة المسيحية . أما اوريجينيس فانه كان أقل من كليمينيس الماما بالآداب الاغريقية لكنه كان أعمق منه تفكيرا وأدق فهما للمذاهب الفلسفية وأكثر دراية بمناهج البحث العلمى وأوسع قدرة على الابتكار . وقد أسهمت المدرسة المسيحية فى تحقيق نص للانجيل موثوق به ، ومهما اختلف الباحثون فى تقدير طبيعة هذه المساهمة ومداها فان الشك لم يرق اطلاقا الى قيمتها الكبيرة .

وقد كانت الافلاطونية الجديدة مزيجا من فلسفة أفلاطون وارسطو والرواقيين والفيثاغورثية الجديدة . وقد أصبحت الأفلاطونية الجديدة الفلسفة الرئيسية عند الوثنيين من حوالى منتصف القرن الثالث حتى قضى چوستنيانوس باغلاق المدارس الوثنية فى عام ٥٢٩ . وكان أبرز مفكرى هذه الفلسفة امّونيوس ساكاس (Amonios Saccas) الاسكندرى وفلوطين الأسيوطى وتلاميذ فلوطين .

وكان من أوسع كتاب الاسكندرية فى أواخر القرن الثانى علما وثقافة اثينايوس (Athenaeus) النقراطيسى الذى أكسبه شهرة كبيرة كتابه الضخم «مأدبة الفلاسفة». وقد حاول أن ينحو فى كتابه نحو بعض الفلاسفة القدامى فى عرض آرائهم فى شكل أحاديث المآدب لكنه لم يرق الى مستواهم . وقد دامت « مأدبة » اثينايوس بضعة أيام دار فيها الحديث فى الفلسفة والآداب والقانون والطب وغير ذلك من الموضوعات التى مثلها عدد من الضيوف أجرى المؤلف على لسانهم مقتطفات استمدها من عدد كبير من الكتاب

وقد تمتع اخيلس تاتيوس (Achilles Tatius) ، مؤلف قصة ليوكيپى وكليتوفون (Leukippe and Klitophon) بمكانة كبيرة فى العصور المتأخرة وأفاض نقاد العصر

البيزنطى فى الثناء عليه . وأبرز ما يتصف به اخيلّس تفضيله الواقعية على المثالية وميله الى اثارة مشاعر القارىء بمهارته الفائقة فى الوصف وأسلوبه الذى يتدفق حيوية .

وتتسم كتابة التاريخ فى هذا العصر بعنايتها بالتأثير فى النفس أكثر من عنايتها بتحرى الحقيقة ، وبطلميوس خمنوس (Chemnus) خير من يمثل هذه الظاهرة التى تتضح فى مؤلفه « تاريخ جديد للاستزادة فى نواح كثيرة » . ويبدو أن هذا التاريخ مجموعة من القصص التى قرأها المؤلف أو سمعها . ولعل ابيانوس (Appianus) كان أبرز مؤرخى الاسكندرية فى هذا العصر لكن مؤلفه الضخم فى التاريخ الرومانى أكثر تأثرا بالطابع اللاتينى منه بالطابع الاسكندرى ، اذ أن ابيانوس بعد أن حصل على الجنسية الرومانية رحل الى روما وعاش هناك حيث يرجح أنه وضع مؤلفه فى عصر أنطونينوس بيوس . وقد شارك فى كتابة التاريخ أيضا العالم الفذ كلاوديوس بطلميوس لكن شهرته كجغرافى ورياضى تبز شهرته كمؤرخ . فكتابه فى الجغرافيا يتألف من ثمانية أجزاء وأطلس وكان يستهدف على حد قوله استخدام أحدث المعلومات فى تصحيح خريطة العالم التى وضعها جغرافى عاش قبله وكان يدعى مارينوس الصورى . وبرغم ما يتضمنه كتاب بطلميوس من أخطاء فانه يعتبر بوجه عام أدق المؤلفات الجغرافية القديمة وأكثرها شمولا ولذلك بقى مرجعا لكل دارسى الجغرافيا حتى بداية العصور الحديثة .

ثانيا — العلوم :

١ — الطب والجراحة :

وقد تابع أساتذة الطب والجراحة نشاطهم فى الاسكندرية وظلت هذه العاصمة القديمة تحتفظ بشهرتها فى هذا الميدان على الأقل حتى أواخر القرن الرابع عندما كتب اميانوس ماركلينوس يقول انه كان يكفى الطبيب للتدليل على مهارته قوله انه تعلم فى الاسكندرية . وينهض دليلا على مكانة الاسكندرية فى عالم الطب كثرة عدد الذين كانوا يقصدونها من مختلف أنحاء الدنيا لدراسة الطب على أساتذتها الذين تابعوا اهتمامهم بالتشريح وكان كثيرون منهم يعتزون بأنهم من أتباع المدرسة التجريبية التى ترجع الى عهد البطالمة . وقد درس فى الاسكندرية أشهر أطباء هذا العصر وأعظمهم جميعا « كلاوديوس جالينوس » الذى ولد فى برجامون فى عام ١٢٩ وزاول مهنته بعض الوقت فى وطنه ثم فى روما الى أن توفى هناك فى السبعين من عمره .

ويعطينا كلسوس (Celsus) صورة شاملة عن الطب والجراحة فى الاسكندرية فى صدر العصر الرومانى . ويستهل كلسوس كتابه عن الطب (de re medica) — وهو ينقسم الى ثمانية أجزاء — بتاريخ

طريف للطب يتضمن مقارنة بين اتباع المدرسة النظرية واتباع المدرسة التجريبية ويخصص الجزءين الأول والثانى للتغذية وعلم الأمراض والقواعد العامة للعلاج . ويناقش فى الجزءين الثالث والرابع الأمراض الداخلية وفى الجزءين الخامس والسادس الأمراض الخارجية . ويعتبر الجزءان السابع والثامن ، وهما يتناولان الكلام عن الجراحة ، أهم أجزاء هذا الكتاب . ويتبين من هذين الجزءين أن جراحى الاسكندرية لم يباشروا مختلف أنواع الجراحات المألوفة فحسب بل أيضا جراحة تجميل الوجه وكذلك جراحة الأسنان. وتحدثنا الوثائق البردية بأن بعض أطباء الاسكندرية ابتدعوا عددا من الأربطة والأجهزة التى عرفت بأسمائهم وكانت تستخدم فى حالة حدوث كسر فى العظام أو فتق فى الأغشية الداخلية .

لكن فى القرن الثالث لم تعد الظروف مواتية للأبحاث والملاحظات العلمية فقد انقضى عهد الكشوف وأصبح هم العلماء مقصورا على اكتناز المعلومات للموائمة بين ما سبق الوصول اليه وبين حاجات العصر . فلا عجب أن أخذ الطب ينحدر رويدا رويدا، وأخذ عامة الناس يلجأون الى التعاويذ والسحر والتنجيم من أجل الشفاء من المرض، بينما أخذ المثقفون ينشدون شفاء الجسم فى سعادة الروح .

٢ ـ العلوم الرياضية :

واذا كانت فروع العلم الأخرى قد أهملت فى العصر الرومانى ، فانه كان للعلوم الرياضية شأن آخر . وليس هناك مجال لأن نعزو أى فضل فى ذلك الى رعاية الرومان ، فقد كانوا يحتقرون العلوم البحتة فيما عدا ما كان يمكن افادته من تطبيقاتها .

وقد عرفت الاسكندرية رياضيين عظاما مثل منلاوس (Menelaus) وسرينوس (Serenus) وپاپوس (Pappus) الذين عنوا بدراسة الهندسة ولهم فيها مؤلفات قيمة لكن مؤلفات سرينوس لم ترق الى مستوى مؤلفات العالمين الآخرين التى ترجمها العرب وبفضلهم وصلت الى العالم الحديث . وقد كان من الاسكندرية أيضا العالم ديوفانتوس (Diophantus) الذى ابتدع نظاما خطا بالحساب خطوة واسعة نحو الجبر . أما هرون (Herun) فله مؤلفات كثيرة فى الهندسة والميكانيكا لم يصل الينا بعضها الا بالعربية والبعض الآخر باللاتينية فقط والبعض الثالث بالاغريقية والعربية واللاتينية ، واستخدمت كتبة فى المدارس عدة قرون . وتعتبر جهود هرون قبل كل شىء استمرارا لجهود ارخميدس واقليدس وكتسيبيوس ، فقد كان شديد الاهتمام بتطبيقات العلم فابتدع وسائل لمسح الأرض ورفع الأثقال واستخدام البخار وطلمبة لاطفاء الحريق وجهازا شبيها بعداد السيارات .

ويتصل الفلك بالرياضة اتصالا وثيقا . وقد كان أطول الفلكيين الاسكندريين باعا وأعظمهم شأنا كلاوديوس بطلميوس المؤرخ والجغرافى الذى سلفت الاشارة اليه . ولهذا الفلكى عدة مؤلفات ترجم العرب أكثرها ، وأهم هذه المؤلفات كتابه « المجموعة الكبرى » الذى يتضمن ما وصل اليه الفكر الاغريقى فى الفلك وفقا لنظريات هيپارخوس مع ما أضافه بطلميوس الى هذا العلم .

ثالثا ـ الفنون :

١ ـ فن المعمار :

ستتناول الكلام هنا فى ايجاز شديد عن المقابر والمنازل والمنشآت العامة والمعابد ونبين الى أى مدى تأثرت العمارتان المصرية والاغريقية ببعضهما بعضا ، والى أى مدى كذلك أثبتت العمارة الرومانية وجودها واحتفظت بطابعها فى مصر .

(أ) المقابر :

عرفنا ان الاغريق كانوا يستخدمون فى عصر البطالمة ثلاثة أنواع من المقابر وهى : (١) الحفر ، (٢) الفجوات المستطيلة (loculi) التى كانت تبنى أو تنحت فى جوانب دهاليز أو غرف ، (٣) مقابر الآرائك التى تحولت فى آخر عصر البطالمة الى مقابر ذات فجوات ومحاريب ، حيث اختفى الأرائك تماما وكان الموتى يدفنون فى توابيت كالصناديق كانت توضع فى المحاريب .

وقد أثبتت الحفائر التى أجريت فى الاسكندرية ان بعض مقابر الأرائك قد أعيد استخدامها فى العصر الرومانى وانه فضلا عن ذلك كانت تستخدم فى هذا العصر ثلاثة أنواع أخرى . وكان النوع الأول مماثلا للنوع الأول الذى كان مستعملا فى عصر البطالمة . ولا غرابة فى ذلك فقد كان هذا النوع شائعا بين عامة الناس عند الاغريق وعند الرومان على السواء . أما النوع الثانى فكان فى أبسط مظاهره يتألف من سلم وبئر (لانزال الموتى) وغرفة ذات فجوات وغرفة ذات توابيت . وكان نظام هذه الغرف وعددها وتوزيعها يختلف اختلافا بينا ، ومع ذلك فان الصلة واضحة بين هذه المقابر ومقابر عصر البطالمة . أما النوع الثالث فيشبه عن قرب المقابر الكبرى فى روما من حيث وجود غرفة مستديرة تؤدى الى غرفة الدفن الرئيسية على نحو ما نجد فى المقبرة الكبرى فى كوم الشقافة حيث استخدم للدفن التوابيت والفجوات على غرار ما كان يتبع فى مقابر النوع الثانى .

واذا كان طراز العمارة فى هذه المقابر اما اغريقى أو رومانى فان الزخرفة فيها تستوقف النظر بكثرة ما فيها من عناصر مصرية . ونجد هذه الظاهرة نفسها فى النصب الجنائزية أيضا .

وتدل الحفريات على أن الغالبية العظمى من المصريين قد احتفظوا بعمارتهم الجنائزية وطرق الدفن التى ألفوها منذ عهد بعيد . فقد كانوا يدفنون موتاهم اما فى مقابر قديمة أعادوا استخدامها أو فى مقابر حديثة كان بعضها عبارة عن كهوف طبيعة أو فجوات نحتت فى جانب التلال أو آبار حفرت فى باطن الأرض ، وكان لها بئر ينتهى بغرفة واحدة أو غرفتين للدفن .

ويتبين من الكشوف الأثرية فى تونة الجبل ، بالقرب من الأشمونين ، ان المصريين المتأغرقين كانوا يقيمون معابد وبيوتا جنائزية تختلط فيها العناصر المصرية والاغريقية اختلاطا واضحا سواء فى العمارة أم فى الزخرفة أم فى طرق الدفن .

ومما يجدر بالملاحظة ان تحنيط الموتى ظل شائعا بين المصريين وحتى بين المسيحيين منهم فانهم حتى أواخر القر الرابع لم يعتبروه مخالفا لتعاليم دياتنهم الجديدة .

وهكذا يتبين لنا أنه جنبا الى جنب العمارة الجنائزية الاغريقية والعمارة الجنائزية المصرية قد ظهرت أيضا العمارة الجنائزية الرومانية . ويستوقف النظر انه على حين نجد الأثر المصرى واضحا جليا فى زخرفة العمارتين الجنائزيتين الاغريقية والرومانية ، نجد الأثر الاغريقى واضحا جليا كذلك فى زخرفة بعض أمثلة العمارة الجنائزية المصرية .

(ب) المنازل :

وتوحى القرائن بأن اغريق المدن الاغريقية وبعض مدن الفيوم استمروا يستخدمون أنواع المنازل التى ألفوها من قبل فى عصر البطالمة ، وانه فيما يبدو أنشئت أيضا منازل فسيحة شبيهة « بالفيلات » الرومانية . أما فيما عدا ذلك فانه يتبين من المنازل الكثيرة التى كشفت الحفريات عنها فى بعض مدن الفيوم وقراها ان الاغريق كانوا كالمصريين يعيشون فى منازل مصرية تعتبر استمرارا لطراز المنازل التى عرفتها مصر منذ أمد طويل لكن يبدو ان الاغريق والمصريين المتأغرقين كانوا يستخدمون فى تزيين منازلهم زخارف اغريقية .

(ج) المنشآت العامة :

أنشأ الرومان فى جهات متعددة فى مصر عمائر مدنية متعددة الأنواع : كالبوابات والأقواس والمسارح والجيمنازيا والحمامات العامة . ويتبين من بقايا المنشآت التى كشف عنها انها كانت وفقا للطراز الرومانى فى تخطيطها وعمارتها وزخرفتها وان الطراز الرومانى فى مصر كان كشأنه فى روما وباقى أنحاء العالم الرومانى يميل الى استخدام الأعمدة الكورنثية . وعلى حين كانت المنازل تبنى عادة من اللبن كانت المنشآت العامة تبنى من الأحجار وكثيرا ما استخدم فيها، ولا سيما فى الاسكندرية ، الرخام المستورد من الخارج

(د) المعابد :

ولم يبق من معابد الاسكندرية التى أنشئت فى العصر الرومانى الا صور رمزية مصغرة لبعضها على النقود . واذا اتخذنا هذه الصور مقياسا للحكم على طراز هذه المعابد فانه يمكن القول بأن طراز أغلب هذه المعابد كان اغريقيا أو رومانيا على حين كان طراز البعض الآخر مصريا بحت وطراز البعض الثالث يغلب عليه الطابع المصرى لكنه لا يخلو من بعض العناصر الرومانية .

أما معابد الآلهة المصرية التى أكملها الرومان أو زخرفوها أو أنشأوها فى مختلف القرن والمدن المصرية فانها اقتفت بدقة تقاليد الفن المصرى القديم ولا تظهر فيها أى تأثيرات أجنبية. ويتمثل ذلك بوضوح فى معابد مدينة هابو والقلعة بالقرب من قفط ودندرة واسنا وكوم اومبو وفيلة وتالميس ودندور ودكة والمحرقة . وقد صور الأباطرة على جدران هذه المعابد فى شكل الفراعنة وزيهم وأوضاعهم وهم يقدمون القرابين لمختلف آلهة البلاد .

ويتبين لنا من كل ما أسلفناه انه اذا كان يمكن القول بوجه عام ان كلا من العمارة الاغريقية والرومانية ولا سيما المصرية قد احتفظت بطابعها الخاص فانه مع ذلك قد ظهرت حتى فى العمارة الدينية دلائل على امتزاج الأفكار والعناصر .

ثانيا ـ فن النحت :

وقد مر بنا انه كانت للاسكندرية فى عصر البطالمة مدرسة للنحت الاغريقى ذات مميزات خاصة وطرازين أحدهما مثالى والآخر واقعى ، وان الاسكندرية ابتكرت فرعا جديدا من فن النحت كان عبارة عن دراسة أجناس الناس وطباعهم وحرفهم .

واذ ساد العالم الرومانى اتجاه قوى نحو صنع تماثيل تحاكى أشكال أصحابها محاكاة دقيقة كأنها من صنع آلة تصوير أو ريشة رسام وجد فنانو الاسكندرية فى هذا الاتجاه مجالا واسعا لابراز مواهبهم واتسمت منتجاتهم بطراز مدرستهم وبطابعها الاغريقى البحت . ويتصل بهذه الصور المصنوعة من الرخام أو المرمر أو مختلف أنواع الصخور مجموعة رائعة من الصور كشف عنها فى الفيوم وكانت تصنع بالألوان على لوحات مكسوة بالشمع وتعلق على جدران المنازل فى أثناء حياة أصحابها ثم تغطى بها وجوههم بعد مماتهم . وقد بدأ انتاج هذه اللوحات فى القرن الأول بعد الميلاد وبلغ ذروته من حيث المهارة والابداع فى القرن الثانى .

وقد تابع الفنان المصرى نشاطه فى التماثيل وعلى جدران المعابد ونصب الموتى ومختلف النواحى التى كان أسلافه يألفونها منذ القدم .

ويتبين من دراسة فن النحت فى العصر الرومانى :

١ — ان أكثر النقود التى سكها الرومان وكثيرا من قطع النحت التى ابتدعها الفنانون الاغريق اغريقية بحت فى طرازها وعناصرها وصبغتها ، وان كثيرا من قطع النحت المصرية وكل لوحات المعابد مصرية بحت فى طرازها وعناصرها وصبغتها .

٢ — ان الكثير من النقود وقطع النحت تختلط فيها العناصر دون الطرز مثل تصوير اله مصرى أو بوابة معبد مصرى أو تاج مصرى على تلك السلسلة من النقود التى تعرف بنقود المديريات ، فهذه عناصر مصرية الا أن طراز النقود اغريقى . ومثل صنع تماثيل لآلهة مصرية بطراز اغريقى أو صنع تماثيل لاغريق أو رومان من السيماقى أو الجرانيت أو غير ذلك من المواد الغريبة عن الفن الاغريقى . ومثل تصوير الأباطرة الرومان بطراز وملابس مصرية . وقد سلف القول ان المقياس الحقيقى فى أى فن من الفنون هو الطراز باعتباره مظهر تفكير الفنان وطابع حضارته . ولذلك فان اختلاط العناصر ان دل على شيء فانما يدل على أثر البيئة لا على أثر الحضارة .

٣ — ان فى الكثير من قطع النحت محاولات واضحة وان كانت غير ناضجة لمزج الطرازين المصرى والاغريقى . وهذه القطع أدنى قدرا فى قيمتها الفنية من القطع التى طرازها اغريقى بحت أو مصرى بحت ، ومع ذلك فان عددها ازداد على مر الأيام . وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لازدياد الاختلاط بين الاغريق والمصريين وازدياد اندماج الاغريق فى المصريين . وكان هذا الفن المزيج مرحلة الانتقال التى مهدت لقيام الفن القبطى .

٤ — ان الفنين الاغريقى والمصرى أخذا ينحدران رويدا رويدا ولم يحل دون انهيارهما السريع الا تقاليدهما القديمة ومهارة الفنانين المتوارثة . ولما كان الفن المصرى القديم يقوم على الديانة ، شأنه فى ذلك شأن باقى مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، فان اعتراف الدولة رسميا بالمسيحية أفضى الى القضاء عليه قضاء مبرما .

من ديوقلديانوس إلى دخول العرب

للدكتور مراد كامل

مقـــدمة

فى الشطر الثانى من حكم الرومان ، أى من ديوقلديانوس الى دخول العرب، تأثر تاريخ مصر بعاملين رئيسيين وهما : المسيحية والسياسة البيزنطية .

وسنقدم لهذا العصر بكلمة موجزة عن سياسة الأباطرة العامة ، من ديوقلديانوس الى هرقل، ثم نتبعها بنظام الادارة فى مصر والنظام المالى والجيش والحالة الاقتصادية .

وسنعرض فى الفصول الخمسة التى تلى المقدمة الألوان المختلفة لحياة الشعب المصرى من سياسية ولغوية وفكرية وفنية واجتماعية فى هذا العصر ، وسيتضح لنا من هذا العرض كفاح الشعب المصرى للاحتفاظ بشخصيته وكيانه ضد الحاكم المغتصب .

وقد كان للاسكندرية الزعامة الدينية فى الشرق المسيحى ، وفى مصر نشأت الرهبنة التى أخذها عنها العالم المسيحى ، وفى مصر ظهر أعظم رجال الفكر المسيحى . وكانت مصر منذ فجر تاريخها الممعن فى القدم أرضا خصبة ، بفضل نيلها وطبيعة أهلها الذين اتسموا بالمثابرة على العمل والسماحة والمسالمة . ولم يمنع هذا أن يعم البؤس البلاد فى هذا العصر ، وذلك بسبب فساد اداة الحكم واستغلال الحكام ، مما دعا الشعب الذى كان يعيش فى هذا الجو الفاسد أن يبغض حكامه ويحتقرهم وأن يتطلع الى الاستقلال والحرية وحياة أفضل .

وكان دخول العرب فرصة مواتية أحدثت تغييرا شاملا فى السياسة وفى الدين ، ووجهت مصر وجهة جديدة نحو الشرق والاتصال بشعوب الشرق ، بعد أن كانت صلاتها الحضارية مقصورة على الغرب أو بعبارة أدق على الحضارة الاغريقية .

* * *

من ديوقلديانوس الى هرقل (٢٨٤ ــ ٦٤١)

ديوقلديانوس ٢٨٤ ــ ٣٠٥ .

تولى ديوقلديانوس الحكم فوجد نفسه أمام مجموعة من اللوائح والقوانين والنظم ــ التى تسير عليها سياسة الامبراطورية ــ لا تتمشى وحاجة عصره . فحاول أن يعالج الموقف بادخال تغييرات أساسية فى سياسة الدولة ، وذلك ليتفادى الانهيار المتوقع للامبراطورية وليمنع الاضطرابات التى كانت تسود الدولة عند موت الامبراطور وتولى خليفة له .

أدخل ديوقلديانوس اصلاحات عديدة على النواحى المختلفة فى الدولة ، فجعل من الامبراطور شخصية مقدسة تؤدى لهـا فروض العبادة بمقتضى طقوس دقيقة مرسومة استمدها من تقاليد الشرق .

كما ركز فى الامبراطور سلطة الحاكم المطلق فأصبح يقبض على كل السلطة الادارية . وشل سلطة السناتو وألغى وظيفة المستشار وجعل كل الولايات خاضعة للامبراطور فلم تعد هناك ولايات خاضعة للسناتو ، كما ألغى الامتيازات الممنوحة للولايات التى كانت من الأصل تخضع للامبراطور ، ثم أدمج الولايات فى وحدات ادارية وركز كل ادارات الامبراطورية فى أيدى موظفين وادارات تابعة مباشرة للامبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية .

وحاول ديوقلديانوس أن يحل المسألتين اللتين كانت تتوقف عليهما سلامة الامبراطورية ، وهما الدفاع عن البلاد وتنظيم وراثة العرش .

وكان ديوقلديانوس يعتقد أن الدفاع عن حدود امبراطورية مترامية الأطراف لا يمكن أن يتولى أمره امبراطور واحد . وقد حمله ذلك على أن يشرك ماكسيميان معه فى الحكم وذلك فى سنة ٢٨٦ وأسند الى ماكسيميان الدفاع عن الغرب واحتفظ لنفسه بالدفاع عن الشرق . أما وراثة العرش فلم يكن لها نظام متبع ، وكانت المطامع فى ارتقاء العرش من المشاكل التى تواجهها الامبراطورية عند موت الامبراطور . وفى سنة ٢٩٣ قرر ديوقلدبانوس أن يتولى الحكم امبراطوران فى نفس الوقت ، أحدهما للشرق والآخر للغرب ، ويحمل كل منهما لقب «أوغسطس» على أن يستعين كل منهما بشريك يكون وريثه فى العرش ويحمل لقب « قيصر » .

من قسطنطين الى يوستنيانوس (٣٢٣ - ٥١٨) .

اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية فى عهد قسطنطين الذى هو فاتحة التاريخ البيزنطى . وقد شيد قسطنطين على مدينة بيزنطة القديمة مدينة جديدة استمدت اسمها من اسمه وعرفت بالقسطنطينية ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية فأخذت تنمو وتزدهر بخطى سريعة .

وأضفى قسطنطين على اصلاحات ديوقلديانوس الصبغة النهائية ، حتى أصبح للامبراطورية البيزنطية طابعها الخاص ، وانحصرت السلطة الادارية والحكومة فى البلاط الامبراطورى ، وكان مركز الدولة ، وأصبح الناس يخدمون الامبراطور بعد أن كانوا يخدمون الدولة .

واعتلى العرش بعد قسطنطين ما يزيد على العشرين امبراطورا ، أهم ما يعنينا من أمرهم مناصرة كثير منهم للهراطقة ومناصبتهم الكنيسة المصرية عداء شديدا بسبب وقوفها فى وجه أولئك الهراطقة .

وكانت هـــذه الفترة مليئـة بالقلاقل والاضطرابات لا استقرار فيها . فتارة يصير الأمر فيها لامبراطور واحـــد وتارة توزع السلطة بين امبراطورين أحدهمـا فى الشرق والآخر فى الغرب . ويرجع عدم الاستقرار الى أمور مختلفـة أهمهـا : أن القوى الحيـة للامبراطورية كانت كلهـا فى الشرق . وأن المسيحية تطورت فى الشرق بطريقـة تختلف عنها فى الغرب . وان هجمـات البربر على الغرب كانت أشد أثرا منها على الشرق .

أسرة يوستنيانوس (٥١٨ ـ ٦١٠)

كان حكم يوستنيانوس تطورا طبيعيـا وضروريا فى تاريخ الامبراطورية . فقد ضحى أباطرة القرن الرابع بسلطانهم على الغـرب فى سبيل سلامة الشرق . ولكن يوستنيانوس أخذ يتطلع الى الغرب منذ بداية حـكمه ، وساقته مطامعه الى محاولة استعادة الماضى . واستنفد جهدا كبيرا ليبعث من جديد هـذا الجزء الميت من الامبراطورية مما أدى الى انهاك قوى الجزء الحى .

وكان من جراء فكرته فى استعادة مجد الامبراطورية الرومانيـة ، حروبه العـديدة فأمكنه أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحرا رومانيا ولكن سرعان ما اضطرته حروبه فى الشرق الى أن يكف عن الحروب ، وأن يقوم بانشاء سلسلة من التحصينات جعلت من الامبراطورية ميدانا مجزأ .

وقـــد ظن يوستنيانوس أنه سيعيـد تأسيس الامبراطورية على أساس سـليم ، فعمد الى وضع نظام من شأنه أن يجعـــل الرخاء يسود كما كان فى روما أيام مجدها . وســلك فى ذلك طرقا تتلخص فى أعمـــاله التشريعية وفى اصلاحاته الداخلية .

أعماله التشريعية :

كانت روما فى مقدمة البلاد التى عنيت بالتشريع بل تعتبر مؤسسة علم القـانون . وعلى أساس هذا العلم أوجدت الدولة نظام الوحدة الذى بنى على سـلطة الامبراطور المطلقة .

وقد أدرك يوستنياتوس عظم الفـائدة التى يمكن أن تعـود على الامبراطورية اذا جمع مصادر القـــانون الرومانى الذى كان معمولا به عندئذ ونشرها على نحـو يمكن تداوله والرجوع اليه . وقد نهض بهذا العبء عدد من أبرز فقهاء الرومان . ومنـذ ذلك الوقت غدت هـــذه المجموعة من القوانين المرجع الذى تعتمد عليه المحـاكم ومدارس القـــانون فى الامبراطورية ، بل أصبحت المصدر الذى استمد منـه القـانون المدنى الحديث .

وقد أطلق على هذه المجموعة « مجموعة قوانين يوستنيانوس » . وهى تنقسـم الى أربعة أجزاء :

١ ـــ مدونة يوستنيانوس وقد نشرت أولا فى عام ٥٢٩ ثم روجعت ونشرت ثانيـة

فى عـــام ٥٣٤ وكانت عبارة عن مجموعة تشريعات الأباطرة التى كانت لا تزال نافذة المفعول .

٢ — البندكت أو المجمل وقد نشر فى عـام ٥٣٣ وكان يتضمن مقتطفات مما كتبه أبرز فقهاء القانون الرومانى ، ورتبت هــذه المقتطفات بحيث تستكمل مالم يرد فى المدونة من أحكام القانون المدنى .

٣ — القوانين وكانت كتابا موجزا وضع خصيصا ليستخدمه طلبة القانون .

٤ — المراسيم الجديدة التى أصدرها يوستنيانوس بعد سنة ٥٣٤ وعـددها ١٦٨ مرسوما .

ومن الملاحظ أن الأجزاء الثلاثة الأولى كتبت باللاتينية وأما الجـزء الأخير فكتب باليونانية .

اصلاحاته الداخلية :

التفت يوستنيانوس لتحسين الحيـــاة الداخلية فى الامبراطورية ، فاتخذ عدة وسائل للاصلاح بعد ما شاهد استياء الشعب من الموظفين ومن سياسة الامبراطور مما أدى الى قيـام ثورة فى القسطنطينية نفســها سنة ٥٣٢ . فأصدر تشريعات لأجل اصلاح الوظائف الحكومية كان منها الغاء الوظائف الزائدة على الحاجة ، ورفع مرتبات الموظفين واعادة الجمـع بين الســلطتين المدنيــة والعسكرية ، واتخــذ خطوات ايجابيــة من شأنها أن تجعل للموظفين بعض الاستقلال فى الادارة مع ربط الادارات بالسلطة المركزية . وحد من امتيازات كبـار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقــة الوسطى ، وعائقا فعالا فى تقدم الدولة ورفاهيتها .

ولكن كل هذه المحاولات الاصــلاحية باءت بالفشــــل ، والسبب فى ذلك هو الامبراطور نفسه لأنه كان فى حاجة ملحة الى المال لمواجهة النفقــات الباهظة التى كانت تتطلبها حروبه الكثيرة ومنشآته المختلفــة ، فألح على وكلائه فى جمع المال على أية صورة وفرضت ضرائب جديدة ، ثم غير العمــلة وجعل الموظفين مسئولين شخصيــا عن جمع الضرائب ، فاتخــذوا من جانبهم اجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب ارضــــاء للامبراطور ، فكان هو العامل الأول فى هدم اصلاحاته .

أما سياسته الدينية فقــد أصــدر يوستنيانوس مراسيم سنتى ٥٢٧و٥٢٨ ضد الهراطقة وأصحاب البدع ثم أمر باغــلاق مدرسة أثينا الوثنية سنة ٥٢٩ ، وكان عصره عصر نزاعات مستمرة بين المذاهب المسيحية المختلفــة . وعاش الهراطقــة بالرغم من الاضطهادات بل كان رؤسـاؤهم يسكنون القسطنطينيــة نفســها . وفشلت سياسته الدينية وكان سبب فشلها على الأكثر سياسة الغرب ، هــذه السياسة التى أنهكت قوى الامبراطورية فلم تعد تحتمل هجمات العدو

فى شرقها ، وهى التى استنفدت مالية الدولة وأحبطت الاصلاح الادارى ، وهى التى أضاعت الفرصة على الدولة فى النهاية لتوحيد المسيحية فى الشرق وهى فى أشد الحاجة الى ذلك .

الحالة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس :

كانت حياة النساك والرهبان الذين يعيشون فى صحارى مصر وفلسطين داعية لتشجيع الامبراطور يوستنيانوس والامبراطورة تيودورا للرهبنة عامة ، فأخذت فى الانتشار والتطور ، وكان لهذا أثره فى الحياة الاجتماعية . كان هؤلاء الرهبان يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون بالتدريج فى الحياة السياسية وفى حياة البلاط . وأخذ عددهم يزداد ، وانهالت عليهم الوقفيات والهبات والتبرعات وكانت معفاة من الضرائب فى أغلب الأحيان . فظهرت بذلك طبقة جديدة فى المجتمع لها امتيازات ولها أثرها فى الحياة الاقتصادية .

وهناك خاصية أخرى كان لها أثرها فى الحياة الاقتصادية فى عهد يوستنيانوس فقد قام بأعمال انشائية عديدة مثل تعبيد الطرق وانشاء القناطر وتشييد التحصينات والقلاع ومد أنابيب المياه وبناء الكنائس والأديرة . وكان المظهر الأول لكل هذه المنشآت يدل على أن الدولة فى حالة رخاء ، ولكن سرعان ما اضطرته المحنة المالية — لما استنزفته هذه الأعمال من أموال باهظة — الى وقفها بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الشعب من جديد.

أما تجارة الدولة فقد شجع يوستنيانوس بعض المراكز التجارية الأساسية ومنحها بعض الامتيازات فزاد من نشاطها . وكانت مشكلة الامبراطورية هى صلتهما بالشرق الأقصى للحصول على منتجات الهند والصين. وكانت التجارة الشرقية تصل الى الامبراطورية اما برا عبر الطريق الشمالى الذى كان يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الاسود ، واما بحرا عن طريق الخليج الفارسى أو عن طريق البحر الأحمر . ولما كان الفرس ينقلون جانبا كبيرا من التجارة الشرقية فقد حاول يوستنيانوس أن يحول التجارة الشرقية اما الى الطريق الشمالى أو الى طريق البحر الأحمر ، وذلك من ناحية ليتفادى وساطة الفرس ومغالاتهم فى فرض الضرائب ، ومن ناحية أخرى ليزيد نصيب الامبراطورية من التجارة الشرقية . ولكن يوستنيانوس فشل فى ذلك ولم تتمكن بيزنطة من التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية .

خلفاء يوستنيانوس (٥٦٥ — ٦١٠)

مات يوستنيانوس والدولة فى حالة افلاس وقد عم البؤس أفراد الشعب . وارتاح الجميع لموته ، ولكن خلفاءه لم يجدوا حلا للمشكلة المالية التى ترتبط بها الادارة الداخلية برباط وثيق . وقامت معارضة قوية ضد سلطة الامبراطور المطلقة . كما نشأ خلاف شديد بين البابا جريجوريوس

وبين بطريرك القسطنطينية . كل هذا والعدو لم يكف لحظة عن مهاجمة حدود الامبراطورية .

هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١)

كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطى حلكة ، فقد كان عصر أزمة خطيرة وضح فيها أن كيان الامبراطورية أصبح فى مهب الريح .

تطرق الركود الى الحضارة البيزنطية فى القرن السابع فلم يظهر فى هذا القرن كتّاب أو مؤرخون أو قام أحد بعمل انشائى ذى بال . وعم الخوف الناس فى هذا القرن وانتشرت فيه الخرافات .

ولم يكن هذا كله ليدل على سقوط الدولة النهائى بل أظهر أن الأزمة متأصلة وأن على الامبراطورية أن تتفاداها بمحاولة تغيير اتجاهاتها . وكان السبب الأول فى هذه الأزمة هو محاولة يوستنيانوس الفاشلة فى اعادة الروح الرومانية الى الامبراطورية وتوحيد الشرق والغرب .

ولم يبق أمام الدولة الا أن تخضع للعوامل الجغرافية والجنسية والاقتصادية والدينية والادارية ، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا وأصبحت امبراطورية يونانية شرقية بعد أن كانت امبراطورية رومانية ، وقد مكنها هذا الوضع من أن تحافظ على ما تبقى لها بعد استيلاء العرب على أهم أقاليمها واستيلاء السلاف على شبه جزيرة البلقان ، وكتب للامبراطورية البيزنطية البقاء حتى القرن الخامس عشر .

النظام الإدارى والمالى ونظام الجيش والحالة الاقتصادية
فى مصر فى العصر البيزنطى

النظام الادارى :

عندما اعتلى ديوقلديانوس العرش كان أول ما اتجه اليه هو فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية وتوحيد النظام الادارى فى كل أنحاء الامبراطورية . ولذلك أعاد تنظيم مصر فقسمها الى ثلاث مقاطعات هى مصر الجوبيترية ومصر الهرقلية وطيبة . ويحتمل ان هذه المقاطعات كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى الشطر الأول من العصر الرومانى . وفى عهد قسطنطين الثانى تكونت فى عام ٣٤١ مقاطعة رابعة « الأغسطمنية » من الأقاليم الشرقية فى المقاطعتين الأولى والثانية . وفى عهد ثيودوسيوس الأول أضيفت ليبيا الى مصر فأصبحت المقاطعات خمسا . وحوالى أواخر القرن الخامس غير اسم المقاطعتين الأولى والثانية فأصبحتا على التعاقب مصر واركاديا.

ولما كان ديوقلديانوس وخلفاؤه حتى يوستنيانوس يرون ضرورة فصل السلطتين المدنية والعسكرية فقد وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء البلاد حاكم عام كان يهيمن على شئون الادارة والمالية والقضاء وأسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وكانت المقاطعة الأولى خاضعة لنفوذ الحاكم العام مباشرة . اما المقاطعات الأخرى فقد كان يتولى حكمها رؤساء يقيم كل منهم فى مقاطعة ويخضع للحاكم العام الذى كان بدوره يخضع « لحاكم أو دوق الشرق » . وعندما ضمت ليبيا الى مصر منح الحاكم العام لقبا ممتازا وقسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص .

وقد تبع تقسيم البلاد الى مقاطعات اعادة تنظيم الادارة المحلية فى أوائل القرن الرابع ، فلم يعد هناك وجود عملى للمديريات فانها قسمت الى أقاليم أصبحت هى الوحدات الفعلية فى الادارة المحلية ، وترتب على ذلك بطبيعة الحال الغاء منصب المدير أو القائد وكذلك الغاء منصب الكاتب الملكى . وكان أهم الحكام المحليين مراقب جمع الضرائب (Exactor) واليه وانتقلت اختصاصات القائد فى الشئون المالية . اما اختصاصات القائد المدنية فانها انتقلت الى حاكم آخر (Logistes) كان فى الأصل ممثل السلطة المركزية لكنه أصبح حاكما محليا دائما يتمتع بنفوذ فى الأقاليم والمدن على السواء وآلت

اليه اختصاصات حكام المدينة القدماء فزالوا بالتدريج . وبعد القرن الرابع حل مكان هذا الحاكم (Logistes) حاكم آخر (Defensor) ، وقد ظلت مجالس الشورى قائمة وألقيت عليها المسئولية كاملة عن الادارة العامة والادارة المالية ، وغدت عواصم المديريات بلديات على النمط الرومانى تتمتع بحكم ذاتى ويدخل فى نطاق كل منها منطقة ريفية .

وكان الهدف من كل هذه التغييرات هو أن تخضع مصر بالتدريج لعادات وقوانين الولايات الأخرى فى الامبراطورية بالرغم من اختلاف العوامل الجغرافية . وقد كان من آثار الرغبة فى التوحيد والتبسيط أن اعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت اليونانية لغة رسمية فيها مثل مصر . ولكنه لم يكن لهذا القرار أثر فعال فى مصر ، فقد ظلت اليونانية لغة المحاكم والادارات الحكومية . وكانت القرارات العامة تصدربها . وربما كان الأثر الوحيد لهذا القرار أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى اطار لاتينى أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وقد يكتب الحاكم ملاحظاته باللاتينية ، أما اقوال الطرفين والشهود واحكام القضاة فظلت تكتب باليونانية . .

وكذلك غيرت طريقة تأريخ الوثائق القانونية فاستبدلت بسنوات حكم الامبراطور سنوات القناصل مع ذكر موقع العام من دورة تقدير الضرائب ، وكانت تحدث مرة كل خمسة عشر عاما . وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية فى عصر يوستنيانوس واعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الامبراطور .

لم يكد يوستنيانوس يعتلى العرش حتى ادخل تعديلين على نظام الادارة فى مصر قضى احدهما على اعتبار مصر وحدة ادارية واحدة، اذ أن هذا الامبراطور قصر نفوذ الحاكم العام على المقاطعة الاولى وسوى بينه وبين حكام المقاطعات الاخرى وجعلهم جميعا خاضعين لدوق الشرق . اما التعديل الآخر فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية واسنادهما معا الى حكام المقاطعات فأصبح كل منهم فى مقاطعته رئيس الادارة والشرطة والقضاء والمالية ، لكن حاكم المقاطعة الأولى هو الذى كان يجمع فى الاسكندرية كل ضرائب مصر نوعا ونقدا ثم يرسلها الى بيزنطة .

وكانت سلطة حكام المقاطعات محدودة فكانوا يلجأون الى القسطنطينية لتمدهم بالجند فى حالة قيام اضطرابات أو ثورات داخلية . وكان هؤلاء الحكام فى أول أمرهم أجانب ، ولكن رأى الأباطرة فيما بعد أن يختاروهم من بين اليونان المقيمين فى مصر وأقر هذا التصرف يوستين الثانى سنة ٥٦٩ . وكان الامبراطور يقر تعيين الحاكم الذى يرشحه الأساقفة وكبار الملاك وعظماء البلاد.

الجيش :

منذ قرر ديوقلديانوس فصـــل السلطتين المدنية والعسكرية لم يعد الجيش خاضعــا لحاكم مصر العام فقد أسندت قيادة الجند الى قائد مستقل . وعندما ضمت ليبيا الى مصر وبذلك أصبح عدد المقاطعات خمسا قسمت قيادة الجيش بين ثلاثة أشخاص . وعنــدما عــدل يوستنيانوس عن فكرة الفصــل بين السلطتين المدنية والعسكرية لم يؤد ذلك الى توحيد قيادة الجيش فى مصر وانما الى تقسيمه خمس وحدات بعدد المقاطعات وخضوع كل وحدة منها لامرة حاكم المقاطعة ، وكان حكام المقاطعات يخضعون لقائد الشرق الذى كان مقره القسطنطينية .

وسرعان ما تفاقمت الأحوال لأن واجبات الحاكم المدنية أبعدته عن حياة الجيش وتبعا لذلك عن متابعة تطور الفنون الحربية . ولم يزد عدد رجال الجيش على ثلاثين ألف جندى وزعوا على المراكز الحربية المختلفــة على الحدود وفى الداخل ثم فى المــدن الكبرى . وكان الوجه البحرى محصنا تحصينا قويا فى الزوايا الثــلاث للدلتا ، فى الفــرما شرقا والاســكندرية غــربا وفى بابيلون « مصر القديمة » حيث كانت بها حامية كبيرة منــذ الفتح الرومانى .

وفى الوجــه القبــلى أنشئت على طول الوادى مراكز حربية فى المواقع الهامة مثــل قفط ، وأسوان .

والواقع أن لجيش فى مصر فى العصر البيزنطى كان جيشا هزيلا يقوده رؤساء غير أكفاء ، ويتكون من جنود مرتزقة لا يتصفون بأية صفة عسكرية . وكان واجبهم هو قمع الاضطرابات الداخلية ومساعدة الحكام على جمع الضرائب أى أن عملهم كان قاصرا على عمل رجال الشرطة . وقد أصبح للجندى حق الزواج واتخاذ مهنة مدنية أثناء مدة خدمته فى الجيش .

النظام المالى :

لمــا كانت بيزنطــة — مثل رومــا — تستهدف ابتزاز ثروة مصر ، فان الضرائب لم تتناقص طوال العصر البيزنطى عما كانت عليه من قبل بل ازدادت باطراد فساءت حال الناس وأصبح جمع الضرائب مهمــة شاقة . ولم يتورع الموظفون عن استخدام مختلف ضروب القسوة لجمع الضرائب . ولذلك أخذ الناس فى الالتجاء الى الصحراء هربا من المعــاملة القاسية التى كان يعامل بها كل من تأخر فى دفع الضريبة ، فقد كانت توقع عليه الغرامات والضرائب الاضافية ثم تصادر أملاكه ويزج به فى السجن وويل لمن حاول المقاومة .

وكانت أكثر الالتزامات تقــع على عاتق صغار الملاك الذين ازداد عددهم فى العصر الرومانى الى أن اضطرهم جور الحكومة الى النزول عن أراضيهم لبعض جيرانهم الأثرياء ذوى النفوذ ، فأخــذت طبقــة صغار الملاك تختفى تدريجيا خــلال القرن الخامس حتى

لم يعد لها وجود فى بداية القرن السادس . ولم ينافس هؤلاء السادة الا الأديرة التى أخذت تضيف باستمرار أملاكا جديدة الى ممتلكاتها ، وأصبحت أقاليم كاملة تخضع لسلطان الأديرة التى تمتعت باعفاء أملاكها من الضرائب ، وازدادت تدريجيا الضياع الواسعة ، فأصبح معظم أراضى الامتلاك الخاص وجانب كبير من أراضى الدولة فى قبضة فئة صغيرة من كبار ملاك الأراضى .

الحالة الاقتصادية :

كان قوام ثروة مصر حاصلاتها الزراعية وأهمها الحبوب والكروم والزيتون والنخيل والمواشى ، وكان الجزء الأكبر من هذه الحاصلات يدفع لتسديد الضرائب ويصدر الفائض عن الحاجة الى خارج البلاد .

وعرفت مصر منذ العصر الرومانى بصناعاتها الخزفية والعاجية والزجاجية وبخاصة المنسوجات .

كما عرفت مصر بصناعة أوراق البردى التى ظلت تجارتها مزدهرة حتى القرن السابع الميلادى، وذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها . ولم يلتفت الحكام البيزنطيون الى استغلال المناجم فى مصر ولكنهم اكتفوا باستخراج المرمر والبازلت والجرانيت لتصديره .

وكان لأصحاب كل حرفة فى مصر نقابة ، تخضع لموظف مسئول عليه مراقبة الأسعار وتحصيل الضرائب . وكانت هناك أسواق كبيرة سنوية ، وأسواق أسبوعية فى القرى لبيع المحصولات والمنتجات .

وكانت مصر من الناحية التجارية هى الطريق الذى يتوسط الشرق الأقصى والغرب ، وكانت السفن تأتى من الصين والهند مارة بباب المندب محملة بالأفاويه والأخشاب والحرائر والأوانى الخزفية ، فتخترق البحر الأحمر ثم ترسو فى الموانى البيزنطية التى ورثتها بيزنطة عن البطالمة . وكانت أكثر البضائع تفرغ فى منطقة القصير ، ومن ثم تحملها القوافل الى قفط ، ومنها تشحن فى مراكب تقطع المسافة بين قفط والاسكندرية فى اثنى عشر يوما . وكانت البضائع الافريقية تسير فى هذا الطريق قادمة من عدول ــ ميناء مملكة أكسوم الاثيوبية ــ وتتضمن الزمرد من بلاد البليميين ، والعاج من اثيوبيا ، والأبنوس من أواسط افريقيا ، والذهب من المنطقة التى أطلق عليها الرحالة كوزماس اسم ساسو . ومنذ القرن السادس الميلادى اضطر التجار أن يسلكوا طريقا آخر ، لأن الطريق القديم أصبح غير مأمون بسبب هجمات البليميين . فكانت البضائع تحمل فى البحر الأحمر حتى القلزم(السويس) ثم تتجه غربا فى القناة التى كانت تصل السويس ببابيلون (تقابل الآن ترعة الاسماعيلية) . وكانت البضائع تحمل من بابيلون الى موانى البحر الأبيض المتوسط

عن طريق النيل . وفى القرن السابع أصبحت قناة بابيلون غير صالحة للملاحة .

وكانت حاصلات بلاد مابين النهرين وفلسطين تحملها القوافل فى طريق يصل الى غزة فالفرما ، وهذا هو الطريق الذى أسماه الفراعنة « طريق حورس » وكانت القوافل تمر بمنطقة قريبة من القنطرة الحالية لتصل الى بلبيس فأون (هليوبوليس) ومنها الى الاسكندرية . وكانت البضائع تنقل اما على المراكب فى فروع الدلتا ، واما فى قوافل من جمال وحمير ، ولم تستخدم الخيل لأنها كانت مخصصة للجيش منذ العصر الرومانى.

كانت التجارة فى العصر الرومانى مزدهرة فى مصر ، ولكنها أخذت تتعثر فى العصر البيزنطى ، فموانى البحر الأحمر ما فتئت أهميتها تتضاءل ، حتى لم يبق على البحر الا ميناء القلزم ، وذلك بسبب منافسة الفرس الشديدة التى أفضت الى تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية الى الخليج الفارسى . وقد حدا ذلك بالامبراطور يوستنيانوس الى العمل على التخلص من وساطة الفرس فى التجارة الشرقية واعادة النشاط التجارى فى البحر الأحمر الى سابق عهده ، لكنه لم يصب فى ذلك نجاحا مذكورا .

وفى عصر يوستنيانوس قام كوزماس التاجر الاسكندرى برحلة فى البحر الأحمر والخليج الفارسى ، وزار اثيوبيا والساحل الشرقى لافريقيا حتى وصل زنجبار ، ثم عاد المراكب فى فروع الدلتا ، واما فى قوافع من عكف عند منتصف القرن السادس على كتابة ملاحظاته القيمة فى كتابه المسمى «الطوبوغرافية المسيحية» . وكانت مصر محط أنظار رجال الفكر فى العالم فتوافدوا اليها لزيارة آثارها ، ولمشاهدة الحياة الديرية المصرية ، ولتلقى العلم فى مدارسها الشهيرة فى ذلك العصر . نذكر منهم اسيوس القرطبى، وجريجوريوس النزيانزى ، وصديقه باسليوس ، وأوسبيوس ، والقديس هيرونيموس (جيروم) ، وبولس الأوروسى ، وبطرس الايبيرى ، وبلاديوس ، وروفينوس، وكاسيانوس .

وقد شاهد هؤلاء الرجال مصر ووصفوها — كما نراها اليوم — بحقولها النضرة فى الدلتا تخترقها القنوات وفروع النيل ، كما شاهدوا الوجه القبلى وقد حدت الصحراء من منطقته المزروعة . وكانت القرى — كما كانت عليه فى العصر الفرعونى — لم تتطرق اليها الحضارة الاغريقية . وكانت مصر تعج بالأديرة التى تضم بين جدرانها مئات من الرهبان .

وقد تدهورت الحال فى مصر وحاول الأباطرة عبثا انعاشها بشتى الطرق الادارية فكان الحكام على جانب كبير من الضعف ولا هم لهم الا جمع الضرائب ، وارضاء الموظفين. وعم البؤس الفلاحين فاضطروا منذ القرن السادس أن يلتجئوا الى كبار الملاك لحمايتهم فأضاعوا أملاكهم وحريتهم ، وكان فى ذلك قضاء على الملكية الصغيرة التى هى كيان

اقتصاد الدولة المنظمة وقوام حياتها الاجتماعية . وازداد عدد كبار الملاك ، بالرغم من محاولات الأباطرة المتعددة فى منع هذا الازدياد والحد من تفاقم سلطانهم ، وتكونت الاقطاعيات مما كان له أكبر الأثر فى تدهور أحوال البلاد .

* * *

كان انهاك الشعب بالضرائب مصدرا من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة فى ارهاقه ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه . وكانت مصر فى نظر الأباطرة حقلا كبيرا ينتج الحبوب فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهى ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجما من ذهب لا ينضب معينه . ولم يهمهم أمر رخاء وادى النيل كما لم يهمهم أمر الأمن فى الأرياف ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين وقت وآخر .

وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم وبتصرف موظفيهم .

وكان يوستنيانوس أول من أصدر مرسوما (المرسوم الثالث عشر) يشكو فيه من الوسائل التى يتخذها الموظفون ومن اهمالهم فى ترميم المنشآت العامة . وحاول أن يعالج الشقاء بصرف مقدار كبير من القمح لفقراء الاسكندرية ، وكان لم يصرف لهم أى شىء منذ أيام ديوقلديانوس .

ولم نسمع طوال الحكم البيزنطى أن أحد أبناء الشعب النابهين ظهر لينقذ البلاد من براثن الاستعمار الأجنبى ، أو أن يحد من نشاطهم الهدام ، أو يطالب بأحقيته فى الحكم.

وكان البطريرك — وقد سلمه الشعب قيادته — يمنعه مركزه الدينى وكرامته ووطنيته من الخضوع لارادة الأباطرة ولكنه كان مضطرا لمسالمتهم .

وكان من أهم أسباب انهيار الامبراطورية مقاومة الشعب المستمرة فى تأدية الضرائب المطلوبة ، فكان يتهرب من دفعهما ، ويترك أراضيه ، وصناعته ، ويفضل أن يجلب على نفسه الخراب على أن يدفع الضرائب . وكانت المعاملة الفظة التى يلاقيها من جامعى الضرائب تضطره الى دخول الدير أو الانضواء تحت حماية كبار الملاك .

وشل هذا حركة الدولة المالية ، وزاد الطين بلة أن رجال الدين والرهبان أثقلوا كاهل الميزانية فضلا عن أنهم كانوا لا يدفعون شيئا للدولة .

وكان لسخط الشعب وثوراته وعدم استتباب الأمن فى الأقاليم ، والاضطرابات فى العاصمة ، والاضطهادات ضد الوثنيين واليهود ، أثرها الفعال فى القضاء على التجارة والصناعة ، وذلك بالرغم من طبيعة الشعب فى حب العمل .

كانت هذه الأحوال كلها باعثا للمصريين على الترحيب بالعرب ، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة .

الفصل الأول

الحيـــاة السياسية

دخلت المسيحية مصر فى منتصف القرن الأول الميلادى ، فى وقت كانت فيـه أفكار الناس حائرة مضطربة بين عشرات المعبودات التى قدمتها لهم الديانات المصرية واليونانية والرومانية بالاضــــافة الى الديانة اليهودية وبعض الديانات الشرقية الأخرى. واستطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصرى بقدر ما كان مستعدا لقبولها بما ورثه من ممهدات لذلك فى دياناته المصرية القديمة .

وقد انتشرت المسيحية فى مصر انتشارا سريعا ، واستمرت فى النمو حتى قضت نهائيا على الوثنية وانتصرت على اليهودية حتى لم يتبق من اليهــود ســوى طائفـــة ضئيلة لا أهمية لها .

ولم يتم هذا الانتشار بسهولة ، وانما تم بعد صراع جبار كان له ميدانان : أولهمـــا الميدان الفكرى وقد قام بالدور الهام فيـــه مدرسة الاســـكندرية اللاهوتية وعلمــــاء المسيحيين وفلاسفتهم . أما الميـــدان الآخر فكان ساحة الاستشهاد ، وقد بدأ عمليـــا بهجـــوم الوثنيين سنة ٦٨ م على كنيســـة الأقباط شرقى الاسكندرية وقتلهم القـــديس مرقس الرسول بعد أن جروه بالحبـــال فى شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه .

وكان النزاع فى أولى صوره نزاعا بين دينين : المسيحية والوثنية . ولكن ما أن نمت المسيحية فى مصر حتى أصبحت تمثل الشعب المصرى كله تقريبا ، وظل الحـــكام الرومان يمثلون الديانة الوثنية ، وظهر عندئذ بوضوح أن هذا النزاع كان فى نفس الوقت صراعا بين شعب وحاكميــــه ، أو بين أبنــــاء وطن ومستعمريه . وهكذا تركز الشعور القومى وتوحد . وأخـــذ أقباط مصر يتمســـكون بقوميتهم كراهة فى كل ما هو أجنبى عنهم ، فكان من نتائج ذلك فيما بعد ظهور الحركة الأدبية القبطية الخالصة التى قادها الأنبـــا شنوده لتنقية اللغة القبطية المصرية من الألفاظ اليونانية الدخيلة ، ورفض أدبيـــات اليونان وثقافاتهم .

وقد بدأ هذا الصراع بين مصر المسيحية وحكامها الرومان منذ القرن الأول الميلادى ولم ينته الا بدخول العرب . وصـــار أباطرة الرومان أعـــداء سياسيين للشعب المصرى ، كما كانوا له فى نفس الوقت أعـــداء دينيين

طوال العصر الرومانى . واستحكم العداء حتى كان الأباطرة المسيحيون أنفسهم يميلون الى المذهب المخالف لمذهب مسيحيى مصر ، وكما اضطهدت مصر على يد أباطرة الرومان الوثنيين اضطهادا عنيفا ، كذلك اضطهدت بنفس العنف من أباطرة الرومان المسيحيين . ولا يستثنى من ذلك الا عدد ضئيل جدا من هؤلاء الأباطرة كانت فترات حكمهم بمثابة هدنة سرعان ما تنتهى لتستأنف مصر صراعها مع الحكم الرومانى من جديد .

ولكى تتضح لنا حلقات هذا النزاع يمكن أن نقسمه الى ثلاث فترات مميزة وهى :

أ — فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين الى سنة ٣١٣ م

ب — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة من سنة ٣١٣ الى سنة ٤٥١ م

جـ — فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومه من سنة ٤٥١ م — سنة ٦٤١ م

أ ـ الصراع مع الأباطرة الوثنيين

كان الأباطرة الوثنيون ينظرون الى المسيحيين عامة كمصدر خطر عليهم ، فاضطهدوهم أينما وجدوا . ولكن الاضطهادات التى حلت بمسيحيى مصر كانت أبشع قسوة وأكثر عددا لما اتصف به الأقباط من الصلابة والثبات على ايمانهم . وقد شعر الأباطرة وولاتهم أنهم أمام شعب شجاع متمسك بدينه ، لا تثنيه الاغراءات وطرق الاستمالة المتنوعة ، فاستخدموا معه كافة ألوان التعذيب الوحشية من حرق وجلد وصلب وسلخ ونشر ورجم وتقطيع أعضاء وتهشيم أسنان وضرب بالسيف والقاء الى الوحوش المفترسة وسجن وغيرها مما لا يدخل تحت حصر من صنوف القسوة .

ومع ذلك لم تجد كل هذه الوسائل فى اضعافهم ، بل كان الناس يأتون من تلقاء أنفسهم الى الولاة مجاهرين بمسيحيتهم ، حتى أن الأنبا انطونيوس الراهب الناسك المتوحد ترك وحدته وأتى الى الاسكندرية وهو شيخ فى حوالى السبعين من عمره لينال شرف الاستشهاد . وتطور الأمر بالولاة والأباطرة ، فبعد أن كانوا يعمدون الى قتل الأفراد أخذوا يبيدون قرى ومدنا بأسرها وصار عدد الشهداء يقدر بمئات الآلاف .

وأشهر الاضطهادات التى مرت بالمسيحية فى مصر اضطهادات تراجان سنة ٩٨ م ، وسبتميوس سيفروس سنة ١٩٣ م ، ودكيوس Decius سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٤ م . ولكن أعنفها جميعا كانت المذابح التى أنزلها ديوقلديانوس بالمصريين وكأنه قد جعل هدفه أن يفنيهم افناء . ولذلك فان الكنيسة القبطية تجعل بدء تقويمها سنة ٢٨٤ م وهى السنة التى تولى فيها هذا الامبراطور حكم الامبراطورية الرومانية . ويسمى هذا التقويم بتقويم الشهداء .

وقد قتل فى حركات الاضطهاد هذه بعض بطاركة الكنيسة القبطية وعدد وافر من أساقفتها ورهبانها وعلمائها ، وتعطلت مدرسة الديداسكاليه اللاهوتية فى الاسكندرية مدة من الزمن . وأحرقت الكنائس والكتب المقدسة ، وفاضت الطرقات بالدماء . ومع ذلك صمد المصريون صمودا عنيدا عجيبا ولم يرضخوا للأباطرة الرومانيين ، بل كان عدد المؤمنين ينمو باطراد ، وكثيرون كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين بشجاعة المسيحيين واستهانتهم بالموت فى سبيل عقيدتهم .

ولما وجد الأباطرة أن كل هذه الاضطهادات لم تأت بنتيجة سوى زيادة قوة الكنيسة ، وأن المسيحيين قد سرت فيهم موجة طاغية من « شهوة الاستشهاد » حتى كانوا يثيرون الولاة بتوبيخهم على وثنيتهم ولعن أصنامهم لكى ينالوا اكليل الشهادة على أيديهم ، نقول لما لمس الأباطرة ذلك يئسوا أخيرا واضطروا الى وقف هذه المذابح البشرية لعدم جدواها ، ولأنها خلقت عوامل خراب فى أجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الايراد من زراعة وصناعة وتدهور الحالة الاقتصادية وانتشار المجاعات والأوبئة .

والكنيسة القبطية تطلق لقب خاتم الشهداء على بطريركها الأنبا بطرس الأول ، وكان السابع عشر فى عداد البطاركة ، ليس لأنه آخر شهيد مسيحى ، وانما لأن قتله كان ختاما لحركات المذابح العامة التى استشهد فيها آلاف المسيحيين ، ولأنه أيضا كان آخر من استشهد من بطاركة الاسكندرية . ولما قبض على هذا البطريرك وطرح فى السجن التف الشعب القبطى حول السجن ليمنع الجنود من اخراجه ليقتل . ولكن البطريرك خاف على شعبه من أن يعمل فيه الجنود سيوفهم من أجل حماية شخصه فسلم نفسه سرا للجنود بأن طلب من القائد أن ينقب جدار السجن من جهة لا يحيط بها المسيحيون فتم ذلك وسلم رأسه للجند فقطعوه ، وكان ذلك سنة ٣١١ م . ولم يعلم الشعب المحاصر للسجن بقتل البطريرك الا بعد انصراف الجند .

فى كل ذلك ضرب الشعب المصرى وبطاركته أروع المثل فى الاستشهاد . وكان البطاركة وأساتذة المدرسة اللاهوتية يصدرون الرسائل والكتب حثا للناس على الاستشهاد وتثبيتا لهم فى دينهم . وكان أفراد الشعب يشجعون بعضهم بعضا فى ساحات الاستشهاد ، ويزورون المقبوض عليهم فى السجون ، ويقفون الى جوارهم أثناء المحاكمات ، ويحملون أجسادهم ليدفنوها ، كل ذلك فى غير خوف أو تردد . وكان الشهداء أنفسهم يقابلون الموت فى فرح . وكان الكثيرون منهم يترنمون فى بهجة خلال اقامتهم فى السجون أو أثناء سيرهم فى الطريق الى ساحة الاستشهاد .

وأخيرا أوقف الأباطرة هذه المذابح ، ولم يلبثوا أن اعترفوا بالأمر الواقع وأباحوا للمسيحيين حق ممارسة عباداتهم دون التعرض لهم . وقد قرر ذلك الامبراطور قسطنطين وهو الذى اعتنق المسيحية ، وفتح بابها أمام باقى الأباطرة . وهكذا انتهى على يديه عصر اضطهاد الوثنية للمسيحية . ولم تبق من الوثنية فى مصر سوى قلة ضئيلة ذابت بمرور الزمن .

ب ـ الصراع مع الأباطرة المناصرين للهراطقة

هذه الفترة من تاريخ مصر هى فترة آلام ومجد . وجه فيها المصريون دفة الفكر المسيحى وقادوا مسيحيى العالم فى المعرفة اللاهوتية . وليس أدل على ذلك من أن قانون الايمان المسيحى الذى تعترف به كل الكنائس المسيحية هو من وضع وصياغة أثناسيوس الاسكندرى .

وفى خلال هذه الفترة وقف بطاركة الاسكندرية حفاظا على الايمان القويم ، فقاوموا الهرطقات وهى الخرافات الدخيلة على الايمان أو البدع الخارجة على الدين ، وحرموا الهراطقة من عضوية الكنيسة بعد أن أظهروا لهم وللعالم فساد معتقداتهم .

واشتهر اسم الاسكندرية فى العالم كله ، واعترفت بها المجامع العالمية (المسكونية) كنيسة من الكنائس الأربع الكبرى وهى كنائس روما والاسكندرية والقسطنطينية وأورشليم . واذا كانت لرومه أهميتها السياسية كعاصمة للامبراطورية الغربية فان الاسكندرية كانت أولى كنائس العالم فى التعليم المسيحى وفهم الدين وشرح قواعده . وليس أدل على قوة الاسكندرية من أن بطاركتها حرموا ثلاثة من بطاركة المدينة العظمى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الشرقية بعد أن أثبتوا عليهم أنهم مبتدعون فى الدين وهراطقة . وهؤلاء البطاركة الذين حرموا هم : مقدونيوس الذى حرمه تيموثاوس ، ونسطور الذى حرمه كيرلس ، وفلابيانوس الذى حرمه ديسقورس . ووافقت المجامع على هذه الحروم ، وصدّق عليها الأباطرة ، كما حرموا من قبل أريوس فى مجمع نيقية . وكان لهم فى المجامع المسكونية مركزهم البارز فكانوا اما رؤساءها واما العنصر القوى الموجه لها .

وقد اشتهر بطاركة الاسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الايمان . فبينما عصفت الأريوسية بكثير من أساقفة العالم الأقوياء حين ناصرها الأباطرة بقوتهم ، وبينما رضخ لها بعض الأساقفة تحت ضغط التعذيب عن ضعف لا عن اقتناع ، نرى أن أساقفة الاسكندرية لم يميلوا قيد أنملة عن الايمان المستقيم متحملين النفى والعزل وألوانا شتى من الاضطهاد ووقفوا فى وجه الأباطرة وقفات مجيدة مشرفة . ولولاهم لصار العالم كله أريوسيا فاسد العقيدة .

وهذه المقاومة التى ناوأت بها مصر

الأباطرة والولاة الرومان ، لم تكن مجرد حركات فردية من البطاركة ، وانما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحيانا حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم . كان الشعب المصرى حريصا أشد الحرص على ايمانه ، يرفض تدخل الرومان فى معتقداته . من أجل هذا استطاع أن يرغم الأباطرة أحيانا على الاذعان له ، كما استطاع أن يحتمل اضطهاداتهم فى صبر ورجولة . وليس أدل على ذلك من أنه فى حالة نفى البطريرك أو عزله أو سجنه ، كان الشعب بأسره — بدون بطريرك — يقوم بثورات عنيفة استطاعت فى كثير من الأحيان أن ترغم الأباطرة على سحب أوامرهم والاذعان لقوة الشعب .

ومن المظاهر الواضحة فى هذه الفترة أن الأباطرة كانوا كثيرا ما يعزلون البطريرك المصرى ، ويعينون بطريركا آخر فى مكانه (كبادوكيا مثلا) ايمانه مخالف لايمان الشعب المصرى ، تحميه قوة مسلحة يستطيع بها أن يدخل الاسكندرية عنوة ، وأن يصلى فى الكنائس آمنا من أن يطرده منها الشعب ، ثم يبدأ هذا البطريرك الدخيل فى اضطهاد المصريين وقتل الكثيرين منهم ليتبوأ منصب البطريرك المنفى . كل ذلك كان ولا شك يدفع بالمصريين الى الشعور بقوميتهم المصرية وبأن الرومان عنصر أجنبى مستعمر يستخدم السيف لتحقيق أغراضه وأن البطاركة الدخلاء لا يختلفون فى شىء عن الجنود الرومان المغيرين المحتلين لبلادهم . لذلك كانوا يرفضون أن يعاملوهم كبطاركة ، وقد أقدموا فعلا فى احدى الثورات على قتل أحدهم وهو جورجيوس الكبادوكى .

هرطقة أريوس :

ظهرت هرطقة أريوس فى عهد الأنبا بطرس خاتم الشهداء ، أى فى زمن ديوقلديانوس الوثنى المضطهد . وقد حرم أريوس من الأنبا بطرس ثم استشهد بطرس دون أن يعفو عنه. ولكن هذه الهرطقة لم تنل قوة ولا انتشارا فى أيام الاستشهاد لانشغال الناس عنها بما هم فيه من ألوان العذاب البشعة . فلما استراحت المسيحية من الاضطهاد الوثنى التفتت الى هذه الهرطقة وعملت على دحضها. فتجدد حرم أريوس مرة أخرى على يد الأنبا الكسندروس البطريرك التاسع عشر من بطاركة الاسكندرية . ولكن أريوس استمر على عناده ولم يتخل عن هرطقته . وانضم اليه كثيرون من مصر وغيرها من البلاد المسيحية مما أدى الى عقد مجمع نيقية المسكونى فى سنة ٣٢٥ م بأمر الامبراطور قسطنطين لمحاكمة أريوس وارساء قواعد الايمان .

وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحى ، كان من أبرزهم الأنبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه اثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره .

أثناسيوس وجهاده :

ولد أثناسيوس فى الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من أبوين وثنيين . وجمع بين الثقافة الوثنية بحكم مولده ودراساته الأولى ، والثقافة المسيحية بحكم دراسته فى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأضاف اليهما ثقافة نسكية روحية ، اذ أنه تتلمذ ثلاث سنوات فى البرية على القديس الأنبا أنطونيوس وقد اختاره الأنبا الكسندروس البطريرك تلميذا له ورسمه شماسا واصطحبه فى سنة ٣٢٥ م الى مجمع نيقية .

وفى مجمع نيقية بدأت شهرة أثناسيوس العالمية . واستطاع هذا الشماس الشاب أن يقف معلما للايمان وسط ٣١٨ أسقفا يمثلون جميع كنائس العالم . وتمكن من تفنيد آراء أريوس فى براعة واقناع وتولى بنفسه صياغة قانون الايمان مدققا فى اختيار عباراته كلمة كلمة . وأخذ مجمع نيقية بأقوال أثناسيوس ، وحرم أريوس وعزله من عضوية الكنيسة ، وأقر الامبراطور هذا الحكم. وانفض المجمع بعد أن نظر فى أمور أخرى كانت معروضة عليه ، وأصدر عشرين قانونا كنسيا .

وهذه الزعامة الفكرية رفعت من شأن أثناسيوس فى العالم المسيحى ، وأهلته لأن يخلف الأنبا الكسندروس ويصير بطريركا للاسكندرية سنة ٣٢٦ م ، غير أنها ألبت عليه حسد ومؤامرات الأريوسيين ، وخاصة من كانوا من حاشية الامبراطور ، مما جعل حياة الأنبا أثناسيوس سلسلة من الجهاد والآلام فى سبيل الدفاع عن الايمان المسيحى . وذلك لأن هرطقة أريوس لم تنته بقرارات مجمع نيقية . فقد بذل أريوس جهده حتى ضم اليه بعضا من الأساقفة ، وتظاهر بالتوبة وأقنع الامبراطور قسطنطين بذلك فطلب من الأنبا اثناسيوس أن يقبل أريوس ، ولكنه رفض طلب الامبراطور . وهكذا بدأت أول حلقة من حلقات صراع مصر ضد أباطرة الرومان المسيحيين .

وقد احتمل اثناسيوس فى سبيل ذلك النفى عن كرسيه خمس مرات فى عهود كل من قسطنطين وقسطنطيوس ويوليانوس وفالنس . ووقف أمام كل هؤلاء الأباطرة كالصخرة الصلبة لا يلين . ولو لم يقف هذا الموقف الحازم لصار العالم كله أريوسيا . فلم يكن اثناسيوس زعيما شعبيا فى مصر فحسب يطيعه المصريون عن حب وثقة ويخضعون له بل كان فوق ذلك ممثلا للايمان السليم فى العالم المسيحى كله ، تنظر اليه كل الكنائس كمعلمها الأول .

وفى هذا الصراع الذى اجتازه أثناسيوس ضد أباطرة الرومان كان الشعب المصرى كله يؤيده . وقد دلت الحوادث على أن الأمر لم يكن عملا فرديا من جانب البطريرك وانما كان عملا جماعيا صادرا من الأمة كلها . فلما رفض البطريرك قبول أريوس أمر قسطنطين بنفيه عن كرسيه ، وأدى ذلك الى

قيام ثورة شعبية في مصر بقيادة فيلومينوس واتهم اثناسيوس بأنه كان السبب فيها .

وبعد موت قسطنطين خلفه قسطنطيوس فى حكم الشرق ، وكان أريوسيا . فعين بطريركا أريوسيا على الكرسى الاسكندرى بدلا من اثناسيوس واسمه جريجورى . ولما لم يسمح له الشعب بدخول الاسكندرية ، زوده الامبراطور بقوة عسكرية استطاع بها دخول المدينة واستمرت هذه القوة معه لحمايته خوفا عليه من حركات الشعب . فعقدت كنيسة الاسكندرية مجمعا ضده من الأساقفة المصريين ، فتدخل سيريانوس قائد الحامية — وكان أريوسيا — وعمل على فض المجمع متوعدا بتدمير المدينة كلها . حينئذ انسحب اثناسيوس وهرب الى رومه ، فارتجت المدينة لهذا البطل المصرى ذى المظهر البسيط الفقير . وانعقد مجمع فى رومه أقر براءة اثناسيوس ووجوب رجوعه الى كرسيه . كما انعقد مجمع آخر فى سرديكيا سنة ٣٤٣ م من مائتى أسقف حكم بشرعية رئاسة اثناسيوس لكرسى الاسكندرية . وكتب قسطنس امبراطور الغرب الى أخيه قسطنطيوس ، امبراطور الشرق ، ليطلب منه ارجاع اثناسيوس . وقد كان هدف اثناسيوس هو توحيد العالم المسيحى ضد الأريوسية بعد أن عاضدها الامبراطور ، واستطاع بقوته وتأثيره أن ينال تأييد العالم المسيحى . أما فى مصر فكان الشعب فى اضطرابات مستمرة طيلة مدة غيابه عنهم ، حتى أنهم طردوا من الأديرة جميع الذين اعتنقوا المذهب الأريوسى وحطموا كنيسة الاسكندرية التى كان الأريوسيون قد استولوا عليها . وخاف الامبراطور من اندلاع حرب بينه وبين أخيه فكتب الى اثناسيوس سنة ٣٤٦ ثلاث رسائل متتالية يطلب اليه فى احترام ولباقة أن يرجع الى كرسيه . فرجع الأنبا اثناسيوس الى مصر واستقبله الشعب استقبالا عظيما لم يحظ بمثله الأباطرة .

ولما كان الامبراطور لم يرجع اثناسيوس الا بدافع الخوف ، فانه ما كاد يتوفى أخوه قسطنس حتى عاد الى اضطهاد اثناسيوس وأمر بطرده من مصر . وعطل أثناسيوس هذا الأمر عاما كاملا دون أن ينفذه حتى تقدم القائد سريانوس على رأس قوة كبيرة بأمر الامبراطور واقتحم الكنيسة التى كان يصلى فيها أثناسيوس . وعندما التف الشعب المصرى حول زعيمه وراعيه أعمل الجند سيوفهم فى الشعب . أما الأنبا أثناسيوس فقد حمله بعض الرهبان وخرجوا به من الكنيسة، وفتح الشعب أبواب بيوته لاخفائه . وأرسل الامبراطور رسله الى مصر يحملون الأوامر بضرورة احضار أثناسيوس حيا أو ميتا ، لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه .

وعقد الامبراطور مجمعا فى ميلان سنة ٣٥٥ م ضد الأنبا اثناسيوس ، وكانت غالبية

أعضاء هذا المجمع من الأريوسيين ، وتنفيذا لرغبة الامبراطور قرر المجمع عزل أثناسيوس، فاحتج على ذلك أصدقاؤه من أساقفة الغرب.

وتلا ذلك تعيين جورجيوس الكبادوكي بطريركا على الاسكندرية بوساطة الاريوسيين ذوى الحظوة لدى الامبراطور ، ثم اتخاذ اجراءات تعسفية ضد الأقباط أتباع أثناسيوس . فقد استخدم جورجيوس القوة العسكرية لارغام الشعب على قبول المذهب الأريوسى ، فلما رفض أعمل فيه القتل ، وشرد الكثيرين من الأساقفة المصريين وزج باثنى عشر منهم فى السجون ، واقترح على الامبراطور فرض ضريبة جديدة على المنازل فى الاسكندرية .

وفى عهد الامبراطور يوليانوس (٣٦١ — ٣٦٣) الذى ارتد عن المسيحية الى الوثنية قام الشعب بثورة عنيفة أدت الى قتل جورجيوس البطريرك الدخيل ، وعاد اثناسيوس الى كرسيه . ولكن هذا الامبراطور أيضا أمر بطرده من الاسكندرية على اعتبار أنه ما يزال منفيا وأنه عاد بدون اذن ، وكتب الى والى الاسكندرية مهددا اياه بفرض غرامة كبيرة عليه وعلى موظفيه اذا ظهر أثناسيوس فى أرض مصر كلها . ولكن أثناسيوس اختبأ فى قبر أبيه ستة أشهر ولم يغادر المدينة .

ولما تولى الامبراطور فالنس (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان أريوسيا ، أمر بنفى أثناسيوس مرة أخرى . فرفض الشعب القبطى تنفيذ الأمر ولو أدى الى استشهادهم جميعا . وقامت ثورة عنيفة فى مصر واضطر الامبراطور الى الاذعان لرغبات الشعب .

وقضى اثناسيوس السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام حتى توفى سنة ٣٧٣ م بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة ومناصرتهم للاريوسية ، دون أن يخضع أو يلين فى سبيل المحافظة على الايمان المسيحى فى العالم كله وصونه من الانحراف . وفى خلال هذه الاضطهادات التى نزلت به اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبال وفى أديرتهم فى الصحراء وفى بيوت المؤمنين فى الاسكندرية ومرة فى قبر أبيه ومرة أخرى فى بئر جافة . وكان خلال فترات اختفائه يعمل باستمرار فقد كتب كثيرا من المقالات اللاهوتية للرد على الهراطقة والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، كما كتب رسائل تشجيع للمؤمنين وللرهبان ، وبفضل كل ذلك استطاع أن يؤلب العالم أجمع ضد الأباطرة .

واستمر الامبراطور فالنس فى اضطهاده للمصريين بعد وفاة الأنبا أثناسيوس ، فنفى خليفته الأنبا بطرس الثانى (٣٧٣ — ٣٨٠) وعين بدلا منه لوكيوس الأريوسى وأيده بقوات الامبراطورية . وأصدر فالنس قانونا جديدا عمل على تنفيذه بالقوة ، وكان يقضى بالغاء امتياز الاعفاء من الخدمة العسكرية الذى كان ممنوحا فيما مضى للرهبان وكذلك

لسكان بعض المدن والمقاطعات التابعة للأديرة مثل الفيوم، وارغام كل هؤلاء على الانخراط فى الخدمة العسكرية بالقوة . وقد فضل كثير من هؤلاء المصريين أن يلقوا حتفهم وهم يقاومون الامبراطور على أن يدخلوا فى خدمة قوات الامبراطور .

فترة هدوء :

ومضت الاضطهادات العنيفة التى أنزلها الأباطرة الرومان بمصر وتحملها المصريون فى شجاعة وصبر ابان عهدى البطريركين الأنبا اثناسيوس والأنبا بطرس الثانى . ثم آن لمصر أن تتمتع بفترة هدوء عندما مات الامبراطور فالنس الأريوسى وتولى العرش الامبراطور ثيودوسيوس الكبير (من ٣٧٨ — ٣٩٥ م) وهو الذى اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة . وساعد هذا القرار على اضعاف الوثنية ، فأمكن تحويل الكثير من معابدها الى كنائس . وقد أرجع هذا الامبراطور الأنبا بطرس الثانى من منفاه ، ولما توفى هذا البطريرك سنة ٣٨٠ م اختار الشعب بعده الأنبا تيموثاوس بطريركا . وفى عهده وقع مقدونيوس أسقف القسطنطينية فى هرطقة حول الروح القدس ، فاجتمع سنة ٣٨٠ م مجمع فى القسطنطينية من مائة وخمسين أسقفا وقرر حرمه وحرم هرطقته . وقد حضر الأنبا تيموثاوس هذا المجمع ، وقام فيه بدور رئيسى .

ثم خلفه فى البطريركية الأنبا ثيوفيلوس (سنة ٣٨٥ — سنة ٤١٢) ، وكان عهده عهد سلام وعمران ، سواء فى عهد ألامبراطور ثيودوسيوس أو خليفته اركاديوس (سنة ٣٩٥ — سنة ٤٠٨ م) .

الأنبا كيرلس وبدعة نسطور :

ثم خلف هذين الامبراطورين ثيودوسيوس الصغير (الثانى) ، وكان مؤمنا صالحا تولى الحكم وهو صغير السن وحكم من سنة ٤٠٨ — سنة ٤٥٠ . وكان محبا للكنيسة ولرهبان الأقباط ، يرسل اليهم ليتبرك بهم ويستشيرهم فى كثير من أموره الخاصة . وقد تمتع فى عهده الأنبا كيرلس الكبير بحرية واسعة فى التصرف ، حتى قيل ان بطاركة الاسكندرية فى تلك الفترة من التاريخ كانوا هم الذين يتحكمون فى تاريخ مصر ، بل أطلق البعض على هذا البطريرك « فرعون مصر » .

وكان القديس كيرلس هذا خليفة للقديس اثناسيوس فى المعرفة اللاهوتية وقيادة الفكر المسيحى . اعتلى كرسى البطريركية سنة ٤١٢ م فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الصغير وتمتع فى عهده بشبه استقلال فى مصر ، ودافع عن الايمان المسيحى . فبدأ بكتابة خطاب الى الامبراطور ومنحه فيه البركة ، وشرح له الايمان السليم، ورد على الكتب التى كان قد وضعها قبلا الامبراطور يوليانوس ضد المسيحية .

ولما لاحظ الأنبا كيرلس أن نسطور

بطريرك القسطنطينية قد وقع فى هرطقة لاهوتية أرسل اليه يتفاهم معه . لكن نسطور تمسك برأيه ورفض الاذعان لتعليم كيرلس ، واستمال الى جانبه يوحنا أسقف أنطاكية ، واعتمد على ما لقيه من عطف الامبراطور الصغير ثم تحدى كيرلس علانية واتهمه بأنه عنيد وبأنه يقوم فى مصر بدور فرعون .

ولم يجد القديس كيرلس مناصا من أن يستخدم سلطته كمعلم أول فى الكنيسة ، فكتب الى أساقفة العالم يشرح هرطقة نسطور ، كما كتب الى الامبراطور ثيودوسيوس وأمه واخوته ، وبعث برسالة الى نسطور نفسه يشرح له فيها قواعد الايمان وما يترتب على مخالفتها من جزاء .

وانتهى الأمر بعقد مجمع مسكونى فى افسوس حضره مائتان من أساقفة العالم . وكان مندوب الامبراطور فى المجمع نسطوريا وهو كانديديانوس . وقد عمل نسطور على تهديد الآباء المجتمعين فى افسوس بأن دخل المدينة محاطا بفرقة مدججة بالسلاح ورفض حضور جلسات المجمع على الرغم من استدعاء الآباء له أكثر من مرة . وازاء ذلك اضطر المجمع الى الاجتماع بدونه . وبعد قراءة رسالة القديس كيرلس حكم المجمع بخلع نسطور عن كرسيه وتجريده من رتبته الكهنوتية . وقد وافق الامبراطور على خلع نسطور بمجرد وصول القرارات اليه .

وعندما أقام الآباء أسقفا جديدا على القسطنطينية أرسل الى القديس كيرلس خطابا يقول له « ان رغباتك فى اعلان الحق قد تحققت يا خادم الله ... » وكذلك أرسل أسقف رومه الى القديس كيرلس يهنئه بقوله « هنيئا لك ، فأنت الرجل الجرىء المستهين بكل خطر » .

ويقول المؤرخ ستانلى فى كتابه « محاضرات فى تاريخ الكنيسة الشرقية » ما نصه « لقد أصبح البطريرك السكندرى بعد مجمع افسوس قاضى العالم ، تطاع أحكامه فى جميع أنحاء العالم المسيحى » .

وقد خلف كيرلس أيضا كتبا كثيرة قيمة فى اللاهوت وفى تفسير الكتاب المقدس .

جـ ـ الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا رومة

وعندما ارتقى مرقيانوس (سنة ٤٥٠ — سنة ٤٥٧) العرش أخذت العلاقات بين مصر وأباطرة الدولة الرومانية تدخل فى أعنف وأقسى صورها ، فاجتازت مصر طوال الفترة الباقية من حكم الرومان محتملة اضطهادا مرا عنيفا لم يتخلله سوى هدنة قصيرة فى عهد الملكين زينون وانسطاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨)

وقد بدأت هذه الفترة بخلاف بين كنيستى رومه والاسكندرية أدى الى انقسام استمر من سنة ٤٥١ حتى يومنا هذا . وعرف أتباع كنيسة رومة باسم « الكاثوليك » بينما عرف أتباع كنيسة الاسكندرية ومن سار

على نهجهم باســـم « الأرثوذكس » ويتبعهم أيضا السريان الذين أطلق عليهم فيما بعـد اسم « اليعاقبة » .

ولما رفض الأنبـــا ديسقورس بطريرك الاسكندرية الموافقـــة على مسائل ايمانية أوردها لاون أسقف روما حـول طبيعـــة المسيح ، استخدم لاون نفوذ الامبراطور فى نفى ديسقورس عن كرسيه وفى محاولة ارغام المصريين على قبـول ما رفضـــه بطريركهم وحرمان كل من لا يوافق على مقالته حـول طبيعة المسيح . وتعرض المصريون من أجـل الثبات على ايمانهم لمذابح مروعة وخاضـوا حركة استشهاد جـــديدة كالحـركة التى خاضوها فى عهد أباطرة الرومان الوثنيين ، بل ان عـــدد الذين استشهدوا منهم على أيدى المسيحيين من أتباع مذهب الطبيعتين المخالف لمذهبهم قــــد يزيد بكثير على عـدد الذين استشهدوا على أيدى الوثنيين .

وكان الملك كلما اختار الشعب المصرى بطريركا قبطيا ، أمر بعزله عن منصبه ، فينفى من مصر أو يهرب مختفيا فى أرجائها ، ويعين بدلا منه بطريرك ملكى من أتبـــاع مذهب الطبيعتين ، وينصب هذا البطريرك الدخيـل بالقوة أملا فى ارغام الأقبـــاط على قبول مذهب غير مذهبهم ، فاذا رفضـوا هـــذا البطريرك الدخيل ومذهبه أعمل الامبراطور فيهم القتــــل والسـجن وكافـة أنواع الاضطهاد .

ولكى يزداد الاضطهـــاد بشـــاعة لجأ الأباطرة منــذ عهـد يوستنيانوس الى جعل البطريرك الملكى يجمع أيضـــا الى وظيفتـه الكهنوتية منصب الوالى المدنى لتجتمع لديه السلطتان معـــا ، ولمـــا كانت جميع كنائس الاسكندرية فى أيدى هؤلاء الدخلاء فانهم استطاعوا أن يطردوا منها جميع البطـاركة والأساقفة الأقباط وأن لا يمكنوهم حتى من دخول مدينة الاســـكندرية ، ولما كانت فى أيديهم القـــوة العســـكرية أيضـــا فانهم استخدموها فى اضطهاد الأقباط كما يشاءون. وقد استمرت هذه الحال حتى دخول العرب مصر فكان البطريرك القبطى الأنبـا بنيامين هاربا من الرومان مختفيا فى البلاد والأديرة المصرية بينما كان المقوقس يجمع بين وظيفتى الوالى الرومانى والبطريرك الملكى ويضطهد المصريين .

وأمام كل هذه الأوضاع الشاذةالتى اختلط فيها الاستعمار السياسى بالاستعمار الدينى وقف الشعب المصرى صامدا لا يلين ، يرفض كل بطريرك متحمـــلا فى سبيل ذلك صنوف العذاب ، ويرفض كل معتقد يخالف ايمـــان كنيسته القبطيـــــة ، ويؤيد بطريركه القبطى ويطيعه وهـــو غائب عن كرسيه مشردا فى أرجاء القطر أو متنكرا فى مكان ما . وكذلك أظهــــر البطاركة شجاعة عجيبـــــة وصبرا واحتمالا ، كلما اضطهدوا انتقلوا من مكان الى مكان يثبتون الأقبـــاط فى ايمـــانهم

ويشجعونهم على الصمود أمام عنف العدو المستعمر .

فعل الأقباط هذا بينما خارت قوى غالبية أسقفيات العالم المسيحى واضطرت الى الخضوع لسيطرة أباطرة الرومان وبابوات رومه . ولم تقف الى جوار الاسكندرية غير أسقفية أنطاكية التى لاقت صورة مشابهة من الاضطهاد فتحمل أساقفتها العزل والنفى ، وتحمل شعبها القتل والاضطهاد فى سبيل الايمان الواحد الذى دافع عنه ديسقورس الاسكندرى .

بدء انقسام الكنيسة :

لما قامت هرطقة أوطاخى ، انعقد بسببها فى افسوس سنة ٤٤٩ م مجمع سمى مجمع افسوس الثانى وكان رئيسه الأنبا ديسقورس بطريرك الاسكندرية . ولما مثل أوطاخى أمام هذا المجمع وسأله الأنبا ديسقورس عن ايمانه ، أنكر هرطقته انكارا باتا ، وقدم ايمانه مكتوبا يوافق ما أمر به الآباء ، ولما نوقش شفاها أجاب بنفس الكلام أيضا ، فعرض الأنبا ديسقورس أمر أوطاخى على آباء المجمع ، فقرروا براءته مما نسب اليه ، وقبوله فى الكنيسة هو ورهبان ديره الذين ناب أحدهم عنهم فى اثبات صحة ايمانهم . كما قرر هذا المجمع أيضا حرم فلابيانوس أسقف القسطنطينية لثبوت تهم قدمت ضده..

ثم حدث أن دعا لاون أسقف رومة سنة ٤٥١ م الى عقد مجمع مسكونى ودعا اليه ديسقورس ، وكان ديسقورس يرى ألا داعى لعقد مجمع جديد لأن الكنيسة كانت فى سلام من جهة الايمان . ولكن الظاهر أن لاون أسقف رومة ملكه الحسد والغيرة من بطاركة الاسكندرية ودفعه ذلك الى أن اتهمهم بأنهم لا هم لهم سوى عقد المجامع والترأس عليها ، فأراد فى هذا المجمع الجديد أن يدبر مكيدة للتخلص من ديسقورس .

ولما وصل ديسقورس الى القسطنطينية حيث كان المجمع مزمعا أن ينعقد دهش من وجود بعض من أساقفة النساطرة المحرومين مجتمعين مع الآباء فأمر بطردهم ؛ ثم قرئت على المجتمعين رسالة من بابا رومه فلما سمعها ديسقورس أخذ عليه وقوعه فى هرطقة الطبيعتين بينما قررت أقوال الآباء صحة مذهب الطبيعة الواحدة . ووقف وسط الأساقفة يشرح هذه المسألة فى قوة واقناع حتى صاح الجميع « نحن على ايمان ديسقورس » . ولما رأى الامبراطور مركيانوس ذلك ــ وكان حاضرا الاجتماع ــ أوعز الى أتباع لاون بأن يؤجلوا جلسة المجمع الى اجتماع آخر .

وفى خلال ذلك دعى ديسقورس الى اجتماع خاص فى قصر الامبراطور ، ولما أصر على ايمانه ، وعلى حرمه للأسقف لاون المنادى بمذهب الطبيعتين ، اعتدى عليه وسجن وانعقد المجمع فى خلقدونية بآسيا الصغرى سنة ٤٥١ م ، وتحت تهديد القوة

بدأ الضغط على الأســاقفة حتى قرروا : عقيدة الطبيعتين ، وعزل ديسقورس ، واتهامه بالأوطاخية لتبرئته أوطاخى ، الذى كان قد رجع مرة أخرى الى هرطقته ، وأثبت بذلك أن توبته الأولى أمام ديسقورس فى مجمع افسس الثانى توبة زائفة ، كما حكم المجمع أيضا بتبرئة لاون أسقف رومه . ولما عرضت قرارات المجمع على ديسقورس ، حرم أعضاء مجمـع خلقدونية كلهم ، بسبب انحراف الايمان الذى وافقوا عليه . فنفى ديسقورس الى جزيرة غاغرا . وأرسل المجمع الخلقدونى الى أساقفة الكرسى السكندرى يدعوهم للايمان بمذهب الطبيعتين فرفضوا وقرروا عدم الاعتراف بمجمع خلقدونية ، فبدأ الامبراطور باستخدام القوة لارغام رجال الدين وأفراد الشعب على قبول مذهب لاون والاعتراف بقرارات مجمع خلقدونية ، فلما رفضوا الأمرين قامت مذابح فى الاسكندرية وفى الأديرة قتل بسببها شعب كثير ، وانقسمت المسيحية الى مذهبين . ومع أن ديسقورس وقف وحده وخاف الأساقفة من الانضمام اليه بعدما رأوا ما فعلته القوة به وبشعبه ، الا أن ثورات شعبيـة أخرى قامت فى أورشليم وبلاد أنطاكية احتجاجا على قرارات مجمع خلقدونية فاستخدمت القوة ضدهم أيضا واستشهد منهم عدد كبير .

وظل ديسقورس فى منفاه حتى توفى سنة ٤٥٧ م . وكان أصحاب مذهب الطبيعتين قد عينوا مكانه بطريركا من مذهبهم اسمه بروتوريوس ، فرفضه الشعب المصرى وطرده من البطريركية ، حتى اضطر الى الاستعانة بالقوة المسلحة للتمكن من دخول الكنيسة . واذ أعرض الشعب عنه وبدأ يترك الكنيسة له ولمن يناصره من جنود الرومان ، أمر الجنود فأعملت فيهم السيوف فقتل فى ذلك اليوم عدد وفير ، كما قتل كثير من الرهبان . وأحاط الحراس بهذا البطريرك الدخيل ، واتخذت بعض اجراءات مدنية كايقاف الألعاب الرياضية وغلق الحمامات العامة وتهديد الشعب بسحب امدادات القمح .

ولكن الشعب المصرى ظل متمسكا ببطريركه المنفى الى أن توفى فى منفاه سنة ٤٥٧ م . ولم تدم بطريركية بروتوريوس المكروهة أكثر من هذا التاريخ لأن الشعب السكندرى انتهز فرصة استدعاء قائد الحامية الرومانية الى مصر العليا فى عهد الامبراطور ليون الأول (سنة ٤٥٧ — سنة ٤٧٤) وقام بثورة عنيفة تخلصوا فيها من بروتوريوس واختاروا راهبا قبطيا أقاموه بطريركا باسم تيموثاوس الثانى . ولكن الامبراطور تحدى الأقباط وعزل الأنبا تيموثاوس الذى اختاره الشعب ونفاه كسلفه ديسقورس ، الى جزيرة غاغرا ، وعين مكانه بطريركا من مذهب الطبيعتين اسمه سالوفاسيولس . وكان السبب فى ذلك هو أن الأنبا تيموثاوس الثانى جمع سينودا من أساقفته فى الكرسى

السكندرى سنة ٤٥٨ وأصدر قراراً بحرم مجمع خلقدونية . فاضطر ليون الأول أن ينفيه واستمر سبع سنوات فى منفاه الى أن مات هذا الامبراطور فرجع البطريرك الاسكندرى الى كرسيه .

فترة هدوء :

ثم تمتعت الكنيسة بفترة هدوء خلال حكم زينون (سنة ٤٧٤ — سنة ٤٩١) . واستطاع البطريرك القبطى الأنبا تيموثاوس بعد عودته من منفاه أن يعقد مجمعا فى القسطنطينية كان من بين أعضائه بطرس القصار بطريرك أنطاكية وقرر رفض المجمع الخلقدونى ورسالة لاون أسقف رومه . كما وزع منشورا بذلك وبرفض عقيدة أوطاخى ووجوب التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . ولذلك فان المؤرخ الكاثوليكى فلاديمير يقول فى كتابه عن التاريخ الكنسى أن « تيموثاوس الذى وضع هذا المنشور لم يكن أوطاخيا » .

ولما توفى الأنبا تيموثاوس الثانى خلفه الأنبا بطرس الثالث (سنة ٤٨٠ ـ سنة ٤٨٨)، تمتعت الكنيسة بسلام فى عهده أيضا ، وبذلت محاولات للتقريب بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية ، وعقد من أجل ذلك مجمع فى القسطنطينية سنة ٤٨١ م انتصرت فيه الآراء القويمة التى تمسكت بها الكنيسة المصرية . وأصدر المجتمعون مرسوما أسموه « كتاب الاتحاد » صدّق عليه الملك زينون . ولكن الاسكندرية اشترطت على أساقفة القسطنطينية رفض قرارات مجمع خلقدونية صراحة . وتبودلت رسائل بين أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وبين بطرس الثالث الاسكندرى رفض فيها أكاكيوس مجمع خلقدونية وسماه « مجمع المخالفين » ، كما رفض رسالة لاون وآراء نسطور . فقبله بطرس الثالث ، فلم يرق هذا لبعض أساقفة الكرسى الاسكندرى واحتجوا على بطريركهم قائلين له « كيف قبلت أكاكيوس الذى حضر مجمع خلقدونية ووافق عليه ؟ » فرد عليهم بقوله « انما قبلته لرجوعه عن ذلك الرأى » . ولكن الظاهر أن هذا الأمر كان انضماما وقتيا الى مذهب الطبيعة الواحدة فى عهد ملك ارثوذكسى مثل زينون ، لأنه بمجرد موت زينون عاد اضطهاد مذهب الطبيعة الواحدة وعادت كنيسة القسطنطينية الى التمسك بقرارات مجمع خلقدونية . وفى الواقع ان كنيسة الاسكندرية كانت صامدة فى موقفها ثابتة على الايمان لا تزحزحها عنه الاضطهادات ، ولم تثبت معها فى ذلك سوى كنيسة أنطاكية .

وقد استمرت فترات الهدوء أيضا خلال حكم انسطاسيوس(سنة ٤٩١ ـ سنة ٥١٨)، وفى هذا العهد توطدت أواصر التعاون بين كنيستى الاسكندرية وأنطاكية لاتفاقهما فى الايمان الواحد .

عودة الاضطهادات :

ولما تولى الحكم الامبراطور يوستينوس الأول (سنة ٥١٨ — سنة ٥٢٧) وكان على كرسى الاسكندرية البطريرك تيموثاوس الثالث (سنة ٥١٧ — سنة ٥٣٥) ، حاول هذا الامبراطور ارغام كنيستى الاسكندرية وأنطاكية على قبول معتقد مجمع خلقدونية . فلما رفض ساويرس بطريرك أنطاكية نفاه عن كرسيه فجاء الى مصر ، وظل فيها هاربا يتنقل من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير محاطا بمحبة المصريين الذين قبلوه كزعيم معلم فى الكنيسة وظل هو من جانبه يشجعهم ويثبتهم فى الايمان . كما أخذ هذا الامبراطور يضطهد الأنبا تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وأمر بنفيه وجرت بسبب ذلك مذبحة هائلة قتل فيها نحو مائتى ألف نفس من الأقباط أرادوا حماية بطريركهم من الجنود الرومانيين الذين تمكنوا على الرغم من ذلك من القبض عليه وتم نفيه ، وبقى فى منفاه ثلاث سنوات رجع بعدها الى مركزه واستمر مدافعا عن الايمان بالاشتراك مع ساويرس بطريرك أنطاكية حتى توفى سنة ٥٣٥ م فى عهد الامبراطور يوستنيانوس الأول .

وخلفه على كرسى الاسكندرية الأنبا ثينودوسيوس الأول (سنة ٥٣٥ — سنة ٥٦٧) . وقد عرض عليه الامبراطور أن يقبل رسالة لاون ويساعده على نشرها فى مقابل أن تكون له الرئاستان « البطريركية والولاية » ويكون جميع أساقفة افريقيا تحت طاعته . فرفض ذلك وقال لرسل الامبراطور « ليس للملك سلطان الا على جسدى ... فمهما أردتم فافعلوه وأما أنا فأتبع ايمان آبائى » ، وترك كرسيه حسب أوامر الامبراطور فى حالة الرفض وذهب الى الصعيد ، فحاول الامبراطور ملاطفته واغراءه فلم يلن البطريرك فنفاه وأرسل بدلا منه بولس التنيسى ليكون بطريركا على الاسكندرية وقام برسامته مينا بطريرك القسطنطينية . فلما وصل هذا البطريرك الدخيل الى الاسكندرية لم يقبله أحد وكانوا يسمونه « يهوذا الخائن » ، ولم يقبل أحد أن يصلى معه . فأرسل الى الامبراطور يخبره بذلك فأمره بغلق الكنائس لمدة سنة ولم يجد الشعب المصرى مكانا للصلاة فبنوا كنيستين سرا فى المكان المعروف باسم السوارى غربى الاسكندرية . ولم تبق للبطريرك القبطى المنفى سوى هاتين الكنيستين لأن الامبراطور أمر بألا يدخل كنائس الاسكندرية الا أتباع البطريرك الدخيل وأقام الأنبا ثينودوسيوس باقى حياته فى المنفى .

وقد خطا يوستنيانوس خطوة أوسع فى اضطهاد المصريين وارغامهم على قبول مذهب الطبيعتين ، فبعد وفاة بولس التنيسى عين من قبله أبوليناروس بطريركا على الاسكندرية وحاكما لها فى نفس الوقت . وقصد من ذلك

أن يجعـــل فى يد الرئيس الدينى القـــوة العسكرية التى تمكنه من تنفيذ أوامره . وقد بدأ هذا البطريرك الدخيل عهــــده بمذبحة كبرى قتل فيها عدد كبــير من أفراد الشعب الذين رفضوا اتباع عقيدته ، وحاولوا رجمه فى الكنيسة حين وقف ليخاطبهم . وبهــذه المذبحة تمكن من التخلص من أعنف العناصر المعارضة . وهذا العمل لم يجعل من هـــذا البطريرك الدخيل سوى حاكم مدنى ، لأنه لم يتمكن من ممارسة شيء من السلطة الدينية التى ظلت فى يد البطـــريرك الشرعى الذى اختاره الشعب . ولكن أســاقفة الأقباط لم يستطيعوا على الرغم من ذلك أن يظهروا فى الاسكندرية .

ولذلك فعنــدما رسم البطريرك القبطى الأنبا بطرس الرابع سنة ٥٦٧ بعد وفاة سلفه ثينودوسيوس ، أقام فى كنيســة تبعــد عن الاسكندرية بمقدار تسعة أميال ثم اختفى فى دير تابور بالقرب من الاســكندرية متنكرا فى درجــة أسقف لا بطـــريرك ، ودبر أمور الشعب من هنـــاك . ولما سمع بذلك أهالى انطاكية قلدوا كنيسة الاسكندرية ، فرسموا لهم بطريركا بعــــد وفاة القديس ساويرس أســموه ثيثوفانوس أقــام مختفيــا فى دير امونيوس لأن أصحاب الطبيعتين هناك منعوا الأســاقفة الأرثوذكس من دخــول مدينـــة أنطاكية متبعين معهم نفس السياسة التى قامت فى الاسكندرية .

ثم قام البطـــريرك الأنبــــا داميانوس الاسكندرى وخلف بطرس الرابع سنة ٥٦٩م وأقام مدة رئاســـته التى بلغت ستا وثلاثين سنة مختفيـــا فى دير تابور أيضـــا فى درجة أسقف .

ثم تولى البطريركيــة انسطاسيوس سنة ٦٠٥ م وزاد اضطهاد الرومان للأقباط حتى أن الرومان حرموا الأقباط الكنيستين اللتين بنوهما سرا غربى الاسكندرية .

ثم تولى البطريركية الأنبا اندرونيقوس سنة ٦١٦ م واستطاع أن يقيم فى الاسكندرية معتمدا على قوة أسرته التى كانت غنيـــــة جدا ومتولية بعض المناصب الادارية الكبيرة فى المدينـــــة . ولم تستطع قوة الرومان أن تخرجه منها . ولعل السبب فى ذلك هـــو أن الدولة الرومانية كانت وقتذاك فى حالة يرثى لها ، اذ اجتــاحت جيوش الفرس كثيرا من أراضيها . ولما ازداد ضغط الجيوش الفارسية على الحدود الشرقية للامبراطورية هاجر كثير من أهالى سوريا وفلسطين لاجئين الى مصر ، وعجز يوحنا البطريرك الملكانى عن اعالتهم وحمايتهم فهرب من المدينــــة وترك البـــلاد للفرس . وقد قتل الفرس آلافا من الرهبان الأقباط وخربوا كثيرا من الأديرة .

وفى ســـنة ٦٢٢ م تولى بطريركيــــة الاسكندرية الأنبا بنيامين الذى عاصر الفتح العربى لمصر . وبعد تسع سنوات من بطركته عين هرقــل سنة ٦٣١ م بطــريركا ملكانيا

(ملكيا) اسمه كيرس Cyrus وهو الذى اشتهر باسم المقوقس ، وجمع لهذا البطريرك بين وظيفتـــه الكهنوتية وبين وظيفة الوالى ليكون أقوى على قهر الأقباط وضمهم الى مذهب القائلين بالطبيعتين . ويبدو أن هرقل لم يكن موفقا فى اختيار هذا الرجل الذى كان ضيق الصدر ، فانه لما عسرت عليه استمالة المصريين الى مذهبــه المخالف اضطهــدهم اضطهادا رهيبا مما نفرهم منه فى وقت كانت الامبراطورية فيه محتاجة أشد الاحتياج الى استرضاء الأقباط بسبب حرج موقفهــا فى حربها مع الفرس .

أما البطريرك القبطى الأنبـــا بنيــامين فاختفى هو وسائر أساقفة مصر جميعا وظل يتنقل بين الكنائس والأديرة دون أن يقع فى أيدى الرومان .

واستغل هرقل هذه الفرصة فأقام أساقفة مـن الملكانيين فى بلاد مصر كلهـــا مـن الاسكندرية الى أنصنـــا ، فنكلوا بالأقباط تنكيلا شديدا .

ولكن هــذه الحالة لم تستمر طويلا اذ أتى عمرو بن العاص بجيوشه العربيـــة الى مصر ، وفتحها سنة ٦٤١ م ولمـــا استتبت له الأمور أعطى أمانا للأنبا بنيــامين فرجع الى كرسيه فى الاسكندرية بعد غيبة دامت ثلاث عشرة سنة وبدأ يعيد الى الكنيسة أولئـك المسيحيين الذين ضغط عليهم هرقل فى قبول قرارات مجمع خلقدونية وصرح عمرو له بفتح الكنائس واقامة العبادة فيها .

الفصل الثانى

الحيـــــــاة اللغوية

اللغة هى الأداة التى يعبر بها الانســان عن أفكاره ومشاعره . ولا يحدث أن يرتقى شعب ، وتتنوع الأعمال فيه ، دون أن تكون له لغة غنية تيسر له التعبير عن مختلف نواحى الحياة . ولما كانت مصر القديمة قد وصلت الى درجة كبرى من الرقى ، فقد تطورت لغتها حتى سايرت أسباب الحضارة فيها بألفاظهـا المتنوعة وقواعــدها التى تضبط التركيب ، وتعبيراتها ومصطلحاتها فى شتى العلوم . كما كان أدبها الواسع فى الميدان الدينى والعلمى والشعبى ، وغير ذلك من الميــادين داعيا الى نشاط اللغة وحيويتها. واللغة كائن يولد ويكبر ويتطور .

مراحل تطور اللغة المصرية :

مرت اللغة المصرية فى خمس مراحل :

أ ــ اللغة المصرية القديمة : وهى لغة الأسر من الأولى الى الثامنة منذ حوالى سنة ٣٤٠٠ ق.م الى سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد . ولقد وصلنا منها وثائق رسمية وجنائزية ونصوص مقابر ، ومنها نصوص الأهرام ، وسير لبعض الأشخاص .

ولهذه اللغــة خصائص ميزتها فى بعض تعبيراتها واملائها .

ب ــ اللغة المصرية المتوسطة : هى لغة الآداب من الأسرة التاسعة الى الأسرة الثامنة عشرة ، منذ حوالى ســنة ٢٤٠٠ ق . م الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد . وصارت لغة الأهلين نحو ثلثى هذه الحقبة .

جـ ــ اللغة المصرية الحديثة : وهى لغة الأهلين من الأسرة الثامنة عشرة الى الرابعة والعشرين أى منذ حوالى سنة ١٥٨٠ الى سنة ٧١٠ قبل الميلاد . ووجد مدونا بها وثائق خاصة بالمعاملات والرسائل، وبعض الحكايات والقصص الأدبية ، ودونت بهـــا نصوص تاريخية للأسرة التاسعة عشرة وما بعــدها ، على أننا لم نعثر منها الا على القليل . وقد بدأ فيها ظهور كلمات دخيلة .

د ــ الديموطيقية : وهى المســتخدمة فى الكتب والوثائق التى كتبت منــذ الأسرة الخامسة والعشرين الى آخر عصر الرومان من سنة ٧٠٠ الى سنة ٤٧ قبل الميلاد .

هـ ــ القبطية : هى اللغة المصرية القديمة فى صورتها الأخيرة من مراحل تطورها .

ظلت اللغة المصرية القديمة فى مراحلهــا المختلفة لغة الكتابة والتخاطب فى مصر حتى

قيام دولة البطالمة فأصبحت اليونانية لغة البلاد الرسمية . وبمضى الزمن أخذ كثير من المصريين يتعلمونها ويستخدمونها فى وثائقهم وخطاباتهم حتى ولو كانوا يجهلونها . ولا جدال فى أن اللغة المصرية كانت لا تزال تستخدم فى الكتابة الدينية والتخاطب فضلا عن تحرير العقود والرسائل . ولا يفوتنا أن نذكر ان غالبية المصريين كانوا لا يستطيعون كتابة أو قراءة أى لغة وبطبيعة الحال كانوا لا يعرفون اليونانية .

وقد صحب ازدياد استخدام اللغة اليونانية ونقص استعمال الديموطيقية تدوين هذه اللغة بحروف يونانية . وتبع وضع الأبجدية القبطية تنظيم هذه اللغة المصرية الدارجة لرفعها الى مصاف اللغات الأدبية ، وأدى ذلك الى أن ظهرت اللغة القبطية بآدابها منذ أواسط القرن الثالث الميلادى .

اسمها : سميت بالقبطية لأن المصريين فى ذلك الوقت كانوا يسمون أقباطا ، وقبطى معناه مصرى .

كانت الشعوب السامية المجاورة تسمى مصر قديما باسم «مصر» . هكذا تسمى فى الأشورية وسميت فى الآرامية « مصرين » وفى العبرية « مصرايم » وعرفها العرب باسم « مصر » . والمصر فى اللغات السامية بمعنى الحد وقد أطلقت الشعوب السامية من أشوريين وآراميين وعبريين وعرب ، على البلاد المتاخمة لهم « مصر » كما أسموا سكانها بالمصريين . ثم أطلقت كلمة مصر على القطر عامة . (ومما يستحق الملاحظة أن كلمة فينيس finis فى اللاتينية بمعنى حد ، وقد أطلق الرومان هذه الكلمة بصيغة الجمع على القطر أيضا) .

وسمى القبط مصر باسم كيمى « السواد » أى الأرض السوداء . وأسماها الآشوريون فى نقوشهم الاسفينية « هيكوبتاه » وهو الاسم الذى كان يطلقه المصريون على عاصمة مملكتهم منف ومعناه « بيت روح بتاح » وكان اطلاق هذا الاسم على المملكة كلها من سبيل اطلاق العاصمة على القطر كما تعودنا ذلك فى المديريات الآن .

وسمع اليونان هذا الاسم فأخذوه عنهم منذ عصور قديمة وأسموها « ايجبتوس » وورد اسمها هذا عدة مرات فى شعر هوميروس . فاذا حذفنا علامة الرفع (و س) ثم الحركة الأولى التى ظنها العرب حرف استهلال خلص لنا بعد ذلك اسم قبط .

أما المراحل التى اجتازتها كتابة هذه اللغة فهى :

أ ـ الخط الهيروغليفى : الذى اكتسب صفة القدسية ، ولذا أعطى هذا الاسم « هيروغليفى » المأخوذ من كلمتين يونانيتين هما «هيروس» = مقدس ، و«غليفوس» = نقش .

ب ـ الخط الهيراطيقى : وهو أيسر من الهيروغليفى بعض الشيء . واستعمله الكهنة فى كتاباتهم . والتسمية مأخوذة أيضا من اللغة اليونانية ، ومعناها « خاص بالكهنة » .

جـ ـ الخط الديموطيقى : وهو من اليونانية ومعناه « خاص بالشعب » . فالخط الديموطيقى هو الصورة المبسطة التى أخذ الشعب المصرى يستخدمها فى كتاباته فى العصور المتأخرة .

د ـ الخط القبطى : قامت محاولات فردية من المصريين لتدوين لغتهم بحروف يونانية وكان ذلك فى العصور الوثنية ، بدليل العثور على نصوص قبطية من العصر الوثنى لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض حروف ديموطيقية ، وهذه النصوص محفوظة فى كل من متحفى باريس ولندن .

وكافة هذه المحاولات كانت وليدة الحاجة لسبب أو لآخر ، دون أن يكون لذلك أى شأن بالمسيحية . وانتهى الأمر بأن استطاع شخص أو جملة أشخاص استحداث ما نسميه الآن بالخط القبطى وكتبوا لغتهم بحروف يونانية وأضافوا الى الأبجدية اليونانية سبعة أحرف أخذوها من الخط الديموطيقى ، تعبر عن أصوات ليس لها مقابل فى اللغة اليونانية وهى الأحرف السبعة : شاى (ش) وفاى (ف) وخاى (خ)وهورى (هـ) وچنجا (چ) وتشيما (تش) وتى (ت) .

اللهجات القبطية : المعروف أن اللغة المصرية القديمة كانت تضم لهجات شتى، وهذا مانراه واضحا بين سكان مصر الآن . وهذا طبيعى فى اللغات اذا انتشرت فى منطقة واسعة وتوالت عليها العصور . ولا ريب أن بعض الاختلافات التى كانت قائمة فى المصرية القديمة كانت أساسا لما وجد منها فى اللهجات القبطية المتعددة .

قسم العلماء اللهجات القبطية الى قسمين :

أ ـ لهجات مصر السفلى :

ويعرف منها الآن البحيرية نسبة الى البحر أى لغة الأراضى المجاورة للبحر أو ربما كانت منسوبة لمديرية البحيرة . وهى اللهجة الأولى التى وصلت الى درجة اللغة الأدبية . وكان ذلك فى مدينة الاسكندرية .

ب ـ لهجات مصر العليا :

١ — الصعيدية نسبة الى صعيد مصر وهى لهجة طيبة ، وأصبحت فيما بعد لهجة الوجه القبلى ، وكانت تسمى بالطيبية .

٢ — الفيومية ، انتشرت فى الفيوم .

٣ — الأخميمية ، تكلم بها أهل مدينة اخميم ثم أفسحت المجال للصعيدية .

هذه اللهجات الأربع هى اللهجات الرئيسية وتفرع عنها بعض لهجات :

١ — المنفية ، سادت فى منطقة منف وحلت محل البحيرية .

٢ — الاخميمية الفرعية أو الأسيوطية ، انتشرت فيما بين البهنسا وأسيوط وقد اشتقت من الاخميمية .

١ — البشمورية ، اشتقت من البحيرية وقد ذكرها العلماء الأقباط ولكنها ضاعت ويرجح أنها كانت لهجة قبطية تكلم بها اليونان في شرقي الدلتا وكتبت بحروف يونانية عادية .

٤ — واشتق من الفيومية لهجة أخرى عثر على نص منها فى البجوات بالواحات الخارجة ويرجح أنها كانت خاصة بالواحات .

هذا وكانت اللهجة الصعيدية تتكون من عدة لهجات اندمجت بعضها فى بعض كما تلاحظ هذا أيضا فى البحيرية . ودليلنا على ذلك وجود صيغ مختلفة لكلمة واحدة . ويلاحظ على اللغة القبطية بالنسبة للمصرية القديمة ما يأتى :

١ — أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

٢ — دخلت عليها مفردات وتعبيرات يونانية وبخاصة فى العصر المسيحى .

٣ — أبدلت بعض الحروف فى الكلمات وبخاصة الحروف السائلة ل م ن ر ، كأن يقال « لس » بدلا من « نس » أى لسان ، كما دخل القلب على بعض الكلمات مثل « اتبى » بدلا من « بت » أى سماء .

٤ — كتبت القبطية بالحروف الصامتة والمتحركة ولم يعرف الخط القديم الا الحروف الصامتة .

٥ — حملت لنا القبطية كلمات لم نعثر عليها فى المصرية القديمة .

٦ — وأهملت القبطية كلمات مصرية قديمة .

احتضار اللغة القبطية :

أخذت اللغة العربية تناهض اللغة القبطية ابتداء من القرن التاسع الميلادى . وطبيعى أن حلول العربية محل القبطية فى الكتابة سبقه انتشار العربية كلغة للتخاطب بين أفراد الشعب ، فقد أصبحت العربية لغة الدواوين ، ثم صارت لغة التعليم ، وقد جاء القرن الثالث عشر والعلماء القبط يؤلفون فى اللاهوت باللغة العربية مما يدل على أنها كانت لغة العلم السائدة . وكان يفهمها أغلب سكان مصر ، ويتكلم بها أغلب سكان الوجه البحرى . وظلت القبطية لغة التخاطب فى الوجه القبلى حتى القرن السابع عشر .

ويقول المقريزى فى القرن الخامس عشر عند كلامه عن دير موشه « والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى وهو أصل اللغة القبطية ، وبعدها اللغة القبطية البحيرية . ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون الا بالقبطية الصعيدية » . ويقول ماسپرو « ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون

ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر » .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انتهى الكلام بالقبطية ، ولكنها بقيت لغة الكنيسة تستخدم فى الصلوات وقراءات الكتب المقدسة . ويعرفها بعض الأفراد من الأقباط ، فى الأديرة أو المدن ، عن طريق اتصالهم بهذه الصلوات واهتمامهم بها . هذا طبعا غير العلماء الغربيين والشرقيين المهتمين بدراستها .

أثر اللغة القبطية خارج مصر :

بالرغم من أن اللغة القبطية لغة قومية ، الا أننا نرى لها آثارا عالمية ، فهذه بعض ألفاظ قبطية انتشرت فى اللغات الأوروبية مثل الواحة (وازيس) ، وكومى أى الصمغ (فى الايطالية جوما ، وفى الفرنسية جوم وفى الانجليزية جم) ، والسوسن ، والأيبيس وشيهات ، وهى منطقة وادى النطرون (اسقيط) ، (ومنها اسم الناسك فى اللغات الأوربية) ، والأبنوس ، ولعل كلمة طوبة أى (الآجر) مثل من الألفاظ التى نعرف تاريخ انتشارها فى الخارج ، فقد أخذها العرب عند فتحهم لمصر عن القبطية وحملوها معهم الى الأندلس فدخلت الاسبانية . ثم فتح الاسبان جنوب أمريكا فانتشرت هناك لفظة (أدوبى) ثم اتصل الأمريكيون الشماليون بأمريكا الجنوبية فدخلت الكلمة فى اللغة الانجليزية بشكلها الاسبانى .

ومن أثر القبطية أيضا أن القديسين كيرلس المسمى بالفيلسوف وأخاه ميتودوس عندما وضعا الأبجدية الروسية فى القرن التاسع الميلادى أدخلا بعض الحروف القبطية المأخوذة عن الديموطيقية فى الأبجدية الروسية .

اللغة القبطية وأثرها على العربية :

بالرغم من أن اللغة القبطية قد اختفت أمام العربية الا أن ذلك لم يحل دون أن تضفى شخصيتها المصرية على اللغةالعربيةوأن تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر تظهر بمظهر خاص يختلف عنه فى الأقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر . فمن الكلمات القبطية التى دخلت العربية أسماء لمسميات مثل برسيم ، أردب ، يم ، أم قويق، حلق ، تليس ، بقوطى ، كعك ، قلة ، كحة ، لقمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح ، نبوت ، نتوس ، نونو ، ناف ، بصارة ، رقاق ، سلة ، سمان ، طورية ، ذهبية ، تندة ، سنط، شونة ، شوب ، شوطة ، شوربة ، حلوم ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح . ومن أنواع السمك : البورى ، والبنى ، واللبيس ، والراى ، والشال ، والشلبه . ومنها أفعال مثل شأشأ ، فرفر ، هلوس ، هوّش ، لكلك، نكت ، نط ، فتفت ، ودمس (دفن) ،

شلشل ، شن ، بشبش . وكذلك تعبيرات مثل : الورور للفجل الصغير ، ولقلاق ووجبة (الساعة أو الوقت) والكاس بمعنى الألم ، وتوت للحاوى بمعنى اجتمع ، وليلى بمعنى افرح ، ونحن ما زلنا نرددها فى « ليلى يا عينى » ، وبح بمعنى انتهى ، وكانى مانى ... ومنها استعمال أداة الاستفهام فى آخر الجملة . ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلحظه فى أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الأسماء المصرية القديمة منذ تسعة قرون وهى مدة سيادة اللغة اليونانية ورغما من فرض أسماء يونانية على المدن المصرية مثل : أبولوتوبوليس لقوص ، وأكسيرنخوص للبهنسة ، وليتوبوليس لأوشيم ، وبانوبوليس لاخميم ،وهرموبوليس للأشمونين ، وهيراكليوبوليس لأهناس فان الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة اللغة القبطية على هذه الأسماء القديمة .

الفصل الثالث

الحيـــــاة الفكرية

١ – الإنتاج العقلى والفلسفة

الحالة الفكرية وقت ظهور المسيحية :

كانت الاسكندرية قد وصلت الى درجة عظيمة من الأهمية ، حتى أصبحت تعتبر بحق العاصمة الثقافية للعالم وقلب العالم الهلينى النابض . وكانت مكتبتها تزخر بمن يفد اليها من العلماء والفلاسفة وطلاب المعرفة ، لا من بلاد اليونان فحسب وانما من كل جهـــات العالم ، يجلبون معهم علوم بلادهم وثقافتها. وازدحمت المدينة بأناس من شتى الأجنـاس والأديان والثقافات ، حتى لكأنها كانت معهدا ثقافيا .

كان فيهـا المصريون الوطنيون بدياناتهم المعــروفة ومعابدهم وآلهتهم المصرية ، والى جانبهم عاش اليونان بلغتهم العالمية وفلسفاتهم وآلهتهم الاغريقيـــة والمتمصرة ، والرومان بأنظمتهم وقوانينهم وثقــافتهم وعباداتهم ، وكان هناك اليهــود يمثلون عنصرا هاما فى المدينة ولهم فيهـا حى خاص ومعهم دياناتهم الالهيـــة وكتابهم الموحى به وتقـاليدهم الموروثة ، وكانت هناك أجناس أخرى شرقية فى المدينة لها أيضا عباداتها وثقافتها .

وقد التقى كل أولئك فى شوارع المدينة وأسواقها . وقامت مناقشات دينية وعقليـة حامية كانت تؤدى الحماســة لها أحيانا الى معارك ومنازعات . كما تقابل علماء كثيرون فى المكتبة وتناقشوا فى خصومة حينا وفى تفاهم حينا آخر ، وكانوا يأخــذون من الحــكام مساعدات مالية ، وهكذا تأسست مدرســة الاسكندرية المشهورة وأخذت الاسكندرية مكان أثينا كمركز أدبى للعالم اليونانى .

ومن ذلك كله حــدث لون من الامتزاج الفكــرى تولدت عنه أفكار وفلســـفات ومذاهب جديدة . بل حــدثت محـــاولات للتوفيق بين الأديان المتعددة فى حركةعرفت باسم « التوفيق » Syncretism :

واليهود الذين كانوا منعزلين عن الأمم ، بقيت جماعة منهم محتفظـة بتقاليدها بينما اختلط الباقون بغيرهم من الشعوب ، وعملوا على التقريب بين دياناتهم والفلسفات القائمة فمزجوا بين الاثنتين . حتى أنه فى القرن الثانى قبــل المســيح كتب أرسطوبولس تفســيرا للتوراة حاول فيـــه التوفيق بين تعاليمهـا

والفلسفات المعاصرة ، بل قال ان فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو تأثروا بكتابات موسى النبى واعتمدوا عليهـا فى كتاباتهم . وفيلون الفيلسوف اليهودى الاسكندرى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى حاول هو أيضا التوفيق بين العقل والوحى ، وتأثر بالأفلاطونية ، وكان له تأثيره على المسيحيين فيما بعد .

ولكن كل هذه المحاولات للتقريب أضافت الى الأفكار المتضاربة أفكارا جديدة، ولم تستطع أن تصل بالناس الى الحق الواحد ، بل ظل العقل البشرى حائرا يتساءل أين توجد الحقيقة . واحتدم النزاع بين فلسفات وفلسفات ، وبين أديان وأديان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين العقل والايمان.

الصراع بين المسيحية والفلسفة الوثنية :

وسط كل ذلك ظهرت المسيحية فى الاسكندرية حوالى سنة ٦٥ م وانتشرت فى فترة وجيزة فى مصر كلها . وكان عليها لكى تبقى أن تصمد أمام اضطهادات الحكام ، وأن تتصارع مع كل الأديان والفلسفات والمذاهب سواء منها الوثنية أو اليهودية .

وهكذا حدثت مفارقة عجيبة فى الاسكندرية ، فاتخذ كل من الفريقين أسلحة الآخر ليحاربه بها . فدرس المسيحيون الفلسفة للرد على الفلاسفة ودرس الوثنيون الكتاب المقدس لمهاجمة المسيحيين . وهكذا نرى « كلسوس » و « بورفيريوس » وغيرهما يهاجمون المسيحية فى تعاليمها التى درسوها فى الأناجيل محاولين أن يخطئوها تاريخيا وفلسفيا . ومن ناحية أخرى نرى ديديموس الضرير يكتب كتابه عن «الثالوث» مستشهدا فيه بكثير من آراء الفلاسفة والعلماء والشعراء الوثنيين .

واتهم الوثنيون المسيحيين لدى الحكام باتهامات كثيرة فى تعاليمهم وعبادتهم وأخلاقهم ، وأدى هذا الصراع الى ظهور فئة من العلماء يدافعون عن المسيحية نذكر من بينهم أثيناغورس أحد أساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، فقد كتب دفاعه الى مرقس أوريليوس قيصر سنة ١٧٦ م .

كذلك حاول أعداء المسيحية أن يؤلفوا كتبا على نسق الأناجيل لها أبطال سيرتهم تشبه سيرة السيد المسيح حتى يخلطوا المسيحية بتلك الأساطير الخرافية . ومن ضمن كتب هؤلاء « حياة فيثاغورس » التى ألفها بورفيريوس وهى لا تختلف كثيرا عن حياة أبولونيوس التى كتبها فيلوستراتوس . ورد المسيحيون على كل ذلك معتمدين على التاريخ والعلوم والفلسفة واللاهوت فى ردودهم .

هذا الصراع بين الفلسفة والدين ، أعنى بين العقل والايمان الذى يسلم بالمعجزات وأمور فوق العقل ، كان من نتائجه ظهور فلسفة الغنوسية ، وفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

الفلسفة الغنوسية :

الغنوسية وتاريخها ومدارسها : الغنوسية معناها « المعرفة » واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانيــة « جنوسس » ، وقــد ميز « الغنوسيون » أنفســهم بهــذا الاسم عن « المؤمنين » ، وغالوا فى رفع قيمــة المعرفة والحط من قيمة الايمان . هم وضعوا العقل فوق الايمــان ، والفلســفة فوق الدين ، وجعلوا الفكر الخالص رقيبــا على الوحى ، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعـــة . واعتقدوا أن الانســان يتكون من ثلاثة عناصر : روح ونفس وجسد . وقسموا الناس حسب العنصر السائد فيهم الى ثلاث طبقات:

أ — الروحيين وهم الغنوسيون الذين رفعتهم المعرفة الى مستوى عال فوق المــادة والحس ويسودهم العنصر الالهى .

ب — الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس .

ج — النفســانيين وهم متوسطون بين الاثنين ، يمكن أن ترفعهم المعرفة الى درجة الغنوسيين الروحيين ، ويمكن أن تنحدر بهم المادة الى درجة الجسدانيين .

وهــكذا نرى أنهم حســبوا أنفســهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله ، وحطوا من قيمة المادة جــدا واعتبروها شرا . فسلك بعضهم طريقة تصوفية تحاول السمو عن المادة والحس ، كمــا انحدر بعضهم الى الدعارة زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه . وكان الغنوسيون فى مصر من النــوع الأول الناسك .

ليس معنى هــذا أن الغنوسيين كانوا جميعهم وثنيين ، وانما كان منهم مسيحيون أيضا . ولكن هؤلاء نظروا الى نزعتهم التى اختاروها واعتبروا أنفسهم أشخاصا روحيين على حين اعتبروا باقى المسيحيين نفســانيين فقط غير قادرين على النهوض من الايمــان الأعمى الى المعرفة الحقيقية ، واعتبروا باقى الناس عاديين أو جسدانيين . ورأوا أن نظرية الفداء فى المسيحية هدفها تخليص الانســان من المادة والجسد ، وقالوا ان هذا كان هو عمل المسيح الفدائى . ولكن لأن الغنوسية قد اشتملت على عقائد كثيرة تخالف الايمان المسيحى فقد طردتها الكنيسة من صفوفها ، وأبعدت من يؤمنون بتلك العقائد ، واعتبرت الغنوسية بذلك الوضع هرطقة وحاربتها .

ومؤرخو الفلسفة يرجعون الغنوسية الى أيام تلاميــذ السيد المسيح ، ويرون أن سيمون الساحر الذى حرمه بطرس الرسول كــان أحــد مؤسسيهــا الأول . على ان الغنوسية لم تظهر فى قوتها الا منــذ القرن الثانى حين انتشرت فى مصر .

وقد تكونت مدارس كثيرة للغنوسية فى ســوريا ومصر وآسيا الصغرى وفى رومة أيضا وفى بلاد الغال وقرطاجنــة ، وانتشرت هذه المدارس على الأخص فى البــلاد التى

كانت فيها المسيحية على اتصـــال قريب باليهودية والوثنية . وتفرعت منها فروع تميز كل منها بطـابع خاص مثـــل النيقولاويين والماركونيين والمانيين . ولكن أقوى وضـع ظهرت فيه الغنوسية كان على يد فيلسوفها الكبير فالنتينوس الاسـكندرى الذى يقول عنه « شاف » انه « أسس أكبر مدرســة للغنوسية ، وكانت له فلسفة خاصة ، ولهذا تمثل طريقته أحسن وضــع انتشرت فيــه الغنوسية » .

فالنتينوس : هــو مؤسس أعمــق وأمتع الأنظمة الغنوسية وأكثرها تأثيرا ورواجا.كان مصرى الجنسية واسكندرى الثقـافة درس الغنوسية ونشرها فى طابع جديد شاعرى له جمـــال فنى . وبعـــد أن قضى فترة فى الاســكندرية ذهب الى رومــة حيث قوبل بترحاب كبير . وأسس هناك مدرسة غنوسية، واجتمع حوله عدد كبير من تابعيه ، وكان من أوائل الغنوسيين الذين علّمـوا فى رومة . وقضى بها حــوالى سبع عشرة سنة أو أكثر من ذلك ، عــلى رأى بعض المؤرخين . ثم تركها وذهب الى قبرص حيث أسس مدرسة أخــرى للغنوسية لاقت رواجا كبيرا حتى قال عنه القديس ابيفانوس انه « كاد يقضى على الايمان هناك » واستمر هناك حتى مات حوالى سنة ١٦٠ م . وكان له تلاميذ كثيرون سواء فى ايطاليـا أو فى بلاد الشرق ، ومن أشهرهم برديصـان وبطلميوس وهراكليون وثيودوتس ، وقد نشروا تعاليمه فى صــور متنوعة . وقد هاجم تعاليمه كثير من كبــار رجال المسيحية فى العـالم ، منهم ترتليانوس وأوغسطينوس فى افريقيا ، وايريناوس فى بلاد الغال ، وابيفانوس فى قبرص وغيرهم .

الوثائق القبطية : عثر الباحثون على وثيقة قبطية هامة عن الفلســفة الغنوسية تدعى « حكمة الايمان » يرجع تاريخها الى وقت ازدهار فلسفة فالنتينوس فى أواخر القــرن الثانى الميلادى أو أوائل الثالث . وتســجل هذه الوثيقة العقائد العامة لنظام فالنتينوس. وموضوعها مقابلة خيالية بين السيد المسيح وتلاميذه حدثهم فيها عن كثير من الموضوعات اللاهوتية ، وأسلوبها شاعرى مؤثر .

كما عثر سنة ١٩٤٦ فى نجع حمادى على حــوالى ألف صفحــة مكتوبة بالقبطية على البردى بها ٤٧ رســالة فى الغنوسية . وهى محفـــوظة الآن فى المتحف القبطى بمصر القديمة . وقد أبدى العلماء اهتماما شديدا بها لأنهم يتوقعون أن تلقى ضوءا على هذه الفلسفة .

الغنوسيون الأرثوذكس : اذا كان قد انضم الى الغنوسية كثير من الوثنيين واليهود أو مــن المسيحيين الذين طردتهم الكنيســة واعتبرتهم هراطقة ، فانه قد انضم اليها أيضا جمــاعة من المسيحيين من كبـــار معلمى الكنيسة . ولكن هؤلاء لم يؤمنوا بمعتقدات الغنوسية التى حاربتها المسيحية ، وانما كان

لهم رأيهم الخاص فى الغنوسية بمعناها السليم الذى لا يتعارض مع الدين . وعلى رأس هؤلاء القديس اكليمنضس الاسكندرى أحد مشاهير من تولوا ادارة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . وقد وضع كتابا مقسما الى ثمانية كتب وسماه « المتنوعات » وعارض فيه الغنوسية الوثنية . وقال ان الغنوسية الحقيقية يجب أن تبنى على أسس من الايمان والمعرفة العليا التى هى الحكمة الالهية . ولم يهاجم الفلسفة كما هاجمها غيره من المسيحيين الذين اعتبروها خطرة على المسيحية ، بل انه أعلن ان « الفلسفة خادمة للاهوت » ، وأن الله أعطى الفلسفة لليونان وغيرهم من الأمم لتعدهم للايمان المسيحى كما كانت الشريعة بالنسبة لليهود . وهكذا اعتبر الفلاسفة « أنبياء الوثنية » . ودعا المسيحيين الى دراسة الفلسفة وأخذ ما فيها من حقائق . ورأى أن الغنوسى الحقيقى يجب أن يتزود بكافة أنواع المعارف لتساعده على الايمان وتثبته فيه . واعتبر أن جميع المسيحيين الحكماء المتعمقين فى فهم الحق هم الغنوسيون الحقيقيون أو الغنوسيون الأرثوذكس .

وصار هذا المبدأ من أهم أسس التعليم فى المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، وسار عليه مشاهير مديريها من أمثال : أوريجانوس وديديموس الضرير وغيرهما ، ونشروه بين الجموع التى لا تحصى من تلاميذهم .

ولكن جميع هؤلاء — على عكس فلاسفة الغنوسية الآخرين — قد وضعوا اللاهوت فوق الفلسفة ، والوحى فوق العقل، ونادوا بعدم تناقض الاثنين .

الأفلاطونية الحديثة :

وهى فلسفة جديدة ولدت فى الاسكندرية على يد « أمونيوس سقاص » . وقد قدمت للبشرية فكرة امكان الاتصال المباشر باللاهوت ، وانتشرت انتشارا عظيما حتى وصلت الى جميع العقول من عقل الامبراطور الى عقل العبد . وانتشرت بسرعة وسط العامة الذين استطاعوا أن يتفهموها ، وكذلك بين كبار المثقفين فاهتم بدراستها وأعجب بها فلاسفة عظماء مثل القديس أوغسطينوس . وكان لها تأثيرها العميق على كثير من قادة المسيحية .

امونيوس سقاص : ولد من أبوين مسيحيين فى الاسكندرية ، وكان من أسرة فقيرة . ولكنه بعد فترة من الدراسة والتأمل أنشأ مدرسة فلسفية فى الاسكندرية نشر فيها تعاليمه التى أخذها من دراسة نقدية لأفلاطون وأرسطو حاول فيها أن يوفق بين آراء هذين الفيلسوفين . وليس ممكنا أن نحدد مقدار التأثيرات المسيحية التى اشتملت عليها فلسفة سقاص ولكننا نقول ان الفلسفة أخذت على يديه اتجاها يختلف كلية عن اتجاهات سابقيه . لأن الأفلاطونية الحديثة لم تكن مجرد فلسفة وانما كانت أيضا نظاما دينيا ، أو كما يقول البعض انها « حولت

الهيلينية الى لاهوت» . وقد توفى امونيوس سقاص حوالى سنة ٢٤٣ م دون أن يخلف لنا كتبا . وانما استطعنا أن نفهم فلسفته من كتابات تلميذه بلوتينوس (افلوطين) وبورفيريوس خليفة افلوطين .

ولد افلوطين فى أسيوط سنة ٢٠٤ م ودرس الفلسفة فى الاسكندرية لمدة احدى عشرة سنة على يد أمونيوس سقاص ، ثم ذهب الى بلاد الفرس ليدرس دياناتهم ، واستقر سنة ٢٤٥ م فى رومه حيث أنشأ مدرسة للأفلاطونية الحديثة على غرار المدرسة الغنوسية التى أسسها هناك فالنتينوس الاسكندرى . واستمر يدرس فى رومه حتى وفاته سنة ٢٧٠ م .

وخلفه تلميذه بورفيريوس الذى وضع ٥٤ مؤلفا شرح فيها تعاليمه ، غير أن بورفيريوس خرج على المسيحية وهاجمها مهاجمة عنيفة . وكان ذا عقلية فلسفية كبيرة وشهرة واسعة . وقد وضع خمسة عشر كتابا ضد المسيحية هاجم فيها كثيرا من تعاليمها .

ولا شك أن انتصار قادة الفكر المسيحى على أمثال هذا الفيلسوف الخطير كان دليلا على ماوصل اليه هؤلاء القادة من نبوغ خارق فى الفلسفة والعلم .

وبعد مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م لم تعد الوثنية هى ديانة الدولة الرسمية ، ولكن الوثنية احتفظت برغم ذلك بنفوذها الثقافى ممثلا فى الأفلاطونية الحديثة التى أصبحت فلسفة العصر وانتشرت فى مدارس الامبراطورية الرومانية .

فأنشأ تلاميذ بورفيريوس مدرسة فى سوريا ، وذهب الى هناك كثير من طلاب العلم يدرسون على أيديهم الأفلاطونية الحديثة ليحملوها الى مدارس آسيا الصغرى واليونان والى الاسكندرية ذاتها . واستمر ذلك الى نهاية القرن الرابع حتى كانت كتب افلوطين تتداول فى أيدى المثقفين أكثر من محاورات أفلاطون ، ومثل هذا يقال أيضا عن مؤلفات بورفيريوس .

٢ — مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأثرها الثقافى

الحاجة الى انشاء هذه المدرسة :

انتشرت المسيحية انتشارا سريعا وازداد عدد المنضمين اليها ، وكان من الضرورى أن يوضع التعليم المسيحى على أسس منهجية منظمة ، لاعطاء هؤلاء المتحولين الى المسيحية ما يؤهلهم للمعمودية والانضمام الى الكنيسة، وكذلك لتثقيف المؤمنين أنفسهم بمبادىء دينهم وتعاليمه وتزويد الراغبين منهم بما يريدونه من الدراسات العليا والتعمق فى فهم الفلسفة واللاهوت . وهكذا تأسست مدرسة الاسكندرية للتعليم المسيحى .

ولم تكن هذه الأسباب الايجابية فقط

هى الداعية لانشائها ، انما كان هناك سبب آخر لا يقل عنها خطورة . ذلك أن العالم الوثنى كان يقف للمسيحية بالمرصاد يحاول بكل قواه وبكافة الطرق العلمية والعقلية والنقدية أن يقضى على هذه الديانة الجديدة. وهكذا واجهت الكنيسة هجمات فكرية شديدة من فلاسفة الوثنية ورجال السياسة فيها . وكان لا بد أن توجد مدرسة عليا تزود الكنيسة بقادة للفكر ، وتقدم للمسيحيين المعرفة الكافية التى تمكنهم من الرد على خصومهم سواء كان ذلك فى مجادلات فردية أو جماعية . وكان غرض المسيحية من هذه المدرسة اللاهوتية هو الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم ، وحماية المؤمنين مما يثيرونه فيهم من شكوك ، وتبشير أولئك جميعا بالمسيحية وتعريفهم طريق الحق .

وهكذا تركزت كل تلك الاحتياجات الفكرية فى المدرسة اللاهوتية . وبتطور تلك الاحتياجات وازديادها كانت المدرسة تعدل فى مناهجها وتضيف اليها موادّ جديدة لتفى بحاجة العصر . وهكذا كان نمو المدرسة نتيجة لطبيعة الاحتياجات التى واجهتها ، والتى تطورت بها حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعارف الدنيوية والكنسية .

تاريخ المدرسة وشهرتها :

وتاريخ هذه المدرسة يرجعه يوسابيوس القيصرى والقديس جيروم الى زمن القديس مرقص الرسول ويقول انه هو الذى أسسها فى النصف الأخير من القرن الأول الميلادى ، وعهد بادارتها الى تيطس الذى صار فيما بعد أسقفا للاسكندرية . على أن شهرتها ظهرت بوضوح منذ القرن الثانى وأوائل القرن الثالث على أيدى مديريها الفلاسفة المشهورين مثل بنتينوس واكليمنضس وأوريجانوس وديونسيوس . ثم توقف نشاطها قليلا أو تعطل بعض الشىء فى أواخر القرن الثالث ، اذ شتت الاضطهاد أساتذتها وطلابها ، الا أنها ما لبثت أن رجعت فى القرن الرابع الى سالف مجدها على يد مديرها العظيم ديديموس الضرير . واستمرت الى أوائل القرن الخامس ، ثم سلمت زمام القيادة الفكرية للرهبنة فى الأديرة .

فى الواقع لم تكن مدرسة الاسكندرية هى المدرسة اللاهوتية الوحيدة فى العالم المسيحى ، وانما كانت هناك مدارس مسيحية فى بلاد أخرى . ولكن لم تستطع واحدة منها الوصول الى مثل سيطرة مدرسة الاسكندرية وتفوقها ، فكانت مدرسة الاسكندرية أهم مدرسة من حيث امتداد نفوذها فى المسيحية ، يأتى المسيحيون اليها من شتى الأقطار للدراسة على أساتذتها الذين بلغوا درجة كبيرة من الشهرة ، وتخرج على أيديهم أساقفة وبطاركة عظماء لكثير من البلدان المسيحية الهامة . وكان مدير المدرسة يعتبر الثانى بعد البطريرك فى الاسكندرية .

وكثيرا ما اختير بطاركة الاسكندرية من بين مديرى هذه المدرسة اللاهوتية . وقد أعطى هذا لبطاركة الاســـــكندرية مركز الزعامة الفكرية والعلمية فى العالم المسيحى كله ، اذ كان كثير من أســـــاقفة العـــالم المشهورين تلاميذ لهم تخرجوا على أيديهم أو على أيدى تلاميذهم فى مدرســـة الاسكندرية ، وظلوا بعد رسامتهم أساقفة ، على صلة بأساتذتهم الاسكندريين يستشيرونهم فى مشـــاكلهم . ولذلك لقب بطريرك الاسكندرية بلقب «قاضى المسيحية فى العـــالم » . وكانوا يعتبرون فى المجامع المسكونية حجـــة ومصـــدرا للتعليم الصحيح .

مشاهير أساتذتها

قدم الينـــا القرن الثانى للميـــلاد ثلاثة مديرين للمدرســـة كانوا فلاســـفة وثنيين ، تعمقوا فى الفلســـفة اليونانية ثم درســــــوا المسيحية ليتفهموها أو ليفندوها ، غير أنهم ما لبثوا أن آمنوا بهـــا ودافعوا عنهـــــا ، وتطوروا حتى صـــــاروا مديرين لمدرســـة الاســـكندرية اللاهوتية ، وهم أثيناغوراس (سنة ١٧٦ م) ، وبنتينوس (سنة ١٨١ م) ، واكليمنضس (ســـنة ١٩٠ م) . وقـــد ظل أثيناغوراس يرتدى زى الفلاسفة وهو مدير للمدرسة المسيحية .

وخلفه تلميذه بنتينوس الذى نجح نجاحا كبيرا فى ادارة المدرسة ،فبدأ الراغبون فى العلم والدين يقصدونها من كافة أنحاء العالم . وكان ممن استمعوا اليه تجار من الهند فأعجبوا به جدا واعتنقوا المســـيحية بحماسة عظيمة ولم يكتفوا بذلك بل حركتهم غيرتهم الدينية على خلاص مواطنيهم أن يرسلوا — بعد رجوعهم الى بلادهم — وفدا الى البابا الاســـكندرى ديمتريوس يلتمسون منـــه أن يسمح بارسال القديس بنتينوس الى بلادهم لتبشيرها بالمسيحية فأوفده فى بعثة الى هناك ســـنة ١٩٠ م فترك المدرسة فى يدى تلميذه اكليمنضس وذهب فى رحلته الموفقة الى هنـــاك . وفى رجوعه من الهند عرج فى زيارة تبشيرية على الحبشـــة وبلاد العرب .

ويرجع اليه الفضل فى تقديم أقدم ترجمة قبطية للكتاب المقدس ترجمها بمساعدة تلميذه اكليمنضس الذى عاونه فى ادارة المدرســـة وخلفه فيها .

اكليمنضس الاسكندرى : وهو واضع السياسة التعليمية الجريئة التى سارت عليها مدرســـة الاســـكندرية المسيحيـــة فى كافة عصـــورها . وكان قبل تحوله الى المســـيحية فيلسوفا وثنيا ، درس فلسفة اليونان ثم جال يطلب العلم فى بلاد اليونان وايطاليا وفلسطين ومصر وبلاد الشرق الأدنى ، غير أنه لم يجد معلما خيرا من أستاذه بنتينوس . وهو مثل معلمه نبغ فى كافة العلوم الدينية والكنسية . وتظهر معارفه الواسعة فى مؤلفاته وفى الطابع الجديد الذى اتخذته على يديه مدرسة الاسكندرية وحدد فيه العلاقة بين الفلسفة والدين ، كما

فتح الباب أمام تلاميذه لجميع أنواع المعرفة . وقد وضع كتبا كثيرة لها أهميتها الدينية والعقلية . ومن أشهر كتبه الفلسفية كتاب « المتنوعات » ألفه ليعارض به الغنوسية المنحرفة ، ووضع فيه الأسس التى ينبغى أن يسير عليها الغنوسى الحقيقى أو الفيلسوف المسيحى . ولما ثار اضطهاد الامبراطور سبتيموس ساويرس هجر الاسكندرية سنة ٢٠٢ م تاركا المدرسة فى يدى تلميذه العظيم العلامة أوريجانوس الذى فاقه شهرة وعلما .

نابغا مثل أوريجانوس . فهو أشهر عقلية

أوريجانوس: لم تعرف المسيحية فيلسوفا مسيحية فى مصر وفى العالم المسيحى كله طوال عصوره المتتابعة . وقد سار فى قيادة مدرسة الاسكندرية على سياسة أستاذه اكليمنضس .

ولد حوالى سنة ١٨٥ م وكان له ذكاء خارق للعادة وقدرة عجيبة على الاستذكار وصبر على الدرس والاطلاع . واستطاع فى سن مبكرة أن يستوعب قدرا ضخما من المعلومات فألم بالفلسفة والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى والبلاغة ، وجمع بين معلومات المدرستين المسيحية والوثنية ، فدرس على القديس اكليمنضس الاسكندرى كما درس على أمونيوس السقاص مؤسس الأفلاطونية الحديثة . وفى سنة ٢٠٢ وهو فى السابعة عشرة من عمره سيق والده الى الاستشهاد فى أيام الاضطهاد الذى أثاره سبتيموس ساويرس . فبينما جزعت والدته أرسل هو الى والده يشجعه ويقول له « لا تتراجع ولا تضعف بسببنا » .

وتحت ضغط الاضطهاد اضطر القديس اكليمنضس الى ترك الاسكندرية فعهد البطريرك ديمتريوس بادارة المدرسة اللاهوتية الى أوريجانوس وهو بعد فى الثامنة عشرة . وكان هذا اعترافا بما وصل اليه هذا الشاب النابغ من عبقرية فذة . وقد نجح نجاحا كبيرا جدا فى عمله فى التدريس بل صار أعظم أستاذ عرفته الدراسات المسيحية .

وتوافد عليه طلاب العلم من كافة الأقطار ، وتخرج على يديه أساقفة وبطاركة وقادة للشعوب كما درس عليه فلاسفة وثنيون وهراطقة واستطاع أن يجذب كثيرين منهم الى الايمان . وكان قدوة فى الفضيلة والنسك حتى انه لم يذق الخمر ولا اللحم فى حياته ، ولم يكن له غير ثوب واحد . وقال عنه يوسابيوس « انه كان مثالا فى الأعمال للفيلسوف الحقيقى : كما يتكلم ، هكذا أعماله ، وكما هى أعماله ، هكذا يتكلم » .

ولم ينثن عن التعليم مع عنف الاضطهاد ، وكان هذا الاضطهاد لا يجعل التعليم صعبا فحسب بل كان يجعله خطرا أيضا . ولم يكن للمدرسة بناء خاص فكان التلاميذ يقطنون حول مسكن أوريجانوس أو يأتون اليه لتلقى العلم . وقد اشتد الاضطهاد على أوريجانوس لدرجة أنه لم يوجد فى المدينة كلها أى مكان

له وانما انتقل من منزل الى آخر وكان يطرد من كل مكان يعلم فيه نتيجة للأعداد الوفيرة التى كانت تؤمن على يديه .

وكان فى أثناء الاضطهاد يزور تلاميذه فى السجن ويصطحبهم الى حيث المحاكمة ويتبعهم الى مكان الاستشهاد ، لا يبالى أن يكون معهم تحت سمع وبصر جلاديهم ، يقبلهم ويشجعهم الى أن يسلموا الروح ، بل انه وضع كتابا فى الحض على الاستشهاد .

أما عن انتاجه العلمى فهو أضخم انتاج لمؤلف حتى قيل انه كتب ستة آلاف مؤلف، وأقل تقدير يجعل مؤلفاته حوالى الألف . وكان يملى على عدد كبير من النساخ ، وقد قال عنه جيروم انه كان يقرأ أو يملى حتى وهو يأكل . ومن أشهر الأعمال التى قام بها جمع نسخ الكتاب المقدس وترجماته القديمة ومقابلتها ومراجعتها وتصحيح ما احتاج الى تصحيح . وقد استمر فى هذا المجهود الجبار ٢٨ عاما ، فوضع « الهكسبلا » أى ذات الأعمدة الستة لأنه قارن بين ست ترجمات للكتاب المقدس جمعها فى أسفاره الكثيرة . كما وضع كتاب « المبادىء » و كتاب « الرد على كلسوس » وتفسيرات عديدة للكتاب المقدس حتى وصفه الكسندر أسقف أورشليم بأنه « أستاذ الأساقفة وأمير مفسرى الكتاب » ورقاه الى رتبة الكهنوت أثناء مروره بفلسطين فى أحد أسفاره .

وقد استاء من هذا العمل البطريرك ديمتريوس وجمع مجمعا حرم فيه أوريجانوس ، فترك الاسكندرية وأسس مدرسة فى قيسارية فلسطين على نهج مدرسة الاسكندرية ، وازدحم عليه طلاب العلم هناك . وموضوع حرم أوريجانوس ما يزال حتى يومنا هذا مثار جدل بين اللاهوتيين حول أسبابه ومدى الحق فيه . على أن البطريركين اللذين خلفا ديمتريوس فى كرسى الاسكندرية كانا من تلاميذ أوريجانوس ويقال ان أولهما أعفاه من ذلك الحرم .

ولم يقتصر نشاط أوريجانوس على التعليم والتأليف بل امتد الى التبشير ، فسافر الى رومه والى بلاد العرب للقضاء على بعض البدع فيهما كما سافر مرتين الى أثينا كما ذكر « هارناك » .

ولما تولى ديسيوس عرش الامبراطورية الرومانية أثار اضطهاداشديدا على المسيحيين. ولم ينج أوريجانوس من هذا الاضطهاد بل قبض عليه سنة ٢٥٠ م وسجن وعذب عذابا أليما . ويقول يوسابيوس « يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس وما احتمله فى صبر وارتياح من العذابات المرة والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد » . ولكنه لم يلن فأخلى سبيله بعد أن تدهورت صحته وكاد يشرف على الموت . ولم يعش بعد ذلك سوى سنتين أو ثلاثا حتى انتقل من هذا العالم بعد أن ترك فيه شهرة لا تمحى .

أما ديديموس الضرير فقد ولد فى الاسكندرية سنة ٣١٣ م فى السنة التى وقف فيها اضطهاد الوثنية للكنيسة . وفى حوالى الرابعة من عمره فقد بصره لمرض أصابه فى عينيه . فبدأ يدرب ذاكرته تدريبا دقيقا حتى أصبحت تساعده على حفظ كل ما يسمعه . ولما كبر بدأ يعلم نفسه القراءة بحفر الحروف على قطع خشبية يتحسسها بأصابعه كما شهد المؤرخ سوزمين بذلك . وهكذا استطاع ديديموس الضرير أن يسبق طريقة برايل بخمسة عشر قرنا . وتمكن من اتقان علوم كثيرة ، فألم بالشعر والبلاغة والفلك والهندسة والحساب ونظريات الفلسفة على تنوعها . كما برع فى العلوم اللاهوتية ودراسة الكتاب المقدس حتى استحق أن يعينه القديس أثناسيوس مدرسا للمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية .

وفى ذلك الوقت كانت الحركة الأريوسية على أشدها ، وكان التعليم محفوفا بالمتاعب بسبب تدخل الحكام المدنيين بآراء ضد الايمان السليم مما عرض الأساقفة والمعلمين للنفى والاضطهاد . ولكن ديديموس لم تثنه اضطهادات أباطرة الرومان لبطريركه اثناسيوس الذى نفى عن كرسيه خمس مرات بل وقف يجاهد معه بكل قوته فى سبيل الايمان ضد الأريوسية التى يناصرها الأباطرة ، كما حارب بقايا الوثنية الممثلة فى الأفلاطونية الحديثة وسائر الفلسفات .

وقد كان مهذبا فى نضاله ضد الأريوسيين والوثنيين ، اذ كان كل جهده مركزا فى أن يقنعهم ويحولهم الى الحق لا أن يهزمهم . وهكذا تحاشى السباب . وجاءت كل كتاباته موسومة بروح الاعتدال . ومن أجل ذلك جاء اليه كثير من الهراطقة يلتمسون العلم على يديه — كما حدث لأوريجانوس — واهتدى على يديه كثير من أمثال أوريجانوس الى الايمان .

وقد ذاع صيت ديديموس وامتدحه القديس أنطونيوس بقوله « لا يحزنك فقد بصرك اذ نزعت منك أعين جسدية كالتى يمتلكها الفئران والذباب . وأحرى بك أن تبتهج لأن لك أعينا كالملائكة ترى بها اللاهوت وتدرك نوره » كما امتدحه كثير من قديسى الغرب وكتابه . وكان القديس جيروم يفتخر بأنه تلميذ لديديموس وأنه اتخذه قدوة له فى دراسة الكتاب المقدس كما ترجم له أحد كتبه . وممن تتلمذ على يده روفينوس أيضا : تتلمذ عليه ثمانى سنوات .

وهكذا استطاع ديديموس أن يعيد لمدرسة الاسكندرية المجد الذى كان لها أيام اكليمنضبس وأوريجانوس . واستمر فى عمله كمعلم حتى نهاية حياته سنة ٣٩٨ . وخلف حوالى ٤٨ مؤلفا قيما فى اللاهوت والتفسير . وكان سندا لاثناسيوس وحصنا فكريا للكنيسة حطم قوة الأريوسية ، وفند كل مغالطاتها العقلية .

باقى الأساتذة :

يكتب يوسابيوس القيصرى فى منتصف القرن الرابع فيقول « ان المدرسة استمرت الى أيامنا وسمعنا أنه أدارها رجال أقوياء فى علومهم ، وغيورون على الأمور اللاهوتية » . ويكفى أن الاثنين اللذين خلفا أوريجانوس صارا بطريركين للاسكندرية ، أحدهما القديس ديونسيوس صاحب الصيت الذائع فى المعرفة اللاهوتية ، وثانيهما بيوزيوس الذى كان نابغة فى الفلسفة والعلوم اللاهوتية ويقول عنه القديس جيروم انه « درّس تلاميذه كل أنواع المعرفة بمهارة وكتب مقالات فى شتى العلوم حتى لقب بأوريجانوس الصغير » .

العلاقة بين المدرستين الوثنية والمسيحية :

كانت المدرسة الوثنية قد بلغت ذروتها فى العلوم والفلسفة فى القرون الأولى للمسيحية ، ولم تكن توجد أية مدرسة فى العالم القديم تعادلها كمركز للدراسات الطبيعية والعلمية فى الطب والتشريح والرياضيات والفلك والجغرافيا وحتى فى النقد الأدبى . واذا كانت أثينا قد تميزت بدراسة الفلسفة ووجدت فيها فلسفات كثيرة مستقلة الواحدة عن الأخرى فان مدرسة الاسكندرية الوثنية درست فيها كل هذه الفلسفات معا ، تدارسها علماء يمثلون كل فلسفة اجتمعوا معا فى المكتبة والسرابيوم . بل ان الاسكندرية أنجبت « الأفلاطونية الحديثة » وتزعمت « الغنوسية » ونشرت هاتين الفلسفتين فى أرجاء العالم المثقف . لهذا كله كانت هذه المدرسة الوثنية القوية منافسا خطيرا للمدرسة المسيحية الناشئة التى كانت تمثل أعلى مجهود للمسيحيين فى نزاعهم الفكرى مع الوثنية .

ومع ذلك عاشت المدرستان جنبا الى جنب ، كل منهما كان لها طابعها الجامعى ، وكانتا كمرآة تعكس الحالة الثقافية فى الاسكندرية وقتذاك . وقد أثرت كل منهما فى الأخرى . مثال ذلك ان أمونيوس سقاص كان فى المكتبة يحمل التعليم الذى تلقاه سابقا عندما كان مسيحيا ، بل ربما كان اتجاهه نحو الأفلاطونية الحديثة من تأثير المسيحية . ومن ناحية أخرى ، تأثر أوريجانوس بمحاضرات أمونيوس فى المكتبة ، واستمر كأثيناغوراس يلبس زى الفلاسفة حتى بعد أن صار أستاذا فى المدرسة اللاهوتية .

ولكن هدف التعليم فى المدرستين كان مختلفا ، فتاريخ التدريس فى المدارس الوثنية يدلنا على أن الطلبة كانوا يعدون ويتمرنون ليتبوأوا مناصب الدولة ، بينما لم يكن هذا من أهداف المدرسة المسيحية وان كان خريجوها يصلحون لذلك عن طريق غير مباشر . وبينما كان المهم فى المدرسة الوثنية هو التقدم الثقافى وكان المستوى الأخلاقى للأساتذة منحطا ، فان الحياة الفاضلة

والأخلاق كانت من أبرز خواص المدرسة المسيحية سواء في المدرسين أو فى الطلبة . ولعل أهم اختلاف وأوضحه هو أن الفلسفة والعلوم كانت تدرس فى المدرسة الوثنية لمجرد الثقافة بينما كانت تدرس فى المدرسة المسيحية لغرض دينى .

فارق آخر بين المدرستين وهو أن طلبة المدرسة الوثنية كانوا من مستوى ثقافى واجتماعى معين وكانوا ذكورا ، بينما كان التعليم عاما فى المدرسة المسيحية يتلقاه السيد والعبد ، الكبير والصغير ، الذكر والأنثى ، بغض النظر عن الدين والجنس والثقافة . وهكذا حطمت المدرسة المسيحية كل الفوارق الاجتماعية ، وفتحت بابها أيضا للفلاسفة الوثنيين والهراطقة ، وازداد عدد طلبتها ازديادا كبيرا .

على أن المنافسة الجبارة بين المدرستين كان لها أثرها الفعال القوى فى نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت فى تلك القرون الأولى للمسيحية ، فاضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل فى برامجها كل المواد التى تدرس فى منافستها الوثنية ، حتى لا يشعر طلبتها بأنه ينقصهم نوع من الثقافة تمتاز به المدرسة الوثنية ، وحتى يستطيعوا الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنيين .

وهكذا أدخلت الفلسفة الوثنية بشتى فروعها فى منهج المدرسة المسيحية على يد القديس اكليمنضس الاسكندرى الذى نادى بأن الفلسفة خادمة للاهوت ، وأن الغنوسى الحقيقى من المسيحيين يجب أن يزود نفسه بكل أنواع المعارف البشرية « آخذا من كل فرع من فروع الدراسة ما فيه من الحق » . وارتقت دراسة الفلسفة فى المدرسة المسيحية حتى أن كثيرا من الفلاسفة الوثنيين كانوا يلجأون الى أوريجانوس يدرسون على يديه الفلسفة الدنيوية واللاهوت .

وأدخل اكليمنضس دراسة الفلسفة فى المدرسة المسيحية ، وأدخل الى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا . كل ذلك وجد له موضعا فى منهج اكليمنضس ووجدت له علاقة بدراسة اللاهوت . وسار خلفاء اكليمنضس على نفس هذا النهج . وهكذا قال أوريجانوس « ان أولئك الفلاسفة يتكلمون عن الهندسة والموسيقى والأدب والبلاغة والفلك كمعاونة للفلسفة ، ونحن بنفس الأسلوب نتكلم عن الفلسفة كمعاونة للمسيحية » .

ولم يكتف أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وانما ساعدوا طلبتهم أيضا على القراءة — تحت ارشادهم — فى كتابات كافة المؤلفين دون أن يمنعوهم عن شيء . فكان الطلبة يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها ، ولم يرفض الأساتذة فى محاضراتهم مناقشة أى موضوع يسألون فيه .

وأضافوا الى كل ذلك دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريبا عمليـا . وكان المدرسون قدوة صالحة لطلبتهم فى الحيـاة الفاضلة المثاليـة ، وما حثوهم على فضيلة الا كانوا قد مارسـوها هم أنفسهم قبـلا ونقدوها .

وهكذا كان من نتائج المنافسـة بين المدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة النطـاق لا نظير لها فى أى بلد آخر من بلاد العالم المثقف . وأصبحت الاسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو للوثنيين ، وصارت مقصـد كل راغب فى الدراسات العليا فى شتى العـلوم الدنيوية والدينية .

ولما كانت المعرفة لا تحد فقد كانت مدة الدراسة فى المدرسة المسيحية غير محـدودة فالقديس أغريغوريوس صانع العجائب (بعد أن أكمل دراساته فى الفلسفة واللغة والبلاغة فى أثينا وبيروت) تتلمذ ست سنوات على أوريجـانوس وكان يشتهى لو أتيح له أن يقضى بقية حياته فى المدرسة .

نجحت المدرسة المسيحية كل هذا النجاح على الرغم من أنه لم يكن لها بناء خاص ولا مكتبة خاصة ، وانما كان أسـاتذتها يلقون دروسهم فى منازلهم أو فى قاعات يستأجرونها لهذا الغرض . وكان الطلبـة والأسـاتذة يذهبون الى مكتبة الاسكندرية العـامة للقراءة والاطلاع .

٣ — الإنتاج العلمى والأدبى والثقافة الشعبية

الانتاج العلمى :

ورث الأقباط عن أجـدادهم الفراعنة براعـة فى الطب والتشريح والكيميـاء والصيدلة ، والهندسـة والفلك . واستمروا على نبوغهم فى هذه العلوم طوال العصرين اليونانى والرومانى ، حتى أصبحت مدرسـة الاسكندرية الوثنية القديمـة هى أقوى مدارس العالم فى هـذه الدراسات . ثم تأسست المدرسة القبطية المسيحية واضطرت أن تدرس هذه المواد أيضا . ونتج عن كل ذلك نهضة علمية لا مثيـل لها ، ونبغ من الأقباط أساتذة تخرج عليهم كثير من علماء العالم القديم .

وظهـر فيهم هيروفيلاس مؤسس علم التشريح ، وايريستسراتوس مؤسس عـلم وظائف الأعضاء ، وديموكريتوس صـاحب نظـرية الذرة . كمـا ظهر العـالم الماهر كرنيليوس كلسوس الذى وضـع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان ، وسرابيون الاسكندرى الذى تعمق فى دراسـة عقاقير قدماء المصريين ، ولا سيما الكريهـة الطعم منها ، وهو الذى قدمها للعصـور المتتابعة فظلت مستعملة الى القرن الثامن عشر .

ووضع القبط في الاسكندرية غالبية المصطلحات الطبية ، ومنها مثلا كلمة medicina عقاقير و medicamentus دواء أو سم و apotheca مخزن الدواء . وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التي ما تزال مستعملة .

وهذه الشهرة التي نالتها مصر المسيحية في الطب والصيدلة والكيمياء جذبت اليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أساتذتها . ومن أمثلة ذلك جالينوس العالم المشهور الذي ظهر في القرن الثاني للميلاد والذي تنسب اليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة في هذه العصور الحديثة ، هذا العالم تتلمذ في الاسكندرية وأخذ من جامعتها فلسفته وطبه وصيدلته .

وقد نشط العالم لدراسة المخطوطات القبطية الخاصة بالدراسات الطبية ولمس ما فيها من فائدة . وقد ظهر بحث للأستاذ « تل » في العقاقير الطبية القبطية يتبين منه مدى تقدم الأقباط في الصيدلة والكيمياء والطب . كما وضع الأستاذ « دوسن » سنة ١٩٢٤ م كتابا عن تاريخ الطب عند الأقباط في القرون الأولى للمسيحية وشرح بالاضافة الى العقاقير أدوات الجراحة التي كانوا يستخدمونها .

ومن أهم ما وصلنا من المخطوطات الطبية القبطية بردية « شاسيناه » التي تمتاز بعلاج أمراض العيون ومداواة الخراجات وعلاج بعض أمراض النساء والأطفال . وقد وصفت كثيرا من العلاجات لأمراض العيون وبعض القطرات والمساحيق ، منها قطرة قابضة لمنع النزيف . ولا تقل بردية «زينون» أهمية عن هذه البردية أيضا . وهذه البرديات ترينا مدى ما وصل اليه صيادلة الأقباط من معرفة بأصول فن صناعة الدواء وتحضير اللصقات، كما تدل على علمهم الوافر بالتفاعلات الكيميائية المختلفة وبالأخص التي تتم على النار .

ويقول « نيتولتسكى » في كتابه الطب الشعبى المقارن ، ان كثيرا من العلاجات والمستحضرات العلاجية المعروفة في أوروبا منذ القرون الوسطى تحمل الطابع المصرى القديم ، كما أن الكثير من هذه الوصفات لا زال مستعملا في مصر وفي كثير من بلدان الشرق .

ولم يقتصر نبوغ الأقباط العلمى على الطب والصيدلة والكيمياء وانما برعوا في الحساب والرياضة أيضا . وليس أدل على ذلك من أنهم تولوا الأعمال الحسابية والمالية والادارية طوال العصر الاسلامى . بل ظلوا الى عهد قريب يشغلون غالبية وظائف الدولة في هذا الميدان .

ولم يقل نبوغهم في الهندسة وأعمال البناء عن نبوغهم في الطب والحساب . وتشهد على ذلك الكنائس الفخمة التي بنوها والأديرة ذات الأسوار والحصون الضخمة .

وليس أدل على ذلك من آثار « أبامينا » بمريوط ، والديرين الأبيض والأحمر في منطقة سوهاج ، وغير ذلك من الآثار المعمارية الكثيرة الدينية وغير الدينية . بل ان هذا النبوغ استمر معهم فقد ذكر « الأزرقى » فى كتاب أخبار مكة أن الكعبة طغى عليها قبيل ظهور الاسلام سيل عظيم صدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها مستعينة فى ذلك بنجار قبطى كان يسكن مكة . وأثبتت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر أن الوليد استعان بالقبط فى بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى ، وقصر أمير المؤمنين هناك . ويذكر « البلاذرى » فى فتوح البلدان أن الوليد استعان بالقبط فى اعادة بناء مسجد المدينة .

ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوى فى المدينة عهد بذلك الى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف فى الاسلام ، وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة . وأثبت العلماء أن قصر المشتى فى شرق الأردن الذى يرجع بناؤه الى منتصف القرن الثامن الميلادى قد تأثر فى زخارفه بالزخارف القبطية وفى تخطيطه بتخطيط الديرين الأبيض والأحمر بسوهاج . وتتجلى البراعة الفائقة فى بناء مهندس قبطى هو سعيد ابن كاتب الفرغانى لجامع ابن طولون مستخدما فى ذلك عمودين فقط بعد أن قال المهندسون لابن طولون ان ذلك العمل يحتاج الى ما لا يقل عن ٣٠٠ عمود . وبين « كريزويل » الأثر القبطى على فن العمارة الاسلامى المتقدم فى مقال له نشره فى مجلة جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٩ .

ومن آثارهم فى الفلك حساب الأبقطى الذى وضعه فى القرن الثانى للميلاد الأنبا ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . وصار الأقباط هم الذين يعهد اليهم بتحديد الأعياد والأصوام للعالم المسيحى كله . ومثال ذلك ان مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م فوض لبطريرك الاسكندرية تحديد التاريخ المضبوط لعيد القيامة بعد أن تضاربت أقوال علماء المسيحية فى ذلك .

صناعة الورق

وجدنا من مخلفات العصر القبطى الكثير من البرديات التى تثبت أنهم أجادوا صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة ، وقد استغل المصرى هذا الورق أحسن استغلال فى تدوين علومه وآدابه منذ أقدم عصور حضارته .

فالمصرى فى كل عصوره — اذا ما تناول الفن أو العلم — أظهر ثباتا على مصريته ومحافظة على تراثه . وذكر الأستاذ «چوجيه» فى معرض كلامه عن مدرسة الاسكندرية فى مقال له عن عصر الانتقال فى مصر من اليونانية الى القبطية ما ترجمته « لقد سعى الاسكندر الأكبر سعيه ليصبغ الروح المصرية بالصبغة الهيلينية ، واقتفى البطالمة أثره فى ذلك ، وحاولوا جهدهم أن يستميلوا المصريين ويضفوا على الفكر المصرى مسحة يونانية

بحتة . وقد ثابروا فى هذا السبيل مدة ستة قرون يحاولون فيها الوصول الى غرضهم . وخيل اليهم أنهم نجحوا فى الوصول الى هدفهم لما رأوا المصرى وقد شغف بمختلف أنواع الثقافات ، يأخذ منها أينما وجدها ، ويستمتع بالفن حيثما يلقاه . ولكن المصرى له قدرة عجيبة على تكييف الفنون وفق مزاجه ، ويستسيغ العلوم بحسب ذوقه ، وهو — بعد هذا كله — مصرى تأصلت جذوره فى هذه التربة التى ازدهرت فوقها حضارته العريقة . فالمصرى — مع كل ما يهضمه من علوم وفنون غريبة — فخور بماضيه ، شغوف ببلاده ، فهذا الفخر وهذا الشغف متأصلان فيه الى حد بعيد الغور ، فهو ثابت فى مصريته بحيث لا يمكن اقتلاعها منه أو تحويله عنها مهما تنوعت المؤثرات » .

نضيف الى كل هذا أن أقباط مصر وبطاركتها ظلوا عمد التشريع الكنسى طوال القرون الأولى للمسيحية وكانوا يعتبرون حجة فى تنظيم قانون الكنيسة للعالم المسيحى .

التاريخ الكنسى

١ ـ تاريخ بطاركة الاسكندرية

كان لمصر مكانة رفيعة بين دول العالم فى نواحى الحياة كلها مجتمعة ابان عهود الفراعنة . وكانت المعبودات المصرية فى دلالتها تنم عن فكر سام رفيع ، اذا قيست بمعبودات الشعوب الأخرى . بل استعارت البلاد الأخرى أحيانا المعبودات المصرية لعبادتها .

فلما دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها ، غدا للكنيسة المصرية نفس المركز الدينى الرفيع بين كنائس العالم . وساعد على ذلك ما عرف عن علماء مصر من تعمق فى معارفهم وعلومهم . ولما أخذ الجدل الدينى يشتد ابتداء من مطلع القرن الرابع الميلادى ، عقدت المجامع العالمية (المسكونية) بدعوة من أباطرة الدولة البيزنطية ، وكانت رئاسة تلك المجامع — التى حضرها أساقفة مندوبون عن كنائس العالم المسيحى كله — تسند فى أغلب الأحيان الى بطاركة الكنيسة المصرية .

هكذا كان لبطاركة الكنيسة المصرية مركز سام فى العالم أجمع ، وكان الأباطرة المسيحيون يجلونهم ويلتمسون بركتهم ويقيمون لهم وزنا . لأنهم كانوا زعماء يمثلون قوة شعبية جبارة ، طالما أقضت مضاجع أولئك الأباطرة .

ومن ثم كان التأريخ لهؤلاء البطاركة — الزعماء الشعبيين — أمرا هاما للغاية . فقد اشتركوا فى الحوادث السياسية التى دارت والتى كان لها طابع دينى على الأغلب ، فقد يحدث أحيانا أن يعتنق الامبراطور الرومانى مذهبا دينيا معينا فى نطاق المسيحية ، ويريد أن يرغم رعيته فى أنحاء امبراطوريته على اعتناق مذهبه حتى يضمن بذلك التجانس بين

شعوب الامبراطورية تبعا لوحدة المعتقد ، فيسبب هذا بين الشعب والحاكم الصدام والحروب والثورات . وكان البطاركة بحق زعماء شعبيين فى تلك الأوقات العصيبة ، قادوا الشعب ولم يعبأوا بالحديد والنار . واضطروا أولئك الأباطرة أن يحنوا الرؤوس لهم اجلالا واحتراما ، فأرخ الناس لهم ولعصرهم ، حتى لتستطيع أن تلم بالكثير من التقاليد والعادات المصرية بل وبنواحى الحياة المختلفة من مجموع هذه التراجم التى تظهر لنا روح العصر الذى عاش فيه هؤلاء البطاركة .

المصادر التاريخية لسير البطاركة : ١

عرض مؤرخون كثيرون لسير بطاركة الكنيسة المصرية ولعل من أشهرهم :

أ ـ يوحنا النقيوسى :

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، كتب تاريخا يبدأ بخلق العالم الى ما بعد الفتح العربى لمصر بزمن يسير . ويحوى تاريخه أخبارا متصلة عن الآباء البطاركة من مرقس الرسولى الذى بشر بالمسيحية فى مصر فى القرن الأول الى البابا بنيامين البطريرك الذى عاصر الفتح العربى .

ب ـ ساويرس بن المقفع :

أسقف الأشمونين (مركز ملوى) عاش فى النصف الأخير من القرن العاشر وأوائل الحادى عشر وعاصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله . وضع كتابا أسماه « تاريخ البطاركة » .ويعتبر تاريخه أهم مرجع بين هذه التواريخ جميعها . وذلك نظرا لما امتاز به هذا الأسقف من العلم الغزير وتمكنه من اللغات القبطية واليونانية والعربية . بل لعله أول كاتب صنف مؤلفاته باللغة العربية من بين الأقباط . وقد جمع تاريخه من عدة مصادر قديمة عثر عليها فى الأديرة أو عن مصادر نقلت عنها . وقد أرخ ساويرس للبطاركة من مرقس الرسولى الى البطريرك يوساب الأول (٨٣٠ — ٨٤٩ م) . وقد ذكر ساويرس أنه ترجم هذه السير الى العربية من مخطوطات قبطية ويونانية ترجع الى عصر المؤرخ له أو بعده بقليل. ومما يجدر ذكره أنمعظم هذه الأصول قد خرج من مصر ، وهى موجودة الآن فى المكتبات الكبرى فى العالم ، ويقوم العلماء بنشرها تدريجيا .

والكتاب بوضعه الراهن يعتبر موسوعة تاريخية عن خصائص العصر الذى عاش فيه البطاركة أصحاب الترجمات . وقد نقل المقريزى عن هذا الكتاب جانبا كبيرا مما سجله فى كتابه « الخطط » كما أخذ عنه أيضا القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » .

وقد ترجمه « ايفتس » ونشره بالعربية مع ترجمة الى الانجليزية فى مجموعة الآباء الشرقيين .

ج ـ الأنبا ميخائيل أسقف تنيس :

عاصر الأنبا ساويرس بعض الوقت وزامله فى جمع تواريخ البطاركة من الأديرة . وأرخ

للبطاركة من خائيل الثالث (٨٨٠ — ٩٠٧ م) الى سانوثيوس (١٠٣٢ — ١٠٤٦) .

د ـ الأنبا يوساب أسقف فوه :

من رجال القرن الثالث عشر الميلادى . وقد قام بجمع سير البطاركة ووضع سير معاصريه .

وقد أكمل تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية حتى عصرنا الحاضر على يد علماء كثيرين من مصر وغيرها . وتعتبر تواريخ البطاركة حلقة هامة فى تاريخ مصر العام .

٢ ـ السنكسار :

وهو الكتاب الذى يضم سير الآباء القديسين . ويحوى قصصا دينيا يصور لنا النواحى الاجتماعية فى العصر الذى عاش فيه الآباء أصحاب التراجم . فهو بذلك يكمل التاريخ ويساعد على فهمه . وقد نشره « باسيه » بالعربية مع ترجمة الى الفرنسية.. ثم نشره « أوليرى » مرتبا بحسب الحروف الهجائية .

وثمة كتب أخرى تكمل السنكسار وتفسره . وأشهر من دونوا سير الآباء « بلاديوس » الذى كتب سير الرهبان المصريين ، واثناسيوس الرسولى بطريرك الأسكندرية فى القرن الرابع ، الذى كتب سيرة القديس انطونيوس ، والقديس « جيروم » . وجيروم هو الذى دون بدوره سير القديسين والشهداء المصريين . وقد نشرها فى مجلدين العلامة « بدج » ، كما وضع القديس يوحنا كسيان (القرن الرابع) عدة كتب ضمنها بعض سير الرهبان المصريين نشرها « لوشانوان » بعد ترجمتها الى الفرنسية ، كما نشرت ترجمة الى الانجليزية فى المجلد الحادى عشر من موسوعة « آباء نيقية وما بعد نيقية » .

٣ ـ تاريخ المجامع

أرخ الأقباط — بطابعهم القبطى الخاص — للمجامع المحلية والعالمية ، مما كان له أكبر الأثر فى المحافظة على هذا التاريخ .

(أ) المجامع المحلية :

وكانت تعقد فى مدينة الاسكندرية برئاسة البطريرك للنظر فيما يهم الكنيسة بوجه عام وحل المسائل المختلفة التى كانت تطرأ .

(ب) المجامع العالمية (المسكونية) :

وكانت تعقد فى القسطنطينية أو فى مدينة تتوسط أنحاء الامبراطورية . وكان الامبراطور البيزنطى هو الذى يدعو لانعقادها للنظر فى البدع الدينية التى تظهر فى اقليم من أقاليم الدولة . وكان أعضاؤها مندوبين يمثلون جميع الكنائس فى العالم المسيحى . وعلى المجمع أن يتخذ القرارات التى تدحض تلك البدع من جهة وتقوى الايمان من جهة أخرى . وقد شغلت الخلافات المذهبية حيزا كبيرا فى تاريخ الدولة البيزنطية أنهكت قوتها ومزقت أوصالها .

ولذلك تؤلف تلك المجامع فصولا رئيسية فى تاريخ الدولة البيزنطية .

وفى التاريخ العام كان للأقباط انتاجهم الكبير الملحوظ فيما وضعوه من مؤلفات عديدة ليس بالنسبة الى التاريخ الكنسى فحسب ، بل فى التاريخ المدنى أيضا . ومن أشهر الكتب التى ألفت فى هذا المضمار الكتاب الذى أرخ فيه يوحنا النقيوسى للعالم من بدء الخليقة الى الفتح الاسلامى . ويعتبر الجزء الأخير منه هو المصدر الأول لتاريخ فتح العرب لمصر .

يوحنا النقيوسى :

كان معاصرا لفتح العرب لمصر . كان فى بدء حياته راهبا عرف بالتقوى وكثرة العلم وحسن السيرة ، فرسم أسقفا على نقيوس (ومكانها الآن قرية بشادى بمديرية المنوفية)، ثم رقى رئيسا لأساقفة الوجه البحرى ، ثم عين فى شيخوخته سنة ٦٩٤ م مديرا لأديرة وادى النطرون . وعلى الرغم من علمه وتقواه وخدمته للكنيسة فقد حكم الأساقفة بوقفه عن مباشرة عمله الكهنوتى بسبب عنفه الشديد فى تأديب راهب على خطيئة ارتكبها.

وقد خلف لنا كتابا هاما أرخ فيه من بدء الخليقة الى ما بعد دخول العرب مصر بقليل. وكتابه مقسم الى ٢٢ بابا . الأحد عشر الأخيرة منها خاصة بالفتح العربى حيث تكلم عنه بتفصيل واسهاب . ويعتبر الكتاب هو المرجع الأول والأصيل فى هذا الموضوع لأن كاتبه سجل ما رآه عيانا بنفسه .

وقد وضع هذا الكتاب باللغة القبطية ثم ترجم الى العربية والحبشية وربما الى اليونانية أيضا . ولكن لم يصل الينا غير الترجمة الحبشية .

ويدل الكتاب على ما وصل اليه يوحنا النقيوسى من علم غزير وتعمق فى البحث واعتماد على المراجع الأصلية القديمة ، كما تظهر فيه الحرية التىتوخاها الكاتب فى سرد التاريخ .

وليس صحيحا ما ذكره زوتنبرج الذى نشر تاريخه من أن الكتاب وضعت غالبيته باليونانية على حين وضعت الأخبار المحلية بالقبطية .

١ — لأنه من المستبعد على كاتب قبطى متمسك بقوميته أن يكتب لمواطنيه تاريخ العالم بلغة مضطهديهم الروم .

٢ — كانت اللغة اليونانية قد أخذت فى الانقراض من مصر منذ القرن الخامس على يد الأنبا شنوده .

٣ — صيغة أسماء الأعلام فى النص الحبشى تدل على أنها أخذت عن أصل قبطى .

وقد ظل الأقباط يحملون لواء العلوم الى ما بعد دخول العرب مصر بقرنين . وظهر فيهم كيرلس وكولوتس ويؤانس . وعرف فى القرن السادس يوحنا فيليبونوس النحوى

الذى ألف فى الأدب والطب والرياضة . ومن المعروف أنه منذ القرن السادس كان رجال الدين من الأقباط يتولون تدريس العلوم فى المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية ، ونذكر من بينهم سرجيوس وهارون القس .

وقد ورثت الدولة الاسلامية فيما بعد كثيرا من هذا التراث العلمى فى حركة الترجمة التى قامت بها . فقد أمر خالد بن يزيد بن معاوية بأن ينقل الى العربية كثير من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية . وتبعه فى هذا المضمار كثير من خلفاء وولاة المسلمين . وكان استقرار الخلافة فى بغداد وازدهار العلوم فيها باعثا على انتقال العلماء من مصر الى الشرق ، ويقول « المسعودى » فى مروج الذهب ان مجلس التعليم (الجامعة) نقل من الاسكندرية فى أيام عمر بن عبد العزيز الى أنطاكية ثم نقله المتوكل الى حران .

الإنتاج الأدبى والثقافة الشعبية

المخلفات الأدبية المؤلفة بالنثر : وتشمل فروعا كثيرة أهمها :

١ ــ ترجمة الكتاب المقدس :

وهى فى الدرجة الأولى من أدبيات اللغة القبطية . وقد أخذت هذه الترجمة عن اليونانية منذ القرن الثانى ، وتعتبر من أدق الترجمات لأن الذين قاموا بها كانوا ملمين الماما تاما باللغتين . وقد كانت الحماسة الدينية بالغة حتى انه لم يخل القرن الرابع أو الخامس الا وكان الكتاب كله مترجما الى اللهجتين البحيرية والصعيدية وبعض أجزاء منه الى اللهجتين الاخميمية والفيومية.

٢ ــ أقوال الآباء :

وهذه اشتملت على فروع كثيرة منها الأقوال النسكية التى كتبها آباء الرهبنة أو سمعت عنهم فسجلت . وكلها تحض على النسك والتجرد من العالميات وعلى الترويض على الفضيلة وتنقية النفس . ومن أمثلتها الرسائل العشرون التى أرسلها القديس أنطونيوس الى تلاميذه ، والأنظمة التى وضعها القديس باخوميوس لتنظيم حياة الرهبان ، وما خلفه القديس يوحنا التبايسى من ميامر (مواعظ) عميقة فى الحياة الروحية، وكذلك تشمل المواعظ والخطب الدينية التى كانت تلقى فى أيام الآحاد أو الأعياد أو بعض المناسبات الأخرى ، ومن أشهرها خطب الأنبا شنوده فى أثناء كفاحه ضد الوثنية وفى نشره لتعاليم المسيحية . ومع أن الآباء كانوا قلما يكتبون اكتفاء بتحقيق الهدف العملى وهو التسامى فى ممارسة الفضيلة، الا أن ما وصلنا منهم كثير فى قدره وفى قيمته .

٣ ــ سير القديسين :

وهى كثيرة جدا تزخر بوصف حياة وجهاد الشهداء والرهبان والمتوحدين والنساك

وبعض الآباء البطاركة والأساقفة . ولم تكن هذه السير مجرد تاريخ جاف ، وانما كانت موضوعة فى أسلوب أدبى عميق بالغ الأثر حتى كان من نتائجها اقبال كثيرين على الرهبنة وعلى السير فى الحيـــاة الفضلى . وهى فى الواقع تجسيم لفضـــائل معينة يمثلها هؤلاء القديسون الذين كتبت سيرهم مع لون من الايحاء فى الكتابة .

٤ ـ القصص :

وبعضه دينى فيه خيال وتصور مثـــل قصة ملكة سبأ ومقابلتها لسليمان الحكيم أو قصة الملك يوحنا ورئيس الدير . والبعض وطنى نفس به الأقباط عن شعورهم القومى الذى ظل مكبـــوتا فترات طويلة تحت نير المستعمر . ومن أمثلتها رواية الاسكندر الأكبر وقد وجدت ترجمتها الصـــعيدية فى الدير الأبيض ، ورواية قمبيـــز وغـــزوه لمصر ، وكلتاهما لا صلة لهما بالدين ولا بالجـدل اللاهوتى . وكذلك قصـــة ثيودوسيوس وديونسيوس .

٥ ـ الاصلاح الاجتماعى :

تظهر روح الاصلاح فى خطب الأنبـــا شنودة التى حارب بها البدع الموجـودة فى عصره كالدجل الطبى والســـحر وفوضى الموالد وبناء الهياكل على أجساد الشـــهداء وما الى ذلك .

٦ ـ أغراض أخرى :

مثل الآداب الكنسية وطقوس العبـادة ونصوص أخرى تتعلق بالتـــاريخ والقوانين والسحر .

النظـــم

لم يصل الينا شعر كتبه الأقبـــاط فى الأغراض الدنيوية المختلفة اذ كان النســـك السائد فى تلك العصـــور الأولى للمسيحية يحول دون ذلك . فقد اتجهوا فى المدح الى الملائكة والعذراء مريم والأنبياء والقديسين والشـــهداء فى نظم يعـــرف باســـم الذكصولوجيات وهى كلمة معناها «تمجيد»، وقد جمع الكثير منها أوليرى سنة ١٩٢٤ فى كتابه المسمى Coptic Hymns ، أما مـــدح العذراء مريم فلكثرته اختص به تقريبا باب اسمه الثيئودوكيات . وقد نشر « أوليرى » سنة ١٩٢٣ كتابه المسمى The Coptic Theotokia جمع فيه كثيرا من المقطوعات الشعرية القبطية التى وجـــدها فى دير القديس مقاريوس والمكتبة الأهلية بباريس والمتحف البريطانى . وقد قال ان هذا النوع من النظم كان مستحبا لدى الشعراء الأقباط استغلوا فيه مواهبهم . كما ذكر « مالون » أن هذه الثيئودوكيات لها مكانة عظمى فى الآداب القبطية .

وقد كان القصص من بين الأغراض التى طرقها الشعراء الأقباط أيضـــا . ومن أشهر القصص الشعرية قصة ارشيليديس الراهب الذى رفض مقابلة أمه وفاءً لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة . وهى قصيـــدة طويلة جدا على شكل حوار تظهر فيه براعة التمثيل وقوة التأثير ، والقصيدة تمس ناحية حساسة من المشاعر الانسانية .

ثم هناك الأشعار الكنسية وهى صلوات أو تأملات مأخوذة من المزامير أو الانجيل وتسمى ابصاليات (وهى مأخوذة من الكلمة القبطية بصالموسى بمعنى مزمور) والبعض الآخر تسمى الهوسات (وهى مأخوذة من الكلمة القبطية هوس بمعنى تسبيح) . وقد اختصوا كل يوم بتسبيحة خاصة منظومة وملحنة بلحن خاص ، وتوجد غالبية هذه القطع الشعرية فى كتابين هما الابصلمودية السنوية والابصلمودية الكيهكية .

النـدب

عرف الشعب المصرى منذ أقدم عصوره ندب الميت ، وقد وصلنا من العصر القبطى الكثير من الندب فى نظم نقش أحيانا على الرخام كشواهد للقبور .

وتظهر لنا عادة الندب من قصيدة ارشيليديس وأمه سنكليتكى التى تدعو فيها النساء للندب « أيتها النساء ، يا كافة من أنجبن أبناء ، تجمعن ، وابكين معى » وقد نشرت « ماريا كرامر » كتابا فيه الكثير من منظومات الندب القبطية .

وكانت موضوعات الشعر تنطوى على كثير من المعانى الأدبية والحكم التى يمكن ارجاعها الى التأثر بنظائرها فى الأمثال المصرية القديمة وفى أمثال سليمان الحكيم وباقى أدب الحكمة فى العهد القديم . ويرى «ورل» أن القبطى كان يفضل هذا اللون من الأدب منذ العصور الفرعونية وأن تضمين الحكمة فى شعره كان أصيلا وليس نتيجة لاعتناق المسيحية .

لغة الأدب

ينقسم الأدب القبطى الى قسمين :

(أ) أدب قبطى متأثر بتأثيرات يونانية . وقد ظهر أكثره فى الاسكندرية التى انتشرت فيها الثقافة الهلينية ، حتى اضطر كثير من الآباء الى الكتابة باللغة اليونانية المنتشرة فى العالم وقتذاك ، وترجمت كتاباتهم فى مصر الى القبطية لينتفع بها الأقباط أنفسهم .

(ب) أدب قبطى صميم كالذى ظهر فى كتابات الأنبا أنطونيوس والأنبا باخوميوس اللذين لم يعرفا غير القبطية ، وخطب ومواعظ الأنبا شنوده الذى لم يشأ أن يكتب بغير القبطية ، كما كان زعيما شعبيا يكلم الأقباط المضطهدين على يد حكامهم بلغتهم القبطية لا باللغة اليونانية لغة الحكام .

وهذا الأدب القبطى الصميم كان له مركزان : هما وادى النطرون للهجة البحيرية، والدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد للهجة الصعيدية . وهكذا نرى أن أديرة الرهبان كانت معاقل للأدب القبطى الصميم بلهجتيه . وفى بعض المخطوطات القبطية تسمى اللغة القبطية لغة أهل الجبال . ولعل المقصود بذلك الصعيد لارتفاعه وأديرة الرهبان لوجودها فى الجبال . وقد تولى الأنبا شنوده رئاسة الدير الأبيض سنة ٣٨٣م

الذى أضحى مركزا للأدب الصعيدى . وفيه أصبحت اللهجة الصعيدية هى اللغة الأدبية للكنيسة القبطية فى أزهى عصورها .

وأمام هذه النهضة الأدبية التى تزعمها الأنبا شنوده أخذت اليونانية تتقهقر وتتراجع بمقدار النمو المطرد الذى انتشرت به المسيحية بين الريفيين وبعدول الناس الى استخدام اللغة القبطية كلغة أدبية وبازدياد الأقباط شعورا بكيانهم وقوميتهم . وعندما فتح العرب مصر كانت اللهجة الصعيدية هى لغة الأدب القبطى عامة . وكل نهوض بعد ذلك للهجة البحيرية كان على أساس ترجمة الآداب الصعيدية التى انتشرت فى القرون الستة الأولى للمسيحية .

٤ — أقوال الآباء : آثارها وشهرتها

كتب آباء الكنيسة القبطية فى نواح كثيرة أهمها فرعان رئيسيان هما : اللاهوت والنسكيات وقد حظيت كل تلك المؤلفات بشهرة عالمية منذ كتابتها .

كتابات الآباء اللاهوتية

كان أساتذة الاسكندرية وبطاركتها هم عمد اللاهوت فى العالم المسيحى كله . لذلك كانت لكتاباتهم أهمية كبيرة وشهرة واسعة .

كان موقف الزعامة الفكرية الذى وقفه القديس اثناسيوس فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥، باعثا على ذيوع كتاباته فى اللاهوت وتوضيحاته للايمان المسيحى ، وأصبحت كتاباته المصادر الأولى لعلم اللاهوت المسيحى ، حتى اعتبر اثناسيوس أبا لعلم اللاهوت فى المسيحية . ومؤلفاته التى وضعها عن « تجسد الكلمة » و « الرد على الأريوسيين » و « الروح القدس » انتشرت هى أيضا انتشارا واسعا ، وعليها بنى باقى مشاهير اللاهوتيين أفكارهم حتى أصبح القول الشائع بين الغربيين فى تلك العصور هو « اذا وجدت عبارة من أقوال اثناسيوس ولم تجد ورقة لتكتبها ، فاكتبها على قميصك فى الحال » ، ونعرف أن القديس «ايلارى» — أسقف بواتييه بفرنسا — لما ذاع صيته ، لقبوه « اثناسيوس الغرب » .

وهذه الشهرة والزعامة الفكرية انتقلت أيضا الى القديس كيرلس الاسكندرى حتى لقب بعامود الدين . وكان كافيا أن يقول الشخص«أنا على ايمان اثناسيوس وكيرلس» لكى يصبح هذا اعترافا منه بالايمان السليم.

وقد نالت كتابات ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية فى عهد اثناسيوس شهرة واسعة ، حتى أن الأنبا داماسوس أسقف روما لما طلب من القديس جيروم ، الذى كانت شهرته العلمية معروفة فى الكنيسة كلها ، أن يكتب له مؤلفا عن«الروح

القدس » ، وجد هذا أن أفضل ما يعمله هو أن يترجم الى اللاتينية ما كتبه ديديموس الضرير فى هذا الموضوع .

هذه الشهرة التى نالتها كتابات آباء مصر فى القرنين الرابع والخامس سبقتها شهرة واسعة فى القرنين الثانى والثالث لأساتذة المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية . ولعل أكبر مثال لها هو كتابات أوريجانوس التى تلقفها علماء الشرق والغرب فراعهم ما فيها من قوة وعمق . ومن أجل ذلك قام بترجمة الكثير منها الى اللاتينية روفينوس وايلارى أسقف بواتييه والقديس جيروم . بل ان غالبية معلمى الكنيسة اللاتينية وأعاظم اللاهوتيين فيها حرصوا على أن ينقلوا عن أوريجانوس كما يظهر ذلك من شرح لامبروسيوس أسقف ميلان معلم أوغسطينوس . وقد شهد أوسابيوس أسقف فرسيل فى ايطاليا أنه لم ير فلسفة حقيقية غير مؤلفات هذا العالم القبطى. وكان القديسان باسيليوس الكبير واغريغوريوس الناطق بالالهيات يعتبرانه معلما لهما ، وقد جمعا مقتطفات من مؤلفاته فى كتاب أسمياه فيلوكاليا .

أقوال الآباء فى النسك

تلك الشهرة التى حظى بها آباء الأقباط فى اللاهوت تقابلها شهرة لا تقل عنها فى آداب الرهبنة . ولعل أبرز أمثلتها قوانين القديس باخوميوس وما نالته من شهرة ، حتى لقد نقلها الى رومه القديس اثناسيوس ابان نفيه عن كرسيه . كما ترجم القديس جيروم حياة باخوميوس وقوانينه الى اللاتينية سنة ٤٠٤ لفائدة رهبان ايطاليا . ووصلت الى بلاد الغال فى أوائل القرن الخامس عن طريق القديس يوحنا كاسيان الذى عمل على تطبيقها عمليا فى الدير الذى أسسه فى مارسيليا . ووضع القديس أوغسطينوس نظامه الرهبانى مسترشدا بقوانين باخوميوس ، وكذلك فعل القديس باسيليوس الكبير مؤسس الرهبنة اليونانية ، والقديس باتريك مؤسس كنيسة ايرلنده فى القرن الخامس بعد أن تتلمذ فى لوران فى دير على النظام الباخومى . وربما يكون من أهم وأبقى آثار الأنظمة الباخومية ما تركته من أثر فى الأديرة البندكتية . فان بندكت فى القرن السادس أخذ عن قوانين باخوميوس حتى أنه فى بعض المواضع يكاد ينقل بالحرف الواحد . ودير مونت كاسينو فى ايطاليا لا يكاد يختلف عن أى دير باخومى فى قنا . وهكذا انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم كله ، وعلى أساسها قامت الحركات الديرية فى العالم المسيحى . وما تزال هذه القوانين باقية حتى الآن باليونانية واللاتينية.

وآباء الرهبنة الذين لم يكتبوا وانما اهتموا بممارسة الفضائل عمليا وبما يلقونه على تلاميذهم من تعاليم ، هؤلاء كانوا هم أنفسهم موضوعا للكتابة ، فصنفت عنهم المؤلفات العديدة ، واليهم كان يأتى كبار

كتاب المسيحية فى العالم ليتسقطوا أخبارهم ويجمعوا كلماتهم القليلة لتكون نورا للناس . وهكذا فى سنة ٣٨٨ م جاء الى مصر بلاديوس أسقف هيلينوبوليس ومكث سنة بين رهبان الصعيد ، ثم رجع اليها سنة ٤٠٦ وقضى حوالى سبع سنوات مع رهبان وادى النطرون وكتب كتابه الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بـ « بستان الرهبان » . وكذلك جاء القديس يوحنا كاسيان لزيارة وادى النطرون ما بين سنة ٣٩٠ — سنة ٤٠٠ م وضمن كتابيه « المعاهد » و « المقابلات » أخبارا كثيرة عن الرهبان المصريين ومقتطفات من أقوالهم . كما زار مصر لنفس الغرض سنة ٣٨٦ القديس « جيروم » ومعه تلميذته « باولا » ، ووضع كتابا عن القديس المصرى الأنبا « بولا » المتوحد ، وآخر عن الرهبان المصريين ضمنه أقوالهم وأخبارهم ، ورجع فأسس — على ضوء ما سمعه ورآه — ديرين فى بيت لحم بفلسطين أحدهما للرهبان والآخر للراهبات .

ولعل أشهر كتاب كان له أثر بالغ فى هذا المضمار هو كتاب « حياة أنطونيوس » الذى وضعه الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية بناء على الحاح أهل رومه . وقد أشعل هذا الكتاب روح الرهبنة والنسك فى بلاد الغرب ، ويكفى أن قراءته كانت نقطة التحول فى حياة القديس أوغسطينوس الذى تأثر به جدا — كما يذكر فى اعترافاته — حتى ترك حياته القديمة ، ولم يصبح مسيحيا فحسب بل أحد مشاهير رجال المسيحية .

ولم تقتصر شهرة أقوال الآباء على عصورهم ، بل لا تزال لها قيمتها وشهرتها فى الأدب المسيحى حتى يومنا هذا . وقد تحمس أهل الغرب لترجمتها الى لغاتهم ونشرها ، وهى تشغل جانبا هاما من مجموعتى منى Migne اللتين جمع فيهما فى أواخر القرن الماضى أقوال الآباء باليونانية Patrologia Graeca وباللاتينية Patrologia Latina كما تشغل جانبا هاما أيضا فى مجموعة أقوال الآباء الشرقيين Patrologia Orientalis التى تصدر تباعا فى باريس . وقد صدرت عن أقوال الآباء بحوث ومؤلفات عديدة ، وترجمت كتبهم الى اللغات الأوروبية الحديثة مع مقدمات وافية لحياة مؤلفيها وأسلوبهم وشهرتهم . أما آباء الصحراء فقد انتشرت أقوالهم فى ترجمة كتابات بلاديوس وكاسيان وجيروم . وفى سنة ١٩٢٣ أصدر عنهم « بوسيه » كتابه الخاص بأقوال الآباء Apophtegmata Patrum

اهتمام العالم بالمخطوطات القبطية

لم تكن كل كتابات الأقباط بالقبطية كما قلنا ، وانما كتب جزء وافر منها باليونانية . ولهذا كان للأقباط فضل على الأدب اليونانى اذ ضموا اليه ذخيرة جديدة قبطية روحا وان كانت تلبس ملابس يونانية. غير أن الأقباط — وبخاصة الرهبان —

عادوا فترجموا الى القبطيـة كتابات آبائهم التى كتبت باليونانية . وبهذا أصبحت هذه الذخيرة الثقافية والأدبية من التراث القبطى موجودة باليونانية والقبطية معا .

واهتم العالم اهتماما كبيرا بالمخطوطات القبطية سواء منها المكتوبة أصلا بالقبطيـة أو المترجمة اليها . وظهر هذا جليا بعد حركة النهضة الأوروبية . فأخذ الرحالة والمبعوثون العلميون يجمعون المخطوطات القبطيـة من الأديرة والكنائس القديمة . وهـكذا ذكر الرحالة « ليبرسك » أحـد هواة الكتب بباريس بعد زيارته لمصر سنة ١٦٣٣ م أنه وجد كتبا نادرة فى كثير من الأديرة منها مجموعة من حوالى ٨٠٠٠ مخطوطة ترجع الى العصر الأنطونى وجـدها فى أحـد أديرة وادى النطرون . وفى أوائل القرن الثامن عشر أرسل الفاتيكان بعثتين حصلتا على مجموعة طيبة من المخطوطات القبطية من دير أبا مقار . وفى سنة ١٨٣٩ حصل «هنرى تتام» على مجموعته النفيسـة التى كانت من نصيب مكتبـة رايلنـدز بمنشستر . وتوالت الزيارات على مصر لهـذا الغرض . فعثر على مخطـوطات بالدير الأبيض استولت على غالبيتها المكتبة الأهلية بباريس ونال المتحف البريطانى بعضا منها . ثم اكتشفت مجمـوعة مورجان سنة ١٩١٠ م فى دير الحامولى بالفيوم ونسبت الى مشتريها « بيربونت مورجان » أحـد أثرياء الأمريكيين .

وتزخر مكتبات أوروبا وأمريكا بعـدد كبير من الشقافة المكتوبة بالقبطية تشتمـل على رسائل وايصالات وصكوك وعقود وغير ذلك حتى لقد بلغ عدد الشقافات القبطيـة Ostraca فى فينا بالنمسا حـوالى عشرة آلاف شقافة .

وعثر فى مصر سنة ١٩٢٩ على مجموعة من البرديات القبطية تشتمل على تعاليم مانى وهى محفوظة الآن فى متحف برلين .

كما عثر فى سنة ١٩٤٦ على برديات قبطية تبلغ ألف صفحة تشتمل على رسائل غنوسية وقد استولى عليها المتحف القبطى فى القاهرة.

وبهذا كله امتلأت المتاحف والمكتبـات العامة فى أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات . وما بقى منهـا محفوظ فى مكتبـة الدار البطريركيـة والمتحف القبطى بالقـاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقامت هيئات علمية بطبع فهارس لهذه المخطوطات القبطيـة ونشر بعض المخطوطات وترجمة البعض منها مع دراستهـا والتعليق عليها . وقام علماء كثيرون فى جهات متفرقة من العالم لدراسة هذه المخطوطات نذكر من بينهم كرم ، وأميلينو ، وايفلين هـوايت ، وتشـيندورف ، وورل ، وتل ، ولوفور ، وبدج ، وايفنتس وكاله وبوليج وكراوسـه وغيرهم . وأصبحت للدراسـات القبطية فى جامعات أوروبا وأمريكا أقسام خاصة يتفرغ لها أساتذة وعلماء .

الفصل الرابع

الحيـــاة الفنيـــة

الفنون القبطية

تعانى الفنون فى حياتها فترات من الخمول أو الضعف ، فاذا واتتها ظروف جـــديدة للانتعاش عادت حاملة معها مختلف صفاتها القديمة وخصائصها وطابعها . ولقد حدث فى العصر المسيحى فى مصر حين أفسحت الحياة المصرية مجالا للفنون ، أن نمت الفنـــون وترعرعت حاملة فى طياتها مختلف الصـــفات الموروثة من عصور سابقة . وفى هذا تقول « زالوشر » اننا نؤمن الآن أن الفن لا يتقدم فى خط مستقيم مطـــرد ، بل من الثابت أن تياراته تتقابل وتتراكم ثم تمحى وتختفى ، لتعود الى الظهور بقوة ووضوح .

وان ظاهرة العـــودة الى الظهور هـــذه نجدها ملموسة فى الفن القبطى .

الصفات العامة للفن القبطى :

أولا ــ فن شعبى :

لم تكن الشعبية من خواص فنون الأمم القديمة ذات الحضارة لأنها نشأت تحت كنف الحكام والأمراء وأصحاب الجاه ، واكتسبت وجودها وتوجيهها وتطـــورها من رعايتهم . وكان هؤلاء الســـادة يختـــارون الفنانين ويأمرونهم بصنع كذا أو كذا من القطع الفنية فيستجيبون . وهكذا نجـــد الفن المصرى القديم ينتعش ابان عهد الملوك الذين أولـــوه رعايتهم ، ويضعف فى عصر الضـــعفاء منهم أو الذين أهملوه .

أما الفن القبطى فهـــو الأول فى الشرق القديم الذى كانت له صـــفة الشعبية . فان الأباطرة لم يعـــودوا يقطنون مصر كما كان الحال أيام الفراعنـــة ، أو أيام البطالمة . بل كانت مصر فى عهدهم ولاية رومانية تابعـــة لروما أو بيزنطة ، وصار الأباطرة اذا أرادوا اقامة أعمال فنية تخلدهم يقيمونها فى عواصمهم لا فى مصر . وبذا فقد الفن القبطى التوجيه السياسى واتجه نحو الشعبية البحتة ، فنحن اذا نظـــرنا الى الكنيســـة الكبيرة فى الدير الأبيض قرب سوهاج وهى من بناء القديس شنودة ، أو اذا زرنا كنائس مصر القديمة ، أو دير القديس ســـمعان فى الضفة الغربيـــة بأسوان أو كنائس الواحات الخارجة أو اذا شاهدنا الآثار القبطية فى المتحف القبطى أو مختلف متاحف العالم نجد أعمالا فنية قام بها الشعب المصرى ووضع فيها الفنـــان القبطى عصارة روحه ومهارته .

ثانيا ـ فن دينى ومدنى

خيل للبعض أن الفن القبطى فن دينى يتصل بالكنيسة والعبادة فحسب ، وما من شك أن هذا الرأى خاطىء ، فهو فن الشعب المصرى بأكمله ، يظهر فى الأمور الدينية كما يظهر فى النواحى المدنية بوضوح . وان كنا نجد أن أغلب العمائر الباقية من ذلك العصر عمائر دينية مثل الكنائس أو الأديرة ، فمرجع ذلك الى اهتمام الشعب عادة بدور عبادته ومحافظته عليها .

ولا شك أن أهم العمائر التى وصلتنا من مصر القديمة أو من مصر الأسلامية هى أيضا عمائر تتصل بالنواحى الدينية مثل المعابد أو الأضرحة والمساجد .

وقد وصلتنا أعمدة وزخارف من بيوت أفراد الشعب الى جانب ما وصلنا من أديرة وكنائس . وكما وصلتنا أقمشة كان يلبسها الكهنة فى الخدمة الدينية وصلتنا أقمشة عديدة كان يلبسها عامة الناس فى حياتهم أو يكفنون بها موتاهم . ولدينا الآن أدوات كانت تستخدم فى الكنائس وأدوات استخدمت فى المنازل أو الحقل ، أو الصناعة .

ثالثا ـ فن نبع من البيئة المصرية وعبر عنها

نرى فى صور الوجوه القبطية ملامح المصرى بعينيه الواسعتين المستديرتين وأنفه ولون بشرته كما نرى صور الحيوانات الأليفة التى تملأ البيوت والحقول مثل القط والكلب والبقرة والجمل والحمل .

ونرى الزخارف تصور لنا أوراق النبات المختلفة وأفرعها وثمارها كالعنب والنخيل والرمان والقمح والاكانتس . كما نرى صور السفينة الشراعية تمخر عباب نهر النيل وكلها مألوفة لديه ، ونجد الأساطير القديمة المتداولة بين المصريين سواء بنصها القديم أو بعد أن اتخذت معانى جديدة وصورا جديدة تتفق مع الديانة الجديدة التى اعتنقها المصريون .

رابعا ـ ثمرة ما سبقه من فنون ومؤثرات فنية

اننا نجد فى الفن القبطى أثر الفن المصرى القديم والفن الاغريقى والفن الرومانى ، وان كنا فى الواقع نجد الروح المصرية الخالصة كلما اتجهنا فى البلاد جنوبا .

وكذلك تأثر الفن القبطى بالفن السورى وفنون البلاد المجاورة . اذ أن المسيحية قد نشأت فى بلاد فلسطين وانتشرت فى الشام وبلاد البحر المتوسط وانتشرت معها بعض فنون تلك البلاد بحكم الاتصال وصار المصريون يهتمون بفنونها وبخاصة فن الشام .

خامسا ـ فن جمال لا ضخامة

لم يبلغ الفن القبطى حد الروعة كما بلغ الفن المصرى القديم ، كما أنه فقد انتاج الأشياء الضخمة ، التى تميز بها الفن المصرى القديم . فمن مصر القديمة وصلتنا الأهرام ، والمعابد الهائلة كالكرنك والتماثيل الضخمة كتماثيل رمسيس ، والأعمدة الشامخة والمسلات . ولكن الفن القبطى كان فن جمال يهتم بابراز المعانى فى دقة .

سادسا ــ فن للزينة

وصلنا كثير من أفاريز المبانى ورءوس الأعمدة ، وكثير مما تزين به الجـدران والأسقف والأعمدة ، وما تزين به التوابيت والمصنوعات المعروفة بالفسيفساء . كما أظهر لنا الفن القبطى ما تزينت به النساء من حلى وأحجار كريمة وملابس وخاصة ذات الألوان الزاهية منها ، وامتدت الزينـة الى كتابات الأقباط فزينوا الكتب وزخرفوا صـحائفها بزخارف بالغة حد الروعة .

سابعا ــ فن يستخدم الأشكال الهنـدسية والرمزية :

نجد فى هذا الفن زخارف أساسها المثلثات والمربعـات والدوائر والخطوط المتـلاقية والمتقاطعة ، مستخدمة فى كل شىء ، ولا ننسى أن ننبه الى أن هـذه الخاصية ، وخاصـية التزيين التى سبقتها ، كانتا كثيرا ما تجنحان نحـو أمـور رمـزية ، وقد دفعت هـاتان الخاصيتان بالفن القبطى بعيدا عن الواقـع وتصوير طبيعة الانسان الأمر الذى قد يجر الى مظاهر خليعة لا يوافق عليها رجال الدين.

وحين دخل العرب والاسلام مصر وجدا تربة خصيبة للتعبيرات الفنية ، فآخـذ الفنانون يخرجون القطع الفنية التى تناسب العـرب والدين الاسـلامى ، مما نراه واضـحا فى الزخارف القائمة على الأشكال الهندسـية والرسوم ذات المعانى الرمزية التى تبعد عن تصوير الأشخاص . وهكذا نجـد صـفات مصرية آصيلة راسخة فى الفن المصرى المسيحى الـذى سـلمه بدوره الى الفـن المصرى الاسلامى .

صور من الفنون القبطية

العمارة :

العمـارة كأى لون من ألوان الفنـون الجميلة انعكاس للبيئة بكل ما تحتويه من معان روحيـة ومادية . والعمـارة المصرية القديمة يتمثل فيها هذا المعنى بشكل واضح مجسـم . فهى فى جميع مراحلها تعبر لنـا تعبيرا واضـحا عن التيارات المختلفـة التى تنازعت المجتمع المصرى فى مختلف العصور . ولعلنا لا نكون مبالغين اذا ذهبنـا الى أن التفوق والتسامى اللذين امتازت بهما العمارة المصرية القديمة كان لهما صدى روحى بالغ الأثر فى تكييف الفن المعمارى فى جميع أنحاء العالم . ومن مزايا العمارة المصرية القـديمة حتى الدولة الحديثة أن فنها كانت تنبثق من بين خطوطه اشعاعات قوية استطاع على ضوئها اليونان والرومان معرفة السبيل الى التكوين والانشـاء ، اذ عرفوا منها كيف يضـعون خطوطهم المعمارية لتتلاقى عند هدف واضح.

والعمـارة القبطيـة هى هى العمـارة الفرعونية ، وهى العمارة اليونانية الرومانية

فى مصر وهى العمارة الاسلامية فى مصر . وأما الفوارق التى تفصل بين كل منها : فهى فوارق اقليمية اقتضتها السلطات الزمنية فى عهد ما ، ثم بعض اعتبارات دينية ، ولكنها فى الحقيقة تلتقى عند الأصول والأسس التى قامت عليها العمارة الفرعونية . ومهما يكن فان ما دخل عليها فى كل عصر من تحوير أو تكييف بما يلائم ظروف البيئة ، لم يمنعها من أن تظل محتفظة بروحها وعناصرها الأساسية.

والعمارة القبطية قفزت بروح الفن الفرعونى وبعناصره ، وكل ما طرأ عليها من تحوير فانه لم يمس الا مظهرها الشكلى فقط. فهى حلقة أخيرة أكملت حلقات الفن المتصلة منذ الحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية الرومانية بمصر .

ولما كان الفن المصرى يرتبط بفنون الدين ويلازمها ، فقد احتفظ فى العهد المسيحى بكثير من التقاليد والعادات المصرية القديمة ولازم الدين وبخاصة ما كان منه متصلا بالرمزيات والتقاليد فى الحياة اليومية والجنائزية والأعياد وغيرها . أما مركز المسيحية فى الغرب وهى روما التى تشرف على الحضارة الأوروبية الغربية ، ثم القسطنطينية وهى مركز الحضارة الشرقية ، فقد حاولت كل منهما ايجاد طراز جديد لعمارة تتفق مع الدين الجديد الا أنهما كانتا دائما مقيدتين بالحضارات القديمة التى سبقت العهد المسيحى ، ووجدتا نفسيهما مضطرتين لنقل كثير من تعاليم هذا الدين الجديد عن مصر التى سبقتهما فى المعرفة والعلم ، ونقلتا عنها الكثير من الرموز والتقاليد ، كما نقلتا كثيرا من فنون مصر واتخذتا منها منبعا للوحدات الزخرفية التى قرب فيها المصرى بين نماذجه القديمة وبين دينه الجديد ، ولذلك ترى أن مراكز المسيحية تبنت من هذه الوحدات الزخرفية القديمة ما استطاعت كل منها أن تفسره بطريقة تتفق مع دينها الجديد.

لو تخيلنا مدينة مصرية قائمة من العصر القبطى ، لوجدناها تشبه فى تخطيطها المدن المصرية القديمة . ففى الصعيد حيث يندر المطر كانت البيوت تبنى من اللبن كمدينة هابو غربى الأقصر ، وفى الوجه البحرى كانت البيوت تبنى من الطوب الأحمر أو الحجر الجيرى كما عرفناها من مدينة أبا مينا (القديس مينا) بالصحراء الغربية قرب الاسكندرية .

(صورة رقم ١٥)

وكانت للبيوت أبواب خشبية كبيرة كما نراه فى الريف المصرى الآن . ولها مزلاج من الخشب معروف الى اليوم ، وكانت للبيوت أسقف مرتفعة ، ولها واجهات منمقة بحجارة منقوشة مزخرفة بأوراق العنب عادة . وكانت بها كنائس كالتى عثر على بقاياها فى مدن أبا مينا ومصر القديمة وبويط والبهنسا واسنا وطيبة وسقارة وأسوان وسوهاج والواحات الخارجة ، وتتكون من قاعات فسيحة بها صفوف من أعمدة رخامية مستديرة أو مضلعة

ذات رءوس منقوشة بأبدع النقوش والألوان الثابتة الزاهية . ويكون هيكلها مفصولا عن القاعة بحجاب مصنوع من الخشب المنقوش أو المعشق ، على أشكال هندسية مختلفة ومحلى بصور القديسين وأشكال مختلفة للصليب . وبعض رقائقه من العاج ، كما نجد ذلك فى كنيسة أبى سرجة فى مصر القديمة . وفى الناحية الشرقية من الكنيسة حنية أى تجويف فى الحائط .

والكنيسة تكون أحيانا مستطيلة كالشكل المعروف بالطراز البازليكى ويذهب البعض الى أن تصميمه دخيل على الأقباط ، وواقع الأمر أنه مصرى صميم نجده أول الأمر فى قاعة الاحتفالات بمعبد الكرنك التى شيدها تحتمس الثالث حوالى سنة ١٤٠٠ ق.م. وتكون الكنائس أحيانا أخرى ذات قباب بحيطان مطلية من الداخل بطبقة من الجبس مرسوم عليها صور للسيد المسيح والقديسين أو مزخرفة بزخارف مثبتة من الجبس أو الحجر فى بواطن عقودها وفوق أعمدتها وفوق الأركان المخصصة لصور القديسين .

واذا كانت المدينة قريبة من الصحراء مثل مدينة أبو مينا أو مثل الواحات الخارجة أو أحد الأديرة الصحراوية حفروا لها الآبار والسواقى أو خزنوا مياه الأمطار فى مخازن تشبه كثيرا هذه الآبار التى نجدها فى الصحراء الآن والتى يسميها البعض آبارا رومانية ، وواقع الأمر أن الفراعنة قد عرفوها قبل الرومان بآلاف السنين . وكانت أدوات النجارة وأدوات الحقل تشبه تلك التى نشاهدها الآن عند النجارين الذين يصنعون السواقى الخشبية . ونجد صوامع للغلال ، ومصانع للهدايا التذكارية تشبه الى حد كبير المصانع التى نجدها الآن فى خان الخليلى أو فى أسيوط .

التصوير :

كان التصوير السائد فى العصر القبطى يسير على الطريقة التى تواترت منذ أقدم العصور فى مصر وهى طريقة التصوير بألوان الأكاسيد (الفرسك) على الحوائط المغطاة بطبقة من الجبس . وقد استمر الرسم بهذه الطريقة المصرية القديمة الى العصر الرومانى. واتخذت هذه الطريقة فى الرسم شكلا مسيحيا فى العصر القبطى ، ومنها انتشر بين مسيحيى الشرق والغرب ، وظل الأمر كذلك حتى عصر النهضة .

أما فى مصر فقد حافظ التصوير على الطريقة القديمة حتى القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم أخذ القبط الى جانب هذا اللون بطرق أخرى فى التصوير . ولم يأخذ التصوير القبطى أشكاله من الطبيعة المنظورة، ولكنه صور القديسين والشهداء وموضوعات من الكتاب المقدس وكان رائده فى ذلك المثل العليا التى تظهر فيها صور الأشخاص على درجة من الاستقرار والوقار حتى أنهم رسموا

المسيح طفلا بوجه كبير ، لا سذاجة فيه ، وتحاشوا أن يرسموا ظلالا على الوجوه وراعوا بساطة اللباس وهدوء الألوان . (صورة رقم ١ و ٢ و ٣) .

النقش على الحجر والخشب

نشاهد الآن فى المتحف القبطى فى مصر القديمة وفى متاحف العالم المختلفة تيجانا لأعمدة من الحجر نشعر فيها بتأثير البيئة على الخيال الفنى ، فمنها المجدول على شكل السلال تجديلا أتقن النحات صنعه ، حتى بدا شديد الشبه بالسلال المصنوعة من القصب التى لا زالت متداولة بيننا ، ومنها تيجان منحوتة بشكل زخرفى لأوراق النبات أو الفروع النباتية ، أو الزخارف المتشابكة من نبات العنب أو الرمان أو نبات الأكاتنس أو سعف النخيل أو نبات اللوتس ، ومنها تيجان مزينة تجاويفها بزخارف محارية الشكل وبعضها ملون باللون الأخضر وهو اللون الطبيعى للنبات ، وهناك بعض زخارف عثر عليها تعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الأشجار ، جاء التعبير عنها تعبيرا حيا يكاد يسمعنا حفيفها .

وكانت النقوش تزين الجدران بالألوان ، أو بالحفر ، وكذلك عبر هذا الفن عن البيئة تعبيرا صادقا ، فنجد فى المتحف القبطى على سبيل المثال واجهة باب من بويط (وهى بلدة قرب منفلوط تتبع مركز ديروط بأسيوط) من الحجر الجيرى على شكل نصف دائرة وقد حلى برسوم هندسية وبزخارف ثمار الرمان . وهذا يدل على ارتباط المصرى قديما وحديثا وفى مختلف العصور ، بخواص البيئة المصرية بل والأقاليم المصرية . ولا يزال الرمان ينسب الى منفلوط .

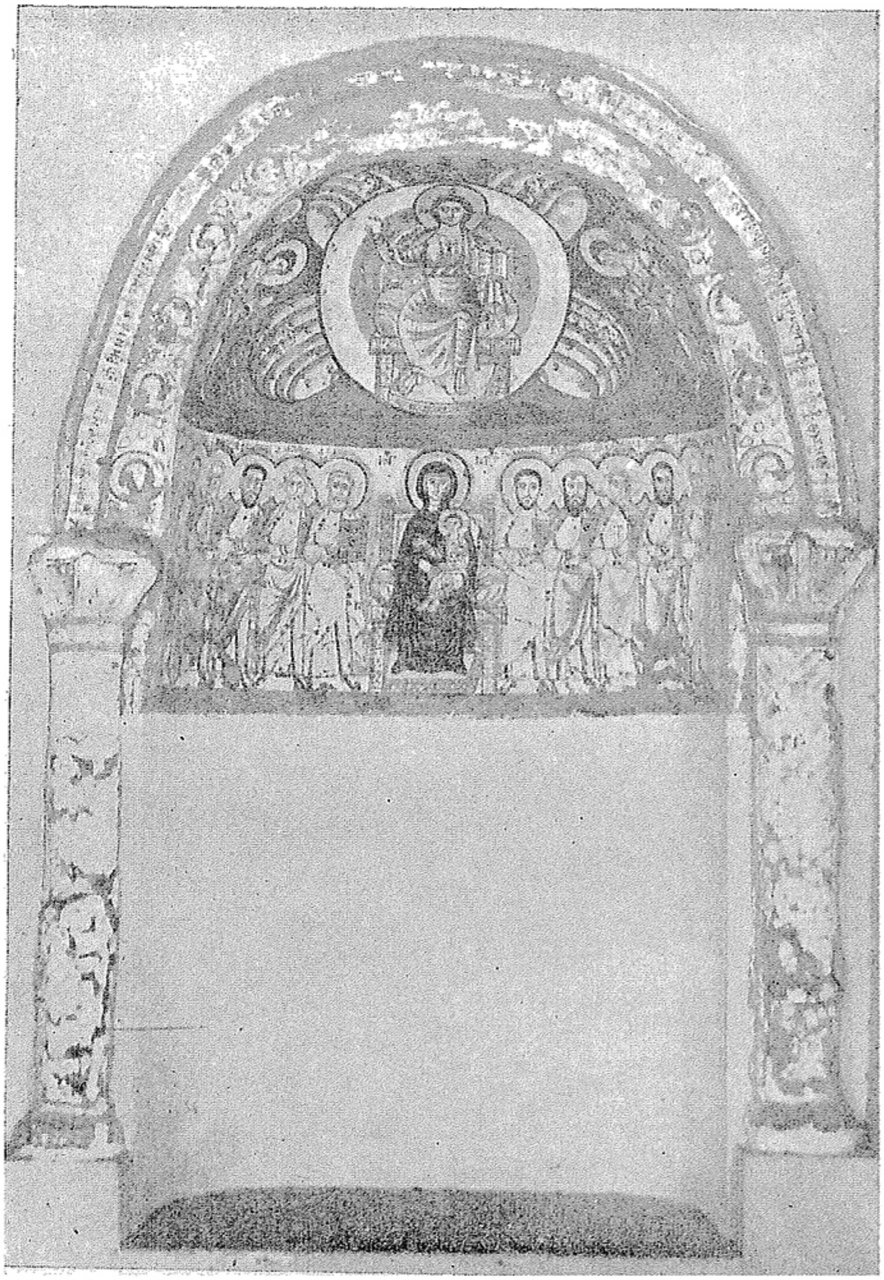
كذلك زخرف القبط الحوائط والأفاريز بصور من الطيور والحيوان ، فنرى ضمن زخارف الفن القبطى صورا لصيادى الطيور والأسماك والوحوش المفترسة كالأسود فضلا عن الحيوانات المصرية الأليفة كالأرانب والغزلان . وأصل الكثير من هذه الزخارف يرجع الى مصر الفرعونية ، ويبين استمرار وحدة الفن المصرى فى عصوره المختلفة . كما نرى ضمن الزخارف المعمارية صورة للحداد القبطى تحيط به أدواته بشكلها المعروف فى مصر اليوم .

ولم تكن روح الدعابة تنقص الفن القبطى ، فاننا نجد على الآثار القبطية ضمن ما خلفه من الصور والنقوش ، لوحات تمثل وفد الفيران يتقدم الى القط طبقا للقصة المشهورة ، وقد رفع الفيران علما هو الذى يعتبر حتى اليوم علم الهدنة والأمان . كما نجد منظرا لملاح محفورا فى الخشب والملاح يداعب تمساحا بيده .

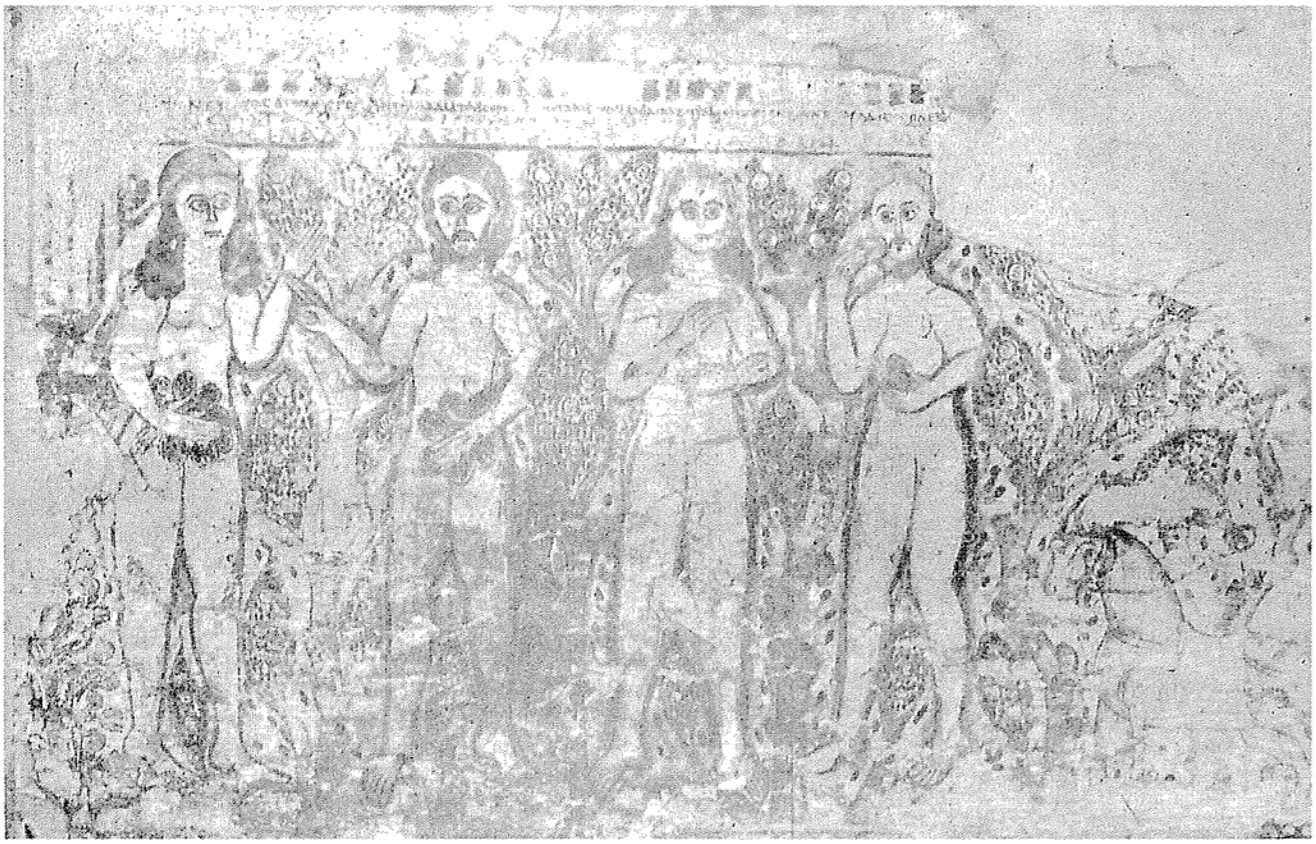
(صورة رقم ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ١٤).

المنسوجات :

اشتهرت مصر منذ عصورها القديمة بصناعة المنسوجات وكانت تصدر منتجات



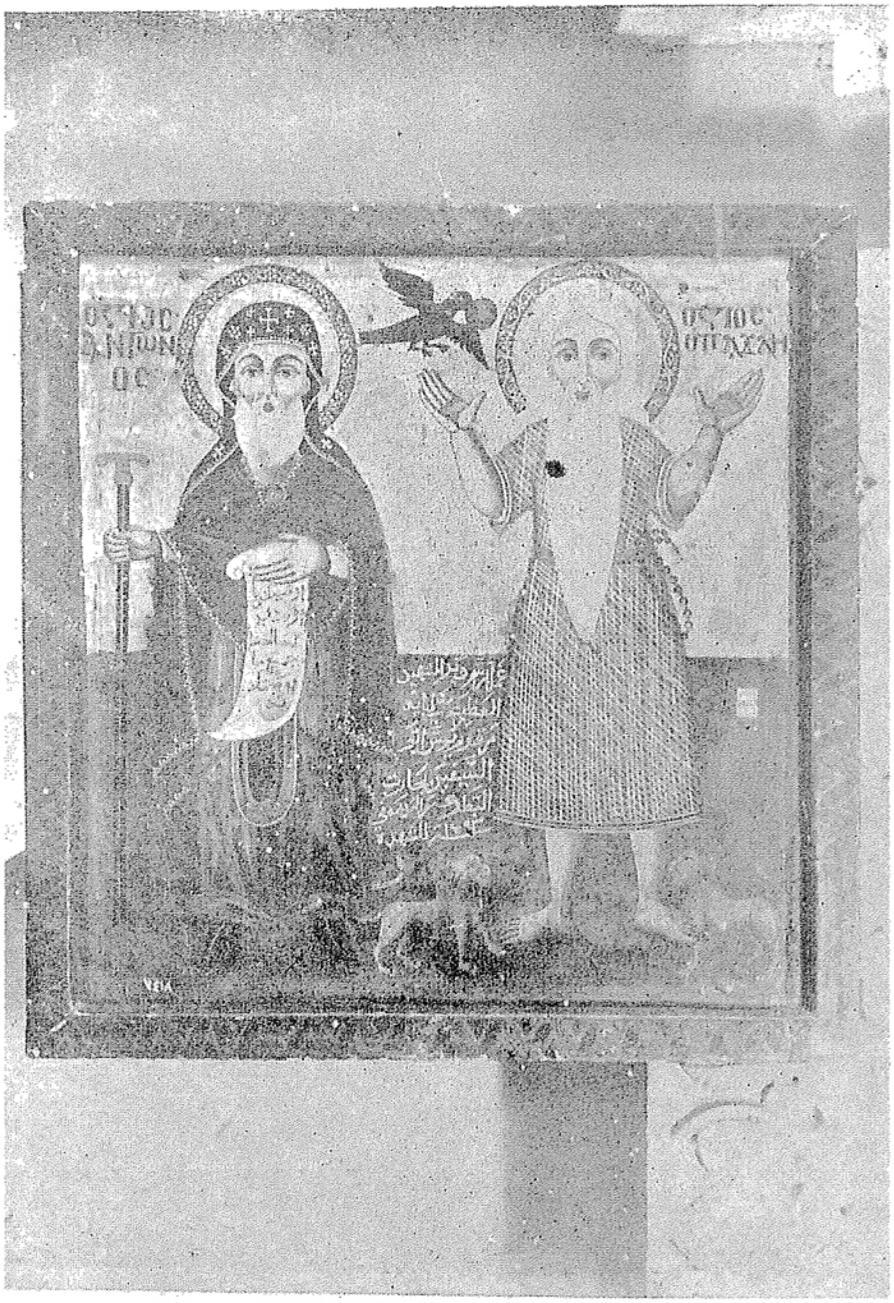
١ ـ شرقية (حنية) من كنيسة بباويط (بالقـرب من ديروط) وهى من الطمى المغطى بطبقة من الجص مرسومة بالألوان الفريسك ٠
فى الجزء الأعلى صعود المسيح وتحته ترى صورة السيدة العذراء والحواريين الأثنى عشر واثنين من القديسين المصريين ٠
وطريقة رسمها لاتختلف عن طريقة الرسم فى الفن المصرى القديم ٠
من أواخر القرن الخامس الميلادى



٢ ـ صورة جصية بالفريسك عثر عليها فى الفيـــوم فى أم الجعاب ، وهى تمثل آدم وحواء فى الجنة ، قبل الخطيئة ـ أى حين لم يكن لهما جنس ـ وبعد الخطيئة ٠

وقد عبر الفنان فى هذه الصورة البسيطة عن قصة (آدم وحـــواء) ووفق فى التعبير عن المشاعر المختلفة ودون ملاحظات دقيقة مما جعل من هذه الصورة قطعة فنية فريدة فى نوعها ٠

من القرن العاشر الميلادى

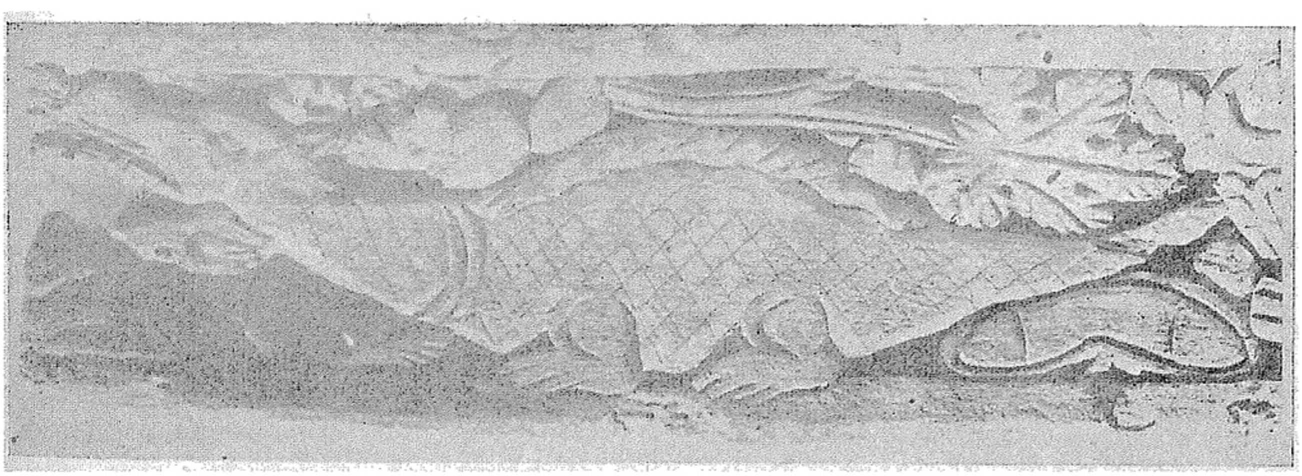


٣ ـ أيقونة بالالوان الزيتية وعليها كتابة بالقبطيـــة والعربية وهى للقديسيـــين بولا وأنطونيوس ترمز الى قصـــة الغراب يحمـل اليهما رغيفا من الخبز فى كل يوم .

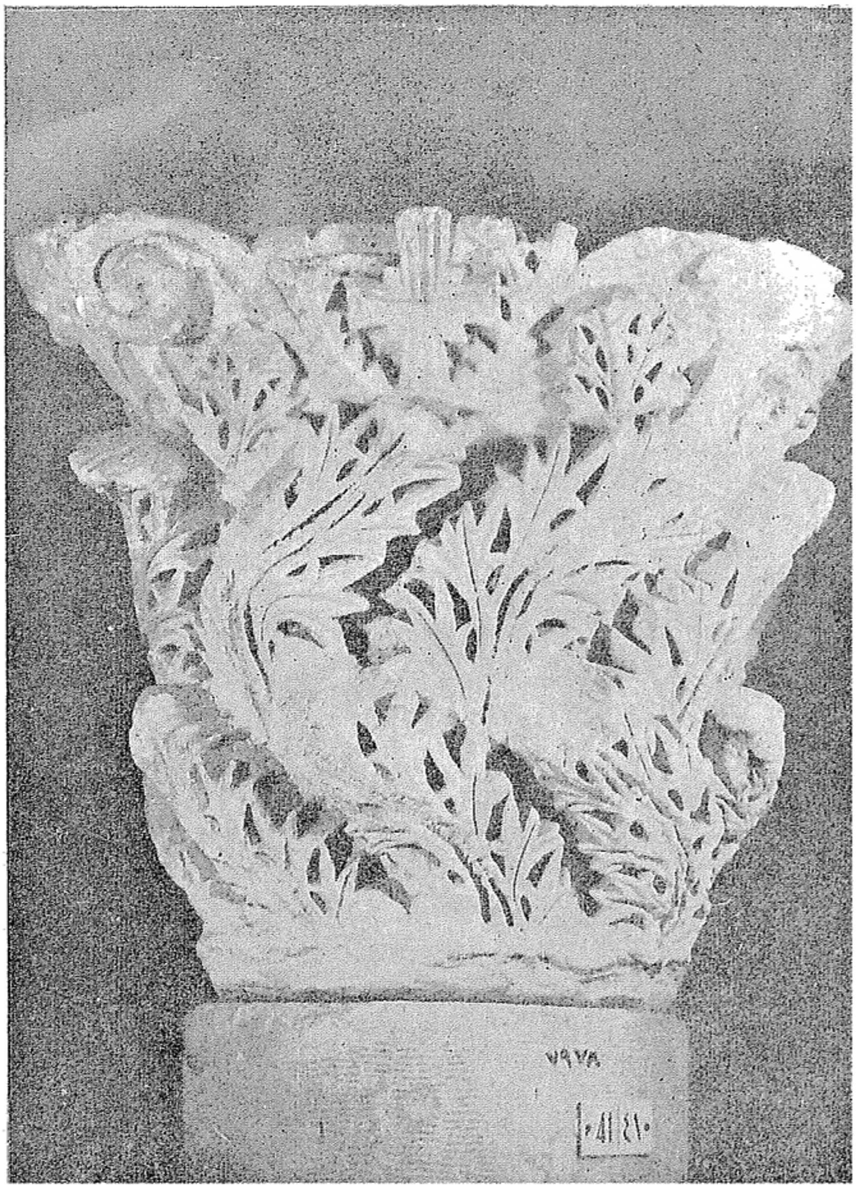
من القرن الثامن عشر (سنة ١٤٩٣ للشهداء)



٤ ـ لوحة خشبية محفورة من كنيســة المعلقة بمصر القديمة وهى الآن معروضــة فى المتحف القبطى ، تمثل دخول المسيح اورشليم يوم أحد السعف ، وعليها كتابة باللغة القبطية ٠
من القرن الخامس الميلادى



٥ ـ جزء من أفريز طويل من الخشــب المحفور يمثل نهر النيل وفيه تمساح ٠
من القرن الرابع الميلادى



٦ ـ تاج لعمود من الحجر من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو يمثل حركة تمـاوج أغصان الأكانتس بفعل الريح ، وفى أعلاه علامة الصليب ٠
من القرن السادس الميلادى



٧ ـ منبر من الحجر ذو سبع درجات من حفائر دير الأنبا أرميا بسقارة ، وهو أقدم منبر عثر عليه في مصر حتى الآن .
من القرن السادس الميلادى



٨ ـ شاهد قبر ، عليه علامة الصليب فى أعلى وتحتها رمز للمسيح الألفــا والأوميجـا (الألف والياء) أى البداية والنهــاية ، وفى أسفل الشاهد شارتان لرمز الحياة عنخ المعروفة فى الفن المصرى القديم واستخدمها الفن القبطى منذ ظهوره لأنها جمعت بين معنى الحيــاة وبين علامة الصليب ٠

من القرن السادس الميلادى

نسيجها الى جميع بلدان العالم . وبالرغم من دخولها تحت الحكم اليونانى ثم الرومانى لم يتغير النسيج وظل محتفظا بطابعه المصرى فى صورته القبطية .

أتقن الأقباط هذه الصناعة كما أتقنوا معها صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة وكانوا يصدرون منسوجاتهم الى روما وبيزنطة . وقد وصلتنا نماذج كثيرة من المنسوجات القبطية يرجع الفضل فى بقائها الى جفاف التربة المصرية والى عادة الأقباط فى تكفين موتاهم بأجمل لباسهم ودفنهم فى مقابر رملية فى الصحراء بعيدا عن وادى نهر النيل خوفا من مياه الفيضان .

كانت المنسوجات تصنع من الكتان والصوف كما صنعت من القطن ، وأشهر المدن فى هذه الصناعة كانت تانيس والاسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما فى الدلتا ، وفى الوجه القبلى البهنسا وأخميم وانطينوى (المعروفة الآن باسم الشيخ عبادة) والفيوم . وكان الصانع القبطى يزخرف النسيج برسوم للطيور والأسماك أو نبات اللوتس أو عناقيد العنب أو أشكال هندسية أو بصور أشخاص أو أوجه .

(صورة رقم ٩) .

الفنون الصغرى :

منها الفنون الخاصة بالتزين عند المرأة ، وصناعة المعادن ، ثم الخط والتجليد .

أما عن التزين عند المرأة فقد كانت المرأة تستعمل الكحل للرموش ، واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه . وكانت تضع القرط الدائرى الواسع فى أذنيها أو أقراطا على شكل عنقود العنب ، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهى برأس حية من كل ناحية . وبعضها كان مبروما ينتهى برأس حية من طرف وذيلها من الطرف الآخر وكان بعض حليها الذهبية مرصعا بالجواهر الكريمة . وكانت تضع عقدا أشبه باللبة المعروفة الآن فى مصر . وكانت تلبس الخلخال الذى يصنع من النحاس أو الفضة ، وقد تصنعه المرأة الثرية من الذهب .

(صورة رقم ١٠) .

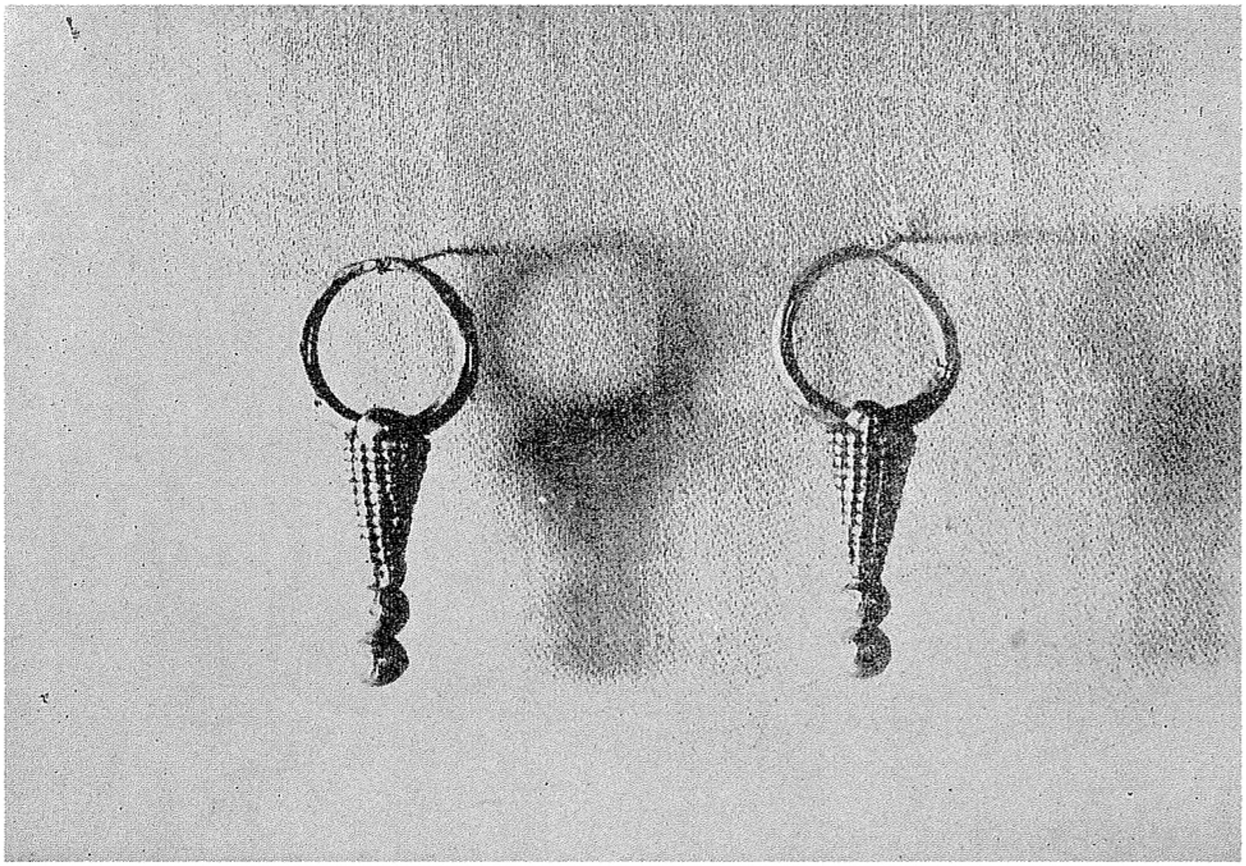
وقد وصلتنا من العصر القبطى مكاحل وأمشاط من العاج ، وعلى سبيل المثال نجد مشطا رقم ٥٦٦١ بالمتحف القبطى نقشت عليه صورة بديعة تمثل حسناء متكئة على سرير تحته كلب ، ويرجع هذا المشط الى القرن الرابع الميلادى ، ويشبه كل الشبه أمشاط مصر الفرعونية . وعرفوا أيضا المشط المسمى الآن بالفلاية . وهناك أمشاط من العاج عليها رسوم دينية مسيحية .

والرسوم المختلفة التى وصلتنا من هذا العصر تبين لنا صورا حية من الحياة المصرية التى نحياها والتى كان المصرى القديم يحياها والتى حفظتها لنا آثار العصر المصرى المسيحى، ومنها الصورة الصغيرة المحفوظة فى متحف بريشيا لامرأة قبطية جالسة مع ابنتها وابنها



٩ ـ ستار من النسيج المعروف بالقبـاطى وهو من الكتان المنسوج بخيوط من الصـوف الملون ، يظهر فيه على اليمين لاعب المزمار وعلى اليسار مناظر مختلفة لرقص من رجال ونساء كما تظهر فى الدوائر مناظر رقص الخيل •

من القرن الثالث الميلادى



١٠ ـ قرطان من الذهب على شكل عنقود العنب ، عثر عليهما فى حفائر مصلحة الآثار بالواحات البحرية فى مقابر الأقباط القديمة ٠

من القرن الرابع الميلادى

وبجانبها صندوق حليها العاجى ، وتلتحف الابنة بشال من القماش المصرى يشبه ما نعرفه اليوم من المنسوجات ، عليه نقوش من الأساطير القديمة ، ومنها صور النساء الثلاث التى وجدت فى انتينوى وقد أطلق على اثنتين منهن تاييس وليكيونا وعلى الثالثة السيدة البيزنطية ، نجد تاييس لابسة ثلاثة قمصان وجلبابين فوق بعضهما كما نرى ذلك شائعا بين بعض السيدات فى الريف والوجه القبلى وفى وسط الجلباب منطقة لها أكمام طويلة ، والجلباب محلى بحافة حمراء فى أسفله ، وله خطان رأسيان فى الأمام من الحرير الأصفر ، كما نجد ليكيونا مرتدية جلبابا من الكتان الأبيض محلى أيضا عند أسفله وعند الأكمام والياقة بخط أزرق غامق ، ونلاحظ أنها قد لفت شعرها بشال جمع الى أعلى فى شبه تاج . والنسوة الثلاث تعطينا صورة حية لأنواع الملابس وطرزها ، والأنواع العديدة لتصفيف الشعر مما يجعلنا نتخيل ما كان عليه النساء عامة فى العصر القبطى من أناقة وذوق سليم فى ملبسهن وزينتهن .

أما عن فن الصناعات المعدنية ، فاننا نجد المصنوعات المختلفة التى استخدمتها المرأة لزينتها ، ونجد مصابيح فى أشكال مختلفة وقواعد للشموع وأوانى منزلية متعددة الأشكال .

(صورة رقم ١٣)

الخط والتجليد

كان المصريون منذ أقدم عصورهم يصنعون الورق من البردى ويصدرونه الى كافة أنحاء العالم . وها نحن نجد الأقباط يكتبون على البردى وعلى الرق . ثم يتقدم بهم الفن فيزينون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة ، هذه الصحائف التى بلغت دقة كتابتها دقة الحروف المطبوعة باتقان ، والتى يبهر جمال زخرفتها كل من يراها .

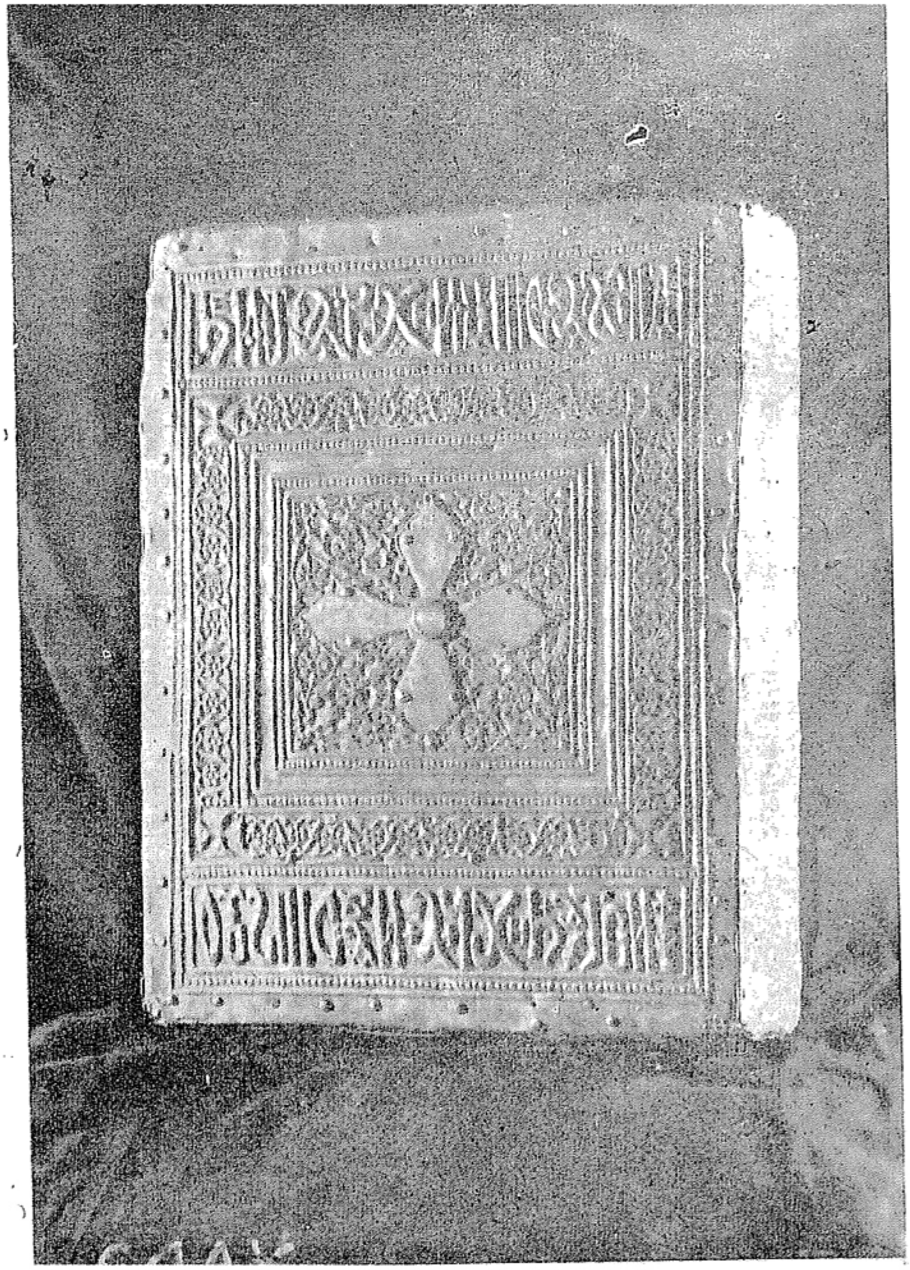
(صورة رقم ١١ و ١٢)

خاتمة

كانت هذه الفنون فى أيدى صناع مدنيين ، وكان الرهبان فى الأديرة أيضا يتقنونها ، فانهم رسموا الرسوم ، ونسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة ، وأتقنوا النجارة والبناء ومختلف الصناعات .

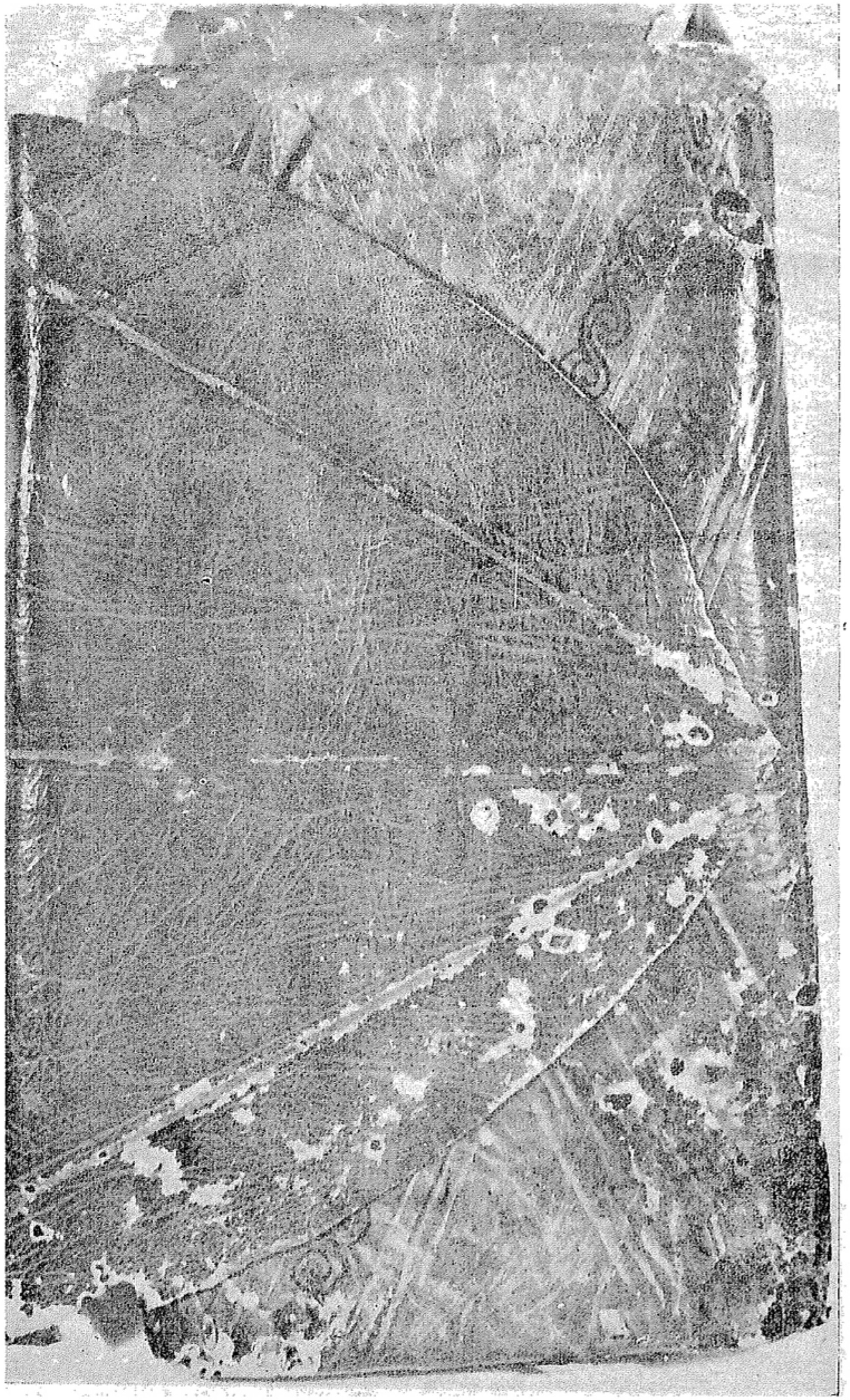
ولما دخل الاسلام مصر ، اهتم العالم الاسلامى بصناعات الأقباط فنجد الخلفاء يختارون مصر لترسل الكسوة السنوية الى الكعبة لما لمسوه من اتقان المصريين لصناعة النسيج ، ويختارون من انتاج هؤلاء الصناع ما يخلعونه على أتباعهم من الأردية ويسمونها « القباطى » نسبة الى صناعها الأقباط ، واشتغل كثير من رجال المعمار الأقباط فى انشاء المساجد والعمائر ، وعن الفن القبطى أخذ الفن الاسلامى المحراب والمئذنة والقباب .

وكان العصر الفاطمى بمصر فاتحة لاظهار الفن الاسلامى فى شخصيته المصرية الاسلامية المتميزة ، وعندئذ أخذ الفن القبطى ينحصر

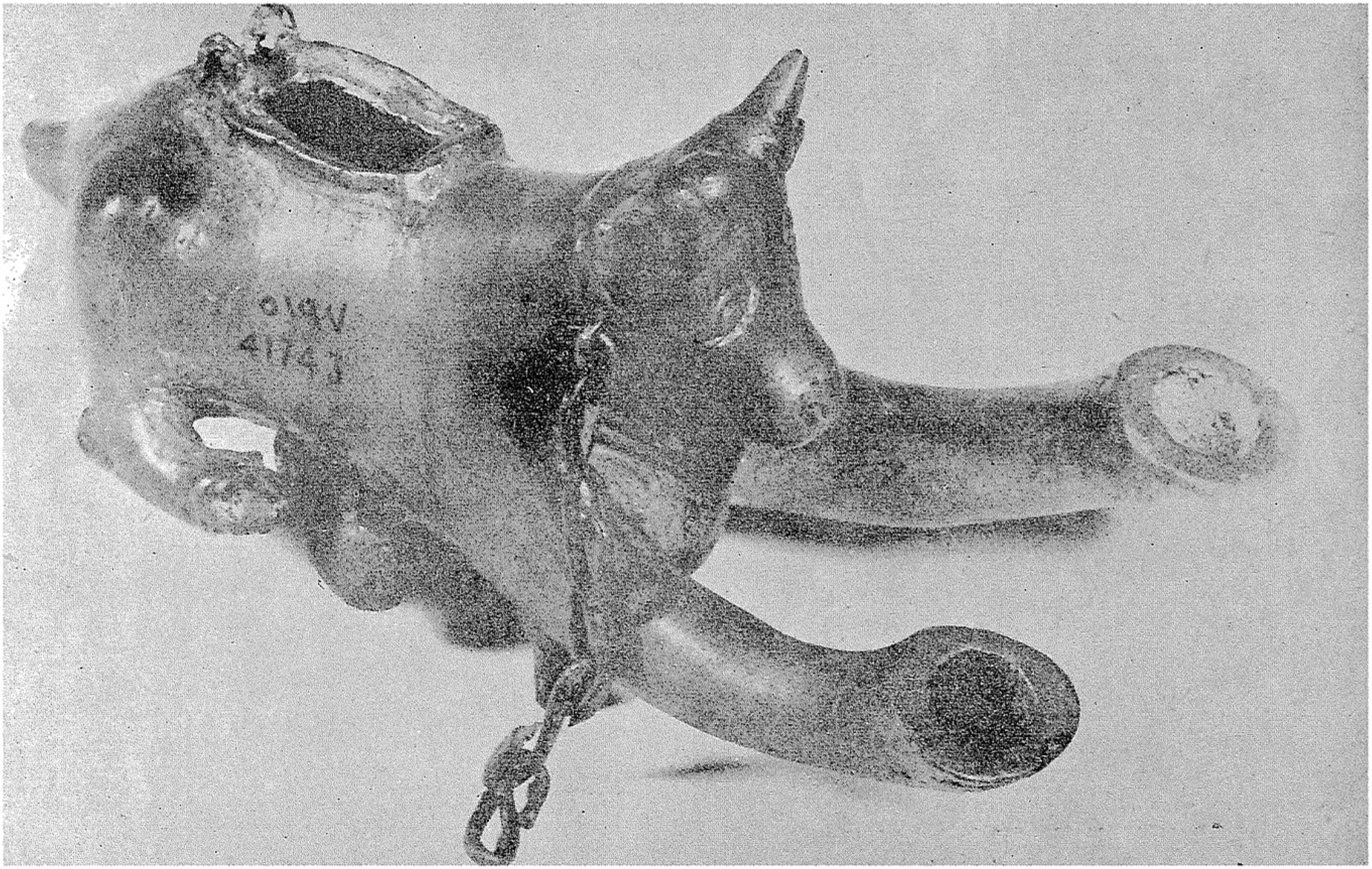


١١ ـ غلاف من الفضة لحفظ الكتاب المقدس، مصنوع على نمط قبطى قديم وتعتمد فيه الزخرفة على الكرمة ٠

من القرن الرابع عشر الميلادى



١٢ ـ غلاف من الجلد لمخطوطة من مخطوطات فلسفة العارفين بالله ، وعليه عـــلامة عنخ رمز الحياة عند المصريين القدماء وهى رمز للعـــلم والمعرفة ـ وكانت المكتبة تسمى پرعنخ أى بيت الحياة ـ وعلى الغلاف زخرفة حلزونية · من القرن الرابع الميلادى

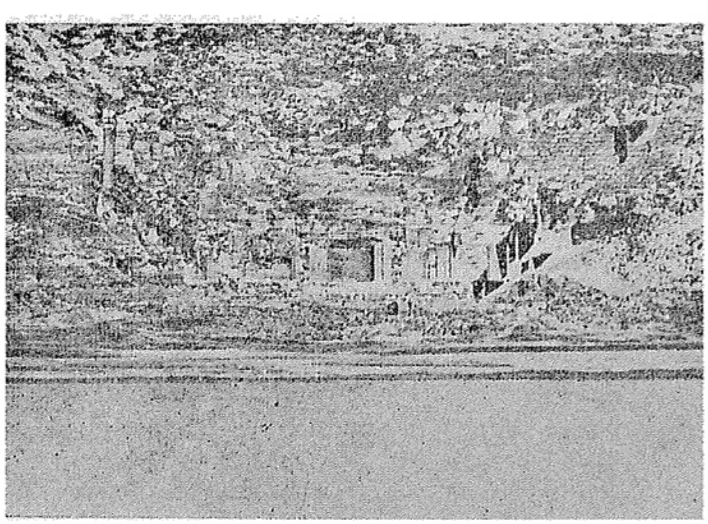


١٣ ـ مسرجة من البرونز على شكل عجل ٠ من القرن الخامس الميلادى



١٤ ـ رسم على الجص يرمز الى قصة تحـــكى التعاهد بين الفئران والقط ويحمل الفأر الأول نص المعاهدة ويرفع الثانى راية السلام ويمسك الثالث باناء وقمع ٠

من القرن الخامس الميلادى



١٥ ـ آثار الكنيسة الكبرى (أبو مينا) بمريوط.

من القرن الخامس الميلادى

بين الأقباط أنفسهم ويحيا مرتبطا بالنواحى الدينية والطقسية حتى عصرنا هذا .

وقد كانت كتابة المخطوطات وزخرفتها زاهرة فى الأديرة القبطيــة وما زالت هــذه البراعة متوارثة بين بعض الرهبــان مثــل المجلدين الضخمين اللذين تركهمـــا الأنبـا مكاريوس البطريرك المتوفى ســنة ١٩٤٥ ، وقد رســمهما وهو راهب فى أديرة وادى النطرون وهما يشهدان بدقة هذا النوع من الفنون القبطية . ويحــوى كل من هــذين المجلدين حوالى ٧٠٠ رسم ، كل منها يخالف الآخر ، نقل بعضها عن المخطوطات القــديمة وقد اختار أن يرسمها بالألوان الزاهية مثل سلفه من الرهبان . وكتب على بعضها الأصل الذى نقل عنه ثم وصف طريقة الرسم التى كان الرهبان يتبعونها .

الرواسب الفنيـــة

يعيش المصريون فى دورات زراعيـــة يشترك فيها النيل والفلاح والحيـــوان والطير ، كل يقوم بدوره عــلى وتيرة تكاد تكون واحدة منذ بدء موسم الزرع فى هذا الوادى الخصيب ، ومن هذا النظام الطبيعى وما يتجلى فيه من تعاون من بذر وسـقى وحصاد ، تكوّن لدى الفلاح أساس ثابت متين .

ثم مرت على المصريين ديانات تباينت فى مظهرها ، وتشابكت فى أصولها ، كما تعاقبت عليهم ألوان من الحياة الاجتماعية اختلفت فى قيمتها وتوحدت أغراضها ، فترسبت منهـا فوق هذا الأساس المتين رواسب انســانية سليمة عملت عــلى تكوين مبنى المصرى الروحى والفنى .

وهــذه الرواسب التى يحمـلها المصرى رواسب قديمة ممعنة فى القــدم ، تميزه عن غيره من الناس فى هذا العالم ، وهذا التراث غير منظور .

أما تراثه القديم المنظور ، فقــد أماط العلماء اللثام عن بعضه ، ولا يزال الكثير منه خافيا أو مختفيا سيظهره العـــلم يوما ، ويتداوله العلماء بالفحص والتمحيص .

أما التراث غير المنظور فلا يملك غـير المصرى الكشف عنه ، فهو من صميم حياته الداخلية بما فيها من رواسب نفسية وقدرة تلقائية لا تغزوها المادة ، ولا تتحكم فيهـا الأوضـــاع العرفية المتداولة بين مختلف الشعوب . فهى سلسلة متصلة من الرواسب غير مضطربة أو متقطعة أو مصطنعة الاتصال ، وهى وحدة متماسكة الحلقات . والمصرى وحده هو القادر على التفاعل مع هـــذه الرواسب يتناولها عن طريق الرضى والرغبة ، وعدم التكلف ثم عن طريق الحب والمثابرة . وهى السبيل للوصـــول الى أعماق نفسه ليستخرج منها ثروة كامنة أصيلة فى نفسه .

يقول الأستاذ حبيب جورجى « بهــذا الايمــان بدأت تجــاربى للكشف عن كنه

الرواسب فى الأطفال الذين لم تمتد اليهم السدود التى تعترض الفيض ولم تتحكم فيهم نظم التعليم والتوجيه . سهلت لهم سبل الحياة الراضية والخالية من الصنعة والكلفة ، ففاضت نفوسهم بتراث مصرى صميم ، أذهل العالم وحير العلماء لما وجدوا فيه من أوجه شبه واضحة مع أسلافهم منذ آلاف السنين » .

يقول مدير مصلحة الآثار حين شاهد الانتاج الفنى لهؤلاء الأطفال :

« من الواضح أن النحت الذى كان الاعجاب به شديدا فى مصر القديمة هو وليد التربة أو هو نتيجة لحساسية ترهفت بفضل تلاعب النور الخلاب وسط الآفاق اللانهائية ، حيث الجدب المتناهى يتباين مع الخصب الوفير . وحيث يتآلف هذا المجموع وينتهى الى ادراك الأبدية . ولقد استوحى النحت المصرى كل أشكاله من هذه الروح وهذا ما يضفى عليه فى مجموعه وعلى الأخص فى تناسقه الداخلى تلك الصفة التى تكاد تعلو على الانسانية حتى لكأنها تشارك فى اللانهائية والتى لا يمكن أن نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم . وكان الأستاذ حبيب جورجى يرغب فى أن يتبين صلة الفن فى مصر بالتقاليد الفرعونية التى صنعتها المدنية اليونانية منذ أجيال ، فغامر بتجربة ليجعل التربة تتكلم من جديد وأحضر بعض المراهقين من الطبقة الشعبية التى هى من أمعن الطبقات مصرية ، تتميز بحساسية فنية ، ولكنها أبعدت قصدا عن علم الرسم وعن الطرق المدرسية ثم تركها لتخلق فى حرية كاملة أعمالا فنية ابتدعها كل بنفسه وعلى فطرته .

وتطلب هذا العمل صبرا ومثابرة من الأستاذ حبيب جورجى ، فكان عليه أن يوجه تلاميذه الذين انتخبهم فى عناية فائقة نحو ادراك الأبعاد وهم يشكلون الطين ، وأن يرشدهم فى اختيار مصادر وحيهم وفى توضيح طرق التعبير عندهم ، وذلك من غير أن يؤثر فيهم أو أن يجعلهم يشردون . كذلك كان عليه أن يدربهم على نحت الحجر ، وكان هذا العمل أقل مشقة من الأول .

وقد ظهرت النتائج ، وفى وسع كل انسان أن يحكم عليها . حقا ان القالب الذى صيغت فيه هو قالب مصر الحاضرة ، وهذا هو الطبيعى فى الأمر ، لأن الغرض الذى يهدف اليه ليس أن يحيى الرسم بل غرضه أن يوقظ الروح ويبعث التقاليد فى التعبير .

والشيء الذى أدهشنى شخصيا فى هذه المدرسة الناشئة هو أن روحها تتحد وروح مصر القديمة فى تناسقها وفى توزيع أجزائها . ولو آن مثالا من العصور الفرعونية أراد أن يمثل الحياة فى مصر الحديثة لما صورها على غير هذه الصورة . وسيظهر المستقبل الى أى مدى والى أية قوة فى التعبير تستطيع هذه

المدرسة أن تبلغ ، كما سيظهر المستقبل عددا من الفنانين الذين شاركوا فى التجربة ومهدت لهم السبيل .

ونستطيع الآن أن نؤكد أن العروة قد توثقت ، وأن هذه التقاليد صميمة لأنها هى بعينها تقاليد مصر الفرعونية » .

الموسيقى والألحان

تدل الصور المنقوشة على جدران المقابر والآلات الموسيقية التى عثر عليها فى مصر على أن الشعب المصرى منذ عرفناه فى التاريخ يميل بطبعه الى الغناء والموسيقى ويستخدمهما فى المناسبات المختلفة فى حياته الاجتماعية وفى الاحتفالات العديدة فى حياته الدينية .

ولما انتشرت المسيحية فى البلاد المتباينة وتكونت كنائسها ، نشأ معها فى كل قطر فن موسيقى كنسى تمشّى مع النزعة الفنية الموسيقية لكل شعب . وشكل الشعب موسيقاه بما يتفق مع ذوقه مستمدا ذلك من تقليده .

وقد ذكر الفيلسوف الاسكندرى فيلو الذى عاش فى القرن الأول للميلاد أن الجماعة الأولى من المسيحيين المصريين اقتبست ألحانا لعبادتها الجديدة من الأنغام المصرية القديمة . وهذا يوضح لنا كيف انبثقت الموسيقى الكنسية المصرية من الفن الموسيقى المصرى ، وليس أدل على ذلك من أن بعض الألحان الشائعة الى الآن فى الكنيسة المصرية تحمل أسماء بلاد قد اندثرت منذ عهد بعيد . فاللحن السنجارى نسبة الى بلدة سنجار ، التى تقع شمالى مديرية الغربية ، وعرفت منذ أيام رمسيس الثانى وكانت تحدوطها الأديرة فى العصر القبطى . وكذلك الأتريبى نسبة الى أتريب القديمة (بالقرب من الديرين الأحمر والأبيض بمنطقة أخميم) .

والكنيسة القبطية من أغنى كنائس العالم — ان لم تكن أغناها — فى فنها الموسيقى . والموسيقى جزء لا يتجزأ من ترتيبات عبادتها المتنوعة وطقوسها الطويلة . وهذه الطقوس كما نعرفها الآن قد وصلتنا كاملة منذ القرن الخامس للميلاد ، لا تشوبها موسيقى بيزنطية أو لاتينية أو فارسية أو غير ذلك من أنواع الموسيقى المعروفة شرقية أو غربية .

والموسيقى الكنسية — كما وصلتنا — صوتية بحتة لا تستخدم الآلات الموسيقية فى آدائها . وقد تناقلتها الأجيال بالتواتر شفاها . ودونت موسيقى الكنيسة القبطية أخيرا بالنوتة الموسيقية للصوت وتقع فى عدة مجلدات لم تنشر بعد . وكذلك سجلت جميع ألحانها على أشرطة صوتية هى موضع درس يمكن أن نقابل بين بعضها وبعض الأغانى

الشعبية القديمة السائدة الآن فى مصر وأوجه الشبه بينهما ملحوظة .

والألحان تتفاوت طولا وقصرا ، ويبلغ بعضها خمس عشرة دقيقة ، ومنهـا ما ينغم على كلمة واحدة أو بضع كلمات . وعلى الرغم من ذلك فالموسـيقى القبطية ليست معقدة وتتكون من صوت واحد أى لا تتعدد نغماتها فى وقت واحد ، ولها من بساطتها قوة تأثير على العاطفة مهما اختلفت الأذواق ، وهى ألحان معبرة . وفيها اللحن الحـزين ولحن الفرح . قال أحد علماء الموسيقى عنـد سماع الألحان الحزينة «ان أنغامها عريقة فى القدم، فيها حض على الزهد ، واسـترخاء للنفس الطاغية . أما ألحان الفرح ففيها نشوة تشعر الانسان بلذة روحية وتسمو به الى عـالم أسمى » .

فهذا الفن القديم ورثته الكنيسة القبطية وحافظت عليه ، ولعل فى دراسـته العلمية ما يعود بنا الى أصوله المصرية القديمة . فان الموسيقى الكنسية القبطية أقدم مدرسـة موسيقية معروفة فى العالم .

الفصل الخامس

الحيـــاة الاجتماعيـــة

(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية . (ب) الأسرة .

(جـ) العـــادات . (د) التقـــويم .

(هـ) الرهبنة : قيامها فى مصر ، أطوارها ، آثارها التربوية والاجتماعية وانتشارها فى أنحاء العالم المسيحى .

(أ) مركز المرأة فى الحياة المصرية

كانت المرأة فى مصر — منـــذ أقـــدم العصور — مصدر الوحى ومبعث الجهاد الروحى . حتى لقد جعلوا الالهة معات رمز العدالة والبر والحق . وقد سجل لنا التاريخ أسماء الالهات والملكات والكاهنات ، ولكن العظمة الروحية التى امتازت بها المرأة فى مصر لا ترتكز عـــلى هؤلاء وحدهن — اذ هن يؤلفن أقلية — بل ترتكز فوق ذلك على أن المرأة كانت مسئولة عن أولادها أمام معلميهم ، كما كانت مســـئولة عن والديهـــا فى شيخوختهما . فهى لم تكن مصـــدر الوحى فقط بل كانت حاملة الشعلة أيضا .

واعتنق المصريون المسيحية فظلت المرأة مصدر الوحى وظلت حاملة الشعلة ، فقـــد روضت نفسها على السمو بأخلاقها وفضائلها حتى صارت نموذجا للوثنيين وقدوة مثـــلى اجتذبت هؤلاء الوثنيين الى دين المســـيح بطريقة معيشتها ، لأنها كرست حياتها للخدمة فى خشوع ، واضعة نصب عينيها كلمة بولس الرسول « أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم » . ومن ثم عاشت باستقامة وطهارة فانتزعت احترام الجميع انتزاعا . وكانت التعاليم التى تسلمها التلاميذ من الســـيد المسيح عن كرامة الشخصية الانسانية تتردد عـــلى مســـامع الشعب كل يوم اذ كان اكليمنضس الاسكندرى يعلن عظمة الزواج المسيحى فى محاضراته بالمدرسة السكندرية . وكان يبين لسامعيه كرامة هذا الزواج الذى جعلت منه الكنيسة سرا مقدسا ورباطا روحيا يعقده الكاهن بمقتضى ما ناله من ســـلطان

تسلمه من الرسل أنفسهم ، ومن أن السيد المسيح بارك العرس فى قانا الجليل . وكان الوثنيون يحتقرون الطهر والعفاف ويتباهون بما هم فيه من فساد . والعجيب أن هؤلاء الوثنيين الذين كانوا يصغون الى محاضرات اكليمنضس وغيره من معلمى الكنيسة عن الواجبات النبيلة المفروضة على الزوج وزوجته، وعن قدسية الزواج — كانوا يصغون باتنباه تام لأنه كان لا يزال بهم حتى يصعد بنفوسهم الى ذروة الحكمة التى بلغها . فاذا ما قارن المستمعون الى محاضرات اكليمنضس بين تعاليمه وبين الحياة التى يحياها المسيحيون وجدوها صورة صادقة للايمان بقدسية الزواج . لأن الزوجة المسيحية كانت مثالا حيا للكرامة الانسانية التى تترفع عن النزول الى حمأة الرذيلة . وحين أبصر الوثنيون هذا التقديس للزواج وهذا التمسك التام بالعفاف تحولوا تدريجا نحو هذا الدين الذى ارتفع بالصلة الزوجية الى مرتبة الروحيات .

ومع أن التاريخ يذكر سير النساء اللواتى بلغن مكانة روحية سامية الا أن هناك آلافا من الجنديات المجهولات اللواتى عرفن معنى الفضائل المسيحية وعشن بموجبها ، ومن أرق الأمثلة عن هاته النسوة المجهولات قصة يرويها الأنبا مكارى الكبير بنفسه ، فانه — على الرغم من حياة النسك والرهبنة التى كان يحياها — كان يؤمن بأن كل من يفعل ارادة الله ينال رضاه . فقد شاء ذات يوم أن يعرف درجة القداسة التى وصل اليها فرأى فى رؤى الليل ملاكا ينبئه بأنه بلغ مرتبة سيدتين فى بلدة معينة . فلما أصبح الصباح ترك صومعته قاصدا البلدة التى أشار اليها الملاك . ولما وصل الى بيت السيدتين استقبلتاه بالتكريم والاجلال ثم سألهما عن كيفية معيشتهما ليعرف السبب فى ما نالتا من تقدير فأعلمتاه بأنهما يسكنان معا لأنهما متزوجتان من أخوين . وأنهما اتفقتا منذ اليوم الأول على أن لا تتفوه احداهما بكلمة تجرح الأخرى . واذا أحست واحدة منهما بأنها أساءت بكلمة الى الأخرى اعتذرت لها فى الحال دون أن تدع الشمس تغيب قبل أن تكون قد استسمحت من أساءت اليها وصفّت الحساب مع ضميرها . وحين سمع الأنبا مكارى هذا الكلام هتف قائلا « حقا انه لا فرق بين الراهبة والمتزوجة وبين الناسك والرجل الذى يعيش فى العالم . فقد وهب الله تعالى نسمة الحياة للجميع ولم يطالبهم الا بصدق نواياهم » .

ولقد أدركت المرأة المصرية قدسية الأمومة كما أدركت قدسية الزواج تماما . فلم يعد للأم المسيحية شاغل الا العناية بأولادها والسهر على تربيتهم تربية تتفق والكمال المسيحى . وقد دفعها هذا الادراك الى التفانى والمحبة . ولم تكن أمومتها منصبة على أولادها الذين ولدتهم فقط بل

اتسعت لتشمل الأولاد المحتاجين الى العناية في شتى صورها . فلقد استشهد أبو أوريجانوس في الاضطهادات التي أثارها سبتيموس ساويرس في أواخر القرن الثاني للمسيحية . وكان أوريجانوس لا يزال يافعا مع كونه أكبر اخوته السبعة ، ولم يكتف الامبراطور الروماني الظلوم بأنه أفقد هؤلاء الأولاد أباهم وعائلهم بل صادر أموالهم أيضا . فاعتنت بهم سيدة غنية من سيدات الاسكندرية لم يذكر التاريخ اسمها ، وسهرت على تربية هؤلاء الأطفال اليتامى وبذلك هيأت الفرصة لأوريجانوس ليكون من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أعلام الفكر المصري الناضج .

ولقد كان من أثر تمسك المرأة بكرامتها وحفظها لطهرها وادراكها الصحيح لمسئولياتها أن وثق بها آباء الكنيسة ومعلموها . فنجد أن أوريجانوس ناظر المدرسة الاسكندرية حين سجل الكتاب المقدس في لهجات مختلفة استخدم سبع شابات يجدن الخط كي يكتبن له هذا الكتاب في صيغته النهائية بعد التنقيح والتعديل . ولما بدأت الاضطهادات المروعة التي شنها أباطرة الرومان على المصريين كانت المرأة قوة راسخة شدت من عزيمة الرجال اذ كانت تقف الى جانبهم وهم يسامون أنواع العذاب تشجعهم على احتمال ما يلاقون من هول . وبعد ذلك تتلقى هي ما تلقاه الرجال من صنوف التنكيل في سكينة وثبات .

وكان يحدث أحيانا أن يجبن الرجل فتكون المرأة سببا في أن يستعيد شجاعته . وأبرز مثل لذلك السيدة دميانة التي كانت الابنة الوحيدة لمرقس والي البرلس . وكانت قد طلبت اليه أن يبني لها قصرا تقيم فيه بمنأى عن العالم لتخلو فيه الى ربها وتقضي عمرها في الزهد والتقشف ، وفي الصوم والصلاة ، وفي التأمل والعبادة . فأجابها أبوها الى رغبتها وبنى لها قصرا في المنطقة المعروفة الآن بالبراري بالقرب من بلقاس ، حيث عاشت فيه في أمن وسلام مع أربعين عذراء نذرن العفة والطاعة مثلها . وعشن جميعا في هدوء وطمأنينة . الا أن ديوقلديانوس الامبراطور الروماني الغشوم أثارها حربا شعواء على المسيحيين فجرعهم صنوف التعذيب والتنكيل . وحين أعلن هذا الامبراطور الطاغية اضطهاده طلب من الولاة والحكام أن يذهبوا معه الى الهيكل ويرفعوا القرابين للآلهة . فجبن مرقس أبو دميانة وخشي على مركزه وجاهه ، وذهب مع الامبراطور كما طلب .

فلما سمعت دميانة بما كان من خوف أبيها ذهبت لملاقاته وأعربت له عن حزنها العميق لما أبداه من خوف وتراجع . فلم يسع مرقس إزاء كلمات ابنته الا أن يعود الى الامبراطور ويعلن له ندمه عما فرط منه من تمجيد للآلهة ويقرر له أنه مسيحي . فأمر الامبراطور بقطع رأسه بالسيف . ثم أرسل

جنده الى حيث تعيش دميانة ومعها الأربعون عذراء ، فنكلوا بهن تنكيلا . وتحملت دميانة وصديقاتها كل صنوف العذاب بصبر عجيب . وكان أهل القرية قد خرجوا جميعا ليشاهدوا ما سيفعله الجند بالعذارى . فلما رأوا ثباتهن وشجاعتهن أعلنوا مسيحيتهم فأمر الضابط الرومانى بقتلهم جميعا كما أمر بقتل السيدة دميانة والعذارى الأربعين . وهكذا كانت بسالة السيدة دميانة سببا فى اذكاء نار الحمية والايمان الثابت فى قلوب هؤلاء جميعا .

ثم انتهت الاضطهادات ، وحل الأمن والطمأنينة . فعادت المرأة إلى مزاولة أعمالها العادية . فالزوجة انصرفت الى بيتها ، والأم عادت الى تربية أولادها . والى جانب الزوجة والأم كانت توجد من وهبت حياتها لخدمة الله والناس واختارت أن تكون راهبة أو شماسة (أو كليهما فى آن واحد) . ولم تكن حياة العبادة منصبة على العبادة والتأمل فقط بل شملت العمل اليدوى والعقلى والخدمة الاجتماعية أيضا .

أما درجة الشماسية فكانت تستلزم ممن ينالها أن يتفقد المرضى والمسجونين والغرباء والمعوزين ، كما كان عليه أن يزور العائلات ويقدم تقريرا عن أعماله للكاهن أولا بأول . فكانت الشماسة مسئولة عن الحى المنوط بها خدمته ترعى سكانه وتعمل جهدها على تخفيف آلامهم وعلى ادخال الطمأنينة الى نفوسهم ، وتحرص على مصاحبتهم الى الكنيسة كى ينالوا حظهم من الرعاية الروحية.

بل لقد كان الشماس (أو الشماسة) يوصف بأنه « عينا الأسقف وأذناه » لأهمية عمله .

وأعظم مثل بين الشماسات تلك الشماسة التى لم يذكر التاريخ اسمها والتى اختبأ عندها اثناسيوس الرسولى (البابا الاسكندرى العشرون) . ذلك أن الأريوسيين كانوا يطاردونه بغية قتله . فهجموا ذات ليلة على الكنيسة التى كان يصلى فيها . ووقف الشعب تلك الليلة فى وجه الأريوسيين . ثم حمله بعض الرهبان خارج الكنيسة . فلما وجد نفسه حرا طليقا أخذ يتمشى فى شوارع المدينة وهو يفكر . وكان ظلام الليل ستارا يغطيه عن أعين مطارديه ، وفيما هو يفكر ويصلى ألهمه روح الله أن يلجأ الى بيت شماسة لم تتجاوز العشرين من عمرها . ولما قرع الباب فتحته بنفسها ففرحت فرحا عظيما حين رأته ، ومكث القديس العظيم فى بيتها حوالى ست سنوات خدمته خلالها بأمانة لا تعرف الكلل . فكانت تأتى له بالمخطوطات من الكنيسة ، وتحمل الى الشعب رسائله الفصيحة وخطاباته التى كان يكتبها فى مختلف المناسبات مما أثار دهشة أصحابه وأعدائه معا .

فأصحابه كانوا يتلقون تلك الرسائل بغبطة ولهفة وهم يتساءلون فى شىء من الخوف : ترى أين البابا العظيم ؟ أما خصومه فكانوا يتميزون غيظا لعجزهم عن معرفة مقره والفتك به . وضاعت جهود الأصدقاء والأعداء فى البحث عنه . فلما مات الامبراطور

قسطنس الثانى الأريوسى — وكان المؤمنون مجتمعين ساعتئذ فى الكنيسة للصلاة — اذا بأثناسيوس الرسولى واقف بينهم فجأة . فلاقوه بفرح لا يوصف ثم سألوه أين كان مختبئا فأجابهم « لم أختبىء عند أحدكم لئلا يسألكم الحكام عن مكانى فتكذبون حرصا على حياتى ، بل لقد اختبأت عند تلك التى هى فوق الشبهات مع كونها شابة جميلة . فكسبت بذلك حياتى وحياتكم » .

هذا المثل الرائع يعطينا صورة عن خدمات الشماسات ومدى جهودهن الدينية والاجتماعية ، والى جانبهن وقفت الراهبات اللواتى كرسن حياتهن للخدمة والعبادة فى تفان عجيب . ومن الأمثلة البديعة لخدمة الراهبات الروحية والاجتماعية معا ذلك المثل الذى قدمته العذراء « يامون » حين فضت نزاعا بين أهل قريتين بسبب مياه النيل — اذ كان أهالى كل قرية يريدون رى أراضيهم قبل الآخرين .

وثمة خدمة أخرى لها قيمة كبيرة كانت المرأة تؤديها . هذه الخدمة هى التطبيب . فقد كانت بعض النسوة يعرفن ما لبعض الأعشاب من فوائد صحية ويركبن منها العقاقير ويصفنها للمرضى . وكانت هذه الخدمة توهب مجانا فى معظم الأحيان . ولا تزال فى بعض بلاد الصعيد سيدات يؤدينها . وهؤلاء السيدات لم يذهبن الى مدارس ولم يتلقين العلم على أساتذة . ومن المعروف أن مثل هذه المعرفة جاءتهن بالتسليم — أى أن المرأة التى لديها هذه المعرفة كانت تختار شابة تتوسم فيها الرغبة والمقدرة على تأدية رسالة التطبيب فتسلمها معرفتها بالممارسة . ولما كانت هاته النسوة يعشن فى بيئة ساذجة ، يندر فيها من يعرف القراءة والكتابة كما يندر أن يوجد فيها من يهمه أن يكتب سيرة المرأة العاملة فانه لا توجد أدلة مخطوطة وانما الأدلة قائمة على قيد الحياة نفسها وعلى التقليد الذى سارت عليه مصر منذ أقدم العصور .

(ب) الأسرة

اهتمت المسيحية بحياة الأسرة كأساس لبناء مجتمع سليم . فبمجرد دخول المسيحية الى مصر اهتمت بأن تدخل تعاليمها وقوانينها الى الأسرة لتدعيمها وحمايتها . فتساعد على تهيئة جو من الاستقرار والأمن .

فرابطة الزواج المسيحى تعتبر ركنا هاما من أركان الكنيسة بل وأحد أسرارها السبعة (التى هى العماد — التثبيت — التناول — الاعتراف — الزيجة — مسحة المرضى — الكهنوت) (والسر الكنسى هو عمل مقدس به ينال المؤمن نعمة غير منظورة تحت علامة منظورة) .

لذلك فرابطة الزواج تحتاج الى نعمة الهية لربط الزوجين برباط روحى متين يستمر

مدى الحياة ولا يفصمه الا الموت أو الخيانة الزوجية (الزنا) . لذلك فمن المحتم أن يقوم بطقوس هذا السر كاهن شرعى ، وبالتالى لا يستطيع أحد أن يفصم هذه الرابطة الا الكاهن فى حدود العلة الآنفة الذكر فقط .

وبما أن الزواج فى المسيحية رابطة روحية تجعل من الاثنين واحدا ، لذلك فلا يمكن أن يدخل ضمن هذه الرابطة أكثر من زوج واحد وزوجة واحدة .

وعلى الكاهن بصفته أبا روحيا أن يستوثق من توافر شروط الزواج والخلو من موانعه . وأن يتأكد من الرضا الشخصى لكل من الخطيبين ، فيسأل كلا منهما رأيه على انفراد بعيدا عن مؤثرات أو ضغط العائلة ، حتى يضمن نجاح الزواج وسعادة الزوجين واستقرار العائلة .

ويسمى الأقباط حفل اتمام طقس الزواج بالاكليل — لأن الكاهن يتوج رأس العروسين أثناء الصلاة باكليلين ، دلالة على النعمة المقدسة التى توجت حياتهما برابطة الزيجة . وتعتبر حفلات الزواج فرصة مواتية تعبّر فيها العائلة عن مشاعر الفرح والابتهاج بمظاهر مختلفة . كان من أولها تقديم الشكر لله بمحاولة اشراك الفقراء والجيران من أهل المنطقة المجاورة فى مشاعر الفرح وذلك بتوزيع الكساء وما طاب من مأكل وحلوى عليهم .

أما العائلات الثرية فتنحر الذبائح وتستمر احتفالاتها عدة أيام : الليلة السابقة على العرس وتسمى « ليلة الحناء » وتقام وليمتها فى بيت العروس لتوديعها ، وفيها تصبغ العروس وأهل البيت أكفهم وأرجلهم بالصبغة الحمراء التى تتركها عجينة أوراق الحناء على الجلد . ثم ليلة العرس فى بيت العريس — والصباحية حيث يستقبل الزوجان هدايا العائلة والأصدقاء، وما يسمى بالنقوط (أى الهدية النقدية) ونشأت فكرتها أصلا كمشاركة عملية فى مصاريف العرس . وأحيانا تستمر هذه الحفلات الى نهاية الأسبوع وتختتم بليلة السبوع .

ولما كانت الأطعمة التى تقدم فى ولائم العرس من الأطعمة الفاخرة الدسمة ، فقد منعت الكنيسة اقامة « الاكليل » فى أيام الأصوام ، حيث يمتنع تناول الأطعمة الحيوانية والدسمة ، وحيث يمتنع الأزواج عن المعاشرة الزوجية للتفرغ للصوم والصلاة .

وحينما يولد للعائلة طفل ، يكون أول احتفال عائلى به فى اليوم السابع ، فتدعو العائلة الكاهن ليبارك الوليد ، ويرفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة . وتسمى « صلاة الطشت » نظرا لاستخدام الطشت فى غسل الطفل فى ذلك اليوم . وخلال هذا الطقس يشترك الكاهن مع الوالدين فى اختيار اسم قبطى للوليد — يختارونه غالبا من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا . ولهم فى ذلك طرق مختلفة : فالبعض

يختار اسم القديس الذى ولد الطفل فى يوم عيده أو ذكرى استشهاده . والبعض يختار سبعة أسماء لقديسين مختلفين ويطلق أسماءهم على سبع شمعات ، والشمعة التى تستمر مضيئة الى آخر الحفل يطلقون الاسم الذى تحمله على الوليد. وأحيانا يكون الاسم قد أعد من قبل بأن نذر أحد الوالدين تسمية الوليد باسم القديس الذى استشفع به فى وقت ضيقته .

وكان حب الأقباط للقديسين والشهداء يدفعهم لاطلاق أسمائهم على أبنائهم سواء كان اسم القديس من أصل مصرى أو يونانى أو سريانى . الأمر الذى اختلط على البعض فجعلهم يتشككون فى مصرية حاملى هذه الأسماء . فكانوا ينسبون مشاهير العلماء والقديسين المصريين الى اليونان لمجرد أن الاسم أصله يونانى .

وكان فى كل بيت قبطى « مقصورة » (ومعناها مكان مقصور أو مخصص للصلاة) بها أيقونة (أى صورة) لقديس أو أكثر . وتوضع فى ركن خاص بالبيت كمكان مخصص للصلاة والعبادة . وأحيانا يضيئون أمام الأيقونة قنديلا من الزيت أو بعض الشموع تكريما للقديس الذى كانت حياة الفضيلة والتضحية التى عاشها نورا وهديا للمجتمع . وأمام هذه المقصورة اعتادت العائلة القبطية أن تجتمع لتصلى الصلاة العائلية فى الصباح وعند الغروب . وتحتفل العائلة بالعيد السنوى لهذا القديس بتوزيع الصدقات وعمل وليمة للشعب أغنياء وفقراء معا .

وحينما يكتمل للولد أربعون يوما ، تحمله أمه الى الكنيسة لينال سر العماد فتعين له الكنيسة عرّابا أى (اشبينا) ومهمته أن ينوب عن الكنيسة فى رعاية الطفل روحيا الى أن يصل الى سن الدراسة فيلتحق بمدرسة الكنيسة .

وهذا الارتباط القوى بين البيت القبطى والكنيسة كان يأخذ مظاهر متعددة أخرى تترك فى حياة أولاد العائلة انطباعات دينية عميقة . فكلما بنت العائلة بيتا جديدا أو نقلت مسكنها الى دار أخرى دعت الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة يقوم الكاهن فى آخرها برش الماء المقدس فى أرجاء البيت استجلابا للخير وطردا للشر . ومن الواجبات الرعوية على الكاهن أن يزور بيوت رعيته من حين لآخر واعظا ومرشدا . كما عليه أن يزور البيت كلما مرض أحد أعضائه فيصلى سر مسحة المرضى (القنديل) ويدهن المريض بالزيت المقدس .

ومن العادات العائلية القديمة فى الصعيد، الأمسيات التى يسمونها « الميمر » . والميمر معناه السيرة . فاذا كان على عائلة نذر ما لأحد القديسين ، أو مناسبة فرح وشكر لشفاء مريض أو توفيق شخص فى تجارته أو عمله أو الخروج من ضيقة أو شر محيط احتفلت العائلة بدعوة الجيران والأقارب

والفقراء ومرتلى الألحان الكنسية الى سهرة يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها من يقرأ سيرة (ميمر) أحد القديسين . وكلما وصلوا الى فصل جديد فى السيرة أو نقطة بطولة ، يتوقفون عن القراءة ويأخذون فى ترتيل المدايح الشعبية فى تهليل وبهجة . ويتبارى مرتلو الألحان فى ارتجال مقطوعات شعرية يسمونها « الأرباع » (أى أربعة أبيات) . وتدور معانى هذه القصائد حول المناسبة التى يحتفلون بها . وتدخل فيها ألفاظ أو أبيات باللغة القبطية لأن القصائد كانت تلقى قديما باللغة القبطية . ويدخل فيها أيضا تفسير للكتاب المقدس وحض على الفضيلة . وكلما أعجب الحاضرون بقطعة يجزلون العطاء (النقوط) على المرتل (وهو غالبا ضرير) وهكذا يقضون سهرتهم طوال الليل فى ذكر الله ورجاله الأتقياء . وهذه الاجتماعات تعتبر فى نفس الوقت وسيلة من وسائل الترفيه الشعبى الروحى .

المآتم :

وترتبط عادات الحزن والمآتم فى العائلات بمظاهر دينية أيضا . اذ تشيّع الجثة الى الكنيسة حيث تقام صلوات جنائزية استمطارا لرحمة الله على ما قد يكون المنتقل قد فعله من هفوات أو سهوات أو أخطاء غير مقصودة . وفيها أيضا طلب التعزية السماوية لأهل الميت . وتقام صلاة خاصة فى بيت الميت فى اليوم الثالث للوفاة . ولهذه الصلاة أثر كبير فى تخفيف وطأة الحزن على أقاربه . ويسميها العامة « رفع الحصير » أى انهاء فترة الحزن الشديد التى فيها يجلس أهل البيت والمعزون على الحصير أرضا بدلا من الجلوس على الأرائك أو المقاعد .

وبعد ذلك تقام القداسات فى الكنيسة استمطارا لرحمة الله فى أيام السابع والخامس عشر والأربعين . وتعتبر هذه فرصا مناسبة للتعبير السليم عن مشاعر الحزن ، اذا ما اقترنت بالتأثير الدينى الذى يعمل دائما على حفظ اتزان المشاعر ، فلا يكون فيها افراط مشابه لمظاهر الحزن عند الوثنيين . كما لا يكون فيها كبت ، كما يحدث لدى الذين يفهمون أن التمدن يتعارض مع مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن . فقد أثبتت أبحاث علم النفس التطبيقى أن كبت مشاعر الحزن للظهور بمظهر التمدن ، قد أدى فى كثير من الحالات الى أمراض جسمية ونفسية تظهر آثارها بعد فترة من الزمن .

ولكن للأسف اقترنت أحزان الأقباط خصوصا عند النساء فى الصعيد ببعض العادات الوثنية من لطم مؤذ ، وشق للملابس ، وحل للشعر ، وصبغ للشعر بالنيلة ، والقرع على الصدر بشدة ، وفقد زمام النفس حتى تتمايل الثكلى أحيانا باهتزازات توقيعية تتمشى مع أنغام التعديد الذى كثيرا ما يقترن بقرع الرق أو الطبول . وتختلف أقاليم الصعيد فى طريقة « التعديد »

وهى فى الغالب تعديد مآثر الفقيد ، ومقدار الخسائر التى لحقت بفقده . الا أن بعضها ينحرف الى عبارات الكفر والتذمر . وهذه العادات والأقوال لا تقرها المسيحية ، ويحاربها رجال الدين فى مواعظهم .

وعندما ترزأ عائلة بفقد أحد أعضائها تسرع العائلات المجاورة الى مشاركتها فى التعزية لتخفيف وطأة الحزن ، كما تشارك أيضا فى أعباء ضيافة المعزين القادمين من قرى أو بلاد بعيدة ، اذ ترسل كل عائلة (صينية) مأكولات الى بيت المأتم الذى يكون مشغولا فلا يتمكن من اعداد الطعام للمعزين .

وعادة زيارة المقابر (الطلعة) — أى الخروج الى المقابر التى تكون غالبا خارج القرية أو على مكان مرتفع جاف — من العادات القديمة . وهى من علامات الوفاء وتكريم ذكرى الميت فى أيام الأعياد التى يعتاد فيها أفراد العائلة التجمع معا من بلادهم المتفرقة وتصطحب هذه الزيارة بعادات أخرى منها السليم ومنها الضار . فتوزع الصدقات والمأكولات على الفقراء . وترفع الصلوات لطلب رحمة الله . الا أنهم كانوا يغالون فى ذلك فيبيتون فى المقابر ويقيمون عدة أيام ويتمادون فى مظاهر الحزن المفرط .

(ج) العادات

ارتبط المصرى بالكنيسة ارتباطا وثيقا حتى تأثرت عاداته الشعبية وتقاليد حياته اليومية بانطباعات دينية كثيرة ظهرت آثارها فى أفراحه وأتراحه ، واحتفالاته وأعياده . ولا غرابة فى ذلك فان للكنيسة معنى اجتماعيا يشمل حياة الشعب التابع لها .

وكلمة كنيسة معناها جماعة ، أى « جماعة المؤمنين » . ويطلق الاسم اصطلاحا أيضا على المكان الذى يجتمع فيه المسيحيون مهما كان نوع هذا المكان . ففى فجر المسيحية ، قبل أن تبنى الكنائس والكاتدرائيات ، كان يطلق اسم الكنيسة على البيوت التى يجتمع فيها الشعب للعبادة والصلاة .

ومن هذا الاسم تميزت الكنيسة بوظيفة اجتماعية وروحية ، اذ أن مهمة السمو بروح الانسان تحتاج الى رعاية نفسية واجتماعية بجانب الرعاية الروحية حتى تتكامل الشخصية فلا تتعقد أو تنقسم على ذاتها ، فتصير شرا ناميا فى جسم المجتمع . بل تسعى الكنيسة الى تكوين المواطن الصالح .

ويسهر على توفير هذه الخدمات الرعوية لسد احتياجات الشعب ، رعاة الكنيسة وخدامها بدرجاتهم المختلفة : الشماس والقسيس والأسقف . وهى درجات الكهنوت الأساسية فى الكنيسة .

والكنيسة بهذا الوضع مجتمع اشتراكى ديمقراطى ، تتكافأ فيه الفرص الروحية

والاجتماعية أمام الفقير والغنى ، الجاهل والمتعلم ، الصغير والبالغ ، وأبيض البشرة وأسودها . فيتمتع فيه الجميع بفرص العبادة المشتركة فيقف كل هؤلاء خاشعين يعبدون الها واحدا ، ويتعلمون كيفية تطبيق الفضائل فى حياتهم اليومية ، حتى لا يصبح الدين مظهرا منفصلا عن الحياة أو المجتمع ، بل يصير وسيلة فعالة للمشاركة فى العطاء للفقير والمحتاج ، والتعاون لخير المجتمع .

وظهرت علامات هذه النظم الاجتماعية للكنيسة فى مصر منذ أقدم العصور . فضمت مبانى الكنيسة بين أسوارها مؤسسات تقوم بالخدمات المختلفة لشعبها من روحية وثقافية واجتماعية . ففى كثير من كنائس قرى الصعيد والوجه البحرى ، ما زالت تحيط بالكنيسة مبانى « الليوان » أو « الايوان » وهى المضيفة أو قاعة الاجتماعات التى يجتمع فيها الشعب مع رعاته بعد صلوات قداس يوم الأحد فيتشاورون فى شئون مجتمعهم ثم يتناولون معا ما اعتاد المسيحيون بتسميته « الأغابى » وهى كلمة قبطية معناها محبة . وتستخدم اصطلاحا بمعنى « وليمة المحبة » . اذ بعد أن يشترك الشعب مع الكاهن فى تناول الأسرار المقدسة فى نهاية القداس يخرجون الى قاعة الاجتماعات هذه ويتناولون معا الغذاء على مائدة واحدة . وجرت العادة على أن تتناوب عائلات القرية تقديم الغذاء فيحدد لكل عائلة أسبوع معين من العام تقدم فيه الغذاء للمصلين ويقوم كبار أعضاء العائلة بأنفسهم على خدمة أفراد الشعب الفقراء والأغنياء على السواء .

وتظهر قيمة هذه الولائم فى الرابطة الأخوية والتقريب بين الطبقات والتقليل من الفوارق الاجتماعية ، بجانب ما تقدمه من ضيافة باطعام أفراد الشعب الذين تبعد بيوتهم عن مكان الكنيسة .

ولكل عضو فى الكنيسة أن يستخدم نفس القاعة الملحقة بالكنيسة لاقامة احتفالاته الخاصة من عرس أو مأتم . فهى تخدم احتياجات الشعب عامة . ويلحق عادة بهذه القاعة عدة غرف للنوم لاضافة الغرباء والفقراء .

وقد اشتهرت الكنيسة القبطية بالمدرسة الملحقة بها ، وكانت فى القرون الأولى للمسيحية تسمى مدرسة الموعوظين لاعداد الراغبين فى العماد وتلقينهم أصول الايمان المسيحى . ثم أخذت فيما بعد شكل « الكتاتيب » . وكانت تلقن الأطفال مبادىء القراءة والكتابة والحساب بجانب دراسة الكتاب المقدس واللغة القبطية والألحان الكنسية .

وكان بجوار بعض الكنائس مستشفى لعلاج المرضى كما جاء فى سيرة القديس باخوميوس (القرن الرابع) أنه أنشأ مستشفى فى أديرته .

وأجمل مظاهر الرعاية النفسية التى

تقدمها الكنيسة لاحتياجات الشعب ، تتجلى فى وظيفة « سر الاعتراف » . وهو كما سمته المخطوطات القديمة « طب روحانى » ، وبلغة العصر الحديث وعلم النفس « صحة نفسية » أو « طب نفسى » سواء الوقائى منه أو العلاجى. فمعروف أن الفرد محتاج الى ارشاد وتوجيه وبخاصة خلال الأزمات النفسية ، أو عندما تشتد وطأة مشكلات الحياة أو يزداد الشعور بالاثم . فأسلم طريق لراحة النفس وسلامة العقل هو تفريغ كوامن النفس على يد من يستطيع أن يطمئن النفس ويهدىء من روعها ، ويرسم لها طريقا لتجديد الرجاء أو بعثه .

وتحتاج النفس البشرية أيضا الى أن تكون على صلة مستمرة بالله تعالى ، لذلك تفتح الكنيسة أبوابها ليشترك الشعب معا فى رفع الصلوات لله مرة على الأقل كل أسبوع — يوم الأحد . وقد اعتادت الكنائس القبطية أن ترفع الصلوات فى أيام الأصوام أيضا وبخاصة الأربعاء والجمعة من كل أسبوع . وكانت الكنائس قديما تقيم القداسات يوميا .

وتشتمل صلوات القداس القبطى على طلبات من أجل الظروف المختلفة التى تمر على الفرد فى حياته : من أجل المرضى والمسافرين ، والراقدين (أى الأموات) .. وكذلك من أجل سلامة العالم . ولم تغفل أن ترفع الصلوات من أجل الحكام والملوك والولاة ، تنفيذا لوصية الكتاب المقدس القائلة (فاطلب أول كل شىء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس . لأجل الملوك وجميع الذين هم فى منصب لكى نقضى حياة مطمئنة هادئة فى كل تقوى ووقار) (اتى ٢ : ١ — ٢) .

ولما كانت مصر بلدا زراعيا فقد اهتمت الكنيسة المصرية بنوع خاص بالصلاة من أجل الزراعة وما يؤثر فيها من طقس وماء . ونظمت هذه الصلوات لتتمشى مع الفصول الزراعية :

(أ) ففى فصل البذار (من ١٠ بابة الى ١٠ طوبة — أى من ٢٠ أكتوبر الى ١٨ يناير) تصلى قائلة (تفضل يا رب الزروع ونبات الحقل فى هذه السنة باركها) .

(ب) وفى شهور الأهوية والحصاد (من ١١ طوبة الى ١١ بؤونة — أى من ١٩ يناير الى ١٨ يونية) تصلى قائلة (تفضل يا رب أهوية السماء وثمرات الأرض فى هذه السنة باركها) .

(جـ) وفى شهور فيضان النيل (من ١٢ بؤونة الى ٩ بابة — أى من ١٩ يونية الى ١٩ أكتوبر) تصلى قائلة (تفضل يا رب مياه النهر فى هذه السنة باركها — أصعدها كمقدارها ، كنعمتك فرح وجه الأرض ليروى حرثها ، لتكثر أثمارها . أعدها للزرع والحصاد ، ودبر حياتنا كما يليق . بارك اكليل (بدء) السنة بصلاحك ، من أجل فقراء شعبك ، من أجل الأرملة واليتيم والغريب

والضيف ، ومن أجلنـا نحن الذين نرجوك ونطلب اسمك القـدوس . لأن أعين الكل تتطلع اليك ، لأنك أنت الذى تعطيهم طعامهم فى وقته . اصـنع معنا بحسب صلاحك ، يا معطيا طعاما لكل جسد ، املأ قلوبنا فرحا وبهجة لكى يكون لنا الكفاف فى كل شىء ، ونزداد فى كل حين عملا صالحا) .

الأصـوام

القبط شعب يميل الى التصوف والزهد ، فقد اشتهر بكثرة أصوامه . اذ يرى الصوم وسيلة لتدريب الارادة وضبط النفس لكبح الشهوات ، والتقليل من قيمة الرغبات المادية حتى لا تضغط على الميول الروحية للنفس . فالصوم يسهّل التسامى بها الى مسـتوى روحى رفيع .

ويصوم القبط بالامتناع عن تناول الطعام مدة من النهار قد تصل الى الظهر أو العصر أو الغروب حسب مقدرة كل شخص . يتناول بعدها الصائم أطعمة خالية من الدسم غـير حيوانية .

وتطغى روح العبادة على القبط فى فترات الصوم ، فيكثرون من الصدقات . وتتأثر حياة العائلة كلها ، اذ تتغير أساليب حياتهم الرتيبة ، فتجرى العائلة استعدادات خاصـة لاستقبال الصوم . وحتى الأطفال يشعرون أن للبيت جوا جديدا يفيد ارتباطا خاصـا بالدين . وعندما كانت مصر كلها مسيحية ، كانت آثار الصوم تنعكس على الحيـاة التجارية والاقتصادية أيضا . فتغلق محلات ذبح اللحوم وبيعها . ويتجه النشاط التجارى نحو البقول والزيت وما شاكلها من سـلع . واذ تمتنع الأعراس والولائم ، يسود المجتمع جو من التخشع والعبادة .

وأهم وأقدم أصـوام القبط هما يوما الأربعاء (لذكرى التشاور للقبض عـلى المسيح) والجمعة (لذكرى صلبه) من كل أسبوع . والصوم الأربعينى لذكرى الأربعين يوما وهى التى صامها المسيح ، ويسـمى أيضا « الصوم الكبير » ، وقد بلغت مدته فى وقتنا الحاضر ٥٥ يوما . والأسبوع الأخير منه يسمى « أسـبوع الآلام » . ولهـذا الأسبوع تقديس عظيم لدى الشعب لعظم الذكرى التى يحملها . فكانت تتعطل فيـه الأعمال ليتفرغ الجميع للصلاة فى الكنيسة حيث يتلى معظم الكتاب المقدس . ولصلواته لحن حزين . ويطلق الأقباط على كل يوم من أيام هذا الأسبوع اسما يناسب ذكرى خاصة. منها « أربعاء أيوب » الذى اعتاد الناس أن يغتسلوا فيه بالعشب المسمى « رعرع أيوب » لذكرى شفاء أيوب النبى به . وخميس العهد لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين ليعلمهم التواضع ، وفيه أيضا بدأ معهم عهدا جديدا .

وبانتشار الرهبنة وكثرة الزهـد اقتدى الشعب بالرهبان فى حفظ أصوام أخـرى : كصوم الميلاد اسـتعدادا لاستقبال بشرى الميلاد وشريعة العهد الجديد ، ويبدأ يوم ١٦

هاتور (٢٥ نوفمبر) وينتهى بعيد الميلاد يوم ٢٩ كيهك (٧ يناير) ، وتبلغ مدته الآن ٤٣ يوما . وخلال صوم الميلاد يحتفل الشعب بليالى كيهك فيجتمعون فى الكنيسة ، ويرتلون المدايح والتسابيح ابتهاجا بذكرى الميلاد . وفى ليالى الأحد من شهر كيهك يسهرون الى الصباح فى ترديد هذه التسابيح . وفى هذه الليالى كانت بعض العائلات تستضيف القادمين من أماكن بعيدة فتقدم لهم العشاء فى المضيفة الملحقة بالكنيسة .

وأيضا صوم الرسل ، ويبدأ الاثنين التالى لعيد العنصرة وتتراوح مدته بين ١٢ و ٤٩ يوما اذ ينتهى بعيد الرسل فى ١٢ يوليو . وكذلك صوم العذراء ، ويبدأ فى ٧ أغسطس ومدته ١٥ يوما ، وصارت له شهرة شعبية خاصة . وفى أواخر القرن العاشر بدأ الأقباط يصومون صوم نينوى ومدته ثلاثة أيام لذكرى نجاة أهل نينوى (مدينة قديمة بالقرب من الموصل الحالية بالعراق) عن طريق الصوم .

الأعياد

ينتهى كل صوم من الأصوام القبطية بعيد يحتفل به الأقباط باقامة القداس فى صباح يوم العيد ثم يفطرون بتناول المأكولات الدسمة واللحوم والحلوى ، بعد أن يكونوا قد وزعوا منها على الجيران والفقراء . وبعد ذلك يتبادلون التهانى معا فى القاعة الملحقة بالكنيسة أو بالتزاور فى البيوت . أما فى الثلاثة الأعياد الكبرى (الميلاد — الغطاس — القيامة) فيكون الاحتفال بالقداس مساء ليلة العيد ، وغالبا ينتهى بعد منتصف الليل فتكون له بهجة ، وبالأخص فى ليلة عيد القيامة حيث اعتاد الشعب قديما أن يخرج من الكنيسة ممسكا بالشموع المضاءة الى أن يصلوا الى بيوتهم .

وترتبط بعض الأعياد القبطية بمواسم زراعية خاصة فتدخل فى تقاليد الاحتفال بالعيد أنواع خاصة من ثمار الموسم . فيأكلون منها ويوزعونها على الفقراء . ومن العادات التى كانت متبعة فى عيد الغطاس (ذكرى عماد المسيح) — ويقع فى ١٩ يناير — الاستحمام فى النهر أو الترع . وكان يوجد فى مبانى الكنائس القديمة حوض كبير يسمى المغطس فى الجانب الأيمن من الجهة الغربية للكنيسة (وما زال موجودا غير مستعمل فى كنائس أبو سيفين وأبو سرجة فى مصر القديمة) . كان يملأ بالماء وينزل فيه الشعب ليلة عيد الغطاس .

ومن الأعياد ذات الأثر الشعبى البهيج ، عيد « أحد الشعانين » أو « أحد السعف » . وهو الأحد السابق لأحد القيامة . وفيه يحتفل الشعب بذكرى دخول المسيح الى أورشليم راكبا على جحش ، ذلك الاستقبال الاحتفالى الذى رفع الشعب فيه سعف النخيل وأغصان الزيتون . ويكرر الأقباط هذه الذكرى بحمل سعف النخيل وأغصان

الزيتون الى الكنائس لحضور قداس العيد . وعادة تحية القادمين بالسعف كانت معروفة فى مصر الفرعونية أيضا .

ومن اليوم التالى لعيد القيامة يبدأ عيد الربيع الذى يسمى الآن « شم النسيم » . وفيه يخرج الشعب الى الحقول والحدائق للفرح بجمال الطبيعة بعد فترة الصيام والنسك الطويلة السابقة . ويسمى كنسيا « اثنين الفصح » . وكانت تستمر أجازة عيد القيامة طوال الأسبوع الأول من الخماسين .

واذا ما جاء عيد العنصرة — وهو عيد حلول الروح القدس فى نهاية الخماسين — اعتاد القبط توزيع فواكه الموسم الجديدة على الفقراء وذلك لأن يوم الخمسين هذا كان يقابل قديما عيد الحصاد فيكون تعبير الشكر بتقديم باكورات هذه الخيرات .

وبجانب هذه الأعياد الكبرى توجد أعياد كثيرة أخرى ، من أهمها عيد زيارة المسيح لأرض مصر مع العائلة المقدسة وهو طفل صغير . وتحتفل به الكنيسة القبطية يوم أول يونية من كل عام . وبالأخص فى الكنائس التى بنيت على الأماكن الأثرية التى زارها مثل مسطرد حيث البئر ، وشجرة العذراء بالمطرية ، وكنيسة أبو سرجة بمصر القديمة ، وقسقام حيث يوجد الدير المحرق ، وبه كنيسة أثرية لهذه المناسبة .

ويحتفل القبط بأعياد العذراء ومشاهير القديسين والشهداء والملائكة بعمل نوع خاص من الفطير يوزعونه على الفقراء والجيران . وترجع فكرة الفطير الى عادة تقديم باكورات محصول القمح كعلامة شكر لله . وقد كان من عادات القبط ألا يذوقوا المحاصيل الجديدة ولا تدخل ثمارها بيوتهم قبل أن يوزعوا منها على الفقراء .

الموالد

وكلما اشتهر قديس أو شهيد فى منطقة أو مدينة ، يتوافد على كنيسة تلك المدينة جموع كثيرة من الشعب للاحتفال بذكراه . وعندما يصل القادمون الى المنطقة بضعة آلاف يضطرون الى اقامة الخيام حول الكنيسة ليبيتوا فيها ، ويقضوا أيام العيد التى تصل غالبا الى سبعة أيام .

وقد عرفت أعياد القديسين المزدحمة هذه فى العصر العربى قياسا باسم الموالد . وهو اسم لا ينطبق على الواقع ، لأن الاحتفال غالبا يكون بذكرى استشهاد أو موت القديس ، وهو اليوم الذى أتم فيه البطل جهاده ولا يهم الكنيسة يوم الولادة فانه يوم لا يقترن بشىء من البطولة أو الاعجاز .

وبدأت مثل هذه الاحتفالات أصلا على أساس تكريم القديس برفع الصلوات واقامة القداسات وقراءة سيرته بالتفصيل للتشبه بقدوته الصالحة . ثم بتقديم النذور من شموع وبخور وأدوات تلزم للكنيسة الى جانب نحر الذبائح لاطعام الفقراء والمحتاجين. ولكن لكثرة العدد وما تحتاجه هذه الألوف

من أماكن للمبيت ، ومن مأكولات ونحــــر الذبائح وبيع لاحتياجات الزوار والنــذور وخلافه انحرفت هذه الاحتفالات عن طبيعتها الدينية البسيطة الى مظاهــر مادية تجارية كانت ســـببا فى تسرب كثــير من الشرور الاجتماعية الى تلك « الموالد » مما لم تقره الكنيسة ، لدرجة أن الأنبا شنودة (القرن الخامس) ألقى عظــة قوية ندد فيها بتلك الشرور قائلا « جميل جدا أن يذهب الانسان الى مقر الشهيد ليصلى ويقرأ وينشد المزامير ويطهر نفسه ويتناول من الأسرار المقدسة فى مخافة المسيح ، أما من يذهب ليتكلم ويأكل ويشرب ويلهو ، أو بالحرى يزنى ويرتكب الجرائم نتيجة للافراط فى الشراب والبغى والفساد والاثم ، فهذا هو الكافــر بعينه .

وبينما البعض فى الداخل يرتلون المزامير ويقــرأون ويتناولون الأسرار المقدسة اذ بآخرين فى الخــارج يملأون المكان بآلات الطبل والزمر — بيتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغــارة لصوص — لقد جعلتموه سوقا لبيع العسل والحلى وما أشبه . لقــد جعلتم الموالد فرصة لتدريب بهائمكم ولسباق حميركم وخيلكم ، جعلتمــوها أماكن لسرقة ما يعرض فيها للبيع ، فبائع العســل بالكاد يحصــــل على قليل من الزبائن المتشاحنين ، أو يستخلص لنفسه شيئا من الفائدة نظــير أتعابه . حتى الأشياء التى لا يمكن أن تحدث للباعة فى الأســواق العامة تحــدث لهم فى موالد الشهداء .

يا للغبـــاء ! اذا كنتم تذهبون لمواطن الشهداء لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتفعلوا كل ما يروق لكم ، فأية فائدة لبيوتكم التى فى مدنكم أو قراكم ؟ يا لعقولكم المغلقة ! واذا كانت بناتكم وأمهاتكم يعطرن رءوســهن ويكحلن عيونهن ويتجملن لخداع النــاس الذين ينظــرون اليهن ، واذا كان أبناؤكم واخوتكم وأصــدقاؤكم وجيرانكم يفعلون هكذا عند ذهابهم الى مواطن الشهداء فلماذا جعلتم لكم بيوتا ؟

هناك كثيرون يذهبون الى الموالد لافساد هيكل الرب وليجعلوا من أعضاء المســيح أعضاء للاثم والفجور بدلا من أن يحفظوا لها قداستها وطهارتها من كل رجس ســواء كانوا رجالا أو نساء . دعــونى أقول لكم بصراحة تامة ان كثيرين منــكم يلتمسون لأنفسهم عذرا قائلين ليست لنا زوجة أو ليس لنا زوج ، فلا تجعــلوا زيارتكم لموالد الشهداء فرصة لتدمير أجسادكم فى المقــابر التى حــولها أو المبانى القريبة منها أو فى أركانها » .

(د) التقويم القبطى

وضع التقويم القبطى على أساس التقويم المصرى القديم . أدرك المصريون القدماء ضرورة استخدام سنة مدنية تحتوى على عدد صحيح من الأيام وتكون أقرب ما يكون الى السنة الشمسية . وتكونت السنة المصرية من اثنى عشر شهرا ينقسم كل منها الى ثلاثين يوما ، ثم زادوا عليها خمسة أيام فى آخر السنة اعتبروها بمثابة الأيام التى ولدت فيها المعبودات الخمسة التى تتكون منها مجموعة أوزيريس وهى : أوزيريس ، وايزيس ، وست ، ونفتيس ، وحوريس . وجعلوا منها مناسبات لاحتفالات دينية خاصة .

أما الشهور الاثنا عشر فقد وزعت على ثلاثة فصول خص كل فصل منها أربعة شهور . وسموا الفصل الأول فصل « الفيضان » والثانى « بذر الحبوب » والثالث « جنى المحصول » .

واعتبر المصريون اليوم الأول من كل عام هو اليوم الذى تظهر فيه بشائر الفيضان وأشهره من يولية الى أكتوبر . أما أشهر فصل « بذر الحبوب » فهى من نوفمبر الى فبراير وهى أشهر الشتاء ، وأشهر فصل « جنى المحصول » من مارس الى يونية وتتفق مع فصل الربيع حاليا .

ويدل على مدى اهتمام المصريين بفيضان النيل الذى يهب أرضهم الخصوبة ويجددها كل عام ، أنهم أقاموا تقسيم فصولهم على هذه الظاهرة الطبيعية التى تأتيهم كل عام ، أى حدوث الفيضان .

لم تعتمد السنة المصرية فى حسابها على علم الفلك بل وصل اليها المصرى على أساس ظهور الفيضان عاما بعد عام ، فهى سنة نيلية ، تعتمد على طبيعة الفيضان وقيمته لدى الشعب الذى تتصل حياته به اتصالا وثيقا . ولم يكن من المهم لديهم أن يأتى الفيضان فى نفس اليوم من كل عام . بل يكفيهم أن يعرفوا أن فيضان نيلهم يأتيهم فى نفس الوقت تقريبا .

وليس فى الامكان أن نحدد متى استطاع المصرى أن يقيم « حساب السنة المدنية » على هذا الوجه ولكن من المرجح أنه نشأ فى فترة من فترات عصور ما قبل التاريخ وربما كان ذلك فى أثناء عصر حضارة نقادة الثانية ، وقد جعلوا يوم بدء فيضان النيل بمثابة أول أيام العام الجديد .

وحين مضى على هذا التقويم عدة قرون لاحظ المصريون أن أول أيام العام الجديد أخذ يتأخر عن يوم بدء الفيضان بمدة ، كما لاحظوا أن أشهر « بذر الحبوب » التى كانت تقع فى الشتاء أخذت تقع فى فصل الصيف . وقد نشأ هذا العيب من أن السنة المدنية تنقص عن السنة الشمسية بربع يوم تقريبا ووجد المصريون أن هذا الخطأ صحح من

نفسه بعد مضى ١٤٦٠ سنة شمسية من الحساب بالتقويم ، ففى هذه المدة تجمع الفرق وهو ربع يوم فى كل سنة فأصبح ٣٦٥ يوما أى سنة كاملة بعد ١٤٦٠ سنة . وبهذا عاد التوافق بين السنة المدنية والسنة الشمسية .

ولاحظ المصريون أن سنتهم النيلية التى تبدأ من اليوم الذى يأخذ فيه النيل فى الارتفاع وتنتهى بنفس اليوم من العام التالى ، تتفق بشكل واضح مع الدورة السنوية لنجم ثابت معين يبدو بوضوح بعد اختفاء طويل ، وذلك مع بدء مجىء الفيضان مرة كل عام ، كما لاحظوا أن ظهوره يكون فى الفجر المبكر قبيل شروق الشمس ، ويكون أظهر وألمع نجم فى السماء ، وفى دوران الأرض حول الشمس تأتى لحظة كل سنة يكون فيها هذا النجم فى خط مستقيم مع الأرض والشمس ، وقد أطلق المصريون عليه اسما مؤنثا هو « سبدت » وورد ذكرها فى المتون الدينية القديمة على أنها « الجالبة للنيل » أى التى تحدث فيضانه ، وقدسوا هذا النجم على أنه صورة من صور ايزيس ، وهذا النجم هو الذى نسميه الآن « الشِّعْرَى اليمانية » .

ولقد أثبتت الدراسات الفلكية الحالية أن دورة « الشعرى اليمانية » تعادل تقريبا دورة الشمس فى عام .

هذا ولم يكن للشهور أسماء عند قدماء المصريين فى أول الأمر . وكانت تنسب للفصول التى تقع فيها فيقال مثلا الشهر الثانى من فصل الفيضان أو الشهر الثالث من فصل « بذر الحبوب » وهكذا .

ومنذ الأسرة السادسة والعشرين أى منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد تقريبا ، أطلق المصريون على الشهور أسماء تعبر عن الأعياد التى اعتادوا اقامتها .

والأسماء كما وصلتنا هى :

فصل الفيضان :	١ — تحوت	Thot
	٢ — باؤفى .	Paophi
	٣ — أتحير أو حاتحور	Hathor or Athyr
	٤ — كحوياك	Khoiak
فصل بذر الحبوب :	١ — طيبى	Tybi
	٢ — مخير	Mekhir
	٣ — فمنوث	Phamenoth
	٤ — فرموتى	Pharmuthi
فصل جنى المحصول :	١ — بخونس	Pakhons
	٢ — بينى	Payni
	٣ — ابيفى	Epiphi
	٤ — مسورى	Mesori

النسىء ، وكانت تسمى به الأيام الخمسة المزيدة على السنة أو الشهر الصغير ، وهى خمسة أيام . وكل من الأشهر ثلاثون يوما .

ان المصرى القديم هو أول من وضع تقويما يرصد الحوادث بمقتضاه ، وهو أول من ألف عاما شمسيا من اثنى عشر شهرا كل شهر منها ثلاثون يوما وأضافوا الشهر الصغير (النسىء) وهو خمسة أيام لكل عام ، كما قسم العام الى فصول . .

واحتفل المصريون بيوم « طلوع الشعرى اليمانية » وجعلوا منه عيد أول السنة الى جانب احتفالهم العادى بغرة العام الشعبى (٣٦٥ يوما) ، وأطلقوا على هذا العيد اسم « طلوع سبدت » . ولاحظ المصريون أن عيد « طلوع سبدت » يتأخر عن عيد غرة العام الشعبى بمعدل يوم كل أربعة أعوام ، كما لاحظوا اتحاد العيدين مرة كل ١٤٦٠ سنة . وهى دورة « الشعرى اليمانية » .

وذكر الكاتب الرومانى كنسورينوس Censorinus أن الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية حدث فى أول توت من سنة ١٣٩ بعد الميلاد . وعلى هذا أمكن تحديد حدوث ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فى سنة ١٣٢١ قبل الميلاد وسنة ٢٧٨١ ق . م وسنة ٤٢٤١ ق . م وهكذا عرف المصريون فى عصر الدولة القديمة تقسيم العام الى ٣٦٥ يوما وسجلت النصوص (بردية ايبرس) ظاهرة الشروق الاحتراقى للشعرى اليمانية فى بدء ظهور الأسرة الثانية عشرة ، كما سجلت بردية أخرى (اللاهون) هذه الظاهرة فى عصر الدولة الوسطى . ويؤكد « ادوارد ماير » أن أول الفترة التى تبدأ بعام ٢٧٨١ ق . م كان التوقيت الشمسى معروفا ومستعملا فيها ، فلابد اذن أن يقع بدء استعماله فى أول الفترة السابقة أى سنة ٤٢٤١ ق . م .

* * *

قيمة التقويم للمصريين :

لا يزال هذا التقويم منذ عصور ممعنة فى القدم دليلا نافعا ودقيقا للطقس وللفصول وللزراعة وللنيل فى فيضانه وتحاريقه ، ولا يزال المزارعون يراعونه فى كل ما يخص البذر والحصاد كما كان يفعل المصرى القديم منذ آلاف السنين . ولا زالت تجرى على ألسنتنا الأمثال التى تدل على حالة الطقس فنقول : بابة : ادخل واقفل البوابة ، كياك : صباحك مساك ، طوبة : أبو البرد والرطوبة ، أمشير : أبو الهواء والزعابير ، برمهات : اطلع الغيط وهات .. الخ .

والتقويم الزراعى فى مصر لا يزال يتبع التقويم المصرى القديم ، واليك مثال ذلك :

شهر توت :

يزرع فيه البرسيم والشبث والكرنب شتلا والشعير الشتوى والفول ، وتظهر الذرة الشامى ، وينضج البصل البعلى ، ويتوافر الليمون ، وينضج الزيتون ويكثر السفرجل والتفاح .

شهر بابه :

بدء الزراعة الشتوية : يزرع فيه الأرز والكتان والبصل والثوم (بالوجه القبلى) والقمح والبسلة والآنيسون والكمون والشعير ، ويجنى القطن ، ويظهر البطيخ والشمام النيلى والقرع والقنبيط ، ويحصد الفول السودانى ، كما تكثر فيه الأسماك الصغيرة (البسارية) .

شهر هاتور :

ينتهى فيه جنى القطن ، وينضج الأرز النيلى ، وتقطع الذرة الشامى ، ويظهر فيه البرتقال واليوسفى . ويزرع العدس والقرع والكوسة والطماطم .

شهر كيهك :

يزرع فيه المشمش والبرقوق والخص شتلا، والمقات الصيفى والخبيزة والخضراوات الصيفية ، ويظهر الفول الأخضر ، ويقطع قصب السكر للعصير ، ويكثر القلقاس .

شهر طوبة :

تنقل فيه الأشجار الصغيرة ، وتقلم كروم العنب ، وتزرع الذرة الصيفية والجوز ونوى الخوخ .

شهر أمشير :

يزرع فيه القطن المبكر (بالوجه القبلى) والذرة العويجة وقصب السكر ، وتغرس الأشجار ، ويلقح النخل ، ويحصد الكمون ، ويغرس شجر التين والتفاح والبرقوق والمشمش ، ويظهر الخيار .

شهر برمهات :

يورق فيه شجر التوت ، ويفقس دود القز ، وتنضج البسلة البلدى ، وابتداء زراعة القطن الهندى ، ويقلع فيه الكتان ، وتظهر الملوخية ، ويزرع الكمون والخضراوات .

شهر برمودة :

يحصد فيه الفول والعدس والترمس والقمح فى بعض جهات بالوجه القبلى . ويزرع فيه الفول السودانى ، ويقطف أوائل العسل ، ويجنى الورد لاستخراج مائه ، ويظهر البطيخ الصيفى والتوت ، ويقلع البطاطس الشتوى ، ويزرع فيه الأرز والفلفل شتلا .

شهر بشنس :

يظهر فيه المشمش والبرقوق والتفاح ، ويحصد البصل بالوجه البحرى ، ويزرع فيه السمسم والقلقاس .

شهر بؤونة :

يزرع فيه الأرز والذرة الشامى ، ويقطف عسل النحل ، وتظهر الفاصوليا والقرع والكوسة ، ويظهر العنب والخوخ والكمثرى .

شهر أبيب

يزرع فيه الجرجير والكرفس والسلق والبقدونس والباذنجان الأسود والجوافة والتوت والخرشوف والباميا والملوخية ، ويظهر الرمان .

شهر مسرى :

ينضج فيه البلح ، ويزرع فيه بصل النرجس والثوم والبصل والطماطم واللفت النيلى ، ويكثر فيه العنب والتين ، ويجمع الزيتون الأخضر .

* * *

الدولة الرومانية والتقويم المصرى :

ألغى يوليوس قيصر استخدام التقويم بالسنة القمرية الذى كان شائعا فى الدولة الرومانية وأنشأ تقويما شمسيا استعان فيه بالفلكى المصرى سوسيجينيس Sosigenes الذى قدر سنة التقويم ٣٦٥ يوما وربعا . واستخدم طريقة السنة الكبيسة مرة كل أربعة أعوام . وأمر يوليوس قيصر باستخدام هذا التقويم رسميا فى سنة ٧٠٨ من تأسيس روما وهى سنة ٤٦ ق . م وسمى هذا التقويم باليوليانى نسبة الى يوليوس قيصر . واستمر العمل بهذا التقويم حتى سنة ١٥٨٢ حين لاحظ الفلكيون فى عهد بابا روما جريجوريوس الثالث عشر خطأ فى الحساب الشمسى وأن الفرق بين السنة المعمول بها والحساب الحقيقى ١١ دقيقة و ١٤ ثانية وهذا الفرق اليسير يعادل يوما فى كل ١٢٨ عاما .

وصحح البابا جريجوريوس الخطأ المتراكم فأصبح يوم ٥ أكتوبر من سنة ١٥٨٢ م يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٥٨٢ وهو التقويم المعروف بالجريجورى السائد الآن .

* * *

تطور التقويم المصرى الى القبطى :

حدد المصريون المسيحيون بدء تاريخهم بيوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ ميلادية الذى استشهد فيه الكثير منهم ، وذلك بنفس التقويم الذى استخدم فى مصر قبل ذلك التاريخ ، وتسمى هذه الحلقة من التقويم المصرى بالتقويم القبطى ويطلق عليه تقويم الشهداء . وهو يتبع الحساب اليوليانى ، ولهذا نجد أن الخطأ المتراكم بين الحساب اليوليانى والحساب الجريجورى قد بلغ ١٣ يوما فى التقويم القبطى .

* * *

أغراض التقويم القبطى :

للتقويم القبطى غرضان : غرض يتبع الحساب الشمسى ، وهدفه احصاء الأيام والفصول والأعوام الشمسية الكاملة وتحديدها جميعا بالنسبة لدورة الكرة الأرضية حول الشمس . والغرض الآخر يتبع الحساب القمرى ، وهدفه احصاء الدورات القمرية وتحديد موعد ظهور كل هلال جديد .

وقد زاد اهتمام المصرى بالحساب القمرى بعد دخول المسيحية مصر لأن عيد القيامة وبعض الأعياد الأخرى التى تتصل بعيد القيامة تحدد بالدورة القمرية وتتصل بالدورة الشمسية .

* * *

التقويم القبطى القمرى :

حين خطرت فكرة تسجيل الحوادث للانسان الأول أخذ يؤرخ بظهور القمر وبأوجهه . ولما تقدمت العلوم أخذ يبحث فى الاختلاف بين مدة دورة قمرية وبين أخرى، وكذلك فى متوسط مدة الدورة القمرية ، والمدة الواقعة بين لحظة ظهور هلال جديد والهلال الجديد التالى تسمى شهرا قمريا . وقد يتغير طول الشهر القمرى حتى يصل الفرق الى ٩ ساعات تقريبا . ولكن هناك دورة كاملة لحركة القمر فى الفضاء بالنسبة الينا تبلغ مدتها ١٨٫٦ سنة شمسية ، كما أن هناك متوسطا عاما لطول الشهر القمرى فى الدورة الكاملة وهو ٢٩ يوما و ١٢ ساعة و ٤٤ دقيقة وثلاث ثوان ، ويعتبر هذا المتوسط دقيقا ، ويمكن التنبؤ بمقتضاه عن الأهلة الجديدة وأوجه القمر لمدة ألف سنة شمسية مثلا دون أن يتجاوز الخطأ يوما كاملا .

ومن هذا نشأت فكرة استخدام طول متوسط الشهر القمرى لحساب ظهور القمر الجديد وأوجهه لمئات من السنين ، ويسمى ذلك بحساب الأَبَقْطِى (ومعناه الحرفى : الباقى) لأن هذا الحساب يشتمل على استعمال الباقى بعد عمليات حسابية متعددة .

وقد بنى حساب التقويم القبطى القمرى على قاعدة وضعها الفلكى «ميتون» فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى أن كل ١٩ سنة شمسية تعادل ٢٣٥ شهرا قمريا كاملا بغير كسور .

واستخدم الأقباط هذه القاعدة منذ القرن الثالث الميلادى ، وقد وضع قواعدها المعمول بها الى الآن البطريرك الاسكندرى الانبا ديمتريوس الكرام وهو البطريرك الثانى عشر وساعده فى وضعها الفلكى المصرى بطلميوس . وبهذا يحدد عيد القيامة (الذى يليه شم النسيم) ، بأنه الأحد التالى للقمر الكامل الذى يلى الاعتدال الربيعى مباشرة .

وقد أخذ الغربيون حساب الابقطى وطبقوه على التقويم الرومانى اليوليانى ، فاتفقت الأعياد المسيحية عند جميع المسيحيين كما كان يحددها التقويم القبطى حتى سنة ١٥٨٢ حين ضبط الغربيون تقويمهم بالتعديل الجريجورى .

الشهور القبطية :

والشهور القبطية كما تعرف الآن هى :

توت (سبتمبر — أكتوبر) .
بابة (أكتوبر — نوفمبر) .
هاتور (نوفمبر — ديسمبر) .
كيهك (ديسمبر — يناير) .
طوبة (يناير — فبراير) .
أمشير (فبراير — مارس) .
برمهات (مارس — أبريل) .
برمودة (أبريل — مايو) .
بشنس (مايو — يونية) .

بؤونة (يونية — يولية) .
أبيب (يولية — أغسطس) .
مسرى (أغسطس — سبتمبر) .
النسىء (سبتمبر) .

التقويم الأثيوبى :

ومما هو جدير بالذكر أن التقويم الأثيوبى هو نفس التقويم القبطى . فقد أخذ الأثيوبيون تقويمهم عن الأقباط ، وتبدأ سنتهم ببدء السنة القبطية ، وتتوافق شهورهم مع الشهور القبطية .

ويسمى الأثيوبيون حساب سنتهم بعام الرحمة ، وهو التاريخ الذى كان سائدا فى مصر فى القرن الحادى عشر ، ويسمى بالسنة الميلادية الشرقية أو السنة الميلادية القبطية ، وهى تنقص ثمانى سنوات تقريبا عن التقويم الميلادى الغربى .

(هـ) الرهبنة

١ - قيامها فى مصر

المصرى بطبيعته يميل الى التدين ، وتصبو صفوة المتدينين منهم الى حياة روحية أعمق ، وأصفى سريرة ، وأكثر صلة بالله . حياة تتوق الى الكمال والبر . ومن يصل به الحنين الروحى منهم الى درجة الهيام بالله ، يسعى الى التخلص من المشاغل العالمية والاهتمامات المادية ليتفرغ للخلوة والتأمل .

استمال سحر صحراء مصر محبى الفضيلة والكمال اليها : فسماؤها الصافية المليئة بالنجوم تنطق بما وراءها من قوة مبدعة مترفقة ، وفضاؤها الشاسع يهيىء فرص الحرية الطليقة ، وسكونها الشامل يساعد الانسان على تركيز أفكاره ومشاعره ووجدانه فى الله وأن يخلو اليه ويخشع أمامه .

وهكذا اندفع المصريون المسيحيون الى البرية لمغالبة الشر وللخلوة بالله . وكانوا يهدفون من ذلك الى أن تسمو أرواحهم وتترهف نفوسهم فيستطيعوا التحكم فى الجسد وأهوائه ، والتحرر من مغريات العالم التى قد تستهوى الانسان بعيدا عن خالقه وتطمس القبس الالهى الكائن داخله .

ورغم ظهور بعض الحركات التصوفية قبل المسيحية كجماعات فقراء الهنود والاسينيين اليهود ، الا أن الرهبنة المصرية كانت اتجاها مسيحيا أصيلا غير متأثر بتلك الحركات النسكية السابقة عليها لاختلافها عنها فى الهدف والفلسفة والأسلوب . كما أن الرهبان الأول الذين أسسوا هذا الطريق لم تكن ظروفهم البيئية أو العلمية مما يمكنهم من الاطلاع أو السماع عن هذه الحركات حتى يقلدوها . بل خرجوا الى الصحارى بدافع من الروحانية والزهد كما توحى بهما الديانة المسيحية . ويظهر ذلك بوضوح من حياة القديس أنطونيوس .

ومع انتشار المسيحية فى مصر بدأت مظاهر النسك تنتشر رويدا رويدا . فقد سمع عن شخص يدعى فرونتونيوس (١٣٨ — ١٦١ م) رحل الى برية نيتريا (وادى النطرون) وفى صحبته سبعون مسيحيا ليعيشوا حياة الرهبنة والزهد .

وأغلب الظن أن الأمثلة المجهولة لهؤلاء النساك الأول أكثر من المعروفة . فأصول الرهبنة فى مصر بعيدة الغور وتاريخها أقدم من تاريخ القديس أنطونيوس . ولم تكن فى بدايتها قد أخذت بعد صبغة عامة منظمة . وانما أخذت وضعها الثابت المعروف وصبغتها العالمية الواسعة النطاق ابتداء من الأنبا أنطونيوس .

أطوار الرهبنة

مرت الرهبنة المصرية فى أطوار مختلفة :

١ ــ التوحد :

اذ كانت الرهبنة الأنطونية فى عهدها الأول تنطوى على العزلة الفردية التامة المقرونة بالتقشف الشديد . ولما كثر أتباع أنطونيوس أخذ نظام العزلة يتطور تطورا بطيئا الى نوع متوسط من الرهبنة الاجتماعية .

والقديس انطونيوس (٢٥٠ ــ ٣٥٦ م)

هو القديس العظيم الذى يلقبونه « أب جميع الرهبان » . ولد من أسرة غنية فى الصعيد . ولما توفى والده تاركا له ثروة كبيرة تأثر بما جاء فى الانجيل « اذا أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل ما لك وأعطه للفقراء وتعال فاتبعنى » . فنفذ الآية حرفيا ووزع ثروته وتوحد فى الصحراء وسكن أولا فى مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالى عشرين سنة لا يرى وجه انسان وهو فى نسك وصوم وصلاة وتأمل . ولما اشتهر أمره واجتمع حوله كثيرون يطلبون منه أن يرشدهم الى المعيشة مثله ، خرج اليهم وأرشدهم الى حياة الوحدة . وكان تلاميذه لا يعيشون فى أديرة بل فى مغارات منفردة فى الجبل . وقد تتلمذ عليه القديس ايلارى مؤسس الرهبنة فى فلسطين ، والقديسان آمون ومقاريوس مؤسسا الرهبنة فى وادى النطرون ، والقديس ببنوده أب أديرة الفيوم . كما تتلمذ عليه البطريرك اثناسيوس وكثير من مؤسسى الرهبنة .

ومنحه الله مواهب كثيرة منها شفاء المرضى . وسمع به الفلاسفة فأتوا اليه يحاورونه ليروا مدى علمه فأذهلتهم حكمته على الرغم من أنه كان فى عرف الكبرياء الرومانية أميا لعدم دراسته اليونانية واللاتينية .

ولما حل بالكنيسة اضطهاد مكسيميانوس نزل أنطونيوس الى الاسكندرية يخدم المستشهدين ويقويهم مشتهيا هو نفسه أن يستشهد . كما نزل ابان هرطقة أريوس يحذر الناس منها ، وكان لظهور هذا الشيخ

الناسك المتوحد أثره الكبير فى تأييد البطريرك أثناسيوس .

وقد أرسل اليه الامبراطور قسطنطين وأولاده رسائل يطلبون فيها بركته فلم يرد عليهم الا بعد الحاح رهبانه الذين قال لهم « لا تتعجبوا ان كتب الينا امبراطور فهو انسان ، ولكن الأعجب من ذلك أن الله كتب الشريعة للانسان » .

٢ ـ الرهبنة الاجتماعية

أخذ الرهبان المتوحدون فى تركيز صفوفهم حول الشخصيات الكبرى من الآباء الروحيين ليتتلمذوا على أب روحى اشتهر بالقداسة والعلم . مع احتفاظ كل منهم بحياة التوحد فى مغارته أو قلايته المنعزلة عن جاره ، ولكن قلاليهم كانت قريبة بعض القرب من بعضها وتقوم حول قلاية الأب الروحى . لذلك يسمى هذا النظام أيضا بنظام القلالى . وهو مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والرهبنة الديرية . وقاد هذا النظام القديس مقاريوس الكبير ، وكان مركزه برية شهيت . أى وادى النطرون بالصحراء الغربية .

والقديس مقاريوس ، هو مؤسس الرهبنة فى وادى النطرون فى صحراء مصر الغربية . ولد سنة ٣٠٠ م من أبوين مصريين فى احدى قرى مديرية المنوفية . وكان أبوه كاهنا . وقد رسم هو أيضا قسا ولكنه لم يشأ أن يتقلد هذه الرتبة لحبه فى حياة الوحدة . فبعد وفاة والديه وزع أمواله على الفقراء وذهب الى وادى النطرون سنة ٣٣٠ م حيث توحد هناك . ثم زار الأنبا أنطونيوس فى الجبل الشرقى فألبسه الزى الرهبانى وزوّده بنصائحه ورجع الى وادى النطرون حيث تفرغ للعبادة والتأمل . ولم يكن هناك غيره فى كل تلك البرية . وقد عاش الأب مقاريوس ستين سنة فى الرهبنة وتجمع حوله تلاميذ كثيرون فبنى لهم كنيستين فى الموضع الحالى لديرى البرموس وأنبا مقاريوس بوادى النطرون . ومن أشهر تلاميذه أرسانيوس والأميران مكسيموس ودوماديوس .

والمدرسة الرهبانية التى تزعمها مقاريوس هى نظام متوسط بين الوحدة المطلقة التى تظهر فى رهبنة أنطونيوس ، والحياة المشتركة التى تمثلها رهبنة باخوميوس . فكان الرهبان يعيشون فى قلالى منفردة متباعدة ولكنهم يجتمعون مرة فى كل سبت ليشتركوا معا فى الصلاة وتناول الأسرار المقدسة . ولم تكن لهم أسوار ولا حصون . ولكن هذا النظام تدرج فيما بعد حتى شابه النظام الباخومى . أما من ثبت من اتباع هذا النظام على حب الوحدة فانهم انفصلوا منفردين فى مغارات حفروها فى الجبال . وفى سنة ٣٩٠ توفى الأب مقاريوس بعد أن عمر وادى النطرون بآلاف الرهبان . وانقسمت هذه البرية الى أقسام مشهورة هى نتريا والأسقيط والقلالى ، وأصبحت البرية كلها معمورة معروفة .

٣ ــ الرهبنة الديرية (حياة الشركة)

ووضع القديس باخوميوس (٢٩٠ — ٣٤٨ م) مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان فى دير واحد هو عبارة عن كنيسة أو كنائس الدير تحيط بها قلالى الرهبان داخل سور واحد .

وتقوم الرهبنة على ثلاث دعائم : الفقر الاختيارى — العفة والتبتل — الطاعة للمرشد الروحى . وهى مقومات انكار الشهوات الدنيوية والماديات والتفرغ للحياة الروحية .

وكان يشترط على من يريد الانضمام الى الدير أن يقضى ثلاث سنوات تحت الاختبار . وكان الطعام يقدم للرهبان فى قاعة المائدة مرتين فى كل يوم (فى الظهر وفى المساء) وكانوا يستمعون أثناء الأكل لأحد الاخوة يقرأ فصلا من الكتب المقدسة . وكانت الأعمال اليدوية فى المؤسسات الباخومية اجبارية لفوائدها الروحية التى تشغل الراهب عن الشرود فى أفكار لا توافقه . كما أنها وسيلة لكسب القوت الضرورى لكى لا يكون الراهب عالة على المجتمع . وكان كل راهب يعمل فى المهنة التى يتقنها بجانب من تخصصوا فى كتابة الكتب ونسخ المخطوطات .

وكان النظام الباخومى يهتم بالعلم ، ولهذا نظم باخوم للرهبان ثلاثة دروس يومية عند الساعات الأولى والثالثة والسادسة [١] من النهار للمبتدئين . ودروسا أخرى عامة يعقدها رؤساء الأديرة يومى الأربعاء والجمعة فى تفسير الكتب المقدسة . وكان حضورها اجباريا .

وكانت الأديرة الباخومية مثلا أعلى فى النظام والحياة الراضية والسلام فى وسط عالم منهار ملأه الفزع والفوضى ، وشمله القنوط والدمار . لذلك كان من الطبيعى أن يهرع اليها الناس بالمئات والآلاف فى عصر سادته الروح الدينية .

والانبا باخوميوس ، ولد حوالى سنة ٢٩٠ م فى احدى قرى الصعيد من أبوين وثنيين . والتحق فى شبابه بجيش قسطنطين فى حربه لمكسيميانوس . وحدث أن عسكرت فرقته فى ضواحى اسنا فخرج أهالى البلدة من المسيحيين يحملون اليهم الطعام والشراب. فذهب باخوميوس وتساءل عما حدا بهؤلاء الناس الى ابداء هذا العطف فقيل له انهم مسيحيون ينفذون تعاليم دينهم . فقال فى نفسه « ان كانت هذه هى المسيحية فاننى — ان عدت سالما — سأصير مسيحيا » . ولما انتصر قسطنطين وسرّح الجيش عكف باخوميوس على دراسة المسيحية واعتنقها .

ثم تتلمذ على راهب شيخ يدعى بلامون ، وازداد فى النسك والمعرفة حتى صار أبا

---

(١) حسب التوقيت الشرقى (أى الساعات السادسة والتاسعة صباحا والثانية عشرة ظهرا بتوقيتنا الحالى) .

لكثيرين وأسس ديره الأول فى طيبةواستخدم فى تدبيره ما اعتاده من نظام العسكرية ومن طاعة ونسك فى الرهبنة . وكثر عدد المنضمين اليه حتى لم يسعهم الدير ، فأنشأ أديرة أخرى وصل عددها الى تسعة ، كما أنشأ ديرا للراهبات تحت رئاسة أخته . وقد ذكر « بلاديوس » أن رهبان باخوميوس بلغوا ثلاثة آلاف فى حياته وأنهم بلغوا سنة ٤٢٠ م سبعة آلاف ، وقدرهم « كاسيان » بخمسة آلاف راهب ، وكانت أديرته تضم غير الأقباط رهبانا من اليونان والرومان والأحباش والسريان . وكان كل هذا العدد الضخم تحت ادارة حكيمة حازمة . وضع لهم باخوميوس قوانين فى العبادة والعمل اليدوى والملبس والمسكن والمأكل وما يلزمهم فى معيشتهم الديرية . واشترط فى طالب الرهبنة ان لم يكن يعرف القراءة والكتابة أن يتعلمهما قبل رهبنته ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، ووضع للرهبان نظاما فى الدراسة . وهكذا لم تساعد أديرته على محو الأمية فحسب ، بل كانت معاهد للتثقيف . وقد انتشرت قوانين باخوميوس فى أرجاء العالم . ويعتبر هذا القديس مؤسس الحياة الديرية فى الرهبنة المسيحية كما يعتبر أنطونيوس مؤسس نظام التوحد فيها .

٤ ـ نظام الأنبا شنوده : (٣٣٣ — ٤٥١ م) بالديرين الأبيض والأحمر بالقرب من سوهاج وأخميم . أدخل الأنبا شنودة تعديلات على نظام الشركة الباخومى تصطبغ بالشدة والنظام .

نشأ الأنبا شنودة فى الصعيد من أسرة غنية . وكان فى صغره يخرج مع رعاة غنم أبيه فيعطيهم طعامه ويقضى اليوم كله صائما ، كما كان ينفرد أثناء رجوعه عن الرعاة ويقف للصلاة . ولما تنبه والده الى ذلك دفع به الى خاله «بيجول» الذى كان رئيسا للدير الأبيض من سنة ٣٥٠ م فرسمه راهبا . وظل شنودة الصبى يرتفع فى درجات العبادة ، ويكثر من الدراسة والتأمل ، ويتدرب على الوحدة والطاعة والتواضع حتى أحبه الرهبان جميعا . وبعد وفاة خاله انتخبوه رئيسا للدير سنة ٣٨٣ م ودامت رئاسته للدير ٦٦ عاما حتى توفى سنة ٤٥١ م ، وقد قارب المائة والعشرين من العمر .

وقد كثر عدد رهبانه حتى صاروا حوالى خمسة آلاف ، وكان أيضا أبا لألف وثمانمائة راهبة . وقد كتب لهؤلاء الراهبات عددا وفيرا من الرسائل تتبين منها تفكيره السليم وتعمقه فى الروحيات . واهتم بتثقيف رهبانه حتى صاروا من أكثر الرهبان معرفة . ووضع لهم قوانين وأنظمة أكثر شدة من قوانين القديس باخوميوس .

ولكنه كان فى زعامته الشعبية يختلف عن باخوميوس فى أمرين : فبينما ضمت أديرة باخوميوس أجناسا كثيرة اقتصر هو فى

أديرته على الأقباط . وبذلك أصبحت أديرته معاقل مصرية صميمة . وبينما كانت كنائس باخوميوس خاصة بالرهبان فقط ، فتح هو كنيسة الدير الأبيض للشعب يأتون اليه فى الآحاد والأعياد فيعظهم ويرشدهم . وكان الأنبا شنودة محبا لشعبه يقاسمهم أتعابهم كفلاحين يرزحون تحت نير مضطهديهم من الرومان ، فهاجم ظلم كبار الحكام والملاك ودعا للرفق بالفقراء .

وقد كان نشاطه محصورا فى محاربة الوثنية واقتلاع جذور خرافاتها من الكنيسة مثل السحر والتعاويذ والدجل الطبى وبدع الموالد . كما سافر مع القديس كيرلس الى افسوس واشترك معه فى محاربة هرطقة نسطور .

ويعتبر الأنبا شنودة أعظم كتاب الأدب القبطى . فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه . وكانت كتاباته عملية صالحة للاستعمال المباشر . وكان كثير الانتاج مالكا لناصية اللغة . وقد خلّف لنا فى جهاده الدينى والقومى الطويل تراثا أدبيا ضخما باللهجة الصعيدية التى لم يكن يكتب أو يخطب الا بها .

وما أن وصلت الرهبنة الى هذه الأطوار والأنواع المتعددة حتى كانت الصحارى المصرية وبقاع كثيرة من الوجه القبلى على الأخص ، قد امتلأت بالأديرة وقلالى النساك . وامتلأت بالرهبان والمتوحدين حتى أنه قيل ان المسافر من الاسكندرية الى أسوان فى القرن الخامس والسادس لم يكن فى حاجة الى أن يحمل زادا للطريق ، اذ يستطيع أن يتزود باحتياجات الرحلة من الأديرة والقلالى المنتشرة بكثرة على أطراف وادى النيل وصحراواته الشرقية والغربية .

ومن أهم المناطق التى تركزت فيها جماعات الرهبان :

١ — منطقة بسبير فى الصعيد الأوسط .

٢ — منطقة جبل نتريا أو وادى النطرون بالصحراء الغربية وكانت تنقسم الى ثلاثة مراكز رهبانية :

(أ) نتريا .

(ب) الاسقيط .

(جـ) القلالى .

٣ — منطقة مريوط على الساحل الشمالى غرب الاسكندرية .

٤ — منطقة البهنسا وهى بالقرب من بنى سويف الحالية وكانت تعرف فى العصر الرومانى باسم أوكسيرنخوس .

٥ — منطقة انتينوى بالقرب من ملوى .

٦ — منطقة ليكوس بالقرب من أسيوط .

٧ — منطقة سوهاج وأخميم (بانوبوليس) حيث أديرة الأنبا شنودة .

٨ — منطقة طيبة وهى منطقة واسعة فى مديرية قنا حيث انتشرت أديرة باخوميوس .

ولم يبق من هذا العدد الضخم من الأديرة ، فى وقتنا الحاضر سوى ثمانية أديرة

قبطية مأهولة بالرهبان ، والباقى منها أطلال متروكة يؤمها الشعب فى الأعيـــاد لاقامة القداسات ، منهــا أربعة فى وادى النطرون وهى : أديرة البراموس — السريان — الأنبا بيشوى — وأبو مقار ، وفى جنوب صحراء الفيوم : دير الأنبا صموئيل (القلمونى) ، وفى جنــوبه بالقــرب من ديروط : الدير المحرّق ، أما فى الصحراء الشرقية فيوجد دير الأنبــا أنطونيوس ودير الأنبــا بولا . ولليــونان الأرثوذكس ديــر سانت كترين بالقرب من الطور فى شبه جزيرة سيناء .

وبمدينة القاهرة توجـــد خمسة أديرة للراهبات فى مصر القديمة ، وحارة زويلة ، وحارة الروم .

آثار الرهبنة :

١ ــ التربوية

عندما أدت الاضطهادات والاضطرابات المتوالية الى ضعف مدرســـة الاسكندرية اللاهوتية فى نهاية القـــرن السادس انتقلت القــوى التربوية فى القطـــر المصرى من الاسكندرية الى الصحراء . فصارت الأديرة مركزا تربويا عظيما لعلوم الكنيسة .

وقد اعتبرت الأديرة مخازن كنوز العلوم والمعرفة سواء منها الدينية أو المدنية . وهى التى قادت الحركة التربوية فى مصر خـلال القرون الوســطى . فبجانب البحـــوث والدراسات التى تركزت داخل الأديرة ، فقد عهد أيضا الى عدد من الرهبان فى انشــاء مدارس أولية (كتاتيب) فى قرى وادى النيل لتعليم أبناء الأقباط .

ان الجو الشاعرى الذى يحيط بالأديرة ، والهدوء الشامل الذى يعيش فيه الرهبان هيأا لهم فرص التأليف والكتابة وبخاصـــة فى العلوم اللاهوتية ، وتفسير الكتب المقدســة الى جانب الخبرات النسكية والروحية التى تعتبر من أعمق الدراسات النفسية .

وكان بكل دير مدرسة لنسخ المخطوطات بجانب جماعات النساخ التى عملت عـــلى نشر التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن الطباعة قد عرفت فيه .

ويجمل « هرناك » آثار الرهبنة العلمية فى عبارة واحــدة قائلا « ان الفن والشعر والعلوم قد وجدت فى الرهبنــة ، فمبادىء حضارتنا تعتبر فصلا من تاريخ الرهبنة » .

٢ ــ الاجتماعية :

كان للرهبنة آثار اجتماعية عميقة الغور فى نفوس الناس . تأثر بها المجتمع القبطى ، فسادته موجة من الزهد والتقشف وأخــذ يقتدى بالرهبان وينقل عنهم كثيرا من عاداتهم وأصوامهم . ولما اشتهرت فضــائل الرهبان وذاع صيتها ، اختار الشعب قادته الروحيين من الرهبان ، وكانوا فى العصـــور الأولى يحمـــلونهم قسرا الى المدن لتولى مناصب الأسقفية والبطريركية . ومن ذلك الحين كثرت الانطباعات الرهبانية فى حياة المجتمع القبطى .

ان النماذج الحية للفضيلة والتقــوى

وانكار الذات التى تألقت فى حيـاة أولئك الرهبان المصريين كانت أعظم دليل على أن الفضيلة ، ووصايا الدين ، أمور واقعية يمكن الوصول اليها ، وليست مجرد مثل عليا ، أو مبادىء نظرية يتخيلها الدين ، الأمــر الذى ينصر قوى الخير فى المجتمع على قوى الشر ، فلا يبتلع اليأس الكثيرين فى موجات الانحلال والمادية والالحاد . بل تشجع تلك النماذج الحية على استمرار الجهاد فى سبيل الفضيلة تشبها بهؤلاء العبّاد . ولعل هــذا مما حفظ للمجتمع المصرى طابعه الدينى على مر العصور .

ثمة ظاهرة اجتمــاعية أخرى . فالمرضى والرازحون تحت آلام الحيـاة وأعبـائها يلتمســون التعزية والمشاركة والطمأنينة من أناس عمرت قلوبهم بالايمان ، وغمر السلام نفوسهم . لذلك كان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهـم تخفيف آلامه بصـلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم وبقدوتهم التى كان لها أكبر الأثر فى تجديد الرجاء لمن يقصدونهم. كما كانت الأديرة أشبه بميناء السـلام فى أوقات الأوبئة والحروب والمجاعات ، اذ يجد اللاجئون اليها الأمن والدواء والطعام .

وعن ذلك قال « هرناك » المــؤرخ الألمانى :

« ان النساك المصريين كانوا يعتبرون فى جميع العصور — حتى فى نظر الغرب — آباء ، ونماذج الحياة المسيحية الحقيقية » .

٣ ــ انتشارها فى أنحاء العالم المسيحى

نشأت الرهبنة فى مصر ففاح عبير الآباء المصريين فى أرجاء العالم ، حتى شمله عبيرهم، واجتذب الى مصر جميع الذين طرق قلوبهم صوت الله ، فجاءوا الى هذا الوادى ليرتووا من نبع تعاليمهم الصافية وليقتدوا بسيرتهم العطرة .

فوفدت الى الصحارى المصرية جماعات من الفلسطينيين والسريان والحبش واليونان والأرمن واللاتين ، وسكان شـمال افريقية وغيرهم . وكان لكل أسرة معلم من جنسها يقوى على التفاهم مع أبناء جنسه وارشادهم. وهذا النظام هو الذى ورثته الجامعات فى العصور الوسطى حيث انتشر فى رحباتها نظام الأمم ، وأيضا نظام الأروقة فى الجامعــة الأزهرية .

وتعتبر تعاليم الآباء المصريين من أكبر المفاخر التى جادت بها القرائح المصرية على العالم المتمدين .

أ ــ فى الشرق :

فمن فلسطين جاء القديس « ايلارى » الكبير (هيلاريون) فدرس الفلســفة فى مدرسة الاســكندرية ثم تتلمذ للقديس أنطونيوس . فلما رجع الى فلسطين أسس الأديرة عـلى النمط المصرى مستعينا ببعض الرهبان المصريين . وقد ابتدأ فى برارى غزة ومنها انتشرت الرهبنة الى المنطقــة المحيطة بالأردن .

وفى أواخر القرن الرابع جاء «بلاديوس» وزار مصر للمرة الأولى من سنة ٣٨٨ الى سنة ٣٩٩ حيث عاش مع رهبان برية شهيت لدراسة الحياة النسكية ثم عاد الى بيت لحم ثم الى أورشليم ورسم أسقفا لهلينوبوليس سنة ٤٠٠ م .

ولما رجع من زيارته الثانية لمصر ، كتب حوالى سنة ٤٢٠ م تاريخا عما رآه وسمعه من رهبان الأسقيط اشتهر باسم « بستان الرهبان » وكان هذا الكتاب سببا لانتشار الرهبنة فى جهات كثيرة من العالم .

ومن الذين أسسوا أديرة الموصل وطور عبدين ونصيبين رهبان مصريون يبلغ عددهم حوالى السبعين ذهبوا من مصر مع راهب سريانى اسمه مار آيون (القديس أوجين) كان قد عاش فى الأديرة القبطية بالصعيد .

وانتشرت المسيحية فى بقاع كثيرة من الشرق على أيدى المبشرين المصريين ، غذتها مصر بمعلمين من مدرسة الاسكندرية اللاهوتية ثم والت الكنيسة القبطية العناية بها على أيدى الرهبان المصريين ، فكانوا هم الذين تولوا تنظيم الكنائس والأديرة وتوسعوا فى نشر المسيحية .

فقد نشروا المسيحية فى ليبيا والخمس مدن الغربية (بنتابوليس) . ويذكر يوسابيوس المؤرخ اسم باسيليوس أحد أساقفتها فى أيام ديونيسيوس الاسكندرى . ويستنتج « هرناك » من ذلك ومن وجود عدد من الابرشيات فيها أن الكنيسة هناك كانت فى حالة منظمة فى منتصف القرن الثالث .

ويذكر أوسابيوس القيصرى تبشير بنتينوس فى الهند . ويظهر أن العلاقة بين الكنيسة المصرية والهند قد استمرت طويلا ، اذ يذكر كتاب تاريخ البطاركة مجىء كاهن هندى الى مصر فى أيام البطريرك سمعان الأول فى أواخر القرن السابع يطلب منه سيامة أسقف للهند .

أما عن بلاد العرب فان هرناك يستند الى أوسابيوس فى تأكيد زيارة أوريجانس للبلاد العربية وقيادته لمجمع فى بُصرى .

أما عن الحبشة ، فقد دخلت اليها المسيحية على يد فرومنتيوس فى منتصف القرن الرابع الميلادى . وهو مصرى كان يتاجر فى صور ويجوب البحار شمالا وجنوبا . والاسم فرومنتيوس لفظ قبطى معناه رجل الله (افرومى — انت — تيوس) .

وقد اعتنق المسيحية أولا ملك الحبشة وتبعه فى ذلك رجال البلاط . ثم أخذت المسيحية تنتشر بين أفراد الشعب . وكان دخول المسيحية الحبشة على هذه الصورة مخالفا لما عهدناه فى البلاد الأخرى حيث كانت تجد طريقها الى الشعب أولا ثم يعتنقها رجال البلاط فالملك .

ولما عاد فرومنتيوس الى مصر ، طلب من الأنبا اثناسيوس بطريرك الاسكندرية أن

يرسل أسقفا لرعاية المسيحيين فى أثيوبيا ، وبعد أن تشاور اثناسيوس مع مجمع الأساقفة الأقباط قرروا سيامة فرومنتيوس نفســـه وأرسلوه الى اكسوم عاصمة الحبشة فى ذلك الوقت .

وربما كان لقرارات مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ التى رفضها القائلون بالطبيعة الواحدة أثر فى هجرة كثير من الرهبان الى مصر حيث وجدوا فى أديرتها المزدهرة ملجأ لهم ، ومنهم من أخذ فى الانتقال الى النوبة ومنها الى الحبشة ، تدفعهم غيرتهم عـــلى نشر الدين المســيحى بحسب مذهبهم ، بين أقوام لم يتطرق الجدل الدينى اليهم ، وقد حدا بهم خوفهم من المذهب النسطورى الذى لم يكن له أتباع فى مصر أو الحبشة ، الى ترجمــة بعض الكتب فى معارضة النسطورية مثــل كتاب كيرلس استعدادا للطوارىء .

وكان بين الرهبـــان الذين وفدوا الى الحبشة واستقروا فى أماكن متعـــددة من مقاطعة التيجرى تسعة عرفوا « بالقديســين التسعة » هم رسل نشر المسيحية فى الحبشة الذين أسسوا الأديرة وثبتوا العقيدة .

وقد أخذت الأديرة فى الحبشة تزدهر فى القرنين السادس والسابع ، وأخــذ الرهبان يتفرغون الى دراسة الرهبنة وتفهمها معتمدين فى ذلك على ما يترجمونه من الكتب القبطية أو اليونانية الشائعة عند الرهبان الأقباط فى مصر .

ومنــذ القرن الرابع والكنيسة المصرية ترســـل مطرانا قبطيـــا كرئيس للكنيسة الأثيوبية ، وكان له فيها مكانة ممتازة .

فى الســـودان :

ذكر المؤرخ يوحنـــا الأفسسى انه فى القــرن الســـادس كان البطريرك القبطى تيودوسيوس منفيا فى القسطنطينية . وفى هذه الأثناء أرسل يوليانوس الى النوبة لتبشيرها بالمسيحية وذلك بمساعـــدة الامـــبراطورة تيودورة التى كانت تؤمن بمذهب الكنيسة المصرية عــلى عكس زوجهـــا الامبراطـــور يوستنيانوس الذى كان شديد الاضطهاد لهذا المذهب . فوصل يوليانوس الى النوبة حوالى ٥٤٣ م وبشرها بالمسيحية فرحب به الملك والعظماء فعمدهم وعلمهم الكثير عن المسيحية وحذرهم من أخطاء مذهب حزب الامبراطور ، فلما وصلت بعثة الامبراطور بعد ذلك لم يقبل ملك النوبة رسالتها ورفض بقاءها فى النوبة ، فعادت فاشلة .

وتوالت بعد ذلك البعثات التبشـــيرية قادمة من الكنيسة القبطية . وكان أشـــهر المبشرين الأقبــاط لونجينوس الذى خاطر بحياته ، وسار فى رحلة طويلة مع الجبـــال المحاذية للبحر الأحمر حتى وصل الى مملكة علوة (عند ملتقى أنهار العطبرة والنيـــل الأزرق والنيل الأبيض وعاصمتها سوبا قرب الخرطوم الحالية) فبشرها بالمسيحية فآمنت بمذهب الكنيسة القبطية ، وقد حـــاول

الامبراطور أن يجرهم الى مذهبه بالقوة فلم يتبعوه .

وقد ظلت الكنيسة المصرية ترسل أساقفة وكهنة الى النوبة وعلوة وكذلك الى مملكة أخرى تتوسطهما اسمها ماكرة اتحدت فى القرن السابع مع النوبة وصارت مملكة واحدة عاصمتها دنقلة القديمة .

واستمرت المسيحية فى النوبة تابعة لكنيسة مصر حتى نهاية حكم المماليك .

ب ـ فى الغرب :

واتسع أثر الآباء المصريين بفضل الكتاب الذى وضعه اثناسيوس الرسولى بطريرك الاسكندرية فى القرن الرابع عن سيرة الأنبا أنطونيوس . وكانت نسخة من هذه السيرة سببا فى تجديد حياة القديس أوغسطينوس (أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس) أسقف مدينة هبو بشمال أفريقيا ، وهو يعد من أكبر فلاسفة الكنيسة الغربية . ومن ناحية أخرى حمل اثناسيوس التعاليم الباخومية الى أوروبا الغربية فى رحلتين .

وجاء القديس باسيليوس الكبير (القرن الرابع) — وهو يونانى — الى مصر وعاش عدة سنين فى أديرة باخوميوس بالصعيد ونقل نظامها واسترشد بقوانينها فى الأديرة التى أسسها بجبل آثوس فى بلاد اليونان .

وفى سنة ٤٠٤ م قام القديس جيروم (هيرونيموس الايطالى) بترجمة قوانين باخوميوس الى اللاتينية فبادر الرهبان الايطاليون الى اتخاذها دستورا لهم .

وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب كاسيانوس (الراهب الفرنسى) تراجم الآباء المصريين وتعاليمهم والقوانين التى وضعوها وحاول جهده أن يطبق هذه القوانين الرهبانية المصرية على الديرين اللذين أنشأهما فى جنوب فرنسا (بالقرب من مرسيليا) . ثم ان نظام الديرية البندكتية (نسبة الى القديس بندكت = المبارك) مقتبس من نظام وقوانين باخوميوس وعن طريق البندكتية انتشرت النظم الباخومية فى أوروبا انتشارا واسعا .

كما أثرت تعاليم باخوميوس فى حركة الاصلاح الكلونى ، تلك الحركة الكبرى التى كان لها أثرها الدائم فى توجيه المدنية فى العصور الوسطى . كما تلتها الجماعات الرهبانية Templers=Templiers فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . وتبعتها فى عهد لاحق جماعات الفرنسيسكان (نسبة للقديس فرانسيس الأسيسى) والدومينكان . فليس من العبث القول بأن تلك السلسلة من أولها لآخرها يمكن اقتفاء أصولها ومنابعها فى وحى باخوميوس المصرى . وبالتالى فان النهضة الأدبية الفكرية الأولى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، تلك النهضة التى تقترن بقيام العلوم الانسانية ونشأة الجامعات فى العصور الوسطى انما هى أثر من آثار تلك الهيئات الديرية التى يرجع تكوينها فى الأصل الى عبقرية باخوميوس .

وقد وصل الرهبان والمبشرون الأقباط الى سواحل فرنسا الجنوبية ، والى بلجيكا حيث يصف « هرناك » كيف عمل الأنبا اثناسيوس وهو فى منفاه فى بلجيكا على نشر المسيحية وتأسيس كنيسة ناهضة هناك . وفى سويسرا فى مدينة زيورخ اشتهر شهداء أقباط ضمن الذين بشروا المدينة كما اشتهر فى سويسرا القديس موريقى (مورتس) وأخته وارينا ، وهى التى وجهت اهتمام السويسريات الى العناية بنظافتهن ، وما زالت تصور هناك حاملة مشطا .

وفى ألمانيا استشهد سنة ٢٦٨ م حوالى ثلاثة آلاف من أبناء مصر العليا من فرقة طيبة ، ولا تزال قبورهم معروفة فى مدينة « ترير » Trier

وفى جزيرة قبرص أسس الرهبان الأقباط على الجبال الشمالية بالقرب من قرية بلاتان ديرا أطلقوا عليه اسم دير القديس مقاريوس وكان للأقباط هناك أسقف يمتد اختصاصه على قبرص ورودس ، كما ذكر « برمستر » فى بحث نشره بمجلة جمعية الآثار القبطية .

وذكر بتلر فى مقدمة كتابه « عن الكنائس القبطية القديمة » ان المبشرين الأقباط وصلوا الى الجزر البريطانية وأنه يوجد الى يومنا هذا ببلدة أوليدة ديزرت بايرلندة قبور سبعة من الرهبان المصريين لا تزال تذكر أسماؤهم فى الصلاة بكنيسة تلك الجهة .

فهـــــرس

أسماء الأباطرة وحكام مصر وبطاركة الإسكندرية

من عصر ديوقلديانوس الى دخول العرب

الأباطـرة	الحـكام	بطاركة الاسكندرية
الأباطرة الرومان :		
ديوقلديانوس (دقلديانوس) ٢٨٤ – ٣٠٥	ماركوس اوريليوس بعد أكتوبر سنة ٢٨٤ ديوجينيس قبل مارس سنة ٢٨٦ فلافيوس فاليريوس أكتوبر سنة ٢٨٧ بمبيانوس ١٥ سبتمبر سنة ٢٨٩ ايميليوس روستيكانوس (نائب الحاكم) فى سنة ٢٩٨ ايليوس بوبليوس ١٩ أغسطس سنة ٢٩٩	ثيوناس (تاونا) ٢٨٢ – ٣٠٠
	كلوديوس كولكيانوس ٢٨ فبراير سنة ٣٠٣ و ٢٩ مايو سنة ٣٠٦	بطرس الأول (خاتم الشهداء) ٣٠٠ – ٣١٠
جاليروس (جالاريوس) ٣٠٥ – ٣١١ ماكسيميان (مكسيميانوس) ٣٠٥ – ٣١٣ ليقينيوس (ليسينيوس) ٣١٣ – ٣٢٣	أمونيوس ١٧ أغسطس سنة ٣١٢	ارخيلاس (ارشلاوس) ٣١٠ – ٣١١ الكسندروس الأول ٣١٢ – ٣٢٦
أباطرة العصر البيزنطى :		
اسرة قسطنطين		
قسطنطين الأول ٣٢٣ – ٣٣٧	يوليوس يوليانوس ٨ يونيه سنة ٣٢٨ سبتيموس زينون ٦ أبريل سنة ٣٢٩ ماجنينيانوس ١٩ أبريل سنة ٣٣٠ فلورنتيوس ١١ أبريل سنة ٣٣١ هيجينوس ٢ أبريل سنة ٣٣٢ باتيريوس ١٥ أبريل سنة ٣٣٣ فلافيوس فيلاجريوس ٧ أبريل سنة ٣٣٤ و ٣ أبريل سنة ٣٣٧	اثناسيوس الأول (الرسولى) ٣٢٦ – ٣٧٣
	فلافيوس انطونيوس ثيودوروموس سنة ٣٣٧ و ٢٨ مارس سنة ٣٣٨	
قسطنطيوس الثانى ٣٣٧ – ٣٦١	فلافيوس فيلاجريوس سنة ٣٣٨ و ٣٠ مارس سنة ٣٤٠ لونجينوس ١٩ أبريل سنة ٣٤١ و ٢٧ مارس سنة ٣٤٣ بلاديوس ١٥ أبريل سنة ٣٤٤	

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية
	نسطوريوس ٧ أبريل سنة ٣٤٥ و ١٩ أبريل سنة ٣٥٢	
	سبستيانوس ١١ أبريل سنة ٣٥٣ و ٢٧ مارس سنة ٣٥٤	
	ماكسيموس ١٦ أبريل سنة ٣٥٥ و ٧ أبريل سنة ٣٥٦	
	كاتافرونيوس ١٠ يونية سنة ٣٥٦ و ٢٣ مارس سنة ٣٥٧	
	هرموجينس بارناسيوس سنة ٣٥٧ و ٤ أبريل سنة ٣٥٩	
	ايتاليكيانوس سنة ٣٥٩	
	فوستينوس سنة ٣٥٩ و ٨ أبريل سنة ٣٦١	
	جيرونتيوس سنة ٣٦١ و ٣١ مارس ٣٦٢	
يوليانوس (المرتد) ٣٦١ – ٣٦٣	اكديكيوس اوليمبوس يوليه سنة ٣٦٢ و ١٥ سبتمبر سنة ٣٦٣	
يوفيانوس (جوفيانوس) ٣٦٣ – ٣٦٤		
والنس (فالنس) ٣٦٤ – ٣٧٨	هيريوس ٤ أبريل سنة ٣٦٤	
	ماكسيموس سنة ٣٦٤	
	فلافيانوس سنة ٣٦٤ و ٢١ يولية ٣٦٦	
	بروكوليانوس بعد ٢١ يولية سنة ٣٦٦ أول أبريل سنة ٣٦٧	
	فلافيوس يوتولميوس ١٣ سبتمبر سنة ٣٦٧ و ٢٩ مارس سنة ٣٧٠	
	اوليمبيوس بلاديوس سنة ٣٧٠ و ١٧ أبريل سنة ٣٧١	
	ايليوس بلاديوس سنة ٣٧١ وسنة ٣٧٤	بطرس الثانى ٣٧٣ – ٣٨٠
اسرة ثيودوسيوس (تاودوسيوس)		
ثيودوسيوس الأول (الأكبر) ٣٧٩ – ٣٩٥	هدريانوس سنة ٣٧٩	تيموثاوس الأول ٣٨٠ – ٣٨٤
	يوليوس يوليانوس ١٧ مارس سنة ٣٨٠	
	بلاديوس ١٤ مايو سنة ٣٨٢	
	هيباتيوس ٢٩ أبريل سنة ٣٨٣ و ٨ مايو سنة ٣٨٣	
	انطوتيوس سنة ٣٨٣	
	اوبتاتوس ٣ فبراير سنة ٣٨٤	ثيوفيلوس (ثاوفيلس) ٣٨٤ – ٤١٢
	فلورنتيوس ٢٠ ديسمبر سنة ٣٨٤ و ١٦ يونية سنة ٣٨٦	
	يوسبيوس سنة ٣٨٦	
	يولبنوس ٣٠ نوفمبر سنة ٣٨٦ وسنة ٣٨٧	
	فلافيوس أولبيوس اريتريوس ٣٠ أبريل سنة ٣٨٨	
	الكسندروس سنة ٣٨٩ و ١٨ فبراير ٣٩٠	
	أوأجريوس ٣٩٠ و ١٦ يونية سنة ٣٩١	
	هيباتيوس ٩ أبريل سنة ٣٩٢ و ١٢ أبريل سنة ٣٩٢	
	بوتاميوس ٥ مايو سنة ٣٩٢ و ٣٠ يولية سنة ٣٩٢	
	أواجريوس سنة ٣٩٣	

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية	
		أقباط	ملكانيون
أركاديوس (أرقاديوس) ٣٩٥ — ٤٠٨	جيناديوس ٥ فبراير سنة ٣٩٦ ريمجيوس من ٢٠ — ٣٠ مارس سنة ٣٩٦ أرخيلاوس ١٧ يونية ٣٩٧ و ٢٦ نوفمبر سنة ٣٩٧ بنتاديوس ٤٠٣ — ٤٠٤ يوثاليوس ٤٠٤ — ٤٠٥		
ثيودوسيوس الثانى ٤٠٨ — ٤٥٠	أوريستيس سنة ٤١٥	كيرلس الأول (الكبير) ٤١٢ — ٤٤٤	
	كاليستوس ٧ سبتمبر سنة ٤٢٢ كليوباتر ٢٩ يناير سنة ٤٣٥ خرموسينوس ٢٥ يونية سنة ٤٤٣		
مرقيانوس ٤٥٠ — ٤٥٧	ثيودوروس سنة ٤٥١	ديوسقوروس الأول ٤٤٤ — ٤٥٤	بروتيريوس ٤٥١ — ٤٥٧
	فلوروس ٤٥٢		
أسرة ليو (لاون)			
ليو الأول ٤٥٧ — ٤٧٤	الكسندروس ١٩ أغسطس سنة ٤٦٨ وأول سبتمبر سنة ٤٦٩	تيموثاوس الثانى ٤٥٧ — ٤٦٠ و ٤٧٥ — ٤٧٧	تيموثاوس ٤٦٠ — ٤٧٥ و ٤٧٧ — ٤٨٢
ليو الثانى ٤٧٤			
زينون (المغتصب) ٤٧٤ — ٤٩١	بويثوس سنة ٤٧٦ انثيميوس سنة ٤٧٧	بطرس الثالث ٤٧٧ — ٤٨٩	
	ثيوكتيستوس حوالى ٤٧٧ — ٤٧٨ ثيوغنوسطوس سنة ٤٧٩ و ٤٨٢ برجاميوس سنة ٤٨٢ ابولونيوس سنة ٤٨٢ ارسينيوس سنة ٤٨٧		يوحنا ٤٨٢
		اثناسيوس الثانى ٤٩٠ — ٤٩٦	
انسطاسيوس الأول ٤٩١ — ٥١٨	يوسطاثيوس سنة ٥٠١ ثيودوسيوس سنة ٥١٦	يوحنا الأول ٤٩٦ — ٥٠٥ يوحنا الثانى ٥٠٥ — ٥١٦	
أسرة يوستنيانوس			
يوستينوس الأول (يوسطانيوس) ٥١٨ — ٥٢٧	ديوسقوروس حوالى سنة ٥٣٥	ديوسقوروس الثانى ٥١٦ — ٥١٧	
يوستينانوس الأول (يوسطنيانوس) ٥٢٧ — ٥٦٥		تيموثاوس الثالث ٥١٧ — ٥٣٥	بولس التبايسى ٥٣٧ — ٥٣٩

الأباطرة	الحكام	بطاركة الاسكندرية	
		أقباط	ملكانيون
	رودون سنة ٥٣٨		
	ليبريوس حوالى سنة ٥٣٩ – ٥٤٢	ثيودوسيوس الأول (تاودوسيوس) ٥٣٥ – ٥٦٦	زويلى ٥٣٩ – ٥٥١
	يوحنس لاكساريون سنة ٥٤٢ هيفيستوس		ابوليناروس ٥٥١ – ٥٧٠
يوستينوس الثانى ٥٦٥ – ٥٧٨	جرمانوس يوستينوس سنة ٥٦٦	بطرس الرابع ٥٧٦ – ٥٧٨	يوحنا الثانى ٥٧٠ – ٥٨١
طيبريوس (طيباريوس) ٥٧٨ – ٥٨٢		دميانوس ٥٧٨ – ٦٠٥	
موريقيوس (موريسيوس) ٥٨٢ – ٦٠٢	يوحنس بولس يوحنس (للمرة الثانية) قسطنطينوس ميناس سنة ٦٠٠		افلوغوس ٥٨١ – ٦٠٧
فوقاس (فوقا) ٦٠٢ – ٦١٠	بطرس يوستينوس سنة ٦٠٢ – ٦٠٣	انسطاسيوس ٦٠٤ – ٦١٦	
	يوحنس سنة ٦٠٩		تيودوروس ٦٠٧ – ٦٠٩
اسرة هرقل			
هرقل الأول ٦١٠ – ٦٤١	نيقيتاس سنة ٦١٠	اندرونيكوس (اندرونيقوس) ٦١٦ – ٦٢٣	يوحنا الثالث ٦٠٩ – ٦١٧
	قوروس سنة ٦٣١ و سنة ٦٤٠	بنيامين الأول ٦٢٣ – ٦٦٢	جيورجيس ٦٢١ – ٦٣١
	ثيودوروس سنة ٤١٦		قوروس سنة ٦٣١
هرقل الثانى ٦٤١ هرقليون ٦٤١			

القسم الثاني

العصر الإسلامي

تاريخ مصر

من الفتح العربى إلى أن دخلها الفاطميون

بقلم الدكتور حسين مؤنس

الفتح العربى لمصر

تبدو قصة الفتح العربى لمصر لمن يقرؤها عند مؤرخى الاسلام — من ابن عبد الحكم الى ابن اياس — وكأنها نزهة عسكرية لم يصادف الجند العربى خلالها من الصعوبات الا شيئا قليلا جدا لا يقاس بما اعترض جيوش الاسلام فى فتح الشام وفلسطين ، فضلا عن العراق والمغرب . لأن الرواة الذين اعتمد عليهم المؤرخون جميعا بسّطوا الأخبار وأوجزوها على نحو أصبح من العسير معه تتبع الخطوات التى تم بها هذا الفتح العظيم الذى يعتبر من أهم الانتصارات العسكرية والسياسية التى ظفر بها العرب ابان عصر الفتوح الاسلامية .

وقد تعودنا أن نرد ما لدينا من أخبار هذا الفتح الى أصحاب المدونات التى وصلت الينا ، وهى كتب جليلة القدر كتبها شيوخ من أهل الثقة أهمهم الواقدى وعبد الرحمن ابن عبد الحكم والبلاذرى والكندى والطبرى ، مع أن الأخبار التى يوردونها ليست لهم ، وانما هم رواتها ، وقد حرصوا بعناية المحدث الأمين على ذكر اسناده ، على ذكر من أخذوا عنهم الأخبار من الرجال . ولو درسنا مجموعة هؤلاء الرجال المذكورين فى هذه الكتب ، لتبينا أن الأخبار كلها ، أو الجانب الأكبر منها ، قد صدرت عن مدرسة من القصاص أو المهتمين بالتاريخ نشأت فى مصر وعنيت بهذا الفن ، و « صنعت » قصة الفتح التى نجدها بين أيدينا متفرقة فى ذلك الحشد من كتب تاريخ مصر الذى يبدأ بابن عبد الحكم ويستمر حتى ابن اياس .

وقد آن الأوان لأن توضع هذه المدرسة كلها موضع البحث ، حتى تتبين القيمة الحقيقية لما لدينا من الأخبار . ولا يتسع المجال هنا لعرض هذه الدراسة ، وانما يكفى أن نذكر أن ما لدينا من الأخبار لا يخرج فى مصادره عن عدد قليل من الرجال معظمهم من تلاميذ الليث بن سعد (٩٤ — ١٧٥ / ٧١٢ — ٧٩١) ، والظاهرون منهم ستة نستطيع القول بأنهم المسئولون عن أكبر

جانب مما لدينا من المعلومات عن فتح مصر وأخبارها حتى منتصف القرن الهجرى الثالث على الأقل ، وهم عبد الله بن عبد الحكم (والد عبد الرحمن) (١٥٥ — ٢١٤/٧٧١ — ٨٢٩) وعبد الله بن وهب (توفى ١٩٧/ ٨١٢) وعبد الملك بن مسلمة وعثمان بن صالح (١٤٤ — ٢١٩ / ٧٦١ — ٨٣٤) ويحيى بن بكير (١٥٤ — ٢٣١ / ٧٧٠ — ٨٤٥) وسعيد بن عفير (١٤٦ — ٢٢٦ / ٧٦٣ — ٨٤٠) .

وأهمهم جميعا عثمان بن صالح ، فان كتاب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » يدور على روايته تقريبا ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم يروى عنه فقرة بعد فقرة ، فاذا استطرد وروى عن غيره عاد اليه يقول : « ثم رجع الى حديث عثمان بن صالح وغيره » . والنسخ التى وصلتنا من « فتوح مصر والمغرب والأندلس » كلها برواية على بن قديد تلميذ ابن عبد الحكم ، وابن قديد هذا هو أستاذ أبى عمر محمد بن يوسف الكندى، وعنه أخذ هذا الأخير الحديث والأخبار ، أى أن عبد الحكم والكندى يلتقيان عند هذا الرجل ، فهو تلميذ الأول وراويته وأستاذ الثانى ومعلمه . وهذا يفسر لنا التشابه الشديد بين مادتى كتابيهما فيما يتصل بالفتح ، وينتهى بنا الى القول بأننا فى الواقع أمام رواية واحدة تتفق أصولها عند الاثنين ، ثم تختلف التفاصيل بعض الشىء هنا وهناك .

ولا فائدة والحالة هذه من الاجتهاد فى المقارنة ومقابلة الروايات بعضها على بعض ، فان الخطوط العريضة ، وهى التى تهمنا هنا ، واحدة عند الاثنين . بل ان جل أخبار الفتح الواردة عند البلاذرى منسوبة الى محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وهذا أخذها عن أستاذه ، وهذا بدوره زار مصر وأخذ عن المدرسة المصرية التى ذكرناها ، وأخباره شديدة الشبه بأخبارها . وكذلك أخبار الطبرى ترجع أحيانا الى محمد بن سعد وأحيانا أخرى الى يونس بن عبد الأعلى (توفى ٢٦٤ / ٨٧٧) وهو من شيوخ المدرسة المصرية ، وهو جد أبى سعيد بن يونس المؤرخ المصرى المعروف .

والخلاصة أن ما لدينا من أخبار مصر فى شتى المراجع يعود فى الأصل الى أصل واحد هو مدرسة المؤرخين المصريين ، بل صنع فى مكان واحد هو الفسطاط ، وفى فترة محددة هى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . ومن رجال هذه المدرسة من هو ضعيف مشكوك فى أخباره كعبد الله بن لهيعة (توفى ١٧٤/٧٩٠) الذى سخر منه معاصروه وسموه أبا خريطة ، ولا يشفع لأخباره أنه ينسب بعضها الى أبى الأسود النضر بن عبد الجبار (توفى ٢١٩/٨٣٤) ، وفيهم الحجة الثبت كالليث بن سعد ، وجلهم من المصريين مولدا وموطنا ، حتى غير المصريين

منهم كالواقدى أتوا الى مصر ليأخـــذوا الأخبار عن شيوخها (١) .

فاذا كانت هذه هى أصول ما لدينا من أخبار الفتح ، فاننا لا ننتظر أن يكون بين ما لدينا من هذه الأخبار اختلاف يعين على كشف حقيقة أو حل معضلة ، فكلهم يقولون شيئا واحدا تقريبا ، ويروون الأخبار على نسق واحد ويتفقون فيما يوردون من أســـماء الأعلام ، ومعظمها مبهم لم يجد الباحثـون له تفســيرا ، كقـــولهم « المقـــوقس » و « الأعيرج » و « أبا ميامين » و « أبا مريم الجـــاثليق » و « أبا مريام الأســـقف » و « الأرطبون » ومن اليهم .

(١) بالاضافة الى المراجع العربية المذكورة فى المتن ، انظر عن هذه المدرسة المصرية :

مقدمة روفن جست RHUVON GUEST لطبعته لكتاب القضاة وكتاب الولاة للكندى ، لايدن ١٩١٢ صفحات ٢٢ ــ ٢٤ .

ومقدمة تشارلز تورى CH. TORREY لطبعته لفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، نيوهيفن ١٩٢٢ .

R. Dozy. *Rechèrches* ... 3e éd. I, 26 sqq.

ومادة الواقدى فى دائرة المعارف الاسلامية بقلم هوروفتز ، ومادتى ابن عبد الحكم بقلم تورى والكندى بقلم بروكلمان فى نفس الدائرة، ومقال الدكتور محمود على مكى :

Egipto y los origines y la historiografia arabigo-espanola

فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٥ سنة ١٩٥٨ .

وانظر أيضا :

الدكتور محمد كامل حســين : أدب مصر الاســـلامية ، عصر الولاة ١٩٤٥ ، ص ٦٨ وما يليها .

Albert Gateau. *Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne par Ibn Abd al-Hakam* (2e éd. Alger, 1934) n. 12 sqq.

وقد أنفق المؤرخون جهـــدا عظيما فى البحث عن حقائق هؤلاء الأعلام دون أن ينتهوا الى نتيجة تطمئن اليها النفس ، وذهبوا يلتمسون ضوءا فيما كتبه مؤرخو الأقبــاط مثل ساويرس أسقف الأشمونين المعروف بابن المقفع وسعيد بن بطريق المعــروف بأوتيخا وأبى صالح الأرمنى وجرجس المكين ، فاذا بمعظم أخبارهم منقولة عن الأصول العربية نفسها . ثم التمســـوا المعونة من مؤرخى البيزنطيين أنفسهم مثـــل سيبيوس مؤرخ هرقل وتيوفانس صــاحب المدونة المعروفة بالتـــأريخ *Chronographia* فلم يجــدوا لديهم الا اشـــارات لا تغنى ، فعادوا الى الخطوط الرئيسية الأولى التى وضـــــعها أصحاب الروايات الاسلامية الأولى ، ووقف الأمر عند ذلك . ولابد من تحقيق شخصية المقوقس مثلا قبل المضى فى هذا البحث ، فهو فى رأينا مفتاح موضوع فتح العرب لمصر ، اذا عرفنا من هو وما هو دوره بدت لنـــا قصة الفتح تحت ضوء جديد .

وقد حاول ألفريد بطلر فى كتابه المعروف عن الفتح العــربى لمصر أن يحل بعض هذه

(٢) انظر : ألفريد بطلر ، « فتح العرب لمصر » ، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ٤٥٢ وما يليها ومناقشة الأستاذ محمـــود عكوش فى كتابه « مصر فى عهد الاســـلام » ، القاهرة ١٩٤١ ، ومادة المقوقس بقلم أدولف جروهمان فى دائرة المعارف الاسلامية .

المشكلات ، فلم يخرج الا بنتيجة واحدة قبلها الناس زمانا ، ولكنها الآن موضع شك كبير ، ونعنى بذلك قوله ان المقوقس هو « ڤيرس » ، ولم يستند فى ذلك القول الا الى عبارات تحتمل أكثر من تفسير وجدها عند ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين وفى نص « حياة الراهب شنودة » الذى نشره أميلينو وقصة « أبنّا صمويل القلمونى » ، وكل هذه النصوص — فيما عدا قصة صمويل القلمونى — تذكر ڤيرس دون أن تشير الى المقوقس أو تذكر اسمه ، كأن لفظ المقوقس هذا خاص بمؤرخى العرب وحدهم لم يعرفه الأقباط ولا البيزنطيون . وحيث أننا لا نجد ما يقابله من الأسماء عند هؤلاء ، فانه يغلب على الظن أنه لقب أطلقه العرب على شخص معين ، وليس ذلك بغريب ، فقد أطلقوا على رئيس حامية حصن بابليون لقب « الأعيرج » ، وسموا القائد البيزنطى فى افريقية « جرجير » مع أن اسمه الحقيقى « جريجوريوس » ، ولو أن المقوقس هذا كان هو ڤيرس بالذات لذكرت ذلك المراجع العربية ، أو واحد منها على الأقل .

فاذا نحن مضينا فى البحث وجدنا أولا أن المقوقس يوصف بأنه عظيم القبط ، ولو أنه كان عامل مصر من قبل البيزنطيين لما وصف بذلك . وثانيا نلاحظ أنه كانت له فى مصر أسرة كثيرة الأفراد متفرقين فى نواحيها ، تذكر المراجع العربية منهم رجلا يسميه المقريزى « الهاموك » والواقدى « الهاميراك » ، يقال انه كان من أخوال المقوقس وكان على دمياط ، وقاتل المسلمين مع واحد من أولاده فقتل ابنه واستأمن هو ، ولحق ابن آخر له اسمه شطا بالمسلمين وأسلم ، وخرج الى البرلس والدميرة وأشموم طناح فحشد أهل تلك النواحى وقدم بهم مددا للمسلمين ، وسار بهم لفتح تنيس ، وقاتل حتى قتل ، وقبره باق الى الآن فى دمياط ، وهو معدود فى أوليائها وصالحيها. وذكر المؤرخون كذلك أخا للمقوقس يسمى أندراوس وبنتا تسمى لـُولـيـَّة عثر الباحثون على قبرها ، وابنين يسمى أحدهما أرسطوليس ، بل ذكروا زوجه وقالوا انه كان لها شأن فى ضواحى الاسكندرية ، هذا بالاضافة الى ابنته أرمانوسة ذات الخبر المشهور .

وقد يكون فى ذلك كله زيادات أضافها القصاص، ولكننا لا نسرف فى القول اذا ذهبنا الى أنها تدل على أن المقوقس كان قبطيا من أهل مصر ، وأن بيته كان معروفا منتشر الأفراد ، فكيف يقال مع ذلك أنه هو « قيرس » أسقف فازيس الذى بعثه الامبراطور هرقل سنة ٦٣١ الى مصر لكى يعمل على القضاء على معارضة أقباطها للمذهب الرسمى للدولة البيزنطية ؟ لقد ذهب العلماء مذاهب شتى فى البحث عن أصل هذا الاسم الذى نجده فى المراجع

العربية ، وأقرب الآراء الى القبول ما ذهب اليه أميلينو من أن العرب حرفوه من لفظ « كاوخيوس » القبطي ومعناه الكافر ، فلعل أنصار البيزنطيين أطلقوا عليه هذا الوصف نظرا لمعارضته لسياسة الدولة ومذهبها وميله الى التفاهم مع العرب ، وعنهم أخذه هؤلاء وحرفوه الى الصورة التى وصلت الينا .

أما اسمه الحقيقى كما يرد فى النصوص العربية فهو « جريج » ، وهو تصغير جيورجيوس أو جرجس ، وهو ابن مينا أو متى أو ابن فرقب أو قرقب وما الى ذلك من الصور التى تتوارد فى النصوص العربية . أما عن وظيفته فيقول البلاذرى انه « صاحب مصر » ، ويقول المقريزى فى « الخطط » انه كان « أميرا على مصر » ، ويردد هذا القول ابن دقماق فى « الانتصار » ، ويذهب ابن عبد الحكم وجرجس المكين الى أنه كان « عاملا على مصر » ، ويقول ابن حجر انه كان « أمير القبط بمصر » ، وأوتيخا انه « عامل على الخراج بمصر » . وليس فى هذه الاشارات كلها ما يدل على أنه كان بطريق مصر أو رئيس كنيستها ، أو الأسقف المعين من القسطنطينية .

ثم ان المراجع العربية تذهب الى أن المقوقس هذا هو نفس المقوقس الذى أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته مع حاطب بن أبى بلتعة فى السنة السادسة للهجرة ، أى قبل سير العرب الى مصر باثنى عشر عاما ، وقد نفى كثير من المستشرقين أن يكون الرجلان شخصا واحدا ، لأن مصر كانت فى سنة ٦ هـ / ٦٢٧ خاضعة للفرس ، بل ذهب بعضهم الى انكار الرسالة جملة ، غير أن اشارة عابرة لمؤرخ متأخر هو المنوفى صاحب « كتاب لطايف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣٠٠ هـ) ربما فسرت لنا هذه الناحية ، فهى تقول ان صاحب الأمر فى مصر أيام الرسول (صلعم) وأبى بكر وعمر حتى فتح مصر كان المقوقس . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول ان المقوقس هذا كان كبير أقباط مصر ، وربما كان يتولى بعض شؤون الحكومة ، فلما دخلها الفرس واختفى رجال الدولة البيزنطية تولى هو الأمر تحت اشراف الفرس ، وفى أيامهم أتى مصر رسول النبى (صلعم) فلم يجد من يتحدث اليه الا كبير القبط هذا ، فأحسن استقباله ورد ردا لطيفا وبعث بهديته المعروفة الى النبى .

فلما استعاد هرقل مصر ورجع اليها الروم وجدوا هذا الرجل قابضا على أزمة الأمور المالية والادارية فتركوه على هذه الناحية ، لأنه لم يكن يهمهم من مصر اذ ذاك الا الجباية وكان الرجل بها خبيرا ، واكتفوا بارسال قواد عسكريين لبابليون والاسكندرية ، ثم أرسلوا الأسقف قيرس ليعالج الخلاف المذهبى بين الأقباط والبيزنطيين ، فأساء قيرس الى المصريين ونفر

منه المصريون وعلى رأسهم المقوقس ، وأصبح هذا الأخير مستعدا للتفاهم مع أى قوة يمكن أن تخلص الأقباط من اضطهاد البيزنطيين . فلما أقبل العرب وتخاذل البيزنطيون وتوزعت جهودهم وتوالت عليهم الهزائم تصـدى المقوقس لايجاد المخرج ، وتكلم مع العرب باسم الأقباط دون البيزنطيين ، وكانت هناك فرق قبطية فى الجيش البيزنطى المدافع عن مصر ، فائتمرت بأمره وانضم اليه الرهبان ومن اليهم من أهل البلاد ، وعرف الرجـل كيف يحصل من العرب على عهـد يؤمن القبط على عقيدتهم وأموالهم ، فكانت نتيجة ذلك دخول مصر فى طاعة العرب .

وقد وقفنا طويلا أمام مشكلة المقوقس لأن حلها يفسر قصة الفتح كلها ويعفينا من الكلام الكثير فى مشاكل الفتح التى اقتضت من ألفريد بطلر جهدا عظيما ، ليحلها ، ولم يفلح مع ذلك ، لأن نقطـة البـداية ، وهى القـول بأن المقوقس هـو قيرس لم تكن سليمة ، فلم تكن النتائج سليمة تبعا لذلك . أما قولنا ان المقوقس كان زعيم القبط ، وأنه كان يتجه وجهة أخـرى غير وجهة الروم فيجعل قصة الفتح مفهومة ، ويفسر السبب فيما قلناه من أنها كانت أشبه بنزهة عسكرية.

وبناء على ذلك نستطيع القول بأنه كانت فى مصر قبيـل الفتـح قوتان متنازعتان متعاديتان : القبط فى ناحية والبيزنطيون فى ناحية أخرى ، ويمثل القبط المقوقس وفرق من جنود القبط كانت مشتركة فى الجيش البيزنطى وعدد كبير من الرهبان ورجـال الكنيسة ثم بقية أهل البـلاد ، وكلهم على المذهب المونوفيزى القريب من توحيـد الاسلام ، وفى ناحية أخرى نجد البيزنطيين تمثلهم حاميات من الجند فى المعاقل والحصون والمسالح وخاصة فى الاسكندرية ، وعـلى رأس كل حامية قائد محلى ، ويمثل السلطان البيزنطى كله قيرس الذى أقامه هرقل بطركا لمصر وأطلق يده فى شؤونها .

وهذا المذهب الذى نذهب اليه يحـل اشكالا آخر أوقع المؤرخين المحدثين فيه قولهم ان قيرس هـو المقوقس ، لأنهم يقولون ان قيرس هذا أتى الى مصر ، وهو غريب عنها ولا عزوة له فيها ، لينفذ سياسة هرقل ، فبدأ يستميل الأقباط بالحسنى ، فلما فشل انقلب عليهم وأخذ يضطهدهم ، مما يدل عـلى عصبيته البيزنطية ، فلا يكاد العرب يطرقون أبواب مصر حتى نجده ينقلب على البيزنطيين ويسعى فى اخراج مصر من أيديهم ، وينتزع الأقبـاط الذين كان يضطهدهم الى ذلك الحين . وهذه كلها قضايا لا يستقيم بعضها مع بعض . ورواية الأحداث على هذا النسق تجعل قصة الفتح غير منسجمة ولا متصـلة الحلقات ، وهذا هو الذى يخرج به القارىء من كتاب ألفريد بطلر على طوله وعرضه .

سير الفتح(١)

فاذا بدأنا من هذه النقطة ومضينا نقص قصة الفتح تعرضنا من أول الأمر لمشاكل من النوع الذي تعودت أن تخلقه الروايات العربية ، وهي مشاكل لا تتصـــل بصلب الموضوع ، ولكن لا مفر من التعرض لها ، أهمها ـ فيما يتصل بالبداية ـ رفض عمر بن الخطاب الاذن لعمرو بن العاص في السير

---

(١) عن فتح العرب لمصر ، انظر :

ابن عبد الحـــكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعـــة توري ، نيوهيفن ١٩٢٢ ، وطبعة هنري ماسيه ، عن فتح مصر فقط (المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقــاهرة ١٩١٤) ، وطبعة ألبير جــاتو ALBERT GATEAU بعنوان : فتوح افريقية والأندلس ، الطبعة الثـــانية ، الجزائر ١٩٤٣ .

الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضـــاة ، طبعة روفن جست (سلسلة جيب التذكارية) بيروت ١٩٠٨ .

البلاذري : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٥٩.

الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ، جـ ٣

حنا النقيوسي : مدونة حنا أسقف نقيوس

Chronique de Jean, évêque de Nikiou. Texte éthiopien publié et traduit par M.H. Zotenberg (Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques, tome 1, Paris, 1883).

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، طبعـــة المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٩٤٣ ، جـ ٢ و ٣ .

ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، جـ ١ ، ٤ ، ١٠ من مجموعة Patrologia Orientalia باريس ١٩٠٧ و ١٩١٠ و ١٩١٥

ابن سعد (كاتب الواقدي) : الطبقـــات الكبرى ، ظهر منـــه ٨ كراســـات ليـــدن ١٩٠٥ ـ ١٩٢١ . وطبعـــة بيروت (كاملة) سنة ١٩٥٧ .

سعيد بن بطريق (المعروف بأوتيخا) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جزءان ، بيروت ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ .

المقريزي : المواعظ والاعتبـــار في الخطط والآثار ، طبعة بولاق ١٢٧٠ في مجلدين

ـ : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ١٣٥٦ .

ـ : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، طبعـــة زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠ .

ـ : اتعاظ الحنفا ، الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

اليعقوبي : تاريخ ، طبعه هوتسما ، ليدن ١٨٨٣ جزءان .

أبو المحاسن بن تغري بردي : النجـــوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، جـ ١ و ٢ سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

جرجس بن العميد (المعروف بالمكـين) : تاريخ المسلمين ، ليدن ١٦٢٥

Alfred J. Butler. *The Arab conquest of Egypt.* Oxford, 1902

وقد رجعنا الى ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » ، القاهرة ١٩٣٣ .

— : *The treaty of Misr.* Oxford, 1913.

Leone Caetani : *Annali dell'Islam.* T. IV, V. Milano, 1911-1912.

E. Amélineau : *Etudes sur le christianisme en Egypte.* Paris, 1887.

Lane-Poole : *A history of Egypt in the Middle-Ages.* London, 1925.

Gaston Viet : *L'Egypte arabe.* Vol. IV de Histoire de la Nation Egyptienne. Paris, 1937

— :*L'Egypte Musulmane.* Vol. II du Précis de l'histoire d'Egypte. Le Caire.

سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ .

محمود عكوش : مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

الى مصر ، ثم موافقته على كره منه وتعليقه الأمر بخطاب يرسله اليه ، فان بلغه قبل حدود مصر ارتد عنها والا سار فى طريقه ، وهى قصة لا تتفق مع طبيعة عمـــــر بن الخطاب أو مسلكه فى سياسة أمور الدولة . ولو أن عمر استؤذن فى فتح مصر وهو بالمدينة لكان من الممكن أن نصدق هذا الأخذ والرد الذى تطيل فيه المراجع فى هذه المناسبة ، فقد حدث مثل ذلك عندما أراد العرب فتح المغرب على أيام عثمان ، ولكن عمر بن الخطاب فوتح فى فتح مصر وهو مجتمع مع قواده ورجاله فى الجابية جنـــوبى دمشق سنة ١٧/٦٣٨ ، وناقش عمر مـــع رجـاله فى ذلك المؤتمر — الأول من نوعه فى تاريخ الاســـلام — تنظيم ما فتح من البلاد والخطط التى يجرى عليها المسلمون فيما يلى ذلك من خطـوات التوسع . وقد أحاط عمر اذ ذاك بالموقف تماما ، ووضع الخطوط الرئيسية لما سيعقب فتح فلسطين من الفتوح ، فالقول بأن عَمرا خاطب عُمر فى الأمر فيما بينه وبينه وأخـذ يحسن له فتـــح مصر ويهون عليه أمرها ، أو أن عَمرا حاصر قيسارية ثم خلف ابنه عليها وسار الى مصر من تلقاء نفسه ، فغضب عمر لذلك وكتب اليه يعنفه ويأمره بالرجوع الى موضعه ان وافاه كتابه دون مصر ، أو أن عَمرا أمر رجـاله بالتسلل ليلا ثم اتبعهم ، روايات أقرب الى القصص ، وربما استطعنا أن نخرج من مجموعها برأى وسط يستريح اليه المؤرخ ، وهو أن عمر بن الخطاب كان رأيه قد استقر على فتح مصر ولكنه لم يكن قد اطمأن بعد الى عمرو بن العاص وقدرته على القيام بهذا العمل العظيم . ولكى نفهم هذا ينبغى أن نذكر أن عمرو بن العاص لم يكن اذ ذاك قد قرر مكانته كقائد من أعظم قواد الاسلام ، ولم يكن ليقاس — فى رأى عمر — بكبار قواد الدولة الذين تولوا فتوح الشام والعراق ، وكان عمـــر بن الخطاب لا يستريح اليه ، فتردُّد عمر لم يكن اذن فى الفتح فى ذاته ، وانما فى شخصية الفاتح ، ويبدو من مجموع الروايات أن عمر وافق نصفَ راغب ، وربما كان يفكر فى اختيـار قائد آخر ، وهذا أَحْسَبُ هـو موضوع الكتاب الذى قال لعمـرو انه سيرسله اليه أو الذى أرسله اليه فعلا .

على أى الأحوال أسرع عمرو نحو مصر ، وينبغى أن نذكر هنا شيئا لا يشـــير اليه المؤرخون مع عظيم أهميته ، وهو أن المناطق الفسيحة الممتـــدة من جنوبى فلسطين الى أطراف الدلتا كانت تعمرها قبائل عربية كثيرة معظمها من بطون قضاعة وخاصـة الضجاغم منهم . وفى نواحى العريش كانت منـــازل بنى راشدة وقبائل أخرى من لخم وجذام ، وكانت فى شبه جزيرة سينا والناحية الشرقية للدلتا وصحراء مصر الغربية مواطن لقبـائل عربية كثيرة . وينبغى أن نذكر أيضا أن هذه النواحى لم تكن اذ ذاك قاحلة على الصورة

التى هى عليها اليـــوم ، وانما كانت مناطق حشائش ترعاها الماشية ، وكانت عيون الماء فيها كثيرة ، وحول كل عين ما يشبه الواحة الصغيرة أو الكبيرة ، ودليلنا عـــلى ذلك ما تذكره أخبـــار العصر البيزنطى من أن صحراوى مصر الغربية والشرقية كانتـــا عامرتين بالديور والرهبان ، وكان الكثير من أولئك الرهبان نساكا متأبدين وحدهم فى الفيفاء يقضون عمرهم كله فى سياحة دائمة ، ولا يتأتى هذا لو كانت هذه الصحارى محلا كما هى اليوم ، وهذا يفسر لنا مقام القبائل العربيـــة الكثيرة فى ســينا وصحراوى مصر الشرقية والغـــربية ، ويفسر لنا أيضا كيف استطاع الجيش العربى ، دون أن يتزود بشىء كثير أن يخترق سينا دون جهد ، وأن يعبر بعد ذلك الصـــحراء من الاسكندرية الى برقة ، ومن برقة الى ما يعرف الآن بتونس ، ولو راجعنا ما كتبه جغـــرافى كأبى عبيـــد البكرى عن المنطقة الواقعة بين مصر وافريقية (تونس اليوم) لوجدنا الطريق حافلا بالآبار والعيون والواحات .

ولم يكن للبيزنطيين سلطان على هـــذه النواحى المعشبة كلها ، أى أن الجيش العربى سار من رفح حتى بلبيس على الأقل وسط بلاد يسكنها ويسيطر عليها عـــرب ، ليس للبيزنطيين فيها الا حاميات قليلة أهمها فى العريش — وهو تعريب لاســـمها القديم « لاريس » Laris ، وكان البيزنطيـــون يســـمونها رينوكورورا Rhinocorura أو Rhinokolora — فاســـتولى عليهـــا المسلمون دون جهد (١٠ ذو الحجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م) ثم تقدم عمرو بن العاص حتى وصل الى موضع أقصى حصون مصر البيزنطية شرقا عند بلدة الفرما (Pelusium) وهناك وقع أول التحام بين المسلمين وروم مصر ، واستمر القتال بينهم شهرا أو شهرين حتى اقتحمه المسلمون (حوالى ١٢ محـــرم ١٩ هـ / ١٣ يناير ٦٤٠ م) وأصبح الطريق أمامهم الى قلب الدلتا مفتوحا ، فلم يضع عمرو وقته واتجه بمن معه نحو بلبيس .

ولم يكن الجيش الذى مع عمرو بالكبير ، فقد كان عدده ، حسب أقوال الرواة ، يتراوح بين ثلاثة آلاف وأربعة ، ولكننا نرجح أن أعدادا كبيرة من عرب جنوبى فلسطين وسينا وشرقى الدلتا انضمت الى ذلك الجيش ، لأننا نلاحظ أن خبر سقوط الفرما واتجاه العرب نحو الدلتا كان له رد فعل عنيف فى البلاد ، ومن المستبعد أن يكون ذلك نتيجة دخول آلاف قليلة من العرب أرض مصر ، فقـــد كانت غارات القبائل العربية على أطراف مصر الشرقية أمرا عاديا ، ولو كان جيش عمرو بهذه القلة لما كان لدخـــوله هـــذا الصدى البعيد ، وسنلاحظ أن العرب بعد أن خاضوا معركة عين شمس وأقبلوا لحصـــار حصن بابليون كانت لديهم قوة عظيمـــة لا تتناسب مع بقية ثلاثة آلاف أو أربعـــة ، فلابد أن

آلافا أخرى من العرب تبعت الجيش الفاتح وانضمت الى صفوفه . وأبسط دليل على ذلك أسماء القبائل التى اتخذت لأنفسها خططا فى الفسطاط بعيد اختطاطها سنة ٢١ هجرية ، فان عدد هذه القبائل يزيد على اثنتين وثلاثين قبيلة ، غير أصحاب الراية الذين سيرد ذكرهم ، وكان عددهم كبيرا . فاذا فرضنا أن الذين دخلوا مع عمرو كانوا ٣٠٠٠، ثم انضم اليهم المدد الذى جاء مع عبد الله بن الزبير لكان المجموع تسعة آلاف ، أى بمعدل أقل من ٣٠٠ رجل من كل قبيلة ، وهذا العدد لا تكون له خطة أو قسم من مدينة ، فلابد أن العدد كان أكثر من ذلك . وقد اقتصرنا فى هذا الحساب على من نزل الفسطاط ، ومن المعروف أن عربا آخرين كثيرين نزلوا الاسكندرية والجيزة ونواحى شتى من الدلتا .

على هذا الاعتبار نستطيع أن نفهم السبب فيما أحدثه سير هذه القوة العربية من رد فعل بعيد المدى فى البلاد. وقد ظهر رد الفعل هذا بصورة جلية فى موقف الأقباط ، اذ أدرك رؤساؤهم أن الأمر أكثر من اغارة بدوية ، وأن الزحف العربى الذى قضى على أمر الروم فى الشام وصل الى مصر ، فخرج الأنبا بنيامين بطرك الأقباط الأسبق — الذى عزله هرقل واضطهده سابقا حتى اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح العربى — وكتب الى القبط يقول : « انه لا تكون للروم دولة ، وأن ملكهم انقطع ، ويأمر القبط بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما صاروا يومئذ لعمرو أعوانا » . وسواء أكتب بنيامين الى اخوانه القبط أم لم يكتب ، فقد حدد الأقباط موقفهم بعد سقوط الفرما وتبينهم أن الصراع الحاسم على مصير بلدهم قد بدأ فمالوا مع العرب على الروم ، وكان هذا هو العامل الحاسم فى تيسير أمر فتح مصر على العرب . ولم ينضم الأقباط الى العرب علانية بعد سقوط الفرما ، بل بعد سقوط حصن بابليون وفتح الفيوم كما يقول يوحنا النقيوسى ، أما موقفهم قبل ذلك فكان موقف المحايد الذى يتمنى نصر العرب وزوال أمر الروم .

وقد وجد عمرو أنه لا يستطيع ترك قوة كبيرة فى الفرما لتحفظها ، وكان موقعها هاما من الناحية العسكرية ، فهى مفتاح الطريق من فلسطين الى مصر ، وخاف أن يعود الروم فيتحصنوا فيها ، فهدم أسوارها وحصونها حتى لا ينتفعوا بها ، ثم اتجه جنوبا بشرق فاستولى على بليدة تسمى النواصر ، ومكانها الآن قرية الجعافرة بمركز فاقوس بمديرية الشرقية ، ثم وصل الى بلبيس « لا يدافَع الا بالأمر الخفيف » كما يقول ابن عبد الحكم . وفى بلبيس التحم المسلمون مع حامية رومية قاتله رجالها نحو الشهر ، حتى انتصر عليهم واستولى على البلد . ويذهب القصاص الى أن عَمرا وجد أرمانوسة ابنة

المقوقس فى بلبيس . وأصل القصة فى « فتوح مصر » المنسوب الى الواقدى ، وهى فى خطوطها الرئيسية ممكنة الوقوع : وجد العرب فى بلبيس ابنة للمقوقس ، فأكرمها عمرو وبعث بها الى أبيها معززة ، ولكن خيال القصاص أضاف اليها اطارا روائيا ، فذهبوا الى أنها كانت قد خطبت الى قسطنطين بن هرقل ، فبعث بها أبوها و « جهزها بأموالها وجواريها وغلمانها لتسير اليه ، حتى يبنى بها بمدينة قيسارية .. » الى آخر القصة التى نسج حولها ش . هـ . بوتشر ثم جرجى زيدان قصتين طريفتين . وقد نفاها ألفريد بطلر بحجة أن المقوقس كان أسقفا فلا يمكن أن تكون له بنت ، وهى حجة واهية ، فلم يكن المقوقس كما رأينا أسقفا ، ولو فرض وكان فلم يكن فى قوانين النصرانية اذ ذاك ما يحرم الزواج على رجال الدين ، لأن تحريم الزواج عليهم من النظم التى ابتدعها البابوات . ومثل ذلك يقال عن نفى بعض المستشرقين لاهداء المقوقس جاريتين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قالوا بذلك على أساس أن المسيحيين ، فضلا عن رجال الدين ، لا يجوز لهم أن يحرزوا الجوارى أو يتزوجوا بأكثر من واحدة ، وهذه كلها دعاوى لا تقوم على أساس ، فان المسيحية الأولى لم تحرم تعدد الزوجات ولا اتخاذ الجوارى ، وانما جاء ذلك فى زمن متأخر ، وقد قرره البابوات أيضا . وربما كان فى قصة أرمانوسة فى حدودها البسيطة تأييدا لما ذهبنا اليه من أن القبط مالوا الى العرب بعد استيلائهم على الفرما ، فأحب عمرو أن يجامل زعيمهم باكرام ابنته .

بابليون ومصر :

واتجه عمرو بعد ذلك نحو مركز القوة الفعلية البيزنطية فى البلاد ، وكان هذا المركز مساحة عظيمة تمتد من موقع عين شمس الحالية الى الحصن المعروف باسم قصر الشمع ، وكانت هذه المساحة تضم عددا من القرى الصغيرة والحصون والأديرة والكنائس عرفت كلها باسم « مصر » . ولفظ مصر آرامى قديم ومعناه الحد أو الحدود ، أما اسم بلاد مصر عند أهلها الى ذلك الحين فكان « كيمى » أو « شيمى » أو « خيمى » ومعناه التربة الحمراء ، والعرب هم الذين وسعوا مفهوم لفظ « مصر » وأطلقوه على البلاد كلها . نقول ان هذا الموضع كان يضم قرى وكنائس وحصونا وبساتين . وهذه القرى بقايا مدن أو عواصم قديمة أنشئت على طول تاريخ مصر القديم فى هذا الموضع ، وتضمها كلها الآن مدينة القاهرة الحالية ، فيما عدا موقع منفيس القديمة ، فهو تابع الآن لبندر الجيزة . ونستنتج من توالى اتخاذ المدن والعواصم فى هذا الموضع على اختلاف العصور أنه الموقع المثالى لحكم مصر والاشراف على الوجهين القبلى والبحرى .

وقد بدأ الانشاء فيه على عهد الأسرة

الثالثة ، عندما أنشأ الفراعنة منف واتخذوها عاصمة لهم ، وفى نفس الوقت عمّر الفراعنة موضعا آخر على الضفة الشرقية ، وهو بلدة أون ، التي عربها العرب الى عين شمس ، ولا زالت قائمة الى اليوم . والى جنوب عين شمس ، فى مواجهة جزيرة الروضة ، قام حصن بابليون ، ويرجح أنه من انشاء المصريين القدماء ، وأن اسمه الأصلى بى — هابى — ن — أون Pi—Hapi—n—on. ويذهب شتايندورف الى أن هذا الاسم كان يطلق أولا على جزيرة الروضة ، وأن صورته الصحيحة بر — هابى — ن — أون Per—Hapi—n—on ومعناه جزيرة أون النيلية . وسواء أكانت هذه هى الصورة الصحيحة للاسم ، أم الصورة الأولى ، فانه تحرف الى بابليون . وقد أنكر ذلك كله بطلر ، وذهب الى أن الحصن من انشاء البابليين عندما دخلوا مصر ، وهو منسوب اليهم . أما قول العرب أن تفسير الاسم بأنه باب — ليون فغير مقبول . وقد خلط المؤرخون والرحالة الأوربيون فى العصور الوسطى بين بابليون وبابل Babylonia ، فأطلقوا اسم بابيلونيا على القاهرة ، بل على مصر كلها ، فكانوا يقولون سلطان بابيلونيا ، ويريدون سلطان مصر . أما المصريون فكانوا يطلقون على الحصن تسمية قريبة من قولنا قصر الشمع ، والأرجح أنه تحريف للفظى Castra Chemi أى حصن مصر . وقد علله بعض مؤرخى العرب تعليلات شتى ، فذهب الواقدى برواية المقريزى ، الى أن هذا القصر كان « يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر ، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذى حلت فيه الى برج غيره » .

ووصل عمرو الى أول قرية من قرى منطقة مصر ، وهى قرية أم دنين ، وقد وردت عند يوحنا النقيوسى باسم تندونياس Tendunyas ، ومكانها اليوم المنطقة التى يقوم بها جامع المقس — ويعرف اليوم بمسجد أولاد عنان — وتصل حدودها الى قنطرة الدكة والدرب الابراهيمى ، وكانت بها حامية صغيرة ، تغلب العرب عليها دون صعوبة وملكوها ، وكان النيل يصل اذ ذاك الى حدود القرية ، وبهذا أصبح فى أيديهم موقع حصين على النيل ، فحصنه عمرو وشكه بالرجال ، واتجه نحو حصن بابليون ، وكان مركزا لجيش بيزنطى كبير يضم عددا عظيما من القبط ، وبدأ عمرو يهاجمه ، ثم تبين أنه لن يستطيع الاستيلاء عليه بمن معه من الجند القليل ، فبعث يطلب المدد من عمر بن الخطاب ، واكتفى بالتحصن فى أم دنين وبالالتحام مع البيزنطيين فى اشتباكات يسيرة.

ويبدو أن عمرا ومن معه لقوا شدة كبيرة اذ ذاك ، فان الأزواد فى المنطقة لم تكفهم ، ولهذا نجده يبعث بنفر من جنده فى القوارب عبر النيل الى الضفة الغربية حيث ساروا بحذاء النيل نحو الجنوب حتى بلغوا

موضع منفيس ، ولم يكن لعمرو من غاية من وراء ذلك الا الحصول على مدد من الأقوات. وقد اختلط أمر هذه الغارة على بعض قدامى المؤرخين مثل حنا النقيوسى ، الذى زعم أن عَمرا أرسل فى ذلك الوقت حملة لفتح الفيوم ، وتابعه فى ذلك بطلر ، فذهب الى أن عَمرا حاول فتح الفيوم فى ذلك الحين ، وهو قول مستبعد ، لأنه لم يكن قد استولى على حصن بابليون ولم يقض على قوة الروم بعد، والحقيقة ما قلناه ويؤيده قول السيوطى : ان عمرا بعد فتح مصر أرسل جرائد الخيل الى القرى التى حولها ، وبقيت الفيوم سنة لا يعلم المسلمون شيئا عنها ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلى من الكلام .

ورأى عمرو ألا يظل مكانه فى أم دنين حتى يصل المدد ، فتقدم بمن معه نحو حصن بابليون وبدأ فى حصاره . وكان الروم قد حفروا خندقا حول الحصن واستعدوا استعدادا طيبا ، وأسرع المقوقس الى بابليون ليكون على مقربة من الحوادث . وبدأ الحصار فى جمادى الأولى ١٩ هـ / مايو ٦٤٠ م . ولقى المسلمون عناء شديدا ، فقد استبان الروم قلة عددهم حتى قال البلاذرى ان عَمرا كان « يفرق أصحابه ليرى العدو أنهم أكثر مما هم ، فلما انتهى الى الخندق نادوه أنْ قد رأينا ما صنعت ، وانما معك من أصحابك كذا وكذا ، فلم يخطئوا برجل واحد » . وأخذ عمرو يشتد على جنوده ليبذلوا أقصى ما يستطيعون ، حتى ضاق ذرعهم وصاح فيه رجل من أهل اليمن : « اننّا لم نخلق من حجارة أو حديد » فقال عمرو : « اسكت ، فانما أنت كلب » ، فرد الرجل : « فأنت أمير الكلاب » . وعالج عمرو الموقف بكياسته ، فلم يلق بالا الى اجابة الرجل ، ونادى نفرا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا معه الوقائع ليستعين بهم على استنهاض همم المحاربين .

وعجل عمر بن الخطاب بارسال المدد الى عمرو بن العاص ، ويبدو أنه كان لا يزال يشك فى قدرة عمرو على اتمام الفتح ففاتح الزبير بن العوام فى توليته أمر الفتح . وقد روى الخبر البلاذرى ، وقال ان عمر قال للزبير : « يا أبا عبد الله ، هل لك فى ولاية مصر ؟ » فقال : « لا حاجة لى فيها ، ولكن أخرج مجاهدا وللمسلمين معاونا ، فان وجدت عَمرا قد فتحها لم أعرض لعمله ، وقصدت الى بعض السواحل فرابطت به ، وان وجدته فى جهاد كنت معه . فسار على ذلك » .

موقعة عين شمس (بابليون) والاستيلاء على الحصن :

وبين المؤرخين خلاف على عدة المدد الذى أرسله عمر ، فذهب بعضهم الى أنه كان أربعة آلاف ، وقال آخرون بل اثنا عشر ألفا . والمهم لدينا أنه كان مددا قويا عليه أربعة رجال أشداء هم الزبير بن العوام والمقداد بن

عمرو « الأسود » وعبادة بن الصامت ومسلمة ابن مخلد ، أو خارجة بن حذافة العدوى . وقد وصل هذا المدد فى ٩ جمادى الآخرة / ٦ يونيو ٦٤٠ م وبعد وصوله مباشرة دخلت معركة حصن بابليون فى دورها الحاسم .

ورأى عمرو أن يمهد لهذه المعركة الحاسمة بالفصل بين الروم والأقباط فصلا تاما ، فاتصل برجلين من زعماء الأقباط هما أبو مريم جاثليق مصر أى رئيس رجال الدين من الأقباط — وكان معاديا لقيرس — والأسقف أبو مريام، ويبدو أنه كان مقدما بين رجال الدين ، لأنه حضر فى « أهل البيعات » أى القسس ، وكلمهما كلاما رقيقا ذكر فيه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأقباط ، وعرض عليهما الاسلام وقال : « فمن أجابنا اليه فمثلنا ، ومن لم يجبنا اليه عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة » . وكان لكلامه أثر بعيد فى نفسيهما ، فردا عليه ردا جميلا ، وعادا الى المقوقس ليستشيراه . وعندما علم رجال الحامية البيزنطية بذلك أنكروه وأصروا على القتال ، وتزعم ذلك الأرطبون ، وهو قائد بيزنطى اسمه الأصلى أريتيون Ariteon كان مشتركا فى حرب العرب فى الشام ، فلما انهزم الروم اتجه الى مصر واشترك فى دفاع العرب عنها .

وكان عمرو قد أعطى ممثلى القبط مهلة خمسة أيام للرد عليه ، فاذا هو ينتظرهما فاجأه الروم بالهجوم ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى ردهم الى الحصن . وتبين عمرو أنه ما دام الروم وراء الأسوار فان أمر الحصن سيطول ، وأنه لابد من اخراجهم من حصنهم ومقابلتهم فى معركة فى الفضاء ، وعول على ذلك . وكانت سرايا الروم تخرج بين الحين والحين فتجول وتصول فى المزارع والبساتين الواقعة بين الحصن والمعسكر الرئيسى العربى فى أم دنين ، فقرر أن يهاجم من يخرجون منهم هجوما مدبرا مرتبا يضطر آخرين منهم الى الخروج . فأرسل تحت جنح الليل كتيبتين احداهما الى طريق أم دنين والثانية نحو الشرق حيث اختبأت فى ثنية من ثنايا جبل المقطم . وخرج الروم على عادتهم فى الصباح الباكر ، وتقدموا نحو الشمال فى اتجاه ما يعرف الآن بالعباسية ، فلما توسطوا الطريق وصاروا بين البساتين والأديرة تقدم اليهم عمرو بكتلة من جيشه والتحم معهم ، فتجمعوا لقتاله ، فلما حمى الوطيس خرجت كتيبة الجبل من مكمنها وهاجمت مؤخرتهم ، فحسبوا أنهم حصروا بين جيشين ، وأسرعوا هاربين فى اتجاه أم دنين ، فخرج اليهم الكمين الثانى ، ووقعوا بين جند المسلمين من كل ناحية ، واستحر القتال ووقع فيهم القتل ، وانهزموا ، وأسرعت بقيتهم نحو الحصن لتعتصم به ، وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين تقرر به مصير مصر كلها .

وقدعرفت الوقعة بوقعة عين شمس ، وقد ترجمها بطلر خطأ باسم موقعة هليوبوليس ،

وهى فى الواقع لم تكن فى المطرية (عين شمس) أو فى موقع هليوبوليس الحالية وانما على مقربة من حصن بابليون ، فهى أولى بأن تسمى معركة بابليون ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخها ، ولكن الأغلب أنها كانت فى ١٠ رجب ١٩ هـ / ١٥ يوليو ٦٤٠ م ، وقد اشتهر موضع انهزام الروم فى الروايات العربية المتأخرة بمسجد سمى بمسجد الفتح بناه يانس الرومى الوزير الفاطمى بالقرافة الكبرى ، واستشهد فيها نحو أربعمائة من المسلمين دفنوا بمقبرة واحدة عرفت بمقبرة الشهداء بموضع يعرف بمجرى الحصى قرب رباط الأمير مسعود .

ويذهب بطلر الى أنه لم ينج من جند الروم الذين خاضوا المعركة الا ثلاثمائة ، لاذوا بالحصن وأغلقوا الأبواب . وقد استولى الذعر على من فى الحصن ، فخرج جماعة منهم فارين بأنفسهم وركبوا النهر الى قرية نقيوس ، وعلق عليها بقوله : « على أنه بقيت من الروم فئة لا بأس بها ، اجتمع اليها من كان فى الحصن فى أثناء القتال ، فصارت منهم جميعا مسلحة قوية تستطيع الدفاع عنه . ولكن النصر أفاد العرب فوائد جمة ، فقد أصبحت مدينة مصر فى قبضة يدهم بغير قتال (كذا) وكانت من قبل يحميها الجيش الذى فى الحصن ، وأصبحوا يملكون ناصية شاطىء النهر من ناحيتى الحصن من أعلاه ومن أسفله ، ونقلوا عسكرهم بعد من هليوبوليس (الأصح أم دنين) فضربوه فى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس . وذلك المكان هو الذى صار يعرف بالفسطاط فيما بعد . وقد صار جيش العرب بعد ذلك النصر كافيا لحصار بابليون لا يعوقه عائق من التضييق عليه بعد أن قضى على جيش الروم ، فلم تبق منه الا الفلول التى لاذت بالحصن أو هامت على وجهها فى بلاد مصر السفلى » .

بدأ عمرو بعد ذلك مباشرة فى الاستعداد لاقتحام الحصن ، ففرق رجاله كتائب لمهاجمة الحصن من نواحيه كلها ، ونصب عليه منجنيقات يبدو أنها لم تكن محكمة الصنع والوضع ، لأنها لم تقم بشىء ذى بال . وكان فى الحصن جماعة قوية من الروم ذكر منهم حنا النقيوسى قائدين هما تيودور وأودقيانوس ، وذكر العرب قائدا ثالثا يسمونه الأعرج أو الأعيرج ويسمونه « المندقور » وهو تحريف للفظ mandatur وهى مرتبة من المراتب العسكرية فى الجيش البيزنطى ، ويغلب أنه كان حاكم الحصن وان كان بطلر — متابعا مذهبه المعروف فى حل هذه المشاكل — يذهب الى أن المراد به چورچ حاكم اقليم مصر ، وقد ذكره حنا النقيوسى . وكانت فى الحصن أيضا جماعة من جند الأقباط وكبرائهم ، وقد نفى ذلك بطلر ، وهو حريص أشد الحرص على نفى كل اشتراك للمصريين فى الأعمال العسكرية

الخاصة بفتح مصر ، وهو حرص لا معنى له ، اذ أنه من الثابت أن فرقا كثيرة من الجيش البيزنطى فى مصر كانت من الأقباط . نعم انهم مالوا الى الحياد بعد سقوط الفرما ، وانضموا الى المسلمين علانية بعـــد ســقوط حصن بابليـــون ، ولكن ليس معنى ذلك أنهـم لم يكونوا موجـودين فى الحصـن فى ذلك الحين . وكانت فى الحصن ذخيرة طيبة من الزاد والسلاح من كل نوع ، وقد لجأ اليه جمع عظيم من غير الجنـد من أهل منطقـة مصر والأديرة المجاورة للاحتماء بأسواره . ويقال ان المقوقس كان بداخله اذ ذاك ، وهو قول لا نستطيع نفيه أو تأكيده ، وعلى أى الأحوال فانه لما اشتد حصار العرب للحصن وقتالهم لمن فيه ، تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجـــوا من باب الحصن الجنوبى وعبروا الى جزيرة الروضة وقطعوا الجسر الذى يصلها بالحصن حتى لا يصل اليهم أحد . وبعد قليل خاف الأعيرج ونفـر ممن معه ، فهربوا الى جزيرة الروضة لاحقين بالمقوقس ومن معه .

بهذا هان أمر الحصن ، وأصبح الاستيلاء عليه مسألة وقت ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة الروضة ، ورأى المقوقس أن الظرف لا يحتمل طول الانتظار فبدأ الاتصـــال بالعرب ، وأرسل الى عمرو يطلب المفاوضة ، فأرسل اليه عشرة رجال فيهم عبـــادة بن الصامت ، وهو الذى تولى الكلام . وقد أوردت الروايات العربية الحديث الذى جرى بين عبادة والمقوقس ، وهو حديث بليغ عبر فيه عبادة عن روح العرب المجاهدين أحسن تعبير . والذى يعنينا هنا هو تمسك المسلمين بشروطهم المعروفة : الاســلام أو الجـزية أو القتال . وقد مال المقوقس الى الجزية ، ورفض هذا الحل كثير ممن معه من الروم وقالوا : « القتال أهون علينا » ، وكانت هذه المفاوضة فى آخر شعبان ١٩ هـ / أغسطس ٦٤٠ م .

معاهدة بابليون :

وفى أثناء المفاوضات تمكن العرب من الاستيلاء على الحصن ، وقد تولى كبر ذلك الزبير بن العوام فى خبر طويل . ويبدو أن المسلمين لم يقتحموه اقتحاما كما تذهب اليه الروايات ، لأن المحـــاصرين فيه لم ينزلوا الا عـلى شروط ، وقد أسرف الـرواة فى الحديث عن تلك الشروط حتى جعلوا حديثها أقرب الى الخيال ، ولكننا نأخذ بالمعقول المقبول ونقول انهم سلموا الحصن مقـــابل عشرين ألف دينار ومقـــادير من الأزواد والملابس . وقد زخرف الخبر بعد ذلك عـلى أيدى الرواة ، فصاغوه منسوبا الى عبد الله ابن عمرو بن العاص وجعلوه فى صيغة فقهية فيها شىء على الأرض وشىء على الرءوس ، وكل هذه زيادات جدت فيما بعد ، أجـاد سبكها الفقهاء لكى يتخذها الحكام أساسا فى تقـدير جبـاية مصر وليست من الحقيقـة

التاريخية فى شىء . وتسلم العرب الحصن وخرج من فيه ، وأصبح من ذلك الحين حصنا اسلاميا .

وقد وجد المقوقس فى سقوط الحصن ما يقوى وجهة نظره ، فأخذ يحض من معه على ضرورة التسليم والاذعان للجزية ، حتى قبلوا رأيه وتصالح الفريقان . ولم يكن المقوقس ممثلا للامبراطور البيزنطى ، ولهذا فقد نص فى معاهدة الصلح على أن الأمر خاص بأهل مصر أو الأقباط ، وقد أورد ابن عبد الحكم وغيره نص المعاهدة ، وسنورده فيما يلى لأهميته مقسما الى فقرات بحسب موضوع كل فقرة ، حتى نستطيع الرجوع اليها فيما يلى من البحث :

١ — « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبِهم وبرهم وبحرهم .

٢ — لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص .

٣ — ولا يساكنهم النوب (أى أهل النوبة) .

٤ — وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف (دون تحديد والأغلب أن المراد درهم ، وستَرد مناقشة ذلك) .

٥ — وعليهم ما جنى لُصُوتُهم (أى لصوصهم) .

٦ — فان أبى أحد منهم أن يجيب (يريد الى الصلح) دُفع (أى خفض) عنهم بقدر ذلك .

٧ — ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم .

٨ — ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا .

٩ — عليهم ما عليهم أثلاثا ، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .

١٠ — على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين .

١١ — وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا فرسا على ألا يُغْزَوا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .

١٢ — شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر » .

ونصوص هذا العهد واضحة لا تحتاج الى مزيد من البيان . وهى فى ذاتها تؤيد ما قلناه من أن المقوقس كان من أقباط مصر ، وأنه كان يتكلم باسم مواطنيه ، ولو أنه كان قيرس عامل هرقل لما عقد الصلح عن أهل مصر دون سواهم من الروم ، الا مَن قبل من هؤلاء الأخيرين الدخول فى ذلك الصلح . ويهمنا أيضا ملاحظة أنه صالح عمن تبعه من

أهل مصر ، لأن نواحى أخرى كانت لم تخضع بعد ، فهو غير مكلف بأداء الضريبة عنها ، واذا ثارت ناحية على العرب وقطعت أموالها خفض مقدار الضريبة بقدر ما يخص هذه الناحية (فقرة ٦) ، لأن أهل مصر غير مكلفين باخضاع نواحيهم للعرب ، وعلى عكس ذلك كانوا مسئولين عن الأمن فى نواحيهم ، ولهذا فعليهم ما جنى لصوصهم (فقرة ٥) . وواضح من الفقرة الحادية عشرة أن نفرا من أهل النوبة استجابوا لهذا الصلح ، ففرضت عليهم ضريبة من الماشية والخيل .

وقد ذهب بطلر الى أن هذا الصلح خاص بأهل منطقة مصر وحدها ولم يكن صلحا عاما عن أهل مصر ، واعتمد فى ذلك على حجج أهمها قلة قدر الجزية التى تقررت (٥٠ مليون درهم ، وهى ٣٫٥ مليون دينار) وخلط بين معاهدة الصلح هذه وشروط تسليم حصن بابليون . وغاب عنه أن مبلغ الجزية الذى تقرر فى الصلح كان تقديرا مبدئيا ، وسيعاد التقدير بعد تمام فتح مصر كلها على ما سنراه .

استكمال فتح الوجه البحرى والصعيد والفيوم :

وبقى للروم بعد ذلك معقل آخر هو الاسكندرية ، وكان لابد من فتحها حتى يتم خلاص البلاد من الروم ، ولكن عمرا رأى أن يستكمل افتتاح ما يستطيع الوصول اليه من نواحى مصر قبل أن يخرج الى الاسكندرية ، فبعث بسرايا سريعة الى نواحى الوجهين القبلى والبحرى ، فذهبت حملات الى عين شمس وتنيس ودمياط وتونة (اندثرت اليوم ومكانها جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم ابن سلام ، شرقى مطرية المنزلة) ودَميرة (حاليا قرية بمركز طلخا ، مديرية الغربية) وشطا (من ضواحى دمياط على ٥ كيلو مترات منها) ودقهلة وبِنَا (اليوم بنا أبو صير مركز سمنود مديرية الغربية) وبوصير (اليوم أبو صير بنا ، مركز سمنود ، غربية) والبشرودات (اقليم كان بشمالى الدلتا حول بحيرة البرلس) ثم الى الفيوم والأشمونين واخميم وغيرها من بلاد صعيد مصر « فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر ، فصارت أرضها أرض خراج » كما يقول البلاذرى . وكان أهل هذه النواحى يدخلون على شروط الصلح الذى عقده المقوقس ، فزادت مقادير الجباية ، مما جعل عمرا يقرر النظر فى أمرها جملةً بعد فتح الاسكندرية .

ويبدو أن فتح الفيوم كان أشبه بالمغامرة ، لأن المسلمين لم يفتحوا أول الأمر الا الى قرية متطرفة الى الشمال من قراها تسمى البهنسا (زالت اليوم وبقى اسمها على حوض المهمسا أو المهمس بناحية قلمشاه ، الفيوم) ، أما الاستيلاء على ناحية الفيوم فلم يتم الا بعد ذلك بنحو عام ، وتذهب الروايات الى أن أمرها ظل مجهولا للعرب حتى دلهم رجل عليها وعلى الطريق اليها ، وقد

كتب فى فتحها كتاب قصصى خاص يسمى « فتوح البهنسا » . وذهب يوحنا النقيوسى الى أن العرب عندما دخلوا البهنسا قتلوا كل من وجدوه فيها من رجال ونسوة وأطفال، وكذلك فعلوا عند دخولهم نقيوس ، وكلا الأمرين مستبعدان ، اذ لماذا يختص العرب هذين البلدين بهذه المعاملة دون بقية بلاد القطر ؟ ولا يخرج الأمر هنا عن كونه احدى الفريات الكثيرة التى ملأ بها هذا الراهب كتابه .

فتح الاسكندرية :

ولم يضع عمرو وقتا ، بل اتجه نحو الاسكندرية رأسا . وللمرة الأولى نرى القبط الى جانب العرب صراحة ، وذلك نتيجة طبيعية لمعاهدة الصلح ، فيقول ابن عبد الحكم عن عثمان بن صالح : « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطريق وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم ، وسمعت بذلك الروم فاستمدت واستجاشت ، وقدمت عليهم مراكب كبيرة من أرض الروم ، فيها جمع من الروم عظيم بالعدة والسلاح » . ولم يلق المسلمون فى طريقهم أحدا من الروم الا عند ترنوط (حاليا الطرانة مركز كوم حمادة ، مديرية البحيرة) ، وكانت بها فرضة يعبر النيل عندها فى الذهاب الى الاسكندرية ، وقد لقى المسلمون بها حامية رومية صغيرة انهزمت أمامهم .

ثم نزل عمرو بنقيوس ، وكانت بها حامية رومية يقودها قائد يسمى دومنتيانوس تحت يده سفن كثيرة فى النيل ، فلما رأى العرب ترك سفنه ومعداته وفر هاربا مع نفر من جنده الى الاسكندرية ، فأرسل عمرو فى أثره سرية يقودها شريك بن سمى المرادى ، فأدركهم عند كوم شريك (مركز كوم حمادة ، بحيرة) وكانوا أكثر من المسلمين عددا فأحاطوا بهم ، فأرسل شريك يستنجد بعمرو ، فأنجده ، وتراجع الروم حتى سُلْطَيْس (اليوم سنطيس على سبعة كيلو مترات جنوبى دمنهور) فالتقوا عندها وانهزم الروم ، وتقهقروا حتى وقفوا عند الكريون (قرب معمل القزاز ، مركز كفر الدوار بحيرة) وكانت مفتاح الطريق الى الاسكندرية . وكان فيها حصن منيع شمالى الترعة الذاهبة الى الاسكندرية ، وكان القائد تيودور قد تحصن بها وبعث يطلب النجدات ، فأتته من مواضع مثل الخَيْس (مكانها الآن قرية أم حكيم ، مركز شبراخيت ، بحيرة) وسخا (مركز كفر الشيخ) وبلهيب . واستمر القتال بضعة عشر يوما ، ثم انهزم الروم وتعقبهم المسلمون حتى بلغوا خط الحصون الذى يحمى الاسكندرية فوقفوا عنده .

ونزل المسلمون « ما بين حلوة الى قصر فارس الى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط ، يمدونهم بما احتاجوا اليه من الأطعمة والعلوفة ، فأقاموا شهرين » . وقد استعد

الروم فى الاسكندرية اســـتعدادا عظيما ، واهتم هرقل للأمر حتى قيــل انه استعد للذهاب اليها للدفاع عنها بنفسه لولا أن حال الموت دونه وذاك . وقد طال وقوف عمرو أمام الاسكندرية ، وكان بطبعه رجلا وافر النشــاط لا يطمئن الى الســكون ، فشغل بعض جنده فى سرايا أخضعت بعض نواح من شمال غرب الدلتا واقليم البحيرة ، ثم عــاد فشدد الهجوم عــلى الاسكندرية حتى طلب المدافعون عنها التسليم مقابل الجزية ورد من عسى أن يكون العــرب قد سبوهم من أهلهــا . ولم يستطع عمـــرو اجابتهم الى ما طلبوه الا باذن من الخليفة عمر ، لأن حكم البلد الذى يستولى عليه بعــد هذا القتال العنيف هو حكم العنوة ، فى حين أن المدافعين عن الاسكندرية طلبوا معاملة الصلح ، فكتب عمرو الى عمر بالأمر ، فوافق عــلى اجابة المطلب ، ودخل العرب الاسكندرية بعــد نحو ثلاثة أشهر من القتال والحصار .

وقد روى ابن عبد الحكم خبر الفتح عن رجــل ممن حضروه هو زياد بن جَــزْءٍ الزبيدى . ولم يكن أحد يتصور أن مدينة كالاسكندرية تسقط بعــد هــذا الوقت القصــير ، ولكن هكذا بلغ ضعف الروم واضطراب أمرهم ، وهكذا بلغت قوة العرب وعلو نجمهم . وقد أسرع عمرو بعد دخول الاسكندرية فأرسل جزءا كبيرا من جيشه ليتتبع فلول من هرب منها من الروم ، وأحس الذين ركبوا البحـــر بذلك ، فعادوا الى الاسكندرية ودخلوها ناقضين للعهد ، فقاتلهم المسلمون قتالا عنيفا حتى استولوا على البلد مرة ثانية . ورأى عمرو أن ذلك يبيح له اعتبار البلد قد فتح عنوة « بغير عقد ولا عهد » ، فبعث الى عمر يستأذنه فى أن يجعلها وأهلها غنيمة للمسلمين ، فأبى عمر وأمره بأن يجرى عليهــا الشرط الأول . وأسرع قــيرس الى القسطنطينية ليحصل على تفويض بقبــول الصلح ، وعاد بالموافقة واشترط المحافظة على الكنائس وعدم التدخل فى الشؤون الدينية للأهالى والســماح لليهـــود بالاقامة فى الاسكندرية ، وأن يبقى العرب أحــد عشر شهرا خارج المدينة حتى يتم جلاء الروم عنها . وقد قبل عمرو ذلك كله وتم الصلح أوائل ذى قعدة ٢٠ هـ / أوائل نوفمبر ٦٤١ م ، وأبحر الروم من الاسكندرية فى ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وكان قيرس قد مات خلال مهلة الأحد عشر شهرا ، فى ٢١ مارس ٦٤٢ .

بذلك تم فتح مصر كلها فى نحو سنتين وأربعة أشهر ، فقد وصل عمرو بن العاص العريش فى ١٠ ذى حجة ١٨ هـ / ١٢ ديسمبر ٦٣٩ وبارح الاسكندرية آخر جندى بيزنطى فى ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ . وضم العرب الى امبراطوريتهم الناشئة هذا القطر المصرى الذى كان أغنى وأثمن ما ملكته دولة البيزنطيين ، ووضع العرب قدما ثابتة فى

افريقية مكنت لهم فيما بعد من السيطرة على الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، ومن الاسترسال مع الفتح حتى استولوا على المغرب كله والأندلس ، وسيطروا بذلك على الحوض الغربى لذلك البحر وتمهد السبيل لتحويله الى بحيرة عربية . وامتدت حدود المشرق حتى وصلت الى المحيط الأطلسى بل الى جبال البرت المعروفة بالبرانس ، وانفتحت أمام المسلمين الطرق الى قلب القارة الافريقية ، فلم يكن فتح من فتوح الاسلام أعظم أهمية ولا أبعد أثرا فى تاريخه من فتح مصر . ولا يتسع المجال هنا لعرض النتائج البعيدة المدى لهذا الفتح ، فهى أظهر من أن تبين وتوضح ، وسنرى بعض النتائج فيما يلى من دراستنا .

مصر جزء من الدولة الاسلامية(١)

تعود المؤرخون أن يقولوا ان مصر أصبحت بعد تمام الفتح ولاية من ولايات

---

(١) **أصول :** الى جانب « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لابن عبد الحكم ، و « كتاب الولاة والقضاة » للكندى ، و « خطط » المقريزى ، طبعة القاهرة ١٣٢٤ ج ١ و ٢ ، والطبرى وابن الأثير وبقية المراجع التى ذكرناها فى الفقرة السابقة ، انظر :

المقريزى : اتعاظ الحنفا ، طبعة الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

ـ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الجزء الأول ، أقسام ١ و ٢ و ٣ .

ـ : تاريخ القبط ، قطعة نشرها ڤستنفلد فى جوتنجن سنة ١٨٤٥ .

. . . .

أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ و ٢ ، القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

ابن حجر العسقلانى : الاصابة فى تمييز الصحابة ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥ (مواد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح ومعاوية بن أبى سفيان ومعاوية بن حديج) .

ابن دقماق : كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ، ج ١ و ٢ ، بولاق ١٣٠٦ .

قدامة بن جعفر : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ج ٦ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٩ .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ فى ١٤ جزءا

يحيى بن آدم القرشى: كتاب الخراج ، ليدن ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦ .

أبو يوسف القاضى : كتاب الخراج ، بولاق ١٣٠٢ .

يحيى الأنطاكى : كتاب التاريخ ، طبعة لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ليدن ١٩٠٨ .

ابن سعيد : المغرب ، الجزء الخاص بمصر، طبعة الدكاترة زكى حسن وشوقى ضيف وسيدة اسماعيل الكاشف ، القاهرة ١٩٥٢ .

ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جزء واحد نشر فى دار الكتب سنة ١٩٢٤ .

ابن الجيعان : التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ، القاهرة ١٨٩٨ .

الاسحاقى : لطايف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣٢٨ .

السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢١ .

مجمـــــوعات أوراق بردية ووثائق نشرها Galtier فى مطبوعات المعهد الفرنسى بالقـــاهرة سنة ١٩٠٩ ، مجلد ٢٢

Max van Berchem : *Materiaux pour un corpus inscriptionorum arabicarum*, tome 1, le Caire 1894-1903

وقد نشر المجلد الثانى جاستون ڤييت فى سلسلة

Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, vol. LII, le Caire, 1929-1930.

Adolf Grohmann : *Corpus papyrorum Raineri*, Series arabica. Wien, 1923-1924.

Ibidem, *Arabic papyri in the Egyptian Library* 4 volumes, le Caire, 1934- Sqq.

وقد ترجم الجزءين الأول والثانى الدكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٣٥ و ١٩٤٠. ونشرت أيضا أربع محاضرات للأستاذ جروهمان مترجمة الى العربية بقلم توفيق اســكاروس ، القاهرة ١٩٣٠

Carl Heinrich Becker : *Historische Studien uber das Londoner Aphroditenwerk* (Der Islami Band II, 1911).

Karabacek : *Papyrus Herzog Rainer. Fuehrer durch die Austellung.*

H.I. Bell : Translations of the Greek Aph, rodito papyri in the British Museum (Der Islam, Baende II, III, IV, XVII, 1911-1912-1913-1928)

W.E. Crum : *Coptic Ostraca.* London 1912.

Gaston Wiet et autres : *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, 1931 sqq.

ابحاث ودراسات :

الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٤٧ . وهو أهم بحث فى الموضوع .

أحمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٢٨، وضحى الاسلام ، ج ١ القاهرة ١٩٣١ .

الدكتور محمد كامل حســين : أدب مصر الاسلامية ــ عصر الولاة ، الطبعــــة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

محمود عكوش : مصر فى عهد الاســـلام ، القاهرة ١٩٤١ .

الدكتور عبد الرحمن فهمي : صنج السكة، القاهرة ١٩٥٨ .

Carl Heinrich Becker : *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam*, Heft 1. Strasburg, 1903.

— :*Articles Egypte et le Caire*, Encyclopédie de l'Islam.

— : *Islamstudien.* 2 Baende, Leipzig, 1924.

Max van Berchem :*La propriété territoriale et l'impôt foncier sous les premiers califes.* Genève, 1886.

Une page nouvelle de l'histoire de l'Egypte. Journal Asiatique, 26 série, tome IX, Paris, Janvier, Février, 1907.

Butcher, Mrs. E.L. : *The Story of the Church of Egypt.* London, 1897.

Franz Pascha : *Kairo*, Leipzig, 1903.

Reitmeyer : *Beschreibung Aegyptens im mittelalter aus dem geographischen werken der Araber.* Leipzig, 1903.

Becker : *Papyri Schott Reinhart.* Heidelberg, 1906.

Casanova : *Essai de reconstruction topographique de la ville d'Al-Foustat ou Misr* dans Mémoires de l'Institut Fr. d'Arch. Orientale, vol. XXXV. Le Caire, 1913-1919.

Wuestenfeld : *Die Stattkalter von Aegyten zur zeit der Chalifen*, Goettingen, 1875-1877.

الدولة الاسلامية . وهذا القول يخالف الواقع بعض الشيء ، وأقل ما يفهم منه أنه كانت هناك دولة رئيسية مركزية كالدولة الرومانية مثلا ، تعتمد على شعب ممتاز حاكم كالشعب الروماني . والحقيقة فيما يتصل بدولة الاسلام تخالف ذلك ، فلم تكن هناك ، من الجهة النظرية الاسلامية ، دولة رئيسية تقوم على شعب ممتاز حاكم ، تخضع له ولايات تعيش فيها شعوب مقهورة مغلوبة على أمرها ، وانما الحقيقة فيما يتصل بالدولة الاسلامية أنها كانت دولة عامة يقوم بشئونها المسلمون عامة لا يفرق بينهم فى الحقوق والواجبات جنس أو مكان ، فكل مواطن مسلم فى هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق فى ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك فى وضع التشريع الخاص بها .

ومن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تولى المسلمون من غير العرب وظائف عامة ، وابتداء من عصر الراشدين اشتركوا فى التشريع والتقنين ، وخلال العصر الأموى قادوا الجيوش وتولوا الولايات ، وخلال العصر العباسى تلاشت مسألة الأصول تلاشيا تاما ، وأصبحت الدولة بالفعل دولة عامة للمسلمين عامة . كذلك انتقل مركز الدولة من جزيرة العرب الى الشام ثم الى العراق ، والمفروض أنهما ولايتان ، ومع ذلك لم ينكر أحد ذلك الانتقال ، ونظر اليه الناس نظرتهم الى شيء عادى لا يتعارض مع طبيعة دولة الاسلام . أى أن دولة الاسلام ليست دولة جنس ولا قطر بعينهما ، فدخول مصر أو غيرها من النواحى فى طاعة الاسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب أو بلد له السيادة كما كان الحال مع الامبراطوريات المعروفة فى التاريخ ، وانما كان معناه أنها أصبحت جزءا من هذه الدولة العامة ، بل أصبحت قاعدة لامتدادات جديدة لدولة الاسلام .

ومن مصر فتح المغرب كله ، وأصبح المغرب بدوره جزءا من الدولة العامة ، وقام أهله بضم قطر جديد الى الدولة العامة التى أصبحوا مواطنين فيها وفى جملة أصحابها ، ففتحوا الأندلس ، أو قاموا بأعظم جانب من هذا الفتح . ومثل هذا حدث فى المشرق : فتح العرب العراق ، ثم اشترك أهل العراق مع العرب فى ادخال ايران فى دولة الاسلام ، ثم اشترك العرب والعراقيون والايرانيون فى فتح ما وراء النهر وأخذوا يدخلون الأتراك وبلادهم فى دولة الاسلام ، ثم قام الأتراك بتوسيع نطاق الدولة فيما يليهم شرقا حتى وصلوا بها الى الهند . وتوالت هذه الأجناس كلها على قيادة أمور الدولة الاسلامية العامة . كلما وهن جنس من أجناسها نهض بالأمر من بعده جنس آخر ، حتى صارت أمورها العامة آخر الأمر الى الأتراك العثمانيين . والى هذه الطبيعة الخاصة بدولة الاسلام ترجع الحيوية المتصلة التى ميزتها على غيرها من دول العالمين

القديم والوسيط . وربما شابهتها من بعض الوجوه الدولة البيزنطية ، التى يرجع طول عمرها الى أنها كانت فى الواقع دولة عامة يتولى أمورها الأكفأ أو الأمهر من أهلها ، وتتألف جيوشها من القوقازيين وأهل آسية الصغرى والأرمن وأهل البلقان بل الأتراك على السواء .

غير أنه فى دولة مترامية متوسعة دائما كالدولة الاسلامية تستوطن أراضيها شعوب شتى لم يخل الأمر من شعب قوى وشعب ضعيف ، أو شعب يكون قويا حينا ضعيفا حينا ، ومن ثم فقد غلبت فى داخلها شعوب على شعوب وخضعت بلاد لبلاد ، دون أن يكون مغنى ذلك أن الشعب الغالب أصبح صاحب الدولة وأن الشعب المغلوب قد أصبح رعية محكومة مستغلة ، كما كان أمر مصر مع الرومان مثلا ، فقد كان من المفروض والمقرر De jure et de facto أنها ولاية تابعة لروما أو القسطنطينية . فاذا كان المصريون مثلا قد غلبوا على أمرهم فى بعض عصور التاريخ الاسلامى واعتبرت بلادهم ولاية خاضعة لغيرها ، فمعنى ذلك أنهم لم يستطيعوا المحافظة على حقوقهم ، وعندما استقوى أمرهم بعد ذلك غلبوا غيرهم واستقلوا ببلادهم بل ضموا اليهم غيرهم . والحجاز الذى كان المفروض أن يظل سيد الدولة كان أقل بلادها حظا فى الرياسة والقيادة على طول تاريخ الاسلام وعرضه .

كذلك لم يخل الأمر فى هذه الدولة الاسلامية الواسعة من سوء ادارة أو ظلم أو فساد سياسة ، وما الى ذلك من المساوىء التى لا تخلو منها دولة من الدول ، ومرد ذلك دائما الى صعوبة الحكم فى ذاته والى تعدد المشاكل وعسرها والى عجز الحكام عن ايجاد الحلول الصالحة، وذلك أمر لا علاقة له بدولة الاسلام فى ذاتها ، بل هو مشكلة انسانية خالدة قاسى منها بعض شعوب الاسلام كما قاسى منها غيرها .

هذه مقدمة لابد منها قبل النظر فى شؤون مصر بعد دخولها دولة الاسلام ، فهى لم تصبح ولاية عربية أو ولاية اسلامية ، بل جزءا من دولة الاسلام يجرى عليها وعلى أهلها ما يجرى على الوطن الاسلامى الكبير وأهله جميعا ، ويكفى أن نقول ان بلاد العرب وهم الجنس الذى تنسب اليه الدولة كلها ، كانت أسوأ حالا من مصر أو غيرها من أجزاء الدولة الاسلامية خلال العصر الأموى وما تلاه ، لا لأن شعبها كان شعبا مغلوبا أو مستضعفا ، بل لأن طبيعة اقليم الحجاز لم تساعد أهله على الصمود فى زحمة الصراع الطويل الذى لم يهدأ تياره قط على طول تاريخ الاسلام . ولم يشعر شعب مصر بعد دخوله فى دولة الاسلام بأنه شعب مقهور ، ولم يكن موقفه من العرب موقف مغلوب من غالب كما يقول نفر من الأوربيين الذين أرخوا لمصر الاسلامية (مثلا يقول جاستون

les vainqueurs et les vaincus : قييت) ،
بل اننا اذا نظرنا الى الأمر مليا استطعنا أن تقول انهم كانوا — بموقفهم الى جانب العرب أثناء الفتح — فى جملة الغالبين ، وهناك عبارة مشهورة لميخائيل السورى يقول فيها : « انه ليس بالكسب اليسير أننا تخلصنا من قسوة الرومان وشرهم وسخطهم وعصبيتهم القاسية علينا ، ووجدنا أنفسنا بذلك فى راحة » ؛ وليس هذا كلام رجل يشعر أن قومه قد غلبوا على أمرهم .

على أى الأحوال أصبح المصريون — سواء من أسلم منهم ومن لم يسلم — جزءا من أهل الوطن الاسلامى الكبير ، يجرى عليهم ما يجرى على غيرهم من أحكامه وظروفه وتقلب الأحوال به ، فرخيت حياتهم واطمأنوا بقية خلافة عمر بن الخطاب والنصف الأول من خلافة عثمان بن عفان ، شأنهم فى ذلك شأن بقية أهل دولة الاسلام . فلما نشبت أزمة عثمان وتحركت الفتن اشترك أهل مصر فيها وقاموا بدور معروف ، وشاركوا أيضا فى النزاع بين على ومعاوية ، وكان لهم شأن فى النزاع بين الأمويين والزبيريين ، بل اقترن اسم مصر بالصراع النهائى بين الأمويين والعباسيين ، أى أن تاريخ مصر خلال هذه الفترة يعتبر جزءا من تاريخ دولة الاسلام كلها . ولهذا فانه يعسر أن نكتب لها تاريخا مستقلا من الفتح الى نهاية الدولة الأموية على الأقل .

ويهمنا أن نلاحظ هنا أمرا كان له أبعد الأثر فى تحديد الدور الذى قامت به مصر فى تاريخ العصر الذى نتحدث عنه هنا وما تلاه من عصور ، وهو أن مصر بطبيعتها بلد غنى يقوم غناه على مورد ثابت هو الأرض ، وأن شعبها شعب دءوب خبير باستغلال أرضه وما فيها من موارد الخير الأخرى ، وهو الى جانب ذلك قنوع مسالم يميل الى الحياة المستقرة الراتبة . وقد نظم هذا الشعب أموره على نحو ثابت منذ الزمن القديم ، ومن ثم فلم تكن هناك فى العصور الوسطى مشاكل مستعصية أو طارئة كالتى تتعرض لها البلاد ذات الطبيعة الجبلية الوعرة ، أو التى يعتمد أهلها على مطر غير منتظم أو على تجارات رائحة غادية فى البر والبحر ، وما الى ذلك من وجوه المعاش المرتبط بالظروف الطبيعية أو العامة . وكل ما تحتاج اليه مصر من حاكمها فى سياسة أمورها الداخلية هو أن يكون قادرا على أن يقر الأمن فى ربوع البلاد عادلا فى أحكامه وفيما يجبى من أموالها ، ولهذا كان الناس يعبرون عن الحكم فى العصر التركى « بالضبط والربط » أى ضبط الأمن وربط الأموال . أما ما عدا ذلك من الأمور كالتنظيم وتعهد المرافق فمن شؤون سكان مصر أنفسهم ، تعلموا كيف يرتبونها على مر العصور . وكل ما تعرضت له مصر خلال تاريخها من الأزمات والمتاعب كان سببه عجز الحكام أو جشعهم أو تدخلهم فى شؤون الناس تدخلا مفسدا .

لهذا لم تتطلب مصر من العرب أن يضعوا لها نظاما جديدا ، بل الاكتفاء برعاية النظام التقليدى . ولم يكن الرومان أو البيزنطيون من بعدهم قد أفلحوا فى حكم مصر ، لأنهم اعتبروها مورداً للغلال وأثقلوها بالمطالب والموظفين المكلفين بجمع المال ، ثم أضافوا الى ذلك التدخل فى شؤون العقيدة . وقد تلافى العرب ذلك كله من أول الأمر ، فقرروا على البلاد بالاتفاق مع أهلها قدرا معينا من الجباية واختصروا الجهاز الادارى الى أبسط حد ممكن ، وتركوا الناس أحرارا فى عقائدهم ، فكان من الطبيعى أن يسود الرخاء والاستقرار .

الفترتان الأموية والعباسية :

وينبغى أن نفرق عند دراستنا لأحوال مصر — منذ الفتح العربى الى قيام دولة أحمد بن طولون عام ٢٥٤ / ٨٦٨ — بين فترتين تختلف احداهما عن الأخرى اختلافا بينا فى الروح والاتجاه : الأولى تمتد من الفتح الى نهاية العصر الأموى (من شوال ٢١ هـ / سبتمبر ٦٤٢ الى ربيع الأول ١٣٢ هـ / أغسطس ٧٤٩) ، والثانية من بدء العصر العباسى الى استبداد أحمد بن طولون بشؤون مصر فى الشهور الأخيرة من سنة ٨٦٨/٢٥٤ . فالفترة الأولى تعتبر بصورة عامة فترة استقرار ونظام ورخاء ، تطول فيها مدد العمال ويغلب عليهم وعلى من يعاونهم العدل والقدرة وحسن السمت ، ولا يشكو المصريون بصفة عامة من ثقل ضرائب أو مساءات حكام . والفترة الثانية فترة قلقلة سياسية وفوضى ادارية تقصر فيها مدد الحكام ويتعاقبون فيها على البلاد واحدا فى اثر واحد ، ويفقد الكثيرون من كبار العمال الهيبة وثقة الناس ، وتعلو مبالغ الجبايات ويشكو المصريون الظلم وتكثر ثوراتهم وتتعرض أمور البلاد كلها للفساد . وهذا الاختلاف بين الفترتين انما هو صدى للتطور العام الذى شمل الدولة الاسلامية كلها خلال هذين العصرين .

الادارة :

ونبدأ بالفترة الأولى : اقتصر الجهاز الادارى الذى أنشأه العرب لمصر على وال يعتبر حاكما عاما وممثلا للخليفة ويدخل فى اختصاصه كل شىء بصورة مبدئية . فهو الحاكم الادارى الأعلى وأمير الصلاة والقائد العسكرى والمسئول عن شؤون المال وما الى ذلك الا القضاء ، فقد اعتبرته الدولة الاسلامية من أول الأمر وظيفة رفيعة القدر يقتضى صلاحها أن يكون سلطان صاحبها مستمدا من الرئيس الأعلى للدولة مباشرة . وكان الوالى يسمى أيضا العامل أو الأمير أو أمير الصلاة أو أمير الجند ، وتسميه الوثائق البردية اليونانية سيمبولوس . وقد يفرد الخليفة لبعض اختصاصات الوالى موظفا خاصا يعينه من عنده ، ويظهر هذا بصورة خاصة فى الناحية

المالية ، فكثيرا ما كان الخلفاء يعينون للقيام بها عاملا خاصا مسئولا أمامهم مباشرة يسمى عامل الخراج .

ولما كانت شؤون المال أهم جانب من أعمال الوالى فان ذلك التصرف كان يلقى معارضة شديدة من الولاة ، بل ترك عمرو بن العاص ولاية مصر عام ٢٥/٦٤٥ عندما قرر عثمان أن يولى عبد الله بن سعد على الخراج الى جانبه ، وفى خلافة معاوية شكا أخوه عتبة بن أبى سفيان عامل مصر من تولية وردان عاملا على الخراج الى جانبه ، فضم اليه الخراج . وكان الولاة على حق فى هذا الاعتراض ، لأن الخراج كان عصب الولاية فى واقع الأمر ، واذا تولاه رجل قادر استطاع أن يُخمل الوالى ، كما حدث عندما ولّى هشامُ بن عبد الملك عُبيدَ الله بن الحبحاب عاملا على الخراج ، فقد استبد بالعمال حتى عزل خمسة منهم خلال ولايته الطويلة على خراج مصر (١٠٥/٧٢٣ — ١١٦/٧٣٤) ومع ذلك فلم يقلع الخلفاء عن افراد الخراج بوال خاص حتى أقام خلفاء بنى أمية سبعة منهم فى فترات مختلفة . وعندما ولى هشام ابن عبد الملك على مصر الوليد بن رفاعة لم يدخر الوليد وسعا فى التخلص من عامل الخراج عبيد الله بن الحبحاب ، وتمكن من اقناع الخليفة بضرورة ابعاده عن خراج مصر ، فاستعمله على المغرب .

وكان العامل هو أمير الجند ، فكانت قيادة الجيوش وتأمين البلاد من البر والبحر من أهم اختصاصاته ، وينبغى أن نقرر أن عمال مصر حتى نهاية العصر الأموى كانوا على الجملة قوادا مهرة ، وسنرى فيما بعد مقدار اهتمامهم بشؤون الجند والحرب وتوفيقهم فى ذلك .

وكان العامل مسئولا عن الأمن داخل البلاد ، وجرت العادة بأن يعين الوالى من قبله موظفا مسئولا عن الأمن يسمى صاحب الشرطة ، يكون فى الغالب نائبا عنه اذا غاب وتاليا له فى الأهمية فى السلم الادارى ، وفى أحيان كثيرة كان صاحب الشرطة يخلف الوالى فى منصبه اذا عزل أو مات أو تنحى عن عمله . وربما أقام الخليفة صاحبا للشرطة من قبله . ووظيفة الشرطة بصفة عامة من وظائف الادارة التى لا نعرف عن أمورها شيئا مفصلا . وفيما يتصل بمصر لدينا اشارات كثيرة عن الشرطة ، ونستطيع أن نستنتج منها اختصاصاتها ، ولكننا لا نعرف المدى الذى كان يمتد اليه سلطان صاحبها : هل كان يشمل بلاد مصر كلها أو الفسطاط فقط . وقد ذهب بعضهم الى أنه كان يشمل القطر كله ، وأنه كان لصاحب الشرطة ممثلون فى النواحى ، ولكننا لا نجد بين أيدينا ما يؤيد ذلك ، وكل ما لدينا اشارات الى ما يسمى شرطة فوق أو الشرطة العليا وشرطة أسفل أو الشرطة السفلى ، والمراد هنا قسمان اداريان قسمت اليهما الفسطاط .

وعلى أى حال فان ذلك لا ينطبق علـى شرطة مصر فقط ، بل على شرطة غيرها من بلاد الاسلام ، ففى العـراق كانت الشرطة خاصة ببغداد، وربما كانت هناك شرطة خاصة بالبصرة ، ولكنها تابعة لوالى البصرة . وفى قرطبة كانت هناك شرطة عليا وشرطة سفلى خاصتين بالمدينة ، وكانت هنـاك شرطات فى كبار المدن ، ولكنها كانت تابعة للوالى . أى أن نظام الشرطة فى العالم الاسلامى كان نظاما خاصا بالعواصم ، ولم يكن جهـازا اداريا ضخما مثل جهاز البوليس والأمن العام عندنا اليـوم ، بل هو لم يكن — حتى فى هـذه الحدود — نظام أمن من أول الأمر ، بل كان يطلق فى العصور الأولى على فرقة ممتازة من الجند تقوم بحراسة الخليفة أو الوالى ، ثم امتد سلطان صاحبها الى الأمن فى العاصمة ، ولفظهـا معرب عن اللاتينى Securitas ، أما الأمن فى الكور فكان من شأن عمـال الكور .

وكذلك يقال عن البريد ، وقد نشـأت وظيفته من أيام معاوية بن أبى سيفان عـلى الأغلب ، وقد أنشأه ليعرف أخبار النواحى ، أى أنه كان نظاما مهمته تيسير المكاتبات بين مركز الدولة والنواحى ، وأهم أدواته الطرق التى تسير فيها البرد والخيل التى تحملها . وليس لدينا ما يدل على أن صاحب البريد فى مصر مثلا كان يقوم على تعبيد الطرق المؤدية الى دمشق أو بغـداد . انما كان الذى يهتم بذلك الخليفة نفسه ، فقد أمر عبد الملك بن مروان مثلا بصنعة الأميال — أى تمهيـد الطرق — واقامة النزل على المراحل لتحل بها خيـل البريد للراحة أو للاستبدال بخيل أخـرى . ولكن صاحب البريد كان موظفا رئيسيا ، لأنه كان مكلفا بايصال المكاتبات من مركز الخلافة الى عواصم الولايات .

هذه هى الوظائف الرئيسية التى احتفظ بها العـرب لأنفسهم أول الأمر ، أما بقية شؤون التنظيم الداخلى فقد تركت لأهـل البلاد . وقد قسمت مصر بصـفة عامة الى قسمين كبيرين : الصعيد وأسفل الأرض ، ويقابلان الوجه القبلى والوجه البحرى ، وفى حالات قليلة كان الأمير يولى على كل منهما عاملا تابعا له . ويغلب على الظن أنه كان يتولى شؤون كل من القسمين رجـل من أهل البـلاد — ومعظمها شؤون مالية — وكانت البلاد مقسمة فى العهد البيزنطى الى باجركيات فاحتفظ العـرب بهذا التقسيم ، وأطلقوا على الباجركية لفظ كورة وهو معرب من اليونانى .

وقد اجتهد ياقوت فى مقـدمة « معجم البلدان » فى تحديد معنى الكورة ، ولكنه لا زال فى حاجة الى بيـان ، فهو لا يعادل « المديرية » فى تقسيمنا الحـالى ، بل ربما كانت الكورة تقابل « المراكز » وما يتبع كلا منها من زمام ، فان ابن دقماق مثلا يقول ان كور مصر كانت ثمانين ، وقال المقريزى نقلا

عن القضاعى ان كور الصعيد كانت ٢٨ فلما ذهب يحصيها لم يذكر الا ٢٢ أو ٢٣ ، وكور أسفل الأرض ٢٥ أو ٣٣ أو ٣٨ ، والمجموع على أى حال لا يصل الى ٨٠ . والمهم لدينا أن الكورة كانت قسما اداريا ماليا يحكمه « صاحب كورة » من أهل مصر .

وكانت الكور مقسمة الى قرى ذهب بعضهم الى أن عددها ٢٠٠٠ ، وقال آخرون ان الوليد بن رفاعة أحصاها احصاء تاما دقيقا فبلغت ١٠٫٠٠٠ قرية ، « فلم يحص فى أصغر قرية منها أقل من خمسماية جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية ، يكون جملة ذلك خمسة آلاف ألف رجل » . وهذه كلها تقديرات جزافية لا نستطيع التعويل عليها ، وأبسط ما يدحضها أن احصاء الوليد بن رفاعة هذا — الذى يصف المقريزى ما أنفق فى عمله من جهد — قدر سكان مصر الذين تجب عليهم الجزية بخمسة ملايين ، فكان ينبغى أن تكون حصيلة الجزية وحدها ١٠ ملايين من الدنانير مع أن جباية مصر كلها فى العصر الأموى لم تزد على أربعة ملايين . وكل ما نستطيع قوله هو أن البلاد قسمت الى كور ، كل كورة تضم عددا من القرى . وعلى رأس كل كورة صاحب كورة مسئول عن شؤون كورته أمام العامل مباشرة ، ويعاون صاحب الكورة موظف مختص بشؤون المال يسمى الجشتال ، وهو معرب من اليونانى ومعناه الكاتب أو المسجل . أما القرية فيحكمها رجل يسمى المازوت أى شيخ القرية ورئيسها ، وهو معرب من اليونانى أيضا وله معنى الكاتب أو « الجرافوس » القديم .

ويبدو أن عدد الكور وحدودها لم تتغير خلال القرن الهجرى الأول عما كانت عليه خلال القرن السادس الميلادى ، فلدينا قائمة بباجركيات مصر عملها هيروقليس خلال الثلث الأول من ذلك القرن ، وهى تضم اثنتين وسبعين من عواصم الباجركيات ، نجد منها ٤٧ فى قوائم الكور التى كانت موجودة فى مصر خلال العصر الأموى . غير أن هذا التقسيم لم يظل على حاله ، واتجه الأمر شيئا فشيئا الى تقليل عدد الكور بضم بعضها الى بعض ، نتيجة للاضطراب والفساد اللذين دبا فى شئون البلاد عامة خلال العصر العباسى .

وهذا التقسيم الادارى يختلف عن التقسيم الجغرافى للبلاد ، وقد خلط بعض الكتاب فجعل الأقسام الجغرافية أقساما ادارية ، مثال ذلك أن تقسيم مصر جغرافيا الى أسفل الأرض والصعيد لم يكن له وجود فى التنظيم الادارى ، وكذلك تسمية أسفل الأرض بالريف ، وتقسيمه الى بطن الريف (وهو جزء الدلتا المحصور بين فرعى دمياط ورشيد) والحوف الغربى (وهو ما يلى فرع رشيد غربا) والحوف الشرقى (وهو ما يلى

فرع دمياط شرقا) . وربما كان لهذه الأقسام الجغرافية أثر فى التقسيمات الادارية الكثيرة التى عرفتها مصر خــــلال العصر الفاطمى وما تلاه ، أما العصر الذى ندرسه فلم يكن لها فيه صــــدى .ولم تكن الفســـطاط أو الاسكندرية معدودتين فى الكور ، بل كانتا مدينتين ، تعتبر كل منهما وحدة ادارية قائمة بذاتها .

شئون المال :

فاذا انتقلنا الى الناحية المالية وجـــدنا أنفسنا أمام مشكلة جديرة بأن نطيل الوقوف عندها ، لأن تفاصيلها تلقى ضوءا نافعا على النظم المالية التى سار عليها المسلمون فى ادارة دولتهم خــــلال عصرها الأول . وقد تعود الباحثون عندنا أن يقنعوا بما تورده المراجع العربية من بيانات عامة عن هــذه الناحية ويجتهدوا فى استخلاص أحكام منها ، فاذا ذهبنا ندرس هذه البيانات لاحظنا بين بعضها وبعض من الاختلاف والتناقض ما يجعــــل الاطمئنان اليها مدعاة للزلل وسوء التقدير .

ذلك أن هذه البيانات كلها لم تعتمد على نظر الى الواقع أو على نقل من وثائق رسمية أو سجلات ، وانما هى محاولات من مؤرخين كلهم متأخر عن العصر الذى ندرسه تأخــرا يحول بينهم وبين معرفة ما جرى عليه الأمر فى الواقع . صحيح أن أقدم الموثوق فيهم من أصــحاب هــــذه الأصول ، وهم ابن عبد الحكم والبلاذرى والطبرى ، ينسبون ما يقدمونه من معلـومات الى رواة يعتبر بعضهم فى مراتب المعاصرين ، ولكن هؤلاء الرواة جميعا فقهاء أو محدثون أو من يجرى مجراهم ، وأولئك جميعــا كانوا يرون أن مهمتهم « تقنين الواقع » ، أى صياغته فى صورة قانونية فقهية ، والتوفيق بينه وبين القواعد الشرعية الاسلامية : فاذا تحدثوا عن جبــاية اجتهــدوا فى تقسيمها الى جزية وخراج وزكاة ، واعتبروا ما سوى ذلك من الضرائب مغارم ومكوسا ، واذا فرغوا من أخبــار فتح بلد من البلاد وقفوا يناقشون ما فتح منه صلحا وما فتح عنوة وهكذا . وقد أشرنا فيما سبق الى أنهم لم يوفقوا فى درك مطلبهم هــذا ، فجاءت بياناتهم متناقضــة متضاربة ، ثم عثر الباحثون على مجموعات من الوثائق البردية الخاصــة بشئون مصر الادارية والماليــة خـلال القرنين الهجريين الأولين ، فاتضح منهــا أن الواقع يختلف تماما ، فى جملته وتفصيله ، عما ذهب اليــه أولئك المؤرخون .

وقد رأينا فى عهد الصلح الذى أوردناه برواية الطبرى (فقرة ٤) أن الاتفاق قد تم على أن يؤدى أهل مصر جزية سنوية قدرها ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دون تحديد ما اذا كان المراد دراهم أو دنانير . وقد غلب على رأينا أن المراد دراهم ، وقلنا ان ذلك يعتبر اتفاقا مبدئيا أعاد عمرو النظر فيه بعد تمام فتح البلاد . ثم ذكر ابن عبد الحكم روايتين تتفقان فى الروح

وتختلفان فى التفاصيل ، فأما الأولى فتذهب الى أن المقوقس لما خاف على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص أن يفرض للعرب دينارين على كل واحد منهم ، ونعتقد أن هذه الرواية ان هى الا محاولة غير موفقة لتقنين الفقرة الرابعة من عهد الصلح . وأما الثانية فتقول « ان الصلح تم على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط خاصة ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، من بلغ منهم الحلم . ليس على الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شىء . وعلى أن للمسلمين النزول بجماعتهم حيث نزلوا ، ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك ، كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها ، وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الحلم وفرض عليه الديناران ، رفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة ، فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار فى السنة » . وهذه رواية ظاهرة الضعف ، فهى تذكر أن احصاء دقيقا بأهل مصر قد عمل وأن جزية الرءوس وحدها بلغت ١٢ مليون دينار ، غير خراج الأرض ، ثم انها تجعل للعرب على المصريين حق النزالة والضيافة وهو فرض ثقيل يدخل ضمن المغارم المستثقلة فى الاسلام . وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين وضعوا صيغ هذه النظم رغبة منهم فى التوفيق بين الواقع والأحكام الشرعية . وكانوا يتصورون ، أو يحاولون أن يصوروا للناس ، أن الأمر جرى منذ البداية على القواعد التى استخرجوها هم أنفسهم من الأصول بعد الفتوح بزمن طويل .

وقد بدأ يتضح ضعف هذه الآراء من أواخر القرن الماضى ، عندما اكتشفت مجموعات الوثائق البردية الخاصة بالعصر البيزنطى والقرنين الهجريين الأولين . وقد درس ماكس ڤون برشم ما استطاع دراسته من هذه الوثائق واستطاع — اعتمادا عليها — أن يقرر أنه « قد فرضت على الناس ضريبتان رئيسيتان : الأولى ضريبة مالية كبيرة تسمى الجزية (باليونانية : ديموزيا) تؤدى نقدا بالدينار ، وضريبة نوعية أخف من الأولى تسمى الضريبة (باليونانية : ايمبولى) تؤدى بأرادب القمح . هذان المصدران من مصادر الايراد فى ميزانية الدولة يقابلان وجهين متميزين من وجوه الانفاق ، فالجزية تغطى عطاء الجند ، والضريبة تغطى ما كان يؤدى الى الجند من أرزاق . وكلتا الجزية والضريبة كانت مفروضة على الجماعة كلها كوحدة . كانتا ضريبتين فعليتين يسأل عنهما شيخ الناحية أمام الأمير رأسا . ثم حدث بعد

ذلك — نتيجة لما أصاب حصيلة الضرائب العامة من اضطراب بسبب دخول الناس فى الاسلام واتساع الملكيات العقارية التى حازها المسلمون — أن ظهر « الخراج » وتحدد فى صورة ضريبة واقعة على الأرض أيا كان مالكها » .

ثم توفر كارل هاينريش بيكر على دراسة الموضوع معتمدا على مجموعة الوثائق البردية المعروفة بمجموعة الأرشيدوق راينر Sammlung des Papyrus Erzherzog Rainer ودليل هذه المجموعة الذى وضعه كاراباتشيك Fuehrer durch die Austellung ، وعرض نتيجة دراسته فى أبحاث مختلفة أهمها الكراسة الأولى من كراستيه المعروفتين فى تاريخ مصر Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam وفى مقاله عن مصر فى دائرة المعارف الاسلامية ، وخلاصة رأيه : أن الحكومة كانت تطالب صاحب الكورة بنوعين من الضرائب : الديموزيا والضريبة الاستثنائية . وكان توزيع المستحق من هاتين الضريبتين على الأقسام الفرعية للكورة يتم فى الادارة المركزية بناء على قوائم تعد فى الناحية نفسها وترسل اليها مقدما ، وتبلغ الى هذه الأقسام ببلاغ رسمى يسمى « الانتاجيون » عن طريق صاحب الكورة . وكانت الديموزيا (الجزية) وهى الضريبة العادية تشمل :

١ — الجزية نفسها وتسمى « خروسيخا ديموزيا » وهى ضريبة مالية صرفة .

٢ — ضريبة الطعام (سيتيخا ديموزيا) وهى ضريبة عينية تؤدى قمحا أو شعيرا .

وكانت الادارة المركزية تحدد مبالغ هاتين الضريبتين . وكانتا تقرران جملة ، وتقوم الادارة المحلية بتقسيم مجموعهما حصصا على الأفراد كل بحسب طاقته .

أما الجزية نفسها (خروسيخا ديموزيا) فكانت تتألف من مجموعة من الجبايات هى :

(أ) الضريبة العقارية (ديموزياجيس) .

(ب) ضريبة الرءوس (اندريوسموس دياجرافوس) .

(جـ) الضريبة الادارية المحلية (دابانى) .

ولم تكن الضريبة العقارية خاصة بملاك الأراضى فقط بل كانت تشمل أيضا أصحاب الحرف الذين لا يملكون عقارا ما . ولم تكن ضريبة الرءوس فى أول الأمر ضريبة عامة ، ولا نعرف على وجه التحديد على أى أساس كانت تجبى . كذلك كان من الممكن أداء ضريبة الطعام (أمبولى) نقدا ، فيدفع الانسان قيمتها أو الثمن (اباريثرسموس) بحسب مصطلح هذه الأيام . وكان جزء من الأمبولى ينفق محليا لتغطية نفقات الادارة المحلية ، وهذا الجزء يعادل الضريبة الادارية

المحلية (دابانى) ويرسل الباقى الى الأهراء الحكومية فى الفسطاط أو الاسكندرية .

وكانت الضريبة الاستثنائية المسماة (اكسترا أوردينا) ضريبة متظمة أيضا ، ولكن نوعها كان يختلف بحسب الاقليم والظروف ، كأن يطلب الى الكورة مثلا أن تقدم الخشب وما اليه مما تبنى به السفن وكذلك الأدوات والعمال والبحارة وتدفع أجورهم ، وربما اضطر رجال الكورة الى شراء بعض هذه الأصناف المطلوبة واحتساب ثمنها من جملة الأمبولى المقررة . وكانت هذه الضريبة الاستثنائية ترسل مباشرة الى المعسكرات ومراكز تجمع الجند . وكانت الدولة لا تقبل من الكورة مقابل هذه الأصناف نقدا الا فيما يتصل بعلوفة الخيل ، ولكن كان من الممكن للأفراد أن يدفعوا المستحق عليهم نقدا ثم يقوم رجال الكورة بتدبير المطلوب .

وهذا التفصيل الذى أوردناه مستخرجا من واقع الوثائق البردية يدل على أن ما ورد عند ابن عبد الحكم ومن اليه لم يكن الا تصويرا نظريا فقهيا لما كان يجرى فى الواقع . ومع ذلك فان خطط المقريزى تضم نصوصا تؤيد ما تدل عليه أوراق البردى . فمن ذلك ما يقوله روايةً عن يزيد بن أسلم : « وكان عمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قبطها على جباية الروم ، فكانت جبايتهم بالتعديل ، اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نُقِّصوا ، فيجتمع عرافو كل قرية وأمراؤها ورؤساء أهلها ، فيتناظرون فى العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القَسْم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى ، فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم يجتمع (رجال) كل قرية بقَسْمهم ، فيجمعون قَسْمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة ، فيبتدئون ويخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماياتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا لما فى كل قرية من الضياع والأجراء ، فقسموا عليهم بقدر احتمالهم ، فان كانت فيهم جالية قسموا عليهم بقدر احتمالها ، وقلما كانت تكون الا للرجل الشاب أو المتزوج . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمون بينهم على عدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحد منهم وشكا ضعفا من زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحُّوا قسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدنانير أربعة وعشرين قيراطا يقسمون الأرض على ذلك » .

وقال المقريزى روايةً عن هشام بن أبى رقية اللخمى : « قدم صاحب اخنا على

عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فقال له : أخبرنا ما على أحدنا من الجزية فنصير لها ، فقال عمرو وهو يشير الى ركن كنيسة : لو أعطيتنى من الأرض الى السقف ما أخبرتك ما عليك . انما أنتم خزانة لنا : ان كثّر علينا كثّرنا عليكم وان خفّف علينا خففنا عنكم » ، مما يفهم منه بوضوح أن مقادير الجباية لم تكن محددة ولا ثابتة ، وانما يقسم الأمير المطلوب منه عاما فعاما على الكور ، وعلى رجال الكورة أن يدبروه على النحو الآنف الذكر .

كذلك روى المقريزى عن يحيى بن سعيد : « الجزية جزيتان : جزية على رءوس الرجال ، وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التى عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رءوس الرجال ، فانا نرى أن من هلك من أهل القرية ممن لا ولد له ولا وارث أن أرضه ترجع الى قريته فى جملة ما عليهم من الجزية ، ومن هلك ممن جزيته على رءوس الرجال ولم يدع وارثا فان أرضه للمسلمين » . وهذا ينطبق تماما على ما دلت عليه أوراق البردى ، فالجزية التى على الرءوس هى الضريبة النقدية العامة (خروسيخا ديموزيا) ، والجزية التى تكون جملة على أهل القرية هى ضريبة الطعام (سيتيخا ديموزيا) . وكانت الحصيلة الاجمالية لكل من الضريبتين تحدد مقدما بمعرفة الادارة المركزية .

وهذا يفسر لنا المشكلة التى واجهت الحكام بعد أن تقادم عهد الاسلام بالبلاد : مشكلة الجزية المستحقة على من أسلم ، فان الديموزيا العامة كانت تتضمن — كما رأينا — الضريبة العقارية وجزية الرءوس والضريبة الادارية المحلية . أى أن ضريبة الرءوس كانت داخلة فى جملة الديموزيا ، ولم تكن تجبى على الأساس المقنن الذى نجده مفصلا فى كتب النظم الاسلامية ، وانما كانت تقدر جملةً على أساس ما كان يجبيه البيزنطيون منها ، ثم يقسمها أهل القرية على أنفسهم بحسب الطاقة . فلما بدأ الناس يسلمون طالبوا بالغاء هذا الجزء من الديموزيا ، اذ لا جزية رءوس على المسلمين ، ورفض العمال ، لأنهم لم يقرروها كجزية رءوس بل كجزء من ضريبة عامة تلتزم القرى بأدائها جملةً أيضا . وقد طال الأخذ والرد بين الحكام والخلفاء بسبب هذه المشكلة الشرعية ، وانتهى الأمر برفع هذا الجزء من الديموزيا عمن أسلم ، ويؤيد ذلك ما يقوله المقريزى من أن عمر بن عبد العزيز كتب الى حيان بن شريح أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم . وقد فسر المقريزى ذلك بأن عمر بن عبد العزيز كان يرى أن مصر فتحت عنوة ، وليس الأمر كذلك ، وانما الحقيقة هى أن هذا البند من الجباية كان مقررا جملةً على أهل القرية ، وعليهم أداؤه جملةً كذلك بصرف النظر عما يصيب الأفراد من الموت .

ويؤكد ذلك قوله بعد ذلك : « وان الجزية انما هى على القرى ، فمن مات من أهل القرى كانت تلك الجزية ثابتة عليهم ، وأن موت من مات منهم لا يضـع عنهم من الجـزية شيئا » .

تلك هى الخطوط العريضة للنظام الذى سار عليه العرب فى معالجة شئون مصر المالية ، وهو كما رأينا نفس النظام الذى كان جاريا أيام البيزنطيين والرومان مع فرق جوهرى هو أن دافع الضرائب فى تلك الأعصر السابقة على الاسلام كان يدفع فى الواقع أكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ، اذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستفضلوا لأنفسهم مبالغ جسيمة ، وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الاسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب ، وسيتعرض النظام الذى وضعه المسلمون لمثل ذلك الفساد بمرور السنين . وقد وُجد السبيل الى الفساد من أول الأمر ، لأن الدولة لم تتصل بدافع الضرائب رأسا ، بل كان اعتمادها على طائفة من كبار المزارعين أو متَقَبِّلى الخراج فى كل ناحية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يؤدون أموال أهل نواحيهم الى عمال الكور . وكان اضطراب الأحوال فى العصر البيزنطى قد زاد فى قوة هذه الطبقة وجعلها أشبه بأولياء الصغار والضعفاء Patroni ، وكان الضعاف يدخلون فى ولائهم Patrocinium.

ولما كانت مصر قد اعتبرت مفتوحة صلحا فقد ظلت رقاب الأرض ملكا للناس . ولهؤلاء الأولياء بصورة خاصة ، ونظرا لحاجة الدولة الى المال ، فقد كان اعتمادها على هؤلاء الكبار عظيما ، فهم الذين يتقبلون الجباية ويضمنون المال ، وشيئا فشيئا أصبحوا أشبه بالملتزمين .

وقد وصف لنا المقريزى طريقة تقبيل الأرض فقال : « ان متولى خراج مصر كان يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأرض ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكُتّاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تَقَبَّل أرضا وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه من الخراج فى ابانه على أقساط ، ويُحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها بضرابة مقدرة فى ديوان الخراج . ويتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة فى جهات الضمان والمتقبلين . يقال لما تأخر من مال الخراج

البواقى . وكانت الولاة تشدد فى طلب ذلك مرة وتسامح به مرة » . وربما كان هذا هو النظام المتبع فى أيام العباسيين ولكنه متطور قطعا عن نظام بدائى شبيه به . وربما استطعنا أن نقول انه فى هذه العصور الأولى كان أولئك الأولياء الكبار يتعهدون لعامل الكورة بجمع المال .

أما جملة المتحصل من هذه الضرائب بشتى صنوفها فمن العسير تحديدها ، فان التقديرات التى يوردها المؤرخون تتراوح ، فيما يتصل بالسنوات الأولى ، بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليونا من الدنانير (الدينار نصف جنيه تقريبا) ويدخل فى ذلك ما يدفع نقدا وثمن ما يؤدى نوعا. ولم يكن هذا المال كله يرسل الى مركز الخلافة ، بل كان معظمه ينفق فى البلاد : يستنزل عمال الكور ثم المتقبلون فيما بعد جزءا منه فى مقابل ما يقومون به من أعمال التعمير والاصلاح والصيانة ، ويرسلون الباقى الى الأمير ، فيؤدى هذا منه أعطيات الجند وأرزاقهم ورواتب الموظفين والعمال ، والباقى هو الذى يرسل الى مركز الدولة . ولكى نقدر النسبة بين هذا وذاك نذكر أن جباية مصر بلغت فى عهد معاوية بن أبى سفيان أربعة ملايين دينار أرسل اليه منها ٦٠٠٫٠٠٠ دينار وعد ذلك مبلغا جسيما . أما متوسط ما كان يرسل الى مركز الدولة ابتداء من القرن الهجرى الثانى فكان نحو ١٠٠٫٠٠٠ دينار ، وقد يرفع الى ٢٠٠ ألف أو ٣٠٠ ألف بحسب اتفاقات خاصة مع الأمراء .

وقد كان العرب عندما دخلوا مصر يتصورون أنهم سيجبون منها من الأموال ما لا يحصى ولا يقدر ، فقد كانوا يسمعون ، بحسب ما يقول المقريزى ، أن فرعون كان يستفضل من مال مصر ، بعد استنزاله شتى أنواع النفقات ، ستة وعشرين مليونا من الدنانير ، ولهذا فقد فوجىء عمر بن الخطاب بقلة ما بعث به عمرو بن العاص من الجباية وشك فى أمره ، وجرت بينهما مكاتبات ذات مغزى عظيم ، لأن خطابات عمر تدل من ناحية على تصوره لغنى مصر ، وردود عمرو تدل على الواقع الذى كان يواجهه هذا الأمير الذكى القادر . وعندماجبى عبد الله بن أبى سرح مليونين زيادة على ما جباه عمرو فرح الخليفة عثمان بن عفان بذلك وحدّث عمرا فى الأمر ، فرد عمرو ردا يدل على خبرة وبعد نظر ، وكان محقا فى ذلك ، لأن المسألة ليست مسألة ضخامة مبلغ الجباية ، وانما المهم هو المحافظة على مورد المال سليما حتى لا ينضب .

وظاهر من هذا النظام المالى الذى جرى عليه العرب فى مصر أنهم تركوا الأرض بيد أصحابها من المصريين ، ولم يعتبروها ملكا للدولة . وقد تناقش الفقهاء فى هذا الموضوع وذهب بعضهم الى أن مصر فتحت صلحا وقال بعضهم الآخر انها فتحت عنوة ، وكلها

مناقشات فقهية نظرية صرفة ، لأن الواقع الذى يقـررونه جميعـا هو أن أرض مصر أجريت مجرى الصلح ، وأن الملكية العقارية ظلت بيد الأهالى ، وقد نص على ذلك صراحة فى معاهدة بابليون ، وأكد فيما تلا ذلك من المعاهدات وما جرت عليه المعاملات . وبهـذا اختلف الوضـع القانونى لأرض مصر عن أرض العراق مثلا ، فقد كانت الأخيرة ملكا للدولة وليس للأهالى عليها الا حق الارتفاق ، أما فى مصر فقد ملك الناس الأرض ملكا كامـلا ، « وقد دلت الأوراق البردية التى ترجع الى عهـد الولاة على أنه كان يحق لأهـالى مصر التصرف فى الأراضى التى يملكونها بالبيـع والشراء والتـوريث والهبة » . وقد ترتبت على ذلك نتائج ذات أهمية كبرى فيما يتصل بحقـوق الدولة الاسلامية على أرض مصر ، فبينما جـرى الخلفاء على منح الاقطاعات والضـياع فى العراق من أول الأمر ، لا نجد هذه المنـح فى مصر الا فى حدود ضيقة ، وانحصر أمرها فى تلك الأراضى التى كانت مملوكة للدولة البيزنطية ورجالهـا ، فآلت الى الدولة الاسلامية ، ومن هذه الأراضى الأخيرة بدأت الدولة تمنـح من تريد من زمن عمـر بن الخطاب . نقول تمنح ولا نقول « تقطع » لأن المراجع تخطىء وتستعمل اللفظ الأخير ، مع ما بين اللفظين من خلاف فى المعنى القانونى والسياسى . أما الاقطاعات التى ظهرت بمصر بعد ذلك فلها ظروف أخرى اقتضاها تطور عام فى أحوال الدولة الاسلامية جملة ، ومن الخطأ القول بأنها استمرار أو اتساع لهـذه المنـح .

وقد حصل كثيرون من العـرب الذين نزلوا مصر على أراض بهذه الطريقة ، أى أنها كانت منحا من أراض صـارت الى الدولة بحق الفتح ، وحصلوا عليها أيضا من أراضى البور — التى كانت تسمى أرض الموات — ليستصلحوها ، وكانوا يعفون من ضريبتها فترة ما بحسب ما تقضى به الشريعة فى أحكام الأرض الموات ، ثم يؤدون عنها العشر بعد ذلك . وكان المالك العربى أيا كان وضـعه يؤدى ضريبة العشر عما بيده ، وكان العرب يسمونها زكاة ترفعا عن دفع الخراج ، ولكنها كانت فى الواقع ضريبة عقارية تجرى مجرى الخراج . وقد طالب المصريون الذين دخلوا الاسـلام أن يعامـلوا بالمثل فتسقط عنهم الجزية (بفروعهـا) وضريبـة الطعـام ، وتكتفى الدولة منهم بضريبة عقارية هى العشر وتسمى الزكاة ، ومعنى ذلك فقدان الدولة لمعظم ايراداتها ، فرفضت الدولة ، بل ألزمت العرب أنفسهم بدفع الخراج كاملا عمـا يشترونه من أرض الخراج ، فلا تتحـول أرض خراجية الى أرض عشرية . ولهذا فقد ظل ايراد الدولة فى مصر متوازنا فى حين أن ايرادها من أرض العراق هبط هبوطا شديدا. لأن الدولة ، وهى مالكة رقبة الأرض ، كانت

تقطع الناس الضياع والاقطاعات ، فتتحول الأرض من خراجية الى عشرية ، مع عظم الفرق بين الاثنتين ، ويلاحظ أن المقطعين فى العراق كانوا يتقاضون من الزراع الخراج ويؤدون العشر ، فيكسبون وتخسر الدولة . بينما كانت أرض مصر كلها تتحول شيئا فشيئا الى خراجية .

والوثائق البردية تؤيد كل ما ذكرناه خاصا بمصر ، فلدينا خطابات صادرة عن عمال مثل قرة بن شريك أحدها مؤرخ سنة ٩١/٧٠٩ يطلب فيه الى أهل شبرابسيرو من كورة أشقوه أن يؤدوا المتأخر عليهم من الجزية نقدا ومن ضريبة الطعام قمحا . وفى خطاب آخر من نفس الوالى الى صاحب أشقوه أيضا يقول فيه انه اذا تعذر على الناس دفع ضريبة الطعام قمحا فلا بأس بأدائها نقدا ، ولكنه يطلب اليه أن يجتهد فى ارسالها قمحا . بل يظهر بوضوح من وثائق أخرى أن ضريبة الطعام لم تكن تؤدى دائما قمحا أو شعيرا ، بل كان من الممكن استبدالهما بحسب حاجة الدولة بأشياء أخرى من محصولات الناحية كالعسل والخل والزيت والنسيج والجلود .

ويفهم من رواية للبلاذرى عن يزيد بن حبيب أن قيمة ضريبة الطعام كانت تعادل الجزية ، قال: « ان أهل الجزية بمصر صولحوا فى خلافة عمر بعد الصلح الأول مكان الحنطة والزيت والعسل و (عسل) النحل على دينارين دينارين ، فألزم كل رجل أربعة دنانير ، فرضوا بذلك وأحبوه » ، ومن الواضح أن الدنانير الأربعة المذكورة منها اثنان للجزية واثنان لضريبة الطعام . غير أن هذا القدر الذى يحدده يزيد بن حبيب لم يكن ثابتا كما يفهم من النصوص العربية ، لأن أصحاب هذه النصوص كانوا يفهمونها على أنها كانت ضريبة الرءوس ، مع أنها كانت فى الواقع الديموزيا التى أشرنا اليها ، وكانت ضريبة عامة تشمل الضريبة العقارية (ديموزيا جيس) وضريبة الرءوس (اندريسموس دياجرافوس) والضريبة الادارية المحلية (دابانى) وكانت حصيلتها الكلية فقط هى المحددة ، أما حصص الأفراد منها فكان يقررها رؤساء القرية بحسب ثروات الأفراد ، فهناك من يدفع دينارا أو دينارا ونصفا أو دينارا وثلثا أو ثلثى دينار وهكذا . وقد ذهب المقريزى الى أن الدولة لم تحصل الزكاة الا فى عهد صلاح الدين ، ولكن أوراق البردى أثبتت أنها ترجع الى ما قبل ذلك بكثير ، فلدينا ايصال مؤرخ عام ١٤٨ /٧٦٥ عن زكاة بعض الأشخاص . وهذا هو المعقول .

ولا شك فى أن مبالغ الجباية أخذت تتناقص مع الزمن بسبب دخول الناس فى الاسلام واضطرار الدولة الى معاملتهم معاملة العرب ، وبسبب تطرق الفساد الى النظم القائمة من ناحية أخرى . على أى

الأحـوال نلاحظ فرقا واضـحا بين موقف الدولة من مصر أيام الأمويين ، وموقفها منها أيام العبـاسيين ، ففى العصر الأول كانت للولاة اهتمامات أخرى الى جانب العنـاية بشئون المال : كان هناك اهتمـام بالانشاء والتعمير وبناء الأساطيل وما الى ذلك ، أما فى العصر العباسى فقد كان الاهتمام موجها نحو الجباية وحدها ، وهذا لا ينطبق عـلى مصر وحدها بل على بقية نواحى الدولة الاسلامية الأخـرى .

ويلاحظ بصفة عامة أن الشئون المالية سارت سيرا طيبا حتى نهاية العصر الأموى ، والسبب فى ذلك يرجـع الى أن عمـال الأمويين كانوا بصفة عامة على جانب طيب من الأمانة والكفاية الادارية والمعـرفة بما لابد منه لصـلاح الدولة وبلادها . ثم ان خلفاء بنى أمية كانوا على الجملة ذوى فهم حسن لشئون المال وتدبير لما يصـل اليهم منه ، وكانوا أميل الى الاقتصاد فى نفقاتهم ، وكانت اداراتهم بسيطة لا تشـكو كثرة الموظفين وثقل رواتبهم كما سيصير اليه الحـال أيام العباسيين .ولا يتسع المقام هنا للكلام عـلى ولاة الأمويين فى مصر ، فان الكثيرين منهم يستحقون من المؤرخ وقفات طويلة . ويكفى أن نذكر أن عددهم نحو ٢٨ واليا حكموا نحو ١١٢ سنة ، أى بمتوسط أربع سنوات لكل منهم ، وقد طالت مدد بعضهم حتى زادت على عشرين سنة ، ولم تقصر مـدد الولاة الا فى أيام هشام بن عبد الملك ، فانه كان عظيم الاهتمام بشئون المال ، ولهذا فقد كان اعتماده الحقيقى على عامـل الخراج وخاصة عبيد الله بن الحبحاب ، فقد تصرف هذا الأخير فى الأمراء حتى عزل منهم أربعة برأيه ، ولم تطل مدة الخامس وهو الوليد ابن رفاعة الا بعد أن انطوى تحت جنـاح ابن الحبحاب .

وكان الكثيرون من هـؤلاء الولاة من أمراء البيت الأموى ، وأهمهم عبد العزيز ابن مروان الذى تركه أخوه عبد الملك بن مروان على مصر من ٦٥ الى ٦٨٥/٨٦ — ٧٠٥ ، وكان من خـيرة الولاة وأحسنهم . أما أعظم أولئك الولاة جميعا فهو عمرو بن العاص دون شك ، فقد فتحها وتولاها أول مرة من ٢٠ الى ٦٤١/٢٤ — ٦٤٦ ، ثم عاد اليها وتولاها مرة أخرى من ٣٨ الى ٤٣/ ٦٥٨ — ٦٦٣ ، وهـو من مؤسسى مصر الاسلامية وواضعى قواعد الحكم فيها . وكان عمرو رجلا ذكيا واقعيا فاهما لشئون الادارة والمال ، وكان له فهم عميق لنفسيات النـاس وقدرة على كسبهم الى جانبه . وقد توثقت العلاقات بينه وبين المصريين وطالت ممارسته لشئونهم حتى أصبح وكأنه مصرى يناضـل عن حقوق المصريين . وموافقه من عمر بن الخطاب فى ذلك معروفة ، وهو من غير شك أول رجال مصر الاسلامية وأبعدهم أثرا فى تاريخها . وكان لمصر أيضا أثر بعيد فى حياته ،

ففتح مصر هو الذى تقدم به الى الصف الأول من رجال الدولة الاسلامية ، بحيث أصبح بعد قليل من رجالها المعدودين . وقد تعلق قلبه بمصر فلم يعد له أمل بعد عزل عثمان اياه عنها الا العودة اليها ، وفى سبيلها انضم الى معاوية وقام بدوره المعروف فى الفتنة التى أعقبت مقتل عثمان . ولو تركه عثمان بن عفان واليا على مصر ، أو لو ولاه اياها على بن أبى طالب ، لاتجهت الحوادث فى دولة الاسلام وجهة أخرى . وقد عرف مؤرخو مصر قدر عمرو فأحاطوه بهالة من التقدير والاعجاب وتصدوا للدفاع عنه ، واليهم يرجع الفضل فيما يحتله عمرو من المكانة فى كتب التاريخ والصحابة .

والمهم لدينا أنه وضع لمن بعده تقليد العناية بشئون البلاد ومرافقها والرعاية لأهلها ، وعلى آثار عمرو سار من جاء بعده من ولاة الأمويين . فلما جاء العباسيون تغير الأمر جملةً ، وتمهد الطريق لاستبداد الولاة بشئون مصر ، وهو ما سيحدث على يد أحمد ابن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد من بعده .

وقد ظهرت بوادر هذا التغير من أيام أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ / ٧٥٣ — ٧٧٥) فبدأ يظهر بوضوح تركز اهتمام الخلافة فى شئون المال . ولم يكن هذا التطور قاصرا على مصر ، بل شمل الدولة الاسلامية كلها ، لأن الدولة العباسية احتاجت منذ قيامها الى أضعاف ما كانت تحتاج منه الدولة الأموية .

والسبب الأول فى ذلك تغيير الأساس العسكرى الذى كانت الدولة تقوم عليه ، فبينما كان اعتماد الدولة الأموية قائما على أجناد الشام من العرب ما بين قيسية وكلبية ، أصبح اعتماد الدولة العباسية على الخراسانيين . وكان الجندى العربى أيام الأمويين يكتفى بما تفىء عليه أجناد الشام (أى كور الشام العسكرية) ، فقد كان خراجها اقطاعا عسكريا لهم ، وما فضل عن ذلك من ايراد الولايات كان يغطى نفقات الخلفاء والجيوش الفاتحة ، وتبقى بعد ذلك منه جملة صالحة ينفق شىء منها فى المنشآت والبنايات ويدخر الباقى . وكانت جيوش الدولة فى الولايات تنال أرزاقها وأعطياتها من الايراد المحلى ، ولم يكن للدولة الأموية فى الحقيقة جيش قائم ، فقد أمنوا بين جندهم فى الشام وسرحوا معظم القوى العسكرية تفتح فى كل وجه .

فلما جاء العباسيون احتاجوا الى جيش ضخم يحميهم ، فاستنفدت نفقات هذا الجيش معظم ايرادهم ، لأنه كان جيشا مرتزقا طامعا يحتاج الى المال الكثير ، ثم ان الادارة العباسية اتجهت منذ أيام المهدى الى الاسراف والأبهة ، وتعقدت الادارة وأدخل وزراء الفرس فيها كل مساوىء الادارة الساسانية القديمة ، فبدأ العجز المالى يظهر من أيام الهادى ، وأحس به الرشيد احساسا

واضحا وسعى لعلاجه ، ثم خرج الأمــر عن الضبط جملةً من أيام المعتصم ، وأصبحت الدولة العباسية فى الواقع دولة مفلسة ماليا يجتهد الخلفاء والوزراء فى مداراة افلاسها بوسائل غير طبيعية ، وابتداء من أيام الواثق تصبح المشكلة المالية مرضا عضالا لا سبيل الى علاجه ، وعلى صخرة العجز المالى تحطمت خلافة بنى العباس شيئا فشيئا قبل أن تتحطم اداريا وسياسيا .

وفيما يتصل بمصر بدأ هــذا التحول الخطير من أيام أبى جعفر المنصور ، فقــد فكر فى أن يضمِّن خراج مصر ، أى يبحث عن رجل يضمن خراجها بمبلغ معين ، فعرض على واليه عليها محمد بن الأشعث أن يضمن له خراج مصر ، فرفض محمد بن الأشعث خشية العجز ، فأقام الخليفة على الخراج رجلا خاصا هو نوفل بن الفرات . وأخذت مطالبة الخلفاء بالأموال تشتد ، وكثر عمال الخراج الى جانب الولاة ، وقلت ثقة الخلفاء فى هؤلاء فأخـذوا يعــزلون ويولــون ، فتولى مصر للمنصور ثمانية ، وللمهدى تسعة ، وللرشيد ثلاثة وعشرون ، وللمأمون ســبعة عشر وهــكذا . وبدأ النــاس يشكون من ثقــل الجبايات بل يثورون بسببها ، واحتاج الولاة الى القيام بحملات عــلى النــواحى لجمع ضرائبها ، وفى القرن الثالث الهجرى نجد الادارة تستخدم القوة والضرب فى استخراج أموالها ، وأصبح الولاة فى الحقيقة ضمّانا للخراج ، وكانت الخلافة تطلق أيديهم يفعلون ما يريدون حتى يجيئوا بما ضمنوه من المال ، وابتدع الولاة ضرائب شتى أنكرها الناس ، ولكنهم دفعوها بالخوف والرهبة ، وتمهــد الطريق لاستبداد رجل كأحمــد بن طولون بشئون مصر على أساس ضمان مبلغ معين للخلافة .

الاسلام والتعريب :

فاذا تركنا هذه الناحية المالية جانبا ، وهى حجر الزاوية فى البناء الادارى لمصر فى عهــد الولاة ، وجدنا أمور المصريين تجــرى فى مجراها العــادى بعد الفتح مباشرة ، وكأنما لم تتغير الأحوال ولم يذهب زمان ويقبــل زمان ، وتبدو البلاد خلال السنين العشرين الأولى من الفتح فى هدوء يستوقف النظر ، ربما كان ذلك نتيجة لما عاناه المصريون من متاعب وقلاقل خــلال القــرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فلما تخلصوا أخــيرا من شقاء البيزنطيين مالوا الى الدعة والسكون كأنهم يستجمون . ثم ان العرب خلال هــذه الســنوات الأولى كانوا فى شغل بشئونهم وفتوحهم ، فقد كانت الدنيــا قد تفتحت أمامهم من كل وجه ، فمضت جيوشهم تفتح شرقا وغربا ، وأقبلت خلف الجيوش جماعات من مهاجرة العرب تستقر فى البلاد المفتوحة .

ففى خلال الخمسين الســنة الأولى من تاريخ الاســلام انتشر عشرات الألوف من العرب المهاجرين فى العراق وفارس ومصر

والمغرب والأندلس ، وكانت الأرض واسعة وفى رحابها متسع لأولئك العرب المهاجرين ، وكان جانب كبير من أراضى هذه النواحى قد ضيعه الاهمال ، وكان فى حاجة الى نظام عادل يطمئن اليه الناس والى أيد عاملة . فأما الاستقرار فقد أتى به الفتح الاسلامى ، وأما الأيدى العاملة فجماعات العرب المهاجرة التى أشرنا اليها . وهنا نجد عرب اليمن يقومون بالجانب الأكبر من ذلك العمل ، واذا كان عرب الشمال — وفى مقدمتهم قريش — قد حملوا عبء الفتوح واشتغلوا بالسياسة والادارة ، فان عرب اليمن عرفوا كيف يجنون الثمرات ، فقد كانوا شعبا ميالا الى الاستقرار له عهد بعيد بالزراعة وما يتصل بها من أعمال الحضارة .

فبعد فتح العراق مباشرة نجد بطون لخم تزحف شرقا وتستقر فى نواحيه ، وتسرع اليها جماعات أزد اليمن ، فيكثر عددها حتى غلبت على أرض السواد ، ثم زحفت فروع منها غربا فعمرت غربى ايران ثم امتدت الى خراسان ، وشيئا فشيئا أصبحت هذه النواحى وكأنها مستعمرة يمنية عقدت زعامتها بلواء أزد اليمن ، وكانوا أكثر القبائل عددا . أما العمال وجندهم فكانت غالبيتهم من القيسية . وبدأ التنافس بين الجانبين ، ثم انتهى الى صراع دموى انتهى باضعاف جانب العرب فى فارس وخراسان . فبينما ساد العرب هذا الجناح الشرقى من دولة الاسلام فى منتصف خلافة هشام بن عبد الملك حتى بدأت اللغة العربية تحل محل الايرانية ، نجد هذه الأخيرة تعود الى مكانها فى نهاية العصر الأموى ، ثم انتهت سيادة العرب واللغة العربية بمجىء العباسيين وتفضيلهم الخراسانيين على العرب . وبدأت الفارسية تغلب على ألسنة العرب الباقين هناك حتى نسى الكثير منهم لغته وأخذ يتكلم الفارسية .

وكان من الممكن أن يحدث مثل هذا فى مصر ، لولا أن الظروف هنا اختلفت عنها هناك ، ولم تبلغ القيسية فى مصر مبلغا يمكنها من منافسة الكلبية ، فخلا الميدان تقريبا لهذه الأخيرة ، فسارت فى طريقها محتفظة بقوتها وهيبة العروبة والعرب أمام السكان ، وتمكنت من نشر العربية والاسلام ، كما فعلت فى المغرب والأندلس .

كان معظم رجال الجيش العربى الفاتح من عرب اليمن . نستنتج ذلك من أسماء القبائل التى نزلت الفسطاط واتخذت بها خططا ، أى أحياء . فاذا استثنينا نفرا من قريش ، وكان عددهم قليلا ، وجدنا أنفسنا أمام أغلبية يمنية تستوقف النظر : مهرة ، تجيب ، لخم ، جذام ، بنو بحر ، غافق ، حضرموت ، يحصب ، معافر ، سبأ ، بنو وائل ، مذحج ، غطيف ، بَلِىّ ، خولان ، الصدِف ، وغير هؤلاء كثير . ولا شك أنه كان بين هؤلاء كثيرون من عرب جنوبى فلسطين وسيناء وشرقى الدلتا وصحراء مصر

الشرقية ، فمن انتسب منهم الى قبيلة من هذه فقد انضم اليها ، والا اندرج تحت جماعة عامة كانت تضم أفناء من القبائل ، سميت أهل الراية . وكانت هناك أيضا جماعات قيسية قليلة ، ونفر من العرب الذين كانوا يسكنون بلاد الدولة البيزنطية ويسمون الحمراء ، ونفر قليل من بقايا فرس اليمن الذين استعربوا وكانوا يسمون الفارسيين .

وعلى طول العصر الأموى كان تيار الهجرة العربية نحو مصر مستمرا ، ويبدو أن غالبية المهاجرين كانوا كذلك من اليمن . وقد بلغ من أمر اليمنية أن من ولى مصر من القيسيين كانوا يحرصون على أن يتقووا باستقدام قبائل قيسية الى مصر : حدث ذلك فى أيام عبد العزيز بن مروان والوليد بن رفاعة وولاية عبيد الله بن الحبحاب على الخراج ، فكثرت جماعات القيسية بمصر ، ولكنها لم تنزل الفسطاط ، وانما شرقى الدلتا : حوالى بلبيس أولا ثم امتدت شمالا وجنوبا حتى عمرت ما عرف بالحوف الشرقى، ونزلت كذلك فى غربى الدلتا ، فيما يعرف الآن باسم البحيرة فعرف بالحوف الغربى . أى أن كتلة كل جذم من جذمى العرب الكبيرين نزلت فى ناحية غير ما نزلته الأخرى ، وربما كان هذا هو السبب فى أنه لم يقع بمصر هذا الصراع الدموى بين قحطان وعدنان الذى قضى على سلطان العرب فى فارس وخراسان وكاد يقضى عليه فى الأندلس .

وقد حرم عمر بن الخطاب على جند العرب المدون الاشتغال بالزراعة أو الانصراف الى مطلب آخر من مطالب الحياة ، ولكنه لم يحرم ذلك على العرب عامة ، لأن التحريم على الجند ضرورى وطبيعى ، أما على عامة العرب فغير معقول أو ممكن . وينبغى أن نذكر أن العرب لم يكونوا جميعا جندا مدونين ، فكيف يحرم عمر العمل على عربى عادى هاجر بنفسه وأهله الى بلد كمصر ليرتزق ويعيش ؟ من الطبيعى أن تكون قد وجدت فى مصر وغيرها جماعات عربية مدنية ، وهذه هى التى اشتغلت بالزرع والضرع وشئون المعاش دون أن يكون فى ذلك مخالفة لأمر عمر ، وهذه الجماعات يصعب احصاؤها ، وهى التى انبثت من أول الأمر بين الأهلين فى كل ناحية واختلطت بهم ، وهى صاحبة الفضل الأكبر فى تعريب ألسنة الناس وتحويلهم الى الاسلام ، لأن الجند العربى ظل منفصلا بنفسه فى معسكراته ، وأشهرها الفسطاط ، ولذلك لم تتح له الفرصة للاتصال بالناس ، ومن هنا فان دوره فى التعريب وادخال الناس فى الاسلام قليل .

وسواء بحثنا فى العراق أو فى مصر أو الأندلس ، فاننا نجد الغالبية العظمى من هؤلاء الذين انبثوا بين الناس كانوا من عرب اليمن أول الأمر ، ثم لما غُلب الأنصار على أمرهم فى معترك السياسة العربية ، وانتزع

المهاجرون الأمر منهم ، ترك الأنصار ميدان السياسة وانصرفوا الى مطالب العيش ، والأنصار يعدون فى جملة اليمنية . وكلما انهزم فريق من العرب فى ذلك المعترك انصرف أفراده الى طلب العيش فى الأمصار أو الزراعة فى الأرياف . ولهذا فقد كانت السياسة تلقى فى ميدان الحياة العامة بفريق من العرب بعد فريق ، وهذه الجماعات المنهزمة هى التى حققت للاسلام والعربية نصرهما الحقيقى فى بلاد مثل مصر والمغرب والأندلس ، ومن أفرادها تكونت معظم الجماعات التى اشتغلت بالعلم والدرس فى مركز الدولة والأمصار .

ولهذا فمن الخطأ أن يقال ان العرب بدأوا يتخلون عن سياسة الترفع عن الاختلاط بالأهالى من أيام هشام بن عبد الملك مثلا ، لأن الأمر هنا لا يتعلق بسياسة بل بعملية طبيعية بدأت منذ البداية . وجدير بنا أن نلاحظ أن أولئك الذين اشتغلوا بالعلم وطلب المعاش والزراعة لم يتخلوا عن عروبتهم أو اعتزازهم بها ، بل خالطوا الناس محتفظين بشعورهم العربى ، وتزاوجوا معهم وأورثوا أولادهم أرومتهم العربية ، فأولاد العرب عرب ، ومن ثم فان أعداد العرب فى النواحى كانت فى زيادة ، وكانت لهم امتيازات معنوية ومادية بحكم الدين والأصل واللغة ، وهذه الامتيازات كانت مما حبب الى الناس الانتساب اليهم ، ودخول الاسلام واتخاذ أسماء عربية ، بل اصطناع أنساب عربية .

من هنا كان من العسير تتبع حركة الاسلام والتعريب ، لا فى مصر وحدها بل فى نواحى الدولة الاسلامية الأخرى ، فهى عملية طبيعية بدأت منذ البداية وسارت سيرا لم يتنبه اليه أحد ، وتعرضت هنا وهناك لظروف أعانت عليها أو عطلتها حينا ما ، ولكنها مضت فى طريقها . ففى فارس مثلا نجد الاسلام ينتشر بخطوات أوسع من انتشار اللغة العربية ، وفى الأندلس سار الاستعراب بأسرع مما سار الاسلام ، وفى مصر سار الأمران جنبا الى جنب لأسباب تتعلق بحالة المسيحية واللغات التى كان الناس يتكلمون بها فى مصر عندما دخلها العرب .

فأما فيما يتصل بالمسيحية ، فقد كان اختلاف المذاهب النصرانية قد بلغ مبلغا عرض أصول العقيدة النصرانية للابهام والغموض فى نظر الناس . ولم تكن العقيدة المسيحية اذ ذاك محددة المعالم أو مستقرة القواعد ، وكانت المجامع الدينية تسعى نحو التحديد وتعمل على التقرير ، ولكن شئون المجامع شابتها أهواء الأشخاص وعصبيات النواحى ، وأفسد أمرها تدخل الأباطرة لأغراض سياسية حينا وشخصية حينا . وكانت مصر ، من بين بلاد الدولة البيزنطية ، قد اتجهت فى تفسير معضلات العقيدة النصرانية اتجاها واحدا حرص البطاركة والقساوسة والرهبان على الاستمساك به من أول الصراع الى نهايته وهو القول بطبيعة واحدة للسيد المسيح ،

وقد كسب رأى المصريين أنصارا كثيرين فى الشـام وآسية الصغرى بل فى القسنطينيـة نفسها ، واستطاع بطاركة عظام من أمثـال ديوسقوروس وكيرلس الاسـكندرى أن يكسبوا انتصارات كبرى فى المجامع الدينية ، واستيقظت القومية المصرية أثناء هذا الصراع حتى أصبحت المونوفيزية — وهى القـول بالطبيعة الواحدة — مظهرا من مظاهر القومية المصرية .

وقد تنبهت الدولة البيزنطية الى هـذه الناحية ، وبذلت أقصى جهدها حتى انتصرت عـلى رأى المصريين فى مجمع خلقيدونية ، الذى يسمى فى كتب التاريخ القبطى بمجمع اللصوص . ومن تاريخ ذلك المجمع انفصل المصريون انفصـالا روحيا تاما عن كنيسـة القسطنطينية وكنيسة روما أيضا ، وأخذت الدولة البيزنطية تستعمل مع المصريين أقسى وسائل الاضطهاد لصرفهم عن عقيدتهم دون جدوى . فلما غزا الفرس مصر نفر المصريون منهم أول الأمر بسبب ما ارتكبوه من أعمال العنف والقسوة ، ولكنهم أحسوا لأول مرة بفضائل الانفصال بكنيستهم عن تلك الدولة البيزنطية التى لم يعرفوا فى أيامها الا المتاعب والاضـطهاد . فلما خرج الفرس وعـاد البيزنطيون عادت معهم الاضطهادات والمتاعب وندبت الدولة ذلك الأسقف المتعصب قيرس أسقف فازيس ليقضى على مقاومة المصريين ويهدم كنائسهم .

وقد كانت نتيجة هذا الصراع الطـويل وما تخلله من بلبلة الأفكار بسبب المذاهب الكثيرة التى اقترحتها الدولة رغبة منها فى التقريب بين المذاهب المختلفة ، واجتهاد رجال الدولة فى فرض هذه الآراء ، كانت نتيجة ذلك كله أن ضعف أمـر المسيحية فى مصر ضعفا شديدا ، وتبلبلت أفكار الناس ، بحيث لا يمكن القول بأنه عندما فتح العرب مصر كانت هناك وحدة دينية أو مذهبية على الأقل، حتى ذهب بعض مؤرخى النصرانية الى أن المسيحية لم تتغلغل فى أعماق النفس المصرية ، وقال ليفيفر : « ان المسيحية لم تغير شيئا من روح الجنس المصرى ، ولم تصل الى التأثير فى الحياة الخاصة للأفـراد ، ولم تتحـول الأرواح تحولا صادقا الى المسيحية » . وقال جاستون ڤييت : « ان الشىء الذى لم يكن له أثر فى مصر عندما دخلها العرب هو العقيدة والروح الدينى . ان نصرانية الأقباط اقتصرت على منازعات عقيدية مع البيزنطيين ، واننـا لنلحظ عندهم منذ زمن مبكر معارضة تقوم على كبرياء ، بل ربما استطعنا أن نقول اننا نلمح عندهم شعورا قوميا سلبيا . وقد ظهـر هذا الروح القومى المصرى بأجلى مظاهره بعـد مجمع خلقيدونية . وكان هـذا من الوضوح بحيث يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان تعصب الأقباط للمونوفيزية فى حقيقته كراهة للسلطان البيزنطى قبل أن يكون اقتناعا بعقيدة » .

وهــذه الأقوال كلها لا تقوم على فهم صحيح للنفس المصرية ، وتتجاهل حقيقــة حال النصرانية خلال القرن السادس وأوائل السابع الميــلاديين . فالواقع أن العقيــــدة المسيحية نفسها كانت الى ذلك الحين فى طور التكون ، وكان الأســـــاقفة والرهبان ورجال الكنائس يحاولون تحديد أصولها ، أما الرجل العادى فكان فى حيرة من أمره ، لم يستقر بعد على شيء واضح فيما يتصــــل بأصول دينه ، وكانت آثار الوثنيـــة باقية ما تزال تختلط بمفهوم المسيحية عنــد معظم العوام . وقد أثبتنا فى دراستنا لفتح العرب للأندلس أن نواحى كثيرة من شبه الجزيرة الايبيرية كانت لا تزال على الوثنية ، وينطبق هذا على مصر ، فمن المغالاة أن نقول ان أهل القطر جميعا كانوا فى أوائل القرن السابع مســـيحيين ، أو أن المســـيحيين منهم كانوا عارفين بأصول العقيدة وشريعتها ، بل كانت مراكز المسيحية المعروفة فى مصر ، مثــــل الاسكندرية وبابليون ونقيوس ، فى خلاف بعضها مع بعض .

وكان الرأى السائد عند زعماء الأقباط قريبا جدا من الاسلام ورأيه فى السيد المسيح عليه السلام ، ولم يكن من العسير لهذا أن يتحول الكثيرون منهم الى الاسلام دون جهد كبير ، خاصة وأن الاسلام دين سهل لا تعقيد فيه ، واقناع الناس به لا يحتاج الى شرح أو تفصيل طويلين ، وهو بالنسبة لمسيحيى مصر والشام ومن اليهم فى ذلك الحين كان مخرجا مريحا من متاهة المذاهب المتضاربة ومشاكل الطبيعة الواحدة والطبيعتين ، حتى ان بعض المسيحيين لم يروا فى الاسلام اذ ذاك الا مذهبا جــــديدا من مذاهب المسيحية ، فالانتقال مما كانوا عليه الى الاسلام لم يكن فى نظر الكثيرين منهم خروجا من دين الى دين ، فاذا أضفنا الى ذلك ما أصاب كنائس الأقباط من هدم ورجال دينهم من اضـــطهاد وتشريد على أيدى البيزنطيين ، بحيث بات الكثير من النواحى بلا كنائس ولا قساوسة ، تصورنا سهولة انتقالهم الى الدين الجديد .

ثم ان الدخول فى الاسلام ينقل المصرى أو المغربى أو الاسبانى الى مرتبة الحــكام وأصحاب الدولة ، ويرفع عن كواهلهم مطالب ومغارم كثيرة ، ويجعلهم بنجوة من المعاملة الخاصة التى كان بعض العمال يختصون بها الذميين . وقد أشار المقريزى اشارة غــير مقصودة الى العلاقة بين انتشار العرب فى الأرياف وانتشار الاسلام فيها ، قال : « ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجــرة ، عندما أنزل عبيــد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كانت المائة الثانية من سنى الهجرة ، كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » .

وربما بدا غريبا أن نقول ان مراكز تجمع الجند العربى ، فى الفسطاط والاسكندرية والجيزة مثلا ، لم تكن بذات أثر كبير فى

انتشار الاسلام فى البلاد . ولكن هذا هو الواقع ، لأن هذه المراكز ظلت مراكز عربية صرفة ينزلها نفر من المصريين ، ولكنهم لا يتصلون فيها بالعرب هذا الاتصال الذى يؤدى الى التفاهم وانتقال الآراء والعقائد، فقد كانت الفسطاط مثلا معسكرا لا ينزله أهل البلاد ، ويعيش فيه العرب فى أحياء كل حى منها خاص بقبيل من العرب ، وهذه الأحياء هى التى تسمى الخطط ، وفى الاسكندرية عاش الجند العربى فى مساكن خاصة به عرفت باسم الأخائذ ، وكذلك حول العرب موضع « الجيزة » الذى اختطوه الى حصن ، وقسموه خططا تشبه خطط الفسطاط ، وقد ظلت هذه المعسكرات مقفلة على من فيها زمنا طويلا ، فلم تكن بذات أثر فى انتشار الاسلام ، انما كانت ذات أثر فى انتشار العربية وثقافتها ، فقد كانت مراكز عربية صرفة ، ونشأت فى الفسطاط بصفة خاصة مدارس علمية وفقهية كان لها أبعد الأثر فى تعريب ألسن الناس ، وفى جعل مصر مركزا من مراكز الثقافة العربية الرئيسية .

وانتشرت العربية جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام ، وقد ساعدها على الانتشار أن المصريين فى ذلك الحين لم تكن لهم لغة واحدة يتفاهمون بها فى كل مكان ، فقد كانت اللغة القبطية اذ ذاك فى دور التكون . كانت كلغات أوربا مثلا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين : بقايا لهجات لاتينية منحطة تعرف بلاتينية العصور المتأخرة Le bas latin لا نحو لها ولا ضوابط ، أغارت عليها لغات الجرمان فى كل ناحية ، واختلطت هذه بتلك وبدأت تنشأ لهجات فى النواحى ، ثم أخذت اللهجات تتقارب حتى نشأت اللغة المحلية ، سواء أكانت فرنسية أو اسپانية أو جرمانية . ولم تكن لهذه اللغة القبطية صورة ثابتة بعض الشىء الا فى بعض الكنائس وفيما كتبه بعض قساوستها . ثم انها ، حتى فى هذه الدوائر القليلة ، تأثرت تأثرا عظيما باللغة الاغريقية ، بل فضل بعض كتاب مصر أن يكتبوا بالاغريقية .

وكانت الوثائق الرسمية تكتب بالاغريقية أى أن البلاد لم تكن لها لغة ثابتة لا فى الكتابة ولا فى الكلام .

ثم دخلت اللغة العربية لغةً كاملة غنية قادرة على التعبير عن كل شىء ، ولها كتابة ثابتة معروفة ، ثم هى لغة الاسلام والقرآن والحكام ، فلا غرابة فى أنها غلبت غيرها دون مشقة وأخذت تغلب على ألسنة أهل الوادى . وهذا الكلام لا ينطبق على مصر فقط بل على المغرب والأندلس أيضا . وليس معنى ذلك أن اللغة العربية حلت محل اللغات المتداولة فى مصر دفعة واحدة ، وانما نحن بسطنا الأسباب التى مهدت الطريق أمامها ، أما انتشارها نفسه فعملية بطيئة تمت على مر السنين . واذا نحن قرأنا كتابا مثل « القضاة والولاة » للكندى استطعنا أن نتتبع بعض خطوات

هذا الانتشار ، وذلك من خلال عشرات الحكايات التى يوردها الكندى فى أخبار القضاة . ولكننا نفهم من كلام الرحالة أن اللغة العربية لم تسد ألسنة أهل مصر جميعا حتى القرن السادس الهجرى ، فعلى بن سعيد مثلا يشكو من أن الناس فى مصر لا يفهمون « لسانه المعرب » تمام الفهم ، بل ان الشربينى صاحب « هز القحوف » يقول ان الفلاحين فى بعض النواحى كانوا يتكلمون فى أيامه بلهجات خاصة بهم .

وجدير بنا أن نشير الى أمرين كان لهما عظيم الأثر فى انتشار الاسلام واللغة العربية فى مصر : الأول قرار عبد الملك بن مروان سنة ٨٧/٧٠٦ بتعريب الدواوين ، فقد كانت نتيجة ذلك أن اضطر كثير من الأقباط — ممن كانوا يتولون الوظائف — الى الدخول فى الاسلام وتعلم العربية حتى يحتفظوا بوظائفهم . نعم ان قرار عبد الملك لم يطبق بحذافيره ، وظل كثير من الأقباط يتولون الوظائف العامة ، ولكن معرفة العربية كانت شرطا لازما لاحتفاظهم بهذه الوظائف . والأمر الثانى هو قرار المعتصم باسقاط العرب من الدواوين وقطع أعطياتهم أثناء ولاية كيدر نصر بن عبد الله فيما بين سنتى ٢١٦ و ٢١٩/٨٣١ — ٨٣٤ ، فقد أصبح العرب بذلك رعية ، شأنهم وشأن الأقباط سواء ، وزالت الحواجز بين الجانبين ، وأصبحا البا واحدا على الدولة وأتراكها .

ويبدو أن اندماج العرب فى الحياة العامة بمصر كان اذ ذاك قد سار شوطا بعيدا ، لأن هذا القرار لم يكن له رد فعل عنيف بين العرب ، فبينما كنا نتوقع أن ينكره عرب مصر على بكرة أبيهم ، لا نلحظ الا استنكار نفر من لخم وجذام لم يزد عددهم على خمسمائة ، قضى الوالى على مقاومتهم وانتهى كل شىء . وقد استنتج ڤييت من شواهد القبور أن العرب احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فكانوا يحرصون على أن يكتبوا على شاهد القبر — الى جانب اسم الميت — القبيلة التى ينتسب اليها ، ولكن ذلك تلاشى خلال القرن الثالث الهجرى ، وأصبح الناس ينسبون الى أقاليمهم .

وعلى أى الأحوال نستطيع القول بأن اللغة القبطية فقدت أهميتها تماما خلال القرن الرابع الهجرى ، فاننا نجد كتّاب الأقباط — مثل سعيد بن البطريق وساويرس الأشمونينى — يكتبون بالعربية ، وكانت كتاباتهم موجهة الى الأقباط ، فلو كانت القبطية أجرى على لسانهم لكتبوا بها ، أما وقد كتبوا بالعربية ، فذلك دليل على أن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة الناس أقباطا وغير أقباط . وذلك أكثر انطباقا على لغة الكتابة ، ولا ينفى أن الكثيرين من أهل النواحى ظلوا يتخاطبون بالقبطية ، ولكنها كانت فى طريقها الى الزوال ، حتى لم يبق منها

فى مطالع العصر الحـديث الا بقايا قليلة فى دوائر ضيقة .

ولنلاحظ — الى جانب ذلك — أن هذه العملية تمت فى مصر دون ارهاق أو ضغط ، بل لم تتم نتيجة لسياسة خاصـــة للدولة الاسلامية ، فان الدولة لم تكن لها سياسة معينة فى نشر الاسلام أو اللغة . وكان ذلك من حسن الحظ ، فاختار الاسلامَ من اختاره طائعا عن اقتناع ، وتعلم العربية من تعلمها من تلقاء نفسه بدافع من مصالحه . بل ان المتتبع لأخبار مصر ، خلال القرن الأول الذى تلا الفتح ، يلاحظ وكأنما كانت سياسة الحكام دافعة الى احياء المسيحية المصرية ، فقد قطع العرب صلة مصر بالدولة البيزنطية فتنفس المونوفيزيون الصعداء ، وأقبلوا يرممون ما وهى من أمور عقيدتهم وكنائسها ، وتركهم العرب ينظمون شئونهم الدينية كيف شاءوا : ينتخبون البطرك الذى يريدون ويعيدون بناء الكنائس المتهدمة ، بل يبنون كنائس جديدة ، ويزيلون الأســـماء الاغريقيـة عن قراهم ونواحيهم ليحلوا محلها أسماء قبطية .

ومعظم الكنائس القبطية الكبرى الباقية الى الآن انما بنيت أيام الأمويين ، مثل كنيسة أبى مقـــار وكنيســـة القـديس مرقص بالاسكندرية ومارجرجس والكنيسة الحمراء المعروفة بأبى مينا وما اليها ، بل كان كبـار الفقهاء من أمثال الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة يرضون عن ذلك ويقولون انه « من عمارة البلاد » . ولم تطبق على أقباط مصر القيود الخاصة باللباس والركوب والمبـانى والكنائس — التى نسبها نفر من الفقهـاء الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه — الا فى مناسبات قليلة ، و لانكاد نجد واليا متشددا فى هذه الناحية الا أعقبه وال متسامح رحب الصدر يعيد أمر الأقباط الى ما كانوا عليه . فعاش من أراد الاحتفاظ بدينه فى مصر فى سلام حتى نهاية العصر الفاطمى بل بعده ، فاذا كان قد أصابهم بعد ذلك حيف فقد أصـاب المسـلمين مثله ، وكان الرعايا جميعا مـع حكامهم فى بلاء منذ القرن السادس الهجرى ، مسلمين وغير مسلمين .

لهـذا لا ينبغى أن نقف طويلا عنـد ما يحصيه بعض المستشرقين من ثورات الأقباط عـلى حكام المسلمين . ولو أننا أحصـينا ثورات المسـلمين أنفســهم على حكامهم لوجدناها أكثر وأبعد مدى ، خاصة وأن هذه الثورات لم تشتد وتأخـذ هيئة جـديرة بالملاحظة الا فى عصر بنى العباس . وأسباب هذه الثورات كلها مالية ، وهى جـزء من المتاعب المالية التى ارتبكت الدولة العباسية فيها . ويكفى أن نذكر أن أكبر هذه الثورات كانت فى سنة ٢١٦/٨٣١ أيام المأمون — وهى الثورة التى أزعجت المأمون وجاءت به الى مصر ليتلافى أمرها — فلم تكن هذه الثـورة التى عمت الوجه البحرى كله ثورة أقباط ، بل شارك فيها العرب أيضا ، أى أن الحيف

الذى دفع اليها كان عاما على الجميع ، وهى نتيجة مباشرة لسياسة المعتصم عندما ولاه أخوه الخليفة المأمون أمور القسم الغربى من دولة بنى العباس . وقد أرسل المعتصم قائده الافشين فأخمد ثورة العرب المشتركين فى الفتنة ، ولم يستعص عليه الا أهل البشرود ، وهى ناحية بشمال الدلتا جنوبى بحيرة البرلس ، وكان أهلها ذوى عنف وشدة ، يعتصمون بمستنقعات نواحيهم فلا يصل اليهم أحد . وكانوا فى حالة ثورة دائمة على الحكم العربى ، وقد حاول المأمون الاستعانة عليهم باثنين من بطاركتهم دون جدوى ، فوجه كل قوته نحوهم حتى أخضعهم فى أواخر سنة ٢١٦ / أواخر سنة ٨٣١ ، وكانت هذه آخر ثوراتهم وثورات الأقباط أيضا . وفى أثناء زيارة المأمون هذه لمصر حدثت قصة المثرية مارية القبطية بقرية طاء النمل ، التى استضافت المأمون وأصحابه وقدمت له هدية عشرة أكياس من الذهب ، وقد رواها المقريزى فى خططه . ومهما استبعدنا من مبالغاتها ، فهى تدل على رخاء هذه الناحية من نواحى شرق الدلتا فى تلك الأيام . وبين هذه الثورة وقيام دولة أحمد بن طولون سنوات قليلة لا تزيد على ثمان وثلاثين .

الأحوال العامة ــ الزراعة والصناعة والتجارة :

هكذا جرت الأحوال فى مصر بعد الفتح الاسلامى عاما فعاما : ازدهرت شئونها وأمن أهلها ورخيت أحوالها خلال العصر الأموى ، ثم بدأ يصيبها ما أصاب غيرها من نواحى الدولة الاسلامية من الاضطراب والضيق والفتن ابتداء من العصر العباسى . ولكن الأحوال على الجملة سارت سيرا طيبا مقبولا : أقبل المصريون على عملهم الأبدى فى الأرض معتمدين على عدالة الحكم الاسلامى . ولا حاجة بنا الى تعداد محاصيلها ، فهى هى التى نعرفها فى كل أعصرها القديمة والوسطى ونكتفى بالاشارة الى الكتان ، فقد كان — بعد القمح — أهم محاصيل مصر الاقتصادية ، وكان المصريون ينسجونه فى نواح شتى اشتهرت بالمناسج . وكانت المنسوجات التيلية المصرية مشهورة فى العالم الاسلامى كله ، ولما كان القطن والحرير قليلين فقد كان نسيج الكتان هو الغالب ، وكان المصريون ينتجون منه نوعا عاديا رخيصا لعامة الناس وأنواعا أخرى رقيقة غالية يباع الدرهم من بعضها بدرهم فضة ، وقد اشتهرت بهذه الأنواع الرقيقة الاسكندرية وتنيس ، وكان نساجوهما يخرجون ثيابا غاية فى الرقة يسمى الواحد منها البدنة ، « لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار » . وكان أهل دمياط ينسجون نوعا يسمى القصب يغلب أنه كان نوعا من الدنتلا . واشتهرت بالنسيج أيضا شطا ودميرة وتونة ، وكلها

قرب تنيس ودمياط . وكان الصوف والقطن ينسجان بالبهنسا والقيس والأشمونين واخميم واهناس وبوصير قريدس من بلاد مصر العليا ، واشتهرت اخميم خاصة بالحرير.

ويبدو أن الحكومة كانت تحتكر أنواعا من النسيج ، وقد ورثت الادارة الاسلامية فى مصر ذلك عن الادارة البيزنطية التى كانت تحتكر الحرير . وكان النساجون المصريون يخرجون ما يصنعونه ملونا وساذجا (وهذا أصل لفظ « سادة ») وقد ينسجونه بخيوط الذهب والفضة ، وقد يزينونه بالكتابات . وكان النسيج الذى يخرج من المناسج التى تحتكرها الدولة يسمى بالطراز ، غير أن لهذا اللفظ مدلولات كثيرة ، أهمها أقمشة خاصة بالدولة ورجالها ، ثم أصبح معناه مصنع النسيج ، فكان يقال «طراز العامة» أى منسج عام ، و « طراز الخاصة » أى منسج تملكه الدولة . وعلى الجملة فقد كانت مصر أعظم مركز للنسيج فى العالم الاسلامى ، ومن مناسج مصر لبس الخلفاء والأمراء ، ومن مصر كان التجار يحملون النسيج فى كل وجه. وكانت كسوة الكعبة تصنع فى مصر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ولا زال الأمر على ذلك الى الآن عاما بعد عام .

ويلى النسيج فى الأهمية من صناعات مصر صناعة السفن ، فقد دلت الأبحاث على أن مصر كانت اذ ذاك أعظم مركز لها فى الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط .

وقد بدأت عناية المسلمين بالسفن والأساطيل بعد فراغهم من أمر تحصين سواحل البحر الأبيض التى تحت سلطانهم ، واقامة المحارس على السواحل وشحنها بالمقاتلة ، واقامة « المناظر » وهى أبراج تقام لمراقبة الشواطىء وتنظيم « المواقيد » وهى مواضع توقد فيها النار للاشارة ، ففى مصر مثلا كانت اشارات المواقيد تنتقل من موقد لموقد حتى تصل الأخبار من الساحل الى الفسطاط فى زمن قليل . ثم بدأ المسلمون بعد ذلك بالعناية بأساطيلهم ، وظهرت هذه العناية بوجه خاص فى مصر ، فحفر العرب خليج أمير المؤمنين ، وهو قناة تخرج من النيل شمالى الفسطاط وتصل الى خليج السويس عند القلزم . واهتموا بانشاء السفن التى تحمل القمح وما اليه من الفسطاط الى القلزم ومنها الى الحجاز ، فأنشأوا لذلك دار صناعة عند جزيرة الروضة بمصر ، ولهذا سميت بجزيرة الصناعة ، وقد أظهر المصريون براعة فائقة فى بناء السفن ، فنشأ أسطول نهرى . ثم خطوا بعد ذلك خطوة أخرى فأنشأوا سفنا كبارا تخوض المعارك الحربية .

وكان اهتمام المسلمين بصناعة السفن جزءا من اهتمامهم العام ببحريتهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وصاحب الفضل فى تلك الحركة معاوية بن أبى سفيان ، فقد اهتم أثناء ولايته على الشام بانشاء السفن فى موانى الشام اهتماما أخاف الدولة البيزنطية ، فقرر

امبراطورها قنسطانز أن يقضى على تلك القوة البحرية الاسلامية فى مهدها ، فتصدى له المسلمون وأوقعوا بالأسطول البيزنطى هزيمة موقعة الصوارى أو ذات الصوارى ٣٤ / ٦٥٥ التى نقلت سيادة الحوض الشرقى للبحر الأبيض الى أيدى المسلمين . وكانت نواة الأسطول الاسلامى الذى كسب هذا النصر شامية ، ولكن القوة الحاسمة أتت من مصر . فبينما سار معاوية بسفن الشام الى قيصرية بآسية الصغرى ، خرجت عمارة بحرية مصرية من مصر على رأسها عبد الله بن سعد بن أبى سرح وكان يقودها نواتية من المصريين ، بل كان من بينها سفن ليس فيها الا أقباط . وكانت هذه الموقعة حافزا للمسلمين على الاهتمام بشئون الأساطيل ، ويبدو أن دار الصناعة فى جزيرة الروضة فتحت أعين المسلمين على أهمية هذه الدور ، فقد قال البلاذرى : « انه لما كانت سنة ٤٩ هاجم الروم سواحل الشام ، وكانت دور الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا » . وظلت مصر طوال العصر الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل مركزا من أهم مراكز بناء السفن ، وظل قبطها مشهودا لهم بالتفوق فى انشاء الثغور البحرية حتى كان يستعان بهم فى كل ناحية من نواحى المملكة الاسلامية .

وقد أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم أشقاو ، والتى ترجع الى عصر الوليد ابن عبد الملك ، أن صناعة السفن كانت زاهرة فى مصر ، فى جزيرة الروضة وفى القلزم والاسكندرية . فبعض تلك الأوراق يدلنا على أن الوالى قرة بن شريك كان كثيرا ما يطلب من صاحب كورة أشقاو أن يرسل اليه عمالا وصناعا وملاحين للعمل فى دور الصناعة والمساهمة فى اعداد الأسطول المصرى الحربى . كما تدل تلك الأوراق على أن الوالى كان ينفق مقدما على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون فى الأسطول المصرى ، كما كان يفرض على الكورة قدرا من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن وتنظيفها . كذلك كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يعملون فى الأسطول ، كما كان والى مصر يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية .

وقد استمر ذلك طوال العصر العباسى وعصرى الفاطميين والأيوبيين ، ولم تنصرف مصر عن الاهتمام بشئون البحر الا فى أيام المماليك كما يقول المقريزى . ولدينا وثيقة بردية يرجع تاريخها الى سنة ٢٤١ / ٨٥٠ تعطينا فكرة عن عظيم اهتمام ولاة مصر بدفع البيزنطيين عن سواحل مصر ، ومقدار ما كان المصريون يعانونه من المتاعب للقيام بالخدمة فى الأسطول وحماية شواطىء الاسلام . وكانت مصر تستورد الخشب اللازم لبناء

السفن من الشام ، وربما من آسيا الصغرى وبعض بلاد أوربا .

وكان البردى خلال عصر الولاة من أهم منتجات مصر ذات القيمة الاقتصادية ، فقد كانت أوراق البشنين تنمو بكثرة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ، وشهرة المصريين بعمل الورق منه معروفة . قالت الدكتورة سيدة الكاشف : « ويذكر ابن الفقيه فى أواخر القرن الثالث الهجرى أن لأهل مصر القراطيس التى لا يشركهم فيها أحد ، ويذكر اليعقوبى أن القراطيس كانت تصنع فى بورة ، وهى على ساحل البحر من عمل دمياط ، وفى مدينة أخينو وهى على ساحل البحر غربى فرع رشيد ، ويقال لها وسيمة . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة كانوا يعتمدون على مصر . أما فى القرن الرابع الهجرى فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون الا بسمرقند والصين . ويذكر كراباتشيك أن صناعة ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى ، والواقع أن ورق البردى المؤرخ الذى وصل الينا ينتهى فى عام ٣٢٣/٩٣٤ على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها عام ٣٠٠/٩١٢ ، وهكذا نرى أن مصر كانت طوال عصر الولاة تقريبا تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صناع الورق ، كغيرهم من الصناع فى مصر ، من المصريين . وكانت أغلبيتهم ، أو كلهم ، فى أول عهد الفتح من الأقباط . والى أواخر القرن الهجرى الأول وأوائل الثامن الميلادى كانت صيغة الطابع الذى يطبع على الورق « الآب والابن وروح القدس » ، ومع أن هذه الصيغة استبدلت فيما بعد بما يتفق والدين الاسلامى ، الا أن الكتبة ظلوا يرسمون علامة الصليب على ظهر أوراق الحكومة » .

والى جانب هذه الصناعات الرئيسية اشتهرت مصر بصناعات تقليدية أخرى كالنجارة والحفر على الخشب والخزف والزجاج وصناعة المعادن ، وكل هذه صناعات متوارثة من العصور القديمة . فاذا أضفنا اليها ما كانت مصر تصدره من الحبوب وتستورده من الخامات تبينا أن تجارة مصر فى ذلك العصر كانت نافقة ، وأن القلزم ودمياط والاسكندرية ورشيد كانت وافرة النشاط . فلم يضمحل أمر الاسكندرية وتتحول الى قرية لا أهمية لها بعد الفتح الاسلامى كما يقول بعض المستشرقين ، فقد زارها بعد الفتح الاسلامى بنحو ثلاثين سنة ، أى سنة ٥٠ — ٥١ هـ / ٧٦٠ ، آركولف أحد حجاج بيت المقدس ووصفها بأنها ملتقى التجارة العالمية . ويذكر آدم ميتز أن الاسكندرية وبغداد كانتا تقرران فى القرن الرابع الهجرى الأسعار العالمية ، ولا سيما فى البضائع الكمالية .

وكانت العمـــلة المستعملة فى مصر هى الدينار الذهبى ، وكسوره الدراهم الفضية ، وربما استعملت كسور هذين وهى الدوانق والأنشـاش البرونزية ، ولكن الأساس هو الدينار الذهبى بوزنه البيزنطى . وقد ظل وزن الدينار البيزنطى ثابتا معترفا به حتى أيام الأسرة المقـدونية . وكان ثبات وزنه أساس الثقة فيه وضمان ســلامة الميزان الاقتصادى للدولة البيزنطية ، حتى ان اختلال وزنه اعتبر من العلامات الحاسمة الدالة على انهيار أمر هذه الدولة . وعن البيزنطيين أخذ المســلمون الدينـار بوزنه ورســمه أول الأمـر ، ثم بدأوا يسكون دينـارا اسلاميا من عهـد عبـد الملك بن مـروان . ولكن الدولة الاسـلامية لم تحافظ عـلى وزن دينـارها ، فاضـطربت قيمتـه وقلت الثقة فيه ، وأصبحت الدنانير سلعة كغيرها تقدر بوزن ما فيها من الذهب ، وظل الناس يفضلون الدينـار البيزنطى الثابت الوزن ، وظلت العملتان مستعملتين جنبا الى جنب مع اختلاف فى قيمتهما .

وقد احتفظت مصر بالدينـار كأساس لمعاملاتها ، فى حين أن العراق مثلا أصـبح يتعامل بالدراهم الفضية لقلة الذهب وتعرضه للغش . وكان وزن الدينار المصرى ثابتا على الغالب ، وذلك لأن الأمراء وعمال الخراج وولاة الشرطة حرصـوا على تثبيت أوزان العملة على أساس صنج زجاجية رسـمية مطبوعة بأسمائهم .

وفيما عـدا ثورات الأقباط التى أشرنا اليها ، لا تذكر أصول تاريخ مصر الاسلامية من الحوادث التى وقعت فيها الا ما يتصل بمن نزلها من العرب ، سواء أكان ذلك خاصا بمن أقاموا فى مراكز العـرب كالفسطاط والجيزة والاسكندرية أو من تفرق منهم فى نواح من مصر السفلى كالحوفين الشرقى والغربى ، بحيث يمكن القول بأن تاريخ مصر الذى نقرأه عند ابن عبد الحكم والكندى مثلا انما هو تاريخ الجاليات العربية فى مصر . فقد عاش العرب فى الفسطاط خاصة منفصلين عن بقية الأهلين ، الا فيما يتصل بما تقضى به ضرورات الحياة ، وتنفرد الفسطاط من بين ما أنشأ المسلمون من مدن فى ذلك العصر الأول بأنها كانت مركزا عربيا خالصا كأنما لم يغادر عربها جزيرتهم . فبينما نجـد الكوفة والبصرة غاصتين بأهل العراق الأصـلاء ، والقيروان مدينة غالبية سكانها ممن أسـلم من البربر ، وقرطبة مدينة اسبانية حلت فيها الجالية الاسلامية ، نجد الفسطاط تبدو من أول الأمر مدينة عربية خالصة لا يسكنها غير العرب ويسودها جو عربى خالص .

وهى ، على خلاف البصرة والكوفة ، ظهرت مدينة كاملة واضحة التخطيط مبنيـة البيوت ، فى حين أن هاتين أنشئتا أول الأمر بالقصب ، ثم استبدل القصب بمبانى اللبن فيما بعد . ولا يتصور هذا الا على فرض أن

الفسطاط انما نشأت على أساس موضع كان مسكونا قبلا ، أعاد العرب تخطيطه وتنظيمه بمعاونة أهل البلاد . فلم يكن العرب بنائين ، وليس لدينا ما يدلنا على أنهم بنوا مدينتهم هذه بأيديهم ، وما تقوله المراجع من أن اسمها مشتق من فسطاط عمرو بن العاص فرض لا يمكن رفضه تماما ، وان كان من المحتمل أن يكون الاسم مشتقا من لفظ «فوساطون» اليونانى بمعنى الحفير أو الخندق . وقد سبق أن أشرنا الى أن المنطقة الواقعة بين قصر الشمع (حصن بابليون) الى ما يعرف الآن بعين شمس كانت عامرة بالقرى والمزارع والأديرة ، فاختار العرب أن تكون مدينتهم بينها .

وقد كانت عادة المسلمين فى ذلك العهد اذا أرادوا أن ينشئوا مدينة ، أن يبدأوا ببناء مسجد جامع تقوم من حوله المبانى بعد ذلك . هكذا حدث مع الكوفة والقيروان مثلا ، أما فى حالة الفسطاط فقد بدأ العرب بتخطيط المدينة ، أى بتحديد المكان الذى ستقوم فيه وتقسيمه خططا ، بل أقام عمرو بن العاص رجلا من أصحابه مشرفا على هذه العملية وهو معاوية بن حديج الكندى ، الذى سيكون له دور عظيم فى نصرة معاوية بن أبى سفيان ثم فى فتح المغرب بعد ذلك . ونستبعد أن يكون هذا الأسلوب المرتب فى الانشاء من عند عمرو نفسه ، بل يغلب أنه استرشد فيه برأى من كان حوله من كبار القبط ، وكان الود بينه وبينهم متبادلا ، فكان يشاورهم فى الكثير من شئون البلاد . والغالب أيضا أن هذه المساحة بالذات كانت من أملاك الدولة ، فاستصفاها عمرو ، ثم قسمها قطعا هى المعروفة بالخطط ، ويرجح أن الخطط لم تكن متساوية ، وأن كلا منها لم يكن حيا واسعا ، بل قسمت الأرض بحسب الظروف والحاجة ، فان الرواة يذكرون لنا مثلا خطة عبد الرحمن بن ملجم ، أعطيت له بأمر عمر بن الخطاب ليتخذ فيها منزلا يعلم الناس فيه القرآن ، وابن ملجم هذا هو الخارجى المشهور الذى اغتال على بن أبى طالب رضوان الله عليه .

ومن الدلائل على أن أهل البلاد كانوا يشتركون فى الانشاء ، أن عمرو بن العاص بنى حماما فاستصغره القبط وقالوا : يصلح للفأر ، أى أن انشاءه لم يعجبهم . أما حمامات مصر فكانت ديماسات كبارا (جمع داموس وهو البناء الكبير ، من Domus اللاتينى ، ثم أطلق على ما يعرف اليوم بالمستوقد ، ومنه يقال : فول مدمس ، أى منضج فى الداموس أو الديماس) ، ثم كانت حمامات الفسطاط بعد ذلك كبارا نتيجة لملاحظة أولئك المصريين . ثم اختط عمرو مسجده ، وهو أقدم مساجد مصر ، وان كان قد عدل وهدم وبنى من جديد بعد ذلك مرارا ، ولا زال باقيا الى اليوم ، ويعرف لقدمه بالمسجد العتيق . ثم اتخذ عمرو داره شرقى المسجد وبنى

أصحابه الدور فيما يجاوره . وكانت الدور أول الأمر من طبقة واحدة ، ولا تزيد غرف البيت عن ثلاث أو أربـع . ولابن دقماق صاحب كتاب « الانتصار لواسطة عقـد الأمصار » مبالغات فيما حرص المسلمون عليه من البساطة فى الأبنية . ولم يكن بحاجة الى تكلف ذلك كله ، فان الأمر بطبعه لم يكن ليخرج عن هذه البساطة .

وقد استطاع روڤن جست أن يضع رسما للفسطاط الأولى اعتمادا على أطلالها وبقية أسس بيوتها التى تم كشفها ، وأتم عمـله الأثرى المصرى على بهجت . وقد ذهبا الى أن البلد كان يمتد من القرية الواقعة جنوبى القاهرة والتى كانت تعرف بدار الطين ثم عدل اسمها الى دار السلام، وتتصل حتى بركة الحبش وقد جفت الآن ، وكانت تقع قرب المرتفع الذى كان يعرف قبـلا بجبل يشكر ويعرف موضعه الآن باسم أرض طولون ، وعليها يقع جامع أحمد بن طولون . وكان فى كل خطة منسوبة الى قبيلة ديوان أو سجل بالمقيدين فى الجند الرسمى من أهلها ، وفى دار الامـارة كان يوجد السجل العـام أو الديوان وهو ادارة احصائية صغيرة تقوم بتسجيل العرب المشتركين فى الجيش وأبنائهم ممن لهم الحق فى الانتظام فى الجندية والحصول على العطاء والرزق . وكان لأهل الراية ديوان خاص فى خطتهم ، وكانت هناك خطة للعرب الذين لا ينتمون الى قبيـلة بعينها ، وكانت تسمى خطة اللفيف . وكان الوافدون من العرب ينزلون فى خطط قبائلهم ، فلما ضاقت الخطط أنشئت خطة جديدة عرفت بخطة أهل الظاهر .

وكانت هندسة الخطة أول الأمر بسيطة : تقيم القبيلة منازل على حدود خطتها ، وتترك ما تدور عليه فضاء . وقد ضاق هذا الفضاء شيئا فشيئا بانشاء مبان جديدة فيه وتحول الى جزائر من المبانى تتخللها الدروب والأزقة . ولهذا فلم تكن فى الفسطاط القديمة شوارع رئيسية أو محجات تأخذ من طرف لطرف . قال ابن زولاق : « وفرق عمـرو بين الروم والفرس ، وجعلهم فى طرفى البلد ، فأسكن الروم الحمراوات ، وأسكن الفرس بنى وائل وراشدة وبساتين بنى وائل ، ولهم الى اليوم مسجد يعرف بمسجد الفارسيين ، وأسكن القبط القصر ، وأسكن العرب الخطط » ، أى أنه جعل من انضم الى جيشه من عـرب فلسطين الذين كانوا يعرفون بالحمـراء فى طرف البلد الجنوبى على شاطىء النيـل فى الغالب ، لأن الموضـع الذى نزلوه عـرف بالحمـراء الدنيا فيما بين حصن بابليـون والنيل . ثم ابتنى الناس صفوفا من المنازل على شاطىء النيل زحفوا بها الى الشمال ، وقد نشأ عن ذلك ما عرف بالحمراء الوسطى ثم الحمراء القصوى . أما القصر الذى أسكنه الأقباط ، فالمراد به ما يلى قصر الشمع الى الجنوب ، أى أنه أنزلهم خارج البلد .

وشيئا فشيئا اختفى اسم بابليون وبقى اسم الفسطاط . وكان اسم مصر يطلق على الفسطاط أيضا ، وأطلق فيما بعد ذلك على القاهرة . أما النصوص اليونانية فأطلقت على البلد اسم فساطون ، وهذا هو الذى حدا بالمستشرق دوزى الى القول بأن لفظ الفسطاط مشتق من فساطون اليونانى . ويقوى هذا الرأى أن بعض النصوص العربية تقول فُسّاط ، ويضعفه أن البلد لم يحط أول الأمر بخندق وانما حصن بزرب أو زريبة ، وهو السور يتخذ من نبات ذى شوك .

ولابد أن نضيف أن العرب لم يضعوا اسم مصر لهذا الموضع وانما كانت تستعمله قبل دخولهم القبائل العربية الضاربة فى شمالى الجزيرة بمعنى الحدود أو الحد ، وربما استعمل أيضا للمعسكر الذى يقوم على الحدود . ويرجح أن أصله نبطى ، فلما أنشأ العرب المراكز العسكرية سموها أمصارا ، فقالوا مصر الكوفة ومصر البصرة . ويرجح أنه كان يطلق أيضا على موضع حصن بابليون ، ثم قالوا مصر الفسطاط ، ثم أطلقوا الاسم على بلاد مصر كلها . أما الاغريق فكانوا يقولون Aegyptos وقد أخذ هذا الاسم طريقه الى اللغات الأوروبية . أما اسم مصر القديم وهو خيمى أو شيمى أو كيمى فقد اختفى نهائيا .

ولم تكن الفسطاط عاصمة مصر بقدر ما كانت مركزا للعرب ، ففى أثناء العصر الأموى نجد عبد العزيز بن مروان ينقل دار الامارة الى حلوان . ولم يقم العمال خلال العصر العباسى فى الفسطاط وانما فى موضع بالحمراء القصوى عرف بدار الامارة . وقد نشأت حول دار الامارة بليدة صغيرة عرفت باسم مدينة العسكر ، أقيم فيها مسجد جامع جديد عرف باسم جامع العسكر أو جامع ساحل الغلة . وقد أفادت الفسطاط من ذلك لأن مبانى البلدين اتصلت ، فعادت الى الفسطاط أهميتها كعاصمة ، وأنشئت لها شرطة خاصة عرفت باسم الشرطة العليا . وقد اتسعت الفسطاط وازدحمت بالناس شيئا فشيئا ، ولكنها لم تسور . وفى سنة ٦٤/٦٨٢ حفر عامل ابن الزبير على مصر حفيرا حول الفسطاط ليحميها من جنود الخليفة مروان ابن الحكم . وقد أنشئت فيها المنشآت الحكومية الواحدة بعد الأخرى ، فعمر الجامع العتيق ، وأنشئت مساجد صغيرة فى الخطط عرفت بالمصليات ، ثم أنشئت أهراء كبيرة للقمح ذكرت فى النصوص الاغريقية ، ثم أنشىء بيت المال على مقربة من الجامع ، وكان يقوم على أساطين أى أعمدة ، وكان يتصل بالجامع ، وبابه الرئيسى داخل المسجد ، ولهذا كان المسجد يخلى من المصلين بعد العشاء . وقد أصيبت الفسطاط بكوارث كبيرة خلال العصر الذى ندرسه ، أقساها احراق مروان بن محمد اياها سنة ١٣٢/٧٥٠

أثناء فراره أمام العباسيين ، حكى ذلك ساويرس بن المقفع . وقد استمرت مدينة العسكر مقام الأمراء حتى قدم أحمد بن طولون مصر وأقام دولته معتمدا على جنده الأتراك ، وأنشأ القطائع . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وقد ذكرنا أن نفرا من العرب نزلوا موضع الجيزة واختطوا مدينة الجيزة وجعلوها خططا ، وكان معظم من نزلها من العرب من قبيلتى همدان ويافع . وقد بنى عمرو بن العاص فى المدينة حصنا فيما بين سنتى ٢١ و ٢٢ /٦٤١— ٦٤٢ ، ثم بُنى فيها مسجد جامع عرف باسم مسجد همدان وينسب الى مراحق بن عامر بن بكيل ، وقد عرف أيضا بالمسجد الأعظم لاتساعه وكان ملاصقا للحصن . وقد تلاشى الحصن والجامع فلا نجد لهما ذكرا عند ابن دقماق .

أما الاسكندرية فلم ينشىء العرب الأولون فيها شيئا ، وانما نزلوا فى مساكن كانت لبعض الروم وخلت بخروجهم من مصر ، فكانت تسمى الأخائذ . وكان المسلمون يسكنون هذه البيوت فى رباطهم ، فاذا قفلوا سكنها الروم وعليهم مرمتها ، ثم استقروا بها بصورة نهائية .

أهم أحداث مصر من الفتح العربى الى قيام دولة أحمد بن طولون

هذه هى المراكز التى تجمع فيها العرب من أول الأمر ، وقد عاشوا فيها كما قلنا حياتهم العربية الخالصة متصلين اتصالا دائما ومباشرا بأبناء عمومتهم فى الجزيرة العربية ، ولهذا فقد كان تأثرهم عظيما بكل ما يقع فى شبه الجزيرة من الأحداث ، مثلهم فى ذلك مثل عرب الكوفة والبصرة وما اليهما . ولهذا فان تاريخ هذه الجماعات يعتبر جزءا من تاريخ الخلافة عامة لا من تاريخ مصر فحسب، وبينما ظل أهل مصر بعيدين عن الفتن الكبرى التى هزت كيان الدولة الاسلامية خلال القرنين الهجريين الأول والثانى اشترك عرب مصر فى هذه المشاكل كلها وقاموا بدور حاسم فى الكثير منها . فقد ألقى عرب مصر بأنفسهم فى معمعان الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وليس هنا موضع تفصيل ذلك ، وانما يهمنا أن نلاحظ أن عبد الله بن سبأ الذى يقال ان أصله من يهود اليمن وجد أذنا صاغية من اليمنيين فى مصر ، فكأن الذى دفع عرب مصر الى الايضاع فى هذه الفتنة هو استنكار جماعة اليمنية لما أبلغهم اياه بعض الدعاة من أن فريقا من قريش مستبد بالأمر مضيع لشئون المسلمين . أما من انضم الى الحركة من القرشيين فكانوا ينكرون استبداد بنى أمية بالأمر دون غيرهم من القرشيين باسم الخليفة عثمان ، وقد زاد نفورهم تولية عثمان أمور مصر أخاه من الرضاع عبد الله ابن سعد . وقد بذل الرجل جهدا عظيما ليثبت أنه جدير بثقة الخليفة ، فقام بحملة كبرى على

المغرب ، وانتصر على الروم فى سبيطلة سنة ٦٤٧/٢٧ انتصارا لا يقل عن انتصار عمرو على الروم عند بابليون ، ثم غزا النوبة وأرغم أهلها على معاهدة المسلمين سنة ٦٥١/٣١ ، ثم كسب انتصار ذات الصوارى سنة ٣٤/ ٦٥٤ ، ولكن ذلك كله لم يشفع له ، وأصر عرب مصر على انكاره وكراهتهم له .

وربما كان من أسباب هذه الكراهة اجتهاده فى جمع المال والارتفاع بالخراج حتى جمع منه فوق ما جمع عمرو بن العاص .

وبينما كان عبد الله بن سعد مشتغلا بهذه الفتوح كان ابن سبأ ومن انضم اليه يكيدون له ، فلما عاد من غزوة ذات الصوارى سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ تبين حقيقة الأمر ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى ومضى الى المدينة ليلقى الخليفة . فلم يكد يخرج من مصر حتى ثار عربها على عقبة وطردوه وتزعمهم محمد بن أبى حذيفة ، وربما كان غرضهم الأول التخلص من والى عثمان عليهم ولكنهم وجدوا من عثمان اصرارا على واليه ، فزادوا سخطا . وتشجعوا عندما علموا أن غيرهم من عرب الأمصار الأخرى يشاركونهم الرأى فى ولاة عثمان ، فبعثوا الى المدينة بجماعة منهم يقال ان عددهم كان ٦٠٠ رجل ، وفى المدينة التقى هؤلاء بغيرهم من الثوار وتطور الأمر حتى انتهى بمقتل عثمان بن عفان فى ذى الحجة سنة ٣٥ / مايو ٦٥٥ .

وقد انكمش المناصرون لعثمان على أنفسهم أثناء ذلك كله ، وعرفوا بالعثمانية ، وعلى رأسهم معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة ومسلمة بن مخلد وبسر بن أبى أرطأة ، وعرفوا كيف يحافظون على وحدتهم ومركزهم أثناء ذلك الوقت العصيب . والتف حولهم نفر من عرب مصر ، وثبتوا لخصومهم ، رغم ما بذله محمد بن أبى حذيفة والى علىّ على مصر من الجهود ، ثم أقبل اليهم معاوية ابن أبى سفيان بنفسه والتقى بهم فى سَلَمَنْت من كورة عين شمس سنة ٣٦ / ٦٥٦ واحتال على محمد بن أبى حذيفة حتى تخلص منه ، فولّى علىّ علَى مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، فدخلها سنة ٣٧ / ٦٥٧ ولكن معاوية وعَمرا عرفا كيف يوقعان بينه وبين علىّ فعزله ، وولّى مصر الأشتر بن مالك بن الحارث النخعى فدبر معاوية اغتياله ، فولى علىّ محمد بن أبى بكر فلم يستطع الثبات لأنه كان رجلا طائشا قليل التدبير ، لم يلبث عمرو بن العاص أن انتصر عليه واستعاد مصر لمعاوية سنة ٦٥٨/٣٨ ، أى قبل مقتل على بسنتين .

ويبدو أن هذا الانكار لاستئثار بنى أمية بالأمر دون غيرهم هو الذى دفع بغالبية عرب مصر الى تأييد عبد الله بن الزبير عندما طلب الخلافة لنفسه عام ٦٨٠/٦١ ، ولم يكن يقتصر ذلك على عرب مصر بل شمل عرب الحجاز واليمن والعراق وكثيرا من عرب الشام . ومن الواضح ان عامة العرب لم يكونوا قد سلموا

بحق بنى أمية فى الخلافة ، وان كانوا قد خضعوا للقوة . ويبدو هذا بصورة واضحة عند عرب النواحى ، فقد كانوا بعيدين عن مركز الخلافة يتمتعون بجانب كبير من الحرية ، ويبدو ذلك بصورة واضحة فى حالة عرب مصر ، فقد كان لهم وضع خاص يختلف عن وضع عرب العراق مثلا . فقد كان هؤلاء الأخيرون يعيشون من أرض تملكها الدولة وليس لهم الا فيؤها . أما عرب مصر فكانت رقاب أرضهم بأيديهم أو بأيدى المصريين ، ولم يكونوا يخشون أن تنزعهم الدولة من الأرض أو تحاربهم بالأسلحة التى حارب الحجاج عرب العراق بها .

ومهما كان الأمر فقد كان عرب مصر مستعدين لتأييد أى منافس لبنى أمية فى الخلافة ، سواء أكان المنافس ابن الزبير أو غيره ، وخاصة عندما اقتنص الخلافة مروان ابن الحكم سنة ٦٤/٦٨٤ فقد بدا بوضوح أن المسألة مسألة مهارة وخداع وغصب بالقوة ، ومَن قَدر على الخلافة حازها بصرف النظر عن الحق أو رأى الأمة . وقد بدأ مروان بن الحكم أمره بمأساة مرج راهط حيث أنزل القيسيون بالكلبيين هزيمة فادحة تردد صداها فى نواحى الدولة كلها ، ولم ينس اليمنيون مصيبة مرج راهط أبدا ، وظل الحقد يغلى فى صدورهم ، ولم يغادروا فرصة لزعزعة بناء دولة المروانيين الا ابتدروها ، بحيث يمكن القول بأن انهزام بنى مروان وخروج الأمر عن أيديهم بدأ يوم مرج راهط .

وقد اهتم مروان بأمر مصر اهتماما عظيما ، وأسرع اليها ليستعيدها من والى عبد الله بن الزبير عليها وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جَحْدَم الفهرى . وقد أبلى ابن جحدم بلاء عظيما فى دفاع مروان بن الحكم وجنده ، ونفر عرب الفسطاط لعونه ، وكانت غالبيتهم يمنية ، ولكنهم انهزموا لنفس السبب الذى هزَم اليمنية فى صراعها مع الشامية فى كل ناحية من نواحى الدولة ، وهو أنهم كانوا أكثر استمساكا بما كانوا منصرفين اليه فى الولايات من زرع وضرع وشئون معاش ، فى حين أن الشامية كانوا قليلى الاهتمام بهذه الناحية ، انما همهم الحقيقى فى السياسة وطلب السلطان ، فكانوا أصبر من اليمنيين على الكفاح السياسى والعسكرى ، وربما كسب اليمنيون انتصارات أولى ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون فى الصراع الطويل ، ولهذا عقدت الانتصارات النهائية دائما بلواء القيسية . وقد دخل مروان بن الحكم الفسطاط سنة ٦٥/٦٨٥ وبايعه عرب مصر الا نفر قليل تخلص منهم مروان بوسائل شتى . وقد انصرف يمنية مصر بعد ذلك عن المناوأة واستغرقوا فى شئون المعاش ، فهدأت أحوالها الى نهاية العصر الأموى .

غير أن اليمنيين شعروا منذ أيام يزيد بن الوليد أن أمر بنى مروان الى زوال ، فقد

ضعف أمر القيسية بعد ذلك الجهد الطويل الذى بذلوه فى تأييد بنى مروان منذ أيام مروان بن الحكم . واذا كان اليمنيون قد عجزوا عن مواجهة الخلافة المروانية جملة واحدة ، فان جماعاتهم فى كل ناحية من نواحى الدولة أخذت تناوىء من معها من القيسيين ، وظهر ذلك بصورة واضحة جدا عندما ولى الأمر مروان بن محمد ، فقد اعتمد على القيسيين اعتمادا كاملا أحرج صدور اليمنيين فى كل ناحية . وفيما يتصل بمصر نجد واليها حفص بن الوليد الحضرمى ، وكان يمنيا ، يستعفى من ولاية مصر عقب سماعه بتنصيب مروان بن محمد خليفة ، فولى مروان عليها حسان بن عتاهية وعلى خراجها قيس بن أبى عطاء وهما مضريان قيسيان ، فانتصب اليمنيون يقاومونهما حتى اضطروهما الى الخروج من مصر ، ونصبوا على أنفسهم حفص بن الوليد مرة ثانية .

وكانت دعوة العباسيين قد قوى أمرها وترامت أخبار تجمع قواهم فى شرق الدولة الاسلامية ، وربما وصل الى مصر نفر من دعاتهم ، فتشجع اليمنيون وصارحوا مروان ابن محمد بالعداء . وقد اجتهد فى اخضاعهم فولى مصر حنظلة بن صفوان الكلبى ، وكان يمنيا من المخلصين لبنى مروان ، وكان قد خاض معارك طويلة فى المغرب لم يوفق فى شىء منها ، فرفض المصريون الاعتراف به وأخرجوه من الفسطاط . وظل حفص بن الوليد واليا على مصر حتى أوائل سنة ١٢٨/٧٤٥ ، وقد روع مروان روعا شديدا لخروج مصر عن سلطانه ، فانتدب لاخضاع عربها رجلا من خيرة رجاله هو حوثرة بن سهيل الباهلى ومعه سبعة آلاف من جند حمص والجزيرة وقنسرين ، فخاف عرب مصر ، وتخلى حفص بن الوليد عن الأمر وطلب أنصاره الأمان ، فأمنهم ، ثم غدر بهم وقتل زعماءهم بما فيهم حفص بن الوليد سنة ١٢٨ /٧٤٥ .

ولم تمض سنوات حتى كانت هزيمة مروان بن محمد أمام قوات العباسيين على نهر الزاب (جمادى الآخرة ١٣٢ / يناير ٧٥٠) ، وشعر بنو مروان وولاتهم أن أمرهم قد انتهى . وهنا نجد فكرة التحصن بمصر تدور بفكر مروان بن محمد ، وحدثه بعض أصحابه بالعبارة التى لا تزال تتردد فى أحاديث مؤرخى مصر الاسلامية : « هى أكثر بلاد الأرض مالا وخيلا ورجالا » ، وهى « كليشيه » لا يزال يتردد على ألسنة رجال الدولة ، دون أن يحاول أحد منهم الاستفادة منه ، حتى جاء أحمد بن طولون .

وبينما كان مروان بن محمد يفكر فى مهرب يلجأ اليه كان واليه على مصر عبد الملك ابن مروان يستعد لحماية بلده من العباسيين ، وقد ارتكب فى ذلك السبيل حماقات ما كان أغناه عنها : صادر أموال الناس واستولى على ما قدر عليه من نحاس وحديد ليستخدم

ذلك كله فى شئون الدفاع . فتغيرت النفوس عليه ، ورموا بنى مروان عن قوس واحدة ؛ حتى اذا بدأ مروان بن محمد يسير الى مصر هاربا من بنى العباس اجتمع نفر من الجند لمنعه من دخـولها ، ثم أقبل مروان بفلول جيشه ، فوجد عـــرب مصر جميعـــا ، من الاسكندرية الى أسوان ، مع العباسيين عليه . ثم انضم اليهم أهل البشمور (ويسمون أيضا أهل البشرود) واعتصـــموا بمستنقعاتهم ، وقضى مروان فى مصر نحو الشهرين يحاول أن يجمع أمره دون جدوى .

فلما علم بأن قائدى العباسيين صالح بن على وأبا عون فى الطريق الى مصر أمر باحراق الفسطاط ، ثم أحرق جميــع المراكب الراسية فى دار الصناعة بالروضة ، ثم مضى جنــده يخربون ما اســتطاعوا تخريبه من أراضى الوجه البحـــرى ، كأنما ظن أن ســـياسة « الأرض المحترقـــة La terre brulée » قد تنقذه من مصيره المحتوم . ولم تكن لذلك نتيجة الا تنفير أهل البـــلاد جميعا — عربا ومسلمين وأقباطا — فقد شاء له رأيه الدبرى أن يقبض على البطرك الأنبا ميخائيل لأنه لم يؤد اليه مالا معلوما ، وانتهى الأمر بالقبض عليه وقتله فى بوصير الملق (مديرية الجيزة) فى ٧ ذى الحجة ١٣٢/٧ يوليو ٧٥٠ . وبهذا لقى آخر خلفاء بنى مروان مصرعه على ثرى مصر ، وأتيـــح لساويرس بن المقفع مؤرخ الأقباط أن يحيى هذه المناسبة فى تاريخه ، ويذكر مكافأة العباسيين لاخوانه على ما قاموا به من حرب مروان ، فقد خففوا عنهم الخراج وأطلقوا سراح الأنبـــا ميخائيل وبسطوا حمايتهم عـــلى الكنيسة المصرية وأملاكها ، وأعفوا أهل البشمور من الخراج ومنحوهم مالا على سبيل المكافأة .

هكذا دخلت مصر فى طاعة العباسيين ، وتولى أمرها صالح بن على عم أبى عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس . ولم يعلم عرب مصر الذين استبسلوا فى المعاونة عـــلى القضاء على بنى مروان أن هلاك آخر مروانى انما هو ايذان بنهاية امتيازهم فى مصر ، فقد كانت للعباسيين وجهة أخرى فى الحكم غير وجهة الأمويين : قامت دولتهم على غير العرب واختارت عاصمتها على حدود أرض الفرس فى بغداد على الضفة الغربية لنهر دجـــلة ، وابتعدوا بذلك عن الجناح الغربى للدولة الاسلامية ابتعادا شاسعا . وبدأت وحدات هذا الجناح تنفصل عن كيان الدولة الاسلامية الواحدة بعد الأخرى : بدأ الأمر فى الأندلس بقيام دولة عبد الرحمن الداخل ، ثم انفصلت افريقية عندما استقل بأمرها بنو الأغلب على أيام الرشيد ، وظلت مصر بين طاعة وعصيان وحرب وفوضى حتى استبد بأمورها أحمد ابن طولون .

ولقد كثر الخارجون على العباسيين فى مصر كثرة تستوقف النظر ، ففى خلافة المهدى وأثناء ولاية ابراهيم بن صالح بن على (١٦٥

— ١٦٧/٧٨١ — ٧٨٣) كاد يستقل بصعيد مصر داعية أموى هو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان . وكانت كفة المضرية قد شالت وآن الأوان لليمنية لترد اليها ما أسلفت من المساءات أيام عز بنى أمية ، ووقف الحيان وجها لوجه يتقاتلان فى نواحى مصر حتى عمت الفوضى ، وزاد الأمر سوءا أن ولاة بنى العباس لم يكونوا على قدرة أو كفاية ولم يتميز أحد منهم بشىء من الخبرة أو حسن الادارة . وكانت الدولة لا تكاد تولى واحدا منهم حتى تعزله ، لا بسبب العجز فى ذاته ، بل لأن سياسة العباسيين العامة نفسها قامت على تغيير الولاة خوفا من استبدادهم بالأمر .

ثم ان الولايات بالنسبة لبنى العباس كانت قد أصبحت مجرد مصادر للايراد ، فمن عرض على الخليفة أن يأتيه بخراج أكثر ولاّه الأمر ، وهى سياسة ساسانية قديمة أدخلها وزراء بنى العباس ، وكما كانت هذه السياسة من أسباب زوال بنى ساسان فقد كانت من أسباب اضمحلال ملك العباسيين. ومن غريب الأمر أن خلفاء بنى العباس كانوا مولعين بالنظر فى تاريخ الفرس ، فلو أن الانسان يعتبر بالتاريخ لاعتبر به العباسيون ، ولكن التاريخ قلما أفاد عبرة أو أعطى درسا ، وكل من ولى أمرا يحسب أنه أول عاقل تربع على عرش أو لبس تاجا .

والمتأمل فى أحداث تاريخ مصر خلال العصر العباسى يشعر وكأنما قد تحولت البلاد الى ميدان فسيح للكر والفر ، بين رجال الدولة وخصومهم حينا وبين بعض قبائل العرب وبعض حينا آخر . وقد بدأ الأمر بفتنة دحية بن مصعب بن الأصبغ المروانى الذى ذكرناه ، وقد طال أمره (من ١٦٥ — ١٦٩/ ٧٨١ — ٧٨٥) ولم يتمكن ولاة بنى العباس من الخلاص منه الا بعد عناء شديد . وكانت ثورات عرب مصر مع العلويين كثيرة كذلك ، وأول فتنة علوية نسمع بها كانت فى خلافة المنصور ، قادها أحد العلويين فى مصر وهو على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب . فقد دعا لأبيه محمد المعروف بالنفس الزكية وانتهى أمره بانتهاء أمر أبيه فى وقعة باخمرا بين الكوفة وواسط فى أول ذى الحجة ١٤٥/٧٦٢ . ويبدو أن مصر بدت لدعاة العلويين وكأنها تربة خصبة لدعواتهم فكثروا فيها وأخذوا يسببون المتاعب للولاة ، حتى ضاق العباسيون بأمرهم ، فأمر الخليفة المنتصر واليه على مصر بألا يتقبّل علوىٌ ضيعةً ولا يركب فرسا ولا يخرج من الفسطاط ، ثم أخرج كل من عثر عليه بمصر من العلويين الى بغداد فى رمضان ٢٤٨/٨٦٢ أيام خلافة المستعين .

ولا ينبغى أن تصرفنا ثورات هؤلاء العلويين عن الحقيقة التى تستتر تحتها ، وهى كراهة عرب مصر وأهلها لجند الترك الذين اعتمد عليهم العباسيون ، فقد كانوا

غلاظا على الناس شديدى الوطأة على البلاد ، ومن ثم فلم يكن الناس يسـرعون بدعوة علوى الا يسرعون الى تأييدها ، وفى بعض الأحيان لم يكونوا بحاجة الى انتظار علوى ليقودهم فى الثورة ، كما ترى فى ثورة جابر ابن الوليد المدلجى بالاسكندرية فى ربيع الآخر سنة ٢٥٢ / نوفمبر ٨٦٦ أيام المعتز ، فقد اشتد أمره حتى بسط سلطانه على الكثير من بلاد الوجه البحرى وجبى خراجها ، وقد اضطر الخليفة الى ارسال جيش كبير الى مصر ليقضى على جابر هذا ، فأتى الجيش يقوده مزاحم بن خاقان وقضى على الثائر وتولى مزاحم أمر مصر فى ربيع الأول ٢٥٣/٨٦٧ .

وعندما ثارت الفتنة بين الأمين والمأمون أحس أهـل النواحى أن هيبـة الدولة قد زالت ، فقد اتهم كل منهما الآخر بكل رذيلة ، ولم يكن النزاع بينهما فى أول أمره نزاعا بين الفرس والعرب كما ذهب كثير من المؤرخين، لأن كلا المعسكرين كان يضم عربا وفرسا ، ولكن الأمين عندما بدا له ضياع أمره فكر فى الاستعانة بعرب الشام ، وأخـذ دعاته يصورون دعوة الأمين على أنها دعوة العرب ودعوة المأمون على أنها قضـاء مبرم على العرب . وقد تردد فى كتب التاريخ صـدى هذا الدور الأخير الذى أخذه ذلك النزاع المحزن بين ابنى الرشيد فى مصر ، وتزعـم جانبا من عرب مصر فى الدعوة للأمين السرى ابن الحكم بن يوسف وظل يدعـو للأمين حتى بعد هزيمته . ولكن والى المأمون على مصر عباد بن محمد بن حيان اسـتطاع أن يتغلب على خصمه ويأخذ بيعة أهل الفسطاط للأمين فى جمادى الآخرة ١٩٦/مارس ٨١٢ .

وقد وقعت فى البلاد فتنة عنيفة بعـد ذلك ، اذ خشى السرى بن الحكم وأنصـاره على أنفسهم ، واستطاعوا أن يكسبوا عرب الحوف الى جانبهم ، وبعث الأمين الى ربيعة ابن قيس زعيم القيسيين بالحوف يوليـه أمر مصر ، فنهض ربيعـة بن قيس بهم وأقبـل يحاصر الفسطاط . ورأى عباد بن محمد بن حيان عامل المأمون أن يكسب الى جانبه نفرا من عرب مصر يتقى بهم بلاء أنصار الأمين ، فاختار للأمر عربيا طموحا الى السلطان هو عبد العزيز بن الوزير الجَرَوِى ، فانهـزم الجروى فى ذى القعدة ١٩٧ / سبتمبر ٨١٣ ومضى بفلول قومه من لخم وجـذام الى فاقوس ، وهناك ألقى أنصاره فى نفسه فكرة الدعوة لنفسه . ولم لا ؟ ألم يصبح الأمـر فوضى لا ضـابط لهـا ؟ وبالفعـل ، دعا عبد العـزيز بن الوزير الجـروى لنفسـه واليا على مصر وبعث عماله لجبـاية الخراج من الوجه البحرى ، وتصدى له السرى بن الحكم ومن معه ، وأصبح النزاع فى الحقيقة بين فريقين من عرب مصر ، على أحـدهما السرى بن الحكم وعلى الثانى عبد العزيز الجروى . وقد طال النزاع بين الجانبين ، حتى سنة ٢٠٠ هـ/٨١٥ حين أجمع جنـد

الفسطاط على السرى ، ولكن الجروى اعتصم بشرق الدلتا من شطنوف الى الفرما وجبى خراجها ، بل استقل بالاسكندرية وما حولها بعض زعماء العرب ، وتفرقت البلاد أيدى سبا وعمت نواحيها الفوضى .

وليس أدل على ذلك من استيلاء الرَّبَضِيِّين الأندلسيين على الاسكندرية واستبدادهم بأمرها فى ذلك الحين . وأمر أولئك الأندلسيين أقرب الى الأسطورة ، فقد كانوا فى جملة من ثار على الحكم الربضى الأندلسى وكادوا يقضون عليه . فلما أخمد فتنتهم واستقر له الأمر أخرج أهل ربض قرطبة الجنوبى سنة ١٩٨/٨١٣—٨١٤ من الأندلس عقابا لهم على قيامهم بهذه الفتنة ، فذهب بعضهم الى العدوة الافريقية واستقر بفاس وأنشأ لنفسه فيها حيا خاصا يعرف بعدوة الأندلسيين ، وأما الباقون فقد ساروا بحرا ونزلوا على مقربة من الاسكندرية عام ١٩٩/٨١٤—٨١٥ يقودهم رئيسهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد البَلّوطى . ولم يؤذن لهم بدخول البلد لأن الولاة كانوا لا يسمحون لجماعات الأندلسيين بدخوله ، وكان عدد هؤلاء الأندلسيين الربضيين نحو ١٥٫٠٠٠ رجل عدا نسائهم وأطفالهم ، وقد ظلوا خارج البلد حتى وقع خلاف بين عامله عمر بن هلال وعبد العزيز بن الوزير الجروى صاحب السلطان على الدلتا اذ ذاك . فأسرع الوالى عمر بن هلال يستنجد بالأندلسيين وأدخلهم البلد ، ولكن الأهلين أنكروا ذلك وثاروا بالأندلسيين وأخرجوهم بعد أن قتلوا منهم وطردوا عمر بن هلال أيضا .

وقد استطاع هذا الأخير أن يعود الى ولاية الاسكندرية اثر هدنة وقتية بين السرى ابن الحكم وعبد العزيز الجروى ، فلما استقر فيها طلب اليه الأندلسيون أن يدخلهم مرة أخرى ، فخاف أن يقع له ما وقع فى المرة الأولى ، فما كان منهم الا أن اقتحموا البلد بمعاونة طائفة عرفت بالصوفية ، كانوا يقولون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويعارضون الولاة ، وعاونهم كذلك نفر من بنى لخم كانوا فى الاسكندرية ، ودارت بينهم وبين عمر بن هلال حرب قتل فيها سنة ٢٠٠/٨١٥ . واستقر الأمر للأندلسيين واللخميين فى الاسكندرية ، ثم اختلفوا فيما بينهم ، ووقعت الحرب فانتصر الأندلسيون وأصبحوا سادة البلد ، وولوا عليها عبد الرحمن الصوفى رئيس جماعة الصوفيين الذين ذكرناهم ، ثم عزلوه وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى ، وهكذا انفصلت الاسكندرية عن بقية البلاد وحكمها أولئك الأندلسيون . وأراد الجروى أن يستخلص البلد ، فسار اليها فى جيش عدته خمسون ألفا ، ولكنه لم يتمكن من ادراك غايته ، لأن منافسه السرى أراد أن ينتهز الفرصة ليستولى على مقره فى تنيس ، فعاد الجروى مسرعا .

وقد استمر النزاع بين السرى والجروى ثم بين ابنيهما كذلك ، ولم ينته الا عندما قدم الى مصر عبد الله بن طاهر قائد المأمون ، فانضم اليه على بن الجروى ومن معه ، ثم دخل عبد الله بن السرى فى طاعته سنة ٢١١/ ٨٢٦ على أمان وعهد . وبعد ذلك سار عبد الله ابن طاهر فى صفر ٢١٢/٨٢٧ الى الاسكندرية، وصالح الأندلسيين على أن يسيروا من الاسكندرية الى أى موضع يريدون ، فخرجوا فى البحر الى جزيرة كريد فانتزعوها من أيدى البيزنطيين يقودهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى .

وعلى هذا النحو من الاضطراب والفوضى توالى ولاة بنى العباس على مصر ، لا يكاد أحدهم يستقر حتى يعزل . وكان أمر الولاية كذلك قد هان ، لأن الخلفاء ، أو من يديرون لهم الدولة ، حرصوا على أن يفصلوا الخراج عن الولاية ، ويعهدوا فيه الى رجل ضليع فى شؤون الجهبذة يضمن لهم خراج مصر بأقصى مبلغ مستطاع ، وقد اشتهر من أولئك رجل يسمى أحمد بن المدبر ، وكان ماليا قديرا بميزان تلك الأيام ، تولى خراج مصر وأثقل الناس بالجبايات حتى لم يبق شيئا دون ضريبة ، وكان لهذا محل ثقة الخلفاء ورجالهم. وفى أيامه دخل أحمد بن طولون مصر واستقر فى الفسطاط فى ٢٣ رمضان ٢٥٤/١٥ سبتمبر ٨٦٨ وكيلا لصهره عامل مصر للخليفة الموفق .

دولة بنى طولون[1]

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون فى ٢٣ رمضان ٢٢٠ /٢٠ سبتمبر ٨٣٥ فى بغداد أوسر من رأى ، وكان أبوه طولون تركيا من موالى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان ، أهداه الى المأمون فى جملة مماليكه ، فرقاه المأمون حتى صار فى عداد أمراء جنده . ويقال ان أحمد ليس ابنه بل تبناه لما توسمه فيه من

---

(١) **أصول :**

الى جانب المراجع العامة التى أوردنا ذكرها خلال هذا البحث ، انظر :

أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ، نشرها Vollers فى ثايمار ١٨٩٥ .

ـ : كتاب المكافأة ، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤

البلوى ، عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدينى : سيرة أحمد بن طولون ، نشرها محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ .

كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الأدفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، القاهرة ١٣٣٢ .

المحسن بن القاسم التنوخى : الفرج بعد الشدة ، القاهرة ١٣٥٧ .

ـ : جامع التواريخ المسمى بكتاب نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، ج ١ طبع مصر ١٩٢١ و ج ٨ طبع دمشق ١٩٣٠ .

الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ،

مخايل النجابة ، وقد أنكر ذلك أحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية صاحب كتاب سيرة أحمد بن طولون. قال أبو المحاسن: « ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة . ولما ترعرع أحمد تزوج بابنة عمه خاتون فولدت له العباس سنة ٢٤٢ ، ولما مات أبوه طولون فوض اليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه . ثم تتقلب به الأحوال الى أن ولى امرة الثغور امرة دمشق ثم ديار مصر » .

وقد قال كارل هاينريش بيكر ان أحمد بن طولون يعتبر نموذجا لغيره من الأتراك ، وهى ملاحظة لم يحالفه فيها التوفيق ، لأن ابن طولون كان يختلف عن زملائه الأتراك فى كل شيء . فقد كان سياسيا أريبا واسع الصدر حسن التدبير بعيدا عن التهور عارفا بشؤون المال . وكان الى ذلك مثقفا ذا اطلاع واسع ، وهذه كلها خلال لا نعرفها الا فى القليل جدا من معاصريه الأتراك . بل كان هو ينكر خلق

حققه الأساتذة السقا والابيارى وشلبى ، القاهرة ١٩٣٨ .

ابراهيم بن محمد المصرى المعروف بابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، نشر الجزءين ٤ و ٥ المستشرق Vollers ، القاهرة ١٣٠٩ .

أمين الدين أبو القاسم على بن منجب الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، طبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٢٤.

محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٢٧ .

جمال الدين على بن ظافر الأزدى المصرى : كتاب الدول المنقطعة ، صورة شمسية بدار الكتب المصرية لجزء من مخطوط بالمتحف البريطانى . وهناك مخطوطة أخرى فى جوتا نشر منها ڤستنفلد كتابه الذى سبقت الاشارة اليه عن حكام مصر أيام الخلفاء .

بدر الدين محمود العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ج ١٢ .

ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩٣٣ (الجزء الخامس) .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، طبعة دار الكتب ، ج ٣ .

المقريزى : السلوك ، الأجزاء المشار اليها سابقا .

ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١

ابن خلدون : طبعة بولاق ج ٤ ص ٢٩٧ وما يليها .

أبحاث ودراسات :

أحسن كتاب فى الموضوع هو « الطولونيون Les Tulunides للدكتور زكى محمد حسن ، بالفرنسية ، باريس ١٩٣٣ .

مادة « الطولونيين » بقلم كارل هاينريش بيكر ، ومادة أحمد بن طولون بقلمه أيضا فى دائرة المعارف الاسلامية .

آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤٠ .

A. Muller : *Der Islam in Morgen und Abendland*, I, 557 sqq.

Lane Poole : *A history of Egypt in the Middle Ages*, pp. 59 sqq.

Corbet : *The life and works of Ahmad ibn Tulun* (J.R.A.S. 1891) pp. 527 sqq.

Carl Heinrich Becker : *Beitraege zur Gesch. Aegyptens unter dem Islam*, II. p. 148-149.

الأتراك . روى أحمد بن محمد بن خاقان ، وكان خصيصا عند ابن طولون انه قال يوما : « يا أخى ، الى كم نقيم على هذا الاثم مع هؤلاء الموالى ! (يعنى الأتراك) لا يطأون موطئا الا كتب علينا الخطأ والاثم ، والصواب أن تسأل الوزير أن يكتب أرزاقنا الى الثغر . فكتب له ، وخرجنا الى طرسوس ، فلما رأى ما عليه الناس من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سر بذلك » .

وكان لخروج أحمد بن طولون الى طرسوس واقامته فيها أثر بعيد فى تكوينه وتاريخه ، فقد كانت اذ ذاك ثغرا عامرا بالمجاهدين والفرسان والمرابطين ، يقضون أيامهم فى منازلة من يليهم من الروم والتعبد والقراءة ، فأتقن الفروسية وحصل جانبا كبيرا من الثقافة . وقد انتفع بذلك بقية أيامه ، وكانت ذكرى أيام شبيبته فى ذلك الثغر عزيزة عليه ، وسنراه فيما بعد يبذل جهدا ومالا عظيمين فى سبيل الحصول عليه .

وأهم ما أفاده ابن طولون من اقامته بالثغر ابتعاده عن مجتمع الأتراك فى بغداد وسر من رأى ، فقد كان الجو الذى يعيشون فيه قاتما حافلا بالمآسى والمؤامرات ، تختلط فيه شؤون الدولة والرؤساء بشؤون الخدم والجوارى اختلاطا جعل الحياة فيه أشبه بالمغامرة ، اذا سلم بدن الانسان من العطب لم يسلم خلقه . وقد كاد أحمد بن طولون نفسه أن يفقد حياته نتيجة لعبث جارية من جوارى أبيه ، وكان أولئك الأتراك قد هبطوا بحرمة الدولة والخلفاء الى درك اضطرب معه ميزان الخلق وتلاشى معنى النظام والمسئولية ، فقضى ابن طولون سنوات شبابه الباكر بعيدا عن ذلك الوسط كله ، وعاد من طرسوس فارسا مكتمل الأدوات ودخل فى خدمة الخليفة المستعين فأعجب به وقربه وأهداه جارية تسمى مياس أنجب منها ابنه خمارويه سنة ٢٥٠/٨٦٤ .

وعندما غدر الأتراك المستعين ، طلب هذا أن يكون الموكل بشأنه أحمد بن طولون . ثم طلب الأتراك الى ابن طولون أن يقتل المستعين فأبى حفظا للجميل ، فبعثوا تركيا آخر فقتله، وقام أحمد بن طولون بدفنه بما ينبغى له عليه من حرمة . ثم عاد الى سر من رأى وظل بها الى أن حصل صهره بايكباك — وكان من كبار أجناد الأتراك — على ولاية مصر فبعث أحمد بن طولون الى مصر وكيلا له . وكانت الولاية اذ ذاك لا تخرج عن ضمان الخراج ، أى أن بايكباك ضمن خراج مصر للخلافة بمبلغ معين ، وأرسل صهره وكيلا عنه ليدير البلد ويحصل المال بمعاونة عامل الخراج ، وأقام هو فى بغداد ليكون على مقربة من وكر السعايات والمؤامرات مخافة أن يدبر أحد خلعه عن الولاية أو اغتياله .

دخل أحمد بن طولون الفسطاط فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤ كما قلنا ، ولم يلبث صهره أن توفى فصارت اليه الولاية ، وقد تنبه من أول الأمر الى أن الحكم لا يستقيم له ما دام

الخراج خارجا عن يده ، وكانت الدولة تحرص على أن يظل الخراج فى يد عامل خاص ، وكان العامل اذ ذاك أحمد بن المدبر ، فما زال يكيد لابن المدبر حتى عزله وصار اليه الخراج . ثم عهد اليه الخليفة فى أن يخرج لحرب أحد الثوار فى الشام ، فاستأذن فى أن يجمع جيشا لهذه المهمة فأذن له ، فأسرع بتكوين فرقة قوية من الجند كانت نواة جيشه الذى أصبح بعد قليل أكبر قوة عسكرية فى بلاد الخلافة العباسية . وكانت نواة هذا الجيش من الأتراك ، غير أنه لم يلبث بعد استقراره فى مصر أن ضم اليه فرقا من السود ، ووصل بعد قليل الى ما يقارب المائة ألف جندى ، وهكذا اكتملت له أدوات السلطان وسار فى طريقه قدما .

وبهذه القوة العسكرية استطاع أحمد بن طولون أن يقضى على كل منافسيه فى مصر ، وقد لجأ فى ذلك الى كل سبيل مشروع أو غير مشروع ، ووضع على الناس الجواسيس وأخذ بالظنة حتى اشتهر أمره بالغدر والظلم والبطش . وقد حكى ابن الداية فيما رواه من سيرة أحمد بن طولون كثيرا من مساوئه ، وحاول البلوى انصافه والدفاع عنه ، ولكن يبدو أن ابن طولون كان قاسيا مسرفا فى الدماء ، ويبدو ذلك واضحا فى كلام من دافعوا عنه ، ويبدو أيضا أن ذلك كان فى أول أمره ، ثم صلحت سيرته بعد أن استقر له الأمر ومال الى الخير والعدل تكفيرا عما سلف من أعماله .

وقد تعرض ابن طولون لأول خطر جسيم على سلطانه بعد استقراره فى مصر ببضع سنوات ، فان الأمير الموفق كان قد غلب على أخيه الخليفة المعتمد وحصل منه على تفويض بحكم الولايات الشرقية من أملاك الخلافة ، على أن تكون الغربية — ومنها مصر — تحت حكم الأمير المفوض بن المعتمد . ولكن الموفق تعلل بما تحتاجه حرب ثورة الزنج من مال وطلب أن تضم اليه مصر ، طمعا فى مالها ، وحصل على موافقة الخليفة على ذلك . وكتب الموفق الى أحمد بن طولون بطلب الأموال ، فرفض ابن طولون ، وأراد أن يظهر للموفق قوته ، فانتهز فرصة موت عامل الشام سنة ٢٦٤/٨٧٧—٨٧٨ وسار بجنده واحتل الشام ودخلت الرملة ودمشق وحمص وحماه وحلب فى طاعته ، ثم استولى على أنطاكية بعد حصار قصير . وقد فزع الموفق لذلك ، وبينما كان ابن طولون فى الشام خرج عليه ابنه العباس فى مصر ، وكان نفر من القواد قد غرروا به ، فعاد أحمد بن طولون الى مصر مسرعا ، وأخمد الفتنة وقتل المسئولين عنها واكتفى بسجن ابنه العباس . ثم عاد الى الشام سنة ٢٦٦/٨٧٩—٨٨٠ ، ومن ذلك الحين يبدو ابن طولون حاكما على دولة واسعة تشمل مصر الى النوبة ، وتمتد غربا الى برقة ، وتشمل الشام أيضا .

هكذا انضمت مصر والشام تحت سلطان واحد ، وبدا وكأن هذا التركى الغريب عن مصر قد سار فى آثار الفراعنة الأقدمين فى ضم

الشام ومصر تحت راية واحـدة . ولم يكن ذلك وحى المصادفة ، وانما هى ظاهرة تاريخية لا تزال تظهر على طول تاريخ هذين القطرين: اذا قامت فى مصر حكومة محلية قوية لم تلبث أن ضمت الشام اليها ، أو لم يلبث الشام أن انضم اليها . حدث هذا فى تاريخ مصر القديم ابتداء من أيام الأسرة السابعة عشرة ، ثم ظهر عندما قام فى مصر مُلك البطالمة (وان لـم يوفقوا الى الاحتفاظ بالشام ، وكان ذلك من أقوى أسباب ضعف دولتهم) ثم ظهر فى أيام ابن طولون هـذا والاخشـيد والفـاطميين والأيوبيين والمماليك ، ثم ظهر فى أيام محمد على وتجدد على أيامنا هـذه ، كأنما وحدة هذين البلدين ضرورة منطقيـة تسـتلزمها سلامتهما وسلامة الشرق العربى كله .

وفى خلال العصور الاسلامية نلاحظ أن انضمامهما لم يأخذ صورة سيطرة أحد منهما على الآخر ، بل أخذ صورة الدولة الموحدة ، فسواء نظـرنا فى تاريخ العصر الطولونى أو الاخشيدى أو الأيوبى أو المملوكى ، نجد أن أمراء مصر وسلاطينها يقيمون بالشام قـدر ما يقيمون فى مصر ، ويولونه من العناية قدر ما يولون مصر ، بل أكثر بكثير . فقد حارب أولئك جميعا فى سبيل الشام أكثر مما حاربوا فى سبيل مصر . وكان رجال دولتهم شاميين ومصريين على حد سواء ، وقد ارتهنت سلامة الجناح الشرقى لعالم الاسلام باتحـاد مصر والشام ، فاذا اتحدا ارتدت عنه المطامع ، واذا انفصـلا انفرد بهمـا وبجيرانهما المتسلطون والمستبدون . وقد عرف الطامعون فى الشرق العربى هذه الحقيقة فى العصر الحـديث ، فعندما أرادت انجلترا أن تمهد لنفسها طريق الاستيلاء على ما تستطيع الاستيلاء عليه من بلاد الشرق العربى بدأت بالقضـاء على قوة محمد على فى الشام فسهل عليها الأمر بعـد ذلك . وما يجرى تحت أنظارنا من أحـداث أيامنا خير مصداق لذلك . والكلام هنا ينطبق على الشام بمعنـاه التاريخى الكامل ، لأن التقسيم الحالى لبلاد الشـام شىء جديد فرضته مصالح الطامعين فى الشرق العـربى خلال النصف الأول من هذا القرن ، وهـو احدى النتـائج للحكم العثمـانى فى البلاد العربية .

وخاف الموفقُ أحمدَ بن طولون بعد أن اتسع سلطانه الى ذلك الحد ، وبدأ يدبر عليه. وكان ابن طولون واعيا لأمـره منتبها لكل ما يصدر عن خصمه ، وكان الى جانب ذلك حريصا على ألا يعلن العصيان على الخلافة ، بل ظل يدعو على منابره للخليفة المعتمد ، ولم يقطع ارسال الأموال الى بغداد ، بل ظل يرسل الى الخـلافة ما لها من مـال ، حتى ذكـر أبو المحاسن أنه حمل الى الخليفة المعتمد فى ٤ سنين مبلغ ٢٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار أى بمعدل ٥٥٠٫٠٠٠ دينار فى العام ، أى نحو ثمن خراج مصر كلـه (كان الخـراج على أيامـه ٤٫٣٠٠٫٠٠٠ دينار) . ومع أن أحمـد بن

طولون بعد أن ضم الشام الى سلطانه حمل عبء الحرب مع الروم ، وسد عن الدولة هذا الباب الثقيل بالتكاليف ، الا أن ذلك كله لم يغن عنه شيئا فى نظر الموفق ، وانتصب هذا يكيد له حتى استمال لؤلؤا قائد أحمد بن طولون على الشام ، فانقلب على سيده وانضم للموفق .

وتحرج أمر بن طولون واضطر الى منازلة الموفق علانية ، فأعلن نفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره وسجين أخيه ، واستخرج من الفقهاء فتوى بابطال دعوى الموفق فى السلطان ، وقد شذ عن ذلك القاضى بكار بن قتيبة ، وكان من أكبر فقهاء العصر وصاحبا لابن طولون ، فلم يرع ابن طولون حرمته وحبسه ، وكان ذلك من أخطاء ابن طولون التى أخذت عليه ، وندم عليه هو نفسه بعد فوات الوقت ، وأراد استصلاح القاضى وهو على شفا القبر ، فرفض القاضى وقال قالته المشهورة : « شيخ فان وعليل مدنف والملتقى قريب والقاضىالله عز وجل! » . وكان لهذه العبارة وقع شديد على ابن طولون ، حتى يقال انه غشى عليه عندما سمعها ، ثم أمر بنقله من السجن الى دار اكتريت له ، ولم يلبث الشيخ أن مات ، وهو آخر القضاة الذين ترجم لهم الكندى فى كتابه عن قضاة مصر .

وكان الخليفة المعتمد ضجرا من أخيه الموفق وما يبسطه عليه من سلطان ، وكان بطبعه رجلا عاجزا قليل الملكات ، ولو ترك وحده لقضى عليه صاحب الزنج أو القواد الأتراك ، ولكنه كان دائم الانكار لاستبداد أخيه الموفق من دونه بالأمر . وكان ابن طولون يعرف هذا ، وكان له فى دار الخلافة عيون وأرصاد ينبئونه بكل شىء ، فأوعز الى المعتمد أن يغادر بلاد أخيه ويلجأ الى مصر . ومع غرابة الفكرة — لأن حال المعتمد مع ابن طولون لم تكن لتكون أحسن من حاله مع الموفق — فقد راقت له الفكرة ، لأن ضجره بأخيه بلغ به الى حد جعله مستعدا لقبول أى مخرج . فانتهز فرصة غياب أخيه وقواده وخرج فى نفر من أصحابه متجها نحو الموصل، ليمضى من هناك الى حلب وهى من أعمال ابن طولون ، ويبدو أن الخبر نمى الى اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل ، فقبض على المعتمد وأصحابه ، ووبخ الخليفة على ما فعل ، ثم رده الى سرمن رأى . ويهمنا من تفاصيل هذا الخبر قول اسحق بن كنداجيق لأصحاب المعتمد : « انكم قاربتم عمل ابن طولون ، والأمر أمره وتصيرون من جنده وتحت يده ، أفترضون بذلك وقد علمتم أنه كواحد منكم ؟ » مما يدل على أن حدود ملك أحمد ابن طولون كانت واضحة يتحاشى قواد الخلافة التطرق اليها ، وعلى أن سلطانه كان بالفعل جاريا فى ملكه الواسع حتى هذه الناحية القاصية ، ويدل أيضا على أن رجال الموفق كانوا ينظرون الى ابن طولون على أنه ند لهم ، لا يزيد عنهم فى شىء .

وأصبح العداء بعد ذلك بين أحمد بن طولون والموفق سافرا ، فطلب الموفق الى أخيه المعتمد أن يصدر أمرا بلعن ابن طولون على المنابر ، ونفذ هذا الأمر على رغم المعتمد، وقطع ابن طولون الأموال التى كان يرسلها إلى دار الخلافة ، بل حاول سنة ٢٦٧/٨٨٠ أن يستولى على مكة ، فبعث جندا واستعان بنفر من الحناطين والجزارين فرق فيهم مالا ، ووفق ابن طولون أول الأمر ، وهرب هارون ابن محمد عامل الخلافة على مكة ، خوفا على نفسه ، ثم أتته أمداد مكنت له من القضاء على محاولة ابن طولون . وقد رد الموفق على ذلك بتولية اسحاق بن كنداجيق عامل الموصل أعمال ابن طولون ، ولم يجسر عامل الموصل هذا على عبور حدود ابن طولون ، ورد ابن طولون باسقاط اسم الموفق من الخطبة والطراز ، ولكنه ظل يخطب للمعتمد .

وقد ظل هذا العداء بين الرجلين حتى سنة ٢٧٠/٨٨٤ عندما تبين لهما أن الخلاف بينهما لا يؤدى الى خير ، فبدأت مفاوضات الصلح بينهما فلما قاربت على التمام أدرك الموت ابن طولون بعد عودته من طرسوس فى ذى القعدة ٢٧٠/ مايو ٨٨٤ عقب اسهال شديد . وكان ابن طولون عمره كله نهما الى الأكل مسرفا فيه ، حتى فى علته الأخيرة كان يأكل سرا حتى لا يعلم بذلك أطباؤه ، فلما زاد الأمر عليه اعترف لهم فأسقط فى أيديهم .

وكان آخر جهود ابن طولون محاولته لاستعادة ثغر طرسوس ، وكان هذا الثغر من أحب بلاد مملكته اليه ، لا يفتأ يلم به المرة بعد المرة معاودة لذكريات الشباب ، فأرادت المقادير الا أن تفجعه فيه فى آخر أيامه ، فقد وثب به أحد خدمته من الجند وقبض على عامل ابن طولون ، فأسرع ابن طولون الى هذا الثغر القصى الذى يقع جنوبى آسية الصغرى ، ونزل أذنة ، وكتب الى خادمه يستميله دون جدوى ، بل لجأ الخادم الى كسر جسور نهر كان يمر بالبلد فاندفع الماء فأغرق عسكر ابن طولون . ولازم ابن طولون هذا الثغر وألح فى طلبه ، وأقبل الشتاء واشتد البرد وتساقط الثلج وعظمت نفقة ابن طولون وتضحياته فى سبيل هذا الثغر العزيز عليه ، وضج العسكر ، فاضطر الى الرحيل عنه محنقا ، وكتب الى ذلك الواثب بالبلد يقول : « لم أرحل الا خوفا أن تخترق حرمة هذا الثغر فيطمع فيه العدو » . وعاد الى أنطاكية ، وهناك مرض ومات .

وقد اختلفت الآراء فى ابن طولون ، فبعض الرواة يصورونه رجلا قاسيا غليظا لا يتورع عن شىء فى سبيل درك مآربه ، وبعضهم يصورونه رجلا تقيا كريما لا يكاد يقدم على شىء فيه مساس بالحرمة أو الخلق الكريم ، بل يغالى بعضهم فيجعله أشبه بالأولياء ، لا يفعل شيئا الا رأى الله عز وجل أو الرسول صلى الله عليه وسلم فى نومه يهديانه الى الطريق السليم . والخلاصة فى

هذا الموضوع أن شأن ابن طولون كشأن غيره من الطامحين ورجال الدولة ومؤسسى الممالك فى تاريخ الاسلام : يستحلون كل شيء فى سبيل الوصول الى السلطان والمحافظة عليه ، ولا تعرف قلوبهم الرحمة اذا اتصل الأمر بسلطانهم ، فلا يحجمون عن شيء يتصورون أنه يثبت ملكهم . أما فيما عدا أمور سلطانهم فهم كرماء ذوو حلم وسعة صدر وعفو وحدب على الفقراء والمساكين ، ومهما بلغ خطأ الانسان فالعفو مرجو عندهم ما دام الأمر بعيدا عن تهديد السلطان أو المناقشة فى الحكم وما الى ذلك .

وهم يبررون مسلكهم بأن كل شيء جائز فى سبيل القضاء على الفتنة ، ويكفرون عن قسوتهم ببناء المساجد والمدارس وأعمال الخير والاحسان : هكذا كان شأن معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وأبى عبد الله السفاح والمنصور والرشيد وابن طولون والاخشيد والمنصور بن أبى عامر وسلاطين المماليك ومن اليهم . ومن ثم فقد اختلف الحكم عليهم ، فمن نظر الى حسناتهم ومآثرهم ومنشآتهم ومبانيهم وبرهم بأهل العلم والفضل والمساكين لم ير غير الناحية المشرقة من خلقهم ، ومن نظر الى كفاحهم السياسى رأى الناحية القاتمة . ولا بد من اعتبار الوجهين معا فى الميزان ، وما دمنا قد عرفنا مفتاح سلوكهم فلا معنى لتشديد الحكم عليهم ، فقد عاشوا فى أزمان كانت الوسيلة الوحيدة فيها للسلامة من أذى خصم هى قتله ، وكانت قاعدتهم الذهبية التى لم يعلنوها هى قول روبسبيير : أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك .

ومن هنا كان رجال أحمد بن طولون على خوف دائم منه ، خشية أن تصل اليه وشاية فى حقهم ، فيكون سيفه أسرع الى رقابهم من دفاعهم عن أنفسهم الى أذنيه . وقد عبر عن ذلك طبيبه سعيد بن توفيل النصرانى ، فقد عجز عن علاجه عندما اشتد عليه الاسهال الذى قضى عليه ، فقيل له : لست بحاذق ! فقال : والله ما خدمتى له الا خدمة الفأر للسنور ، وان قتلى لأهون علىّ من صحبته ! وقد بلغ به الضعف أثناء مرضه الأخير الى درجة أن تعذر عليه الانتقال الى مصر برا ، فحمل فى البحر ، فلم يكد يصل حتى هدد أطباءه بالقتل اذا لم يعالجوه ، فعاجله الموت قبل أن ينفذ وعيده .

ولا شك أن توفيق ابن طولون يرجع أولا وقبل كل شيء الى سياسته الادارية والمالية ، فقد أدرك الرجل من أول الأمر أن مصر بلد غنى كثير الخير ، وأنه اذا أحسنت ادارته أعطى من المال أكثر مما يعطيه غيره من النواحى ، واذا أحسن تدبير الحاصل أمكن الوصول به الى الكثير . ولهذا فقد وجه همه من أول الأمر الى تنظيمها وترتيب شؤونها ، وكان ابن المدبر ومن سبقه من ولاة العباسيين قد حولوا الادارة الى مجرد أداة

لجمع المال ، ففرضوا من الضرائب والمغارم والمكوس ما أثقل كاهل الأهلين ، وأهملوا الى جانب ذلك العناية بمرافق البلاد وعيون الثروة ، فهبطت الأحوال الاقتصادية هبوطا شديدا ووقفت الجباية عند ٨٠٠,٠٠٠ دينار ، رغم الجبايات الاستثنائية والمغارم .

فلما جاء أحمد بن طولون عول على اصلاح الحال ، ولم تكن له وسيلة الى ذلك الا بضبط الادارة واحكام الرقابة على الموظفين ، وخفض المبالغ التى كانت ترسل هدايا ورشى الى مراكز الخلافة . وقد تنبه أحمد بن طولون الى ما لم يتنبه اليه أحد ممن تولى البلاد قبله من الأمراء ، وهو أن أهل مصر أقدر على تدبير شؤونهم المالية من الأجانب ، فاستكثر من الموظفين المصريين حتى أصبحت الادارة المالية كلها فى أيديهم . وقد أنكر الترك وغيرهم ذلك ورووا عن مساوىء هؤلاء الموظفين كثيرا من الأخبار البعيدة عن التصديق ، كهذا الخبر الذى يرويه أبو المحاسن عن ابن دشومه (برسومة ؟) متولى المال ونصحه لأحمد بن طولون بالاستمرار فى الجبايات الظالمة (تسمى المظالم) وكيف أن ابن طولون رفض ذلك ، ثم عوضه الله عما تنازل عنه بكنز عظيم عثر عليه . والمقريزى يتحدث عما يسميه «مكر الأقباط» ، ولكن ذلك كله ان هو الا رد فعل لما عمله ابن طولون من وضع الأمور المالية فى أيدى المصريين وما أدي اليه ذلك من الخير ، فقد ارتفع الايراد من ٨٠٠,٠٠٠ الى ٤,٣٠٠,٠٠٠ ووجد ابن طولون نفسه فى سعة .

أما الكنز الذى عثر عليه ابن طولون وبنى من ذهبه جامعه فلم يكن أمرا غريبا ، فقد كان الناس على طول تاريخ الدول الاسلامية يحلمون بالعثور على شيء من كنوز الفراعنة كما يحلم الناس اليوم بالعثور على البترول ، وكانت هذه الكنوز تسمى الدفائن ، وقد بلغ من اهتمام الناس بها أن ابن خلدون عقد لها فى مقدمته فصلا . وقد استفاد ابن طولون من حكمة أحمد بن محمد الواسطى الموكل بشؤون المال ، فقد كان رجلا قديرا صالحا حاول بعض المؤرخين أن يجعله من واسط ، ولكننا نرجح أنه مصرى من الواسطى . واستعان ابن طولون أيضا بأبى بكر المادرائى ، وكان ماليا قديرا ، وأصله من مادرايا ، ولكن المقريزى يحكى عنه حكايات تدل على سوء استعماله للسلطان واعطائه القبالات لنفر من أصحابه فى مقابل حصص معينة له (وكذلك كان بقية المادرائيين ، وسنتحدث عنهم فيما بعد) .

ونلاحظ فى تصرفات ابن طولون المالية شيئا من الشبه بتصرفات محمد على ، فقد احتكر بعض المصنوعات كالتيل ، وتاجر فى المحاصيل (ولو أن المؤرخين يقولون انه عدل عن ذلك لأنه وجده محطا بشأنه ، ولكن الثابت أنه عاد الى المتاجرة فى المحاصيل فى أواخر أيامه) . وكانت نتيجة هذه الادارة

المالية الحازمة أن كثر المال فى يدى ابن طولون ، فأقبل على شراء الجند واستكثر منهم حتى يقال ان جيشه بلغ ١٠٠٫٠٠٠ جندى ، والراجح أن معظم الجيش كان من السودان ، فقد ذكر المؤرخون أن ٤٠٫٠٠٠ من جنده كانوا من السود و ٢٤٫٠٠٠ من الأتراك ، أما الباقى فمن أصناف شتى من المرتزقين ، فيهم نفر من الروم والنصارى .

ومن هذا المال الكثير بنى أحمد بن طولون مبانيه الكثيرة ، وأهمها جامعه الباقى الى اليوم ، وهو من معالم تاريخ العمارة الاسلامية ، فقد بنى على صورة جامع سامرا وخاصة مئذنته ذات السلم الخارجى الحلزونى . وقد شرح ابن طولون لمهندسيه كيفية بنائها فى خبر لطيف ساقه أبو المحاسن، وقد عَمُر ما حول الجامع عمارا عظيما حتى أجرت مسطبة مما يؤجره التجار لعرض بضائعهم باثنى عشر درهما فى اليوم ، مع أن مساحتها لم تزد على ذراع فى ذراع . وأنشأ ابن طولون أيضا البيمارستان ، وأنفق فى بنائه ٦٠٫٠٠٠ دينار غير نفقته اليومية ، وهذا البيمارستان يعتبر أول مستشفى عام فى تاريخ مصر الاسلامية ، وكان مقسما أقساما بحسب الأمراض ، وفيه الأطباء والكحالون والممرضون ، وكانت الأدوية والأغذية تصرف للمرضى . وأنشأ قصره الكبير على طراز قصور خلفاء بغداد ، وجعل أمامه ميدانا فسيحا لعرض العسكر ، مهده وأقام فيه المظلات ، وكلفه ذلك ٥٠٫٠٠٠ دينار .

وكانت نفقاته فى أبواب الخير كثيرة ، فكان يوزع الأطعمة والصدقات على الناس وفق نظام معين وضعه . ووقع ذات مرة حريق فى دمشق ، فأنفق فى تعويض خسائر الناس ٧٠٫٠٠٠ دينار . ومع ذلك فيقول بعض الرواة أن الله تعالى لم يغفر له كل ذنوبه ، فقد روى محمد بن على المادرائى أن قارىء القرآن على ضريح ابن طولون انقطع عن القراءة مدة ، فلما سأله عن السبب قال : « رأيته فى النوم وهو يقول : أحب ألا تقرأ عندى ، فما تمرُّ آية الا قُرِّعت بها وقيل : أما سمعت هذه ؟ » .

وقد سكن أحمد بن طولون أول ولايته « العسكر » على عادة أمراء مصر من قبله ، فلما كثر جنده بنى لهم ضاحية للفسطاط سميت « القطائع » ، وكان موضعها من قبة الهواء (موضع قلعة القاهرة الحالية) الى جامع ابن طولون ، وعرضها من الرميلة الى حى زين العابدين . ولم تكن مدينة ، وانما هى ضاحية . قال أبو المحاسن : « وكانت مساحة القطائع ميلا فى ميل . وقبة الهواء كانت فى السطح الذى عليه قلعة الجبل : وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون ، وموضع هذا القصر الميدان السلطانى الآن الذى تحت قلعة الجبل بالرميلة . وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال سابقا، ويجاورها الميدان الذى يعرف اليوم بالقبيبات، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذى أنشأه أحمد بن طولون المعروف به ، وبجوار

الجامع دار الامارة فى جهته القبلية ، ولها باب من جدار الجامع يُخرَج منه الى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير الى جوار المحراب ، وهناك دار الحرم . والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه » . وقد قسمت القطائع الى أقسام تشبه خطط الفسطاط ، قال القضاعى : « وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم ، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ، وبنى القواد مواضع متفرقة . وعمرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع » .

وقد خلف ابن طولون فى خزائنه من الذهب النقد ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ومن المماليك ٧٫٠٠٠ مملوك ، ومن الغلمان ٢٤٫٠٠٠ غلام ، ومن الخيل الميدانية ٧٫٠٠٠ رأس ، ومن البغال والحمير ٦٫٠٠٠ رأس ، وذكروا أنه كان يدخر فى كل عام ١٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ففاق فى ذلك الخليفة المعتضد ، فقد أراد هذا الأخير أن يستفضل كل عام بعد نفقاته مليون دينار ، حتى اذا اكتملت عشرة ملايين صاغها قطعة واحدة وجعلها أمام باب قصره حتى يعلم أمراء النواحى أنه أغنى منهم ، فمات دون هذه الغاية . وترك ابن طولون من بعده ٣٣ ولدا منهم ١٧ ذكرا أهمهم العباس ، وهو أكبر أبنائه وهو الذى ثار به فقبض عليه وحبسه ، وخمارويه الذى خلفه على الولاية ، وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر.

وقد ذهب نفر من المؤرخين المحدثين الى أن استبداد أحمد بن طولون بمصر يعد حركة قومية مصرية ، وأنه بذلك بدأ عصر الاستقلال لمصر فى ظلال الاسلام . وذلك اسراف فى تأويل التاريخ مع الحقيقة ، فان ابن طولون أولا لم يستقل عن الخلافة بل ظل تابعا لها ، وهو لم يقطع الخطبة لبنى العباس أبدا ، واستمر يرسل المال الى بغداد معظم أيامه ، فلم يقطعه الا عندما وقع الخلاف الصريح بينه وبين الموفق . ومن ناحية أخرى كان المصريون بعيدين عنه وعن حركته ، نعم انه اعتمد عليهم فى ادارته ، أكثر ، ولكنه لم يتمصر ولا شعر أنه يعمل لحساب مصر أو يعتز بقومية مصرية . وكل ما هنالك أنه كان رجلا ذكيا قادرا أحسن الاستفادة من الظروف واستخدم امارة مصر فى ادراك ما تصبو اليه نفسه من الانفراد بالسلطان فى ناحية ما . وكان من الممكن أن تتمصر دعوته لو خلفه أبناء قادرون على مواصلة سياسته ، فان مصر غلاّبة على من يقيم فيها ، وقد بدأ الرجل أول خطوة من خطوات التمصر فتخلى شيئا فشيئا عن تركيته وتعرب ، وقد رأينا أنه كان عربى الثقافة والذوق . وقد عرف مؤرخو مصر الاسلامية قدره ، فأحاطوه بالتقدير والاجلال ، ونسجوا حول سيرته الأساطير .

خمارويه وأبو العساكر جيش وهارون بن خمارويه

وخلفه ابنه خمارويه ، وهو ثاني أولاده ، وقد كان ابن طولون أوصى له بالامارة وبايعه الجند عقب وفاة أبيه فى ذى الحجة ٢٧٠ / مايو ٨٨٤ ، وقد احتج العباس على ذلك وهو فى المحبس فعجلوا بقتله . وكانت مفاوضات الصلح بين ابن طولون والموفق دائرة عندما مات الأول ، وكان الجانبان قد اتفقا على أن تظل مصر والشام له ، فلم يكد قواد الموفق يسمعون الخبر حتى حفزوه على التوقف ، وكان أحدهم قد ولى على الشام قبل ذلك — وهو ابن كنداجيق كما ذكرنا — فانضم اليه أبو الساج عامل شمالى العراق وقررا السير الى الشام ومصر وانتزاعهما من أيدى خلفاء ابن طولون ، وانضم اليهما عامل دمشق لابن طولون ونزل لابن كنداجيق عن أنطاكية وحلب وحمص . وبعث خمارويه بجنده لملاقاة خصومه ، فعسكروا عند شيزر ، وحل الشتاء فتوادع الجانبان .

وفى أثناء الشتاء انتهز ابن كنداجيق وأحمد بن الموفق الفرصة وقررا مهاجمة معسكر المصريين على غرة . وقد فوجىء المصريون بذلك الهجوم ، فتقهقروا حتى الرملة . ثم وقع الخلاف بين أحمد بن الموفق وقواده ، فتركوه فى نحو ٤٠٠٠ من جنده . وفى هذه الأثناء وصل خمارويه من مصر ومعه ٧٠٫٠٠٠ من جند مصر الطولونيين ، وقرر الهجوم على معسكر العدو . وفى شوال ٢٧١/ أبريل ٨٨٥ وقع اللقاء بين الجانبين عند نهر أبى فطرس المعروف بالطواحين شمالى يافا . ولم يكن خمارويه قد حضر قبل ذلك قتالا ففزع عند اللقاء وهرب معجلا الى مصر ومعه معظم جيشه ، وانقض جند أحمد بن الموفق على معسكر المصريين ينهبون ويأسرون . وفى هذه اللحظة تقدمت فرقة من الجند المصرى يقودها قائد يسمى سعد الأيسر فهجمت على جند أحمد بن الموفق ، فحسب هذا أن خمارويه عاد من مصر بالجند ، ففر هاربا واختل نظام جيشه ، فشد عليهم المصريون وهزموهم هزيمة كبرى بقيادة سعد هذا ، ثم أسرع المصريون فاحتلوا دمشق .

وقد استخف سعد الأيسر بخمارويه وبدأ يفكر فى الانفراد بالشام ، ولكن خمارويه تغلب عليه وقتله . واستمر الخلاف بين خمارويه والموفق طلحة زمنا ، ثم عقد الجانبان صلحا تُركت فيه مصر والشام لخمارويه لقاء مبلغ سنوى معين . واستقرت الأحوال بين الجانبين حتى مات الخليفة المعتمد وخلفه أحمد بن الموفق باسم المعتضد فى رجب ٢٧٩/ أكتوبر ٨٧٢ ، فتأكد الصلح بين مصر والخلافة وعرض خمارويه أن يزوج ابنته قطر الندى لابن الخليفة المعتضد ، ولكن هذا الأخير فضل أن يتزوجها هو ،وأصدقها مليون درهم، ودخل بها عام ٢٨١/٨٧٥ . وقد بالغ خمارويه فى تجهيز ابنته حتى قيل « ان المعتضد أراد

بزواجها أن يفقر أباها فى جهازها .. » . وزالت الوحشة بين الخليفة وخمارويه بعد هـذا الزواج « وولاه المعتضد من الفرات الى برقة ثلاثين سنة ، وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء بمصر وجميع الأعمال ، على أن يحمل خمارويه الى المعتضد فى العام ٢٠٠٫٠٠٠ دينار عما مضى و ٣٠٠٫٠٠٠ دينار عن المستقبل » ، واستقرت الأحوال لخمارويه بعد ذلك .

ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الفرصة التى أتيحت له ، فمضى يتلف المال على نحو جعله مثلة فى أفواه معاصريه ، وبلغت نفقته على جنده قرابة المليون دينار ، وبالغ فى منشآته حتى جاوز الحد المعقول ، فأنشأ حديقة لم يسمع بمثلها ، اذجعلها حديقة نباتات وطيور وحيوان فى آن واحد ، ويقال انه أنشأ لنفسه بركة من الزئبق يوضع له على سطحها فراش لينام وهو يتهدهد ، اذ كان النوم كثيرا ما يمتنع عليه . وقد أنفق خمارويه فى هذه التفاهات ما كان أبوه قد ادخره وما كان يأتيه من خراج ، واستكثر من الجوارى والغلمان حتى ضاع أمره ، وكثرت نفقته على طعامه حتى كان الباقى فى مطبخه من أصناف المأكول يزيد عن حاجة الخدم فيبيعونه ، « واشتهر بيع الخدم لذلك ، فكان الناس يأتونهم لذلك من البعد ، ويشترون منهم ما يتفكهون به من الأنواع الغريبة من المآكل . وكان هذا دواما فى كل وقت ، بحيث أن الرجل اذا طرقه ضيف خرج من فوره الى دار الحرم ، فيجد ما يشتريه ليتجمل به لضيفه مما لا يقدر على عمل مثله » . كانت نفقة المطبخ فى الشهر ٢٣٫٠٠٠ دينار . وقد مات قتيلا على أيدى خدمه وجواريه فى دمشق فى ٢٧ ذى الحجة ٢٨٢ / يناير ٨٩٦ .

وخلفه ابنه أبو العساكر جيش ، وكان شابا صغيرا لا يحسن من الأمر شيئا ، التف حوله طائفة من أمثاله الغلمان والملهين فأفسدوا أمره وزينوا له قتل عمه أبى العشائر بن طولون فقتله ، فنفر الجند منه وعولوا على خلعه . وكان الجيش الذى كونه جده قد أصبح القوة الفعلية فى البلاد ، ولم يكن من الممكن أن يملأ مثل هذا الحدث أعين قواده ، فتخلى عنه رجال مثل خاقان المفلحى ومحمد ابن اسحاق بن كنداجيق ووصيف بن سوارتكين وبندقة بن لمجور (أو المعروف بلمجور) وأخيه محمد بن لمجور وابن قراطغان ، وانما أتيت بهذه الأسماء ليتبين القارىء كيف كان قواد الجيش — وبالتالى جنودهم — من غير المصريين . وانه لمن الغريب أن نلاحظ كيف حرص أولئك الحكام على الاعتماد على جند أجنبى ، وأمامهم أهل البلاد يمكن التجنيد منهم ، لا فى مصر وحدها بل فى بقية بلاد الدولة الاسلامية . مع أن البيزنطيين اعتمدوا كثيرا على جند المصريين ، وانتفعوا بذلك . ولكن هذه هى القاعدة التى جرى عليها حكام المسلمين جميعا فى العصور الوسطى : اعتبار أهل البلاد رعية مستأمنة

تحكم بواسطة جند أجنبي مرتزق ، وكان هذا من آكد أسباب زوال هذه الدول جميعا. وكان كبير الدولة والمقدم في هؤلاء الجند أبو جعفر بن أبَّى (يكتب خطأ أبالي) فكلمه القواد في أمره ، ولاموه اذ قصر في تأديبه وتسديده ، وانتهى الأمر بقتله ونهب داره « فوقع في أيدي الجند من نهبها ما يملأ قلوبهم وعيونهم ، حتى ان بعضهم من كثرة ما حصل له ترك الجندية وسكن الريف ، وصار من مزارعيه وتجاره » .

ثم خلفه أخوه هارون بن خمارويه ولم يكن بأحسن حالا منه ، فلم يكن يرجى للدولة صلاح على يديه ، فهذه الدول لا تقوم على أساس من سياسة أو هدف أو سند من أهل البلاد ، وانما ينشئها طموح رجل فرد وملكاته ، فاذا انقضى أمره زالت الدولة . تولى هارون في ١٠ جمادى الآخرة ٢٨٣/ سبتمبر ٨٩٦ وكان جند الدولة قد فسد أمره وتفرقت وحدته ، اذ كان هذا الجيش يقوم على فرق من الترك وأخرى من السود وجماعات شتى هم أخلاط من المرتزقين أهمهم الروم ، وكان أمر هؤلاء الأخيرين قد علا بفضل ثلاثة من قوادهم هم بدر وفائق وصافى، وكانوا من خيرة القواد عقلا وقدرة ، فحقد عليهم الباقون ، وخاصة السود . وكان ربيعة ابن أحمد بن طولون ، وهو عم هارون ، قد أنكر ولاية هذا الغلام وحدثته نفسه بطلب الأمر لنفسه . ويبدو أن عماد هارون كان على السود ، ففضب قواد الروم ، واجتهد كل منهم في أن يحوز لنفسه طائفة من الجيش يستولى على عطائهم ويوزعه عليهم كأنهم غلمانه . وقد تمكن هارون بفضل جنده السود من القضاء على ربيعة وقتله ، فزاد احتراس بدر وموفق وصافى منه .

وتولى أمرَ هارون أبو جعفر بن أبَّى ومضى يحاول اصلاح أمر أصبح من العسير اصلاحه . وفي هذه المناسبة أظهر قواد الروم سماحة وبرا يستوقفان النظر ، فذهبوا للحج واحدا بعد واحد وأنشأوا بعض منشآت البر . فبنى بدر ميضأة لجامع ابن طولون وسبيلا لشرب الناس وأكثر من تفريق المال والطعام على المساكين ، وفعل فائق وصافى مثل ذلك ، وأظهروا من الاخلاص للبيت الطولوني ما لم يظهره غيرهم ، رغم سياسة هارون في الاعتزاز بغيرهم . وقد اشتد أبو جعفر بن أبى مع الروم وفرق قوادهم في البلاد . وفي ذلك الحين بدأت حركة القرامطة تجتاح الشام ، فتصدى لها جند الطولونيين وتمكنوا من الثبات في وجهها ، فاستنفد ذلك جانبا كبيرا مما كان قد بقي لهم من قوة .

وكان أمر هارون قد ساء ونفر منه جند الروم جملة ، وتسامع رجال الخلافة بذلك فما أسرع ما طمعوا في استعادة سلطانهم على مصر ، وندب الخليفة المكتفي ووزيره القاسم ابن عبيد الله الكاتبَ القائدَ محمد بن سليمان الحنيفي للقيام بالمهمة . وكان محمد بن

سليمان هذا من خدم ابن طولون ، اذ استخدمه لؤلؤ الطولونى كاتبا له ، فلما انحرف لؤلؤ عن بنى طولون وانضم الى رجال الخلافة انحرف معه محمد بن سليمان ، وما زال أمره يرقى حتى أصبح فى جملة القواد ، ثم ندبه المكتفى للقضاء على آخر الطولونيين .

وبينما كان جند العباسيين يستولى على أملاك الطولونيين فى الشام ، وثب شيبان بن أحمد بن طولون على ابن أخيه هارون وذبحه بيده فى ١١ صفر ٢٩٢/ نوفمبر ٩٠٤ وتولى الأمر مكانه . وكان شيبان « أهوج جسيما جلدا شديد البدن فى عنفوان شبابه ، فصار يسرع فى أموره ، وذلك بعد أن تم أمره » . وكان جند الطولونية قد أيسوا من الأمر ، فانضموا جماعة بعد جماعة الى جند الخليفة المكتفى . ووصل محمد بن سليمان الى العباسة (بمديرية الشرقية) وقد تخلى الناس عن الطولونيين، وأسرع دميانة قائد الأسطول المصرى فأحرق جسر مصر الشرقى وبعض الغربى حتى تعزل الفسطاط عن الصعيد . وأقبل محمد بن سليمان بمن معه ووقف دون الفسطاط ، ونهض شيبان بمن بقى معه من الجند السود وحاول الدفاع . ثم كتب اليه محمد بن سليمان يؤمنه وأهله جميعا ، فاستأمن وسار اليه بأهله تاركا جنده واقفين فى المصاف وهم لا يعلمون تخليه عنهم . فلما علموا بالأمر تفرق أمرهم وانهال عليهم الناس حتى صاروا يذبحون جماعة جماعة بين يدى القائد العباسى ، ثم أحرقت القطائع ونهبت الفسطاط نهبا ذريعا وأصاب الناس أذى شديد ، وانتهت دولة بنى طولون ، ولم يحكم شيبان غير تسعة أيام . وقد اجتهد محمد بن سليمان فى ازالة آثار الطولونيين جملة حتى لم يبق منها شىء ، واستصفى أموالهم ونهبها وحمل الى بغداد جزءا وسرق الباقى ، وقد حاسبه الخليفة على ذلك أعسر الحساب . ولم يطل مقام محمد بن سليمان بمصر ، اذ استبدله الخليفة المكتفى بعيسى النوشرى ، وعادت مصر ولاية عباسية كما كانت ..

نظرة عامة على دولة بنى طولون

حكم بنو طولون مصر ثمانية وثلاثين عاما ، وان من يسمع صيتهم فى تاريخ مصر يحسب أنهم حكموا أضعاف هذه المدة ، وهم كما رأيناهم لم يدخلوا على مصر جديدا ولم يتقدموا بأمرها خطوة ، انما كانوا كسحابة صيف ، أما صيتهم البعيد هذا فيرجع الفضل فيه الى المصريين ومؤرخيهم . ولكن يبدو أن ما يقوله أبو المحاسن من أن الدولة الطولونية كانت من « غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام » لم يكن مبالغة ، فقد أمنت البلاد فى أيامهم ورخيت أحوالها ، وخاصة فى أيام أحمد ابن طولون وخمارويه . أما ما أتينا بطرف منه من النزاع بين الجند فكان أمره مقصورا على المحاربين : يتصارعون ويتقاتلون فى واد

والناس فى واد آخر ، الا اذا دار القتال فى العاصمة مثلا فيصيب الناس أذى .

وقد تنفس الناس الصعداء مع آل طولون وانكف عنهم نهب ولاة العباسيين ، وبدأ ينمو فى البلد وعى بالشخصية المصرية ، ولكنه كان وعيا ضعيفا خافتا يحتاج الى سنوات طوال ليتجلى ويأخذ صورة واضحة . ولو تنبه آل طولون لذلك لكان لدولتهم شأن آخر ، ولكنهم مضوا فى أعقاب غيرهم من الاعتماد على العسكر الأجنبى ، فحيل بينهم وبين اقتطاف ثمر ما غرسوه ، وظلوا أجانب مزعزعين تعصف بهم رياح السياسة والعسكرية ، وتلاشى أمرهم مع أمس الدابر. ومع ذلك فقد أسف المصريون عليهم وقالوا فى رثائهم شعرا كثيرا ، بل تزاحم الشعراء على أحمد بن طولون حتى قال القاضى أبو عمرو عثمان النابلسى فى كتاب « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن فى الجزيرة » : « رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، فاذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة ، فكم يكون شعرهم ؟ » .

ولقد كان أحمد بن طولون أجنبيا عن مصر ، ولكنه يعد بدون شك من رجال التاريخ المصرى . فقد كانت تلك أيام لا تعرف غير القومية الاسلامية ، فأحمد بن طولون مصرى فى مصر وشامى فى الشام وعراقى فى العراق ، وهو أيا كان موضعه وأصله منسوب الى البلد الذى كرس معظم جهوده للنهوض بأمره ، ودولته دولة مصرية اسلامية ، وفى الاطار العام للتاريخ الاسلامى يعد ابن طولون من أفذاذ ذلك التاريخ ومن أبطال التاريخ المصرى تبعا لذلك . واذا قارناه بغيره ممن استبدوا بنواحى الدولة الاسلامية فى ذلك العصر رأيناه يمتاز عنهم بفكرة واضحة عن الدولة وما ينبغى لها . وقد كان منشئا بانيا ومنظما ماليا ممتازا . وكان ذلك من حسن حظ مصر ، بل ربما كان ذلك أثر مصر فيه . واذا كان عمرو بن العاص صاحب الخطوة الأولى فى بناء مصر الاسلامية ، فان ابن طولون صاحب الخطوة الثانية .

وهو صاحب أول تجربة لانشاء كيان مصرى خاص داخل الكيان الاسلامى العام ، وفضله من هذه الناحية عظيم ، فهو النموذج الذى جرى على مثاله محمد بن طغج الاخشيد ثم الفاطميون ثم الأيوبيون . فاذا كانت التجربة قد انتهت الى الفشل فان عبرتها ظلت باقية وأصبحت محور تاريخ مصر الاسلامية . ومن ذلك الحين سيجتهد كل من واتته الفرصة فى اعادة انشاء دولة فى مصر والاعتماد عليها ، مما جعل تاريخ مصر الاسلامية خطا متصلا مستقلا عن التيار العام لتاريخ الشرق الاسلامى . وقد هيأت البيئة المصرية ذهن أحمد بن طولون للاتجاه فى الوجهة التى يمليها تاريخ مصر العام : فقد استبد بها ثم ضم اليها برقة واتجه بعد ذلك

الى الشام ، وجعل من ذلك كله وحدة واحدة ، وسيفعل ذلك كل من يجيء بعده . والتجربة الطولونية من هذه الناحية عظيمة القيمة فى تاريخنا ، فقد دلت على أن مصر قاعدة القوة الاسلامية ، فاذا انضم اليها الشام أصبحت العمود الفقرى لدولة الاسلام ، وشيئا فشيئا سيصبح ذلك حقيقة واقعية ، وتحمل مصر عبء الاسلام والخلافة والثقافة العربية .

وفيما يتصل بمجرى التاريخ المصرى العام دلت هذه التجربة القصيرة المدى على أن مصر لا زالت تحتفظ بمناصر القوة فى كيانها ، فعلى الرغم من الكوارث التى توالت عليها منذ دخول الفرس أرضها سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، وقضائهم على مظاهر الحضارة الفرعونية ، وما تلا ذلك من محاولات للقضاء على الجذور البعيدة لشجرة الحياة المصرية : من عيث الفرس فى مصر وتخريبهم اياها ، وغلبة الاغريق وثقافتهم خلال العصر البطلمى ، ثم ما نزل بمصر من عسف الرومان ونهب البيزنطيين واضطهادهم ، ثم الفتح العربى وكل ما أتى به من مقومات حضارية وقيم معنوية روحية جديدة ، وما صاحب ذلك كله من الانتقال من الوثنية الفرعونية الى النصرانية فالاسلام ، ومن تغير اللغة من لهجات مصر القديمة الى غلبة اللغة القبطية وصراعها مع اليونانية ، وذهاب هذه وتلك وجريان ألسنة أهل مصر باللغة العربية ، على رغم ذلك كله ظلت الجذور سليمة والروح واحدة ، وما هو الا أن نعمت مصر بالهدوء بضع عشرات من السنين حتى عادت اليها عافيتها وبدأت شجرتها تورق ثم تثمر . وهذه حقيقة لم يتنبه لها ابن طولون ورجاله وخلفاؤه ، وكان فى ذلك ضياع أمرهم . ولكن شعب مصر شعر بها شعورا غير واع كما يحس المريض بالانتعاش يسرى فى كيانه دون أن يصدق أنه فى طريق العافية .

بقى سؤال قبل أن نترك هذه التجربة الطولونية : ما الذى جعل رجال الدولة العباسية يقسون هذه القسوة على بقايا الطولونيين ؟

لو أننا نظرنا الى الدولة العباسية فى مجموعها اذ ذاك للاحظنا أن بنى طولون ، رغم كل شىء ، كانوا أبر الناس بها وأنفعهم لها ، فهم لم يخرجوا على الطاعة ولم يمنعوا مالا ، حتى السنوات التى قطع فيها ابن طولون مال مصر عن الخلافة عوضها ابنه خمارويه فكان يدفع ٢٠٠٫٠٠٠ عن السنوات الماضية و ٣٠٠٫٠٠٠ عن كل عام جديد . وفى تلك السنوات المظلمة التى عبث فيها الزنج بمصائر دولة العباسيين وهبت عليها ريح القرامطة لم يكن للخلافة من عماد حقيقى الا ما يرد من مصر من دنانير الذهب . ثم ان الطولونيين صاهروا الخلفاء ووسعوا عليهم قدر ما استطاعوا وحملوا عن الدولة عبء الحرب مع البيزنطيين ، فما الذى جعل محمد ابن سليمان الكاتب وجنده يفعلون ببقايا بنى طولون ما فعلوا ؟ حملوهم الى بغداد

مصفدين فى الحديد كأنهم أسرى حرب ، ثم عاثوا فى بلاد مصر وأحرقوا ونهبوا كأنهم يقتحمون بلدا معاديا ؟

الحق ان ذلك يدل على انحطاط المستوى الخلقى العام لرجال الدولة العباسية ، فقد كانوا شراذم من الشذاذ والعفاة شقيت بهم بغداد ودمشق كما شقيت بهم الفسطاط ، وقاسى الخلفاء منهم قدر ما قاسى بنو طولون. كانت بلاد الخلافة العباسية كلها فريسة أولئك الطغاة ، واذا تأمل الانسان أفعالهم أدرك أن حمدان قرمط لم يكن أسوأ من هؤلاء الرجال بحال ، وأنه لم يكن بدعا بين أهل زمانه حين أعلن الحرب على هذه الدولة ورجالها واستحل دماءهم ، وفعل ما فعل مما تقشعر منه الأبدان، فلم يكن رجال الدولة خيرا منه ، وكانت فوضاهم قد قضت على كل مفهوم للدولة أو الحق أو النظام .

من الطولونيين الى الاخشيديين

عادت مصر مرة أخرى الى بحر الدولة العباسية الحافل بالعواصف . ولم يكن من المأمول أن تستقر حالها أو تهدأ أمورها والدولة ورجالها على ما وصفنا . فما هو أن استقر محمد بن سليمان الكاتب بمصر شهورا حتى عزله الخليفة المكتفى بعيسى بن محمد النوشرى ، وكان من جملة قواد محمد بن سليمان ، فبدأت امارته عليها فى جمادى الآخرة ٢٩٢ / مايو ٩٠٥ وبدأ يرتب أموره فجعل الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور على الخراج وولى أصحابه النواحى ، وهى بحسب ما يذكره أبو المحاسن : الاسكندرية وتفرتنيس ودمياط والأحواف وبرقة ، والصعيد وأسوان . وربما كانت هذه هى أهم النواحى ، ويهمنا أن نلاحظ أن برقة كانت معدودة جزءا من مصر فى ذلك الحين . ثم جمع النوشرى بقايا رجال الدولة الطولونية وأخرجهم من البلاد موكلا بهم ، أما بقية جند الطولونية فقد ساروا مع محمد بن سليمان حتى بلغوا دمشق ثم تفرق أمرهم ، فمنهم من ذهب الى العراق ومنهم من عاد الى مصر .

وكان من بين هؤلاء العائدين شاب من الجند يسمى محمد بن على الخَلَنْجى (يلقب أيضا بالحلنجى والخليج) كان قبل ذلك فى قيادة صافى الرومى ، فلما وصل الى مصر ورأى ما حل ببنى طولون وما فعله جند العباسيين بمصر أنفت نفسه وقرر القيام على الدولة . واجتمع اليه نفر من الجند وبايعوه، فأسرع بمن معه نحو الرملة فى شعبان ٢٩٢ / يونيو ٩٠٥ وقضى على الحامية العباسية بها وملك البلد وخطب فيه للخليفة ولابراهيم بن خمارويه بن طولون ولنفسه . ثم كر الى مصر ، وحاول عيسى النوشرى أن يتصدى له فانهزم أمامه ، ثم فر الى الجيزة وأحرق الجسرين المؤديين من الفسطاط الى الجيزة ، ودخل الخلنجى الفسطاط . ثم هرب النوشرى الى الاسكندرية فأرسل الخلنجى فرقة من جيشه تتبعه بقيادة جندى نوبى يسمى خفيفا ، فانهزم هذا الأخير .

وقد اضطرب أمر الخلنجي بعد تلك الهزيمة فأخذ يطالب الناس بالأموال ليؤدي لجنده أرزاقهم . وقد بلغ الذعر برجال الدولة أن الحسين بن أحمد المادرائي أخذ الدواوين — أي دفاتر الأموال — وفر بها حتى لا يوقف على معرفة أصول الأموال ، فلجأ الخلنجي الى اكراه الناس على أداء ما يطلب « وأجرى أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان البلد، فلقى الناس منه شدائد ، الا أنه كان اذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ، ويعده أن يرد له ما أخذ منه أيام الخراج » . ولم يستقم الأمر لهذا الرجل ، فقد اضطربت الأحوال وتكاثر عليه رجال الدولة وتوالت قواتها ، فقبض عليه وزالت دولته بعد أن حكم مصر سبعة أشهر وأياما .

وهذا الحادث يكشف عن ضعف بناء الدولة وقلة غناء القائمين بأمرها من الرجال ، فقد استطاع هذا الشاب المغامر أن يحول دون الدولة ورجالها ، وسيطر على مصر وهزم جيوشها ، وأفزع عامل العباسيين حتى أصبح يفر أمامه من الفسطاط الى الصعيد الى الاسكندرية . ولولا أنه هو نفسه لم يكن كفئا للمطلب الذى أراد لما استطاعت الدولة أن تتغلب عليه . ويكفى أن نذكر أن سنة ٢٩٢/٩٠٤—٩٠٥ شهدت أربعة ولاة لمصر ، هم شيبان بن أحمد بن طولون ومحمد بن سليمان الكاتب وعيسى النوشرى ومحمد الخلنجي .

الإخشيديون (١)

وقد فتحت التجربة الطولونية أعين رجال الدولة على ما يمكن أن تقدمه مصر للمتولى أمورها من امكانيات . وقد كانت الدولة العباسية اذ ذاك فى حالة تشقق وتصدع كاملين ، وكل من قدر على ناحية استبد بها . فأما فى شرق الدولة ، أى فيما يلى العراق شرقا ، فقد أصبحت البلاد نهبا موزعا بين الاقطاعيين الكبار والمحاربين . فأما الطائفة الأولى فكانت نفرا من الأغنياء حازوا مالا مكن لهم من اصطناع جند مرتزق ، وبهذا الجند المرتزق حازوا ما استطاعوا حيازته من الأرضين وقاطعوا الدولة عليه بمال معلوم . وأما المحاربون فكانوا أجناسا من الترك والديلم والفرس والخراسانية ومن اليهم ذوى ملكات وهيئات تصلح للحرب والقتال ، وظهر فيهم أفراد يمكن أن نشبههم بالكوندوتييرى Condottieri الايطاليين فى القرن الخامس

(١) جميع المراجع التى أشرنا اليها فى الحديث عن الطولونيين تتحدث عن الاخشيديين. وبالاضافة الى ذلك نذكر أهم دراسة فى تاريخهم للسيدة الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠ والمراجع المستوفاة المذكورة فى ذلك الكتاب ٠ ومادة « اخشيديين » بدائرة المعارف الاسلامية بقلم كارل هاينريش بيكر ٠ وانظر :

C.J. Tornberg : *Mémoires sur les monnaies des Ikhschidites* (dans Nova Acta Regiae Societis Scientiarum Upsaliensis) 3e série, vol. II.

عشر ، وهم متعهدو جنود ، يقدمون منهم الى من يريد لقاء أجور معينة ، وقد يقودون هم هؤلاء الجنود ويؤجرون أنفسهم ومن معهم لمن يريد .

وقد نبغ من الطائفتين — ملاك الأراضى والمحاربين — أفراد تمكنوا من أن ينشئوا دولا ، بل منهم من دخلوا فى خدمة الدولة العباسية وأصبحوا أصحاب الأمر فيهـا ، كالبويهيين والسلاجقة من بعدهم . غير أن هضاب ايران وتركستان وما يليها حتى حدود الصين كانت بلادا فقيرة قليلة الخير ، لا تعين دولة على الصمود زمنا طويلا ، وغاية ما كان يرجوه أصحاب الدول فيها أن يفرضوا أنفسهم على دولة الخلافة . وفى بلاط الخلفاء المضطرب الحافل بالانقلابات والدسائس ضاع أمر معظم أصحاب هذه الدول ، فكأنها فى تتابعها كانت موجات بحر يلى بعضها بعضا ويلاشى بعضها بعضا .

وقد رأى هؤلاء الناس جميعا أن الجانب الغربى من الدولة العباسية يقدم للطامع فيه فرصا أحسن ، فهناك مصر القاعدة العسكرية الاقتصادية الكبرى ، من تمكن منها استطاع أن يحصل على مال وفير متصل ، وبهذا المال الوفير يستطيع أن يقطع مطامع أهل الدولة ويقيم لنفسه ملكا يدوم بدوامه ، وربما أورثه أعقابه . وهذه هى عبرة التجربة الطولونية فى نظر رجال الدولة العباسية ، فمنذ بدأ أمر بنى طولون يضعف شرهت أنظار رجال الدولة الى مصر وأصبح الأذكياء منهم حريصين على أن يثبتوا أقدامهم فيها محاولين اعادة التجربة الطولونية لحساب أنفسهم . وأكبر من حاول هذا الأمر القائد تكين التركى ، ثم محمد بن طغج الاخشيد . فأما تكين فقد تولى مصر فيما بين سنتى ٢٩٨/٩١٠—٩١١ و ٣٢٣/٩٣٤—٩٣٥ أربع مرات حكمها فى مجموعها قرابة ستة عشر عاما . فاذا ذكرنا أن عمر دولة بنى طولون كلها لم يزد عن ٣٨ سنة والاخشيد عن ٣٤ ، تصورنا طول المدة التى سيطر فيها تكين هذا على مصائر مصر وجانب كبير من الشام أيضا .

غير أن جميع من طمعوا فى مصر من أولئك القواد لم يرزقوا شيئا مما رزقه أحمد بن طولون من المواهب والكفايات ، حتى محمد ابن طغج الاخشيد نفسه ، لم يكن يمتاز عن تكين بشىء ، فلم يكن على ثقافة أو اتساع ذهن أو طموح بعيد ، بل كان بخيلا أميل الى الجبن وسوء التصرف . ولولا أن أمور مصر المالية كانت فى أيامه الى أسرة المادرائيين لما استطاع أن يقيم لنفسه فى مصر كيانا ، ولولا قيام كافور الاخشيدى بشؤون بنيه بعد وفاته لتلاشى أمر بنى الاخشيد عقيب وفاته . واذا قارنا بين محمد بن طغج وكافور لرجحت كفة هذا الأخير ، فقد كان أعقل وأقدر وأعرف بشؤون السياسة ، وهو عماد هذه الدولة ومحور سياسة مصر خلال العشرين السنة التى انقضت بين موت محمد بن طغج وزوال أمر بنى الاخشيد على أيدى الفاطميين .

ومن هنا فانه يبدو لنا أنه من المبالغة أن نحسب دولة الاخشيديين فى مصر بين الدولات ذات الخطر أو الأهمية فى تاريخ مصر العام. فلا هم أنشأوا شيئا ذا بال أو وضعوا رسما أو سلكوا سياسة تجعلهم فى عداد دول التاريخ المصرى ، ومن الانصاف ألا يقال دولة الاخشيد ، بل دولة الاخشيد والمادرائيين وكافور.

وقد ظهر أمر محمد بن طغج أثناء خلافة الراضى بالله ، حتى ليقال انه هو الذى منحه لقب الاخشيد عام ٩٣٩/٣٢٧ على أصح الآراء. والذين يروون هذا الخبر يقولون ان محمد بن طغج هو الذى طلب الى الراضى أن يختصه بهذا اللقب ، ويقال ان الاخشيد كان لقب ملوك فرغانة ، كما أن أصبهبذ لقب ملوك طبرستان ، والاخشيد لقب ملوك أشروسنة ، وما الى ذلك. ويقال أيضا ان معناه ملك الملوك ، وهذا تفسير لا يمكن القطع بصحته ، مثله فى ذلك مثل قولهم ان معنى « طغج » عبد الرحمن. وعلى أى الأحوال فقد اتصل بيت محمد بن طغج بن جف بالعباسيين من أيام المعتصم ، فقد كان جف من رجاله المقربين اليه ، وقد أقطعه المعتصم اقطاعا سنيا. وظل جف فى البلاد حتى توفى فى الليلة التى قتل فيها المتوكل من سنة ٨٦١/٢٤٧.

وخلفه ابنه طغج بن جف وكان من كبار الجند وأصحاب الولايات ، وقد دخل فى خدمة الطولونيين وتولى لهم الشام وأخلص فى خدمتهم ، وهو الذى قبض على قتلة خمارويه فى الشام ، مع أن خمارويه كان قد أزمع الفتك به ثم حال مصرعه دون ذلك. وظل طغج واليا على دمشق وطبرية أيام أبى العساكر جيش. وفى أيام هارون بن خمارويه نجده واليا على الشام مستبدا بالأمر فيه ، ثم تمكن رجال الدولة الطولونية من استرضائه واستمالته ، فدخل فى طاعتهم وأقروه على الشام. وعندما قتل شيبان هارون لم يعترف طغج بشيبان ، وانضم الى محمد بن سليمان الكاتب ، وشارك بهذا فى القضاء على دولة الطولونيين. ثم انتقل طغج الى بلاط العباسيين وناله ما كان ينال رجال الدولة اذ ذاك من الأذى ، فحبسه الخليفة المكتفى بالله مع ابنيه محمد وعبيد الله بسعاية الوزير العباس بن الحسن. وقد مات طغج فى السجن سنة ٩٠٦/٢٩٤—٩٠٧ وهرب محمد وعبيد الله. وكان محمد أكبر أبناء طغج ويكنى بأبى بكر ، أما اخوته الآخرون فهم أبو الحسين محمد وأبو المظفر الحسن وأبو نصر الحسين وأبو القاسم على ، وسيكون لمعظمهم دور فى أمور مصر أيام دولة أخيهم وأبنائه..

وتنقلت الأحوال بمحمد بن طغج حتى ظهر أمره سنة ٩١٤/٣٠٢ وكان فى خدمة تكين والى مصر ، فقد إشترك فى رد غزوة فاطمية على مصر ، فقربه تكين حتى أصبح منه بمنزلة الولد. وعندما نقل تكين عن مصر صحبه محمد بن طغج ، فلما تولى دمشق جعله نائبا

عنه فى حماه وجبل السراة . فلما عاد تكين لولاية مصر ولاه الاسكندرية ، وهناك أتيحت له الفرصة لرد الفاطميين عن مصر مرة أخرى. وفى أثناء ذلك وثق محمد بن طغج علاقته بأبى بكر محمد بن على المادرائى والحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور ، وعرف منهما شيئا كثيرا عن شؤون مصر المالية انتفع به فيما بعد . ثم ولاه تكين أمر الحوفين الشرقى والغربى ، وفى أثناء ولايته على الاسكندرية ثم الحوفين بدأ يظهر شرهه الى المال ، فأقبل على مصادرة المياسير والاستيلاء على التركات . وقد أنكر ذلك منه تكين وبدأت العلاقات تسوء بينهما .

وأحس محمد بن طغج بذلك ، فسعى حتى دبر له بعض معارفه ولاية الرملة بالشام ثم هرب من تكين الى الرملة . ثم حصل على ولاية دمشق سنة ٩٣١/٣١٩ ومكن لنفسه فيها . وهنا أخذ يكون لنفسه قوة عسكرية يعتمد عليها فى صراع السلطان الذى كان دائرا اذ ذاك ، ثم استقدم اخوته عبيد الله والحسن والحسين ، وأخذ يستعد لانتهاز أول فرصة تسنح . ولا شك أن عينيه كانتا مثبتتين على مصر ، فأخذ يجمع المال بالمصادرات وغصب التركات ، وكلما اجتمع له مال اصطنع به جندا يقربونه من غايته .

واستطاع وهو فى الشام أن يستصدر من الخليفة القاهر أمرا بضم مصر الى ولايته فى الشام ، ولكن أحمد بن كَيْنَغْلَغ استطاع أن يعزل محمد بن طغج ويحل محله ، ودخل مصر واليا للمرة الثانية فى شوال سنة ٩٣٣/٣٢١ ، أى أن محمد بن طغج تولى مصر للمرة الأولى نحو ٣٠ يوما دون أن يدخلها . ولكنه لم ييأس ، ولم يزل يسعى حتى حصل على ولايتها مرة ثانية من الخليفة الراضى ، ودخلها واليا فى رمضان سنة ٣٢٣ / سبتمبر ٩٣٥ وظل يحكمها من ذلك الحين الى وفاته سنة ٩٤٦/٣٣٥ .

ولم تكن الظروف التى تولى فيها محمد ابن طغج الاخشيد مصر مواتية، فقد كان طمع رجال الدولة فيها عظيما . أما من جهة الغرب فقد اشتد طمع الفاطميين ، ولم يعد يمر عام دون أن يوجهوا الى مصر حملة . وقد عاش الاخشيد وخلفاؤه بين حجرى الرحى هذين طوال مدة حكمهم مصر ، وانتهى أمرهم عندما غلبهم المعز الفاطمى على البلاد ، وفصل مصر عن الخلافة العباسية جملة .

ولم يكد محمد بن طغج الاخشيد يتولى أمور مصر حتى نهض محمد بن رائق . وكان هذا من فحول الرجال وعتاة ذلك الزمان ، لم يزل أمره يعلو حتى اضطر الخليفة الراضى الى تقليده جميع أمور الدولة « وبطل حينئذ أمر الوزارة والدواوين وبقى اسم الوزارة لا غير» كما يقول أبو المحاسن ، أى أن ولايته كانت تمهيدا لنشوء وظيفة أمير الأمراء فيما بعد . وقد فزع الاخشيد من التفات محمد بن رائق اليه وسار لحربه ، والتقى الجانبان عند

اللَّجُّون على مقربة من طبرية فى فلسطين . وقد انتصر الاخشيد ، ولكنه أحس رغم انتصاره أنه لن يستطيع الصمود لابن رائق ، فصالحه على أن يحمل اليه كل عام ١٤٠٫٠٠٠ دينار على أن تكون له الرملة ، ويترك باقى الشام لابن رائق ، وكان ذلك فى المحرم ٣٢٩/ أكتوبر ٩٤٠ . ثم توفى الخليفة الراضى فى ربيع الآخر من السنة وخلفه أخوه المتقى ، وقتل ابن رائق فى العام التالى ، فسار الاخشيد ودخل دمشق وضم الشام الى ولايته ، وأقره المتقى على ذلك . وقد عرف محمد بن طغج كيف يكسب ثقة المتقى ، بل دعاه الى ترك بغداد والمجىء الى مصر ، مقلدا فى ذلك ما فعله ابن طولون مع المعتمد ، ولكن المتقى لم يقبل هذا الرأى .

وفى ذلك الحين كان أمر بنى حمدان فى حلب قد اشتد ، وبدأ الصراع بينهم وبين الاخشيد ، وهو صراع كتب النصر فيه للاخشيد ، فظلت ولايته على مصر والشام خلال بقية أيام المتقى ثم المستكفى ثم المطيع . وفى خلافة هذا الأخير توفى الاخشيد فى دمشق فى ذى الحجة ٣٣٤/ أغسطس ٩٤٥ وخلفه ابنه أبو القاسم أونوجور أو أنُوجور ، أى أن الاخشيد ظل واليا على مصر ١١ سنة و ٣ أشهر ويومين كان فى معظمها واليا على الشام أيضا ، وكانت سنه عندما توفى ٦٦ سنة ودفن بالقدس .

وقد استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يحتفظ بملكه خلال هذه السنوات بفضل القوة العسكرية التى استطاع أن ينشئها ، ثم انه كان الى ذلك كيِّسا مداورا يستطيع أن يراوغ ويداور وينحنى للعواصف ، وما كان أكثرها اذ ذاك ، وقد رأينا موقفه من ابن رائق . وكان الزمان عصيبا لا يسلك فى متاهته الا من كانت له هذه الخلال ، فقد كانت غارات القرامطة لا تنكف عن الشام والحجاز ، وليس هنا موضع تفصيل أفاعيلهم ، وانما المهم أن نقول ان الله رحم المسلمين بموت أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى القرمطى فى سنة ٣٣٢/٩٦٣ بعد أن فعل بالشام والحجاز والحجاج الأفاعيل ، وسرق رجاله الحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة ، ولم يردوه الا بعد عناء . هذا والأتراك المستبدون بدولة بنى العباس ينهزمون أمامه مرة بعد أخرى ، وكلما انهزموا لم يجدوا أمامهم الا الخلفاء المساكين يعذبونهم ويسملون أعينهم ويقتلونهم . ولم يكن أولئك الخلفاء على شىء من المهابة واحترام النفس ، وقد بلغ من أحدهم — وهو القاهر ، وكان قد خلع وسملت عيناه — أنه لما بلغه خبر قبض توزون التركى على المتقى وسمله عينيه قال : « صرنا اثنين ، ونحتاج الى ثالث » يعرض بالمستكفى الذى بويع بعده . ولم يكن الوزراء بخير من الخلفاء ، ويكفى أن نذكر أن الوزير ابن شيرزاد وزير المتقى كان قد أمّن لصًّا فاتكاً « وخلع عليه ، وشرط عليه

أن يصله كل شهر بخمسة عشر ألف دينار ، وكان يكبس بيوت الناس بالمشعل والشمع ويأخذ الأموال » .

وكان محمد بن طغج يحاول التشبه بأحمد ابن طولون ، ولكن شتان بين الرجلين من كل ناحية . وقد ألممنا بصفة ابن طولون وألمعنا بشيء من خصال محمد بن طغج ، وبقى أن نضيف أن جشعه الى المال واستهانته بما فى أيدى الناس وقلة تعففه جعلته موضع الزراية والانكار والتندر . بل كان يطمع فى القليل ، حتى لقد طمع فى فرو كان يلبسه أحد رجاله ، فجعل يعرض له به لعل الرجل يهديه اياه ولكنه لم يفعل ، فلما أيس منه حرض بعض غلمانه فغصبوا الرجل الفرو وهو خارج من عند الاخشيد ثم أنكروه . ثم أراد الاخشيد أن يتظرف فلبس الفرو ، فلما دخل عليه الرجل مرة أخرى ورآه عليه ضحك الاخشيد وقال : « كيف رأيت ؟ ما أصفق وجهك ! ولكنك ابن أبيك .. وكم عرضت لك وأنت لا تستحى فلم تفعل ، حتى أخذناه بلا شكر ولا منة ! »

وربما خفف من ذلك أن الرجل كان شديد التقى ، ولكن تقاه لم يكن يظهر الا بعد قيامه بالأذى . ولم يكن حال الاخشيد من هذه الناحية يختلف عن حال غيره من رجال الدولة والسياسة فى ذلك الزمان ، فقد كانوا يظهرون الأسف والندم على ما يفعلون بعد فوات الوقت ، وكانت ضراعتهم الى الله خوفا من العذاب لا عاطفة دينية كريمة . وكان الاخشيد من هذه الناحية حريصا على ألا تفوته فرصة لطلب الغفران ، حتى لقد تكاسل مرة عن حضور ختم القرآن فى جامع عمرو ، وكان حريصا على ذلك أثناء شهر رمضان ، فدعته احدى جواريه الى القعود على أن تعتق عنه عشر رقاب فقال : « أعشر رقاب ؟ ويحك ! لعله يكون فى هذه الليلة رجل صالح له عند الله منزلة فيقول فى دعائه : اللهم اغفر لجماعتنا ، فعسى أن أدخل بهم » ، ثم ركب الى الجامع العتيق فحضر الصلاة والختم . وقد حاول أن يتشبه بأحمد بن طولون فى مظاهره ، فلم يوفق . وظل الناس لا يوقرونه توقير الملوك حتى أصبح يطلب ذلك ويصر عليه ، وقد قرب نفرا من بقايا الطولونيين فأصبحوا من ندماه ، وربما جلس للعلماء والشعراء .

وجدير بنا قبل الانتقال الى خلفاء الاخشيد أن نقف وقفة عند المادرائيين ، فهم كما قلنا يقاسمونه فضل ما أدرك من توفيق . وقد سبق أن ذكرنا أن أفراد هذه الأسرة كانوا فى مصر أيام الطولونيين . وهم فى الغالب أسرة فارسية الأصل أتى أولهم الى مصر أيام أحمد بن طولون وأصبح من حواشيه ، ثم تداعوا بعد ذلك حتى كثروا فى البلاد . وأهم رجالهم ثلاثة : أحمد بن ابراهيم أو محمد ابن أحمد بن ابراهيم المادرائى الأطروش ، والحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور ، وعلى بن أحمد المادرائى ثم ابنا هذا الأخير أبو بكر محمد وأبو الطيب على .

فأما أحمد بن ابراهيم فقد ولى خراج مصر سنة ٢٦٦/٨٧٩ شركة مع ابن شعيب المدائنى ، ويغلب أن الذى وضعه فى هذا المنصب كان أحمد بن طولون نفسه ، ثم انفرد أحمد بن ابراهيم المادرائى بخراج مصر . وبعد قليل عهد ابن طولون الى الحسين بن أحمد المعروف بأبى زنبور فى عمل من أعمال الخراج فى الشام . ثم ظهر من بين أفراد البيت على ابن أحمد المادرائى وعلا أمره أيام خمارويه حتى قال المقريزى انه « كان يملك النظر فى جميع أمور مصر لأبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ووزارة » . وفى سنة ٢٧٢/ ٨٨٥ استقدم علىّ هذا ابنيه أبا بكر محمد بن على وأبا الطيب أحمد بن على ، واستخلف أبا بكر على الخراج ثم على الرسائل ، وهكذا أصبحت الأمور المالية والادارية كلها فى مصر بأيدى أفراد هذا البيت .

وقد قتل على بن أحمد المادرائى مع أبى المساكر جيش ، فنهض ابنه أبو بكر مكانه وتولى أمور هارون بن خمارويه . وعندما دخل محمد بن سليمان مصر انضم اليه أبو بكر محمد المادرائى ، ورافقه الى بغداد ، ثم عاد الى مصر وتولى خراجها الى سنة ٣٠٤/٩١٦ أيام تكين وأصبح صاحب السلطان المطلق فى البلاد وحاز ثروة واسعة . ثم أبعد هو وعمه أبو زنبور عن مصر وطولبا فى بغداد بأموال جليلة ، وظلا بعيدين عن خراج مصر ١٤ سنة ، ثم عاد أبو بكر الى خراج مصر سنة ٣٢١/٩٣٣ وأصبح صاحب السلطان الفعلى فى البلاد . ويبدو أنه كان يعتمد على قوة عسكرية خاصة به تحميه من خصومه وترد عنه أيدى الطامعين فى ثروته . ولم يكن الحسين بن أحمد المادرائى المعروف بأبى زنبور بأقل كفاية ولا مهارة من ابن أخيه أبى بكر ، فقد صار اليه الأمر بعد ذلك ، وعندما توفى سنة ٣١٧/٩٢٩ كانت شؤون مصر والشام المالية والادارية فى أيدى أهل بيته . وكانوا جميعا ينهبون أموال الدولة ويزورون فى الأوراق ، وكان رجال الدولة يعلمون ذلك ويستحلون مصادرتهم ، وكانت المصادرة جزءا من النفقة العادية عندهم ، يدخرون المال لما ينزل بهم منها ويبقى لهم بعد ذلك الثراء الطائل مخبأ فى سراديب وأماكن لا يعلم بأمرها أحد .

وكان العمل الرئيسى للمادرائيين أنهم كانوا يضمنون الخراج للخلافة أو لصاحب الأمر فى مصر ، فيدفعون مبلغا معينا ثم يستخرجون من الناس ما يشاءون . وقد اشتهر أمرهم بذلك ، حتى ان أصحاب الأمر كانوا يكرهونهم ويحسدونهم ولكنهم لا يستغنون عنهم ، نظرا لمعرفتهم بوجوه الايراد والانفاق ، ولم يكن هناك من يجرؤ على ضمان الخراج بالمبالغ التى كانوا يضمنونه بها .

وفى سنة ٣٢٧/٩٣٨ — ٩٣٩ أو التى بعدها استدعى الاخشيد أبا بكر المادرائى

وفوض اليه أمور المال ، وخلع على ابنه الحسين بن أبى بكر ، وأصبح أبو بكر أشبه بوزير للاخشيد . قال ابن سعيد : « ورد اليه الاخشيد التدبير بمصر والشام والرملة ، ولبس الدراعة ونزع الطيلسان ، وكان الاخشيد لا يصدر الا عن رأيه ولا يخليه من حضور مجلسه،ويقول للناس اذا انصرف : كم قبلت يده ووقفت بين يديه ! » — والدراعة هى شارة الوزراء ، فكأن أبا بكر المادرائى قد أصبح بالفعل وزيرا وان لم يتسم بذلك . وقد غضب عليه الاخشيد سنة ٩٤٢/٣٣١—٩٤٣ وعزله وحبسه فى بيته مكرما وأجرى عليه رزقا يبعث اليه فى سجنه .

وتقلبت الحال بأبى بكر ، حتى اذا توفى الاخشيد وتولى أبو القاسم أونوجور أظهر أبو بكر همة عظيمة فى تأييده ، فأعاده الى ما كان عليه . ومن غريب ما حدث بعد ذلك أن قائدا يسمى غلبون خرج بالصعيد وغلب جيش أونوجور وتولى الأمر فخدمه أبو بكر وضمن له الخراج ، فلما عاد الأمر الى أونوجور حبسه وصادره وضربه ، فلما صار الأمر الى كافور أخرجه من سجنه وأعاده الى ما كان عليه . أى أن هذا الرجل استطاع أن يطفو على السطح رغم كل شىء ، وقد ذهبت دول وقامت دول والمادرائيون على حالهم من السلطان والغنى والجاه . وقد توفى أبو بكر المادرائى فى الثامنة والثمانين من عمره أيام كافور سنة ٩٥٦/٣٤٥ وكان قد ابتعد عن الأعمال فى أواخر أيامه .

ونعود الى خلفاء الاخشيد : فبعد وفاة محمد بن طغج خلفه ابنه أبو القاسم أونوجور، وكانت سنه أربع عشرة سنة عندما تولى الأمر . وانتهز كافور الاخشيدى الفرصة ووضع يده على الأمور كلها . ومن ذلك التاريخ الى دخول الفاطميين مصر سيطر كافور هذا على مصائر مصر وجزء من الشام فى بعض الأحيان . وهو عبد أسود يصفه المؤرخون بقبح الشكل وكبر البطن والقدمين وثقل البدن ، وقالوا انه كان مثقوب الشفة السفلى . ويبدو أن هذه مبالغات من المؤرخين أرادوا بها أن يجعلوا كافورا مثلا لقدرة الله على اعطاء الدنيا لمن يشاء . ويرجح أنه ولد بين عامى ٢٩٢و٣٠٨/٩٠٥و٩٢٠ بالنوبة أو الحبشة ، ويسمى فى بعض الأحيان باللابى نسبة الى ناحية اللاب من بلاد النوبة . ويقال ان الاخشيد اشتراه بثمانية عشر دينارا . ومهما يكن من أمر فقد أخلص كافور للاخشيد اخلاصا عظيما فأدنى محله ورفع قدره ، وعهد اليه فى تربية ابنيه أونوجور وعلى .

وكان الرجل ذكيا فألم بالكثير من شؤون الدولة ، ورأى خلفاء الاخشيد صغارا لا يرجى منهم خير ، ورجال الدولة لا يمتازون بأمانة ولا اخلاص ، فنظر الى الأمر وأخذ يمهد لنفسه بكسب الصداقات والأعوان . فلما صارت الأمور الى أونوجور أصبح هو صاحب الرأى الأعلى ، ودام له ذلك على أيام أخيه علىّ . وقد حاول كلاهما أن يتخلص

منه دون جدوى ، وظل كافور صاحب الأمر المطلق فى البلاد مستعينا بأبى بكر المادرائى وغيره من رجال الدولة . ويذهب بعض المؤرخين الى أن كافورا تخلص من أبى القاسم أونوجور ثم من أخيه على بالسم ، وذلك غير مستبعد وان كنا لا نستطيع القطع به . وبعد أن توفى علىّ لم يعد هناك الا ابنه أحمد ، وكان صبيا فى التاسعة من عمره ، فأزاحه كافور جملة ودعا لنفسه على المنابر وأصبح أمير مصر ولكنه اكتفى بلقب الأستاذ ، فكان يقال « الأستاذ أبو المسك كافور » . وقد صمد كافور فى الحفاظ على كيان الدولة ورد عنها الفاطميين أكثر من مرة وحماها من عدوان رجال الدولة العباسية ، ولولاه لضاع أمر بنى الاخشيد عقب وفاة محمد بن طغج مباشرة . أى أنه ظل يحكم مصر فعلا من سنة ٣٣٤/٩٤٥ الى سنة ٣٥٧/ ٩٦٧ ، وقد سقطت مصر فى أيدى الفاطميين بعد وفاته بعام واحد .

وكان رجال الدولة يخشون بأس كافور ، أما جمهور الناس فكانوا يحبونه . وقد جمع من الصفات ما أهله لهذا وذاك ، فأما مع رجال الدولة فكان حاسما حازما بل قاسيا ، ولم يمنعه ذلك من القدرة على المراوغة والمطاولة . وأما مع الجمهور فكان يظهر التقى والتواضع وحب آل البيت . قال الذهبى : « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ له فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وله ندماء ، وكان عظيم الحرمة ، وله حجاب يمتنع عن الأمراء ، وله جوار مغنيات ، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية ، كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وكان يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر . وكان لا ينفك عن ارسال الأموال والهبات الى الحجاز . وكان يتظاهر أمام الناس بكل ما يحببه الى قلوبهم . ذكروا أن خطيبا عرض به فى احدى مواعظه وذكره فى معرض التدليل على هوان أمر الدنيا على الله ، فسمع كافور بذلك فأرسل اليه خلعة ومائة دينار ، فصار الواعظ يقول بعد ذلك : ما أنجب من ولد حام الا ثلاثة : لقمان وبلال المؤذن وكافور » .

ويكفى للتدليل على ما بلغه كافور من المكانة ما وقع له مع المتنبى ، وقصد هذا الشاعر الكبير اياه ومدحه والتقرب اليه ، حتى لقد كان المتنبى على احتقاره لكافور يخافه ويركب فى موكبه . ولم يبلغ المتنبى من كافور شيئا ، فاتجه الى رجل من منافسيه هو أبو شجاع فاتك الرومى المعروف بالمجنون ، فمدحه ، وحصل منه على ألف دينار وهدايا أخرى ، ثم خاف كافورا فهرب من مصر ، وعندما صار على حدودها أطلق لسانه فيه .

وبعد أن توفى كافور اجتمع رجال الدولة وولوا أحمد بن على بن محمد بن طغج الاخشيد فى جمادى الأولى سنة ٩٦٧/٣٥٧ وجعلوا الحسن بن عبيد الله بن طغج (ابن عم أبيه) خليفته ، وتولى أموره أبو الفضل جعفر بن الفرات . وكان أحمد فى الحادية عشرة من عمره لا يستطيع أمرا ، وقد أساء جعفر بن الفرات التصرف وصادر بعض الناس وفى جملتهم يعقوب بن كلس وكان من سروات الناس ، ففر الى المعز لدين الله وأخذ يحرضه على دخول مصر ، وقد بلغ ابن كلس بعد ذلك مركزا عظيما أيام الفاطميين .

وكان الفاطميون لمصر بالمرصاد منذ أيام الاخشيد ، وقد أشرنا فى كلامنا عن الاخشيد الى بعض محاولاتهم لفتحها . والواقع أن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم فى القيروان لم يعرفوا راحة ولا اطمئنانا ، فقد ناصبهم أهل البلاد العداء وكرهوهم وحاربوهم ، حتى ضاق ذرعهم . وكانت البلاد فقيرة لا تعينهم على ادراك ما كانوا يؤملون من ملك عظيم ، ثم انهم عجزوا عن السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ، وبدا لهم بوضوح أن أمرهم الى زوال اذا هم ظلوا فى هذا الركن الذى شاءت المقادير أن تقوم دولتهم فيه . فاتجهت أنظارهم الى ضم بلاد أخرى الى افريقية ، وبعثوا العيون والجواسيس فى كل ناحية ليعلموهم بأحوال بلاد مثل الأندلس ومصر ، غير أنهم بعد أن مات الاخشيد اتجه اهتمامهم نحو مصر وطمعوا فيها بسبب ما كانت عليه أحوالها من الاضطراب ، وقوى طمعهم عندما صار الأمر الى كافور ، ولكنه عرف كيف يرد أطماعهم عن بلاده . وكان الفاطميون قد دعوا الاخشيد الى الدخول فى طاعتهم ، فجعل يراوغهم ، حتى وطد علاقته مع العباسيين واطمأن من ناحية رجالهم ، فوقف من الفاطميين موقفا حاسما . فلما مات الاخشيد عادوا يخاولون مع كافور ، فأخذ يراوغهم هو الآخر : لم يرفض طلبهم ولم يجبه ، وظل يجتهد فى المحافظة على مركزه بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة أخرى .

وقد بدا للمعز الفاطمى بوضوح أن فرصته لدخول مصر قادمة يوم يموت كافور ، وبدأ بالفعل يستعد للأمر ، فبدأ فى حفر الآبار على الطريق من افريقية الى مصر من سنة٩٦٥/٣٥٥، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور سنة ٩٦٧/٣٥٧ عجل باعداد الحملة . وزاده همة فى ذلك ما تسامع به من سوء سياسة الوزير جعفر بن الفرات . ويبدو أن دعاة الفاطميين فى مصر كانوا كثيرين ، لأننا نقرأ فى أخبار هذه الشهور الحاسمة ما يدل على أن الجو فى مصر كان مهيأ لاستقبال الفاتحين الجدد . وعندما اقتربت عساكر الفاطميين من مصر اجتمع جعفر بن الفرات بكبار رجال الدولة ، وقرروا مفاوضة القائد جوهر على شروط التسليم ، ثم اجتمعوا بجوهر وحصلوا منه على أمان لأنفسهم وأهل

البلد . وقد أورد المقريزى نص هذا الأمان فى « اتعاظ الحنفا » ، وهو لا يخرج عن تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم ، ولكنه حافل بما اشتهر عن الفاطميين من تمجيد لأنفسهم واستعلاء على غيرهم وامتنان على النـــاس بطاعتهم . وفى شعبان ٣٥٨/٩٦٨ دخل جوهر الصقلى مصر بجيوش الفاطميين بعد مناوشات يسيرة ، وبدأ فى تاريخ مصر عهد جديد .

ولم تكن للاخشيديين أثناء حكمهم فى مصر عناية حقيقية الا بشؤون المـــال ، وقد وفقـــوا فى ذلك بفضـــل المادرائيين ، وظلوا يجبون مال مصر كل سنة نحـــو مليونين من الدنانير على قول و ٣٫٢٧٠٫٠٠٠ على قول آخر . والراجح أن الرقم الأخير أقرب الى الصحة . وقـــد تشدد الاخشيديون فى ذلك حتى أرهقوا الناس بالمغارم والجبايات ، حتى كان الجباة يستخرجون من الناس ضرائب على أراضى البور . وقد قرر المقدسى أن الضرائب والمكوس كانت ثقيلة ، وبخاصـــة فى تنيس ودمياط وعلى ساحل النيل . وقد ذكرنا أن الاخشيد كان لا يتورع عن مصادرة الأموال، أما كافور فقد كف يده عن ذلك ، ثم عادت المصادرات بعد وفاته ، وأسرف جعفـــر بن الفرات فى ذلك . ويبدو أن رجال الدولة قد أهملوا صيانة المرافق ، فقد توالت على البلاد الغلوات ، وفى السنة التى دخـــل الفاطميون مصر فيها كانت الحالة قد بلغت مبلغا جعـــل البلاد على حافة الخراب ، وقد تدارك المعز ذلك لأول دخوله .

تلك هى التجـــربة الاخشـــيدية ، أراد صاحبها من ورائها أن يعيد تجربة ابن طولون فلم يوفق، وانقضت سنواتها الأربع والثلاثون وكأنها ظل مر على حائط دون أن يخلف أثرا . واذا كان ولابد أن نجـــد لها دورا فى تاريخ مصر الطويل قلنا انها أتاحت للشعب المصرى عددا من السنوات عاشها بعيدا عن العواصف التى هزت بقية أجزاء الدولة العباسية فى ذلك الحين . فلقد شقيت الجزيرة العربية والشام والعراق بغارات القرامطة ، وتهددت الدولة البيزنطية حدود مملكة الاسلام من الشمال واجتاحتها فى مواضـــع ، وبقيت مصر هادئة تجرى الحياة فيها على مألوف عهدها فى تلك العصور من التشابه والتكاسل . ولا شك أن محمد بن طغج كان حريصا على الدفاع عن مصر والابتعاد بها عن المعمعة الدائرة ، وضحى فى سبيل ذلك بمعظم الشام ، فلم يحتفظ منه الا بالرملة ، وهى مفتاح مصر من ناحيـــة الشام .

وربما استطعنا أن نقول انه لولا الاخشيد وكافور لتقـــدم استيلاء الفاطميين على مصر بضع سنوات . فقد ولدت الدولة الفاطمية فى افريقيـــة بعـــد زوال دولة آل طولون بأربع سنوات ، ومنذ أن تربع فى دستها عبيد الله المهدى فى سنة ٢٩٦/٩٠٨ تفتحت عيناه على مصر وأخذت حملات الفاطميين تنوش حدودها الغربية . وقد دافعهـــا ولاة بنى العبــــاس ما أمكنتهم المدافعة ، فلما جاء الاخشيد اهتم

بالدفاع وأعد له عـدته وتمكن من رد كل محاولات الفـاطميين، وأضـاف الى ذلك سياسـة مرنة جعلته يصـانع الفاطميين حينا ويتصدى لهم حينا ، حتى ليبدو فى بعـض سنواته أميل الى الدخول فى طاعة الفاطميين والخروج من دولة بنى العباس ، ولكن قوى الفاطميين لم تبلغ أيامه المبلغ الذى يخيفـه أو يدعوه الى طاعتهم ، ففضل البقاء على طاعة العباسيين ، فهم مهما كان أمرهم أضعف من الفاطميين ، وهم مشغولون عنه بما حزبهم من المتاعب ، فكانوا يقنعون منه بما يرسل ، ولم يكن الفاطميون ليرضوا منه بأضعاف ذلك .

ثم جاء كافور فمضى على سياسة مولاه ، وأخذ يراوغ الفاطميين ويدافعهم ، حتى اذا انتهت أيامه كان على عرش الفاطميين تميم أبو معد أعظم رجال دولتهم ، وفى خدمته قائد مظفر ماهر هو جوهر ، جاس خلال المغرب كله يغزو ويحارب ، حتى تجمعت له تجـربة عسكرية جعلته من أكبر قواد زمانه ، وقد يئس المعز وقائده من مصير دولتهم فى المغرب وتعلقت آمالهما بدخول مصر ، ووجها نحوها كل قواهما ، فصارت اليهما دون كبير جهد .

ولابد أن نضيف الى الاخشيد جانبا من الفضل فى مدافعة البيزنطيين عن بلاد الاسلام، فقد كانت الدولة البيزنطية قد نهضت اذ ذاك نهضة كبيرة على يد نقفور فوقاس ثم يوحنا الشميشق من بعده . وأغارا على بلاد الاسلام وخربا شمال الشام فسقطت أنطاكية ودفعت حلب الجزية وتهدد الخطر دمشق ، وتصـدى لمدافعتهم الحمدانيون أصحاب الموصل وحلب والاخشـيديون ومتطـوعة المسلمين الذين تكاثروا فى الثغور الاسلامية تدفعهم الحمية الدينية ، وخاصة ثغر طرسوس ، وعلى الرغم من أن دولتى الاخشـيديين والحمدانيين لم تستطيعا رد عادية البيزنطيين عن بلاد الاسلام بصورة حاسمة ، الا أنهما تمكنتا من انقاذ ما أمكن انقاذه ، وأرسـل الاخشـيديون قواتهم لحماية الثغور وأخـرجوا الأموال لافتـداء أسرى المسـلمين ، وقد هابهـم البيزنطيون وكاتبوهم رأسا متخطين رجـال الدولة العباسية . وكانت سياسة الاخشـيد وكافور مع البيزنطيين سياسة ملاينة وموادعة فى الغـالب ، ولم يكونا ليستطيعـا أكثر من ذلك على أى حال .

مصر فى العصر الفاطمى
ملامح مصر فى العصر الإسلامى الأول

للدكتور جمال الدين الشيال

هذا الموقع الجغرافى الحربى الممتاز عند ملتقى الطرق بين القارات الثلاث القديمة ، وهذا النهر الخالد مبارك الغدوات والروحات وما يجلبه للأرض الطيبة وساكنيها من رى وخصب ، وهذا الشعب الكاد الكادح الذى بنى الأهرام وصنع التماثيل وعرف التقويم الشمسى ومارس الطب ، وقاد الجيوش وشق البحار وأقام الامبراطوريات ، وهذه الحضارة المزدهرة التى كانت مصدر اشعاع لكل البلاد المجاورة فى آسيا وافريقيا قرونا طويلة ، كل هذه العناصر جعلت لمصر فى كل عصورها التاريخية — سواء أكانت عصور استقلال أم تبعية — شخصية خاصة مستقلة متميزة .

وقد رحبت مصر بالفتح العربى لأنه أنجاها من ظلم الروم وعسفهم واضطهادهم الدينى ، ولأنه حمل معه السماحة والعدل والمساواة والمثل الانسانية العليا حين حمل اليها الاسلام ، ولكن مصر بعد الفتح العربى لم يتغير مركزها السياسى الدولى ، فقد كانت من قبل ولاية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، ثم أصبحت امارة تابعة للخلافة الاسلامية .

غير أن مصر لم تكن فى عهد التبعية للخلافة امارة ككل الامارات ، بل برزت شخصيتها المستقلة المتميزة منذ اللحظة الأولى ، فلعبت دورا هاما فى الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان وتولية على بن أبى طالب ثم قيام الدولة الأموية ، وعندما انتقلت الخلافة الأموية الى مروان بن الحكم أدرك ما لمصر من أهمية خاصة بين ولايات الدولة المختلفة فاختار لولايتها ابنه عبد العزيز بن مروان الذى ظل واليا عليها احدى وعشرين سنة ، كان فى خلالها أشبه ما يكون بالحاكم المستقل ، وكانت مصر أشبه ما تكون بالدولة المستقلة .

وعندما نشب النزاع بين الأمين والمأمون برزت مصر كالعادة الى مسرح الحوادث ، وبدأت محاولاتها للانفصال عن الخلافة والاستقلال وكان بطلا هذه المحاولة الاستقلالية الأولى السرى بن الحكم ، وعبد العزيز الجروى ، غير أن هذه المحاولة انتهت بالفشل لأنها لم تقم على أسس قومية واضحة ، بل قامت بها شخصيات قومية طموحة .

ثم ثارت مصر فى عصر المأمون ثورة قومية خطيرة شارك فيها العرب والقبط ، وكادت الأمور تنتهى فيها الى فوضى شاملة وانفصال عن الخلافة لولا أن تداركها المأمون

فحضر الى مصر وعمل بنفسه لاخضاع الثورة وازالة الأسباب التى أدت الى قيامها .

ولم تكن المقومات المكونة للشخصية المصرية لتسمح لمصر أن تظل ولاية تابعة أمدا طويلا ، فلم تكد الخلافة العباسية تحس شيئا من الضعف حتى بدأت مصر تجدد محاولاتها الاستقلالية ، ونجحت هذه المحاولات على يد أحمد بن طولون أولا ثم على يد محمد بن طغج الأخشيد ثانيا وكان الاستقلال فى عهد هاتين الدولتين يشوبه شىء من النقص تمثله تلك الخيوط الواهية التى كانت تربط مصر بالخلافة كالخطبة باسم الخليفة أو ضرب السكة باسمه أو ارسال مبالغ من المال سنويا الى عاصمة الخلافة .

ثم توجت هذه المحاولات أخيرا بظهور الخلافة الفاطمية واتخاذها مصر مقرا لحكمها ، ففى عهد الدولة الفاطمية استقلت مصر لأول مرة فى العصر الاسلامى استقلالا تاما كاملا لا تشوبه أية شائبة ، بل لقد أصبحت مركزا لامبراطورية واسعة قوية ذات حضارة مجيدة مزدهرة تضم مصر والمغرب والشام وبلاد العرب واليمن وجزيرة صقلية .

من هم الفاطميون

بعد موت الامام جعفر الصادق انقسم الشيعة الى فرق كثيرة كان أهمها وأكبرها فرقتين : فرقة جعلت الامامة فى ابنه موسى الكاظم ثم فى الأئمة من بنيه الى الامام الثانى عشر الحسن العسكرى ، وهذه الفرقة تعرف بالامامية « الاثنى عشرية » ، ومعظم أتباعها الآن فى ايران والعراق ، والفرقة الثانية جعلت الامامة فى اسماعيل بن جعفر الصادق ثم فى ابنه محمد بن اسماعيل ، ثم فى الأئمة من بنيه ، ومنهم الخلفاء الفاطميون الذين أقاموا دولتهم فى افريقية أو المغرب الأدنى أولا فى سنة ٢٩٧ هـ ثم نقلوا دولتهم الى مصر فى سنة ٣٥٨ هـ وظلوا يحكمونها الى سنة ٥٦٧ هـ . هذه الفرقة تعرف بالاسماعيلية — نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق — وتعرف بالباطنية أحيانا — نسبة الى قولهم بالظاهر والباطن .

أثار نجاح الفاطميين فى تكوين دولتهم عداء الخلافتين السنيتين القائمتين وقتذاك : العباسية فى المشرق ، والأموية الأندلسية فى المغرب فشنتا عليهم حربا شعواء ، كان قوامها الطعن فى نسبهم ومذهبهم ، واتهم الفاطميون باتتسابهم الى أصل يهودى حينا ، والى أصل فارسى حينا آخر ، وأصبح الكلام فى النسب الفاطمى [1] موضوعا من أهم الموضوعات التى يتناولها المؤرخون — قدامى ومحدثون ، شرقيون ومستشرقون — عند الكتابة عن تاريخ الفاطميين ، ومع هذا لم يصل واحد منهم حتى اليوم الى رأى حاسم يمكن الاعتماد عليه والأخذ به ، ويرجع هذا الى سببين :

(١) انظر : (Bernard Lewis : The Origins of Ismaïlism)
و (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٨) .

أولهما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى بدأت الدعوة الاسماعيلية أو من بدأ بها ، فقد بدأت سرية ، وما كتبه المؤرخون السنيون عن أصولها ومبدئها فيه تناقض كثير واضطراب ، ويعتمد فى أكثره على الشائعات المغرضة .

وثانيهما أن الاسماعيلية أنفسهم لجأوا فى أول الأمر الى التقية فقد كان العهد عهد ستر ، وخضع الشيعة لعوامل الاضطهاد المختلفة من سجن وقتل وتشريد ، ولهذا لم يؤرخ الاسماعيلية لحركتهم بأنفسهم ، لأن الستر أصل من أصول مذهبهم ، ومن ضعف العقيدة عندهم كشف المستور ، وكانت النتيجة أن كل ما نعرفه عن عهد الستر — وهو العهد الذى يبدأ بوفاة جعفر الصادق وينتهى بقيام الدولة الفاطمية — يسوده التناقض والاضطراب ، ولا يمكن الركون اليه أو الوثوق به .

الحزب الشيعى — نشأته وتطوره

المشهور المتواتر أن محمدا عليه السلام توفى ولم يوص لأحد بالخلافة من بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، وعن طريق هذه الشورى اختير الخلفاء الأربعة الراشدون ، وان اختلفت أساليب الشورى عند اختيار كل واحد منهم .

وكان على بن أبى طالب يطمع فى أن يلى هذا المنصب منذ اللحظة الأولى التى تلت موت الرسول عليه السلام ، ولكن المنصب فاته فى الحالات الثلاث الأولى ، ولما أدركه فى الحالة الرابعة أدركه فى ظروف عسيرة عصيبة ، فقد تولى علىّ الخلافة فى أعقاب الفتنة الكبرى التى انتهت بمقتل عثمان بن عفان .

وحدث الانقسام الأول الذى فتّت الوحدة الاسلامية وجر الويلات الكبار على المسلمين والعالم الاسلامى منذ تلك اللحظة الى اليوم ؛ وتولى معاوية زعامة المعارضة ، وكانت حجته الكبرى أنه انما قام للمطالبة بثأر عثمان ، والانتقام من قتلته ومن حماة هؤلاء القتلة ، غير أنا نرى أن هذه حجة عاطفية اتخذها معاوية شعارا ليثير شعور المسلمين على علىّ ، أما الصراع الحقيقى فهو صراع سياسى تمتد جذوره الى الماضى البعيد ، الى عصر ما قبل الاسلام ، عندما كان التنافس على أشده بين بنى أمية وبنى هاشم فى سبيل السيادة فلما ظهر محمد برسالته كان بنو أمية من أشد الناس عداوة له وكان أبو سفيان — زعيم بنى أمية — حامل لواء المعارضة والمقاومة .

ونصر الله عبده محمدا ، وانتقلت السيادة الى بنى هاشم ، فمنهم اختار الله نبيه ، وقد استجاب العرب جميعا لرسالته وخضعوا لنفوذه بعد أن كون دولته الجديدة التى

وحدت المؤمنين والمسلمين من العرب جميعا ليكونوا أمة واحدة من دون الناس .

آلم بنى أمية أن ينال بنو هاشم هـذا الشرف كله ولكنهم خضعوا على مضض ، وخاصة بعد دخولهم فى الاسلام ، غـير أن بذور هذا النزاع لم تمت بل ظلت كامنة فى النفوس الى أن ولى عثمان — وهو من كبار بنى أمية — الخـلافة فاستيقظت عوامـل الخلاف من جديد ، والتف رجال هـذه الأسرة حوله يلونون سياسته باللون الذى يريدون ، فلما ثارت الفتنة وقتـل عثمان ، وولى على الخلافة خشوا أن تستقر السيادة ثانية فى بيت بنى هاشم ، فحمل لواء المعارضة معاوية — كبير بنى أمية فى ذلك الوقت — وقاد معركة النضال فى عنف واصرار شديدين مستعملا كل ما أوتى من مكر ودهاء .

فلم يكن الصراع بين على ومعاوية اذن صراعا للأخـذ بثأر عثمان أو للانتقام من قتلته ، وانما كان حلقة جديدة فى سلسلة النزاع القديم فى سـبيل السيادة بين بيتين كبيرين من قريش هما بنو أمية وبنو هاشم ، ولقد كان تقى الدين أحمد بن على المقريزى — زعيم مؤرخى مصر الاسلامية — أول من فطن الى هـذه الحقيقـة ، وأول من عالجها معالجة طيبة فى كتابه الصغير القيم : « النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم » .

ابان هذا الصراع ظهر الحزب الشيعى وهو الحزب الذى يضم من ينتصرون لعلى أو يتشيعون له ، وقد انضم الى هذا الحزب كل الشانئين والمتذمرين من العرب وغيرهم ، ومن الموالى بوجه خاص ، وصنع رجال هذا الحزب لأنفسهم مبدأ خاصا ، وفلسفوا هذا المبدأ فلسفة تأثروا فيها الى حـد بعيـد بنظريات الحكم عنـد الفرس التى كانت تؤمن بحق الملك المقدس وحجر الزاوية فى هذا المبدأ عقيدتهم فى الامامة ، وبنوا هـذه العقيـدة عـلى حديث نبوى ، فقالوا ان الرسول عليه السلام مر عند أوبته من حجة الوداع بغدير خُم — وهو مكان بين مكة والمدينة — وعند هذا الغدير آخى بينه وبين ابن عمه على وقال : « علىّ مولاى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

وقالوا استنتاجا من هذا ان هذا الحديث يتضمن مبايعة ضمنية من محمد لعلى ، وان عليا وصىّ الرسول ، أوصى له بالامامة من بعده لشروط خاصة ينفرد بها ، ولعلوم لدنية تلقاها عنه ، وان الامامة يجب أن تنتقل من على الى أولاده الواحد بعد الآخر لأن هذه الشروط والعلوم تنتقل فى نسل على بطريق الوراثة من الابن الى الابن .

ولهذا وقف أتباع هذا الحزب فيما بعد الى جانب أولاد على يحرضونهم على المناداة بحقهم فى الخلافة ، فرشحوا أولا الحسن بن على ليلى أمر المسلمين بعد مقتل أبيه ، ولكن الحسن كان رجلا بعيد النظر ، فرأى أن أهل الشام ومصر والحجاز واليمن قلوبهم مـع

معاوية ، ورأى أن أهل العراق الذين تقاعسوا عن نصرة أبيه لا يمكن — مع تحمسهم لعلى وأولاده — أن يتقدموا لنصرته ضد معاوية ، فآثر أن يسالم معاوية وقنع منـه بمعاهدة عقدها معه فيها شروط خاصة له ولأتبـاعه ، واستقر بعد ذلك فى مدينة الرسول حيث قضى بقية حياته الى أن توفى سنة ٥٠ هـ .

ولبث معاوية — وهو خليفة — يستميل الناس ويصطنعهم لنفسه ولأسرته بالسياسة واللين وبالكرم والعطاء تارة أخـرى حتى استطاع أن يخمد دعـوة الشيعة ويسكتها مؤقتا ، وحتى استطاع أن يرسى أسس الحكم والسيادة لبنى أمية على قواعد متينة بأن أخذ البيعة لابنه يزيد قبل موته ، وبهذا استن للخلافة نظاما جديدا ، وقلبها من نظام شورى هو أقرب شىء الى النظام الجمهورى الى ملك وراثى .

ولم تكن هـذه التجـربة لتمر فى يسر وسـهولة ، فلم يكد يزيد يلى الخلافة حتى تجددت الفتنة وثارت أهم المدن الاسلامية ، وخاصة مكة والكوفة .

ففى مكة ثار عبد الله بن الزبير ، ولثورته قصة أخرى ليس هنا مجال الحديث عنها ، وفى الكوفة ثار الشيعة وأرسلوا للحسين بن على يطلبونه اليهم ، ويحرضونه على المطالبة بالخلافة فهو أحق بها من يزيد بن معاوية ، وأحسن الحسين الظن بأهل الكوفة ، وسارع اليهم ، غير أنهم تخلفوا عن نصرته وتقـدم عبيـد الله بن زياد — عامـل يزيد على العراق — لمقاتلته ، ولم يستطع الحسين أن يقف أمامه بجيشه القليل (نحو ٨٠ رجلا) ، فهزم هزيمة نكراء وقتل قتلة شنيعة فى موقعة كربلاء المشهورة بعد أن قاسى كثيرا من شدة العطش وبعد أن قتل كل رجاله ، وحمـل رأسه بعد ذلك الى يزيد .

كان لموقعة كربلاء أثر جد خطير فى تطور الحوادث بعد ذلك ، فقد أصبح الحسين أبا للشـهداء ، وأصبحت كربلاء رمـزا للاستشهاد ، وهبَّ الشيعة فى كل مكان يطالبون بثأر الحسين ، ولهذا نرى أن النزاع بين الأمويين والعلويين قد اشتد واحتدم بعد مقتل الحسين .

وظل الشيعة طول العصر الأموى يطالبون بأحقية أولاد على فى الخلافة غير أنهم انقسموا فرقا فمنهم من دعا لأولاد الحسن ومنهم من دعا لأولاد الحسين ومنهم من دعا لمحمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم ، واعتبرت الدولة الأموية هذه الحركات جميعا حركات ثورية وعاملتها بما تعامل به الدولة القوية كل ثائر أو خارج على طاعتها ، وظهر فى الوقت نفسه فرع آخـر من البيت الهاشمى وهو فرع بنى العباس يطلب الخلافة لنفسه ، واسـتغل العباسيون ضعف الشيعة العلوية وانقسامهم ومكروا بهم ، فجعلوا الدعوة عامة شاملة « للرضا من آل محمد » يريدون بذلك أن يضمنوا ولاء الشيعة العلوية من ناحية ، وأن

يخفوا اسم صاحب دعوتهم حتى لا يتتبعه الأمويون باضطهادهم وعذابهم .

ونجح العباسيون فى القضاء على دولة بنى أمية وفى الوصول الى عرش الخلافة ، ولم ينس العلويون دعوتهم ، بل اعتبروا أبناء عمومتهم مغتصبين لحقهم ، وقام فى العصر العباسى أفراد كثيرون معظمهم من الفرع الحسينى يطلبون الخلافة ، وعنف بهم العباسيون أضعاف ما كان يعنف بهم الأمويون ، فاضطهدوهم وطاردوهم وقاتلوهم فى كل مكان خرجوا فيه ، ولهذا تحولت الدعوة من العلن الى السر تقية وصيانة لأشخاص الأئمة أصحاب الدعوة .

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب

وكان الاسماعيلية — وهم الذين ينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق — أنشط من غيرهم ، فقد بثوا الدعاة فى أنحاء الدولة الاسلامية المختلفة ، وفى الأنحاء القاصية بوجه خاص ، مثل اليمن وبلاد المغرب .

ففى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة كان فى بلاد المغرب داعيان هما : الحلوانى وأبو سفيان ، وفى اليمن داعيان آخران هما : ابن حوشب وأبو عبد الله الشيعى ، وأهم هؤلاء جميعا أبو عبد الله الشيعى فانه المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية الاسماعيلية فى المغرب كما كان أبو مسلم الخراسانى المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى المشرق ، ومن العجيب أن خاتمة الرجلين كانت واحدة ، فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم كما قتل عبيد الله المهدى أبا عبد الله الشيعى .

كان أبو عبد الله الشيعى يمنى الأصل من مدينة صنعاء ، وقد ولى الحسبة وقتا ما فى بغداد ، ثم ترك منصبه وسار الى اليمن داعية من الدعاة حيث اتصل هناك بابن حوشب ، وأصبح من كبار أخصائه وأصدقائه ، فلما علم ابن حوشب بموت الحلوانى وأبى سفيان الداعيتين بالمغرب أوفد أبا عبد الله اليها وقال له : « ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سيفان ، وقد ماتا ، وليس لك غيرها ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك .. » .

وخرج أبو عبد الله من اليمن الى مكة ، وفى موسم الحج تعرف على الحاج من قبيلة كتامة ، وتقرب اليهم ، وتظاهر بالزهد والتقشف حتى أعجبوا به ووثقوا فيه ، وصحبهم فى عودتهم الى بلادهم ، ونزل بينهم ، وتسامعت به قبائل البربر ، ووفدت عليه من كل مكان فعظم أمره وكثر أنصاره ، وعند ذلك كشف عن شخصيته ، وأعان عن أغراضه .

وبعد ثلاث سنوات من وصوله الى بلاد المغـرب أى فى سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣) بدأ جهوده الحربيـة فخضعت له مدن كثيرة ، وساعده على هذا النجاح ما كان قد أصاب الدولة الأغلبية صـاحبة الحكم فى تونس حينذاك من ضعف وانحلال .

وعند ذلك أرسل أبو عبـد الله الى عبيد الله المهـدى — الامام الاسماعيلى صاحب الدعـوة — وكان يقيم فى مدينة سلمية بالشام ، يستدعيه للحضور الى بلاد المغرب ، فأسرع بتلبية الدعوة ، وخرج من الشام ومعه أموال وفيرة ، ويقال ان الخليفة العباسى علم بخروجه فأرسل الى عمـاله فى مصر وافريقية يوصيهم بالقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع بالتستر تارة ، وببذل المال تارة أخرى أن يفر من مراقبة الولاة ، وانتهت به الرحلة الى مدينة سجلماسة فى المغـرب الأقصى حيث قبض عليه واليها وسجنه بها .

وفى سنة ٢٩٦ هـ تم لأبى عبد الله النصر النهائى على الدويلات القائمة فى شـمال افريقيا : دونة بنى مدرار فى سجلماسـة ، ودولة بنى رستم فى تاهرت ، ودولة الأغالبة فى افريقيـة (تونس) ، وأطلق سراح عبيد الله ، فقاد الجيش بنفسه ، وسـار حتى دخل مدينة رقادة فى سـنة ٢٩٧ هـ ، ونزل بقصر من قصورها ، وفى يوم الجمعة خطب باسـمه على منابر رقادة والقيروان — بعد أن قضى نهائيا على ملك الأغالبة — ولقب بأمير المؤمنين عبيد الله المهدى .

وهكذا نجح الشيعة الاسـماعيلية فى الوصول الى عرش الخلافة بعد جهاد طويل مرير ، كان بعضه فى العلن الى عهد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وبعضه فى السر ويمتد من محمد بن اسـماعيل الى نجاح الدولة وظهور عبيد الله ، ويعرف هذا العهد الثانى بعهد الكتمان ، فقد كتمت فيه أسماء الأئمة تقية وخوفا وكان يقوم بالدعوة العلنية ويشرف على توجيهها الأئمة المستودعون من نسل عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هنـا ثار الجدال حول صحة النسب الفاطمى فقد أصـبح كتمان أسماء الأئمة المستقرين من محمد بن اسماعيل الى عبيد الله المهدى جزءا من المذهب ، ولم يكن الخلفـاء الفاطميون يسيغون اعلان هذه الأسماء حتى بعد نجاح الدعوة وتوليهم الخلافة ، ومن هذه الثغرة دخل أعداء الدولة الفاطمية من العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس للطعن فى نسب الأئمة الفاطميين يريدون بذلك أن يقوضوا الدعائم التى قامت عليها الدولة .

والى هذا الشك — الذى ثار حـول نسب عبيد الله المهدى منذ اللحظة الأولى — يرجع بعض المؤرخين السبب فى النزاع الذى قام بين عبيد الله وقائده أبى عبد الله ، والذى انتهى بقتل هذا الأخير بعد قيام الدولة بنحو عـام .

الخلفـــاء الفاطميون

١ — فى المغرب

١ — ٤ ربيع الآخر ٢٩٧ (٩٠٩)	المهدى أبو محمد عبيد الله	ت ١٤ ربيع الأول	٣٢٢
٢ — ١٤ ربيع الأول ٣٢٢ (٩٣٤)	القائم بأمر الله أبو القاسم نزار	ت ١٣ شوال	٣٣٤
٣ — ١٣ شوال ٣٣٤ (٩٤٥)	المنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل	ت ٢٩ شوال	٣٤١
٤ — أول ذى القعدة ٣٤١ (٩٥٢)	المعز لدين الله أبو تميم معد	ت ٣ ربيع الآخر	٣٦٥

٢ — فى مصر

(وفى شعبان ٣٥٨ فتحت مصر ، وفى رمضان ٣٦٢ دخل المعز القاهرة)

٥ — ربيع الآخر ٣٦٥ (٩٧٥)	العزيز بالله أبو منصور نزار	ت ٢٨ رمضان	٣٨٦
٦ — ٢٩ رمضان ٣٨٦ (٩٩٦)	الحاكم بأمر الله أبو على منصور	اختفى فى ٢٧ شوال	٤١١
٧ — ١٠ ذو الحجة ٤١١ (١٠٢٠)	الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على	ت ١٥ شعبان	٤٢٧
٨ — ١٥ شعبان ٤٢٧ (١٠٣٥)	المستنصر بالله أبو تميم معد	ت ١٨ ذو الحجة	٤٨٧
٩ — ذو الحجة ٤٨٧ (١٠٩٤)	المستعلى بالله أبو القاسم أحمد	ت ١٤ صفر	٤٩٥
١٠ — ١٤ صفر ٤٩٥ (١١٠١)	الآمر بأحكام الله أبو على منصور	قتل ٢ ذو القعدة	٥٢٤
١١ — ١٥ المحرم ٥٢٥ (١١٣٠)	الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد المجيد	ت ٥ جمادى الآخرة	٥٤٤
١٢ — ٦ جمادى الآخرة ٥٤٤ (١١٤٩)	الظافر بأمر الله أبو منصور اسماعيل	قتل ٣٠ المحرم	٥٤٩
١٣ — أول صفر ٥٤٩ (١١٥٤)	الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى	ت ١٧ رجب	٥٥٥
١٤ — رجب ٥٥٥ (١١٦٠)	العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله	خلع ٣ المحرم، ومات ١٠ المحرم	٥٦٧

الأيوبيون

قضت الدولة الفاطمية فى المغرب — منذ قيامها الى أن انتقلت الى مصر — نيفا ونصف قرن ، وتولى الحكم فى هذه المدة أربعة من خلفائها ، هم : المهدى أبو محمد عبيد الله القائم بأمر الله أبو القاسم نزار ، والمنصور بنصر الله أبو الطاهر اسماعيل ، والمعز لدين الله أبو تميم معد .

وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهودا كثيرة للتمكين للدولة وتقويتها ، فقضوا على كل القوى المعارضة .

وبعد أن ذلل المهدى الصعوبات الأولى التى اعترضت طريقه ، وبعد أن هدأت الفتن فى ملكه ودان له الجميع بالولاء ، بدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة لدولته ، لأنه لم يكن يأمن لأهل القيروان — عاصمة الأغالبة — فخرج يرتاد موضعا قريبا على ساحل البحر ، فلم يجد أحسن ولا أحصن من موضع المهدية « وهى جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزَند » ، فبنى هناك فى ذى الحجة سنة ٣٠٣ هـ عاصمته الجديدة ، وبنى حولها سورا شاهقا من الحجر الأبيض لحمايتها والدفاع عنها ، وجعل للسور أبراجا وأبوابا عظيمة ، وكان عبيد الله يدرك أن دولته الجديدة لا تزال تحيط بها الأخطار من الداخل والخارج ، فاتخذ فى مدينته الجديدة كل وسائل الدفاع التى يقتضيها عصره ، فأمر أن تنقر دار صناعة فى الجبل تسع مائتى شينى (نوع من السفن الحربية) وعليها باب مغلق ، وأنشأ فى باطن أرضها أهراء للطعام ومصانع للماء ، ولما انتهى من انشاء هذه التحصينات بنى فيها الدور والقصور .

وقد بنى ابن القائم بعد ذلك فى سنة ٣١٥ مدينة أسماها المحمدية ، كما بنى المنصور فى سنة ٣٣٨ مدينة ثالثة أسماها المنصورية أو المنصورة ، وهما مدينتان داخليتان غير أنه لم يكن لهاتين المدينتين من الشأن أو الأثر فى سياسة الدولة وحياتها قدر ما كان للمهدية ، فقد كانت المهدية مركزا حصينا يعتمد على البحر اذا نشبت ثورة فى الداخل ، كما كانت مركزا مناسبا لارسال الحملات الحربية المتتابعة لاخضاع الثورات التى قامت فى صقلية أو لمهاجمة شواطىء ايطاليا ومدنها الساحلية والجزر المحيطة بها مثل جزيرتى كورسيكا وسردينيا .

لم يصفُ الملك لدولة الفاطميين بعد قيامها ، بل اعترضتها صعوبات كثيرة كان أشدها وأخطرها ثورة البربر — السكان الأصليين — بزعامة أبى يزيد الخارجى ، وذلك أن الدولة اعتمدت عند قيامها على قبيلتين كبيرتين من قبائل شمال افريقيا وهما قبيلة كتامة وقبيلة صنهاجة ، أما عامة البربر — وهم قوم فى طبيعتهم حب للثورة والخروج ، ويميلون للحرب والقتال — فلم يدينوا للفواطم بالولاء ، بل لعله آذاهم

أن تنجح هـذه الدولة العربية الوافدة من المشرق فى تكوين ملك لها جديد فى بلادهم ، ولذلك لم يكد يعلن أبو يزيد الخـارجى العصيان على الدولة حتى التفت حوله معظم قبائل البربر ، وناصروه مدة طويلة الى أن تمكن خلفاء الفاطميين من القضاء على هـذه الفتنة .

وثورة أبى يزيد فى الواقع ثورة قومية مذهبية ، فهى ثورة قومية لأن البربر — وهم السكان الأصليون لشمال افريقيا — انما قاموا للقضاء على هـذا الغزو الخارجى ولاسترداد استقلالهم ، وهى ثورة مذهبية لأن زعيمها أبا يزيد كان من الخـوارج النكادية ، فهو لا يؤمن بمبادىء الشيعة التى قامت على أسسها الدولة الفاطمية .

وقد بدأ أبو يزيد يستكثر من الأنصار فى خلافة المهدى ، غير أنه لم يشتد بأسه الا فى عهدى القائم والمنصور ، فقد بدأ ثورته على الدولة فى سنة ٣٣٢ هـ ، وظلت فتنته قائمة حتى سنة ٣٣٦ ، وكانت فتنة خطيرة كادت تقضى على الدولة فى مهدها ، وبذل الخليفتان القائم والمنصور جهودا جبـارة فى مقـاتلة أبى يزيد وأتباعه وجيشه الى أن تمكن القائم أخيرا من القضاء على هـذه الفتنة وقتل زعيمها ، وبذلك استقرت الدولة على أسس قوية متينة ، وبدأت توجه جهـودها نحو توسيع ملكها غربا وشرقا .

قام الخلفاء الفاطميون الثـلاثة الأول بمحاولات لتوسيع ملكهم غربا غير أن هذه المحاولات لم يكن لها من الشأن والخطورة ما كان لمحاولة الخليفة الرابع المعز لدين الله ، وذلك أن تنظيم الدولة الجـديدة وثورة أبى يزيد استنفدتا جهـود هؤلاء الخلفاء الثلاثة وشغلتاهم عن التفـكير الجدى فى توسيع ملكهم واخضاع بقية شمال افريقيا ، فلما ولى المعـز عرش الخلافة ، استمال اليه — بالسياسة والاحسان — بقية الثائرين من قبائل البربر ، وفى سنة ٣٤٧ أعد جيشا عظيما ، وجعل قيادته لرجلين : وزيره جوهر الصـقلى ، وزيرى بن منـاد الصنهاجى ، وأمرهما بالمسير الى المغرب الأقصى وفتحه .

وسار الجيش الى أن وصل مدينة فاس فاستعصت عليه قليلا ، فتركها الى سجلماسة ، وكان يحكمها محمد بن واسول ، وكان قد لقب نفسه بالشـاكر لله وخوطب بأمـير المؤمنين وضرب السكة باسمه مدة ستة عشر عاما ، فلما سمع بمقدم جوهر فر من المدينة ، ثم أسر وحمل الى جوهر بعد أن استولى على المدينة .

وترك جوهر سجلماسة وتقدم حتى وصل الى المحيط الأطلسى « فأمر أن يصطاد له من سمكه ، فاصطادوا له ، فجعله فى قلال الماء ، وحمله الى المعز » ، وقصد جوهر فى عودته الى فاس وظل محاصرا لها الى أن استولى عليها ، وبذلك امتد ملك المعز من تونس الى المحيط الأطلسى ، يقول ابن تغرى بردى فى ترجمته للمعز : « ووطأ له جوهر من افريقية الى البحر سوى مدينة سبتة ، فانها بقيت لبنى أمية أصحاب الأندلس » .

كان الغرض الأساسى الذى سعى العلويون دائما لتحقيقه هو تكوين خلافة جديدة تقضى على الخلافة العباسية السنية وترثها فى ملك العالم الاسلامى ، وقد رأينا كيف نجح الفاطميون فى تحقيق الشطر الأول من غرضهم فأقاموا دولتهم فى المغرب ، ولكنهم لم ينسوا بعد نجاحهم الشطر الثانى والأهم وهو القضاء على الدولة العباسية ، ومصر هى أول جزء من أملاك العباسيين يجاور الدولة الفاطمية من ناحية الشرق .

لهذا كانت مصرحلم الفاطميين منذ اللحظة الأولى ، ولهذا لم تكد الأمور تستقر نوعا ما للمهدى — الخليفة الأول — حتى أعد العدة للاتجاه شرقا وغزو مصر ، فأرسل فى سنة ٣٠١ جيشا لتحقيق هذا الغرض ثم أرسل فى سنة ٣٠٧ حملة أخرى ، ولكنهما منيا بالفشل ، وقد حذا حذوه ابنه القائم فأرسل فى سنة ٣٢١حملة ثالثة — ولكنها لم تكن أسعد حظا من سابقتيها ، ولم يكتب النجاح الا للغزوة الرابعة التى تمت فى عهد المعز لدين الله .

وقد ساعد على نجاح هذه الغزوة الرابعة أمور كثيرة ، أهمها ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الأخشيدية صاحبة السلطان الفعلى فيها .

أما الخلافة العباسية فقد بدأت عوامل الضعف تتسلل الى كيانها فى العصر العباسى الثانى ، فاستبد الأتراك بشئون الحكم الفعلية حتى غدا الخلفاء كالدمى فى أيديهم يحركونهم كيف شاءوا ، وانطبق عليهم عند ذاك قول الشاعر :

خليفة فى قفص
بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له
كما تقول الببغا

وأدى هذا الضعف الى اجتراء كل طموح أو محب للشغب أو راغب فى السلطة الى الثورة ، فقامت ثورة الزنج فى اقليم البصرة والجزء الجنوبى الغربى من فارس ، وظلت مشتعلة خمس عشرة سنة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، ثم تلتها ثورة القرامطة الذين تقدموا حتى ملكوا بادية الشام وجنوبه وهددوا حدود مصر الشرقية ، وعاثوا فى الجزيرة العربية فسادا ، واستلبوا الحجر الأسود حيث بقى معهم مدة اثنين وعشرين عاما ، ولم يردوه الا بعد أن دفع لهم الخليفة العباسى مبلغا كبيرا من المال ، وصاحب هذه الثورات انفصال الأطراف وقيام دول مستقلة فيها .

ففى الشرق قامت الدول الصفارية والسامانية والطاهرية ، وفى الغرب قامت الدولتان الطولونية والأخشيدية .

وفى قلب الدولة نفسها ، فى العراق قامت دول ملكت زمام الحكم فى أيديها ،

ففى الشمال قامت الدولة الحمدانية فى نواحى الموصل وحلب ، وطالما حاولوا دخول بغداد نفسها ، وفى العاصـمة بغداد قامت الدولة البويهية فى سنة ٣٣٤ هـ ، واستبدت بأمور الخلافة جميعا ، وأصبحت للبويهيين الكلمة الأولى والعليا فى تولية الخلفاء وعزلهم بل وقتلهم ، وصدق بذلك قول البيرونى فيهم : « ان الدولة والملك قد انتقلا من آل العباس الى آل بويه والذى بقى فى أيدى الدولة العباسية انما هو أمر دينى اعتقادى ، لا ملكى دنيوى » [١] .

وفى مصر انتهت الأمور بعد موت محمد ابن طغج الأخشيد فى سنة ٣٣٤ الى الضعف اذ لم يخلفه أحـد من نسله له مقـدرته وشجاعته ، حقيقة لقد استبد كافور بالحكم دون ولدى الأخشيد ، فاستطاع أن يخمـد الثورات التى نشبت وأن ينتصر عـلى الحمدانيين ، ولكن هذه الوثبة كانت أشبه شيء بصحوة الموت ، فقد ساءت أحـوال البلاد الاقتصادية ففى سـنة ٣٥٢ هـ قصّر النيل فى فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد نتجت عنه مجاعة ظلت نحو تسع سنوات ، قاسى المصريون فى خلالها الشدائد ، فحدث فى سنة ٣٥٣ هـ مثلا أن « عظم الغـلاء ، وانتقضت الأعمـال لكثرة الفتن ، ونهبت الضياع والغلات ، وماج النـاس فى مصر بسبب السعر ، فدخلوا الجـامع العتيق بالفسطاط فى يوم جمعة ، وازدحموا عنـد

(١) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢،

المحراب ، فمات رجـل وامرأة فى الزحام ، ولم تُصلّ الجمعة يومئذ .. » .

« وفى سنة ست وخمسين لم يبلغ النيل سوى اثنى عشر ذراعا وأصابع ، ولم يقع مثل ذلك فى الملة الاسلامية ، وكان عـلى امارة مصر حينئذ الأستاذ كافور الأخشيدى ، فعظم الأمر من شدة الغلاء » .

وفى سنة ٣٥٧ هـ مات كافور ، فانهارت المقاومة « وكثر الاضطراب ، وتعـددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجنـد والأمراء قُتل فيها خلق كثـير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضـع عديـدة فاشتد خوف النـاس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل ويبة بدينار ، واختلف العسـكر : فلحق الكثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طغج — وهو يومئذ بالرملة — وكاتَبَ الكثيرُ منهم المعـز لدين الله الفاطمى ، وعظم الارجاف بمسـير القرامطة الى مصر ، وتواترت الأخبار بمجيء عساكر المعز من المغرب ، الى أن دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ودخل القـائد جوهر بعساكر الامام المعز لدين الله .. » [١].

هذه صورة رائعة للحالة فى مصر قبيل الغـزو الفاطمى ، رسمها بقلمه المبدع تقى الدين المقـريزى زعيـم مؤرخى مصر الاسـلامية ، ويستطيع أى فنان أن يحيلها بريشته وألوانه الى لوحة ناطقة نرى فيهـا

(١) المقريزى : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ١٢ — ١٣ .

عوامـــل الضعف وأسباب الانهيـار وقد تشابكت وأخذ بعضها بخناق بعض ، فالنيل قد قصر فى فيضانه سنة بعد أخرى ، والأسعار قد ارتفعت ، والأقوات قد شحت والمجاعة قد عمت ، والوباء قد انتشر ، والجيش قد انقسم الى فرق وشيع ، فلحق نفـر منهم بحاكم فلسطين الأخشيدى ، وكاتب نفر آخر المعز لدين الله فى المغرب ، والأعداء الطامعون يحيقون بمصر من شرق ومن غرب ويطرقون أبوابها ، فمن الشرق القرامطة ، ومن الغرب الفاطميون ، والشعب وسط هذا كله تائه ضائع قد تملكه الخوف واســتولى عليه الفزع ، يثور مرة فلا يملك الى أن يلجأ الى المسجد الجامع فى عاصمة الفسطاط ، ثم يدور ببصره فى كل الأنحاء يبحث عن منقذ ، ولكن البصر يرتد اليه خاسئا وهو حسير ، فيلتمس المنقذ من الخارج ، ويرجف بقرب مقـــدم القرامطة ، ويتحدث عن مجىء المعز لدين الله .

وكانت عين المعز فى ذلك الوقت عـلى مصر ترقب مصائر الأمور فيها ، وكان دعاته منبثين فى ربوعها ينشرون الدعوة له ويمهدون السبيل لمجيئه ، وكان هو يعد العدة للغزو ، فجمع كل ما استطاع جمعه من مال حتى ليقال انه صرف على اعداد الجيش أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف جمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة ؛ وحشد للجيش كل من استطاع حشده من جنده ، حتى ليقال انه كان يزيد على مائة ألف جندى ، وحتى وصفه أحد المصريين عنـد رؤيته بأنه « مثل جمع عرفات كثرة وعدة » .

واختار المعز لقيادة هذا الجيش قائده القدير « جوهر الصقلى » الذى مهد له ملك شمال افريقيا كله ، فقد كان يتفاءل به ويؤمن بمقدرته الحربية حتى لقد قال مرة لزعماء المغرب « والله لو خرج جوهر هذا وحــده لفتح مصر » .

وخرج جوهر بجيشه فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ وسار فى نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد روميل ، ولكنه كان يعلم مبلغ ما يعانيه الجيش من صعاب وعقبات عند عبوره هذه الصحراء الممتدة الجدباء ، ولهذا فقد عبـد الطرق ، وحفر الآبار ، وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس الى مصر .

ووصل جوهر الاسكندرية ودخلها دون قتال ، فلما وصلت الأخبـــار بمقدمه الى الفسطاط اضطرب أهلها وتملكهم الذعر ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات أن يرسل فى طلب الصلح والأمان ، فكون الوزير وفدا من أعيان البلد ، وجعل على رأسه الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ، وسار الوفد حتى قابل جوهـر — وكان فى طريقه من الاسكندرية الى الفسطاط — فقبل دعوتهم ، وكتب لهم أمانا ، وعدهم فيه بما يأتى :

١ — اعزاز المصريين وحمايتهم والجهاد عنهم .

٢ — نشر الأمن ، وتأمين طريق الحج الذى تعطل بسبب غارات القرامطة .

٣ — معالجة الحالة الاقتصادية وتجديد السكة وتنظيم أمور المواريث .

٤ — ترميم المساجد وتزيينها بالفرش والايقاد ، وأن تصرف للمؤذنين وقومة المساجد وأئمتها أرزاقهم من بيت المال .

٥ — أن تكفل الحرية الدينية للمصريين يتبعون المذهب الذى يريدون ويؤدون فرائضهم فى المساجد فى حرية تامة .

٦ — أن تتمتع الأقليات غير الاسلامية بالحرية الدينية كذلك .

وعاد الوفد الى الفسطاط ، فقرأوا العهد والأمان على الوزير والجند وعلم به الناس ، أما العامة فقد رضيت به ، وأما الجند فقد انقسموا على أنفسهم ، وأصر الأخشيدية والكافورية على القتال ، وعبروا الى الجيزة وتحصنوا بها ، غير أنهم لم يكونوا على شىء من القوة ، كما كانت تنقصهم الوحدة والقيادة الحكيمة ،فلم يلبثوا بعد اشتباكهم فى القتال مع جيش جوهر أن هزموا وولوا الأدبار .

وشاع الذعر ثانية بين الناس فى الفسطاط وطلبوا الى الشريف أبى جعفر مسلم أن يسأل جوهر اعادة الأمان ، ففعل ، وأعيد الأمان وهدأت النفوس ، وخرج الوزير جعفر ابن الفرات ومعه الأشراف ووجوه البلد يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ لمقابلة جوهر ، ودخل جوهر الفسطاط على رأس جيشه والشريف أبو جعفر عن يمينه والوزير ابن الفرات عن شماله ، وشق المدينة ونزل فى مناخه الذى هو موضع القاهرة الآن .

مصر فى العصر الفاطمى

تأسيس القاهرة

كانت العاصمة الأولى الاسلامية هى الفسطاط التى أسسها عمر بن العاص ، ولما فر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية الى مصر تبعه القائد العباسى صالح بن على ، ونزل بعساكره شمال الفسطاط ،وبعد أن هزم مروان وقتله بنى عاصمة جديدة حيث نزل بجنده ، وأسماها العسكر ، وبعد أن استقل أحمد بن طولون بمصر أنس عاصمته الجديدة القطائع شمال شرقى العسكر ، ولما خضعت مصر لجوهر مر بجنده فىالفسطاط — كما ذكرنا — ثم تركها ونزل بجنده فى المناخ الواقع شمال شرقى القطائع ، ووضع أساس العاصمة الفاطمية الجديدة — القاهرة — فى نفس الليلة — ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ .

وكان موقع المدينة قبل تأسيسها صحراء مغطاة بالرمال يمر بها الناس فى مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، ولم يكن بها عند نزول جوهر سوى بستان الاخشيد المعروف

بالبستان الكافورى ، ودير للنصارى يعرف بدير العظام وبناء يعرف بقصير الشوك ، وقد بنى مكانه بعد تأسيس القاهرة أحد قصور الفاطميين الكبيرة وسمى بقصر الشوك .

وقيل فى سبب تسمية المدينة بالقاهرة أن جوهرا لما أراد تأسيس العاصمة الجديدة أحضر المنجمين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس ، فجعلوا بدائرة السور قوائم من خشب ، ووصلوا بين كل قائمتين بحبل علقوا فيه أجراسا، وقالوا للعمال : اذا تحركت الأجراس فألقوا ما بأيديكم من طين وحجارة، وبينا العمال منتظرون اذ وقف غراب على أحد تلك الحبال ، فتحركت الأجراس جميعا وبدأ العمال فى البناء ، فصاح المنجمون : لا ، لا ، القاهرة فى الطالع ، فسميت المدينة بالقاهرة — والقاهر هو المريخ .

ولكننا لا نميل الى تصديق هذا الرأى ، فهو أقرب الى القصص الخيالية ، ويؤيدنا فى شكنا المقريزى نفسه راوى هذه القصة ، فانه يقول فى موضع آخر ان جوهرا « لما سار من الجيزة بعد زوال الشمس من يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ٣٥٨ بعساكره ، وقصد الى مناخه الذى رسمه له مولاه الامام المعز لدين الله أبو تميم معد ، واستقرت به الدار اختط القصر وأصبح المصريون يهنئونه فوجدوه قد حفر الأساس فى الليل ، فأدار السور اللبن ، وسماها المنصورية ، الى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب الى مصر ، ونزل بها فسماها القاهرة » [1] .

وهذا فيما نرى السبب الصحيح لتسمية القاهرة ، فان جوهرا عندما وضع الأساس للمدينة الجديدة سماها « المنصورية » ، ولعله كان يريد أن يتقرب الى خليفته المعز باحياء ذكرى والده الخليفة المنصور ، فسمى العاصمة الجديدة باسمه ، واختار لها موقعا خارج العاصمة القديمة الفسطاط لينزل بها الجند ، كما كانت المنصورية خارج القيروان ، وسمّى بابين من أبواب المدينة الجديدة باسمى: زويلة والفتوح ، وهما اسمان لبابين بمدينة المنصورية فى المغرب . فلما أتى المعز الى مصر سماها « القاهرة » تفاؤلا ، يريد بذلك أنها ستقهر الدولة القديمة التى قام الفاطميون لمنافستها والقضاء عليها ، وهى الخلافة العباسية ، فالمعز نفسه هو صاحب هذه التسمية ، وقد اختارها ، وهو بعد فى المغرب ، فقد روى أنه قال عند وداعه لجوهر أمام جمع من شيوخ كتامة : « والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر ، ولتدخلن الى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون ، وتبنى مدينة تسمى القاهرة ، تقهر الدنيا » [2] .

ومما ينفى قصة الغراب والحبال نفيا

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، ص ١٦٢ .

باتا أن المسعودى [1] يروى قصة شديدة الشبه جدا بهذه القصة وينسبها الى الاسكندر عند بنائه الاسكندرية ، فلعل المقريزى نقلها عن مراجع متأخرة شبِّه عليها الأمر عند الكلام عن قاهرة المعز ، فاقتبست ما قيل عن اسكندرية الاسكندر .

وأول ما بنى فى القاهرة القصر الكبير ليكون سكنا للخليفة وأتباعه ، ومقرا لدواوين الحكم ، وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ .

وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش فى مكان خاص بها ، وسميت خططها بالحارات ، ومنها حارة زويلة ، ونزلت بها قبيلة زويلة ، وحارة كتامة ، ونزلت بها قبيلة كتامة ، وحارة البرقية ، ونزل بها قوم من برقة .. وهكذا .

ويقال فى سبب اختيار جوهر لهذا المكان كى يبنى مدينته عليه انه رغب « أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها ، فأدار السور اللبن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره ، وأنشأ من داخل السور جامعا وقصرا ، وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره ، واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة الى القاهرة وما وراءها من المدينة » [1] .

وكانت القاهرة عند انشائها صغيرة المساحة ، ويقدر على مبارك فى كتابه الخطط أن كل جانب من جوانبها كان يبلغ وقتئذاك ألفا ومائتى متر ، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر) ، وكان القصر يشغل خمس هذه المساحة ، أى نحو سبعين فدانا ، وكان بستان كافور يشغل عشر المساحة أى ٣٠ فدانا ، وكان الميدان المعد لعرض الجند يشغل ٣٥ فدانا أخرى ، أما الباقى وقدره مائتا فدان فقد خصص لنزول فرق الجند المختلفة .

وكان السور الأول الذى بناه جوهر من اللبن ، وقد أدرك المقريزى قطعة منه كانت باقية حتى سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) ، وأعجب ببنائه ، وذكر أن اللبنة الواحدة منه كانت قدر ذراع فى ثلثى ذراع ، كما ذكر أن عرض جدار السور عدة أذرع ، وأنه يسع أن يمر به فارسان .

وكان للسور عدة أبواب فى جهاته المختلفة ، فكان فى جهته القبلية بابان متلاصقان يقال لهما « بابا زويلة » ، وفى جهته البحرية بابان متباعدان ، هما : باب الفتوح ، وباب النصر ، وفى جهته الشرقية بابان ، هما : باب البرقية ، والباب الجديد ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وفى جهته الغربية بابان ، هما : باب القنطرة ، وباب سعادة . ثم أضيفت أبواب أخرى بعد نمو المدينة وتجديد السور .

ولم يكن هذا السور هو الوحيد الذى بنى حول القاهرة ، وانما بنى بعده سوران آخران : أحدهما بناه أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ليحيط بزيادات أضيفت الى القاهرة فى الجهتين البحرية والقبلية ، وكان هذا السور من اللبن وأبوابه من الحجارة ، ولا زال بابان من أبواب هذا السور ، وهما باب النصر وباب الفتوح موجودين حتى اليوم وعليهما نقوش تحمل اسم منشئهما (بدر الجمالى) وتاريخ انشائهما .

وبنى السور الثانى صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، بدأ عمارته سنة ٥٦٦ هـ وهو وزير للخليفة الفاطمى العاضد ، وفى سنة ٥٦٩ هـ عيّن قائده بهاء الدين قراقوش للاشراف على اتمامه ، وقد بنى هذا السور كله من الحجر ، وكان يضم داخله مدينتى القاهرة ومصر — أى الفسطاط — ولا تزال أجزاء منه باقية حتى اليوم جنوب أطلال الفسطاط ، وكان محيط هذا السور ٢٩٣٠٢ ذراع ، وكان يبدأ فى الشمال عند قلعة المقس (ميدان باب الحديد الحالى حيث كان يجرى النيل وقتذاك) ميناء القاهرة على النيل ، ويدور حول القاهرة والفسطاط جميعا ثم ينتهى جنوبا عند ساحل مصر (الفسطاط) ؛ وكان خارج السور خندق لحمايته وحماية المدينة ، وبذلك كان حدا المدينة الشمالى والجنوبى ينتهيان عند السور ، أما الحد الغربى فكان خليج أمير المؤمنين ، كما كان جبل المقطم هو الحد الشرقى .

وكانت القاهرة فى العصر الفاطمى ضاحية ملوكية ، يسكنها الخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وكانت — كما وصفها المقريزى — « معقل قتال يتحصن بها ويلتجأ اليها » ، فلما قدم الى مصر أمير الجيوش بدر الجمالى أثناء الشدة العظمى التى كانت فى عهد المستنصر وجد أن القاهرة مدينة خالية غير عامرة « فأباح للناس من العسكرية والملحية والأرمن ، وكل من وصلت قدرته الى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ومات أهله ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها ، وعمروا به المنازل فى القاهرة وسكنوها » (١).

ولما انتهت الدولة الفاطمية وولى حكم مصر السلطان صلاح الدين « نقلها عما كانت عليه من الصيانة ، وجعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور ، وحطّ من مقدار قصور الخلافة ، وأسكن فى بعضها ، وتهدم البعض ، وأزيلت معالمه ، وتغيرت معاهده ، فصارت خططا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة ، ونزل السلطان (صلاح الدين) منها فى دار الوزارة الكبرى .. الخ » .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

ثم تخطيط القاهرة بعد الفتح الفاطمى بعام ، وفى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩ هـ (٥ مايو سنة ٩٧٠ م) بدأ جوهر عمارة الجامع الأزهر فى الجنوب الشرقى من القصر الكبير ، وتم بناؤه بعد عامين ، ففتح للصلاة أول مرة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) .

وظل جوهر يحكم مصر ، ويمهد الفتوح فى الأقاليم المجاورة نحو أربع سنوات ، ولما تم له اخضاع مصر والشام والحجاز ، وبعد أن أكمل تأسيس القاهرة وبناء القصر والمسجد الجامع أرسل للمعز يستدعيه الى مصر ، وخرج المعز من المنصورية يوم الاثنين لثمان من شوال سنة ٣٦١ هـ ، وفى يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢هـ وصل القاهرة ، ولما دخل القصر خر ساجدا لله تعالى ثم صلى ركعتين .

الجامع الأزهر

كانت القاهرة — كما أسلفنا — رابعة العواصم المصرية فى العصر الاسلامى ،وكانت سياسة الدول الاسلامية تقضى بأن تنشأ فى كل عاصمة جديدة مسجد جامع ، وترجع هذه السياسة الى عهد عمر بن الخطاب ، فقد كتب الى ولاته على الأقاليم المفتوحة — ومنهم عمرو بن العاص — أن يتخذ كل منهم فى عاصمته مسجدا للجماعة ، واتباعا لهذه السياسة بنى عمرو مسجده فى الفسطاط ، فلما أنشئت العسكر فى أول العصر العباسى بنى فيها مسجد جامع ، وعندما أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع بنى فيها مسجده الجامع كذلك .

فهذه المساجد الجامعة كانت رمزا لظفر المسلمين ، وكانت مركزا للدعوة الدينية ، وفيها كانت تقام صلاة الجماعة ، وكان يؤم الناس فى الصلاة — فى العصر الأول — ولاة مصر ، فقد كان الغرض الأساسى من الفتوح الاسلامية نشر الدين الجديد ، ولذلك كانت ولاية الصلاة ذات أهمية كبرى ، فكان الوالى على مصر يجمع بين الولاية على صلاتها وخراجها ، أو يكتفى بولايته على صلاتها ، ويعين الى جانبه وال آخر على خراجها .

وكانت المساجد أيضا مقرا لدواوين الحكم ، ومجلسا للقضاة ،ومعهدا لنشر العلم، ومنبرا لاذاعة الأوامر الحكومية .

بنى الجامع الأزهر اذن وفى مصر مسجدان جامعان : جامع عمرو وجامع أحمد ابن طولون ، لأن جامع العسكر كان قد هدم وزالت معالمه ؛ وقصد الفاطميون ببناء هذا الجامع أن يكون مضلى للخليفة وجنوده ، وأن يكون مسجدا جامعا للعاصمة الجديدة ، وأن يكون مركزا لنشر الدعوة الشيعية ، وأن يكون رمزا لانتصار الدولة الجديدة على الدولة العباسية .

بدىء فى انشاء الجامع الأزهر فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) وتم بناؤه فى عامين وثلاثة أشهر ، وافتتح للصلاة أول مرة فى يوم الجمعة السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) .

وسمى الجامع عند انشائه جامع القاهرة — أى باسم العاصمة الجديدة — ، وظلت هذه التسمية غالبة عليه طول العصر الفاطمى ، ولم يُسمَّ بالجامع الأزهر الا فى تاريخ متأخر ، ودليلنا على ذلك أن معظم مؤرخى العصر الفاطمى — وفى مقدمتهم المسبحى وابن الطوير — يذكرون هذا المسجد دائما باسم جامع القاهرة ، وقلما يشيرون اليه باسم الجامع الأزهر .

ويرى البعض أن هذا المسجد سمى بالجامع الأزهر بعد انشاء القصور الفاطمية فى عهد العزيز بالله ، فقد كانت هذه القصور تسمى بالقصور الزاهرة ، ومن ثم أطلق على الجامع اسم الجامع الأزهر ، ولكننا نرجح أن هذه التسمية مشتقة من لفظ الزهراء ، لقب السيدة فاطمة الزهراء ، ابنة الرسول وزوج على بن أبى طالب ، واليها تنتسب الدولة الجديدة ، وباسمها تسمى .

ولبث الجامع الأزهر موضع عناية الخلفاء الفاطميين جميعا ورعايتهم فكان كل خليفة منهم يتولى الحكم يعمل على تجديده والزيادة فيه وتزيينه حتى زالت الدولة ، وبدأت فى مصر دولة صلاح الدين ، وهى دولة سنية قامت للقضاء على المذهب الشيعى ، فأهمل الجامع الأزهر ، لأنه كان المركز الرئيسى لنشر الدعوة الشيعية ، وأبطل الخطبة فى الجامع الأزهر قاضى القضاة فى عهد صلاح الدين ، واسمه صدر الدين عبد الملك ابن درباس ، فقد كان شافعى المذهب ، والمذهب الشافعى يمنع اقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد .

أبطل هذا القاضى الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرها بالجامع الحاكمى ، وظل الأزهر معطلا من اقامة الجمعة فيه نحو مائة عام حتى ولى عرش مصر الظاهر بيبرس ، فأعيدت الخطبة الى الجامع ، وعادت اليه أهميته ، وعنى به كثيرا فى عصر المماليك والعصور اللاحقة الى وقتنا الحاضر .

كان للأزهر عند انشائه الصفة الدينية الرسمية — شأنه فى ذلك شأن المساجد الجامعة الأخرى — ولكن لم يلبث أن اتخذ صفة أخرى هامة هى الصفة العلمية التعليمية، وذلك منذ فكر الفاطميون فى نشر مذهبهم الجديد بوساطة دروس تلقى فى حلقاته ؛ وقد كانت المساجد الجامعة التى بنيت قبله — وخاصة جامع عمرو — مراكز لنشر العلم ، وفى حلقاتها كانت تلقى الدروس فى الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب وسائر العلوم المختلفة ، غير أن مسجدى عمرو وابن طولون كانا قد اتخذا لهما فى العصر الاسلامى الأول تقاليد علمية خاصة ،

فكان من الأوفق اذن أن يكون المسجد الجامع الجديد هو المركز الجديد لنشر المذهب الجديد .

يقول المقريزى : « وفى صفر سنة خمس وستين وثلاثمائة جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر ، وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت .. وكان جمعا عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » ، فكانت هذه أول حلقة عقدت للتدريس فى الجامع الأزهر ، ثم تتابعت حلقات بنى النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعى .

وفى رمضان سنة ٣٦٩ (٩٨٠ م) جلس يعقوب بن كلس — وزير الخليفة العزيز بالله — وقرأ على الناس كتابا ألفه فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعيلية ، وكان يجلس بعد ذلك لقراءته فى الأزهر ، ويحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة .

ويعتبر الوزير ابن كلس أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهدا للدراسة المنظمة المنتظمة ، ففى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) استأذن ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء (أى الطلاب) للدرس والقراءة فى أوقات منتظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم خمسة وثلاثين فقيها ؛ ورتّب لهم العزيز — تنفيذا لاقتراح ابن كلس — أرزاقا وجرايات شهرية ، وبنى لهم دارا لسكناهم بجوار الجامع الأزهر ، « وخلع عليهم يوم عيد الفطر ، وحملهم على بغلات .. » ، « وكان لهم أيضا من مال الوزير صلة فى كل سنة .. » [١] .

فمنذ هذا التاريخ اتخذ الأزهر صفته التعليمية الجامعة ، فعيّن له طلبة متفرغون للدراسة ، ووفرت الدولة لهؤلاء الطلاب كل ما يعينهم على الدراسة والتحصيل حتى لا تشغلهم مطالب الحياة أو السعى وراء الرزق ، فرتبت لهم الأرزاق والجرايات ، وبنت لهم المساكن ، وقدمت لهم الكسوة فى كل عيد ، ويسرت لهم سبل الركوب والانتقال .

وظلت هذه الصفة التعليمية الجامعية مميزة للجامع الأزهر طول العصر الفاطمى فزاد عدد طلابه وأساتذته ، وكثرت أروقته وحلقات التعليم فيه ونمت الدراسة وازدهرت حتى بدأ يجتذب اليه الطلاب والعلماء من خارج مصر ، وتعطلت هذه الصفة التعليمية وقتا ما فى العصر الأيوبى ، ولكنها لم تلبث أن عادت اليه مرة أخرى أقوى وأعظم مما كانت عليه ، وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس ، وبرزت هذه الصفة بروزا واضحا فى عصر المماليك وما تلاه من عصور ، وساعد على هذا أن غزوات المغول فى المشرق قضت على

(١) المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص ٤٩ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٧.

معظم المدارس فيه ، وأن معاهد العلم والمساجد الاسلامية المزدهرة بالمغرب انتهى أمرها أيضا حوالى هذا العصر الى الضعف والانحلال ، وتوافد العلماء من الشرق ومن الغرب الى مصر يجدون فيها الملجأ والملاذ ، فأصبحت القاهرة فى العصر المملوكى مركز العالم الاسلامى وأصبح الأزهر قبلة طلاب العلم من مختلف جهات هذا العالم الاسلامى.

وقد مرت بالأزهر عصور ازدهار وعصور اضمحلال ، ولكنه قاوم الأعاصير التى قابلته ، وحافظ على المكانة المرموقة التى يتمتع بها فى قلب كل مسلم فى جميع أنحاء الأرض ، فانه يعتبر حتى اليوم أكبر معهد للدراسات الاسلامية .

العصر الفاطمى الأول

عصر القوة والازدهار

حكمت الدولة الفاطمية مصر مدة تنيف على القرنين (٣٥٨ — ٥٦٧ = ٩٦٩ — ١١٧١ م) غير أنا نستطيع أن نقسم هذه المدة قسمين على وجه التقريب ، كانت الخلافة الفاطمية تتسم فى كل منهما بسمات وصفات خاصة ، ففى القسم الأول ومداه قرابة قرن من الزمن وينتهى فى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر تقريبا (حوالى سنة ٤٥٧هـ) بذلت الخلافة الفاطمية جهدها لتنظيم شئون مصر الداخلية ، فنشرت الأمن فى ربوعها ، ووضعت النظم الادارية الدقيقة ، وعنيت بالجيش والأسطول ، ونمّت الزراعة ، ونهضت بالتجارة الداخلية والخارجية ، وشجعت الآداب والعلوم والفنون .

وفى هذه الفترة أيضا امتاز خلفاء الفاطميين بقوة الشخصية فكانت السلطة كلها فى أيديهم ، ولهم على الشعب ورجال الدولة النفوذ الأول ، وللوزراء المكانة الثانية .

وفيها امتد النفوذ الفاطمى الخارجى حتى وصل أوجه وأقصاه ، فخضعت لهم اليمن والحجاز ومصر والمغرب وصقلية والشام ، وخُطب لهم فى الموصل وبغداد وقتا ما .

وخير ما يؤيد هذه السمات التى اتسمت بها الخلافة الفاطمية فى الشطر الأول من حكمها أن نستعرض جهود الخلفاء الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة :

كان أول الخلفاء الفاطميين فى مصر هو المعز لدين الله ، وقد حكمها ثلاث سنوات (٣٦٢ — ٣٦٥ هـ) ركز جهوده فى خلالها لتنظيم مركز حكمه الجديد ، فعنى أول ما عنى بشؤون مصر المالية ، لأن مصر كانت وشيكة الخروج من المجاعة الخطيرة التى أصابتها قبيل الفتح الفاطمى وابانه ، فمنع المعز النداء بزيادة النيل — كما كانت العادة قديما — وأمر ألا يكتب بذلك الا اليه والى قائده جوهر ، حتى اذا تم الفيضان ووصل

الى أقصاه أعلن ذلك للناس ، واشترك فى الاحتفاء بوفاء النيل ؛ ثم عهد بادارة شؤون مصر المالية جميعا الى رجلين من أقدر رجال ذلك العصر وهما يعقوب بن كلس وعسلوج ابن الحسن ، فقاما بما عهد به اليهما خير قيام حتى زادت ايرادات الدولة فى وقت وجيز زيادة كبيرة ملحوظة .

وتأكيدا لاستقلال مصر الاقتصادى عن الدولة العباسية أمر المعز فضربت سكة مصرية جديدة باسمه ، وفضل الدينار المعزى فى المعاملات الحكومية على الدينار العباسى ، فقلت قيمة هذا الأخير وطرد من السوق شيئا فشيئا .

وفى عهده اشتد خطر القرامطة وهددوا مصر برا وبحرا ، ووصل أسطولهم الى مدينة تنيس ، فقاتلهم أهلها ، وأخذت عدة من سفنهم ، وأسر عدد كبير من جنودهم .

وأدرك المعز ما قد تتعرض له مصر من خطر الهجوم عليها من ناحية البحر ، فعنى بالأسطول عناية كبيرة ، وبنى دارا جديدة لصناعة السفن فى المقس — ميناء القاهرة — وأنشىء بهذه الدار فى عهده القصير ستمائة سفينة حربية « لم يُر مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا » (١) .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله ، وكان رجلا سمحا كريما شجاعا ، ولئن كان عصر المعز قد امتاز بالتنظيم الداخلى للدولة الجديدة ، فان عصر العزيز قد امتاز بالتوسع الخارجى ، وامتدت الدولة المصرية فى عهده من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج الفارسى شرقا ، ومن أقصى الشام شمالا الى بلاد النوبة واليمن جنوبا ، وفتحت له حمص وحماة وشيزر ، وخطب له المقلّد العُقَيْلى — صاحب الموصل — بالموصل وأعمالها فى المحرم سنة ٣٨٢ ، وضَرَبَ اسمه على السكة والبنود ، وخُطب له باليمن ، وخاف بأسه امبراطور الدولة البيزنطية فخطب وده ، وأرسل اليه رسلا يحملون الهدايا ، ويطلبون الصلح والهدنة ، فأجابهم العزيز واشترط شروطا شديدة التزموا بها كلها ، منها : أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى مملكتهم أسير الا أطلقوه ، وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة ، وأن يُحمل اليه من أمتعة الروم كلُّ ما افترضه عليهم ، ثم ردَّهم بعقد الهدنة سبع سنين » (١) .

وهكذا بلغت مصر الذروة فى عهد العزيز فأصبحت امبراطورية واسعة تضم — كما أسلفنا — المغرب ومصر واليمن والجزيرة العربية والشام وجزيرة صقلية ، وبهذا فاقت الخلافة العباسية قوة ونفوذا واتساع ملك ، وأصبحت الدولة الاسلامية الكبرى فى المشرق ، وبدأت تهدد ما بقى فى أيدى

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٧ (عن المسبحى) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ١٥١ — ١٥٢ .

العباسيين من ملك ، وفى الوقت نفسه كان العزيز يرنو ببصره نحو الخلافة الثالثة ، وهى الخلافة الأموية السنية فى الأندلس ، يريد أن يزيلها من الوجود لتصبح فى العالم الاسلامى خلافة واحدة هى الخلافة الفاطمية ، لهذا أرسل العزيز الى خليفة الأندلس يهجوه ويتهدده ، غير أن الأندلس كانت فى ذلك الوقت فى عنفوان قوتها ، فأرسل صاحبها ردا على خطاب العزيز — الجملة المشهورة التى يعرّض فيها بنسب الفاطميين والتى يقول فيها : « أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك » .

وقد رأى العزيز أن الجيش القوى هو السياج الطبيعى لحماية هذه الدولة الكبيرة المترامية الأطراف ، فصرف همه للعناية بالجيش ، وهو أول من استعان من الفاطميين بالعنصرين التركى والسودانى فأصبح فى جيش مصر فرق من هذين العنصرين بعد أن كان اعتماد الفاطميين على المغاربة الذين ساعدوهم فى فتح مصر واقامة ملكهم بها ، وقد كانت هذه العناصر مصدر قوة فى أول الأمر لما امتاز به الترك والسودان من الشجاعة والاقدام ، غير أنها لم تلبث أن أصبحت سببا من أهم أسباب ضعف الدولة وانحلالها عندما دب النزاع وقامت أسباب المنافسة والنضال بينها .

ولم تكن عناية العزيز بالأسطول أقل من عنايته بالجيش ، حتى لقد أصبحت مصر فى عهده أكبر دولة اسلامية فى الشرق الأوسط .

وقد عرف العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد نعموا فى عهده بالحرية التامة فى أداء شعائر دينهم وترميم كنائسهم ، وبناء كنائس جديدة ، ولا غرو فقد كانت زوجته — أم ولده الحاكم — مسيحية روسية ، وقد عيَّن العزيز أخويها بطريركين ملكانيين فى الاسكندرية وأورشليم ، وكان من وزرائه : يعقوب بن كلس اليهودى ، وعيسى بن نسطورس المسيحى .

وفى عهد العزيز نمت ثروة البلاد وزادت ثروتها فعاش الناس فى رفاهية وعاش الخليفة حياة كلها بذخ وترف ، وبنى لنفسه قصرا جديدا — عرف بالقصر الغربى — مقابل القصر الشرقى الكبير الذى بناء جوهر للمعز ، وكان يفصل بين القصرين ميدان متسع يستخدم لعرض الجند ، كما بدأ بناء جامعه الكبير الذى أتمه ابنه الحاكم فيما بعد ، وعرف باسم الجامع الحاكمى .

وكان من حسن حظ مصر أن طالت مدة حكم العزيز ، فقد حكمها واحدا وعشرين عاما ، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، فخلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو بعد طفل لا يجاوز الحادية عشرة من عمره .

والحاكم شخصية عجيبة هى فى الحقيقة جماع المتناقضات مما يدل على أنه كان ملتاث العقل غير متزن التفكير ، فقد امتاز عهده بالقسوة والعنف وكثرة سفك الدماء .

وأوضح ما يميز الحاكم التناقض وازدواج الشخصية ، فهو حينا دكتور جيكل وحينا آخر مستر هايد : وهو تارة شجاع مقدام محب للعلم والعلماء وهو تارة أخرى جبان متردد منتقم من العلماء قاتل لهم ؛ وكان الغالب عليه السخاء ، غير أنه ربما بخل بما لم يبخل به أحد قط ، وأقام يلبس الصوف سبع سنين وامتنع من دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس فى الجمع ليلا ونهارا ، ثم عنّ له أن يجلس فى الظلمة فجلس فيها مدة ؛ وكتب على المساجد والجوامع سبّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة ، ثم محا ما كتب فى سنة سبع وتسعين ؛ وأمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عنه ؛ ونهى عن الاشتغال بالنجوم وكان ينظر فيها ، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ؛ ومنع من بيع العنب ، وقطع الكروم ، وأراق خمسة آلاف جرة عسل فى البحر خوفا من أن تعمل نبيذا ، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها ، وهدم الكنائس فى بلاده — ومن بينها كنيسة القيامة — ثم أمر باعادة بنائها (١) .. وهكذا .

وقد قتل الحاكم عددا من وزرائه ، وانتهى به الأمر الى أن ادعى الالوهية وتكونت طائفة جديدة تنادى بألوهيته هى طائفة الدروز ، (نسبة الى الدرزى أول دعاتها) .

ورغم هذا التناقض العجيب فى تصرفاته كان الحاكم شخصية قوية جبارة ، يخافها ويخشى بأسها الجميع ، وكان للخلافة الفاطمية فى عهده الشأن الكبير والمقام العظيم ، ولم يكن لأحد من وزرائه ورجال جيشه ودولته نفوذ الى جانب نفوذه .

ومع هذا فقد كان لشخصية الحاكم المضطربة ولسياسته الخرقاء أثر جد خطير فى الدولة ومستقبلها ، ففى عهده بدرت بوادر كثيرة مهدت لضعف الدولة وانحلالها .

بدأت هذه البوادر باجتراء الخلافتين السنيتين المعاصرتين على مهاجمة الدولة الفاطمية ومحاولة القضاء عليها ، وقد حالت شخصيتا المعز والعزيز المتزنتان من قبل دون هذا الاجتراء وهذا الهجوم .

أما الخلافة العباسية فلم يكن لديها من القوة المادية ما يمكنها من تدبير هجوم ايجابى ، ولهذا فقد اتخذ هجومها شكلا سلبيا ، فجمع الخليفة القادر عددا من علماء بغداد وقضاتها وكتبوا محضرا طعنوا فيه فى النسب الفاطمى وأعلنوا فيه أن الحاكم وسلفه « أدعياء خوارج ، لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب » وانما هم « كفار فساق زنادقة ، ملحدون معطلون ، وللاسلام

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٢٤ ص ١٧٦ — ١٧٨ نقلا عن سبط بن الجوزى فى مرآة الزمان .

جاحدون ، ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون » .

كتب هذا المحضر فى سنة ٤٠٢ هـ ووقع عليه الحضور من العلماء والقضاة وأرسلت منه نسخ الى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ، فكان له صدى قوى .

وأما الخلافة الأموية فى الأندلس فقد اتخذ هجومها شكلا آخر أكثر ايجابية وخطرا ، فقد خرج فى الصحراء الغربية خارج اسمه أبو ركوة — وادعى أنه ينتسب الى بنى أمية ، وجمع هذا الرجل جيشا كبيرا ، وهاجم حدود مصر الغربية وانضم اليه بنو قرة — من عرب البحيرة — وكانوا ناقمين على الحاكم لكثرة ما أوقع بهم وغنم من أموالهم ، واشتد خطر أبو ركوة فأرسل اليه الحاكم جيشا لمقاتلته ، فهزم الجيش ، فأرسل اليه جيشا آخر فكتب له النصر وتتبع أبا ركوة فى الصعيد ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى بلاد النوبة وارساله الى القاهرة وقتله .

لقد اكتفت الخلافة العباسية بأضعف الايمان ، فأصدرت هذا المحضر وأرسلته الى أطراف العالم الاسلامى ، وانتهت ثورة أبى ركوة التى كانت تؤيدها الخلافة الأموية الأندلسية بالفشل ، ولكن هاتين الحركتين أثرتا دون شك فى الدولة الفاطمية ، فأضاعتا ما كان لها من هيبة قديمة ، وبدأ الكل يجترئون عليها ، وتطور الأمر الى أن قام النزاع فى الداخل بين العناصر المختلفة المكونة للجيش الفاطمى من مغاربة وأتراك وسودان ، واشتد النزاع بين كل فريق والآخر ، ولم تهدأ الفتنة الا بعد أن قتل عدد كبير من قادة الجيش .

ومن الأمور التى بدأت تزعزع كيان الدولة الفاطمية ما أقدم عليه الحاكم نفسه من محاولة تغيير أصل هام من أصول المذهب الاسماعيلى ، وذلك أن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية يقضى أن تكون الامامة فى نسل على بن أبى طالب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب ، لأنهم كانوا يعتقدون أن للامامة صفات وعلوما خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماما ، وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام ، فكان كل خليفة ابنا للخليفة السابق ، ولكن الحاكم حاول مخالفة هذا المبدأ فأوصى بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن السياس وأصدر أوامره بأن يضرب اسمه الى جانب اسم الخليفة على السكة ، وأن ينقش على البنود والطراز ، كما أمر أن ينوب ابن عمه وولى عهده عنه فى الخطبة والصلاة والنحر والنظر فى المظالم ، وأن يسايره فى المواكب .

وكادت هذه المحاولة أن تؤدى الى انقسام خطير بين الشيعة الاسماعيلية لأن فى تنفيذها هدما لركن قوى من أركان المذهب ، لولا أن الحاكم قتل ، وقضت ست الملك أخت الحاكم على هذه المحاولة ، فأرسلت الى عبد الرحيم من قبض عليه وقتله وأجلست الظاهر بن الحاكم على عرش الخلافة .

يتضح من هذا كله أن هـــذه البوادر الأربع : المحضر العباسى بالطعن فى النسب الفاطمى ، وثورة أبى ركوة ، والنزاع بين عناصر الجيش الفاطمى ، ومحـاولة الحاكم الخروج عن أصول المذهب الاسماعيلى ، كان لها أثر قوى فى هز كيـــان الدولة الفاطمية فبدأت عوامل الضعف تعمل فى بنيانها .

وولى الظاهر فى سنة ٤١١ عرش الخلافة بعد أبيه ، وكان عند ذاك صبيا مراهقا فى السادسة عشرة من عمره تحت وصاية عمته ست الملك ، فترك أمور الحكم بين يديها وبين أيدى رجال الدولة من وزراء وقادة وقضاة ، وأبرز ما يميز عهده أنه أباح كل ما كان قد حرمه أبوه ، بل انه قد غالى فأقبل هو نفسه على شرب الخمر ، ورخّص للناس بشربها فأقبلوا على حياة اللهو .

ومما يحمد له أنه عمــل عــلى تحسين العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية بعد أن كانت قد بلغت من السوء مبلغا كبيرا فى عهد أبيه ، فجدد الهـــدنة مع صاحب الروم فى سنة ٤١٨ هـ بشروط كان أهمها أن يفتـــح جامـــع القسطنطينية وأن يعــين فيه مؤذن ويخطب فيه للظاهر ، وأن يعيد الظاهر بنـــاء كنيسة القيامة بمدينة القدس .

وفى سنة ٤٢٧ ولى الخلافة المستنصر بن الظاهر ، وعمره ٧ سنوات ، وقد طالت مدة خلافته حتى بلغت ستين عاما ، وهى أطـــول مدة حكمها خليفة مسلم ، وقد بلغت الخلافة الفاطمية فى القسم الأول من حكمه أوجهـا فى العظمة داخليا وخارجيا ، وزار مصر فى هذا النصف الأول الرحـــالة الفارسى ناصر خسرو ووصفها ووصف نظمها ومدنها وغناها وثروتها وحضارتها وصف المعجب بما رأى وشاهد .

وبدأت مصر فى هذا النصف الأول ترنو بأبصارها ثانية نحو العراق وبغداد مقر الخلافة العباسية المتهاوية ، وأحس الخليفة العباسى بوادر الخطر فأصدر فى ســنة ٤٤٤ محضرا ثانيا شبيها بالمحضر الأول الذى صدر فى عهد الحاكم للطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين ، ووقع عليه كبار العلماء والقضـــاة فى بغداد وأرسلت منه نسخ الى أطـــراف العـــالم الاسلامى .

ولكن رد المستنصر كان قويا وايجابيا ، ففى ســنة ٤٤٨ خرج على الخليفة العباسى أحد قواده وهو أبو الحارث البساسيرى ، وانتمى للخليفة المستنصر فأرسل اليه الأموال والسلاح ، وتقدم البساسيرى فى سنة ٤٥٠ فدخل بغداد ففر منها الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وأرســل البساسيرى ثياب هــذا الخليفة الفار وعمامته الى القـــاهرة ، وخطب للمستنصر على منابر بغداد نحو عشرة شهور ، وحذت مدن العراق الأخرى حذو بغداد ، فخطب للمستنصر فى هذه السنة على منابر البصرة وواسط وأعمالهما .

وهكذا بلغت الخلافة الفاطمية المصرية فى النصف الأول من حكم المستنصر أوج عظمتها وأقصى اتساعها فامتدت من المحيط الأطلسى الى العراق ، ولكن عوامل الضعف الكامنة لم تلبث أن بدأت تنخر فى كيان الدولة فى النصف الثانى من حكم هذا الخليفة ، فدخل طغرل بك السلجوقى بغداد ، وقتل البساسيرى ، وأعاد الخليفة العباسى الى عرشه ، فانقطعت الخطبة للمستنصر وعادت للقائم .

وقبل هذا بقليل نشب نزاع بين اليازورى — وزير المستنصر — والمعز بن باديس عامل الفاطميين على المغرب ، وآل الأمر الى أن قطع ابن باديس الخطبة للفاطميين بالمغرب وأقامها للعباسيين .

وفى سنة ٤٥٧ هـ أصيبت مصر بالمجاعة الخطيرة التى ظلت سبع سنوات (٤٥٧ — ٤٦٤) فكانت الطامة الكبرى ، وتدهورت أحوال مصر الاقتصادية تدهورا خطيرا ، والمقريزى يسمى هذه المجاعة « بالشدة العظمى » ، ويرجع أسبابها الى « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان ، وقصور النيل ، وعدم من يزرع ما شمله الرى » .

وكان من نتائجها — فى رأيه — أن : « نزع السعر ، وتزايد الغلاء ، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضى من الزراعة ، وشمل الخوف ، وخيفت السبل برا وبحرا ، وتعذر السير الى الأماكن بالخفارة الكثيرة وركوب الغَرَر ، واستولى الجوع لعدم القوت حتى أبيع رغيف خبز فى النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا ، وأبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا ، وأكلت الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا .. ثم آل الأمر الى أن باع المستنصر كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه ، وذهب وقاره ، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : « الجوع ! الجوع ! » تردن المسير الى العراق ، فتسقطن عند المصلى ،وتمتن جوعا .. الخ .. الخ»(١) .

وكان من نتيجة الغلاء الذى صاحب هذه المجاعة أن منعت مصر ما كانت ترسله الى الحجاز من غلال ومؤن ، فقطعت الخطبة للمستنصر فى مكة والمدينة ، وخطب للخليفة العباسى فى سنة ٤٦٢ هـ ، وان كانت قد أعيدت للمستنصر فى سنة ٤٦٩ .

وهكذا توالى انفصال أجزاء الدولة ، فانفصل شمال افريقيا كله وخطب للعباسيين ،

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ، نشر زيادة والشيال ، ص ٢٤ — ٢٥ .

ثم قطعت الخطبة من بغداد والعراق بعد أن أقيمت للفاطميين عشرة أشهر ، ثم انقطعت الخطبة لهم فى الحجاز لمدة سبع سنوات ، وأخيرا فى سنة ٤٦٣ دخل النورمان صقلية واستولوا عليها ، فخرجت بذلك عن حكم الفاطميين بعد أن ظلت جزءا من أملاكهم منذ قامت دولتهم فى سنة ٢٩٧ هـ .

وفى سنة ٤٦٦ هـ تفاقم الحال ، واضطربت أمور مصر اضطرابا شديدا واختلت أحوالها ، وعجز المستنصر عن أن يصنع شيئا لعلاجها ، فاستدعى واليه على عكا بدر الجمالى ، فلبى الدعوة وتولى بعد مجيئه أمور مصر كلها ، وتلاشت — منذ ذلك الحين سلطة الخليفة ، وبدأ عهد سيطرة الوزراء .

وقد جرى المؤرخون الاسلاميون على تقسيم الوزارة الى نوعين : وزارة تنفيذ ، وفيها تكون السلطة كل السلطة بيد الخليفة وانما يقوم الوزير بتنفيذ أوامره ؛ ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره ، والأمور كلها مفوضة للوزير .

وتطبيقا لهذا التقسيم النظرى نستطيع أن نقول ان وزراء العصر الفاطمى الأول كانوا جميعا وزراء تنفيذ ، أما وزراء العصر الفاطمى الثانى فكانوا جميعا وزراء تفويض ، وكان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالى .

وقد أنشىء لبدر سجل خاص بتفويض أمور الحكم اليه ، جاء فيه :

« وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصلحا للفساد ، ومدمرا لأهل العناد .. » .

وأصبحت الأمور كلها مردودة اليه ، والاتصال بين الخليفة وبينه اتصالا مباشرا ، وجعل له تعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة — وكان تعيينهما من اختصاص الخليفة دون غيره — ، ولهذا لقب بكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين .

وقد كان وزراء العصر الأول جميعا من أرباب القلم ، أى من رجال الفكر والدين ، أما بدر فقد كان من أرباب السيف — أى من رجال الجيش — ولهذا لقب أيضا بالسيد الأجل أمير الجيوش ، وهو اللقب الذى توارثه من بعده وزراء التفويض فى العصر الفاطمى الثانى ، فقد كانوا جميعا من أرباب السيوف .

ولم يحدث أن ولى الوزارة ابن بعد أبيه فى العصر الأول ، وانما حدث هذا فى العصر الثانى ، فولى الوزارة بعد بدر الجمالى ابنه شاهنشاه ، فوزر للمستنصر ثم للمستعلى ثم للآمر ، وقد زيد فى ألقابه « الأفضل » وبه اشتهر حتى أصبح يعرف بالأفضل شاهنشاه ، وقد أضيف هذا اللقب أيضا للوزراء من بعده .

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير

بلقب « المَلِك » ، وأول من لقب به رضوان ابن ولخشى وزير الحافظ لدين الله ، فقيل له: « السيد الأجل الملك الأفضل » ، ولقب به كذلك من أتى بعده من الوزراء ، فقيل للصالح طلائع بن رزيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة من أرباب السيوف — « بالملك الناصر » .

وخير ما تدل عليه هذه الألقاب أن الوزير فى العصر الفاطمى الثانى أصبح هوكل شىء فى الدولة ، فقد أصبح « السيد الأجل » ، ثم « أمير الجيوش » ثم « الأفضل » ثم « الملك » ؛ يقول المقريزى : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر الى آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية .. » (١) .

ولهذا عرف العصر الفاطمى الثانى عند المؤرخين بعصر الوزراء العظام ، وتأييدا لسلطانهم بنيت لهم دار خاصة فى القاهرة بالقرب من القصر الخليفى يباشر فيها الوزير شؤون الحكم ، وعرفت باسم « دار الوزارة الكبرى » .

وكان لتولى بدر الجمالى الوزارة نتائج أخرى كثيرة أهمها اضافة عنصر جديد الى العناصر المكونة للجيش الفاطمى ، فقد كان هذا الجيش فى أول أمره مكونا من المغاربة — وخاصة قبيلة كتامة — الذين أتوا مع جوهر لغزو مصر ، ثم استعان العزيز بالله بالأتراك واستخدم عددا كبيرا منهم فى جيشه ، ومنذ عهد الحاكم بدأ دخول السودان فى الجيش الفاطمى ، فلما ولى المستنصر استكثرت أمه من السودان — فقد كانت منهم — حتى يقال انهم بلغوا نحوا من خمسين ألف أسود واستكثر هو من الأتراك ، فتجدد النزاع بين العنصرين ، وقامت بينهما — كما يقول المقريزى — « الحرب التى آلت الى خراب مصر وزوال بهجتها » .

ثم قدم بدر الجمالى من عكا ، وقتل رجال الدولة وأقام له جندا وعسكرا من الأرمن — فقد كان هو أرمنيا — ، وصار معظم الجيش منذ ذلك الوقت من الأرمن .

وهكذا تعددت العناصر المكونة للجيش الفاطمى ، فأصبح يتكون من المغاربة والعرب والأتراك والسودان والأرمن وغيرهم من الأجناس وبدأت أسباب النزاع بين كل عنصر وعنصر ، وكثيرا ما أدى هذا النزاع الى خراب البلاد ونهب أموال الأهلين ، وكانت أسوأ نتائجه ضعف الجيش الفاطمى وبالتالى ضعف الدولة نفسها .

ولم تكن هذه وحدها هى الأسباب التى

(١) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٠٥ .

أدت الى ضعف الدولة وانحلالها ثم زوالها ، وانما كانت تضاف اليهاكلماتقدم الزمن بالدولة عوامل جديدة ، منها أن معظم خلفاء العصر الثانى تولوا الخلافة وهم بعد أطفال صغار مما زاد فى شوكة الوزراء واستقلالهم بأمور الحكم ، فقد ولى الخليفة الآمر وعمره خمس سنوات ، وولى الفائز فى نفس العمر وتوفى فى الحادية عشرة من عمره ، وولى العاضد كذلك وعنده أحد عشر عاما .

وقد ولى هؤلاء الخلفاء فى هذه السن المبكرة لأن نظام الوراثة عند الشيعة الاسماعيلية كان يقضى — كما ذكرنا — أن تكون الامامة — أى الخلافة — فى نسل على ابن أبى طلب دون غيرهم ، وأن تنتقل دائما من الأب الى الابن (١) ، فهم فى هذا يختلفون عن أندادهم الخلفاء السنيين من الأمويين والعباسيين ، الذين كانوا يبيحون أن تنتقل الخلافة أحيانا الى الأخ أو الى ابن العم أو الى أكبر أفراد الأسرة سنا ، لأنهم كانوا يشترطون فيمن يتولى الخلافة شروطا أخرى كثيرة من أهمها أن يكون بالغا عاقلا سليم الحواس ، وقد كان لنظام الوراثة عند الفاطميين فوائد كثيرة أهمها أنه كان عاملا من عوامل الاستقرار ، وأنه جنّب الأسرة والدولة — الى حد كبير — عوامل المنافسة والنزاع والتخاصم فى سبيل العرش .

غير أن هذا النظام كانت له — الى جانب هذه الفوائد — مضار وعيوب ، منها أنه كان يوجب تولية هؤلاء الخلفاء الأطفال لا لشىء الا لأن كلا منهم كان ابنا للخليفة السابق وقد نُصّ على توليته ، مما أتاح الفرصة لاستبداد الوزراء بشئون الحكم ، وقيام أسباب التنافس والنزاع بين رجال الدولة المتطلعين الى منصب الوزارة .

وكان من الشروط الهامة لصحة الامامة عند الشيعة الاسماعيلية الوصية أو «النص» ، أى أن ينصّ الامام السابق على الامام اللاحق من أولاده ، فهم يعتبرون النص بمثابة أمر بالتعيين صادر عن الامام السابق ، ولذلك هو عندهم شرط هام من شروط صحة الامامة ، ويشترط فى النص عندهم أن يصدر عن الامام وقت نقْلته ، أى عند موته ، بمعنى أنه اذا صدر عن الامام أكثر من نص لأكثر من ولد من أولاده فانه لا يؤخذ الا بالنص الأخير الذى صدر عنه وقت نقْلته وانتقاله الى الدار الآخرة ، لأنه فى رأيهم يجبُّ كلَّ النصوص الأخرى السابقة .

وقد التزم الفاطميون منذ اقامة دولتهم هذا النظام الوراثى بجميع شروطه فيما عدا ثلاث حالات :

— فى الحالة الأولى حاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه ، فعهد بولاية العهد لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، وقد أشرنا الى هذه المحاولة وأثرها فيما سلف ،

(١) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٠ .

ورأينا أنها لم يكتب لها النجاح ، فقد قتل الحاكم قتلة تحوطها الريب والشكوك ، وسعت أخته « ست الملك » حتى أقامت « الظاهر » ابن الحاكم على عرش الخلافة .

— والحالتان الثانية والثالثة خولف فيهما هذا المبدأ فعلا ، وتولى الخلافة ابن العم لا الابن ، فبعد وفاة الخليفة الآمر بأحكام الله ولى الخلافة ابن عمه الحافظ لدين الله، وبعد وفاة الخليفة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ، وهو آخر خلفاء الدولة .

وفى كل مرة خولف فيها نظام الوراثة — كما نص عليه المذهب — حدث انقسام مذهبى سياسى ، وهذه الانقسامات المذهبية السياسية — وقد حدثت كلها فى العصر الفاطمى الثانى — هزت الدولة هزات عنيفة، وكانت من أهم العوامل التى أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها .

فعند وفاة المستنصر حدث خلاف فى تحديد النص ، فقال نزار — الابن الأكبر . بأن النص والوصية له ، وقال الوزير القائم بالحكم الأفضل شاهنشاه بأن النص والوصية للابن الأصغر أبى القاسم أحمد — الذى ولى الخلافة باسم المستعلى — ؛ وانتهى النزاع بهزيمة نزار وتولية المستعلى ، وانقسم الاسماعيلية منذ ذلك الحين الى فرقتين :.

— الاسماعيلية النزارية التى نجح دعاتها فى اقامة ملك لهم فى قلعة ألموت ثم فى الشام وقد لعبوا دورا خطيرا فى التاريخ الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس .

— والاسماعيلية المستعلية أتباع الخلافة الفاطمية فى مصر .

وقد ناصب النزارية الفواطم فى مصر العداء ، ولم يلق الخلفاء الفاطميون — منذ عهد المستعلى — أعداء أشد قسوة من النزارية ، بحيث نستطيع أن نقول ان تاريخ الحركة الاسماعيلية بوجه عام ، وتاريخ الدولة الفاطمية فى مصر بوجه خاص كان من الممكن أن يتخذ شكلا آخر غير الذى عرفناه لو أن الاسماعيلية النزارية (الحشيشية) اتحدوا مع الفاطميين فى مصر بدلا من انتهازهم كل فرصة ممكنة للمكيدة لهم والاضرار بهم .

والحقيقة أن ابعاد نزار وتولية المستعلى يعتبر انقلابا سياسيا (Coup d'étet) واضح المعالم ، قام به الوزير الأفضل شاهنشاه محافظة على السلطان القوى الذى كان يتمتع به منفردا منذ أواخر عهد المستنصر ، فقد كان نزار — عند موت أبيه المستنصر — رجلا مكتمل الرجولة ، ولم تكن العلاقات بينه وبين الأفضل — أثناء حياة المستنصر — علاقات طيبة ، بل لقد كانت على العكس علاقات يشوبها الكره المتبادل .

والانقسام المذهبى الثانى حدث بعد وفاة الخليفة الآمر ، فقد خولفت أصول

المذهب ، وولى الخلافة الحافظ ابن عم الآمر ، فى حين أنه كان قد ولد للآمر قبيل وفاته ابن اسمه « الطيب » وأخذت له البيعة بولاية العهد ، ولهذا انقسمت الاسماعيلية مرة ثانية الى :

— اسماعيلية حافظية .

— اسماعيلية طيبية .

وقد مرت الدولة الفاطمية عند مقتل الخليفة الآمر بأزمة عنيفة كادت تودى بها وتضع حدا لحياتها ، وذلك أن بعض جواسيس النزارية تسللوا الى القاهرة وتربصوا للآمر وقتلوه فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠م) ، وتذكر المراجع المطبوعة المتداولة — ومعظمها مراجع سنية — أن الآمر لم يكن عند قتاه قد أعقب ، وانما ترك من بعده احدى زوجاته حاملا ، فعيّن الحافظ ابن عم الآمر حاكما مؤقتا ، على أن يكون وليا للعهد وكفيلا للطفل الذى يولد ان أتى ذكرا ، ولكن الزوجة أنجبت بنتا فاستقر الحافظ خليفة .

كان هذا هو الرأى الذى تعرضه المراجع السنية المتداولة الى عهد قريب ، ولا تذكر رأيا غيره ، ثم بدأت تظهر فى عالم المطبوعات مراجع تاريخية سنية تشير الى رأى آخر ، وأول هذه المراجع «تاريخ مصر لابن ميسر» ، وقد أورد المؤلف فيه نصا يشير الى أن الآمر كان قد ولد له قبل موته بشهور ولد سماه أبوه « الطيب » ، واحتفل بمولده احتفالا علنيا رائعا ، وأعلنه وليا لعهده ، وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن ، وأعلنت هناك ، ولهذا سيظل اسماعيلية اليمن — فى معظمهم — بعد ذلك طيبية ، ثم يكونون لهم جالية أخرى فى الهند تتبع نفس المذهب والفرقة .

ولكن بعض المؤرخين لا يزالون مع هذا — وحتى اليوم — يشكّون فى هذه القصة وفى وجود الطيب ، لأنه منذ مات الآمر لم يظهر الى الوجود ، بل أعلنت القصة الجديدة ، قصة وجود زوجة من زوجات الآمر حاملا ، وقصة كفالة الحافظ للمولود المنتظر .

ثم ظهرت للنور بعد ذلك بعض المؤلفات السنية والشيعية تحمل نصوصا جديدة عن الطيب ، وكلها تثبت وجوده وأنه ولد فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ ، وأنه أعلن بعد مولده وليا للعهد ، وزينت القاهرة ومصر زينة حافلة بهذه المناسبة ، وورد فى كتاب « البستان الجامع » الذى نشره الأستاذ كلود كاهن نص يفيد أن الحافظ دس لهذا الطفل — بعد مقتل أبيه — أحد أتباعه « فأخذه عنده ، ولم يظهر له خبر الى الآن بموت أو بغيره »[1] .

وهذه النصوص تفيد أيضا أن الطيبية — اتباع الطيب — انتشروا بعد ذلك فى اليمن والشام دون مصر .

اختفى الطيب اذن من الميدان — بعد مقتل والده — وانتقلت السلطة الفعلية الى

(١) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٧٩ ــ ٨٥ .

اثنين من رجال الجيش هما : هـزار الملوك وبرْغش ، واختار هذان القائدان عبد المجيد — ابن عم الآمر — ليلى السلطة من الناحية الشكلية فقط وليكون كفيلا للمولود المرتقب ان أتى ذكرا .

واختار عبد المجيد (الحافظ) هزار الملوك ليكون وزيرا له ، ولكن هذا الوضع الجديد لم يعمِّر غير نصف يوم ، فقد دمغت الغـيرة برغش الى تحريض قائد آخر له مكانته على الثورة ، هذا القائد الآخر هو أبو على أحمد ابن الأفضل شاهنشاه — الملقب بكتيفات — وقد ثار هذا القائد فعلا ، وثار معـه الجيش عقيب الاحتفال بتولية هزار الملوك الوزارة ، وانتهت الثورة بالقبض على هـزار الملوك وقتله .

« واستقرت الوزارة لأبى على أحمد بن الأفضـل شاهنشاه بن أمير الجيـوش بدر الجمـالى ، وكان يلقب بكتيفات ، فى يوم الخميس سادس عشر ذى القعدة »(١) .

« واستدعى (الحافظ) الخلع لأبى على، فأفيضت عليه يوم الأربعـاء خامس عشرة ، وركب الى دار الوزارة ، والجماعة مشاة فى ركابه ، فكانت وزارة هزار الملوك نصف يوم بغير تصرف .. » .

وكان أول عمل باشره أبو على أحمد بعد توليه الوزارة أنه : « أحاط بالحافظ وسجنه فى خزانة فيما بين الايوان وباب العيـد .. وتمكن أبو على ، واستولى على جميع ما فى القصر من الأموال والذخائر .. » .

هذا انقلاب جديد واضح المعالم كاد يضع حدا نهائيا للدولة الفاطمية الاسماعيلية ، فأبو على قائد قواد الجيش له مكانة خاصـة فى الدولة ، فهو ابن وزير وحفيد وزير ، وأبوه وجـده كانت لهما السلطة الفعليـة الكاملة والمكانة الأولى فى الدولة أيام وزارتيهما ، وقد ثار أبو على ثورة عسكرية انتهت بقتل الوزير القائم ، والقبض على الكفيل وسجنه ، ثم توليه هو السلطة كلها دون منازع أو مشارك.

ويضاف الى هـذا كله أمر هـام بالغ الأهمية ، وهو أن أبا على لم يكن اسماعيلى المذهب ، بل كان اماميا ، ولهذا بدأ باتخـاذ اجراءات كثيرة تهدف كلها للقضاء على المذهب الاسماعيلى والغـائه ، والاعتراف بالمذهب الامامى ، ومعنى هذا انتهاء الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، وقيام دولة علوية امامية ؛ يقول المقريزى : « وكان (أبو على) اماميا متشددا، فالتفت عليه الامامية ولعبوا به حتى أظهـر المذهب الامامى »(١) .

ومن هـذه الاجـراءات التى اتخـذها أبو على لاظهار المذهب الامامى أنه : — رتب فى الحكم أربعة قضاة — قاضيا للشافعية ، وقاضيا للمالكية ، وقاضيا للاسـماعيلية ،

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٣ ب .

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ أ .

وقاضيا للامامية — وصار كل قاض يحكم بمذهبه ، ويورث بمذهبه ؛ ويعلق المقريزى على هذا بقوله : « ولم يسمع بمثل هذا فى الملة الاسلامية قبل ذلك »[1] .

— وأسقط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق — الذى تنسب اليه الاسماعيلية — واسم الحافظ من الخطبة .

— وألغى الأذان الاسماعيلى الفاطمى .

— وجعل الخطبة على المنابر له وحده باعتباره « ناصر امام الحق فى حالتى غيبته وحضوره ، والقائم بنصرته بماضى سيفه وصائب رأيه وتدبيره » .

— وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر .

حكم أبو على أحمد اذن حكما مطلقا ، واتخذ هذه الاجراءات الكثيرة التى تهدف جميعا الى القضاء على الاسماعيلية ومذهبهم، غير أنه ظل يشغله أمران : أمر الحافظ كبير أفراد الأسرة وولى العهد والكفيل السابق ، وأمر المولود الجديد الذى ولد للآمر .

أما الحافظ ، فيبدو أنه لم يكن ذا خطر ، ولم يكن له أعوان يشدون أزره ، وقد سجنه أبو على أحمد ، وشدد عليه الرقابة فى سجنه ، وقد فكر أكثر من مرة فى قتله ولكنه لم يفعل.

وأما المولود فقد ظل أمره يقلق بال أبى على أحمد ، وظل دائب البحث عنه ، وقد تضاربت الأقوال فى شأن هذا المولود ، فبعض المراجع المنشورة المتداولة تشير الى أن المولود جاء بنتا ، وبهذا أمن أبو على أحمد واطمأن ، وبعض المراجع التى لا تزال مخطوطة تشير الى أن المولود جاء ذكرا ، وأن أمه عملت على اخفائه خوفا عليه من الوزير أبى على ومن الحافظ الى أن قبض عليه الحافظ فيما بعد وقتله .

والرأى الثانى ذكره المقريزى فى كتابه « اتعاظ الحنفا » نقلا عن الشريف محمد بن أسعد الجوانى ، وهو الصحيح ، بدليل ما تذكره المراجع أيضا من أن أمر هذا المولود قد شغل بال أبى على أحمد كثيرا أثناء السنة التى انفرد فيها بالحكم ، وأنه ظل طول هذه السنة دائب البحث عنه ، فقد قال المقريزى فى نفس المرجع : « واشتد ضرره (أى ضرر أبى على أحمد) على أهل القصر من الارعاد والابراق ، وأكثر من ازعاجهم ، والتفتيش على ولد الآمر .. » .

ولبث أبو على أحمد يحكم مستقلا ما يزيد على السنة قليلا،ولو طالت مدة حكمه لكان قد قضى على الدولة الفاطمية والمذهب الاسماعيلى نهائيا ، ولكن الاسماعيلية لم يرضوا عن حكمه ، وتكونت منهم معارضة قوية تولى زعامتها القائد يانس ، وظلوا يتربصون بأبى على الفرص للقضاء عليه ، الى أن تمكنوا من قتله فى المحرم سنة ٥٢٦ هـ .

قضى اذن على أبى على أحمد ، وقضى

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ أ .

بطبيعة الحال على المحاولة التى حاولها لجعل الدولة امامية ، وعادت الدولة اسماعيلية كما كانت ، وأعيد الحافظ — بعد اطلاق سراحه — الى منصب الخلافة .

واعتبر هذا اليوم الذى قتل فيه أبو على أحمد وأعيد الحافظ الى الحكم يوم عيد قومى — لا للحافظ نفسه بمناسبة اطلاق سراحه واعادته للحكم — بل للدولة كلها ، وللمذهب الاسماعيلى وأتباعه ، فقد كان المذهب على وشك أن يقضى عليه ، ولهذا اعتبر هذا اليوم عيدا للاسماعيلية ، وسمى « عيد النصر » ، وضم الى قائمة الأعياد الرسمية ، وظلت الدولة تحتفل به سنويا فى عهد الحافظ ، وفى عهود من أتى بعده من الخلفاء الى أن دالت الدولة وزالت .

ورغم تولى الحافظ الحكم فقد كانت المشكلة الشرعية المذهبية لا تزال قائمة ، فالمذهب الاسماعيلى — كما أسلفنا — لا يبيح أن يتولى الخلافة من ليس ابنا للخليفة السابق ، والحافظ ليس ابنا للآمر ، بل هو ابن عمه ، والطفل الذى وُلد للآمر بعد مقتله والذى أخفته أمه كان لا يزال موجودا ، ويبدو أن الحافظ كان يعلم بوجوده ، فلا يصح اذن أن يتولى الخلافة مع وجود الطفل ، ولهذا لم يجرؤ رجال الدولة وشيوخ المذهب على تعيين الحافظ خليفة ، بل أعادوه — كما كان — وليا للعهد وكفيلا للطفل المختفى ، يقول المقريزى : « فاجتمع الناس ، وأُخذ له العهد على أنه ولى عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه »[1] .

ويؤكد هذه الحقيقة التاريخية وجود عملة ضربت فى الاسكندرية فى سنة ٥٢٦ هـ (ومن المؤكد تبعا للحوادث التاريخية أنها ضربت فى المدة بين المحرم وربيع الأول من هذه السنة) تحمل اسم عبد المجيد ولقبه كولى للعهد ، ونصُّ ما عليها : « أبو الميمون عبد المجيد ، ولى عهد المسلمين »[2] .

ويبدو أيضا أن الحافظ ظل منذ تلك اللحظة يعمل جاهدا للبحث عن هذا الطفل ليتخلص منه نهائيا ، ولتخلص له الخلافة من كل شائبة ، ولم يطل بالحافظ الوقت ، فقد عثر على الطفل بعد نحو شهرين ، وحسم الأمر بقتله ، ورأى أن يعلن على الملأ توليه الخلافة ، فان المقريزى يقول فى حوادث سنة ٥٢٦ هـ :

« وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله ، وبويع له بيعة ثانية لما عدم الحمل »[3] .

وأخيرا ولى الحافظ الخلافة ، وبتوليته حدث انقطاع فى الفرع الفاطمى الأصيل ، فقد كان الخلفاء الفاطميون الذين حكموا قبله كلهم من نسل عبيد الله المهدى ، وكل خليفة

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٤ أ .

(٢) الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٥ أ ؛ وابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٧٥

منهم ابنا للخليفة السابق ؛ وسيصبح الحافظ أصلا لفرع جديد ، ولكن هذا التحول فتت الاسماعيلية تفتيتا جديدا ، فانقسموا — كما أسلفنا — الى اسماعيلية حافظية وهم أتباع الخلافة الفاطمية الجديدة فى مصر،واسماعيلية طيبية وقد انتشروا فى اليمن والهند .

وفى عهد الحافظ حدثت أزمة أخرى كانت معولا جديدا ساعد على تحطيم ما بقى للدولة الفاطمية من قوة ، فقد أراد الحافظ أن يتخلص من سلطة الوزراء واستبدادهم بشؤون الحكم ، كما أراد أن يمهد لاستقرار الحكم فى أسرته ، فأصدر فى سنة ٥٢٨ سجلا بتولية ابنه الأكبر سليمان ولاية العهد وأقامه مقام الوزير .

ولكن سليمان توفى بعد صدور هذا السجل بشهرين ، فأصدر الحافظ سجلا آخر بتولية ابنه الثانى حيدرة ولاية العهد ، فشق ذلك على أخيه حسن فقد كان أكبر أولاد الحافظ سنا بعد وفاة سليمان ، وقام حسن بثورة حربية خطيرة ، وانقسم الجيش الفاطمى نتيجة لهذه الفتنة على نفسه ، وكانت هذه الوقعة — كما يقول المقريزى — « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها .. » .

وحاول الحافظ محاولات كثيرة لاخماد هذه الثورة واسترضاء ابنه حسن ، ولم يجد بدا « من مداراة حسن ، وتلافى أمره عساه ينصلح ، وكتب سجلا بولايته العهد ، وأرسله اليه ، فقرىء على الناس ، فما زاده ذلك الا جراءة عليه ، وافسادا له » .

ولم تخمد هذه الفتنة الا بعد أن قُتل حسن ، ولكنها كانت عاملا جديدا من عوامل اضعاف الدولة بعد انقسام الجيش على نفسه وقتل عدد كبير من كبار قواده .

ولم تنشب الصعوبات فى هذا العصر الثانى فى الداخل وحسب ، بل نشبت فيه صعوبات أخرى فى الخارج ، أخذت تؤثر فى كيان الدولة وتعمل على فصل أطرافها طرفا طرفا ، وقد أشرنا من قبل الى انفصال شمال افريقيا كله ثم انقطاع الخطبة الفاطمية فى الحجاز لفترة ما ، ثم انفصال جزيرة صقلية .

وقد استمرت حركة الانفصال فى طريقها، ففى عهد المستعلى بدأ عدوانان خطيران يهددان أملاك الدولة فى الشام ، فاستولى الأتراك السلاجقة على دمشق والأجزاء الداخلية من الشام وقطعوا الخطبة للمستعلى وخطبوا للخليفة العباسى ، وفى عهده أيضا ، فى سنة ٤٩٠ تحركت الحملة الصليبية الأولى من القسطنطينية لأخذ سواحل الشام فملكوا أنطاكية ، وفى سنة ٤٩٢ ملكوا بقية الساحل وبيت المقدس ، ولم يبق بأيدى الفاطميين غير مدينة عسقلان .

وفى عهد الآمر استولى الفرنج على عدد آخر من مدن الشام وخاصة طرابلس وبانياس وصور .

وفى عهد الحافظ قطع الصليبيون الخطبة له فى اليمن ، وخطبوا للطيب وهكذا تجمعت عوامل الضعف لتعمل مجتمعة على انهاء الدولة ، وأصبح وزراء الدولة هم أصحاب السلطان الفعلى ، بل لقد أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء ، ومن الشواهد القوية على عظم هذا النفوذ أن الصالح طلائع بن رزيك عمد الى اختيار طفل صغير ليلى الخلافة بعد موت الفائز ، وهو الذى سمى فيما بعد باسم «العاضد لدين الله» ، واجتمع الناس للاحتفال بتوليه وأحدثوا ضجة كبرى ، فسأل طلائع عن مصدر هذه الضجة فقيل له ان الناس يفرحون بالخليفة ، فقال : « كأنى بهؤلاء الجهلة يقولون : ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أننى كنت من ساعة أستعرضهم استعراض الغنم »[1] .

انتهاء الدولة

كان أهم الأسباب التى أدت الى ضعف الدولة — كما أسلفنا — هو استبداد الوزراء بشؤون الحكم ، لهذا أصبح منصب الوزارة محط أنظار قواد الجيش وكبار رجال الدولة، فقامت بين بعضهم والبعض الآخر منافسات دامية فى سبيل الوصول الى هذا المنصب ؛ وكان النزاع الذى قام بين شاور — وزير العاضد آخر خلفاء الفاطميين — وضرغام — صاحب الباب — هو آخر حلقة من حلقات هذه المنافسة ، وقد انتهى الصراع بين الرجلين بانتصار ضرغام وتوليه الوزارة ، وفرار شاور الى الشام .

وكانت الشام قد انسلخت من ملك الفاطميين واقتسمت ملكها قوتان : قوة نور الدين محمود بن زنكى فى الداخل ، وقوة الصليبيين فى الساحل وفى فلسطين .

وقد لجأ شاور الى القوة الاسلامية ، الى نور الدين ، وسأله أن يرسل معه جيشا الى مصر ليساعده فى نضاله مع خصمه ضرغام ، وفى اعادته الى منصب الوزارة ، وعرض أن يدفع له — مقابل هذه المساعدة — ثلث ايرادات مصر ، وأن يدين له بالولاء ان عادت اليه مقاليد الحكم والوزارة .

ورحب نور الدين بشاور واستضافه ، وتردد أول الأمر فى اجابته الى مطلبه ، ولكنه لم يلبث أن وافق ، ففى هذه الموافقة تحقيق لخطته التى كان يهدف من ورائها الى توحيد الجبهة الاسلامية توطئة لمقاومة الخطر الصليبى والقضاء عليه .

وأرسل نور الدين مع شاور جيشا بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وصحب أسد الدين معه ابن أخيه يوسف صلاح الدين ، وعلم

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٥ ب ؛ وانظر : الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٢٠ ـ ١٢٣ .

ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله الى مصر ، فأصابه الفزع اذ لم يكن الجيش الفاطمى فى حالة تمكنه من المقاومة أو احراز النصر ، وأرسل ضرغام يستنجد بالقوة الثانية فى الشام ، بالصليبيين .

ووصل أسد الدين شيركوه الى مصر — وفى معيته شاور — ، وانتصر على جيش ضرغام ، وتفرق عن ضرغام قواده وأعوانه ، ثم قبض عليه وقتل ، وأعيد شاور — نتيجة لهذا النصر — الى دست الوزارة .

غير أن شاور كان من خلقه الغدر والخيانة ، فلم يلبث أن حنث بوعده ، ورفض أن يدفع لشيركوه المبلغ المتفق عليه ، بل طلب اليه الانسحاب بجيشه والعودة الى الشام ، وآلم شيركوه مسلك شاور ، وأبى أن يستمع له ، وعسكر بجيشه عند مدينة بلبيس ، وتحصن بأسوارها ، وهنا فعل شاور ما فعله ضرغام من قبل ، فلجأ الى عمورى Amalanic ملك بيت المقدس الصليبى ، وأرسل يستنجد به ، ورحب عمورى بالدعوة وأسرع بالخروج بجيشه ، لأنه كان يخشى أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم فى الشام محاصرة بقوى نور الدين من الشمال والجنوب .

اتجه عمورى بجيشه فى سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) نحو مصر ، وحاصر أسد الدين فى بلبيس شهورا ثلاثة ، وأحس نور الدين بما يهدد جيشه فى مصر من خطر ، فبدأ يضغط على أملاك الصليبيين فى الشام ، وهاجم بانياس ، مما جعل عمورى يفكر جديا فى الانسحاب ، واتفق أخيرا مع شيركوه أن ينسحبا معا وفى وقت واحد من مصر .

خرجت القوتان من مصر ولكن لتعودا اليها ثانية وثالثة ، وكل منهما كانت تحاول فى كل مرة من المرات الثلاث أن تستولى على مصر للقضاء على القوة الأخرى ، ولكن النصر كتب أخيرا وفى الحملة الثالثة لقوى نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه .

وقُتل شاور لغدره وخيانته واستعانته بالصليبيين المرة بعد الأخرى ، ولم يجد العاضد من بين رجاله من يصلح للوزارة ، فاختار أسد الدين ليكون وزيره ، غير أن أسد الدين لم يعمّر فى الوزارة غير شهرين ثم مات ، فاختار العاضد ابن أخيه صلاح الدين وزيرا .

كان موقف صلاح الدين منذ ولى الوزارة موقفا غريبا ، فهو وزير لصاحب مصر الخليفة العاضد الفاطمى الشيعى ، وهو فى الوقت نفسه قائد لجيش نور الدين صاحب الشام السنى ، فهو موزع الولاء ، ومع هذا كان يتبع فى سياسته ازاء الرجلين الحكمة والتؤدة .

غير أن نور الدين كان يود أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية ، وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد ، والخطبة للخليفة العباسى ، وكان نور الدين مدفوعا فى هذا بسنيته ، وكرهه للشيعة ، وبرغبته فى

اجابة الخليفة العباسى الى طلبه ، فقد كان دائم الالحاح عليه أن يقيم له الخطبة فى مصر، ولكن صلاح الدين كان أعرف من نور الدين بأحوال مصر ، ولهذا آثر التمهل ، وأن يمهد الطريق قبل أن يضرب ضربته الأخيرة فقد كان رجال القصر والدولة الفاطمية غاضبين ، ويودون لو استطاعوا أن يقضوا على صلاح الدين ومن معه ،ليستعيدوا نفوذهم وسلطانهم المسلوب ، وكان صلاح الدين يخشى ان هو أسرع بقطع الخطبة والقضاء على الدولة أن ينجح هؤلاء فى الثورة عليه، يقول ابن واصل فى كتابه «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب »: « كان العادل نور الدين لما تحقق ضعف الدولة المصرية ، وأنه لم يبق لهم منعة ، كتب الى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد، ويخطب للخليفة من بنى العباس ، فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة لذلك ، لميلهم الى العلوية ، فلم يصغ نور الدين الى قوله ، وأرسل اليه يلزمه ذلك الزاما لا فسحة فيه .. »[1] .

وبدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقواد جيشه ورجال قصره ، فأبعد هؤلاء القواد عن القاهرة واستولى على اقطاعاتهم ، ومنحها لقواده هو، ليضمن ولاءهم واخلاصهم ، ثم أرسل الى نور الدين يستأذنه فى أن يرسل اليه أباه نجم الدين أيوب وأهله ، فأرسلهم اليه ، وكان نجم الدين أيوب بعد وصوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين ، فقد كان الرجل ذا دهاء ومكر وخبرة طويلة .

وبدأ صلاح الدين كذلك بتعميم حركة انشاء المدارس فى مصر ، وقد كان الهدف من حركة انشاء المدارس منذ بدأها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة هو محاربة المذهب الشيعى ، والدعوة للمذهب السنى وتدريسه، وقد كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين فى مصر هى المدرسة الناصرية التى أنشئت فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى ، ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكى ، ثم تبعه أفراد أسرته ورجال دولته ، فأنشأوا مدارس أخرى كثيرة فى مختلف المدن المصرية.

وخطا صلاح الدين خطوة أخرى ، فعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة ، فجعل القضاة فى سائر الديار المصرية شافعية ، يقول ابن واصل معقبا على حركة انشاء المدارس ، وعلى حركة تحويل القضاة من المذهب الشيعى الاسماعيلى الى المذهب الشافعى : « فاشتهر مذهب الشافعية، واندرس مذهب الاسماعيلية بالكلية ، وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به » ، وليس أبلغ من هذا القول للدلالة على قيمة هذه الخطوات التى كان يخطوها صلاح الدين فى حرص وحذر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ١ .

للتمهيد لتحقيق رغبة الخليفة العباسى ونور الدين بقطع الخطبة للعاضد .

ولما تم له ذلك كله جمع أمراء جيشــه ليستشيرهم فى أمر قطــع الخطبة ، فترددوا كثيرا ، وأخيرا تقدم فقيه يدعى الأمير العالم وتطوع أن يبدأ هو بتنفيذ هذه الفكرة ؛ وفى يوم الجمعة الأول من المحرم ســنة ٥٦٧ هـ خطب هذا الرجل ، ولم يدعُ للخليفة العاضد، وانما دعا للخليفة العباسى المستضىء بنور الله، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة التالية أمر صلاح الدين بتعميم الخطبة للخليفة العباسى فى مساجد الفسطاط والقاهرة جميعا، وبذلك انتهى آخــر خيط فى حيــاة الدولة الفاطمية .

أما الخليفة العاضد فيقال انه كان مريضا، فلما سمع بهذا النبأ اشتد به المرض ، وتوفى فى يوم عاشــوراء ، أى فى اليوم العاشر من المحرم من هذه السنة ؛ وهكذا انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت مصر قرابة قرنين من الزمان كانت مصر فى خــلالهما امبراطورية مستقلة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة .

الدولة الأيوبيــــة

للدكتور محمد مصطفى زياده

يقترب المؤرخ الحديث من تاريخ الدولة الأيوبية فى مصر من زاويتين متكاملتين ، وهما البيئة السياسية التى نشأت فيها هذه الدولة ، والأصل العائلى الذى نبتت منه ، وهــذا التكامل يجعل العبارات الافتتاحية فى قيــام الأيوبيين بمصر مزيجا من هاتين الزاويتين . أما البيئة السياسية التى نشأت فيها هــذه الدولة فهى الشرق الأوسط فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وأما أهم عناصر هــذه السياسة وأوضــحها أثرا فى قيــام الدولة الأيوبية فهى الخلافة الفاطمية التى ســوف يحل الأيوبيون محلها فى مصر ، ثم الخــلافة العباسية التى غدت تستمد قوتها من السلطنة السلجوقية المقيمة فى بغداد عاصمة العباسيين، ثم المملكة الصــليبية التى تأسست فى بيت المقدس وما حولها ، ثم الدولة الزنكية التى أسسها عماد الدين زنكى ، وهى الدولة التى تستطيع أن تكون نقطة بداية تاريخية لظهور الأيوبيين .

والمؤرخ الحديث يحسن صــنعا اذا هو اختار سنة من السنوات لوقفة يقفها هنيهــة لاستعراض أحوال هذه الدولة الزنكية ، ثم يتقدم من هذه السنة المختارة بعد ذلك رويدا رويدا حتى يغدو تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر حقيقة تامة . ولتكن هذه السنة المختارة ١١٢٧ م ، لا لأهمية تاريخية خاصة أو عامة ، بل لصلاحية نسبية معينة ، وهى أن عماد الدين زنكى أمير حلب بحق وراثة امارتها عن أبيه صار فيها أميرا كذلك على الموصــل ، بحق تعيينــه عليها من قبــل الســلطان محمود السلجوقى والخليفة المسترشد العباسى ، وبذا أصبح بحكم موقعه الجغرافى أمير أقوى دولة اسلامية فى غرب آسيا فى زمنه . ثم جمعت الصدفة التاريخيــة بين زنكى والأخــوين الكرديين نجــم الدين أيوب وأســد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين يوسف مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر ، وهذا هو الأصل العائلى لهذه الدولة

ووقعت هذه الصدفة سنة ١١٣٢ م ، حين وصــل زنكى الى قرب قلعة تكريت منهزما يريد عبور نهر دجــلة ، كيلا يقع بجيشه فى يد أعدائه ، فساعده نجم الدين أيوب حاكم تلك القلعة على العبور ، ومن هــذه المروءة نشأت صداقة بين زنكى وأيوب وشيركوه . ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل أيوب وأخوه وأهلهما على الرحيل فى شىء من السرعة ليلا عن تكريت ، ويقال ان ميلاد صــلاح الدين يوسف تلك الليلة لم يســتطع أن يؤخر ذلك

الرحيل ، مما ينبىء بأن سببا خطيرا هو الذى دعا الى انتقال الأخوين أيوب وشيركوه وأسرتيهما عن تكريت .

وذهب أيوب وشيركوه الى زنكى بالموصل ، ودخلا فى خدمته ، ولم يلبثا أن شاركا فى حروبه وسياسته ، وهى العمل على تكوين جبهة اسلامية قوية لاخراج الصليبيين من الشام . وفى سبيل ذلك لم يتحرج زنكى من الهجوم على مدينة دمشق سنة ١١٣٩ ، على أنه قنع من هذا الهجوم باستيلاء قائديه أيوب وشيركوه على بعلبك التابعة للامارة الدمشقية ، وعين أيوب حاكما عليها . وبفضل هذين القائدين وغيرهما من رجال الدولة الزنكية استطاع زنكى أن يتقدم بمشروع الجبهة الاسلامية المتحدة خطوات معنوية واسعة ، أهمها استيلاؤه من الصليبيين على الرها سنة ١١٤٤ م . ثم توفى زنكى بعد ذلك بسنتين ، اذ اغتيل وهو على حصار حصن جعبر الواقع على نهر الفرات الى الجنوب الشرقى من حلب .

ثم بدت وفاة زنكى فرصة لبعض أمراء البلاد المفتوحة أن يستردوها من ولديه ، وهما نور الدين محمود الذى آل اليه القسم الغربى من المملكة الزنكية وعاصمته حلب ، وسيف الدين غازى الذى آل اليه القسم الشرقى منها وعاصمته الموصل . ومن تلك البلاد بعلبك التى حاول الدمشقيون أمراؤها الأقدمون استرجاعها من حاكمها نجم الدين أيوب ، ولم يقو أيوب على دفعهم عنها بالقتال ، ففضل الرضوخ للواقع وسلم بعلبك سنة ١١٤٦ ودخل خدمة أمراء دمشق ، ولم يلبث أن أوغل فى سياسة الامارة الدمشقية وحوادثها حتى أصبح القائد العام لجيوشها . أما شيركوه فانتقل بعد وفاة زنكى الى خدمة ابنه نور الدين محمود بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام فى الدولة النورية . وفى سنة ١١٥٤ جهز نور الدين حملة للاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لسياسة توحيد الجبهة الاسلامية التى ورثها عن أبيه ، وعين شيركوه لقيادة هذه الحملة . ومن ثم بدأ شيركوه فى مفاوضة أخيه أيوب لتسليم دمشق بالحسنى ، وانتهت المفاوضات أواخر تلك السنة بأن أصبحت الدولة النورية مسيطرة على محور عاصمتيه حلب الى دمشق .

أما الأخوان أيوب وشيركوه فبلغا ذروة القوة والنفوذ بعد تسليم دمشق ، اذ تعين أيوب حاكما على هذه المدينة من قبل نور الدين ، وميزه نور الدين عن سائر رجاله باعطائه حق الجلوس فى حضرته ، رعاية لسابق علاقته بأبيه زنكى . وتعين شيركوه نائبا للسلطنة باقليم دمشق كله ، كما استقر باقطاع كبير فى حمص . وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب فليس يوجد بالنصوص المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته (اذا أردت توسعة فعندك على بيومى ص ٨ — ٨٤) ما عدا أنه عاش بالبلاط النورى بدمشق ،

وأنه تقلب فى بيئة عالية ، ولابد أنه قضى معظم أيامه فى تعلم علوم طبقته وفنونها ، ويستخلص كذلك مما هو معروف من اشارات مبعثرة أن السلطان نور الدين عين الشاب صلاح الدين، وهو فى الحادية والعشرين من عمـره ، أى سنة ١١٦٠ م فى وظيفة شحنة دمشق ، وهى وظيفة رئيس الشرطة والموكل بالأمن بها .

هذه خلاصة عابرة لبعض أحوال الدولة الزنكية النورية التى نشأ فيها مؤسسو الدولة الأيوبية فى مصر ، ولا أقل هنــا من عرض مشابه لبعض أحوال الدولة الصليبية بالشام والدولة الفاطمية بمصر ، وكلاهما ذو شأن فى تأسيس الدولة الأيوبية . والمقصود بالصليبيين هنا مملكة بيت المقدس سنة ١١٥٣ م بالذات، حين استولى ملكها بالدوين الثالث على ميناء عسقلان الواقعة على الطريق بين الشام ومصر، اذ ترتب على هذه الحركة الحربية قيام نور الدين بالاستيلاء على دمشق فى السنة التالية، كما ترتب عليهــا كذلك تطور السـياستين النورية والصليبية الى سباق جدى للاستيلاء على مصر من خلفائها الفاطميين .

وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر وقتذاك فى دور الاحتضار ، وخليفتها العاضد ألعوبة لينة وسط حزبية فاسدة ، ولا سيما بعد أن دعا شاور أحد زعيمى هذه الحزبية السلطان نور الدين لمؤازرته ، على حين دعا ضرغام — وهو الزعيم الآخر — الملك عمـورى الأول لمؤازرته . ولذا جرى السباق النورى الصليبى بين ثلاث حملات عسكرية صليبية ومثلهــا نورية ، وأولها سنة ١١٦٣ ، وآخرها ١١٦٩ ، وانتهى السباق حين استطاع القائد شيركوه أن يخرج الصليبيين من مصر ، وأن يتخلص نهائيا من الزعيمين ضرغام وشاور ، وأن يصبح وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى . وبذا حقق شيركوه رغبات نور الدين ، ما عدا اعتلاءه الوزارة فان نور الدين رأى فى ذلك شيئا من الطموح الخطير .

وصحب شيركوه فى حملاته الثلاث صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ، وشارك صلاح الدين فى حروب هذه الحملات ومؤامرتها ، ودل على مهارة ملحوظة . فلما توفى شيركوه (مارس ١١٦٩) بعد ثلاثة أشهر فقـط من توليته الوزارة الفاطمية ، اختــار المحيطون بالخليفة العاضد بعده للوزارة ظنا منهــم أن السلامة السياسية تقترح عليهم احلال الشاب محل عمه ، وعمره وقتذاك احـدى وثلاثون سنة ، باعتبار أنه أقل ضباط الجيش النورى خبرة بشئون الحـرب والسـياسة . غير أن صــلاح الدين لم يلبث أن ألقى على رجــال القصر الفاطمى درسا تعلموه ولم يستطيعوا نسيانه ، وهو أنهم بيتوا له صيف تلك السنة مؤامرة بزعامة خصى نوبى اسمه مؤتمن الدولة نجاح ، واتصلوا بالملك عمورى لترتيب هجوم داخلى وخارجى على القوات النورية فى وقت واحد . غير أن صلاح الدين علم بتفاصــيل المؤامرة قبل تنفيـذها ، فقبض على زعيمها

وشركائه بالقاهرة وأمر باعدامهم وأخمد حركة عصيانية بالجيش الفاطمى ، كما استطاع اجلاء أسطول صليبى بيزنطى بنفســه عن دمياط . ودل صلاح الدين بذلك كله على مقدرة فائقة فى غير جلبة ، كما دل سيده نور الدين بحركاته الحربية المتوازية ضد الصليبيين بالشام على عزمه على مساعدته ، ما دامت أهدافه تقوية مركز الدولة النورية بالقاهرة .

وكان اجلاء الصليبيين عن سواحل دمياط تلك السنة نقطة تحول فى تاريخ صلاح الدين، وفى تاريخ الحمـــلات الصليبية على مصر . ذلك أن رجوع هــذا الوزير العسكرى من دمياط منتصرا ، أقنع الخلافة الفاطمية والباقين من رجالهــا ، وكذلك القــاهرة وأهلها بأنه يستطيع حمــاية الدولة من اغارة المغيرين ، فضلا عن حماية مركزه من مؤامرات المتآمرين وبدأ بذلك ما عمل على بنائه لنفسه فى قلوب الخاص والعام . واغتنم صلاح الدين هــذه الفرصة فأرسل الى سيده نور الدين يطلب ارسال الباقين بالشام من أهله حتى وقتذاك الى مصر ، ليستعين بهم فى وظائف الدولة ، فوصلوا الى القاهرة فى فبراير سنة ١١٧٠ ، وعلى رأسهم أبوه السياسى الداهية نجم الدين أيوب ، فجعله صلاح الدين على بيت المال ، كما جعل بهاء الدين قراقوش مملوك عمــه شيركوه واليا على القاهرة ، وأقطع اخـوته وأعمامه وأولادهم اقطاعات الفاطميين الذين نفوا الى الصعيد بعد هدم ثورة مؤتمن الدولة.

ويبدو من تطور الحوادث بعد ذلك أن نجم الدين جاء الى مصر بتعليمات معينة من عند نور الدين وأن قيامه الى جانب ابنــه يوسف ضاعف من حركة هذا التطور فأعقب وصوله الى القــاهرة مثلا تأسيس مدارس (كليات) لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، وبذا بدأت مناهضــة فقه المذهب الشــيعى ومراكزه الرسمية . ثم أخذ صلاح الدين فى ازالة كثير من مظــاهر المذهب الشــيعى فى الآذان ، كما أخذ فى اضافة أسماء الخلفــاء الراشــدين فى الخطبة ، فضــلا عن الدعاء للسلطان نور الدين بعد الخليفة العاضد . ثم حدث أن مرض الخليفة العاضد فاتفق صلاح الدين مع أبيه أيوب على استغلال ذلك بقطع اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة واحلال اسم الخليفة العباسى محله فى أحد جوامع القاهرة، وتم ذلك فى الجمعة الأولى من شهر المحــرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ســنة ١١٧١ م) وتقرر أن يعم ذلك أنحاء القاهرة فى الجمعة التالية ، لكن العاضد لم يمتد به أجله الى هذا الميعاد ، اذ مات خلال الأسبوع الواقع بين هاتين الجمعتين ، وســقطت الدولة الفاطمية سقوطا صامتا بعد قيامها فى مصر قرنين ونصف قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخــلافة الفاطمية فى مصر أصداء كثيرة فى الشرق الأدنى كله ، فأرسل الخليفة المستضىء العباسى لنور الدين بسيفين أحدهما رمزا لسيطرته على الشام بما فى ذلك

دمشق ، وثانيهما رمزا لامتداد سلطانه الى مصر ، على أن يكون نائبه فيها صلاح الدين (على بيومى ١٨١ — لينبول ١٩٥ — مذكرات ٣٣) . أما صلاح الدين نفسه فأصبح القوة الكبرى فى مصر ، غير أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المغتبط بمأساة الفاطميين ، فظل مثلا فى دار الوزارة ، ولم ينتقل الى قصر الخلافة حتى لا يثير انتقاله شيئا من الظنون ، وفتح القصور الفاطمية ، لا ليستولى على ما فيها لنفسه ، بل ليوزع موجوداتها على أتباعه وأنصاره ، وليرسل لنور الدين منها هدية ضخمة . وأما أبناء البيت الفاطمى وأقاربهم فأودعهم صلاح الدين دورا مختلفة ، ومنع الاختلاط بينهم بتحديد اقامتهم .

ثم عكف صلاح الدين على التمكين لنفسه نهائيا فى مصر ، وضاعف من جهوده فى مد سور القاهرة حتى غدا محيطا بالفسطاط والقطائع والعسكر ، وبدأ فى تشييد القلعة على الطرف الغربى من جبل المقطم ، لتكون مشرفة على جميع أجزاء هذا السور ، وأنفذ حملة الى برقة ، وأتبعها بحملة ثانية الى فلسطين لتأمين الدولة التى أزمع انشاءها فى مصر وتقويتها عسكريا واقتصاديا ، ولم يشأ أن ينتظر قدوم نور الدين الى فلسطين ، بل قفل راجعا الى مصر اجتنابا للقائه .

وبدأ الشك يساور نور الدين بسبب هذه الحركات الداخلية والخارجية ، وشاع فى الأوساط الصديقة والمعادية للأيوبيين فى القاهرة ودمشق وحلب أن نور الدين يوشك أن يسير الى مصر على رأس حملة كبيرة يؤكد بها تبعية مصر وصلاح الدين للدولة النورية أو يقوم بعزل صلاح الدين ، واستدعت هذه الاشاعة مجلسا جمع بالقاهرة أبناء البيت الأيوبى وأقاربهم وخواصهم ، وأوردت المراجع العربية محضرا بما دار فى ذلك المجلس ، وفيه دلالات على ما جال فى قلوب الزعامات الأيوبية من مختلف النيات المعقودة على تكوين دولة للبيت الأيوبى فى مصر أو فى غيرها من بلاد الشرق الأوسط . وهو على أية حال يشرح نظرية المقريزى فى تكوين الدولة الأيوبية ، ونصه : « وفيها ابتدأت الوحشة بين .. نور الدين .. وصلاح الدين .. وعزم (نور الدين) على دخول مصر وقلع صلاح الدين منها فبلغ ذلك صلاح الدين ، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم ، فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : « اذا جاء (نور الدين) قابلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد » ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فسبهم نجم الدين أيوب ، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى ومكر وقال لابن ابنه تقى الدين : « اقعد ، وسبه . والتفت الى ولده .. صلاح الدين ، وقال : « أنا أبوك ، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك . أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد الخير لك أكثر منا ؟ قال « لا » ، فقال (نجم الدين): والله لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكنا الا أن نترجل له ، ونقبل

الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فاذا كنا نحن هكذا ، فكيف يكون غيرنا ؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى السلطان وحده لم يتجاسر على الثبات فى سرجه ، وما يسعه الا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه . فان أراد عزلك فأى حاجة الى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ، ويولى البلاد من يريد ». وقال للجماعة كلهم : « قوموا عنا ، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده ، يفعل بنا ما يريد » . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم الى نور الدين بهذا الخبر . ثم ان نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : « أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير ، وتطلعهم على ما فى نفسك فاذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم أموره وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هذا العسكر ، وأسلموك اليه . وأما بعد هذا المجلس فانهم سيكتبون اليه بقولى فاكتب أنت أيضا فى هذا المعنى ، وقل له أين حاجة الى قصدى ؟ تجاب يجىء فيأخذنى بمنديل يضعه فى عنقى ، فانه اذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده ، والأيام تندرج ، والله عز وجل كل يوم هو فى شأن » . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده ، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين .

غير أنه يبدو أن صلاح الدين لم يطمئن الى هذا الموقف السالب ، فعاد الى عمليات تأمين مركزه داخليا وخارجيا ، بل تنبىء بعض هذه العمليات عن تفكيره فى الانتقال عن مصر الى غيرها من البلاد المجاورة اذا أخفقت مشروعات تكوين دولة أيوبية فى القاهرة ، مثال ذلك تقريره غزو بلاد النوبة وارساله حملة كبيرة الى تلك البلاد بقيادة تورانشاه وهو أكبر اخوته . وسار تورانشاه الى أسوان أواخر ١١٧٢ ، وزحف جنوبا حتى استولى على ابريم ، ثم عاد الى مصر بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للأغراض التى تغياها صلاح الدين . ومثال ذلك تقرير صلاح الدين ارسال حملة بقيادة أخيه تورانشاه أيضا لمحاولة فتح اليمن ، حيث تكللت هذه المحاولة بالنجاح أواخر سنة ١١٧٣ . وأما من الناحية الداخلية فان صلاح الدين استطاع أن يهدم مؤامرة ثانية لاعادة الدولة الفاطمية اذ قضى على هذه المؤامرة وهى فى مهدها ، بأن قبض على زعمائها ورئيسهم عمارة اليمنى، واستفتى العلماء فيهم فأفتوا بقتلهم ، فشنقهم جميعا فى أبريل سنة ١١٧٤ . وفى الشهر التالى توفى نور الدين واندرجت الأيام ، كما قال نجم الدين أيوب الذى كانت وفاته فىالسنة السابقة لوفاة نور الدين .

على أن الجو لم يصبح بذلك خاليا تماما لصلاح الدين ، ولذا لم يعلن استقلاله بمصر مباشرة ، بل عمد أولا الى معالجة الموقف

الذى نشأ عن وفاة نور الدين ، وقيام ابنه الطفل اسماعيل فى المملكة النورية الشاملة لدمشق وحلب . ثم كان هناك سيف الدين غازى ملك الموصل، وهو ابن أخى نور الدين، ولابد لصلاح الدين أن يحسب له حسابه وهذا فضلا عن ملك السلاجقة بالروم (أى آسيا الصغرى) ، وهو قلج أرسلان الثانى. على أن صلاح الدين لم ير فى هذا أو ذاك ندا له أو منافسا أو بديلا ، اذ تولدت عنده أنه هو الوارث الكفء لمشاريع نور الدين وسياسته فى تكوين جبهة اسلامية متحدة لمجاهدة الصليبيين ، وأنه هو الذى يستطيع النهوض بذلك العبء المزدوج .

وبدأ صلاح الدين عمله فى سبيل تكوين جبهة اسلامية متحدة بالشام ، حيث كان المحيطون بالطفل اسماعيل بن نور الدين حزبين ، أحدهما دمشقى يريد أن تكون دمشق عاصمة للمملكة النورية ، وتكون اقامة الملك الطفل اسماعيل بها ، وثانيهما حلبى يريد أن تظل حلب عاصمة للمملكة النورية كما كانت منذ نشأتها . وتغلب الحلبيون بمساعدة الصليبيين، واستنجد الدماشقة بصلاح الدين، فخف اليهم بفرقة قليلة من الجند ، وأعلن أن غرضه حماية مصالح الملك الطفل ، ودخل دمشق فى نوفمبر سنة ١١٧٤ . وذهب منها الى حمص ثم حماة ثم حلب ، حيث كان الملك الطفل مقيما . غير أن مدينة حلب أغلقت أبوابها فى وجه صلاح الدين ، فحاصرها حصارا قصيرا ، ثم ارتد عنها قانعا مؤقتا بولاء الشام له ما عدا حلب . وهنا تحرك سيف الدين غازى ملك الموصل ، ولم يكن من المنتظر منه أن يقف صامتا ، على حين صلاح الدين يعلن أنه يعمل لمصلحة الملك الصغير . ولذا أرسل سيف الدين غازى حملة الى حلب لمؤازرة الحلبيين فيما سوف يقومون به من حركات لمقاومة صلاح الدين ، وانضمت هذه الحملة الى الجند الحلبى ، والتقت بجيش صلاح الدين قرب حماة عن بلدة اسمها قرون حماة فى ابريل سنة ١١٧٥ . وأعقب صلاح الدين انتصاره هناك بانتصار ثان على القوات الحلبية الموصلية فى أبريل من السنة التالية (١١٧٦) عند بلدة اسمها بئر التركمان ، ودخل مدينة حلب وعقد مع الملك اسماعيل بن نور الدين صلحا تم فيه الاعتراف بشرعية تملك صلاح الدين على جميع ما بيده من البلاد التى امتدت وقتذاك من مصر الى قرب أطراف الفرات .

ومنذ هذه السنة (أى ١١٧٦ م) غدا صلاح الدين ملكا مستقلا بمصر والشام اذ شهدت بذلك معاهدة الصلح بينه وبين الملك اسماعيل بن نور الدين ، كما شهدت به توقيعات وصلت اليه من عند الخليفة العباسى، وهذا وذلك فضلا عن سك النقود الذهبية والفضية والنحاسية باسم صلاح الدين بمصر والشام . وانصرف صلاح الدين مدة السنوات التالية حتى سنة ١١٨٢ الى أعمال

داخلية ، ومنها بداية بناء القلعة وتكميل السور المحيط بالقاهرة وأسلافها من العواصم الاسلامية ، وتجديد بعض تحصينات دمياط والاسكندرية وترميم الأسطول باضافة سفن جديدة . ومن أعمال صلاح الدين فى تلك السنوات كذلك تأسيس المدارس — أى كليات التخصص فى علوم الدين على المذهب السنى — لمناهضة الشيعة التى توطنت بمصر على أيدى الفاطميين ، ومن هذه مدرسة الامام الشافعى والناصرية والقمحية والسيفية بالقاهرة والفسطاط ، والحافظية والسلفية بالاسكندرية ، وبعض هذه المدارس يرجع أصله الى ما قبل أيام صلاح الدين . على أن هذه السنوات التى صرف صلاح الدين معظمها فى أعمال سلمية داخلية لم تخل من أعمال عسكرية وسياسية أهمها بدء اصطدامه بقوى مملكة بيت المقدس الصليبية بقيادة أوناط أمير الكرك وانهزامه أمام تلك القوى عند الرملة سنة ١١٧٧ ، مما كان بمثابة درس نافع للمستقبل . ويبدو أن هذه الصدمة أجنحت صلاح الدين الى فكرة مهادنة الصليبيين مؤقتا ، بدليل عقده سنة ١١٨٠ هدنة لمدة سنتين مع مملكة بيت المقدس ، وعقده هدنة مشابهة فى أواخر تلك السنة مع قلج أرسلان ملك السلاجقة بالروم ، وأمراء الموصل والجزيرة وأربل وكيفا وماردين . ودلت هذه الهدنة الثابتة على مبلغ ما وصل اليه صلاح الدين من مكانة بالشرق الأوسط ولما يمض على استقلاله بمصر والشام سوى بضع سنين .

ثم توفى سيف الدين غازى أمير الموصل فى أواسط سنة ١١٨١ ، وتوفى بعده اسماعيل ابن نور الدين فى ديسمبر من تلك السنة . واضطربت شئون الهدنة القائمة بين صلاح الدين والأمراء المسلمين ، حين عمد بعض أولئك الأمراء الى مفاوضة الصليبيين ليكونوا يدا واحدة على منع صلاح الدين من الاستيلاء على الموصل أو حلب . وجعل صلاح الدين من هذه المفاوضات سببا للزحف من القاهرة فى مايو سنة ١١٨٢ ابتغاء القضاء على جميع أنواع المقاومة ضده تمهيدا لاعلان الجهاد ضد الصليبيين . على أنه لم يشأ أن يكون البادىء بالعدوان ، احتراما للهدنة المعقودة ، ، فظل بدمشق حتى انتهى أجل هذه الهدنة — فى سبتمبر من تلك السنة ، ثم تحرك منها نحو الفرات ، فعبره عند مدينة البيرة وتتابعت انتصارات صلاح الدين فى الأراضى الفراتية اذ سلمت له الرها وسروج والرقة وقرقيسيا ونصيبين وتقدم صلاح الدين أخيرا نحو الموصل فى نوفمبر من السنة نفسها ، لكنها استعصت عليه ففضل الاستيلاء على غيرها من المدن مثل سنجار وآمد ، وما زال يعمل فى تلك الأطراف حتى سلمت له حلب فى يونية من السنة التالية .

وأضحى صلاح الدين بعد تسليم حلب أقوى ملوك المسلمين فى الشرق الأوسط وأحس هو نفسه بأهمية هذا الحادث ، بدليل قوله للمحيطين به وهو صاعد الى القلعة الحلبية ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح

هــذه المدينة ، والآن قد تبينت أنى أملك البــلاد ، وعلمت أن ملكى قد اســـتقر وثبت .. » ..

والواقع أن دولة صـــلاح الدين بعد تسليم حلب غدت من حيث القوة والسـعة والمناعة الحربية أعظم دولة فى الشرق الأوسط كله ، كما أضـــحى اسمه موضع التبجيل العميق ، ومصـــداق ذلك قول ابن جبير فى مذكراته بصدد صـــلاة الجمعة أن الحجاج حين سمعوا دعاء الخطيب لصـــلاح الدين « ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصـادقة ، وتخفق الألســـنة بذلك خفقا يذيب القلوب خشوعا لما وهب الله لهذا السلطان العــادل (صلاح الدين) من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة النــاس » . وليس عجبا أن يشعر صلاح الدين بعد أن صارت له كل هذه التوقيعات أن واجبه أضحى متركزا فى الجهاد ضد الصليبيين ، واذا كان ثمة ما يمنعه من الاقدام الكلى عــلى الجهاد حتى وقتذاك كبقاء الموصل وبعض البلاد المجاورة خارجها عن دولته ، فان صلاح الدين سار لاخضاع هذه البقايا سنة ١١٨٥ ، ولم تنته السنةالتالية حتى دخل أمراء الموصـــل وشهرزور واربل وغيرها فىطاعته ، ولم يبق أمامه من كردستان الى السودان سوى مملكة الصليبيين وغيرها من الامارات الصليبية بفلسطين .

وكان صلاح الدين عليما بمواطن القوة والضعف فى الأوساط الصليبية ، وذاق مرارة الهزيمة على أيديهم فىوقعة الرملة سنة ١١٧٧ ، كما ذاق حلاوة النصر عليهم فى وقعـــة مرج عيون سنة ١١٧٩ . على أن صلاح الدين لم يشــــأ أن يجعل مشروع توحيـــد الجبهة الاسلامية مرهونا بما يأتى به الحوادث من هزيمة أو نصر فى ميدان النضـــال ضـــــد الصليبيين ولذا فضل الانصراف الى شئون توحيد الجبهة الاسلامية ، وجنح سنة ١١٨٠ الى مهادنة مملكة بيت المقـــدس مؤقتا لمدة سنتين . غير أن عدوا صليبيا أفســـــد جو الهدنة ، وهو أرناط أمير حصن الكرك ، اذ عمد هذا الأمير فى أوائل ســـنة ١١٨٣ الى القيام بحملة بحرية من خليج العقبة للاغارة على شواطىء البحر الأحمر ، تمهيدا للزحف على المدينة أو مكة . وأرسل العادل أخـــو صلاح الدين ، وهو وقتذاك والى مصر سفنا مصرية تعقبت السفن الصليبية حتى اشتبكت معها فى ميناء الحوراء شمالى ينبع ، وألحقت بها وبجنودها هزيمة فادحة . حدث كل ذلك وصلاح الدين مشغول بأعمال توحيد الجبهة الاسلامية مرهونا بما تأتى به الحوادث من الصليبيين لمدة أربع سنوات تبدأ من ١١٨٥ . وللمرة الثانية كان أرناط أمير حصن الكرك سببا فى افساد جو الهدنة القائمة بين الطرفين، وذلك أنه هاجم قافلة تجارية سلمية وهى تمر على مقربة من حصـــــن الكرك سنة ١١٨٧ فاســـتولى على متاجرها ، كما احتجز أختا لصلاح الدين كانت على سفر مع تلك القافلة على ما قيل . ولذا أقسم صلاح الدين ليقتلن أرناط اذا وقع فى يده يوما من الأيام واعتبر حادثة القافلة اعلانا بانتهـــاء الهدنة وبداية

العدوان ، وأرسل فى طلب الجند من مصر والشام والبلاد الفراتية . وخرج صلاح الدين من دمشق فى مارس سنة ١١٨٧ مستعدا للقتال ، فعسكر عند عشترى جنوبى قصر يعقوب ، حيث تلاحقت اليه أجناد مختلف البلاد ، واستقر الرأى بين أرباب مشورته على السير نحو طبرية ، تمهيدا للزحف منها نحو صفورية حيث اجتمعت عساكر مملكة بيت المقدس ، وهى قرية فى منتصف الطريق بين طبرية وعكا . على أن الاصطدام وقع أخيرا بين الفريقين عند قرية حطين وهى فى منتصف الطريق تقريبا بين طبرية وصفورية ، وذلك فى يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ ، وأسفر ذلك الاصطدام عن هزيمة صليبية فادحة ، ذهب فيها معظم جيش مملكة بيت المقدس ، فضلا عن جيوش الامارات الصليبية التى اشتركت فى المعركة ، كما وقع فيها ملك بيت المقدس وأرناط أمير الكرك ، وغيرهما أسرى فى يد صلاح الدين .

لذلك كانت هزيمة الصليبيين عند حطين بداية النهاية لمملكة بيت المقدس فى فلسطين ويكفى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين بعد يوم هذه الواقعة ، ففى اليوم التالى عاد صلاح الدين الى طبرية ، فسلمت اليه قلعتها من غير مقاومة ، وهى التى استعصت عليه بعد استيلائه على طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو بلاد الساحل ، ليقطع بالاستيلاء عليها بما عساه يرد من نجدة أوربية لمملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل بها بين مصر والشام . وكان أقرب هذه البلاد من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له فى ١٠ يولية ، وكانت شروط التسليم أن يرحل الصليبيون عن البلد اذا شاءوا ، أو يقيموا حيث هم بشرط دفع الجزية المقررة ، فمن شاء الرحيل ضاعت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء البقاء بقيت أملاكه فى يده وأسرع الى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالى عكا وجنوبيها ، فضلا عن كثير من المدن الداخلية بما فى ذلك مدينة بيت المقدس نفسها التى كان تسليمها له بعد حصار قصير ، وكل ذلك فى مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر من وقعة حطين . والواقع أنه لم تأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية فى يد صلاح الدين ، ولم يبق فى حيازة الصليبيين سوى أمارتى أنطاكية وطرابلس وبعض المدن الساحلية ، وأهمها صور التى نجحت فى مقاومة الحصار لها مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن التى استولى عليها صلاح الدين ، ووصول حملة صليبية صغيرة اليها وقتذاك .

ومن صور نبعت المقاومة ضد صلاح الدين ، فمنها سارت رسل الى أوربا تستنهض ملوكها لتجيز الحملة المعروفة باسم الحملة الصليبية الثالثة ، ومنها تحركت القوات الصليبية نحو عكا ، لمحاصرتها أملا فى استعادتها من صلاح الدين . وغدت عكا منذ أواسط ١١٨٩ م ميدانا لعمليات حربية

نصف دائرية تقريبا ومركزها حامية أيوبية تحاصرها قوات صليبية ، وهذه القوات الصليبية يهاجمها صلاح الدين ليفسد عليها حصارها للحامية الأيوبية المركزية . ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك الى عكا بقيادة رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وانضمت السفن والجند الانجليزية والفرنسية الى القوات الصليبية المحاصرة ، وشددت على عكا الحصار من ناحيتى البر والبحر حتى سقطت فى يدها بعد حصار طويل حتى أواسط ١١٩١ (يولية)أى مدة سنتين مريرتين تخللتهما حوادث بطولة حقيقية وقصصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق الى بلاده بعد سقوط عكا ، على حين بقى رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا سنة كاملة بالشام ، وجعل من عكا قاعدة لاستعادة مملكة بيت المقدس . وفى هذه المدة استطاع رتشارد أن ينتصر على صلاح الدين مرة واحدة فى أرسوف ، وأن يستولى على يافا ، غير أنه أخفق فى جميع محاولاته للزحف ضد بيت المقدس . ولم تغير أعماله الحربية كلها شيئا من مجرى الحوادث . لأن ما أحدثه صلاح الدين بالصليبيين تطلب مجهودا لا تستطيع حملة واحدة أو شخصا واحدا أن تمحوه فى بضعة أشهر ، ومن الدليل على ذلك أن ملك انجلترا عمد بعد انتصاره فى أرسوف مباشرة الى فكرة المفاوضة والمصالحة ، ليصل الى تسوية مرضية لعلها تكفل بقاء دولة صليبية أوربية بالشرق الى جانب دولة صلاح الدين . وانتهت هذه المفاوضات بعقد صلح الرملة (سبتمبر سنة ١١٩٢) الذى اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين، وأن يؤذن لفئات الحاج المسيحى بزيارة بيت المقدس على شرط قدومها من عكا .

ويتضح من هذا الصلح أن صلاح الدين حقق فى عهده أقصى ما تطلعت اليه أجيال المسلمين بالشرق الأوسط ، منذ حلول الصليبيين بفلسطين ، وأحس صلاح الدين وهو فى أوجه هذا أن مهمته تحققت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التى تجشمها من أجل ذلك أنهكت صحته فأصابه المرض ، وتوفى بدمشق (مارس ١١٩٣) ، ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ، وقبره على مسافة يسيرة من قبر أستاذه نور الدين بن زنكى ، ومن الجامع الأموى .

والباحث لا يستطيع الا أن يشعر بالفراغ الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، ومما يزيد فى هذا الشعور أن الدولة الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها فى العصور الوسطى من تقسيم بين أفراد البيت الأيوبى ، اذ قسم صلاح الدين دولته فى وصيته بين أولاده وأخوته وأولادهم . غير أنه لم تمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى أخوه

الأكبر وهو العادل هذه الوصية ، وملأ هو الفراغ الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن أخضع لسلطاته جميع أبناء البيت الأيوبى ، ووحد معظم أملاكهم تحت يده . وأعلن العادل موقفه هذا سنة ١٢٠٠ ، حين خطى الخطوة النهائية فى سبيل توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى ، بخلع حفيد صبى من أحفاد صلاح الدين بالقاهرة ، اذ قال فى مجلس من أمراء الدولة « انه قبيح بى أن أكون أتابك صبى ، مع الشيخوخة والتقدم . والملك ليس هو بالارث ، وانما هو لمن غلب .... والرأى أن يمضى هذا الصبى الى الكتاب وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فاذا تأهل وبلغ أشده نظرت فىأمره وقمت بمصالحته».

وامتد عهد العادل فى الدولة الأيوبية ثمانى عشرة سنة (١٢٠٠ — ١٢١٨) وظلت السلطنة بيد أولاده دون غيرهم من أبناء البيت الأيوبى ، ولذا كان تاريخ الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين ، ثم بعد العادل كذلك ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى انتهت الدولة الأيوبية المتحدة سنة ١٢٥٠ . وتأثرت بهذه المنازعات الداخلية سياسة الدولة الأيوبية نحو الصليبيين ، فلم يستطع سلاطينها القيام بجهود مشابهة لما قام به صلاح الدين ، بل عمدوا الى سياسة المسالمة رغبة فى تجنيب البلاد ويلات الحروب .

وفى هذه السنوات تحول النشاط الصليبى نحو مشروع الاستيلاء على مصر بالذات ، اذ اعتقدت الزعامات الصليبية فى أوربا والشرق أنه لا فائدة من محاربة القوى الاسلامية بالشام ، ما دامت السلطنة الأيوبية قائمة بمصر . وشجعت المدن التجارية الايطالية على تنفيذ هذا المشروع ، لأن الاستيلاء الصليبى على مصر سوف يمكن لهذه المدن من انشاء جاليات تجارية لها بالموانى المصرية ، على غرار ما تم لها بالمدن الفلسطينية وسوف يفتح لها الطريق الى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية . ووافق هذا التحول فى النشاط الصليبى دعوة البابا انوسنت الثالث ١٢١٦ م لاعداد مشروع حملة صليبية هى المعروفة بالخامسة . وسن تنفيذ هذا المشروع سنة ١٢١٨ م بوصول أسطول صليبى كبير والغائه الحصار على دمياط . وأسرع السلطان العادل بالقدوم من شمال الشام الى مصر لدفع هذه الحملة الصليبية ، لكنه توفى فى الطريق قريبا من دمشق ، وأعقب وفاته تقسيم الدولة الأيوبية مرة أخرى بين أفراد البيت الأيوبى ، وكانت مصر من نصيب ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، فوقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية .

واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط ، ومع هذا أظهر السلطان الكامل روح المسالمة التى سار عليها الأيوبيون عموما نحو الصليبيين منذ أوائل أيام ابنه العادل فعمد الى معالجة المشكلة الصليبية الرابضة بسفنها وجنودها فى دمياط ، بعرض المفاوضة والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين .

وخلاصة ما عرض السلطان الكامل أن

يجلو الصليبيون عن دمياط والشواطىء المصرية جلاء تاما ، وان يقدم السلطان للصليبيين مقابل ذلك مدينة بيت المقدس ، ومعظم المدن الفلسطينية التى أخذها منهم صلاح الدين ، أى مملكة بيت المقدس الصليبية وبلادها كلها تقريبا ، ما عدا بلدتين صغيرتين واقعتين عند الأطراف المصرية الفلسطينية ، وهما الكرك والشوبك لما لهما من أهمية استراتيجية ، غير أن الصليبيين رفضوا هذا العرض السخى ، ولو كان غرضهم دينيا فقط لما ترددوا فى قبوله ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية . أما الأسباب التى دعت الى رفض عرض السلطان فهى أن المندوب البابوى فى المعسكر الصليبى واسمه بلاجيوس رأى أن المفاوضة لا تكون الا بعد هزيمة الأيوبيين ، وأن المصالحة لا تكون الا بعد دفع فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يتحركوا من دمياط . ثم ان المدن الايطالية التى اشتركت فى هذه الحملة بجنودها وأموالها وأطماعها عز عليها أن تكون هناك شروط معناها الجلاء عن دمياط ، وهى وقتذاك الثغر التجارى الهام الذى تستطيع المصالح التجارية الايطالية أن تنفذ منه الى جوف البلاد المصرية .

وفى صيف سنة ١٢٢١ م ، والنيل على وشك الامتلاء بماء الفيضان السنوى ، تحرك الصليبيون من دمياط ، حسبما انعقدت عليه نياتهم البليدة ، لأنهم لم يصلوا الى قرارهم هذا الا بعد ثمانية عشر شهرا من تفكيرهم فيه . وقبالة بلدة طلخا ، وشمالى المعسكر الأيوبى عند بحر أشموم طناح ، توقفت القوات الصليبية فى البر والبحر استعدادا لدفع الأيوبيين الى الوراء ، وازالتهم عن الطريق الى القاهرة . غير أن السلطان الكامل أمر بفتح كثير من السدود والجسور ، فغرقت مساحات شاسعة من الأراضى ، ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعوقهم عن التقدم الى الأمام ، وتعزلهم عن قاعدتهم العسكرية بدمياط ، ما عدا طريقا ضيقا عند بلدة أشموم طناح . هكذا انحصر الصليبيون ، وذهبت آمالهم فى الزحف جنوبا نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص الا أن يشقوا لأنفسهم طريقا شمالا عن قاعدتهم فى دمياط ، واهتبلوا فرصة المستميت للانسحاب فى جنح الظلام فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصودهم ، ولحقهم هزيمة فادحة . عند ذلك — وليس قبله — رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضى المصرية ، فى غير قيد أو شرط ، أواخر سنة ١٢٢١ .

على أن فكرة معالجة المشكلة الصليبية بالمفاوضة والمصالحة لقيت هوى فى نفس الامبراطور الألمانى فردريك الثانى ، ودارت بينه وبين السلطان الكامل مراسلات وصلت الى مرحلة الاتفاق على معاهدة سلمية بين الطرفين ، وجاء الامبراطور فردريك الى فلسطين على رأس فئة رمزية من جنده

سنة ١٢٢٩ ، لتوقيع هذه المعاهدة الفريدة فى تاريخ العصور الوسطى . ونصت هـذه المعاهدة على أن يسلم السلطان الكامل مدينة بيت المقدس للامبراطور فردريك باعتبـارء ملك الدولة الصليبية ، وأن يسلم له كذلك بيت لحم والناصرة وطريق الحج من عكا الى بيت المقدس ، على أن تظل منطقة المسجد الأقصى فضلا عن بعض المدن الفلسطينية بيد الأيوبيين . وتعهد الامبراطور فردريك الثانى مقابل ذلك بأن يعمل عـلى منع أية حملة صـليبية من أوربا ، وأن يوقف الأمـداد الأوربيـة عن الامارات الصـليبية بأنطاكية وطرابلس ، وأن يكون حليفـا للسـلطان الكامل . غير أن هـذه المعاهدة الكاملية الفردريكية لقيت نقدا مريرا فى الأوسـاط المسيحية الأوربية ، فضـلا عن الأوسـاط الاسلامية فى مصر والشام ، مع العلم بأنهـا ضمنت السلام بين المسلمين والصليبيين لعدة سنين . ومن الدليل على ذلك أن حـركة أو حملة صليبية كبرى لم تحدث برغم ما انتشر من أخبار النزاع والتخاصم فيما بين أبنـاء البيت الأيوبى بمصر والشام ، وبرغـم وفاة السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ ، واضـطراب أحوال الدولة الأيوبية مدة الملك الصـبى العادل الثانى بن الكامل ، وهو الذى خلعـه أخوه الصالح بن الكامل سنة ١٢٤٠ م .

غير أن خلو الأفق السياسى من سـحب صليبية كبيرة لم يكن معناه سلام عام دائم فى الشرق الأوسط ، وذلك أن غيوما مغوليـة تجمعت وقتذاك فوق أطراف غرب آسيا حيث الدولة الخوارزمية ، ولم تلبث أن محت هذه الدولة محوا تاما جعل جنودها فلولا ومناسر مبعثرة تحاول الدخول فى خدمة الراغبين فى استخدامها ، كما جعل الشرق الأوسط كله عرضة لما سوف يقوم به المغول من زحف آجل أو عاجل طواعية لمقتضيات حركتهم التوسعية المترامية . وأدخل الملك الصـالح أيوب بن الكامل من هذه الشراذم الخوارزمية فئـات عدتها عشرة آلاف فارس ، ووصلت هـذه الفئات الى الشام ، فهاجمت ضواحى دمشق المعادية ، كما هاجمت مدينـة بيت المقـدس الصليبية واحتلتها باسم الملك الصالح سـنة ١٢٤٤ ، وهكذا اختل التـوازن السـياسى اختـلالا أقلق الدوائر الصـليبية فى أوربا والشرق الأوسط من جديد .

ومن باب الأمل فى تصـحيح التـوازن السياسى تصحيحا صليبيا حاسما وصلت الى الشواطىء المصرية حملة صليبية فرنسية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وألقت هذه الحملة مراسيها كما فعلت الحملة الصليبية السابقـة خارج دمياط ، وكأنما أراد الملك لويس التاسع بذلك أن يفيد بهذه البداية من تجارب الحملة السابقة ، على حين أنه وقع فى معظم أخطائها الى درجة تجعـل الكاتب مضطرا هنـا الى استعمال تعبيرات متشابهة لوصـف حوادث متشابهة فى الحملتين .

وكان الملك الصالح بن الكامل مريضا ، لكنه لم يستسلم للمرض بل عكف على تجهيز

قواته فى البر والنهر ، فجمع جيوشه أولا عند بلدة أشموم طناح جنوبى البحر الصغير ، وكان معظمها من المماليك الأتراك ، وجعل مركز قيادته فى بلدة المنصورة التى غدت مشهورة بانتصار أبيه الكامل على الصليبيين فى الحملة السابقة . وأكثر الملك الصالح فى تموين دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادا لما عساه يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، وأنفذ القائد فخر الدين بن حمويه بجزء من الجيش للنزول على البر الغربى قبالة دمياط نفسها على البر الآخر . غير أن القائد فخر الدين كان مشغولا بفكرة احتمال وفاة الملك الصالح ، وضرورة وجوده هو قريبا من المعسكر الأيوبى ليشترك فى المؤامرات والمنافسات التى تتلو أخبار الوفاة، وانسحب بعسكره الى أشموم طناح ، وباتت مدينة دمياط محرومة من الجيش المكلف بحراستها ، ولم تلبث أن رحل عنها أهلها جافلين . ولذا دخل الصليبيون دمياط دون حاجة الى قتال أو حصار ، واستولوا على ما فيها غنيمة باردة .

ثم استقر الرأى الصليبى على الزحف جنوبا نحو المنصورة ، وخرجت الجيوش الصليبية من دمياط فى نوفمبر ١٢٤٩ . وبينما الصليبيون فى أول زحفهم جنوبا توفى الملك الصالح ، فتراءى للملك لويس التاسع أن المقادير فى مشيئتها كتبت للصليبيين نصرا سريعا ثم تمخضت الأخبار عن قيام زوجة الملك الصالح واسمها شجر الدر على شئون الدولة ريثما يصل ولى العهد الى مصر ، فاطمأن الصليبيون الى سرعة النصر الذى شاءته لهم المقادير . وأخيرا استطاع الملك الفرنسى أن يصل بالجيش الصليبى الرئيسى الى بلدة البرمون الواقعة على البحر الصغير ، وأصبح هذا البحر فاصلا بين المعسكر الأيوبى الممتد من أشموم طناح الى قرية جديلة وبلدة المنصورة وبين المعسكر الصليبى المتركز فى البرمون وتناوش الجيشان من هذين الموقعين مدة شهرين ونصف شهر — أى حتى أواخر يناير سنة ١٢٥٠ . وكان الملك الفرنسى فى هذه الأثناء مشغولا باقامة جسر من الخشب فى عرض البحر الصغير ليعبر منه الى المعسكر المصرى الأيوبى ، غير أن هذا المشروع غدا مستحيل التنفيذ ، ووقف العمل فيه بعد أن جاء أحد الخونة الى المعسكر الصليبى وأرشد الملك الى مخاضة لعبور جيشه منها الى مواقع الجيش الأيوبى . وعبرت الطلائع الصليبية ذات يوم قبل الفجر بقيادة أخى الملك ، وتقدمت حتى هجمت فجأة على المعسكر الأيوبى فى جديلة . واشتبك الطرفان اشتباكا عاما مات القائد فخر الدين قتيلا فى أوائله وتقهقرت الجنود الأيوبية الى المعسكر الرئيسى بالمنصورة ، ووراءها الطلائع الصليبية ، وظن أخو الملك الفرنسى أن النصر الصليبى السريع أضحى قاب قوسين أو أدنى، غير أنه لم يلبث أن رأى ظنه فى النصر السريع يخيب كل الخيبة ، اذ دخل بلدة المنصورة فوجدها خالية من المقاومة ، ثم لم يكد يقترب

من القصر الملكى حتى أحاطت بجيوشه حركة تطويقيــة متفق عليهــا . وبذا انقلب النصر الصليبى عند جديلة الى هزيمة طامة عنــد المنصــورة ، حيث بلغ عــدد قتلى الصليبيين ما يقرب من ألف وخمسمائة فى بضع ساعات، وهو معظم عدد الطلائع الصليبية .

أما الملك الفرنسى فعبر البحر الصغير ، وتقدم استعدادا لما سوف يقــوم به الجيش الأيوبى من حركات هجومية . ومنذئذ حمى القتال بين الفــريقين ، وتبــادل الأيوبيون والصليبيون النصر والهزيمة ، وظل المعسكر الصليبى فى مواضعه خارج المنصورة ، أملا فى أن يدب النزاع فى المعســكر الأيوبى بين السلطانة شجر الدر وولى العهد تورانشاه عند وصوله الى مصر . لكن نزاعا لم يقع فى الصورة أو فى السرعة التى تطامن اليها الملك الفرنسى ، بل وصــل الملك الجــديد الى المنصورة وتسلم زمام الموقف ودل على مهارة فائقة بما اتخذ من تدابير حربيــة متنوعة . وكان أول هذه التــدابير أن أمر تورانشاه باحضار أسطول من السفن الخفيفة ، وحملها وهى مفصلة على ظهور الجمــال الى مكان بعيد شمالى المنصــورة ، حيث تم تركيبها وتقويمها فى النيل واستخدامها لمنع المراكب الصــليبية الواردة بالمؤن من دميــاط من الوصول الى معسكر الصليبيين . واستطاع هذا الأسطول أن ينهض بهذه المهمة ، وباتت الجيوش الصليبية مهــددة بالمجاعة . ثم لم تلبث المجاعة أن أعقبتها الأمراض الوبائيــة الخبيثة ، ولا ســيما حمى التيفوئيــد التى اشتعلت فى المعسكر الصليبى اشتعالا مميتا .

ولذا جمع الملك الفرنسى مجلس قادة جيشه ، وقرر معهم وجوب التقهقر الى دمياط ، على أن تكون عودة المرضى والجرحى على المراكب الصليبية الباقية فى النيل ، وأن تكون عودة الجيش عن طــريق البرمون وفارســكور . وبدأت هذه الحركة التقهقرية فى البر والنهر أوائل أبريل سنة ١٢٥٠ ، وكانت هذه البداية مؤذنة للعساكر الأيوبيــة أن تخــرج من المنصورة لمطاردة الصليبيين وعرقلة تقهقرهم . ثم لم تلبث هذه العملية أن انقلبت من مطاردة وعرقلة الى حركة تطويقية غرضها الاحــاطة بالجيوش الصليبية واجبــارها على التســليم وتراءت الهزيمة المحتومة للملك الفرنسى وهو يعالج آلام المرض بالحمى وقتذاك ، ولا يكاد يستطيع الجلوس على ظهر فرسه ، ولذا رضى بالتسليم قبل فوات الأوان . وجاءت طائفة من الجند الأيوبى فحملت الملك الفرنسى أسيرا مكبلا فى السلاسل الى المنصورة حيث سجن مدة بدار قاضيها ابراهيم بن لقمان ، وهى دار لا تزال قائمة بشارع الحــوار بالمنصــورة الحالية . ثم اتفق الطــرفان على أن يجــلو الصليبيون عن دمياط جلاء تاما ، وأن تبحــر السفن الصليبية عن الشــواطىء المصرية فى سرعة ، وأن يتعهد الملك بدفع فدية مالية تعين مبلغها وموعــد دفعها وأن يدفع كل من كبار الصليبيين فدية عن نفسه ، وكل ذلك مقابل اطلاق سراح الملك وكبار الصليبيين ، فضلا

عن عامة الأسرى الذين تم الاتفاق كذلك على اطلاق سراحهم بعد الوفاء بآخر قسط من أقساط الفدية الملكية .

ثم كان زوال الدولة الأيوبية بعد هذه الحوادث التى ظهرت فيها بسالة مماليك السلطان الصالح وشجاعة زوجه شجر الدر ومهارة خلفه تورانشاه . ذلك أن تورانشاه أساء الظن بمماليك أبيه ، وهم أصحاب الفضل فى وقعة المنصورة ، واعتقد أنهم يعملون مع شجر الدر على خلعه ، فأخذ يضايق شجر بمختلف الوسائل ، ويتهمها بحيازة أموال أبيه واخفائها عنه ، ودبر مؤامرة للفتك بها وبزعماء المماليك . غير أن هؤلاء سبقوه الى مثل ما دبره لهم ، اذ قتلوه شر قتلة فى فارسكور سنة ١٢٥٠ . وهكذا كانت نهاية الدولة الأيوبية فى مصر .

ربما يتبادر للذهن هنا أن تاريخ الدولة الأيوبية لا يعدو أن يكون تاريخا لتكوين جبهة اسلامية متحدة ، واستخدام صلاح الدين لما تأدى له بتلك الجبهة المتحدة من قوة عسكرية هدم بها مملكة بيت المقدس الصليبية تقريبا وهذا وذاك صحيح فى جملته وتفصيله ويدل عليه ما تحقق لمعظم سلاطين الأيوبيين منذ أيام صلاح الدين الى أيام تورانشاه من توفيقات فى ميادين الحرب والسلم وما بينهما من ديبلوماسية ماهرة اشتهر بها السلطان العادل صاحب الفضل فى معاهدة البندقية التى أبعدت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مصر ، والسلطان الكامل صاحب المعاهدة الكاملية الفردريكية التى عطلت مشروعات الصليبيين لمدة عشر سنين ولدينا من الوثائق المنقولة من متحددات القاضى الفاضل ما يساعد على تقدير أعداد القوات البرية والبحرية التى استعان بها صلاح الدين فى أعماله الحربية المختلفة وتقدر القوات البرية مثلا بما لا يقل عن خمسة عشر ألف فارس من الأتراك والأكراد ، وأولئك عدا جيوش الشام والجزيرة ، وعربان الأقاليم المصرية والشامية. واشتملت القوات البحرية على سفن متنوعة عدتها خمسون سفينة لحماية السواحل المصرية والشامية ، وثلاثون لأعمال الهجوم البحرى على موانى الصليبيين . وتنوعت هذه السفن ، فكان منها الشينى والغراب والطريدة والحراقة والشلندية والبطسة والحمالة ، والمركوش والقوقل وجرى الاصطلاح على تسمية رجال هذه السفن باسم رجال الأسطول ، كما بلغ من عناية صلاح الدين بشئون البحرية ما جعل لها ديوانا خاصا سماه ديوان الأسطول .

واعتمدت نفقات هذه القوات البرية والبحرية ، كما اعتمد جزء كبير من نفقات الدولة عموما ، على تنظيم اقطاعى أحله صلاح الدين بمصر والشام محل نظام الرواتب والأعطية ، أسوة بالسلاجقة والزنكيين قبله لذا صارت الأراضى كلها اقطاعات للسلطان وأبناء البيت الأيوبى وأمراء الدولة الأيوبية وأجنادها . وانقسمت هذه الاقطاعات الى نوعين ، وهما الاقطاعات الادارية التى اختص

بها السلطان وأبناء البيت الأيوبى وكبار الأمراء والموظفين وكل من هذه يتفق عادة مع وحدة اقليمية ادارية ، ثم الاقطاعات الحربية التى يمنحها السلطان مقابل ما يؤديه المقطع للدولة من خدمات حربية باقتناء عدد من الفرسان وتقديمهم للجيش العامل زمن الحرب، ولم تكن هذه الاقطاعات بنوعيها وراثية ، بل قلما ظل الاقطاع فى يد واحدة مدى الحياة ، وكفى دليلا على ذلك أن الوظائف الكبرى كانت مربوطة الى اقطاعات معينة لا تتغير ، فاذا انتقل صاحب وظيفة ما الى وظيفة أعلى انتقل بذلك الى اقطاع جديد ، وهكذا .

وبالاضافة الى التنظيم الاقطاعى وموارده التى استمدت الدولة منها جزءا كبيرا من نفقاتها ، اعتمدت الدولة كذلك على عدة منابع مالية أخرى ، وأهمها الخراج المتحصل من الأراضى المزروعة ، وخراج المعادن مثل الزمرد والشب والنطرون ، وأموال الزكاة التى أنشأ صلاح الدين من أجلها ديوانا خاصا ، وأموال الخمس المفروض على المتاجر الأجنبية الواردة من أوربا الى دمياط والاسكندرية ، وأموال المكوس المرسومة على البضائع التى يجلبها التجار الكارمية فى البحر الأحمر الى عيذاب والقصير والطور والسويس .

ونشطت التجارة فى ذلك العصر الأيوبى نشاطا دل عليه أن أعداد السفن التجارية الأوربية الراسية فى ميناء الاسكندرية وحدها بلغت فى شتاء سنة ١١٨٨ م سبعا وثلاثين سفينة ولابد أن هذه الأعداد زادت كثيرا فى فصلى الربيع والصيف حين تغدو ملاحة العصور الوسطى فى البحر الأبيض المتوسط أقل تعرضا للأخطار .

وجلبت هذه السفن وأشباهها من أوربا الى ميناء الاسكندرية وسائر الموانى المصرية والشامية كميات كبيرة من الفراء والجوخ والقطران والحديد والأخشاب والأسلحة ، وذلك رغم تحريم المرسومات البابوية على التجار أن يتاجروا مع مصر فى المواد الحربية التى يمكن استخدامها فى أغراض حربية . وأغفل التجار الأوربيون — ومعظمهم من البنادقة والبياذنة والجنوية هذه الموسومات ، لأنهم اشتروا بأثمان بضائعهم هذه بضائع شرقية غذت الأسواق الأوربية التى تطلبها بكميات متزايدة سنة بعد أخرى ، وأهمها الفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والند والكافور والعاج والبخور والتمر والنيلة واللؤلؤ والزمرد والشب والنطرون والأقمشة الرفيعة والمنسوجات الكتانية والحريرية الموشاة بالذهب والفضة والبسط والسكر والحلوى .

وأنتجت مصر جزءا كبيرا من هذه السلع المعدنية والصناعية فأخرجت مناجمها الزمرد من قرب قوص ، والشب من قرب أسوان والواحات والنطرون من وادى النطرون ومنخفض الخطارة ، كما أخرجت مراكزها الصناعية فى تنيس ودمياط والاسكندرية ودبيق أنواع المنسوجات ، فضلا عن المعاصر التى أنتجت كميات وفيرة من السكر بالوجه القبلى .

على أن الظاهرة الكبرى التى استقامت لمصر فى هذا الميدان التجارى هى كونها المستودع الدولى العام لتجارة متاجر الغرب والشرق ، فكما تكدست البضائع الأوربية فى الموانى المصرية الشمالية ، امتلأت موانيها الجنوبية على نهر النيل والبحر الأحمر بحركة تجارية فيها من كميات البضائع الشرقية ما جعل الطريق النهرى من القاهرة الى المنيا ومن المنيا الى أسيوط وقوص وعيذاب ، أشبه بشىء بطريق الامبراطورية البريطانية الى الهند فى القرن الثامن عشر الميلادى . ووصف ابن جبير هذا الطريق الدولى العظيم وصف حاج ناء بشئون الحج والتقوى عن شئون المتاجر والأموال والمكوس ، اذ تنقل بين مراحل حتى عيذاب ، فوصف قوص مثلا بأنها كانت مدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق لكثرة الصادر والوارد اليها من التجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة ، كما وصف عيذاب بأنها كانت من أحفل مراسى الدنيا فى العصور الوسطى ، بسبب أن مراكب الهند كانت تهبط اليها وتقلع منها ، وهذا فضلا عن مراكب الحجاج الى جدة ، وهى التى كانت تسمى الجلاب ، وواحدتها جلبة . وشهد ابن جبير من قوافل البضائع فى هذا الطريق ما أعجزه عن الاحصاء ، ولا سيما القوافل العيذابية المحملة بسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ، وخيل اليه أن أحمال الفلفل والقرفة فى هذه القوافل توازى التراب فى كثرة كمياتها ، فاذا تعطلت هذه الأحمال فى الطريق بسبب اعياء الابل الحاملة لها بقيت مطروحة لا حارس لها حتى ينقلها صاحبها مصونة من الآفات والسرقات ، تنويها بأحوال الأمن والرخاء الاقتصادى فى مصر زمن السلطان صلاح الدين غير أن هذه العبارات الوصفية الدالة على مركز مصر فى تجارة الشرق زمن الأيوبيين لم تخل من نقد مرير لأعمال رجال الديوان (الجمرك) فى مختلف الموانى والمدن ، لأنهم لم يميزوا أحيانا بين الحاج والتاجر ، فيفحصوا متاع هذا وذاك بحثا عن المال ، ويفرضوا الزكاة على ما يجدونه ، سواء حال عليها الحول أو لم يحل ، مع العلم بأن صلاح الدين أبطل المكوس على الحجاج ، وهى سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية يدفعها الحاج الواحد عن نفسه بعيذاب أو جدة ، برسم ميرة مكة والمدينة .

وكان الغاء هذا المكس الثقيل جزءا من عملية سياسية ضخمة استهل صلاح الدين بها عهده من باب الدعاية الطيبة لدولته السنية وللتخفيف عن كواهل الناس . ولذا بلغت عدة المكوس التى ألغاها صلاح الدين مرة واحدة فى مرسوم واحد خمسين مكسا ، قيمتها مائة ألف دينار سنويا ، أى مليون دينار فى عشر سنوات ، ذلك فضلا عن كميات هائلة من الغلال التى سامح بها ، وأبطل تحصيلها من المستحقة عليهم . ومن هذه المكوس ما كان معروفا باسم مكس البهار ، ومكس البضائع والقوافل ، ورسم الخشب الطويل ، ورسم

التفتيش وسمسرة الكتان ، ومربعة العسل ، وغير ذلك من المكوس المثيرة للسخط . أما معنى هذه السياسة الضريبية الحكيمة فهو أن المجتمع الأيوبى المصرى تمتع بكثير من الرخاء الاقتصادى سواء من ناحية هـذه الاعفاءات العامة من المكوس ، أو من ناحية الحـركة التجارية الناشطة فى البر والبحر ، ومن ناحية النهضة الصناعية التى تطلبتها حركة التجارة الداخلية والخارجية ، بالاضافة الى ما تطلبته الجيوش البرية والبحرية من أنواع الملابس والأسلحة والسفن والأطعمة .

ويبدو أن هذا الرخاء الاقتصادى ظـل صـفة للمجتمع المصرى الأيوبى حتى بعـد صلاح الدين بدليل المعاهدات التجارية التى عقدها حلفاؤه من السلطان العادل فصاعدا مع الجمهوريات الايطاليـة والامبراطـورية ، وبدليل انعـدام ثورات الفـلاحين فى العصر الأيوبى كله ، وهذا وذاك فضلا عن دليـل ثالث هو استطاعة القوات المصرية الأيوبية أن تتغلب على حملتين صليبيتين كبيرتين ، وهما الحملة المعروفة بالخامسة بقيادة حنا بريت ، والحملة المعـروفة بالسادسة بقيـادة لويس التاسع ملك فرنسا .

وللدولة الأيوبية آثار روحية عميقة فى الحضارة الاسلامية فى مصر والشام ، نتيجة انتقال الحكم من الفـاطميين الشـيعة الى الأيوبيين السنيين ، وأول ذلك ما عمـد اليه صلاح الدين وحلفـاؤه من تعطيل معاهـد الدعوة الشيعية ومذاهبها ، وتأسيس المدارس السنية بالقاهرة والاسكندرية ودمشق وغيرها من المدن الكبرى . وأهم هذه المدارس التى رادفت الواحدة منها الكلية الجامعية فى العصر الحاضر ، المدرسة الناصرية الصـلاحية التى بناها السلطان الناصر صلاح الدين بجـوار مسجد الامام الشافعى لتدريس فقه الشافعية خاصة . وهذه المدرسة زارها ابن جبير قبل أن يكتمل بناؤها الفسيح الأنيق ، ووصفها بأنها لم يعمر بالشرق الأوسط مثلها من حيث المساحة والبناء ، حتى انه ليخيل لمن يتطوف عليها بأنها بلد مستقل بذاته ، وبازائها الحمام والمساكن للطلاب ، الى غير ذلك من المرافق . ولقى ابن جبير شيخ هذه المدرسة الناصرية الصلاحية ، وهو نجم الدين الخبوشانى ، ولم يلق من كبار رجال مصر غيره ، وليته صادف أو عمل على لقاء صلاح الدين ، أو أخيـه العادل ، أو بهاء الدين قراقوش ، أو القاضى الفاضل ، وهم أصحاب الفضل الأول فى اقامة الدولة الأيوبية .

على أن هذه المدرسة الناصرية الصلاحية لم تكن أولى المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر ، كما أن فقه الشافعية الذى اتخذه مذهبا رسميا للدولة الأيوبية ، وخصص هذه المدرسة لتـدريسه ، لم يكن كذلك المذهب السنى الوحيد الذى حظى بعناية . والواقع أن أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر هى مدرسة اسمها كذلك المدرسـة الناصرية ، بجوار جامع عمرو بن العاص ، ثم لم تلبث هذه المدرسة أن اشتهرت باسم مدرسة ابن زين التجار ، نسبة الى أحد أعيان الشافعية

الذى بدأ التدريس بها ، وصارت تعرف بعد ذلك باسم المدرسة الشريفية نسبة الى الشريف قاضى العسكر الذى درس بها كذلك . وبجوار جامع عمرو بن العاص كذلك قامت المدرسة القمحية التى أنشأها صلاح الدين للفقهاء المالكية ، وعرفت باسمها هذا لأن القمح الذى جاء من أوقافها بالفيوم كان يوزع مباشرة على مدرسيها وطلبتها وأنشأ صلاح الدين كذلك المدرسة السيوفية لمذهب الحنفية ، واشتهرت هذه المدرسة باسمها هذا من أجل أنها أطلت على سوق السيوفيين بالقاهرة وقتذاك .

وامتدت هذه التقوى المشبعة بالحماسة المعمارية الى أبناء البيت الأيوبى وأمراء الدولة الأيوبية وكبار موظفيها ونسائها فأنشأ الملك العادل محمد أخو صلاح الدين المدرسة العادلية ، وأقام أخوه الآخر تقى الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو المدرسة التقوية نسبة الى الأمير تقى الدين نفسه ، كما أنشأ هذا الأمير مدرستين بالفيوم بعد أن صارت بلاد الفيوم جزءا من اقطاعه . وأنشأ القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وهى المدرسة التى احتوت على مكتبة بلغت كتبها فيما قيل مائة ألف مجلد فى مختلف العلوم . ومن هذه المدارس كذلك المدرسة الأزكشية الحنفية ، نسبة الى مؤسسها أزكش أحد أمراء السلطان صلاح الدين ، والمدرسة العاشرية نسبة الى الست عاشوراء زوجة هذا الأمير . ومدرسة ابن الأرسوفى ، نسبة الى التاجر عفيف الدين عبد الله بن الأرسوفى.

واستمر عدد هذه المدارس الجديدة فى ازدياد ونمو زمن الأيوبيين ، كما تطور التعليم فيها تطورا ملحوظا ، فظهرت المدارس المخصصة لتدريس علم الحديث ونموذجها المعروف هو المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل بن العادل ، وكانت الأولى من نوعها فى مصر ، ولم يسبقها فى هذا التخصص سوى المدرسة العادلية بدمشق نسبة الى السلطان العادل نور الدين محمود ابن زنكى وناحية أخرى من ذلك التطور أن بعض المدارس أخذت تتسع لتدريس فقه الحنابلة ، بحيث صارت هذه المدارس شاملة المذاهب الأربعة ونموذجها المعروف المدرسة الصالحية التى أسسها السلطان الصالح أيوب أواخر أيام الدولة الأيوبية .

ولم تقتصر هذه النهضة الثقافية الأيوبية على مصر ، بل تعدتها الى الشام ، بحيث بنيت العادلية الكبرى .

وفى هذه المدارس جرى تدريس عدة علوم مساعدة الى جانب الفقه والحديث والتفسير والقراءات والمنطق والحساب فاشتملت برامجها على النحو والبلاغة والهندسة وعلم الهيئة والموسيقى ، على مستويات مختلفة بحسب الحاجة اليها .

وامعانا فى هذه النهضة السنية اجتذبت الدولة الأيوبية جماعات من الفقراء الصوفية من مختلف بلاد الشرق الأوسط ، وجعل السلطان صلاح الدين من أولئك المتصوفة

دعاة للمذهب السنى ، وخصص لهم دورا تسمى الواحدة منها الخانقاه وهى كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، كما شجع كثيرا من المتصوفة المحليين على سكنى الربط والزوايا ليكونوا هداة ووعاظا متجولين بين الناس . وأولى خانقاه أيوبية هى الخانقاه الصلاحية وأصلها دار فاطمية كبيرة اسمها سعيد السعداء بجوار دار الوزارة ، واختار صلاح الدين هذه الدار عمدا فيما يبدو لتكون للفقراء الصوفية ، وجعل لها رئيسا منهم ، وتوقف عليها عدة جهات ، ورتب لسكانها طعاما يوميا ، كما بنى بجانبها حماما خاصا . واتخذ رئيس الصوفية سكان هذه الخانقاه شيخ الشيوخ ، وتولى هذه الوظيفة أولاد ابن حمويه الجوينى مع ما كان لهم من الدولة الأيوبية كلها من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش وتقدمة العساكر ، على قول المقريزى ، وأشهرهم فخر الدين يوسف الذى قتله الصليبيون فى وقعة جديلة قرب المنصورة .

وأضحى لهذه الخانقاه الصلاحية صيت دينى ذائع ، وصار اسمها رمز الصوفية ، وغدا المعتاد فى كل يوم جمعة أن يأتى الناس من مختلف البلاد الى القاهرة ليشهدوا صوفيتها ، وهم متوجهون فى موكبهم الى صلاة الجمعة بجامع الحاكم الفاطمى ، دون غيره من الجوامع ، ويبدأ هذا الموكب بخروج شيخ الشيوخ من الخانقاه ، وبين يديه خدام الربعة الشريفة وهى محمولة على رأس أكبر الخدام ، والصوفية سائرون وراءهم فى سكون وخشوع . وعند وصول هذا الموكب الى جامع الحاكم ، يدخل الصوفية مقصورة اسمها وقتذاك مقصورة البسملة ، اشارة الى البسملة المكتوبة فى صدرها بحروف ضخمة ، فيصلى شيخ الشيوخ ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس الصوفية ، وتوزع عليهم أجزاء الربعة للقراءة قبل الأذان والخطبة . ثم اذا قضيت الصلاة قام قارىء من قراء الخانقاه ، ورتل بضع آيات من القرآن ودعا للسلطان صلاح الدين ولسائر المسلمين ، وكان ذلك الدعاء بمثابة اشارة لاستعداد الموكب للعودة الى الخانقاه ، حيث يكون الناس فى انتظارهم للتبرك بهم .

وبالاضافة الى هذه الخانقاه والمدارس التى غيرت ملامح المجتمع المصرى وطقوسه زمن الأيوبيين اختط صلاح الدين القلعة بالقاهرة وشرع فى تسوير القاهرة ومصر بسور واحد من الحجارة ، الراجح أن صلاح الدين بدأ فى هذين المشروعين الكبيرين فى وقت واحد ، فأراد من بناء القلعة أن يجعل لدولته وحكومته وجيشه سكنا جديدا ، لا صلة له بالقاهرة الفاطمية وقصورها وذكرياتها ، كما أراد ببناء السور أن يجعل من القاهرة ومصر وحدة حربية واحدة ، بحيث لا يحتاج كل منهما الى حرسية خاصة من الجند . وتعتبر القلعة من الناحية المعمارية أعظم ما بدأه صلاح الدين من منشآت ، ومن المعروف أنه توفى قبل أن يكتمل بناؤه ، وأن خلفاءه من السلطان العادل فصاعدا أضافوا

اليها اضافات انشائية وتدعيمية كثيرة ، فبنى العادل الثلاثة الأبراج الكبرى الكائنة بالجانب القبلى ، كما أتم بناء البرجين الكبيرين الواقعين فى الركن الشمالى الغربى ثم جاء الكامل فبنى الايوان والقصور السلطانية وباب السر المؤدى اليها ، والاصطبلات وقاعة الصاحب الوزير ، وأبراج حمام الزاجل التى غدت مركز البريد بين مصر وسائر بلاد الدولة الأيوبية من أسوان الى حلب ، وخزانة الكتب التى ضمت مكتبة القاضى الفاضل ، ونقل الكامل الى القلعة دواوين الادارة والحكم ، وتحول هو من دار الوزارة الفاطمية التى سكنها صلاح الدين وأخوه العادل بعده الى أحد القصور السلطانية الجديدة . ثم بنى السلطان الصالح أيوب بن الكامل القاعة الصالحية التى أعدت خصيصا لتكون مسكنا سلطانيا بعيدا عن سائر المبانى الحكومية . وهكذا صارت القلعة مقر الحكومة والبلاط والجيش فى مصر ، منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى . غير أن هذه المبانى الأهلية لم يبق منها سوى أسماء أو موضعها ، وحلت محلها مبان جديدة فى العصر المملوكى والعصور التالية .

أما أهمية بناء القلعة والسور فهى أولا : ان تركيز الجهاز الحكومى والادارى والجيش فى القلعة جعل القاهرة تنمو نموا جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال الفعلى بينها وبين الفسطاط ، كما أن امتداد السور الجديد الى النيل من ناحيتها الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك فى هذا الاتجاه . ولهذا وذاك امتلأت العاصمة الأيوبية بحركة بنائية واسعة ، وشهد الرحالة عبد اللطيف البغدادى الذى زار القاهرة أواخر عهد صلاح الدين ، وظل بها مدة غير قصيرة ، ما نجم عن هذه الحركة البنائية من دور سكنية عالية البناء ، وحمامات عامة رحيبة وأسواق مسقوفة .

واتصل عبد اللطيف البغدادى فى أثناء رحلته هذه بأعظم رجال الدولة الأيوبية أمثال الوزير القاضى الفاضل ، والكاتب المؤرخ عماد الدين الأصفهانى ، والادارى الشهير بهاء الدين قراقوش ، وكثير غيرهم ممن أسهموا فى خلق حركة علمية أدبية كبيرة . وشجعت الدولة الأيوبية بدورها هذه الحركة العلمية تشجيعا واضحا منذ أيام صلاح الدين ، ولذا فمن حق هذه الدولة وسلاطينها أن يختتم هذا التلخيص الحضارى الخاطف باستعراض لأسماء العلماء والأدباء ورجال السياسة الذين أنتجتهم هذه الدولة ، وهم بالاضافة الى المتقدمة أسماؤهم ، العالم الزاهد نجم الدين الحنوشانى شيخ المدرسة الناصرية ، والأسعد ابن مماتى ناظر الدواوين ، وموسى بن ميمون الطبيب ، وشيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه شيخ الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وبهاء الدين بن شداد المؤرخ وزميله شهاب الدين عبد الرحمن المعروف بأبى شامة ،والشاعر العظيم بهاء الدين زهير ، والقاضى جمال الدين بن واصل صاحب التاريخ الحافل بحوادث انتهاء الدولة الأيوبية وبداية عهد سلاطين المماليك .

الدولة المملوكية الأولى

الدكتور محمد مصطفى زياده

(١٢٥٠ — ١٣٨٢)

لم يكد النصر يحقق على حملة لويس التاسع الصليبية سنة ١٢٥٠ حتى شهدت مصر قيام سلطنة المماليك ، وهى السلطنة التى شملت فى عز أيامها مساحات واسعة تشبه فى معالمها الرئيسية الامبراطورية الأيوبية التى سبقتها فى الشرق الأوسط . ذلك أن السلطنة المملوكية شملت جميع الأقاليم الحديثة المعروفة باسم مصر وفلسطين وسورية ولبنان ، فضلا عما كان لسلاطين المماليك من سيادة متقطعة على بعض القلاع والمدن فى أعالى الفرات والجهات الجنوبية الشرقية من آسية الصغرى وشمال السودان وبرقة والحجاز .

واذا نجحت السلطنة الجديدة فى أن تخلف البيت الأيوبى فى الحكم ، فان عوامل هذا النجاح لا ترجع الى النصر الذى أحرزه القادة المماليك على حملة لويس التاسع الصليبية فحسب ، بل الى عوامل باطنة مكنت لهؤلاء القادة من اقامة دولة استطاعت أن تكسر موجة الغزو المغولى فى وقعة فاصلة وأن تتزعم حركة الجهاد ضد الصليبيين فى المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية بالشرق .

وبالاضافة الى هذه التوفيقات الكبرى أسهمت السلطنة المملوكية الجديدة بسهم كبير فى تطور الحضارة الاسلامية وثقافتها ، نتيجة انتقال مركز الخلافة من بغداد الى القاهرة ، وهذا فضلا عما أسهمت به من دور فعال فى التجارة الدولية منذ القرن الثالث عشر الميلادى حتى كشف الطريق الى رأس الرجاء الصالح والهند وأمريكا فى أواخر القرن الخامس عشر .

والمماليك — كما يدل عليه اسمهم — أرقاء أصبحوا فى حيازة أو ملكية غيرهم عن طريق البيع أو المبادلة أو الأسر فى الحرب أو المهاداة ، أو كجزء من الضريبة المفروضة على أحد الحكام التابعين . ولكن اذا كان كل مملوك فى أصله رقيقا فلم يكن كل رقيق من طبقة المماليك . وذلك ان الرقيق فى الاسلام اما أسود أو أبيض ، وفق أصولهم والبلاد العديدة التى جلبوا منها . فالنوع الأول كان من الزنوج والسود عامة وخير مثل لهم جماعات الزنج بجنوب العراق فى القرن التاسع الميلادى .

وكذلك الأمير كافور الاخشيدى الذى

حكم مصر فيما بين سنتى ٩٦٦ ، ٩٦٨ م . أما النوع الثانى وهو الرقيق الأبيض — فهؤلاء هم المماليك ومعظمهم فى الأصل أتراك جاءوا من مختلف أقاليم آسية الوسطى ، أوقات السلم والحرب . ثم لم يلبث لفظ مملوك أن اتسع معناه حتى شمل جميع أنواع الرقيق المجلوب من غرب آسية وكثير من أقاليم أوربا ، بما فيها الجهات المحيطة بالبحر البلطى .

***

تدفق أولئك المماليك على المجتمع الاسلامى فى أعداد كبيرة تباينت باختلاف البلاد التى ينتسبون اليها ، وذلك منذ أيام الخلافة العباسية فى بغداد عندما أصبح الجيش العباسى يحوى أعدادا متزايدة من الرقيق الأبيض . ثم كثرت أنواع المماليك نتيجة لنشاط حركة التوسع الاسلامى عن طريق الفتح والغزو أو التجارة فكان منهم التركى واليونانى والصقلبى والكرجى والأرمنى ، ولكنهم تباهوا جميعا بتسمية أنفسهم « أتراك » ، من باب اطلاق الجزء الغالب على الكل ، ولا سيما بعد أن غدوا أصحاب أثر واضح فى توجيه السياسة الاسلامية فى العصور الوسطى ، كما أصبحت حياتهم موضع دراسة المؤلفين . ومن أمثلة ذلك ، وصف ابن حسون المتوفى سنة ١٠٥٨ للمملوك التركى بأنه : « لم يرض الا بأن يساويه سيده فى مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه ، لا يسف فى خدمته الى ما يعف اليه سواء من الحاصلين فى الرق ، والمجلوبين بالسبى ، ككنس الدار وسياسة الدواب ، وما أشبه ذلك مما يستخدم فيه سائر الرقيق .. وليس يرضى التركى اذا خرج من وثاقه الا بزعامة جيش أو التوسم بحجابه أو الرياسة على فرقة ، والأمر والنهى على عصبية » .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة فى العصور المتقدمة والمتأخرة على مدى العناية بتربية هؤلاء المماليك وتدريبهم ليصبحوا عماد الجيوش التى اعتمدت عليها الدول الاقليمية المستقلة فى العالم الاسلامى . ومن هذه سلطنة السلاجقة (١٠٣٧ — ١١٥٧ م) اذ اعتمد سلاطينها على هذا النوع من الجند ، ووصف وزيرها الشهير نظام الملك (ت١٠٩٢) فى مؤلفه « سياسة نامه » مختلف المراحل التى يمر بها المملوك منذ دخوله ملكية سيده الى وقت عتقه ، حين يغدو حرا ويصبح فارسا ، ومن ثم يستطيع أن يرتقى فى سلك الوظائف العسكرية والسياسية وفى أيام هذه السلطنة السلجوقية عمّ التحول من الاقتصاد النقدى الى الاقتصاد الاقطاعى العسكرى ، بحيث صار أرباب الوظائف العسكرية والادارية — ومعظمهم من المماليك يتملكون على أساس اقطاعى شخصى حربى .

وسارت الدولة الأيوبية (١١٧٤ — ١٢٥٠) التى تفرعت بطريق غير مباشر عن الامبراطورية السلجوقية ، على هذه القاعدة من حيث الاعتماد على المماليك الى مدى

النصف تقريبا فى تكوين الجيش الأيوبى ، ومن حيث التعميم فى التمليك الاقطـــاعى لأولئك المماليك وغيرهم فى مصر والشــــام وسائر أقاليمها فى الشرق الأوســط . ومن الأدلة الباكرة على ذلك ان صـــــلاح الدين أحاط نفسه بمجمـوعة مختارة من المماليك الذين انتقوا بعناية ودربوا تدريبا فائقـا فى فنون الحرب . وأخذ هـذا النظام المملوكى الاقطاعى ينمو على نطاق أوسع زمن خلفاء صلاح الدين فى ممالكهم واماراتهم ، وكانت كل جماعة من المماليك الأيوبيين بنسبتها الى مؤسسها : أميرا كان أو سلطانا ، فالأسدية مثلا نسبة الى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين وسلفه فى السيطرة على مصر ، والصلاحية نسبة الى صـــلاح الدين نفسه ، وهكذا .

وأسهمت هـذه الجمـاعات الصلاحية المملوكية بسهم كبير فى حروب صلاح الدين قبل وقعة حطين وبعدها ، وتدل كثرة أسماء موتاهم وجرحاهم عـلى مدى اعتماد هـذا السلطان فى حروبه وحملاته على جند المماليك الى جانب جنده الأحرار الذين كان معظمهم من الأكراد .

وثمة دليل آخر على ضخامة النفـوذ المملوكى فى امبراطورية صلاح الدين ، وهو ما تحمله الآثار والمؤسسات الخيرية والأوقاف من أسماء أولئك المماليك بالقاهرة ودمشق وغيرهما من المدن الكبرى فى العصر الأيوبى .

ثم ترتب على حروب الأمراء الأيوبيين بعد صلاح الدين ازدياد أعداد المماليك وتضخم نفوذهم ، ولا سيما زمن الصالح أيوب بن الكامل (١٢٤٠ — ١٢٤٩) وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبى فى مصر — ذلك ان الملك الصالح لم يشعر بميـل نحو الجند من المماليك الأكراد .

كما انه لم يثق كثيرا فى الكاملية وغيرهم من طوائف المماليك الذين دان لهم بمساعدته فى الوصول الى السلطنة . ولذا أكثر من شراء المماليك الجدد ، واستوردهم من مختلف الأســواق ، وان كان معظمهم من الأتراك المتحدثين بالتركية ، وبعد ذلك شيد الصالح أيوب بجزيرة الروضة قلعة لنفسه تطل على بحر النيل . وانتقى من هؤلاء المماليك صفوة لتكون حرسا خاصا له بتلك القلعة . وأطلق التنظيم المملوكى على هذه الفئة اسم المماليك البحرية الصالحية ، تمييزا لهم عن ســـائر طوائف المماليك الصالحية السابقة واللاحقة ، كتمييز البحرية العادلية وغيرها من طوائف المماليك المشابهة التى عرفها التــاريخ قبـل قيام الدولة الأيوبية وبعدها .

على أن تسمية هذه الفئة باسم البحرية ليس مصدره بحر النيل ، اذ لصقت هـــذه التسمية بفئات معينة من الممــاليك فى مصر والشام ، بل فى اليمن كذلك زمن الرسوليين ولذا يبدو أن هذا اللفظ جرى على المماليك المجلوبين من البلاد الشمالية أو بلاد ما وراء البحار ، وشرح جوانفيل هذا اللفظ شرحا يطابق هذا المعنى تماما ، وهو المؤرخ الفرنسى

الذى عاش مدة بين المماليك البحرية فى مصر . ومما يؤيد هذا التفسير أن المؤرخين العرب المعاصرين دأبوا على اطلاق لفظ البحرية على الجماعات الصليبية الوافدة من وراء البحار .

ولقى أولئك المماليك البحرية الصالحية صدمة الهجوم الصليبى على المنصورة (فبراير سنة ١٢٥٠) واليهم يرجع الفضل فى انتزاع النصر من أنياب الهزيمة فى وقت كانت مصر بدون سلطان بعد أن توفى سلطانها الصالح أيوب فى نوفمبر من العام السابق . على أن حسن الحظ شاء عندئذ أن تمسك بزمام الدولة امرأة قديرة ، هى شجر الدر زوجة السلطان الصالح أيوب المتوفى ريثما يصل ابنه وخليفته تورانشاه من مقره بحصن كيفا بأعالى العراق . ثم وصل هذا الابن الى مصر ، فسلمته شجر الدر مقاليد الدولة ومسئوليات القتال ضد الصليبيين ، على أن مقتل تورانشاه ١٢٥٠ م على أيدى زعماء المماليك البحرية الصالحية — وهو الحادث الذى أنهى الدولة الأيوبية فى مصر — أدى الى فراغ كان لابد من الاسراع الى ملئه ، قبل أن يفلت زمام الموقف من أيدى أولئك الزعماء . ذلك أنه كان بالشام عدد كبير من أمراء البيت الأيوبى الذين تطلعوا منذ سنين الى الفوز بالسلطنة على مصر . وهذا فضلا عن الخوف من مجىء نجدة صليبية حربية الى مصر للانتقام مما حل بحملة الملك الفرنسى لويس التاسع . ولذا وقع الاختيار على شجر الدر لمواجهة الأمراء الأيوبيين الطامعين فى عرش مصر ، باعتبارها زوجة السلطان الصالح أيوب ، وربما أيضا كوسيلة لوضع حد لأحلام بعض الأفراد الطامعين كذلك فى الاستبداد بشئون السلطنة ومنهم الوزير أبو على الهذبانى والزعيم المملوكى اقطاى .

ثم عرض بعد ذلك منصب أتابكية العسكر — وهو من أهم مناصب الدولة — على أحد الأمراء الذين ظلوا مغمورين حتى ذلك الوقت وهو ايبك التركمانى ، فقبله وهكذا تم مولد دولة المماليك (مايو سنة ١٢٥٠) التى لم تكن فى الواقع سوى استمرار للدولة الأيوبية فى سياستها الداخلية والخارجية ، لأن المماليك أنفسهم صنائع سادتهم السالفين ، وخبرتهم فى شئون الحكومة والادارة محدودة فى دائرة النظام الاقطاعى الذى قام فى مصر والشام فى العصر الأيوبى .

وكان أول اجراء اتخذته السلطانة شجر الدر هو انهاء ذيول الحملة الصليبية الفرنسية باقرار شروط الفدية التى تم الاتفاق عليها بين تورانشاه ولويس التاسع . واستطاعت زوجة الملك لويس فى دمياط أن تجمع نصف المبلغ المتفق عليه ، وانجلت الحملة الصليبية عن الشواطىء المصرية الى عكا بعد قيام الدولة الجديدة ببضعة أيام على الرغم من المعارضة الشديدة التى لقيتها فى مصر فكرة اطلاق سراح الملك الفرنسى .

ثم أخذت شجر الدر تسرف فى توزيع العطاءات والمناصب والاقطاعات على جميع

فئات المماليك الذين دانت لهم بوصولها الى منصب السلطنة ، على حين بدأت الهمسات تتردد فى القاهرة مستنكرة قيام امرأة فى السلطنة ، على أن حركة خطيرة فى هذا الصدد بدأت من دمشق حيث رفض الجند الأكراد أن يقسموا يمين الولاء للسلطانة المملوكة الجديدة ، وأعلنوا الثورة واستعان هؤلاء الثوار بالملك الناصر يوسف الأيوبى أمير حلب ، وطلبوا منه أن ينهض — وهو سليل صلاح الدين — ضد مغتصبى الحكم فى القاهرة . ولذا زحف الناصر يوسف على دمشق التي فتحت له أبوابها ، فقبض على جميع من كان فيها من المماليك . ثم ان الخليفة العباسى فى بغداد لم يقر قيام امرأة فى حكم الدولة الأيوبية ولا سيما انها كانت فى وقت ما من جواريه ، وهذا فضلا عن وجود بعض آراء دينية تنكر قيام امرأة فى حكم أية دولة اسلامية .

لذلك استقر الرأى أخيرا فى القاهرة على أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر أيبك ، على أن تترك له العرش . وتم الاحتفال بزواج شجر الدر من أيبك واعتلى أيبك عرش السلطنة المملوكية فى شهر يولية سنة ١٢٥٠ ، وعلى هذا الوجه السعيد انتهت مدة الثمانين يوما التى قضتها شجر الدر فى دست الحكم . على أنه يبدو أن هذا الاجراء لم يرض المماليك وزعيمهم وقتذاك أقطاى ، ولكنهم اعترفوا بأيبك مؤقتا لعلهم يستطيعون التخلص منه فيما بعد ، ولذا لم تمض بضعة أيام على قيام أيبك فى السلطنة حتى استقر الرأى بينه وبين بعض المماليك المعادين لأقطاى على اشراك أحد أمراء بنى أيوب فى السلطة ، وسواء جاءت هذه الفكرة المفاجئة نتيجة الاحساس بعدم صلاحية أيبك أو لمواجهة المعارضة المتزايدة من جانب الأيوبيين ، فموضع الأهمية هو أنه وقع الاختيار على طفل من بنى أيوب اسمه موسى لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ليكون شريكا لأيبك فى الحكم .

لكن هذه الحيلة لم تنطل على أصحاب الحق الشرعى من أمراء البيت الأيوبى الذين أخذوا يزحفون فعلا نحو مصر ، بزعامة الناصر يوسف أمير حلب ودمشق ، ثم ان فئة من المماليك فى القاهرة نفسها اختارت أميرا آخر من بنى أيوب — وهو الأمير المغيث عمر أمير الكرك — ليكون سلطانا على مصر (سبتمبر سنة ١٢٥٠) أما أيبك الذى ظن البعض أنه شخص سهل يمكن التخلص منه دون صعوبة فأثبت أنه أكثر مهارة مما تراءى للناس ، اذ أعلن أن مصر تابعة للخلافة العباسية فى بغداد ، وأنه يتولى السلطنة فيها بوصفه نائبا عن الخليفة العباسى . ثم لجأ أيبك الى الحيلولة دون أى تقارب بين الأيوبيين الزاحفين على مصر والملك الفرنسى لويس التاسع الذى لم يزل مقيما وقتذاك فى عكا ، بأن أطلق سراح بعض الأسرى

الفرنسيين الذين لم يزالوا بمصر . ومع هذا لم يشأ أيبك أن يترك مجالا لاغراء لويس التاسع أو غيره من الصليبيين فأمر بهدم مدينة دمياط القديمة وتحصيناتها فى أكتوبر سنة ١٢٥٠ ، تمهيدا لبنائها من جديد فى موضعها الداخلى الحالى ، بعيدة عن ساحل البحر . وفى هذه الأثناء تمت الاستعدادات فى مصر لارسال حملة لدفع الأيوبيين الزاحفين من فلسطين الى مصر ، ودارت معركة بين الجانبين قرب الصالحية الحالية (فبراير سنة ١٢٥١) أى داخل البلاد المصرية ، وحلت الهزيمة بالغزاة فى هذه المعركة ، ووقع كثير من أمراء الأيوبيين أسرى فى أيدى المماليك وان استطاع زعيمهم الناصر يوسف الفرار . على أن أيبك لم يقنع تماما بهذه النتيجة ، فأرسل أقطاى لهدم معاقل المقاومة الباقية بفلسطين ، حتى لا يتمكن الأيوبيون بعد ذلك من الزحف الى مصر أو اجتياز حدودها فى سهولة .

وحوالى ذلك الوقت تراءى الخطر المغولى واضحا فى غرب آسية ، فهدد الخلافة العباسية نفسها فى بغداد . ورأى الخليفة انه من الأمور الحيوية أن يتناسى أمراء الدول الاسلامية ما بينهم من الخلافات لمواجهة الخطر الجديد ، وعقدت معاهدة (ابريل سنة ١٢٥٣) بين أيبك والناصر يوسف بحيث تكون لأيبك مصر وجزء من فلسطين حتى نهر الأردن بما فى ذلك بيت المقدس — فضلا عن الأجزاء الساحلية حتى نابلس ، على حين يظل الناصر يوسف وغيره من أمراء البيت الأيوبى على اماراتهم بسائر فلسطين والشام . وهكذا اجتازت الدولة المملوكية العقبة الأولى التى اعترضت طريق تأسيسها فى القاهرة ، ولو الى حين على الأقل .

على ان اعتماد أيبك على المماليك البحرية الصالحية فى محاربة الأيوبيين زاد من سلطتهم بحيث صار من الصعب قيادتهم أو خضوعهم لأى شخص عدا زعيمهم أقطاى . ومع هذا ظل أيبك حريصا حذرا فى تصرفاته نحوهم ، طالما كان الخطر الأيوبى قائما ، حتى اذا انعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الناصر يوسف ، أخذ أيبك يتحرك فى سرعة ، فأبعد الطفل موسى الأيوبى عن منصب المشاركة فى الحكم ، وعين مملوكه قطز فى منصب نائب السلطنة ، ولم يبق لديه من المنغصات سوى المماليك البحرية . غير أن قيام ثورة العربان ، ومناداة زعمائها بأن المماليك — وقد مسهم الرق — لا يصح أن يحكموا قوما من الأحرار ، جعل أيبك فى حاجة الى قوة المماليك البحرية الصالحية مرة أخرى . فعهد الى أقطاى باخضاع هذه الحركة الخطيرة التى ضمت أعدادا ضخمة من البدو ، ونجح أقطاى فى هدمها فى وقعة حربية قرب بلبيس (يونية سنة ١٢٥٣) .

لكنه اذا كان النجاح فى اخضاع هذه الثورة أدى الى ازالة عقبة أخرى خطيرة

اعترضت قيام السلطنة المملوكية فى مصر ، فان هذا النجاح زاد من خطر أقطاى والمماليك البحرية الصالحية .

وبدا ذلك واضحا عندما أخذ أقطاى ينتحل لنفسه بعض السلطات والشعائر التى هى من حق السلطان وحده ، ومنها ركوبه من داره بالقاهرة الى مقر السلطنة بالقلعة فى موكب حافل ، ثم تزوج أقطاى من احدى أميرات البيت الأيوبى فى حماة بالشام ، وطلب من أيبك أن يسمح له ولعروسه بالاقامة فى القلعة ، على أساس انه أصبح زوجا لسليلة أيوبية . وعند ذلك أحس أيبك أنه أمام أمر واحد لا ثانى له ، وهو التخلص من أقطاى قبل فوات الأوان ، واستدعاه الى القلعة لبعض مهام الدولة ودبر مؤامرة سريعة لقتله ، وعندما ألقى برأس أقطاى الى أتباعه المنتظرين أسفل أسوار القلعة ، أصاب الذعر فئات المماليك البحرية الصالحية ، فهرب كثير منهم الى مختلف البلاد الخارجية كما قبض أيبك على الذين بقى منهم فى القاهرة . وهكذا يبدو أن أيبك أنقذ سلطنته ولكنه فى الوقت نفسه أثار على نفسه مشكلة كبرى بهروب كثير من المماليك البحرية الى بلاط خصومه من الأيوبيين بالشام حيث عاشوا لاجئين سياسيين يحرضون الناصر يوسف وغيره من أبناء البيت الأيوبى على مهاجمة مصر ، فضلا عن اغاراتهم المستمرة على فلسطين والأطراف المصرية . لذلك قضى أيبك معظم الثلاث السنوات الواقعة بين ١٢٥٤ — ١٢٥٧ يرقب حركات المماليك البحرية فى الشام ، ولجأ الى أسلوبه القديم باعلان تبعيته للخلافة ، وارساله بعثة الى بغداد لطلب الخلع والتقاليد اللازمة ، ثم انه جدد الهدنة مع الصليبيين وحالف الأمير الأرمنى الأصل بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل على أن يتزوج ابنته ويتخلص بذلك من سيطرة شجر الدر وتضرعاتها من أجل المماليك البحرية المشردين. غير أن هذه الخطوة الزواجية أثارت شجر الدر التى لم تتوقع أن يصل نكران الجميل بالسلطان أيبك الى هذا الحد ، وهو الذى أصبح سلطانا بفضل مساعدتها . وأحست شجر الدر بأن كبرياءها خدشت بعد أن هجرها أيبك ليقيم فى منزل صيفى قرب جهة باب اللوق الحالية . ودبرت مؤامرة للانتقام منه فدعته الى اجتماع للتوفيق والصلح ، ولقى مصرعه فى هذا الاجتماع على صورة وحشية فى حمام القصر السلطانى بالقلعة (أبريل سنة ١٢٥٧) . وأذاعت شجر الدر أن أيبك مات ميتة طبيعية فجأة ، غير أن الحقيقة انكشفت ، فتعرضت هى الأخرى للقتل على صورة وحشية كذلك ، بعد ثلاثة أيام من مقتل أيبك .

واذا تتبعنا تاريخ أيبك فى شىء من التفصيل ، فذلك لأن سنوات حكمه بمثابة اختبار لمقدرة الدولة الجديدة على البقاء . غير أنه لم يكن للصبى على بن أيبك أى حق

فى وراثة السلطنة بعد أيبك فى ظل النظام العسكرى المملوكى ، ما عدا رغبة من ناحية كبار الأمراء فى احترام وصية سلطان راحل ، وذلك حتى يمكن الاتفاق على أن يتولى السلطنة بين أولئك الأمراء أنفسهم ، وعندئذ يتخلصون من السلطان الصبى فى غير جلبة أو اضطراب . وتكررت هذه التمثيلية مرة بعد مرة عقب نهاية حكم كل سلطان مملوكى ، فأقام زعماء المماليك ابن السلطان المتوفى مؤقتا ، ثم تخلصوا من هذا الابن بالنفى الى بعض جهات مصر أو الخارج .

واذا استطاع بعض أولئك الأبناء أن يظل فى السلطنة مدة من الزمن ، فلم يكن ذلك راجعا الى اعتقاد المماليك فى مبدأ الوراثة ، بل الى عجزهم أحيانا عن الاتفاق على من ينبغى أن تؤول اليه السلطنة من بينهم ، أما مبدأ الوراثة نفسه فلم يكن مقبولا أو معقولا فى أوساطهم .

هكذا خلف الصبى على أباه أيبك ، وتعين الأمير قطز — وهو أقدم مماليك أبيه — فى منصب نائب السلطنة . وظل هذا الصبى سلطانا اسميا لمدة سنتين ، لم يدل فى أثنائهما على شىء سوى مهارته فى ركوب الحمير والطواف بها داخل أسوار القلعة على حين كان قطز يمهد لنفسه بممارسة السلطات الفعلية فى الدولة ، وفى خلال هاتين السنتين بالذات كان الخطر المغولى على أشده فى غرب آسية فسقطت بغداد والخلافة العباسية على يد هولاكو وجنوده فى فبراير سنة ١٢٥٨ وانتشرت موجة من الذعر فى جميع البلاد الاسلامية المجاورة وبخاصة بلاد الشام حيث أعلن الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ودمشق عزمه على مقاومة المغول فى أول الأمر واتصل من أجل ذلك بالسلطنة المملوكية ، واستغل نائب السلطنة قطز هذه الحوادث وشرح لمجلس الثورة ان التهديد المغولى سوف يلتهم مصر بعد الشام . وان الموقف يستدعى قيام رجل قوى فى الحكم بدلا من صبى قليل الخبرة بشئونه . وبذا خلع السلطان الصبى على بن أيبك من السلطنة دون عناء وأعلن قطز سلطانا فى ٥ أكتوبر سنة ١٢٥٩ .

ولم يمض شهر على هذا الانقلاب حتى أخذ هولاكو يزحف نحو حلب الأيوبية وسط مظاهر التدمير والسفك ، وشاركته فى الاستيلاء عليها فى فبراير سنة ١٢٦٠ فرقة عسكرية من عند هيثوم ملك أرمينيا الصغرى ، وبوهيموند السادس أمير أنطاكية الصليبية ، وفى حلب جاءت الأخبار الى هولاكو بوفاة الخان المغولى الأعظم منكوخان ، فاضطر الى الرحيل عن الشام الى المقر المغولى العام فى جوف آسيا للمشاركة فى اختيار الخان الجديد ، بعد أن أسند قيادة جيشه الى كتبغا وهو أحد المغول الذين اعتنقوا المسيحية على المذهب النسطورى . ثم لم يلبث كتبغا أن زحف جنوبا نحو دمشق ، وهى كذلك

أيوبية ، فانهارت أمامه قوات ملكها الناصر يوسف الأيوبى ، وسلمت له دمشق نفسها أخيرا فى مارس سنة ١٢٦٠ . وزحفت بعد ذلك قوات مغولية نحو الجنوب ، وهددت أراضى السلطنة المملوكية فى فلسطين ، فهب قطز لملاقاة هذا الزحف الداهم بجيش كبير . واستطاعت طلائع هذا الجيش بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى أن تطرد الطلائع المغولية من غزة حيث وصل قطز بعد قليل للزحف فورا نحو الشمال .

أما كتبغا القائد المغولى فوعد الصليبيين فى عكا أن يحالفهم ويساعدهم ضد السلطنة المملوكية ، مقابل قيامهم بعرقلة الزحف المملوكى وعدم السماح للسلطان قطز بالمرور شمالا . غير أن الصليبيين لم يأمنوا لوعود المغول واستطاع قطز أن يحصل على حياد عكا الصليبية فى هذه الحرب ، وأن يغير بجيشه فى غير صعوبة الى منطقة الجليل . ولذا لم يلبث المغول أن فوجئوا بوصول المماليك الى طبرية ، وبفضل هذه المفاجأة تمكن السلطان قطز من انزال الهزيمة بالمغول فى وقعة حاسمة عند عين جالوت قرب بلدة الناصرة ، فى سبتمبر سنة ١٢٦٠ ، وهى أول هزيمة لحقت بهم فى تاريخهم الصاخب منذ أيام جنكزخان ثم أعقب ذلك تقهقر مغولى عام فانجلت القوات المغولية عن دمشق ، وحلب ، على حين عكفت القوات المملوكية على مطاردتها الى ما وراء الفرات .

وبذا أسس قطز سيادة السلطنة المملوكية على جميع بلاد الشام وفلسطين ما عدا امارة الكرك الصغيرة التى ظلت بيد أميرها الأيوبى ، وذلك فضلا عما حققه للسلطنة المملوكية من هيبة داخلية وخارجية بفضل هذا النصر العظيم ، لأن عين جالوت لم تنقذ مصر وحدها من المغول وقتذاك ، بل أنقذت كذلك أوربا المسيحية التى تعرضت أطرافها الشرقية للخطر المغولى .

على أن قطز لم يلبث أن جوزى على انتصاره هذا جزاء عكسيا ، اذ وقع فريسة مؤامرة لقتله وهو فى طريق عودته الى مصر فى أكتوبر سنة ١٢٦٠ ، على يد صديقه الأمير بيبرس البندقدارى. وأسرع الأمير بيبرس الى دخول القاهرة حيث اغتصب عرش السلطنة وسط مزيج من الدهشة والرعب . ويقال ان بيبرس قام بارتكاب هذه الهزيمة لا لرفض قطز تعيينه على حلب فحسب كما يتواتر فى معظم المراجع ، بل تسوية كذلك لثأر قديم يرجع الى مقتل الزعيم أقطاى وتشريد المماليك البحرية ، وهى حوادث كان للأمير قطز دور هام فيها .

ومن الواضح ان وصول بيبرس الى منصب السلطنة كان معناه عودة نفوذ المماليك البحرية ، ولم يلبث السلطان الجديد ان دل على ذلك كما دل على براعة فائقة فى شئون الادارة وقيادة الجيوش خلال حكمه البالغ سبعة عشر عاما (١٢٦٠ — ١٢٧٧) والواقع

ان أعمال بيبرس أكسبته لقب مؤسس دولة المماليك ، لأن هذا السلطان قام فعلا بتنظيم جهازها الادارى والحربى على أسس متينة . غير ان اغتصاب بيبرس للسلطنة لم يرق فى عين نائب دمشق وهو الذى أعاده قطز الى منصبه بعد طرد المغول ، ولذا رفض هذا النائب أن يعترف بذلك الاغتصاب ، وأعلن نفسه سلطانا فى نوفمبر سنة ١٢٦٠ ، ودعا الأمراء الأيوبيين والنواب والمماليك بالنيابات الشامية الى الاعتراف به ، وأرسل بيبرس حملة ضد هذا الأمير الخارج ، فقضت على حركته فى سرعة ، وجاءت به الى القاهرة مكبلا بالسلاسل (يناير سنة ١٢٦١) بعد أن أقامت محله فى نيابة دمشق الأمير علاء الدين البندقدارى ، وهو الذى كان فى وقت ما سيد بيبرس ، أى أستاذه الذى اشتراه ورباه على قول المصطلح المملوكى ، وفى تلك الأثناء قامت بالقاهرة حركة من نوع آخر بزعامة رجل من الشيعة اسمه الكورانى ، ونادت بنداءات بدت كأنها صدى لثورة العرب أيام أيبك فهدمها بيبرس هى الأخرى فى سرعة كذلك ، اذ قبض على رجالها وزعيمهم الكورانى الشيعى ، وشنقهم جميعا على باب زويلة (بوابة المتولى الحالية) .

وامتاز بيبرس فى جميع أعماله بسرعة التنفيذ ، كما امتاز فى سياسته بالحزم والشجاعة وبعد النظر فضلا عن المقدرة على القيام بعدة أعمال فى وقت واحد ، وتصريف ادارة شئون الدولة أثناء أسفاره الكثيرة من مصر والشام . ووضحت هذه المواهب فى بضعة الأشهر الأولى من حكمه ، حيث عمل جاهدا على ترتيب شئونه الداخلية ليتفرغ لمشكلة تطلبت منه جميع ما أوتيه من مهارة سياسية وشجاعة وحزم ، وهى مشكلة الفراغ الذى نجم عن سقوط الخلافة العباسية فى بغداد . وتفكير بعض ملوك الدول المجاورة فى احياء هذه الخلافة فى بلده . ومن أولئك الناصر يوسف الأيوبى حين كان أميرا على حلب ودمشق . اذ حاول استمالة أحد العباسيين الفارين من وجه المغول الى الشام ليعلنه خليفة عنده ، وليستعين به فى مقاومة الزحف المغولى بقيادة هولاكو ، غير ان سرعة الحوادث أفسدت عليه محاولته . وقام السلطان قطز بمثل هذه المحاولة بعد أن دخل دمشق ظافرا غداة عين جالوت ، اذ أعلن خلافة لاجىء عباسى آخر . وأمده بقوات وأسلحة للعمل على استرداد بغداد . وحذا بيبرس هذا الحذو ، أى انه لم يكن مبتكرا لهذه الفكرة ، ولكنه كان صاحب الفضل النهائى فى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ١٢٦٢ . وهكذا استطاع بيبرس أن يجعل مصر قاعدة الخلافة الاسلامية ومحط أنظار المسلمين ، وأضحت القاهرة مركز العالم الاسلامى ، وهى أقرب الى حواضر البلاد الاسلامية من بغداد . لذلك أخذ كثير من علماء المسلمين يفدون الى مدينة النيل ، حيث وجدوا ينابيع وافرة من الرعاية

والتشجيع وأحدثوا بمصر نهضة علمية فى مختلف الدراسات ، على حين أمسى الخلفاء العباسيون فى القاهرة اتباعا لسلاطين المماليك .

وحق لبيبرس أن يفخر بهذه النتيجة التى جعلت السلطنة المملوكية صاحبة الفضل فى احياء الخلافة العباسية ، وأمنت السلاطين على مستقبلهم فى الشرق الأوسط وسائر العالم الاسلامى باعتبارهم حماة الخلافة والمتمتعين ببيعتها . غير أن مشكلة أخرى عاجلة تطلبت من السلطان حلا عاجلا ، وهى ان المغيث عمر الأيوبى — أمير الكرك — ظل متعلقا بحقه الشرعى فى السلطنة بمصر ، بخلاف غيره من أبناء البيت الأيوبى الذين ركنوا الى الهدوء بالشام ورضوا بالعيش فى سلام فى ظل الحكم المملوكى . وعرف بيبرس أطماع المغيث عمر جيد المعرفة منذ لجوئه الى امارة الكرك أيام تشريد أيبك للمماليك البحرية ، واشترك معه فى الاغارة أكثر من مرة على الأطراف المصرية . ولذا أسرع بيبرس على عادته الى مهاجمة الكرك رغم وساطة الخليفة العباسى ، ولم يلبث أن ألقى القبض على المغيث وأرسله أسيرا الى القاهرة ، حيث اتهم بالاتصال بالمغول والتآمر معهم ، وحكم باعدامه فى أبريل سنة ١٢٦٣ .

وعمل بيبرس فى هذه السنوات الافتتاحية الثلاث من حكمه على تنظيم الجيش المملوكى وتجديد بناء الأسطول واعادة توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد فضلا عن عنايته بانشاء الطرق واصلاح الجسور وحفر القنوات فى مختلف البلاد المصرية على مقياس لم تشهده مصر سوى أيام صلاح الدين . كذلك اهتم بيبرس بتقوية حصون الشام وشحنها بالجند من المماليك ، كما نظم المواصلات البريدية بين دمشق والقاهرة بحيث صار تبادل البريد بينهما مرتين فى الأسبوع . أما الاسكندرية فعنى بيبرس باصلاح حصونها والسهر عليها ، كما عنى بمداخل النيل عند رشيد ودمياط باقامة الأبراج والسلاسل لحراستها ، وكل ذلك خشية حملة صليبية مرتقبة ، وفى هذه السنوات الافتتاحية كذلك بدأ بيبرس بناء الجامع والمدرسة المنسوبين اليه ، كما أنشأ مقبرة للفقراء .

وتدل هذه الأعمال الداخلية المتنوعة على أن بيبرس كان يبنى لنفسه وللسلطنة المملوكية فى قلوب الناس ، وأنه كان يعد العدة الحربية للقيام بمشروعات عسكرية ضخمة ، والواقع أنه أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى ، واستطاع أن يحرز نجاحا لا يقل عن نجاح سلفه العظيم ، وذلك فى أكثر من جهة واحدة . ذلك انه تعين على السلطان بيبرس حماية الأطراف الفراتية لسلطنته من اغارات الدولة المغولية التى تأسست بعد هولاكو فى فارس والعراق ، وعقاب الامارات الصليبية مثل أنطاكية التى

دأبت على محالفة تلك الدولة ، وذلك فضلا عن الاستعداد لمواجهة أية حملة صليبية جديدة تأتى من أوربا . وطبيعى انه لم يكن لدى بيبرس أية معلومات عن الدول الأوربية وأحوالها السياسية التى جعلت ارسال حملة صليبية كبرى الى الشرق أمرا غير ممكن أو ميسور ، بدليل قيامه بالأعمال التحصينية المتقدمة لتأمين الشواطىء المصرية والشامية ، واهتمامه بعقد سلسلة من المعاهدات والعلاقات الودية مع حكام البلاد المجاورة ، ومنهم الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس — وهو الخصم اللدود للصليبيين بالشرق ، وملك صقلية مانفرد هوهنشتاوفن ابن الامبراطور فردريك الثانى . ويبدو أن هذا الحلف بين بيبرس ومانفرد حدا بالأمير شارل الأنجوى هو الآخر الى ارسال بعثة لتأكيد حسن علاقته بالسلطان بيبرس . واستقبل بيبرس هذه البعثة ، وأكرم وفادتها بالقاهرة سنة ١٢٦٤ . وحالف السلطان بيبرس الملك بركة خان صاحب القبيلة الذهبية أو مغول القفجاق وعاصمتها سراى فى وادى الفولجا ، وهو أحد أحفاد جنكيزخان وكان بركة خان على دين الاسلام منذ شبابه ، غير ان العلاقة الدينية وحدها لم تكن هى التى أدت الى هذا الحلف ، بل كان اتجاه الدولة المغولية الفارسية نحو الأقاليم المجاورة لمملكة القبيلة الذهبية هى التى أدت الى تبادل الرسل والبعثات بين القاهرة وسراى ضد هذا العدو المشترك .

أما تحالف بيبرس مع دولة السلاجقة بالروم (آسيا الصغرى) فلم تقل أهمية عن هذه المحالفات السابقة ، لأن الوضع الجغرافى لهذه الدولة السلجوقية جعلها منبع خطر على الأطراف المغولية الفارسية من ناحية ، وأطراف مملكة أرمينيا الصغرى المسيحية من ناحية أخرى . على أن أعظم ما اهتم له السلطان بيبرس وقتذاك هو احتمال قيام الدولة المغولية الفارسية بهجوم مفاجىء على الأطراف المملوكية الشرقية عن طريق أعالى العراق ، ولذلك خرب طريق الغزو ومعابره بين آمد وخلاط ، على حين أصلح القلاع الشامية التى سبق لهولاكو وجنوده تخريبها أثناء الزحف المغولى الأول .

لم يكن عجبا بعد هذه الاستعدادات والمحالفات والاحتياطات ، وبعد المناوشات التجريبية الناجحة التى قام بها بيبرس أوائل سنة ١٢٦٥ ضد الصليبيين والمغول أن يقوم هذا السلطان منذ أواسط هذه السنة بهجمات حربية عنيفة فى أكثر من جبهة واحدة . واذا اصطبغت حركاته التالية فى هذه الجهات بكثير من الغدر والنكث والقسوة ، فان هذه الحركات كانت فى ذاتها سلسلة من انتصارات متواصلة دالة على أن السلطان بيبرس امتاز بعزيمة لا تكل ، وعقلية ناشطة ، ومقدرة على استمرار التنقل بين مصر والشام ، تارة لادارة دفة الحكم ، وتارة لتنظيم شئون القتال .

وبدأ بيبرس هذه الانتصارات المتواصلة بالاستيلاء على قيسارية وعثليث وحيفا

وارسوف من الصليبيين قبــل أن تنتهى سنة ١٢٦٥ ، ثم عاد الى مصر ليستأنف رحلة تفتيشية لمعرفة أحوال حصون الاسكندرية ، وليدعم قواته بجيش جديد من المماليك . ثم رجع بيبرس الى الشام سنة ١٢٦٦ ، وأمــر بمهاجمة المدن الصليبية على امتداد الســاحل الشامى ، على حين استولى هو على صفد ، وعاد منها الى دمشق للسير بنفسه على رأس حملة ضد مدينة سيس عاصـــمة أرمينيا الصغرى وانتهت هـــذه الحملة الأرمينية بتخريب سيس ، وكل ذلك فى سنة واحدة . وبعد زيارة قصيرة للقاهرة أوائل سنة ١٢٦٧، ذهب بيبرس الى الشام حيث تفقد تحصينات صفد الجديدة ، ثم عاد الى القــاهرة مزهوا بنتائج حروبه . ثم رجع بيبرس الى الشام أوائل العام التالى (سنة ١٢٦٨) فاستولى على يافا وشقيف أرنون ، وألقى الحصار أخيرا على مدينــة أنطاكية ، وهى وقتذاك عاصمة أهم الامارات الصليبية الباقية بالشام. وحقق الاستيلاء على هذه المدينة للسلطان بيبرس نصرا وأمنا ، فقضى أيام سنة ١٢٦٩ متنقلا فى سلام بين مصر والشام وبلاد العرب، وأدى فريضة الحج فى تجمل عظيم ، وأكد السيادة المملوكية على مكة والمدينة والحرمين الشريفين وعاد الى القاهرة بعد أن عين واليا فى مكة للاشراف على الكسوة التى أهداها السلطان للكعبة مطرزة باسمه بحروف من الذهب .

وفى سنة ١٢٧٠ أجرى السلطان بيبرس مفاوضات مع طائفة الاسماعيلية الحشيشية بالشام ، وتم الاتفاق على أن يدفع شيخ هذه الطائفة — شيخ الجبل — جزية سنوية ثمنا للسلام بين الطرفين . وفى هذه السنة نفسها قام الملك لويس التاسع بحملته الصليبية على تونس ، فرأى بيبرس أن يظل بالقاهرة ليرقب أخبار هذه الحملة عن كثب ، وأعلن استعداده لمساعدة تونس ضد الغزاة الصليبيين . غير أن موت الملك لويس التاسع فى تونس بددت جميع مخاوف بيبرس فسار الى الشـــام سنة ١٢٧١ ، حيث استولى على صافيتا وحصن الأكراد وعكا ، وأعقب ذلك بحركات خاطفة استولى فيها على بعض قلاع الاســماعيلية عقابا لهم على نقض ما بينه وبينهم من اتفاق وجزية وسلام . ثم رجع بيبرس الى القاهرة أواخر تلك السنة ، لكنه عاد مرة أخرى الى الشام سنة ١٢٧٢ ، حيث تفقد حاميات المدن التى استولى عليها من الصليبيين فى حمــلاته السابقة .

وفى هذه السنة نفسها (١٢٧٢ م) أرسل بيبرس أسطولا عدته احــدى عشرة سفينة للاغارة على قبرص ، فحطمته عاصفة قرب ليماسول ولم تستطع سفينة من سفنه أن تصل الى الشاطىء القبرسى . وفى العام التالى أى سنة ١٢٧٣ غادر بيبرس دمشق الى البيرة على الفرات ، لدفع اغارة مغولية تلك السنة . فأنزل بالمغيرين هزيمة كبرى بعد أن عبر النهر سابحا على رأس قواته لملاقاتهم . وفى طريق عودته الى دمشق استولى بيبرس على بقية

قلاع الاسماعيلية ، على حين كانت قوات مملوكية تعمل فى برقة وأرمينيا الصغرى ، فضلا عن النوبة التى اعتمدت منذئذ على الدولة المملوكية فى حل مشاكلها الداخلية ، ولا سيما وراثة عرش مملكة النوبة .

وشعرت الامارات الصليبية وقتذاك بأن مستقبلها يتطلب هدنة عامة عقدها بيبرس مع كل من هذه الامارات سنة ١٢٧٤ ، وربما كانت هذه الهدنة هى التى شجعته على الزحف بنفسه على أرمينية الصغرى سنة ١٢٧٥ ، حيث استولى على سيس وأياس ، كما شجعته على الزحف بقوة حربية مرة أخرى الى أقصى الشمال سنة ١٢٧٦ ، حيث أحرز انتصارا كبيرا على قوات المغول والسلاجقة بالروم ، ودخل العاصمة السلجوقية قيصرية وجلس على عرش سلاطينها ، وأخيرا عاد بيبرس الى دمشق أوائل سنة ١٢٧٧ وتوفى تلك السنة وهو فى أوج مجده بعد مرض قصير بسبب تناوله شرابا مسموما .

ويقال ان بيبرس كتب فى أواخر أيامه وصية الى السعيد بركة ، وهو أكبر أبنائه وولى عهده فى السلطنة وانه نصحه فى هذه الوصية بالحذر من كبار الأمراء بما نصه : « فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقته ، ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا فى هذا ، وافعل ما أمرتك به والا ضاعت مصلحتك » على أن الخطر على سلطنة بركة هذا جاء اليه من مأمنه فى أغسطس سنة ١٢٧٩ ، حين خلعه حموه قلاوون ، وأقام مقامه ابنا ثانيا لبيبرس ، وهو طفل فى السابعة من عمره اسمه سلامش . ثم لم يلبث قلاوون أن خلع سلامش كذلك فى نوفمبر سنة ١٢٧٩ ، وأقام نفسه سلطانا .

وكان السلطان قلاوون — مثل بيبرس — من المماليك البحرية ، وشارك زملاءه زمن أيبك ، وعاد الى مصر مع بيبرس تلبية لنداء قطز فى تعبئة القوى لصد المغول . ولما آلت السلطنة الى بيبرس خدمه قلاوون أحسن خدمة ، وظهرت كفايته فى الحرب ضد المغول وأرمينيا الصغرى ، ولكنه بدا مغضوبا عليه أواخر أيام بيبرس لأسباب غير واضحة ، وواجه قلاوون معارضة قوية لسلطنته ، واصطبغت هذه المعارضة بشىء من الولاء لأبناء بيبرس ، وهى فى الواقع لم تخرج عن أن بعض أمراء المماليك الذين أسهموا بقسط وافر فى الانتصارات البيبرسية أحسوا بأن لهم حقا مثل قلاوون فى السلطنة .

ومن هؤلاء سنقر الأشقر نائب دمشق الذى أعلن نفسه سلطانا بها ، ووجد تلبية لحركته فى الشام وفلسطين . واستطاع قلاوون أن يقضى على هذه الحركة فى وقعة حربية جنوبى دمشق ، غير ان سنقر تمكن من الفرار ، وذهب الى بلاط ايلخان أبغا بن هولاكو يطلب نجدته . وكان أبغا من أشد الدعاة لمشروع التحالف بين الصليبيين والمغول ضد المماليك ، مستعدا تمام الاستعداد لمساعدة أية حركة ثورية ضد السلطنة

المملوكية فى مصر أو الشام ، ولذا تحمس أبغا لنجدة سنقر ، وغزت فرقة مغولية شمال الشام فى سبتمبر سنة ١٢٨٠ ، ودمرت كثيرا من القوى المحيطة بحلب ، وخرج قلاوون الى الشام لمواجهة هذا الغزو ، على حين أرسل الى سنقر يسترضيه بأن تكون له بعض المدن فى شمال الشام ليحكمها حكما مستقلا ، وأن تكون مرتبته من حيث الوظيفة والاقطاع تالية لمرتبة السلطان . وبفضل هذه الترضية استطاع قلاوون أن يركز جهوده ضد الغزاة الذين زحفوا نحو حلب مرة أخرى بقيادة منكوتمر — أخى أبغا ، تؤازرهم فئات من أرمينيا الصغرى وجورجيا وغيرهما من البلاد التى خضعت للمغول . وأخيرا وقعت الواقعة بين الطرفين عند حمص (أكتوبر سنة ١٢٨٠) حيث انهزم منكوتمر ، واضطر الى الانسحاب من الشام .

وبعد ذلك بعام توفى أبغا وخلفه فى الايلخانية الفارسية أحمد تكدار الذى ترك المغولية واعتنق الاسلام ، ودلت خطاباته الودية الى قلاوون على مدى تعلقه بدينه الجديد وهى خطابات كرر فيها تكدار رغبته فى العيش فى ظلال السلم مع جميع البلاد الاسلامية المجاورة . غير أن الايلخانية نفسها لم تشارك فى هذه الرغبة ، حتى اذا اعتلى عرشها سنة ١٢٨٤ أرغون انقلبت سياسة تكدار رأسا على عقب ، وأخذ أرغون فى احياء مشروع أبغا لانشاء حلف صليبى — مغولى ضد السلطنة المملوكية . على أن هذا المشروع لم يتحقق يوما من الأيام مع العلم بأن قلاوون نفسه كان يخشى تحقيقه فى عهده ، بدليل ما حرص على عقده من محالفات وصلات مع مغول القبيلة الذهبية والامبراطورية البيزنطية وملوك فرنسا وقشتالة وصقلية ، وجمهورية جنوا ، فضلا عن الامبراطور رودلف هابسبرج ، مقتفيا فى ذلك أثر سياسة بيبرس .

وفى طريقه لصد الغزو المغولى ، أى قبل وقعة حمص ، جدد قلاوون الهدنة العامة التى عقدها بيبرس فى أواخر أيامه مع المدن الصليبية . وكانت هذه الهدنة لمدة عشرة أعوام ، فأضاف اليها قلاوون شروطا مجحفة دالة على مدى ما صارت اليه الامارات الصليبية الباقية من ضعف واضمحلال . ومع هذا لم يكن فى نية قلاوون أن يحترم هذه الهدنة بعد فراغه من المغول ، اذ أراد — مثل بيبرس — أن يقوم كذلك ضد الصليبيين بدور حربى مشابه لما قام به صلاح الدين . ولذا لم يكد قلاوون يعلم بخيبة مشروع أرغون فى عقد حلف مغولى صليبى ضد سلطنة المماليك حتى أخذ هو يركز جهوده ضد المدن الصليبية .

وكان قلاوون عندئذ فى الخامسة والستين من عمره ، ويبدو أنه اشتهى أن يختتم حياته بصفحة من الجهاد الذى أكسب بيبرس شهرته فى خدمة الدين . وجعل قلاوون هدفه الأول حصن الاسبتارية بالمرقب قرب الأطراف الشمالية لامارة طرابلس ، ففاجأه وألغم

أسواره فى سرعة أذهلت حاميته واضطر الاسبتارية الى التسليم والجلاء فى مايو سنة ١٧٨٥ . ثم زحف قلاوون صوب مرقية وهى قلعة حصينة على ساحل البحر ، وصاحبها تابع افطاعى للكونت بوهيمند السابع أمير طرابلس . وأنذر قلاوون الكونت بوهيمند بأنه اذا لم تتجرد هذه القلعة من سلاحها وحاميتها ، فانه سوف يشن الحرب على امارة طرابلس نفسها ، فأسرع بوهيمند الى اصدار التعليمات بتنفيذ ذلك سنة ١٢٨٦ ، فى سبيل انقاذ الامارة الطرابلسية . وأسرعت كذلك مرجريت أميرة مدينة صور الى شراء السلم من قلاوون بشروط من املائه ، وعقد ليو الثالث ملك أرمينيا الصغرى اتفاقية مشابهة تعهد فيها بدفع جزية سنوية باهظة للسلطان .

وأحس قلاوون بأنه حقق مغانم كثيرة من الصليبيين فى غير عناء ، فأغراه هذا التوفيق بخصيمه القديم سنقر الأشقر ، واستطاع أن يخرجه من امارته الواسعة فى شمال الشام سنة ١٢٨٧ ، وأن يحمله على القنوع بالعيش فى القاهرة بطالا ، أى بعيدا عن الحياة السياسية .

وفى السنة التالية (١٢٨٨) انصرفت جهود قلاوون الى النوبة ، اذ أرسل حملتين تأديبيتين لتنظيم العلاقة بينها وبين السلطنة المملوكية على قاعدة التبعية التى أنشأها بيبرس سابقا . وفى السنة نفسها توفى بوهيمند السابع أمير طرابلس دون أن يعقب وريثا ، فأغرت الخلافات الصليبية حول هذه المشكلة قلاوون بالاستيلاء على مدينة طرابلس لنفسه، وحاصرها وخرب حصونها ، حتى تم له الاستيلاء عليها سنة ١٢٨٩ . وبعد ذلك بقليل استولى قلاوون على قلعة البطرون جنوبى طرابلس بعد أن خربها هى الأخرى ثم عاد الى مصر حيث أعد العدة لحصار عكا ، وهى البقية الباقية للصليبيين بالشام بعد أن ادعى أن التجار المسلمين يعاملون فيها معاملة سيئة ، تبريرا لما بيته من زحف حربى ضدها . غير أنه مرض ومات قبل أن يحقق هذه الخطوة النهائية ضد الصليبيين وكانت وفاته فى (نوفمبر سنة ١٢٩٠) بمعسكره خارج القاهرة ، وهو فى السبعين من عمره .

واذ اقتفى قلاوون أثر بيبرس فى سياسته ضد الصليبيين والمغول ، بحكم تشابه الأهداف والأحوال ، فانه اقتفى أثر بيبرس كذلك فى اقامة المبانى والعمائر فى مدن مصر والشام ، بما فى ذلك مسجد وضريح مشهوران بالقاهرة . أما المستشفى العام (البيمارستان) الذى أنشأه قلاوون بالقاهرة ، فأكسب صاحبه شهرة خاصة ، مع العلم بأن هذا المستشفى لم يكن الأول من نوعه فى قاهرة العصور الوسطى . واهتم قلاوون بتنظيم الجيش المملوكى ورفع مستواه ، وأضاف اليه فرقة جديدة تبلغ ثلث عدده القديم ، وجعل اقامة هذه الفرقة الجديدة بأبراج القلعة ، ومن ثم تسمى أفرادها باسم البرجية .

وعين قلاوون ابنه الأكبر عليا ليكون خلفا له فى السلطنة ، غير أن هذا الابن توفى فى حياة أبيه ، فصار أخوه خليل هو الوريث التالى ، برغم ما اشتهر به من ميل الى العنف

والشر ، فضلا عن الظن بأنه دس السم لأخيه المتوفى .

ولذا رفض قلاوون التوقيع على تعيين خليل لولاية العهد ، وقال « أنا ما أولى خليلا على المسلمين » أملا منه فى الاحتفاظ بولاية العهد لابن صغير أنجبه فى أخريات أيامه من زوجة مغولية شابة ، اسمه محمد . لكن وفاة قلاوون على غير انتظار لم تترك مجالا للتردد، وأقيم خليل فى السلطنة وعلم فى اجتماع مجلس المشورة باعلان سلطنته فى نوفمبر سنة ١٢٩٠ ، وتقليده بولاية العهد ، فقال « ان السلطان امتنع أن يعطينى ، وقد أعطانى الله » .

غير ان السلطان خليل انساق وراء ما اشتهر به من ميل الى الشر والعنف ، فعكف على الانتقام من رجال أبيه ، اعتقادا منه بأنهم السبب فى تشويه سمعته واتهامه بدس السم لأخيه . ولذا بدا حكمه من هذه الناحية الداخلية سلسلة مخيفة من أعمال المصادرة والتعذيب والسجن والقتل ، وكان الأمير طرنطاى خصيمه القديم أول من ناله كل هذا وذاك حتى مات فى السجن . وانتابت خليل مع هذا نوبات من كرم الخلق وحسن السلوك اذ نزل مثلا عن أملاك طرنطاى لابنه ، وأعفى أرض مصر والشام من المتأخر عليها من بعض الضرائب من عهد أبيه ، كما أنه أحيا ذكرى أبيه قلاوون احياء سنويا حافلا .

أما من ناحية السياسة الخارجية ، فدلت أعمال خليل على شجاعة ومقدرة وقوة كما هو واضح من تصرفاته فى أكثر مواقفه . ذلك أنه أخذ فى تنفيذ مشروع أبيه للزحف على عكا ، فأضاف الى الاستعدادات الكائنة اعدادا من الجند وكميات من أدوات القتال ، حتى فاقت آلات الحصار حول عكا فى ربيع سنة ١٢٩١ أية كمية سابقة ضد أية مدينة من مدن الصليبيين بالشرق . على أن عكا كانت هى الأخرى محصنة تحصينا قويا ، ولذا قاومت مقاومة مستمرة عشرة أيام متتابعة ، حتى قرر خليل مهاجمتها والاستيلاء عليها عنوة .

وهنا يضيق المجال عن وصف أعمال الشجاعة والبطولة التى بذلها المهاجمون والمدافعون سواء ، مع العلم برجحان كفة الجيوش المملوكية ، بعد أن بات الصليبيون وليس لهم فى الشام من المدن الكبرى سوى عكا . ثم كان الهجوم النهائى على عكا صباح يوم الجمعة ١٨ مايو سنة ١٢٩١ ، فعادت المدينة لمدة عشرة أيام منذ ذلك الصباح ميدانا للهجوم والدفاع ، والكر والفر حتى انتهى الأمر بهدم تحصيناتها وسقوط المدينة نفسها فى أيدى جيوش السلطان خليل ابن قلاوون . وهكذا سقطت عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام ، وفى بضعة الأشهر التالية تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التى كانت لا تزال فى قبضة الصليبيين ، فهدمت جميعها ، ماعدا بيروت التى استجابت الى طلب التسليم بدون قتال .

وأخيرا رحل السلطان خليل عن عكا الى دمشق ، وفى موكبه عدد كبير من الأسرى

وسبقته أخبار انتصاراته الى جميع أرجاء مصر والشام ، فاستعدت البلاد لاستقباله استقبالا حافلا ، وأخذ الشعراء ينظمون القصائد فى مدحه ، ونسى الناس أعماله الانتقامية القاسية ضد رجال أبيه .

ثم عاد خليل الى القاهرة أوائل سنة ١٢٩٢ وهو ممتلىء بمشروعات عريضة واسعة للفتح والغزو بعد توفيقه الذى جعله بطل النصر الختامى على الصليبيين ، ولذا أوعز خليل الى الخليفة العباسى بأن يعلن الجهاد ضد المغول ، وخرج بنفسه على رأس حملة الى الأراضى الفراتية ، لكن جهوده فى هذه الحملة لم تتعد حصار قلعة الروم والاستيلاء عليها وتسميتها قلعة المسلمين (يوليو سنة ١٢٩٢) وهى مدينة محصنة مقابلة للبيرة . وأحيا خليل انتصاره هذا بالقبض على عدد من رجال حكومته غداة عودته الى القاهرة واتهمهم باثارة المتاعب ضده أثناء غيابه .

وبعد ذلك بقليل أخذ خليل يستعد لغزو أرمينيا الصغرى ولكنه لم يكد يجاوز دمشق حتى جاءته رسل ملكها تخبره بالتنازل له عن مرعش والبهنسا ثمنا للسلم . ولذا عاد خليل الى القاهرة ليعد قواته لحملة جديدة — ضد المغول فيما يبدو — لأنه لم يكد يستقر بالعاصمة حتى وصلت اليه سفارة مغولية من عند ايلخان كيختو تطالب بتسليم مدينة حلب ، ورد السلطان خليل على هذه السفارة بأن أمر بترحيل أعضائها ، بعد أن هددهم بالزحف على بغداد التى اغتصبها المغول لأنفسهم منذ انتقال الخلافة العباسية عن العراق ، على أن هذه التهديدات المتبادلة لم تؤد الى نتيجة عملية ، لأسباب خارجة عن ارادة السلطان خليل وايلخان كيختو ، وذلك أن السلطان خليل قتل على أيدى بعض رجاله الذين لم يأمنوا على أنفسهم من شكوكه وانتقاماته اذ تآمروا به وهو فى سرحة الصيد عند كوم تروجة قرب دمنهور الحالية ، وقتلوه (ديسمبر سنة ١٢٩٣) وتركوا جثته فى الصحراء حيث بقيت عدة أيام .

ولم يخلف خليل سوى ابنة صغيرة ، فلم يكن ثمة مجال مثلا الى تكرار قصة شجر الدر باقامة هذه البنت مؤقتا فى السلطنة ، بل عمد زعماء الدولة أواخر سنة ١٢٩٣ الى تنصيب أخى خليل ، وهو كذلك ولد فى التاسعة من العمر ، وهو الناصر محمد ، وذلك ريثما يستقرون على اختيار واحد منهم للسلطنة على طريقتهم المعهودة ، غير أن هذه الطريقة المملوكية لم تنفع برغم عزل الناصر محمد هذا عن السلطنة مرتين ولذا اضطر الأمراء الى اعادة تنصيبه كذلك مرتين ، أى أنه تولى السلطنة ثلاث مرات ١٢٩٣ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٩ .

وفى هذه السنة الأخيرة بلغ السلطان الناصر محمد الخامسة والعشرين من عمره ،

كما بلغ من الخبرة والديبلوماسية والمكر والتكتم فى شئون الحكم مرتبة لم يبلغها قبله أو بعده سلطان مملوكى فى مصر والشام . ذلك انه مهما اتصف به الناصر فى مستهل حياته من صفات طيبة ، فان هذه الصفات أتى عليها ما صادفه هو من تجارب قاسية أثناء سلطنته الأولى والثانية ، حين اعتبره زعماء المماليك كرة يتبادلونها فى ميدان منافساتهم للوصول الى أهدافهم الخاصة . وفى ذلك يقول المؤرخ لين بول غداة تولية الناصر السلطنة للمرة الثالثة سنة ١٣٠٩ « انه على الرغم من أن الناصر لم يتجاوز الخمسة والعشرين من عمره وقتذاك ، فانه اشتهر بالاستعلاء على من حوله وعدم الثقة فيهم ، مع التعطش للانتقام ممن كانوا سببا فى شقاواته أيام حداثته وشبابه من الكوارث ، كما اشتهر بالعمل على التخلص من تدخل الأمراء المماليك فى شئون الدولة » .

ولتحقيق ذلك سلك الناصر محمد سبل الحيلة والغش والخداع ، واتخذ من الوسائل البطيئة الخافية ما كفل له التخلص من جميع غرمائه فى الوقت المناسب له . ومع هذا برهن الناصر على مقدرة وكفاية فى شئون الحكم العادل والادارة الطيبة فوجه معظم اهتمامه الى تنمية الموارد الاقتصادية بالدولة المملوكية ، واتبع فى ذلك تفضيل معاهدة تجارية أو سياسية على اشتباك فى معركة حربية ، اعتقادا منه أن ظفرا دبلوماسيا هادئا خير من انتصار عسكرى صاخب وأن اقتناء خيول أصيلة للسباق أشهى من اكتناز المال ، وأن بناء قصر معمارى جميل أبهى منظرا من أكداس الذهب والفضة والملابس السلطانية الغالية . ولذا يشبه الناصر محمد من بضع نواح لويس الحادى عشر ملك فرنسا فى القرن الخامس عشر .

وحكم الناصر محمد دولته حكما فرديا بيد حديدية مكسوة بناعم القطيفة على قول التعبير الأوربى ، وتعتبر سلطنته الثالثة التى امتدت حتى وفاته سنه ١٣٤١ أزهى عصور السلطنة المملوكية على الاطلاق . على أن هذا العهد لا ينبغى الحكم عليه بما امتاز به من الطول والاستمرار فحسب ، بل بما ساده من رخاء عام ، وخلو من الحروب ، واهتمام برجال العلم وتشجيعهم ، فضلا عما امتاز به من هيبة فى أوربا وآسيا ، وما زخرف به حياة البلاط بالقاهرة من الرونق والأبهة . واشتهر الناصر محمد بالولع بالعمارة والفنون واقتناء التحف الفنية ، فلم يضارعه فى ذلك أحد فى زمنه أو بعد زمنه فى التاريخ المملوكى ، ولم يستطع أحد من الأمراء المماليك أن ينافسه فيما اشتهر به من ذوق فنى . وظل هذا الازدهار باقيا الى ما بعد وفاة الناصر فاصطبغت به الحياة المملوكية زمن أبنائه وأحفاده الذين توالوا على الحكم من بعده ، وذلك رغم ما امتلأت به أزمنتهم من مظاهر ضعف السلاطين وسوء الادارة والحكم . ذلك ان البلاط حفظ من الرواء والبذخ ما اشتهر به من قبل ، واستمر تشييد المساجد

والقصور الرائعة ، بفضل ما توافر من الموارد الضخمة المستمدة من التجارة العالمية ، وبفضل ما أجراه الناصر فى زمنه من اصلاحات فى طريق الزراعة فى كل من مصر والشام .

واذ تولى السلطنة المملوكية بعد الناصر محمد ثمانية من أبنائه ، واثنان من أحفاده ثم اثنان من أبناء أحفاده على التعاقب ، فيتضح من هذا وحده أن شيئا من مبدأ تولية الابن الأكبر للحكم أخذ محل ما سبق تفصيله من تنصيب ابن السلطان المتوفى مؤقتا على الطريقة المملوكية المعهودة . ولذا أشبهت هذه السلسلة الطويلة من أبناء السلطان الناصر محمد سلسلة الملوك الميروفنجيين المتأخرين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى . غير أن سلطنة الواحد من أولئك السلاطين من أبناء الناصر وأحفاده لم تمتد الا بمقدار ما سمح به زعيم أو آخر من زعماء المماليك ، وظل الأمر على ذلك تقريبا حتى استطاع برقوق ، زعيم المماليك البرجية ، أن يتخلص من آخر سلالة الناصر محمد فى سنة ١٣٨٢ ، فأضحى بذلك أول سلاطين المماليك البرجية أو الجراكسة فى مصر .

وفى خلال هذه المرحلة التى استغرقها حكم أولاد الناصر وأحفاده ، ومدتها البالغة احدى وأربعون سنة ، وقعت ثلاث حوادث تختلف فى أهميتها ودلالتها فى التاريخ المملوكى . وأول هذه الحوادث الوباء الكبير المعروف فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى باسم الوباء الأسود ، وهو الوباء الذى أنزل الفناء والدمار بأهل مصر وسائر سكان الشرق الأوسط بين سنة ١٣٤٨ وسنة ١٣٥٠ ، وامتد كذلك الى أوربا وأدى الى خسائر فادحة فى الأرواح والماشية والزراعة وترتب عليه نتائج اقتصادية واجتماعية فى الشرق والغرب .

أما الحادث الثانى فهو أن أسطولا مؤلفا من سفن قبرص ورودس والبندقية وجنوه ، جاء بجنود من عناصر مختلفة ، وهاجم الاسكندرية فى خريف سنة ١٣٦٥ وتولى قيادة هذا الأسطول بطرس الأول لوزيجنان ملك قبرص ، وهو الذى أنشأ طائفة الفرسان الصليبيين المعروفة باسم طائفة السيف ، لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . واستولى هذا الأسطول على الاسكندرية واستباحتها جنوده أسبوعا ، فلم يسلم من شرهم ونهبهم مسلم أو يهودى أو مسيحى . ثم غادر الأسطول مياه الاسكندرية ، بعد أن حملت سفنه ما يقرب من خمسة آلاف أسير من الرجال والنساء من اليهود والمسلمين والنصارى ، ويروى شاهد عيان من المسلمين أن سبعين سفينة من هذه السفن أبحرت من ميناء الاسكندرية محملة بأنواع الغنائم ، فضلا عن هذا العدد الكبير من الأسرى . وأعقبت هذه الكارثة مفاوضات تعرضت للفشل والانقطاع بسبب ما جرى من حين الى آخر من اغارات قبرصية على سواحل الشام ومصر للضغط على السلطان وأخيرا تقرر عقد الصلح بين قبرص والسلطنة المملوكية

سنة ١٣٧٠ بعد أن توسط بينهما كل من جمهوريتى جنوة والبندقية .

أما الحادث الثالث فيرتبط بالمملكة المسيحية فى أرمينيا الصغرى باقليم قيليقية بأطراف آسيا الصغرى مما يلى الشام ، اذ دأبت هذه المملكة منذ تأسيسها على تقديم المساعدة للصليبيين فى الشرق ، فأصبحت بذلك هدفا للاغارات المملوكية المتكررة . فلما سقطت عكا فى يد السلطان خليل غدت مملكة أرمينية الصغرى هذه الهدف التالى للحملات المملوكية ، حتى استولى أمير حلب المملوكى على عاصمتها سيس ، سنة ١٣٧٥ ، باسم السلطان شعبان ، واقتسم الأمراء المقطعون أراضى هذه المملكة ، بعد اعلان تبعيتهم للسلطنة المملوكية . أما ليو السادس آخر ملوكها فانه وقع أسيرا ، وحمل الى القلعة بالقاهرة حيث بقى فى أسره الى أن جرى افتداؤه سنة ١٣٨٢ ، وهذه السنة هى التى صار فيها برقوق أول سلطان فى دولة المماليك الجراكسة أو الدولة المملوكيةالثانية.

يتبقى للقارىء هنا بعد هذا العرض العابر تصوير عام للحكم المملوكى من حيث البناء السياسى ونظم الحكم والجهاز الادارى والاقتصادى ، فضلا عن التركيب الاجتماعى، والحركة الفكرية ، والنشاط البنائى المعمارى الذى اشتهر به عصر سلاطين المماليك وأول ما يبدو واضحا من ملامح هذا التصوير ان أقلية حربية مملوكية حاكمة مستندة الى طبقة عسكرية من المماليك هى التى تسيطر على البلاد . ورمز سيطرتها بسلطان هو نفسه مملوك من هذه الطبقة الا اذا كان ابنا لسلطان وأحاط زعماء هذه الأقلية المملوكية الحاكمة بالسلطان وكلهم بدأوا حياتهم مثله مماليك صغارا فى الجيش السلطانى الخاص أو جيوش الأمراء ثم تدرج الواحد منهم فى المراتب العسكرية تدرجا متناسبا مع طبقته . وكان المماليك جميعا — مثل السلطان — غرباء عن البلاد ، ينتمون الى بلاد وأصول عديدة ، واذ كان معظمهم فى القرن الثالث عشر من مغول القفجاق الذين انتمى اليهم بيبرس وقلاوون فان أفرادا منهم جاءوا من ايطاليا وألمانيا وروسيا والصين ونشأ أولئك المماليك على أساس من الفروسية الاقطاعية ، وفق مراتب عسكرية ووظائف سياسية معينة ، بحيث غدت فى أيديهم جميع المناصب العسكرية والوظائف البلاطية واقطاعاتها فضلا عن الوظائف الادارية الكبرى واقطاعاتها فى مصر وسائر أقاليم الدولة المملوكية . وكانوا جميعا مسلمين منذ اندماجهم فى الزمرة المملوكية ، وأطلق عليهم عموما اسم رجال السيف تمييزا لهم من رجال القلم ، وهم أصحاب الوظائف الديوانية المدنية ، من أهالى البلاد المسلمين وغير المسلمين ، ويبلغ عدد غير المسلمين فى الوظائف الديوانية ، ولاسيما الوظائف المتعلقة بالأموال وحسابها أعدادا كبيرة معظم الأحيان .

أما الاقطاعات التى تملكها أمراء المماليك مقابل ما يؤدونه من خدمات عسكرية ووظائف بلاطية أو ادارية فتفاوتت من حيث النوع ، وربما تكون هذه الاقطاعات أراضى زراعية (قطعة واحدة أو مبعثرة) أو قرى كاملة أو حصيلة ضريبة ، أو مكسا من المكوس أو مقررا من المقررات التى تشرف الدولة على تنظيمها وتفاوتت الاقطاعات كذلك من حيث القيمة النقدية الرسمية . وهى المسماة فى المصطلح الديوانى المملوكى باسم العبرة وتعين على كل أمير أن يخصص ثلثى اقطاعه لمماليكه بأن يخصص لكل واحد منهم جزءا من الاقطاع أو من حصيلته النقدية ، وهؤلاء المماليك هم الذين يشترك بهم الأمير فى حروب السلطان واختص ديوان الجيش بتوزيع الاقطاعات وتجزئتها ، ولذا سمى هذا الديوان كذلك باسم ديوان الاقطاع . وبالاضافة الى الاقطاعات تمتع الأمراء بكثير من العطاءات النقدية والعينية التى اعتاد السلاطين توزيعها على أرباب السيف وأرباب القلم كذلك فى مناسبات معينة من السنة ، عن طريق ديوان المال وغيره من دواوين الدولة .

أما أصول هذا التنظيم الاقطاعى فترجع الى أيام صلاح الدين الأيوبى على الأقل ، غير أنه ينبغى التنبيه هنا أنه على الرغم من التشابه بين التنظيم الاقطاعى المملوكى فى القرن الثالث عشر والتنظيم الاقطاعى الذى عم غرب أوربا وقتذاك فان التنظيمين اختلفا تمام الاختلاف فى أصولهما ، فضلا عن طبيعة التملك ، فى كل منهما ، وذلك أنه على حين تطور الاقطاع الأوربى حتى غدا متأثرا بمبدأ التوريث وتمليك الرقبة ، ظل الاقطاع المملوكى فى الغالبية العظمى شخصيا فقط ، ولا يعنى أكثر من قطعة أرض أو أى حصيلة مالية لا يتمتع صاحبها بحق ملكيتها أو التصرف فيها أو توريثها ، بل يقتصر تمتعه بها على استغلالها مدة اقامته فى وظيفته أو مدة حياته فحسب وفق قواعد وشروط خاصة .

واذ نشأ السلطان المملوكى نشأة سائر المماليك ، وانتمى الى طبقتهم ، فانه جاء الى دست السلطنة ، لا عن طريق الوراثة بل عن طريق الاختيار من مجلس المشورة ، وذلك بعد أن يتخلص المجلس من ابن السلطان المتوفى على الطريقة المملوكية المعهودة ، ثم أصبح الخليفة العباسى منذ قيام الخلافة العباسية فى القاهرة على يد السلطان بيبرس قسيما نظريا للسلطان فى سلطنته . ولذا كان السلطان المملوكى فى الواقع سويا بين أسوياء من الأمراء المماليك أكثر من سلطان بمعنى الكلمة ، مع العلم بأن السلطانين بيبرس وقلاوون ملأ كل منهما مركزه بشخصيته المهيبة ، وان شخصية قلاوون بالذات ساعدت على بقاء السلطنة أجيالا متعاقبة فى سلالته .

وتألف الجيش المملوكى من ثلاث فئات من الأجناد وهى الحلقة ، والمماليك السلطانية ،

ومماليك الأمراء . وانقسمت كل فئة من هذه الفئات الى أقسام فرعية لكل منها نوع معين من الخدمة فى السلم والحرب ، ومثال ذلك فرقة البحرية التى تخرج فيها بيبرس وقلاوون وهى الفرقة الموكلة بحراسة شخص السلطان فى اقامته وأسفاره ، ثم مزقه مماليك الغيبة ، وهم الذين يعينهم السلطان للاقامة بالقلعة وغيرها من الجهات السلطانية خلال غيبته عن القاهرة ، ثم مماليك المهمات وهم الذين يكلفهم السلطان بسفاراته الى البلاد الأجنبية.

وتألفت فى الجيش المملوكى فرق مساعدة من البدو والتركمان والأكراد والشاميين والفلسطينيين وأعداد صغيرة من المصريين . وفيما عدا ذلك وفيما عدا الوظائف الديوانية لم يشارك أهل بلاد الدولة المملوكية من المصريين والشاميين وغيرهم طبقة المماليك فى ناحية من نواحى الحياة السياسية أو الاجتماعية بل اشتغلوا فى مختلف المدن المصرية والشامية بانتاج ما احتاج اليه أولئك السادة من حاجات السلم والحرب ، واشتغلوا فى الريف مزارعين أو أقنانا يفلحون الأرض ويؤدون ما عليهم من ضرائب ومقررات فى نظام صارم تخللته ثورات محلية قليلة ، سماها المؤرخون المعاصرون باسم فساد الفلاحين والعربان .

والخلاصة انه لم يكن لأهل البلاد أى نصيب فى ادارة شئون الدولة ، ما خلا الأعمال الانتاجية السابقة ، فضلا عن المناصب الدينية والقضائية والادارية الصغرى . ومصداق هذا وصف المؤرخ والناقد الاجتماعى والاقتصادى ابن خلدون ، اذ يقول فى شرح أحوال الدولة المملوكية وأهلها ما نصه : « فملك مصر فى غاية الدعة والرسوخ .. انما هو سلطان ورعية ، ودولتها قائمة بملوك الترك وعصائبهم ، يغلبون على الأمر واحدا بعد واحد .. » .

ولابن خلدون ملحوظة أخرى حادة فى وصف أهل مصر فى العصر المملوكى ، ونصها « وأهل مصر كأنهم فرغوا من يوم الحساب » اشارة الى الاستسلام والرضى بالحياة المدنية الرتيبة مع الامعان مبادلة فى الأفراح ، وان الاحتفالات المملوكية العامة مثل عودة السلطان ظافرا من الحرب أو الاحتفال بختان ابن السلطان أو بزواج ابنته .

غير انه على الرغم من استئثار سلاطين المماليك وأمرائهم بشئون الحكم والجيش والادارة فانهم يعدّون أصحاب أفضال سابقة على الحضارة المصرية فى زمنهم وهم يملأون عين التاريخ بجهودهم وتوفيقاتهم الخارجية والداخلية . ذلك انهم نجحوا نجاحا باهرا فى ازالة أخطار الصليبيين والمغول عن مصر والشام ، كما نجحوا فى اقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، بعد عثرتها الدامية فى بغداد . وكفلت لهم توفيقاتهم فى هذه النواحى العظمى مكانة احترام وهيبة وخشية فى قلوب الخاص والعام ، لا فى مصر والشام فحسب بل فى العالم الاسلامى كله ، وكأن السلاطين أحسوا بما صار اليهم من هذه المكانة المثلثة

برغم أجنبيتهم عن مصر التى غدت مركز سلطنتهم ، أو كان كونهم جديدين على شئون الحكم جعلهم يشعرون شعورا خاصا بمسئولياته ، أو كان حداثة عهدهم بالاسلام جعلتهم متحمسين لاقامة العمائر الدينية ، من باب التقوى والزلفى الى الله ، أو من باب السياسة واجتذاب القلوب . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن السلاطين المماليك عنوا أكبر عناية . بتخليد أسمائهم فى منشئات معمارية أعطت ملامح القاهرة ومعالمها وآفاقها مسحة من الجمال الهندسى والذوق الفنى بالاضافة الى مسحتها التى امتازت بها منذ أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومن هذه المنشئات المعمارية المملوكية عدد كبير من المساجد والمدارس والخوانق التى تزين السماء القاهرية ببقاياها الرائعة ، من مآذن سامقة وقباب فاخرة ، وتملأ أحياء القاهرة القديمة بآثار لا يرى فيها الزائر سوى صمتها البليغ . وأول هذه المنشئات مدرسة بناها السلطان المعز أيبك التركمانى بمصر (مصر العتيقة الحالية) ، على شاطىء النيل ، قبالة مقياس جزيرة الروضة ، وأطلق عليها اسم المعزية نسبة اليه وهى فيما يرجح أول مبانى الدولة المملوكية بالقاهرة ، وأعقب هذه الفاتحة المعمارية سلسلة من المبانى المتنوعة الدالة بكثرة عددها على استقرار الدولة المملوكية نفسها ، واقتناع سلاطينها بما لتلك المبانى من نصيب فى ذلك الاستقرار ، فضلا عن تأثيرها فى مصائر السلاطين أنفسهم فى الحياة الدنيا والآخرة . ولذا بنى السلطان الظاهر بيبرس مسجده العظيم المعروف باسمه ، والذى يعرف به أحد أحياء القاهرة الحالية ، وهذا المسجد بالاضافة الى المدرسة الظاهرية وهى كذلك بالقاهرة بشارع النحاسين . أما السلطان المنصور قلاوون ، فهو صاحب المارستان المنصورى الذى وصفه أحد مديريه الاداريين ، وهو النويرى المؤرخ ، وصفا تفصيليا فى كتابه : « نهاية الأرب فى فنون الأدب» ، ولا يزال جزء من هذا البناء يستخدم لعيادة طبية لأمراض العيون ، ويسمى مستشفى قلاوون ، ولهذا السلطان وعهده يرجع كذلك بناء المدرسة المنصورية ومدرسة زوجته أم ابنه الأكبر الصالح على ، ومدرسة ابنه الثانى خليل ، وهذه وتلك فضلا عن القبة المنصورية ، ومكتب السبيل المخصص لتعليم الأيتام .

ثم يأتى بعد ذلك عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهو عصر الذروة المعمارية المملوكية ، بكل ما فى ذلك الوصف من معنى ، اذ استمر الحكم الفعلى المباشر لهذا السلطان مدة اثنتين وثلاثين سنة (١٣٠٩ — ١٣٤١) ، وخلت هذه السنوات الطويلة من أية حروب خارجية أو فتن داخلية كبرى ، فانصرف السلطان — ونساؤه وأمراؤه معه — الى أعمال معمارية مختلفة المقاصد والمنافع ، وأولها من حيث الأهمية عدد حافل من

الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والقباب ، اذ هى تبلغ نحو تسعين مبنى ، ومنها على سبيل المثال جامع السلطان الناصر محمد نفسه بالقلعة ، ومسجد الأمير الطنبغا الماردينى ، بالتبانة ، ومدرسة الأمير أقبغا عبد الواحد داخل الجامع الأزهر ، وخانقاه الأمير قوصون بالقرافة القبلية ، وقبة طشتمر حمص أخضر بالقرافة الشرقية ، وجامع ست حدث القهرمانة بحى الناصرية . ويضيق المجال هنا عن ذكر ما عدا ذلك من هذه المبانى التى تملأ أوصافها صفحات من كتاب المقريزى الذى عنوانه : « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والأمصار » .

وبالاضافة الى هذه المنشآت ذوات الصفات الدينية والتعليمية والتذكارية أنجب النشاط المعمارى المملوكى مجموعة معمارية ثانية من القصور السلطانية والدور الأميرية التى بناها السلاطين لأنفسهم أو لأمرائهم ، أو بناها الأمراء اقتداء بشغف سلاطينهم بالمعمار . واذ أنتجت عهود السلاطين العسكريين وهم أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون وخليل ، عددا قليلا نسبيا من هذا النوع الثانى من المنشآت السلمية ، نظرا لاهتمامهم بالمنشئات العسكرية ، فان هذه القلة النسبية أبرزت عظمة النشاط المعمارى الذى امتاز به عصر السلطان الناصر محمد ، وتوصل ذلك أنه على حين اقتصر عصر السلطان بيبرس على بناء القصر المعروف بالدار الجديدة بالقلعة (مواعظ — ٢ — ٢١٢) واقتصر عصر السلطان قلاوون على مبانيه التى تقدمت الاشارة اليها ، كما اقتصر عصر السلطان خليل بالدار الأشرفية وقصر الرفوف (مواعظ — ٢ — ٢١٢) امتلأ عصر السلطان الناصر محمد بعدد كبير من هذه المنشئات السكنية ، ومطلعها القصر الأبلق الذى بناه السلطان الناصر لنفسه ، وجعله مطلا على الميدان المخصص للعب الأمراء بالكرة والصوالجة (البولو) وعمر السلطان الناصر كذلك القصر المعروف باسم السبع قاعات بقلعة الكبش (مواعظ ٢٠ — ٢١٢) ، وجعله لجواريه وسراريه ، كما انه عمر بالقلعة لكل أمير من الأمراء أزواج بناته الاحدى عشرة دارا خاصة . ثم ان السلطان الناصر عمر عدة قصور لغير أولئك الأزواج من كبار الأمراء ، ومنها قصر طقتمر الدمشقى بحدوة البقرة وقصر بكتمر الساقى على بركة الفيل ، وقصر بهادر الجوبانى تجاه قلعة الكبش (سلوك — ٢ — ٥٤٠) . ولم يكتف هؤلاء وأولئك من الأمراء بما أغدق عليهم السلطان الناصر محمد من منشئاته ، بل أخذوا يتنافسون فيما بينهم لتشييد قصور اضافية لأنفسهم ، وهى قصور امتدت على طول الخليج الناصرى (الخليج المصرى) من قرب ميدان باب الخلق الحالى الى بلدة سرياقوس الواقعة على مسافة عشرة كيلو مترات شمالى القاهرة الحالية ومن هذه القصور دار الأمير ايدغمش أمير أخور ، دار أقبغا ، ودار طقزدمر .

ولم ينته هذا النشاط المعمارى العام بوفاة السلطان الناصر محمد ، بل ظل على حاله وحركته الدائبة تقريبا فى عهود السلاطين أنجاله وأحفاده ، وذلك لمحاولة أولئك السلاطين وأمرائهم أن يحتذوا حذو السابقين ، برغم ما انغمست فيه الدولة المملوكية وقتذاك من قلق سياسى واضطراب ، لرفض الأمراء أن يجدوا فى السلاطين الأنجال والأحفاد موضعا لاحترام أو ثقة أو خشية ، أو أن يجدوا فى مبدأ التوريث للسلطنة متسعا فى تكوينهم المملوكى . ولذا يرجع الى تلك العهود نحو عشرين من المنشئات المعمارية ومنها قصر الدهيشة (مواعظ — ٢ — ٢١٢) الذى أنشأه السلطان الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بالقلعة على طراز قصر أيوبى سابق بمدينة حماة ، ومنها كذلك مدرسة السلطان الناصر حسن ، وقصر صرغتمش بخط بئر الوطاويط بالصليبية ، ودار الست شقراء ابنة السلطان الناصر حسن ، ومدرسة الأمير الجاى اليوسفى ، ومدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان .

***

هذه خلاصة صغيرة لناحية كبيرة من عديد نواحى الحضارة المصرية زمن سلاطين المماليك ، وهى أقرب نواحى هذه الحضارة العجيبة لتناول القاهرة ، وما على القارىء الا أن يطوى هذه الصفحات المختصرة وينتقل عنها الى صفحات الفهرس الرسمى العام للآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، أو دليل أشهر الآثار العربية بالقاهرة . تأليف المرحوم العالم الأثرى محمد أحمد ، أو أن ينتقل عن هذا وذاك الى جولة سريعة فى احياء القاهرة فى العصور الوسطى ، من قرب باب الفتوح الى القلعة وحى الصليبة ، ليرى بنفسه آثار السلاطين المماليك وأمرائهم ، من مساجد ومدارس وقباب وخوانق وهى لا تزال قائمة هنا وهناك ، كليا أو جزئيا .

وهذه الناحية الواحدة تدل فيما تدل على ضخامة الثروة المالية التى وصلت الى أيدى أمراء الطبقة المملوكية عموما ، والتى أغدق السلاطين والأمراء منها على منشآتهم المعمارية فى سخاء تبرهن عليه هذه المنشآت نفسها أو بقاياها .

ومع ان هذه الناحية الواحدة تقتصر فى تصويرها على سادة البلاد من السلاطين والأمراء ، وفئة قليلة من كبار التجار ، فانها تفتح فصولا مجهولة فى تاريخ المعمار المصرى وطوائف المهندسين والبنائين والحجارين والنجارين والمزخرفين الذين أسهموا بعقولهم وسواعدهم فى تيار مختلف العمائر الجميلة البازخة ، بأجور ضئيلة باخلة دالة على مستوى وطىء للمعيشة لغير الطبقة المملوكية، ثم ان هذه الناحية تعطى الباحثين كذلك لمحات من الأحوال الدينية والمساجد والمصلين ، وهم فى صلواتهم خاشعون ، كما تصور الأحوال العلمية والمدارس والطلاب وهم فى دراساتهم عاكفون على حفظ المتون والشروح

والهوامش والحواشى عن ظهر قلب وهؤلاء وأولئك فضلا عن الصوفية ، وهم فى خوانقهم وربطهم وزواياهم منصرفون الى العبادة والدرس والتمرن على الوعظ والارشاد .

غير ان المجال لا يتسع لغير هذه اللمحات الاجتماعية العابرة ، ولذا يحسن استكمال موضوع المنشئات المملوكية بذكر منشئاتهم العامة بالقلعة وغيرها ، ومنها دار العدل التى بناها السلطان بيبرس ، وموضعها فى العصر الحاضر ميدان سارية العلم ، الواقع الى يمين الداخل الى القلعة وكان السلطان الظاهر بيبرس يعقد بها مجلسين فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع فيستعرض شئون الدولة والعسكر ، ويستمع الى الشكاوى التى تصل اليه . ومن هذه المبانى العامة بالقلعة كذلك دار النيابة التى بناها السلطان قلاوون ، وجعلها مقرا لأعمال نواب السلطنة ، وهى التى صار شباكها المشهور مصدرا للقوانين والأوامر المملوكية المكتوبة وغير المكتوبة زمن السلاطين أنجال السلطان الناصر محمد وأحفاده حين صارت نيابة السلطنة مصدر الحكومة الفعلية فى البلاد حتى نهاية الدولة المملوكية الأولى .

الدولة المملوكية الثانية

للدكتور محمد مصطفى زياده

(١٣٨٢ - ١٥١٧م)

دلّ المقريزى المؤرخ على حساسية قوية بالحتمية التاريخية الدينيـة ، حين وقف فى كتابه : « السلوك لمعرفة دول الملوك » عند منتهى أيام السلطان حاجى بن شعبان ، وهو آخر سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، وقال معقبا : « فسبحان محيل الأحوال ومديل الدول » ، ثم بدأ فى السطر التالى بداية عهد السلطان برقوق ، وهو أول سلاطين الدولة المملوكية الثانية . بعبارة أخرى وقف المقريزى وقفته هذه ليودّع دولة ويستقبل أخرى فى آن واحـد ، لأنه يعلم تمام العلم أن الدولة المملوكية الثـانية لن تكون فى جملتها أو تفصيلها سوى امتداد للدولة المملوكية الأولى من حيث الخصـائص الحضـارية ، والتنظيمات الادارية ، والاتجاهات الاقتصادية والقواعد السياسية ، وهذا فضلا عما انتشر بين أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية من الرضى العام بالحكم المملوكى — أوله وثانيـه — رغم أجنبيته وصـفته الاستعلائية على أهل البلاد .

غير أنه لم يكن من المنتظر أن يمر حادث خلع السلطان حاجى واقامة السلطان برقوق دون احتجاج من ناحية بعض الشـخصيات المملوكية التى سئمت حكم السلطان المخلوع كما نقمت على السلطان الجديد وصوله الى دست السلطنة . ولذا لم تلبث هذه الشخصيات المملوكية أن تآمرت لاقامة الخليفة المتـوكل العباسى سلطانا فى دولة من نوع جديد ، كما لم يلبث السلطان برقوق أن هدم هذه المؤامرة سـنة ١٣٨٣ ، لكن مؤامرة ثانيـة تكونت سـنة ١٣٨٩ ، وتزعمهـا أميران مملوكيان منافسان للسلطان برقوق ، وهما منطاش أمير حلب ، ويلبغا أمير ملطية . واستطاعت هـذه المؤامرة الثانية أن تقبض على السلطان برقوق وترسله منفيا الى الكرك ، وأن تقيم الصبى حاجى فى السلطنة مرة أخـرى . ثم هرب برقوق من سجنه ، وجمـع لنفسـه جيشا استطاع به أن يستعيد مركزه ، وأن يدخل القاهرة سنة ١٣٩٠ محوطا بأنواع الاحتفال والترحيب ، بعد أن أمر بخلع الصبى حاجى ، مع السماح له بالاقامة بالقلعة وسط جواريه ومغانيه .

وبينما يتغلب برقوق على هذه الأخطار الداخلية ظهرت فى الأفق الخارجى أخطار من

ناحية الدولة المغولية التى أسسها القـــائد الصاعقة تيمورلنك ، وأزعج بها أرجاء آسيا الوسطى والهند والشرق الأوسط ، أواخــر القرن الرابع عشر الميلادى . ذلك أنه لم يكد تيمورلنك يعود من فتوحاته المخربة بالهند حتى بدأ متعطشا للحركة بجنوده للبحث عن ميدان جديد للحرب والتدمير ، فزحف على العراق واستولى على بغداد سنة ١٣٩٣ ، وعلى ماردين فى السنة التالية ، وهى مدينــة تابعة للسلطنة المملوكية وقتذاك . ولم يكن السلطان برقوق تعوزه الشجاعة ، فنهض لمقاومة هذا الخطر المحدق ، واستطاع أن يقيم جبهة قوية متحدية لتهــديدات تيمورلنك وانذاراته .

وأول ما قام به برقوق فى سبيل تكوين هذه الجبهة أنه اتصــل بملوك البــلاد المعرضة لحــركات تيمــورلنك ، وهم قرا يوســف التركمانى ، وبرهان الدين أمــير سيواس ، وبايزيد الأول السلطان العثمانى ، وطقتمش خان القبيلة الذهبية المغولية على نهر الفلجا . وتوفر للسلطان برقوق من الصلابة والشجاعة ما جعله يرحب بلجوء الشريد سلطان بغــداد المعروف باسم أحمد الجلائرى الى القاهرة . ولما أرســل تيمــورلنك الى برقوق سفارة لمفاوضته عــلى قاعــدة الاعتراف بالسيادة التيمورية ، أمر برقوق بقتل السفراء ، فجرى بذلك على نهج ما فعله السلطان قطز قبيــل معركة عين جالوت وأعقب ذلك أن احتشد جيش مملوكى عند مدينة البيرة عــلى نهر الفرات ، وهى المدينة التى شهدت انتصارات المماليك على المغول زمن بيبرس وقلاوون .

أما تيمور لنك فانه وجه كل اهتمامه وقتئذاك الى جورجيا (بلاد الكرج) بأقصى الشمال ، لقتال طقتمش الذى اعتبره أخطر أعدائه ، وأما برقوق فانه مات فى يونية سنة ١٣٩٩ قبل أن تتهيأ له الفرصة وشجاعته وبطولته فى قتال المغول .

وتولى السلطنة بعد برقوق ابنه فرج ، وهو أكبر أبنائه ، وأمه يونانية ، وكذلك كانت أم أتابكة تغرى بردى والد المؤرخ المعروف أبى المحاسن يوسف ، مؤلف كتاب : « النجوم الزاهرة» . ولم يكن فرج عند سلطنته يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، غير أن تنصيبه جاء فى جو خال من المؤامرات الداخلية المعتادة عند قيام سلطان صغير ، ولم يلبث أن سار الى الشام أواخر سنة ١٤٠٠ على رأس الجيش المملوكى الزاحف لوقف التقــدم التيمورى المباشر نحـــو الأراضى الممــلوكية . وكان تمورلنك يتحول وقتذاك جنوبا فى سرعة صاخبة ، فنهب حلب واقترب من دمشق . وجرت معركة عنيفة شمال دمشق ، فارتد الجيش المملوكى على أعقابه ، وبادر السلطان فرج الى الانسحاب الى القــاهرة ، وترك جيشه فى كفة المقادير ، فاستسلمت دمشق على شروط استخلصها المؤرخ ابن خلدون من تيمورلنك ، وتعرضت عاصمة الشام برغم ذلك لكل ما اشتهر به المغــول من التخريب .. وبديهى أن الســـلطان فرج لم يكن كفئا

لهـذا الموقف ، بل عاش فى خـوف شديد ممـا عساه يلقـاه عـلى يد تيمـورلنك اذا هو وقع فى يده . غير أن المغول اتجهـوا لحسن حظ فرج نحو آسيا الصغرى ، حيث أنزل تيمورلنك بالجيش العثمـانى هزيمـة شنيعة فى وقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ ، وبدا كأن الدولة العثمانية انهارت تماما ، ولا سيما بعد أن تحقق أن السـلطان بايزيد وقـع فى أسر تيمورلنك . وجاءت هذه الأخبار الى السلطان فرج فازداد انصرافه الى الشراب تبـديدا لمخاوفه . ولم يلبث أن قبل ما أملاه عليه رسل تيمورلنك سنة ١٤٠٣ من مطالب التبعية ، ولم يكتف بذلك بل وافق عـلى أن تكون السكة باسم تيمورلنك فى مصر والشـام للدلالة عـلى تبعيتهما وولائهمـا للسـيادة التيمورية . على أن تيمورلنك لم يتجاوز فى زحفه على الشام مدينة دمشق ، ولم تتجاوز السيادة التيمورية على مصر ما أظهره السلطان الخائف على شخصه من علامات الخضوع ، ومات تيمورلنك نفسه ١٤٠٥ .

ومع هذا بقى فرج فى دست السلطنة كما بقى غارقا فى شرابه وغيره من المباذل عـدة سنين ، وكل ذلك بسبب ما جرى من منافسة طويلة حائرة بين كبار الأمراء من المماليك فى مصر والشام للوصول الى العرش . وأخيرا جرى عزل فرج وقتله فى مايو سنة ١٤١٢ بعد أن ثبتت عليه جريمة ذبح زوجته وغير ذلك من الاتهامات الكبرى .

وشهدت دولة المماليك بعد ذلك خمسة عهود لا أهمية كبيرة لها ولا لسلاطينها ما عدا أن أول أولئك الخمسـة كان خليفة عباسـيا اسمه المستعين ، ولم يمتد حكمه المؤقت سوى بضعة أشهر ، وأن ثانيهم كان المؤيد شيخ ، الذى امتدت سلطنته حتى ١٤٢١ ، وهـو صاحب الجامع المشهور بالقاهرة . ثم بدأ عهد الاستقرار فى هـذه الدولة سـنة ١٤٢٢ ، بسلطنة بارسباى الذى يعتبر أقوى سلاطين المماليك الجراكسة وان لم يكن أفضلهم .

ولا حاجة الى القـول بأن بارسـباى لم يصل الى السلطنة الا بعد اتمام ما جرت العادة به من خلع سلطان صغير ، اسمه محمد ابن ططر ، كان برسباى أتابكه ووصيه مشاركة مع أمير آخر اسمه جانبك الصوفى .

وهنا تنبغى الاشارة الى بعض ما جدّ على تفاصيل الحـكم المملوكى فى مصر والشـام بسبب حلول دولة المماليك الجراكسة محـل سلفهم الأتراك . وأول ذلك أن كل سلطان من سلاطين هـذه الدولة عمل عـلى توطيد مركزه بالاكثار من شراء المماليك الجـدد والحاقهم بفئة المماليك السلطانية المشـتملة عـلى مماليك السلاطين السابقين . وهؤلاء المماليك الجـدد المعـروفون بالجـلبان أو الأجلاب ، لم يكونوا على شىء مما اشتهر به مماليك الدولة السابقة من حيث التدريب وحسن التأديب لأنهم لم يكونوا عند شرائهم صغارا ، فلم يتوفر الوقت لتدريبهم وتنظيمهم ،

بل لم يلبثوا أن أضحوا مصدر قلق واضطراب، بسبب ما عكفوا على اثارته من أنواع الفتنة عند السلطان ضد فئات المماليك القـدماء (القرانيص) ، وما جروا عليه من القتال فى الشوارع ، والواقع أن مصر والشام تعرضت على أيدى الجلبان من المماليك لأنواع من الأذى والهوان ، وبلغ من استهتارهم أن بارسباى نفسه ، وهو أقوى سلاطين الجراكسة لم يستطع أن يكبح جماحهم ، أو أن يخفف من المناضلات المستمرة بينهم وبين القدماء من فئة المماليك السلطانية .

غير أنه على الرغم مما ترتب على هذه المناضلات المملوكية من العنف والشغب فى داخل البلاد ، وعلى الرغم مما تغلغل فى الحكومة بسبب ذلك من فساد وخلل ، فان سلاطين الجراكسة استطاعوا المحافظة على دولتهم فى مصر والشام حتى ملطية بأطراف آسيا الصغرى ، بل عمدوا أيضا الى توسيع ممتلكاتها ، ونشر تجارتها الخارجية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وحافظوا على سيادتها على الحجاز ، وعلى القبائل البدوية والعشائر التركمانية الضاربة حول أطراف الشام . وتحدى السلاطين تهديدات شاه رخ ابن تيمورلنك ، الذى اعتبر نفسه أقوى ملوك المسلمين فى زمنه ، واستولوا على جزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ بأسطول جرى بناء سفنه ونقالاته فى ميناء بولاق ، كما قاموا بمحاولة مشابهة للاستيلاء على جـزيرة رودس من سنة ١٤٤٤ ، وسير السلاطين حملات عـديدة الى آسيا الصغرى لاخضاع امارة قرمان التركمانية بل انتصروا على الجيوش العثمانية ثلاث مرات فى حرب طويلة امتـدت من سنة ١٤٨٦ حتى ١٤٩١ ، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع معظم ممالك جنوب أوربا ، وعندما اصطدمت مصالحهم بالحركات البرتغالية فى المحيط الهندى قدمت لهم جمهورية البندقية كل مساعدة ممكنة . لأن تجارتها الضخمة مع أوروبا توقف معظمها على ما كان يرد لها من أسواق دمشق والاسكندرية من المتاجر .

أما برسباى الذى يبتدىء به عهـد الاستقرار فى هذه الدولة سنة ١٤٢٢ ، فكان مجيئه الى السلطنة بعد أن تخلص من جانبك الصوفى شريكه فى الوصاية على السلطان المخلوع ، بأن ألقى به فى السجن . وظن برسباى أن أخمد بذلك أنواع المعارضة لسلطنته ، فلم يهتم بأموال النفقة التى جرت العادة بتوزيعها على فئات المماليك وجميع أرباب الوظائف عند قيام سلطان جديد . على أنه لجأ الى طرق أخرى للدعاية لنفسه دون تكلفة مالية ، اذ أمر بابطال ما جرت به العادة من سجود الى حضرته وتقبيل الأرض بين يديه ، اكتفاء بتقبيل يده أو الانحناء أمامه . ثم أصدر برسباى كذلك مرسوما يقضى باخراج جميع غير المسلمين من وظائف الدولة، غير أنه ما لبث أن اكتشف أن معظم دواوين الحكومة لا تستطيع أن تستغنى عن أعمالهم فتقرر ايقاف العمل بهذا المرسوم مؤقتا .

وساد السلام أرجاء الدولة المملوكية بمصر والشام ما يقرب من سنة ونصف سنة ولم يعكر صفو ذلك السلام الا خروج نائب صفد بالشام ونائب البهنسا بالأطراف الشمالية ، فأخمد السلطان هاتين الحركتين فى سهولة . غير أن برسباى ارتاع لما ورد فى أغسطس سنة ١٤٢٣ من خبر هروب منافسه الخطير جانيك الصوفى ، من سجنه بالاسكندرية ، فأمر بالقاء القبض على كل من له صلة بالأمير الهارب ، ولكنه لم يستطع الحصول على شىء من أخباره . وكأنما كان هروب جانيك الصوفى مؤذنا بقيام عدة مشاكل مختلفة فى وجه برسباى فى وقت واحد ، وهى خروج نائب دمشق عن الطاعة ، واغارة القراصنة الافرنج على سواحل مصر على البحر المتوسط وامتناع الأمير حسن بن عجلان شريف مكة عن الاعتراف بالولاء والخضوع للسلطنة المملوكية . وبدأ برسباى معالجة هذه المشاكل الثلاث بارسال حملة الى الشام صحبة نائب جديد لدمشق اسمه سودون ، حتى اذا جاءته الأخبار بانتصار سودون هذا على النائب الثائر وسجنه بقلعة دمشق ، وجه اهتمامه لمعالجة المشكلتين الأخريين . وكانت قاعدة القراصنة الافرنج وقتذاك جزيرة قبرص اللوزجنانية ، فأغار برسباى على سواحلها اغارتين ناجحتين ، ثم عزم على الاستيلاء عليها نهائيا سنة ١٤٢٦ . ففى تلك السنة أنفذ برسباى جيشا يسانده أسطول كبير من مصر والشام الى المياه القبرصية ، فاستولى على ليماسول ولارنافا ، وأوغل فى الداخل حتى هزم جيشا قبرصيا بقيادة الملك جانوس لوزجنان، ودخل عاصمته نيقوسيا . وعادت تلك الحملة المنتصرة بالملك جانوس أسيرا بين الأسرى ، ثم لم يلبث السلطان أن أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة ، على أن يصبح تابعا للسلطنة المملوكية فى مملكته قبرص . أما حسن بن عجلان شريف مكة فجرى اخضاعه قبل نهاية هذه المشكلة القبرصية . وبذلك استردت مصر سيادتها على مكة وميناءها جدة وقدم الشريف حسن الى القاهرة صحبة ركب الحاج المصرى والجيش المملوكى العائد ، فأكد لبرسباى ولاءه واخلاصه للسلطنة ، وتعهد بأن يدفع جزية سنوية تأكيدا لتبعيته . غير أن تقرر ابقاؤه بالقاهرة رهينة حتى يتم تأدية القسط الأول من هذه الجزية .

وحدث قبيل مغادرة الجيش المملوكى سواحل بلاد العرب أن وصلت الى جدة قافلة من السفن تحمل متاجر الهند وذلك بعد أن أضحى ميناء جدة خاضعا للسيادة المملوكية ، بعد أن تعهد القائد المملوكى لقائد هذه السفن بتقديم كل ما تحتاجه سفنه من المساعدة . وكان ميناء عدن باليمن حتى وقتذاك الميناء الوحيد الذى ترد اليه التجارة الهندية ، غير ان سوء المعاملة بهذا الميناء صرف قائد هذه السفن شمالا حتى جدة ، فأدت هذه الاتفاقية الى تحويل التجارة الشرقية كلها اليها تدريجا . ولم تلبث جدة أن أصبحت مركزا ومستودعا

لهذه التجارة الهائلة . واهتم السلطان برسباى صاحب السيادة على جدة بهذا المورد التجارى الجديد . فأنشأ بالقاهرة ديوانا خاصا أطلق على متوليه اسم شاد جدة ، وصار هـذا الشاد يجمع من هذه التجارة السنوية ضريبة على قاعدة العشر من قيمتها . ولم يكتف برسباى بهذا الدخل الفجائى الضخم بل عمد الى احتكار التجارة الشرقية كلها لنفسه ، فضلا عن صناعة السكر فى مصر . وترتب على هذه الاجراءات ارتفاع جنونى فى الأسعار بحيث لم يعد فى استطاعة التجار الأوربيين احتمالها ، على الرغم من استعدادهم للشراء . وأدى هذا الى قيام كل من البندقية وقشتالة وأرجونة بالشكوى والتهديد بمقابلة هـذه الاجراءات بمثلها ، أى برفع أثمان هـذه السلع الأوربية الواردة الى مصر والشام ومعظم هذه أسلحة وحديد ومواد معدنية وحجرية مما يلزم للجيش المملوكى والقصور المملوكية .

على أن برسباى لم يكتف باحتكار التجارة بل عمد أيضا الى التدخل فى العملة والنقد بأن غيّر عيار الذهب والفضة بما يتفق مع مصلحته وغرضه ، ومنع تداول النقد الأجنبى كيما يشتريه بسعر منخفض . ثم اطلاق تداوله بعد ذلك ، مما أدى الى الحاق الخسائر الكبيرة بالتجار الوطنيين والأجانب على السواء . واشتد سخط الأهالى أيضا على السلطان بسبب ما اتخذ من طرق تعسفية لجمع الأموال ، ومنها رفع أسعار السكر مع احتكاره على حين امتد الاحتكار واتسعت دائرته حتى شملت خشب الوقود واللحم والحبوب ، ولم يعد بيع الماشية مباحا . ولذا انتشرت المجاعة فى جهات كثيرة بمصر ، كما اشتعل الوباء أكثر من مرة بالقاهرة ، وزاد الحالة سوءا ما حدث على أيدى فئات المماليك الجلبان من أذى الناس فى الطرقات والشوارع .

وترتب على تطبيق سياسة الاحتكار فى الشام أن حل بالتجار والناس من الشدائد والمتاعب مثلما حدث بمصر ، غير أنه لم يتعرض السكان لما تعرض له أهل مصر من اساءات المماليك الجلبان لندرة وجودهم بالمدن الشامية . ثم شهدت الشام منذ سنة ١٤٢٩ عدة تجمعات حربية موجهة لمراقبة قبائل التركمان ، ومراقبة حركاتهم المختلفة على الأطراف المملوكية ، وهم قبيلة الشاة البيضاء ، وقبيلة الشاة السوداء وقبيلة الدلغادرية . وكان وراء هذه الحركات العدائية التركمانية شاه رخ بن تيمور لنك الذى ساءه رفض السلطان برسباى السماح له بالمشاركة فى كسوة الكعبة ، ولذا حالف قبيلة الشاة البيضاء ، وشجع زعيمها عثمان قرايلك على تحدى برسباى ، ومقاومة الحصار المملوكى الذى ضربه برسباى بنفسه حول آمد سنة ١٤٣٢ . أما قبيلة الدلغادرية التابعة فعلا للدولة المملوكية وقتذاك ، فخلاصة حركتهم العدائية أنهم ألجأوا الأمير جانبك الصوفى الهارب من سجن الاسكندرية منذ

السنة الأولى من سلطنة برسباى ، وأنهم أعلنوا حمايتهم له ، على أن النصر تحقق أخيرا للسلطان برسباى ، اذ لقى عثمان قرايلك مصرعه فى حرب ضد قرا يوسف زعيم قبيلة الشاة السوداء ومات جانيك الصوفى قتيلا ، وعادت قبيلة الدلغادرية الى تبعيتها القديمة .

ولم يعش برسباى طويلا لينعم بهذه الانتصارات التى لم يكن جديرا بها البتة ، على قول المقريزى المؤرخ المعاصر ، ومات هذا السلطان غير مأسوف عليه ، فى يونيه سنة ١٤٣٨ ، بعد أن جعل ابنه يوسف الذى يبلغ من العمر أربع عشرة سنة خلفا له فى السلطنة ، وعين أحد خلفائه من الأمراء وصيا عليه ، واسمه جقمق . وكان برسباى ملكا عسوفا محبا للمال . ولم يكن ما انتشر فى عهده من هدوء وسلام دليلا على شىء من الرخاء أو الطمأنينة بين الناس ، فان فتح جزيرة قبرص لم ينتفع به الا مماليكه ، وسياسته الاحتكارية لم تملأ جيوبا سوى جيوبهم الواسعة . أما أهل مصر والشام فتحملوا أنواع الارهاق أثناء ذلك العهد الذى امتد الى ستة عشر عاما اذ هددتهم المجاعات والغلاء حتى فى سنوات وفرة المحاصيل .

ولم يبق يوسف بن برسباى فى السلطنة سوى تسعة وأربعين يوما ، عمل أثناءها جقمق على جمع مقاليد الأمور فى يده . ثم ما لبث جقمق أن عزل يوسف وسجنه بقلعة الجبل ، وأقام نفسه مكانه فى السلطنة فى سبتمبر سنة ١٤٣٨ . وبينما يتجهز جقمق للسير على رأس حملة الى الشام لقمع حركة المعارضة لسلطنته فى دمشق وحلب فرالسجين يوسف من القلعة متخفيا فى زى خدم المطابخ السلطانية ، ولحق به مؤيدوه فى جوف الصعيد حيث قامت حركة معارضة أخرى ضد السلطان . على أن جقمق استطاع التغلب على هاتين الحركتين فى سهولة ، اذ قبض على يوسف فى أبريل سنة ١٤٣٩ وأرسله الى الاسكندرية ليقضى أيامه بها حبيسا مكرما ، وفى الشهر التالى تهدمت حركة دمشق وسار جقمق على نهج بارسباى للحد من القراصنة المسيحيين الذين نشطوا فى البحر من جديد ، على الرغم من حرمانهم من موانى جزيرة قبرص ، وذلك لأنهم جعلوا من جزيرة رودس التابعة لهيئة الفرسان الاسبتاريةموئلا ، وأغاروا منها علىالسواحل المصرية والشامية وعاثوا فيها فسادا . ولذا أرسل جقمق فى أغسطس سنة ١٩٤٠ حملة لمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس . ومع أن المحاولة تجددت سنتى ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، فان الجزيرة استطاعت مقاومة الاغارات المملوكية الثلاث ورضى السلطان جقمق بالصلح على قاعدة منع القراصنة من اللجوء الى سواحل رودس ، واحترام مصالح هيئة الفرسان الاسبتارية فى كل منقبرص وسواحل آسيا الصغرى ، وساعد على عقد هذا الصلح

التاجر الفرنسى الشهير جاك كير على أن هذا التاجر الذى سيطر فى زمنه على جزء كبير من التجـــارة بين فرنســا والدولة المملوكية لم يستطع أن يقنع السلطان جقمق بضرورة الغاء السياسة الاحتكارية التى بدأها برسباى.

وانتهج جقمق نحــو الدول الاســلامية المجاورة سياسة مبنية على التساهل والتضامن فلم يكترث لآراء أمراء المشورة بشأن شاه رخ بن تيمور لنك بل سمح له سنة ١٤٤٣ بارسال كسوة الكعبة، فأنهى بذلك مشــكلة النزاع القائم بين الدولتين المملوكية والتيمورية منذ أيام برسباى، وذلك دون آن يفقد شيئا من حقوقه أو كرامته. وحرص جقمق عــلى استمرار العلاقات الودية مع السلطان العثمانى مراد الثانى، وأمراء آســيا الصغرى، وكل ذلك فى سبيل السلام.

على أن جقمق لم يحرز من النجاح فى السياسة الداخلية ما أحــرزه فى الســياسة الخارجية بسبب ما دأبت عليه فئات المماليك السلطانية من حركات التمرد والاســاءة الى الأمراء ورجال الحــكم والادارة، مما يملأ صفحات عديدة من التواريخ المعاصرة وازدادت اعتــداءات أولئك المماليك عــلى الكبير والصغير حتى النســاء فى أيام المواســـم والأعياد، دون أن يستطيع السلطان جقمق ردعهم، وكذلك لم يستطع جقمق أن يوقف ما تسرب من الفساد فى الاحتكارات التجارية. ومع هذا اشتهرت حكومة جقمق بالاعتدال وحب الخــير بالقياس الى ما اشــتهرت به حكومة سلفه من الجشع. واتصف جقمق بصفات وخــلال شخصية نابعة من تقــوى عميقة، على غير المعهود فى معظم ســـلاطين الممــاليك، اذ راعى فى حكمه ما ورد فى القرآن الكريم من أحكام، فلم يتناول طعاما نهى عنه الشرع، ومنع شرب الخمر، وحرم استخدام الأدوات الموســيقية وكره الملابس المبهرجة وألزم رجال القصر والأمراء بارتداء الثياب القصيرة، وقص شواربهم الطويلة. واشتهر جقمق بسخائه وكرمه مع العلماء، واعتقد أن الكتاب القيم لا يقدر بثمن مهما ارتفع هذا الثمن. ثم مات جقمق وهو يناهز الثمانين، فى فبراير سنة ١٤٥٣، بعد مرض طويل ظل يعانيه فى صبر وشجاعة مدة سنة.

وتنازل جقمق عن السلطنة وهو عــلى فراش الموت، وهو أمر لم يكن له سابقة عند المماليك، وترك أمر تعيين سلطان بعده للخليفة العباسى والقضاة وجماعة الأمراء، اذ استدعى هؤلاء وأولئك لحضرته، وخاطب الحاضرين قائلا: «الأمر لكم، انتظروا فيمن تسلطنوه» اعتقادا منه أنهم سوف لا يغفلون ابنه. وهكذا أجرى اختيار عثمان بن جقمق ليخلف أباه فى الحكم.

وبلغ عثمان بن جقمق التاسعة عشرة من العمر حين صار سلطانا، أى أنه لم يكن طفلا صغير السن، غير أنه كان أقصر عهــدا من صغار الأبناء الذين خلفوا آباءهم فى السلطنة.

ويرجع سبب خلعه بعد ستة أسابيع فقط من اعلان سلطنته الى طيشه الذى أدى به الى استبعاد جميع فئات المماليك عن شئون الحكم ما عدا مماليك أبيه ولذا حاصرته هذه الفئات المملوكية بزعامة الأتابك اينــال بالقلعة فى مارس سنة١٤٥٣ وجرى خلعه قبيل استسلامه للمحاصرين ، بموافقة الخليفة العباسى الذى اشترك فى الاحتفال .

ومع أن اينــال تولى السلطنة وهو فى الثــالثة والسبعين من عمــره ، وأنه بلغ من الأمية والجهل ما جعله عاجزا عن كتابة اسمه ، فانه استطاع أن يظل فى الحكم ثمانى سنوات وتعليل هذا ، أن السلطان اينال التزم الليونة والمطاوعة والاستجابة لمطالب الفئات المملوكية التى وصل على أكتافها الى السلطنة ، ولا سيما فئة المماليك الجلبان . غــير أن استــمرار خضوع السلطان للمطالب المالية التى عكف الجلبان على تقديمها جعل هذه الفئة أخــيرا مصدر فتنة وخطر على مركز اينال ، بدليل رميهم اياه مرة بالحجارة ، وهو فى طريقه اليهم من القلعــة لمناقشــــة مطلب من مطالبهم سنة ١٤٥٦ . ومما زاد الطين بلة أن هذه الفعلة العارمة أدت بالسلطان اينال الى الاستجابة لمطلب الجلبان ، ووصف المؤرخ أبو المحاسن يوسف هذا الامعان فى استرضاء الجلبان ، بأنه « الاحتمال الذى يؤدى الى قلة المروءة » .

والواقع أن الجلبان غدوا بسبب هــذه الترضيات المستمرة فئة خالية من كل احساس بالكرامة والاحترام ، ولم يلبثــوا أن ملكوا زمام الحكم ، فصاروا يعزلون ويولون من يريدون من الموظفين ، ولم يجرؤ السلطان أن يؤنبهم على ما ارتكبوه باسمه .

ولذا يبدو عجبا أن السلطان اينــــال استطاع اصلاح النقود الفضية سنة ١٤٥٨ ، اذ أمر بسحب النقود التى أصدرها السلاطين السابقون منخفضة العيار وأحل محلها عمــلة جديدة ، كما أمر بتوقيع العقوبة القصــوى على المتهمين بغش النقود ، وهم الزغلية الذين كثرت أعدادهم منذ أيام التلاعب بالنقد زمن برسباى .

وأصاب السلطان اينال كذلك نجاحا فى السياسة الخارجية فاتسمت علاقاته بالسلطان العثمانى محمد الثانى بالود الخالص ، وذهبت من القاهرة سفارة خاصــة لتقــديم التهنئة للسلطان بفتــــح القسطنطينية . ورضــيت السياسة الاينالية بما حلّ بامارة قرمان بآسيا الصغرى من اعتداءات العثمانيين ، وهى امارة معروفة بولائها القــديم لسلاطين المماليك ، وترتب على ذلك أن أغار أمير قرمان عــــلى الأطراف المملوكية بشمال الشام ، واستولى على عدة بلاد من اقليم قيلقية (أى أرمينيا الصغرى سابقا) ، غير أنه لم يلبث أن ارتد عنها بعــد أن نهض اينــال الى مصــالحته سنة ١٤٥٨ ثم تدخل فى النزاع حول وراثة العرش فى ممــلكة قبرص التــابعة للسلطنة المملوكية منذ أيام برسباى اذ قدم الى القاهرة

جيمس لوزجنان رئيس نيقوسيا ، وطالب بحقه فى العرش كما طالبت بحقها كذلك أخته الملكة شارلوت لوزجنان . وعاد جيمس الى قبرص صحبة حملة مملوكية لنجدته ، واستطاع بمساعدة هذه الحملة أن يحتل العاصمة نيقوسيا غير أن النزاع بين جيمس وشارلوت استمر بضع سنوات ولم تظهر نتائجه فى حياة اينال الذى كانت وفاته فى فبراير ١٤٦١ ، وترك اينال أسرة اشتملت على أربعة أفراد ، بنتان وولدان من زوجة وحيدة ، وهو أمر نادر الحدوث فى التاريخ المملوكى . غير أن ستارا كثيفا لابد أن ينسدل على حياة السلطان الشخصية .

وتنازل السلطان اينال ، قبيل وفاته بيوم واحد ، عن العرش لابنه الأكبر أحمد الذى تولى وظائف مسئولة مختلفة فى حياة أبيه ، واشتهر بحبه للاصلاح ، وبلغ الثلاثين من عمره حين آلت اليه السلطنة ، ولذا كان لأحمد بن اينال من الخبرة الادارية والحماسة والنضوج السياسى ما يبشر بعهد جديد . غير أن الحزبية المملوكية التى رفض السلطان الجديد ترضيتها على طريقة اينال اجتمعت على تدبير مؤامرة لاقصائه عن العرش واقامة الأتابك خشقدم أو غيره مكانه . وتعرضت القلعة لهجوم المتآمرين فى يونية سنة ١٤٦١ ، ولم يلبث السلطان أن أعلن التسليم ، وتم عزله واخراجه من القلعة سجينا الى الاسكندرية وجرت المناداة بخشقدم سلطانا .

ويختلف خشقدم عن سائر سلاطين المماليك السابقين من الجراكسة بأنه ينتمى الى أصل يونانى ، واليه ترجع تجربة مريرة فى نكران الجميل ، وهى أنه تخلص بالقتل والسجن والتشريد والمصادرة من أمراء المماليك الذين أقاموه فى السلطنة ، وألب الفئات المملوكية بعضها على بعض ، أملا منه فى السيطرة بعد ذلك على مماليكه الجلبان ، واستخدام شغبهم فى الاستيلاء على أموال الأغنياء من التجار ، فضلا عما استولى عليه من أموال الأمراء المصادرين . وهكذا أخلى خشقدم الجو للماليك الجلبان ، فأخذوا يعيثون فسادا كما يشاءون ، ويقتلون الأبرياء ، وهذا على حين دأب السلطان خشقدم على جمع الثروة لنفسه فباع الوظائف الحكومية علنا ، وهدم موازين العدالة بمساومة المتقاضين أمامه فى دار العدل . وأسوأ من ذلك كله ما لجأ اليه هذا السلطان من زيارة كبار الأغنياء رسميا فى بيوتهم ، ومطالبة الواحد منهم بتقديم الهدايا اللائقة بالسلطنة .

أما من ناحية السياسة الخارجية فيعتبر عهد خشقدم بداية النزاع بين السلطنة المملوكية والسلطنة العثمانية ، وهو النزاع الذى أدى أخيرا الى زوال دولة سلاطين المماليك بمصر والشام ، واستيلاء العثمانيين على هذين القطرين أوائل القرن السادس عشر . وبدا هذا النزاع فى سنة ١٤٦٣ بما

جرى من اختلاف حول الوراثة فى امارة قرمان حيث أيد السلطان العثمانى محمد الثانى أميرا معروفا بعدائه السلطنة المملوكية ، وأمده بقوة عسكرية مقابل نزوله عن عدة بلاد قريبة من الأطراف المملوكية ، غير أن هذا النزاع لم يؤد الى حرب بين الدولتين زمن السلطان خشقدم .

وجرى خشقدم فى قبرص على سياسة سلفه اينال لغرض أعمق من مجرد المساعدة الحربية لملكها جيمس الثانى ضد أخته شارلوت ، وكان هذا الغرض هو التخلص من بقايا الفئات المملوكية التى غدت ناقمة على السلطان بمصر والشام ، بدليل تكرار هذه المساعدة الحربية دون الحاجة اليها . وفى أواخر حكم خشقدم ، أخذت قبائل البدو تثير الرعب والاضطراب لا فى الوجه القبلى فحسب ، بل فى الشام وشمال بلاد العرب ، حيث تعرضت قوافل الحجاج لسطوهم ونهبهم . وبينما تجرى الاستعدادات لارسال الحملات اللازمة لقمع هذه الحركات البدوية حل المرض بالسلطان خشقدم ، ومع أن حملة سارت فعلا الى شمال بلاد العرب فان حملة أخرى الى الصعيد ، رفضت السير ، اذ فضّل قائدها البقاء فى القاهرة ليرقب ما تأتى به الأيام بعد موت السلطان . وفى أكتوبر سنة ١٤٦٧ ، مات خشقدم ، وترك ولدين أكبرهما هو المعروف باسم منصور .

وفى الشهور الأربعة التالية غدت القاهرة مسرحا لمؤامرات واضطرابات بين الفئات المملوكية وتولى السلطنة فى هذه المدة الصاخبة سلطانان . وتفصيل ما حدث أن السلطان خشقدم لم يجر على القاعدة التى درج عليها السلاطين السابقون ، فلم يرشح ابنه منصورا ليخلفه ، ولم يوعز الى أحد بترشيحه ، ولم يحفل زعماء المماليك بدورهم بما عسى يكون للرجل الراحل من رغبات باطنة حول هذا الموضوع ، بل عقدوا اجتماعا قبيل وفاة خشقدم بساعات قليلة ، واتفقوا على اقامة أحدهم وهو الأتابك بلباى فى السلطنة ، وهو المشهور بالمجنون ، وجرى اعلانه سلطانا فى نفس اليوم بعد الانتهاء من تشييع جنازة خشقدم ودفنه . وبعد شهرين فقط قرر أولئك الزعماء عزل بلباى فعزلوه ، لأنهم أرادوا اقامة زعيم آخر منهم فأقاموه ، وهو تمربغا اليونانى الأصل فى ديسمبر سنة ١٤٦٧ . ولم يقم تمربغا فى السلطنة أكثر مما أقام سلفه سوى أيام معدودات ، وتراءى للمعاصرين أن سوف تتكرر الحال على هذا المنوال ، ما دامت الفئات المملوكية على ما هى فيه من منافسات وفتن ، وما دامت زعامتها لا تنطوى الا على أمثال بلباى وتمربغا . غير أن الحوادث لم تلبث أن أنجبت رجلا من نوع آخر ، وهو الأتابك قايتباى الذى أقامته الفئات المملوكية سلطانا فى يناير سنة ١٤٦٨ ، ظنا منها أنها سوف تتخلص منه سريعا كما تخلصت من سلفيه . لكن قايتباى ظل سلطانا ما يقرب من تسع وعشرين سنة . ويرجع هذا

التغيير الى شخصيته ، كما يرجع الى طبيعة المشاكل الخارجية التى واجهته منذ أوائل سلطنته وهى مشاكل صرفت الفئات المملوكية عن شغبها القديم الذى لم ينقطع منذ سنين ، وأدت بها أخيرا الى التكتل وراء السلطان فى سبيل الدفاع عن مصالح الدولة المملوكية .

ولهذا لم يكن عهد قايتباى أطول عهود دولة السلاطين الجراكسة فحسب ، بل أكثرها توفيقا ونجاحا . وأول هذه المشاكل الخارجية حركة الزعيم التركمانى شاه سوار رئيس امارة الدلغادرية وآسيا الصغرى ، اذ عكف هذا الأمير على الاغارة على أطراف السلطنة المملوكية ، معتمدا فى ذلك على معونة الدولة العثمانية ، فما زالت الحملات المملوكية حتى هزمته وحملته أسيرا الى القاهرة حيث أعدم أواخر سنة ١٤٧٣ .

ولم يكن قايتباى أقل امعانا فى جهوده ضد أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الشاة البيضاء الذى حلا له أن يتظاهر بالولاء والاخلاص للسلطان قايتباى أثناء حركة شاه سوار وأرخى له قايتباى الحبل على الغارب حتى انتهى من هذه الحركة وصاحبها . ذلك أن أوزون حسن كان يطالب بمشاركة السلطنة المملوكية فى كسوة الكعبة ، كما طالب بها قبلا شاه رخ تيمورلنك زمن السلطان برسباى ولذا عمل قايتباى على هدم هذه المطالبة بارسال حملة مملوكية تلو أخرى لغزو الأراضى الفراتية التابعة للشاة البيضاء حتى وفاة أوزون حسن سنة ١٤٧٨ .

على أن المشكلة الخارجية الكبرى زمن قايتباى جاءت من ناحية الدولة العثمانية التى أخذت منذ تمت لها السيطرة على البلقان تعمل على الاستيلاء على ما تبقى خارجا عن طاعتها بآسيا الصغرى ، وهما امارتا قرمان ودلغادر المشمولتان بحماية السلاطين المماليك وعليهما اعتمدت الدولة المملوكية فى شئون الأمن والدفاع على أطرافها الشمالية . ورأى قايتباى معالجة هذه المشكلة بمعاهدة وافقت السلطنتان العثمانية والمملوكية فيها على عدم التدخل فى شئون هاتين الامارتين ، وبحسب هذا الاتفاق ظلت العلاقات فى وئام ظاهر بين السلطنتين حتى وفاة السلطان العثمانى محمد الثانى سنة ١٤٨١ . ثم حدث أن أساء قايتباى الى السلطان العثمانى الجديد بايزيد الثانى باستقبال أخيه ومنافسه الأمير جم بالقاهرة سنة ١٤٨٢ ، بل ان قايتباى قدم لهذا الأمير عدة أنواع من المساعدة للقيام بثورة فاشلة ضد بايزيد الثانى فى آسيا الصغرى . ولهذا السبب فضلا عما قام به عمال قايتباى من اعتراض سفارة هندية الى البلاط العثمانى ، أعلن بايزيد الحرب على مصر فى سنة ١٤٨٦ . فاستولى جيش عثمانى على أذنه وطرسوس وسائر مدن قيليقية ، على حين قام جيش بحصار مدينة ملطية ، وكلها مدن تابعة لسلاطين المماليك وأعقب ذلك لعدة سنين حرب دفاعية هجومية رجحت فيها كفة الجيوش المملوكية على العثمانية أكثر من مرة ، واختتمت بصلح سنة ١٤٩١ لاعادة

الأوضاع السياسية الى ما كانت عليه قبل الحرب ، غير أن هذا الصلح لم يكن سوى نفحة من نفحات الهدوء قبل العاصفة .

واستطاع قايتباى برغم انصرافه الى كل هذه الحملات والحروب السابقة آن يجد وقتا للدبلوماسية الهادئة الى تطلبتها جزيرة قبرص بعد أن صار عرشها الى المملكة كاترينا كورنار والتى ترجع الى أصل بندقى ، وبعد أن غدا للبندقية كلمة نافذة فى شئون ذلك العرش . ذلك أن الملكة كاترينا لم تواظب على دفع ما هو مقرر عليها من جزية سنوية منذ ١٤٧٨، فما زال قايتباى يضغط على جمهورية البندقية ، ويهدد تجارتها بمختلف التضييقات التجارية بالاسكندرية ، حتى قامت البندقية بدورها بالضغط على كاترينا لارسال الجزية المقررة فى انتظام . على أن دبلوماسية قايتباى لم تنجح فى كل الأحوال ، اذ حاول مساعدة أبى عبد الله ملك غرناطة ، بأن هدد فرديناند ملك اسبانيا المسيحية بتدمير بيت المقدس واستئصال شأفة المسيحيين بمصر والشام اذ لم ينته من هذه الحرب بصلح عاجل . غير أن الملك فرديناند أبى أن يذعن لهذا التهديد وظل يحارب مملكة غرناطة حتى استولى عليها تماما ، وكل ذلك دون أن يفكر قايتباى فى تنفيذ أية ناحية من نواحى تهديداته .

أما السياسة الداخلية زمن قايتباى ، فأول مميزاتها أن السلطان اتبع طرقا ووسائل مخالفة لما سار عليه سائر السلاطين الجراكسة قبله وبعده ، ومثال ذلك حسن معاملته لجميع من جرى خلعه من السلاطين وأبنائهم ، اذ حرص على دعوتهم الى مشاركته فى لعب الكرة بالقاهرة ، وسمح لهم بتأدية فريضة الحج ، بل انه أجاز لهم النزول الى القاهرة أثناء غيابه ، ولم تساوره الشكوك فيهم ، ولم يخش كيدهم . وأكثر قايتباى من مغادرة القلعة لا للتنزه والصيد خارج القاهرة فحسب ولا للحج زلفى ، بل لمعرفة أحوال المدن والحصون ، فزار حبرون وبيت المقدس والاسكندرية ودمياط ودمشق وحلب ، وبلغ شاطىء الفرات .وهو طرف السلطنةالمملوكية. وخلّف قايتباى أينما سار آثارا دالة على عظمته ، من طرق وجسور ومساجد ومدارس واستحكامات ، ومن هذه القلعة المعروفة باسمه بالاسكندرية حتى العصر الحاضر .

على أن قايتباى لم يبلغ ما بلغه من النجاح فى سياسته الخارجية والداخلية الا بفضل شخصيته الناضجة ، فالى جانب ما اشتهر به من الكياسة والشجاعة ، كان قايتباى كذلك سلطانا حازما مسيطرا بقوة الخلق على مماليكه الجلبان تمام السيطرة وبفضل مساعدتهم الخالصة له استطاع أن ينجح فى ضبط الأحزاب المملوكية الأخرى ، وبذا انتشر فى السلطنة المملوكية من مظاهر الأمن مالم يكن معروفا من قبل . غير أنه كان أمنا مشوبا بكثرة المطالب المالية الاضافية التى فرضها قايتباى على مختلف طبقات الناس بمصر والشام ، للصرف على حملاته الحربية وعمائره

الفخمة ، فلم يكتف مثلا بما فرضه على الأملاك العقارية من ضريبة مبلغها ايجار سبعة شهور ، بل فرض مكسا باهظا فى أواخر أيامه على ما يجرى بيعه من القمح . واشتد قايتباى كذلك فى استخلاص الأموال من اليهود والنصارى ، ولم يسلم كبار موظفى الدولة من مطالبه ، كما لم يسلم منها أعيان الأقاليم الذين أكرمهم السلطان بزياراته الرسمية ، كيما يحصل منهم على هدايا ثمينة لم يقدموها اليه عن طيب خاطر .

ثم اشتعل بمصر وباء سنة١٤٩٢ ، واجتاح القاهرة والأقاليم حتى أفنى ما يقرب من مائتى ألف من أهل البلاد ، عدا ثلثى المماليك من مختلف الفئات ، وذهبت ضحيته ابنة السلطان وأمها فى يوم واحد . وما كاد يمضى على الوباء سنتان حتى أصاب القحط عامة البلاد المصرية ، وتفشت الأمراض فى الماشية . ثم أعقب ذلك موجة من الشغب بين الفئات الباقية المملوكية ، ومع أن السلطان بلغ وقتذاك الخامسة والثمانين من عمره ، فانه نهض لاخماد الفتنة دون سفك دماء سنة ١٤٩٥، غير أن الشيخوخة أثقلته ، والمرض تغلب عليه وكانت وفاته فى يولية سنة ١٤٩٦ .

وشهدت القاهرة فى السنوات الخمس التى أعقبت وفاة قايتباى عهود خمسة من السلاطين طفحت بالفوضى الداخلية والاضطراب ، وأولها عهد محمد الابن الوحيد للسلطان قايتباى من عتيقته أصلباى ، وكذلك عهد خاله قانصوه الأشرفى ، ولذا لم تستقر الحال الا سنة ١٥٠١ ، حين أقيم فى السلطنة أمير شبيه بالسلطان قايتباى من حيث السن والخبرة بشئون الحكم والمهارة فى معاملة فئات المماليك واسمه قانصوه الغورى. وعلى الرغم من أن السلطان الجديد تجاوز الستين من عمره ، وأنه تولى السلطنة بفضل اتفاق جماعة من الأمراء على توليته ، فانه لم يلبث أن أظهر لأولئك الأمراء أنه لن يكون صنيعة أحد منهم . ولم يختلف السلطان قانصوه الغورى عن سائر سلاطين المماليك فيما واجهه عند توليته من اجتماع فئات المماليك حول القلعة والحافهم فى طلب ما جرت به العادة من نفقة التولية ، غير أنه استغل هذه المطالبة لمعالجة الضائقة المالية التى كدستها أحوال السلطنة المملوكية منذ أواخر أيام قايتباى ، ووعد بتوزيع أموال النفقة المطلوبة فى أقرب فرصة . ولذا فرض السلطان الغورى من الضرائب الفجائية مالم تشهد دولة الجراكسة له مثيلا ، اذ أمر بجباية ايجار العقارات لعشرة شهور دفعة واحدة ، ولم يقتصر فى ذلك على الدور والحوانيت فحسب ،بل تعداه الى الحمامات والسواقى ، والطواحين والسفن ، ودواب الحمل . وتقرر على الأوقاف الخيرية أيضا أن تدفع ما مقداره ربع سنة كاملة ، وهذا فضلا عن تخفيض سعر النقود لمصلحة الخزانة السلطانية . وترتب

على هذه الاجراءات أن توفر للسلطان الغورى من الدخل ما استطاع به أن يدفع أموال النفقة لفئات المماليك بحسب وعده السابق ، كما أنه اشترى عددا كبيرا من الجلبان ألّف منهم طوائف جديدة انتسبت اليه ، وهى طائفة الغورية . على أن المعروف أن الغورى أنفق جانبا كبيرا من هذا المال كذلك فى تقوية حصون الاسكندرية ورشيد وحلب ، وفى اصلاح طريق الحجاج الى مكة ، وتشييد مسجده ومدرسته بالقاهرة .

ولذا ساد الهدوء مدن السلطنة المملوكية، برغم ما أمعن فيه من جمع الأموال ولم يقع من الحوادث ما يعكر صفو الأمن فى السنوات الأولى من عهده ، ما خلا حركات البدو المعتادة فى مصر والشام ، وما تطلبته من حملات تأديبية على نحو ما جرى زمن جميع السلاطين . غير أن ما حدث من وصول البرتغاليين الى الهند واقامة أول محطة تجارية أوربية على الساحل الغربى الهندى أخذ يؤثر منذ أوائل عهد الغورى فى التجارة الشرقية المتدفقة على مصر والشام عن طريق عدن وجدة ، اذ ذهبت هذه التجارة الضخمة تدريجا الى أوربا عن طريق رأس الرجاء الصالح . وذهبت معها حصيلة الضرائب المرورية الهائلة عند مرورها بالموانى المصرية التى جمعها سلاطين المماليك على هذه التجارة ، كما ذهبت أرباح التجار المصريين والشاميين الى البرتغاليين . وأضاف سوءا الى هذه الحال ما عمد اليه البرتغاليون من مهاجمة السفن المصرية فى بحار الهند ، وليت الغورى استمع وقتذاك لما كررته له جمهورية البندقية من النصح ، فبادر الى استخدام القوات البحرية المملوكية لوقف الاعتداء البرتغالى قبل استفحاله ، لكنه حاول الوصول الى تسوية سلمية ، وبعث رسولا الى روما سنة ١٥٠٤ بشكوى الى البابا يوليوس الثانى تتضمن التهديد بتدمير الأماكن المقدسة فى فلسطين اذا لم يمتنع ملك البرتغال عن أذى مصالح التجار المسلمين بالهند ، وتهديد سفنهم التجارية . غير أن هذه السفارة لم تحقق شيئا ، وترتب على ذلك أن أعد السلطان أسطولا كبيرا فى البحر الأحمر لقتال البرتغاليين فى البحار الهندية وهاجم هذا الأسطول المملوكى البرتغاليين فى ميناء شول بالهند سنة ١٥٠٨ ، واستطاع بمساعدة قوات بحرية من سلطنة جوجيرات الاسلامية ، أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين . غير أن البرتغاليين انتقموا لأنفسهم فى السنة التالية فى معركة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ ولم تقم للتجارة المملوكية فى الهند بعد ذلك قائمة .

ولم يمض على معركة ديو البحرية سوى سبع سنوات حتى زالت السلطنة المملوكية من الوجود على يد السلطان العثمانى سليم الأول ، وذلك أنه منذ صلح سنة ١٤٩١ بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد الثانى ، ظلت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين .

ثم ما لبثت هذه العلاقات أن تحولت تحولا خطيرا سنة ١٥١٢ ، بعد سلطنة سليم الأول العثمانى الذى اشتهر بأطماعه التوسعية اشباعا للحركة العثمانية الذاتية ، وتحقيقا لسيطرة العثمانيين على العالم الاسلامى ، فما كاد ينتهى سليم من هزيمة الشاه اسماعيل أول ملوك الأسرة الصفوية الشيعية بايران فى معركة تشالدران سنة ١٥١٤ ، حتى وجه اهتمامه الى الأطراف المملوكية العثمانية بآسيا الصغرى ، فاستولى على امارة دلغادر وعاصمتها الابلستين ، برغم الصلح القائم بين المماليك والعثمانيين . ثم عزم سليم الأول على محاربة السلطنة المملوكية ، فاتخذ من الاتهامات التافهة التى وجهها الى السلطان قانصوه ذريعة للحرب ، والتقى بالجيش المملوكى فى أغسطس سنة ١٥١٦ فى دابق شمالى حلب ، حيث انهزم السلطان قانصوه هزيمة ساحقة ، ولقى حتفه فى الميدان . وترجع هذه الهزيمة الى تفوق عدد الجيش العثمانى ، والى المدفعية العثمانية التى لم يكن لدى الجيش المملوكى ما يقابلها ، وهذا وذاك فضلا عن خيانة قائد الجناح الأيسر للجيش المملوكى ، واسمه جابر بك ، وهو الذى نعته التاريخ باسم خاين بك . فسلمت له حلب دون مقاومة ، كما سلمت له دمشق كذلك بعد مفاوضات قصيرة ، ولقى العثمانيون أينما حلوا كل مظاهر الترحيب بمجيئهم لانقاذ البلاد وتخليصها من المماليك .

وبينما تموج القاهرة وأهلها بأخبار هزيمة السلطان قانصوه الغورى ومصرعه ، جرى اختيار سلطان جديد فى أكتوبر سنة ١٥١٦ وهو الأمير طومانباى ، الذى عهد اليه قانصوه بتصريف أمور الحكم أثناء غيبته . وقبل طومانباى السلطنة كارها ، بعد أن أقسم الأمراء له فى مقبرة ولى من أولياء الله وهو الشيخ أبو السعود ، بأنهم سوف يبذلون أموالهم وأنفسهم فى سبيل دفع العثمانيين عن البلاد .

أما العثمانيون فأسرعوا فى زحفهم نحو مصر ، وعلى الرغم مما بذله طومانباى من جهود لوقف الزحف السريع حلت الهزيمة بالجيش المملوكى أولا فى بيان قرب غزة ، ثم فى الريدانية خارج القاهرة . ووقعت معركة الريدانية فى يناير سنة ١٥١٧ ، وفى اليوم التالى لوقوعها تم الاعتراف بسليم الأول سلطانا على مصر والشام وجرت الخطبة باسمه من منابر القاهرة واستمر طومانباى يناضل بضعة أشهر ، غير أن الهزيمة حلّت به مرة بعد مرة ، ووقع أخيرا فى قبضة العثمانيين وجرى اعدامه شنقا فى أبريل سنة ١٥١٧ ، على باب زويلة (بوابة المتولى الحالية) ، وباعدامه انتهى أمر السلطنة المملوكية .

ولابن اياس المؤرخ فى وصف الأيام الأخيرة من حياة طومانباى عبارات ملؤها الحزن على ما صارت اليه مصر من التغيّر ، بعد ذهاب السلطنة المملوكية ومجىء

العثمانيين . على أنه لم ير فى ذلك التغيير شيئا الا ما جرت به المقادير التى ليس لانسان عليها سلطان ، ولم يدرك — أو أنه لم يستطع أن يدرك — أن عوامل داخلية وخارجية كثيرة كانت تنخر فى الجسم السياسى للدولة المملوكية ، وأن معظم هذه العوامل وارد صراحة وتلميحا فى تاريخه الكبير.. وحز" فى نفس ابن اياس أن مصر صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون .. » .

وعاش ابن اياس بالقاهرة سنوات طويلة بعد حلول العثمانيين بالبلاد وشهد بنفسه انزلاق مصر الى بداية عهد أجمعت المراجع على أنه من أحلك العصور فى التاريخ المصرى الطويل .

واذ اختتمت السلطنة المملوكية فى مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية على هذا النحو الكسير ، وذلك بعد مرحلة زمنية بدايتها ١٣٨٢ م ونهايتها ١٥١٧ ، أى مدة مائة وخمس وثلاثين سنة فلا أقل من استعراض بعض العوامل العامة التى مكنت لهذه الدولة أن تمكث مدتها فى شىء من الاطمئنان الداخلى ، والخارجى كذلك . أما من الناحية الخارجية فمن الواضح أن الأعمال المملوكية فى قبرص وردوس وأطراف العراق وآسيا الصغرى جعلت للحكم المملوكى هيبة عامة فى البلاد المصرية والشامية ، على غرار ما كان للدولة المملوكية الأولى من هيبة عامة فى قلوب الناس ، بفضل توفيقاتها فى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، وفى دفع الخطرين الصليبى والمغولى من البلاد .

أما العوامل الداخلية التى مكنت لهذه الدولة استمرارها رغم قصور سلاطينها عن مستوى سلاطين الدولة المملوكية الأولى ، فلا مشاحة أن أول هذه العوامل هو أن المماليك سيطروا على جميع الوظائف العسكرية والادارية كما سيطروا على وظائف البلاط السلطانى ، ثم انهم حرصوا — ابتداء من السلطان الى المملوك المجلوب حديثا — أن يظلوا طبقة أوليجاركية ممتازة منعزلة عن سائر أهل مصر والشام وغيرهما من الولايات المملوكية ، ومن هذه الطبقة تألفت فئات الجهاز العسكرى الوحيد فى البلاد . وأدركت هذه الطبقة ضرورة التكتل والتماسك بين أجزائها ، وعرفت كيف تحصر ما وقع من منازعات داخلية فى دوائرها المملوكية ، ولم تلتمس فى هذه المنازعات مساعدة المصريين أو البدو بالأقاليم ، ولم تقبل أن يتدخل فيها جيرانها . ولم يخرج على هذه القاعدة سوى قلة من الأمراء المتمردين الذين التمسوا لأنفسهم مأوى خارج البلاد ، وتسببوا للسلطان القائم فى اثارة القلاقل على أطراف السلطنة ، على أن معظم البلاد المجاورة لم تستجب لحركات أولئك الأمراء

المتمردين ، بل فضل ملوكها البقاء فى سلام ووئام مع السلطان المملوكى .

ثم ان السلطنة المملوكية توفر لها جهاز ادارى بالغ الدقة والمقدرة على الاستمرار الذاتى ، برغم ما أحاط به أحيانا من مظاهر الاضطراب لأن عامة موظفى هذا الجهاز الادارى كانوا من المصريين والشاميين على اختلاف عقائدهم الدينية ، فلم يحفلوا بما جرى فى دوائر السلطنة ، أو بين زعماء المماليك من أحقاد ومنافسات .

والواقع أن أهل مصر والشام لم يحدثوا لحكامهم المماليك متاعب كثيرة ، اذ قنعوا بزراعة الأرض ودفعوا ما هو مفروض عليهم من ضرائب ثقيلة متعددة ، وصنعوا ما احتاج اليه السلطان والأمراء والجيش من معدات مدنية وعسكرية ، ورضوا بما أضفت عليهم أعمالهم فى الزراعة والصناعة من أرزاق يومية قليلة . ولذا لم يكن أهل مصر والشام أداة راضية فى أيدى السلاطين فحسب ، بل أداة طيعة كذلك ، وكان ما اشتهروا به من الوداعة والهدوء مما يسر لسلاطين المماليك بأن يقوموا بحروبهم خارج البلاد ، أما البدو بالأقاليم الذين لم يحفلوا بما للقانون من سلطان فلم يشتهروا بما اشتهر به المصريون والشاميون من الرضى العام والميل الى السكون والهدوء ، بل كانوا خطرا على الحكم المملوكى منذ أيامه الأولى ، وكانت كراهيتهم للمماليك سببا من أسباب انهيار المقاومة المملوكية ضد العثمانيين .

ويستطيع سلاطين الدولة المملوكية الثانية أن يفخروا بعدد من المبانى التعليمية والتذكارية ، فضلا عن العمائر التجارية الدالة على ما بلغته تجارة مصر الخارجية فى زمنهم ، من ضخامة وتنوع زمن هذه الدولة ، سواء مع فرنسا واسبانيا والجمهوريات الايطالية من ناحية ، أو مع الهند والصين عن طريق البحر الأحمر من ناحية أخرى . أما المبانى التعليمية والتذكارية فأهمها ، مدرسة السلطان برقوق ، وموضعها شارع المعز لدين الله الحالى ، وهى المدرسة التى ألقى فيها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون دروسه فى مذهب فقه المالكية ، ولابد أنه تخلل هذه الدروس اشارات كثيرة الى نظرياته الاجتماعية والاقتصادية التى امتلأت بها مقدمته المشهورة . وهى النظريات التى تأثر بها المقريزى فى مؤلفاته . ومن هذه المبانى كذلك ، خانقاه السلطان فرج بين برقوق ، وموضعها القرافة الشرقية الحالية بالقاهرة ، ثم مسجد المؤيد شيخ ، وهو المسجد الذى ظل حافلا بحلقات تدريسية أزهرية حتى العصر الحديث ، وموضع هذا المسجد بالسكرية بجوار باب زويلة (بوابة المتولى). وهناك كذلك المدرسة الأشرفية برسباى ، وهى التى وافق الانتهاء من بنائها مجىء الأخبار الى القاهرة بوصول الملك القبرصى جانوس الثانى أسيرا الى الاسكندرية فى ركاب الحملة المملوكية العائدة من قبرص ، ولذا أمر السلطان برسباى بتعليق خوذة

جانوس على باب تلك المدرسة ، تذكارا لتبعية قبرص للسلطنة المملوكية ، ولا تزال هذه المدرسة قائمة على رأس سوق العنبريين بالقاهرة الحالية . وللسلطان برسباى كذلك خانقاه ومدفن بالقرافة الشرقية ، فضلا عن مسجد لا يزال كذلك قائما ببلدة الخانكة الحالية ، شمالى القاهرة . وللسلطان اينال كذلك خانقاه ومدرسة ومدفن بالقرافة الشرقية ، أما السلطان قايتباى وهو الذى ظل فى دست السلطنة المملوكية ثمانيا وعشرين سنة ميلادية ، فهو صاحب أكبر مجموعة من المنشآت المعمارية ، ومنها مسجد ومدفن بالقرافة الشرقية ، ومنها كذلك القلعة التى بناها هذا السلطان بالاسكندرية على أنقاض الفنار القديم ، وفى بنائه لها دلالة واضحة على خشية الدولة المملوكية من ازدياد القوة البحرية العثمانية ، بعد أن أخذ السلاطين العثمانيون يمدون أبصارهم نحو جزيرة رودس وسواحل آسيا الصغرى . وللسلطان الغورى مدرسة وقبة بجوار الجامع الأزهر ، ولا تزال القبة تستخدم لأغراض ثقافية ، وهى احدى القباب المملوكية التى شاءت المقادير أن يموت صاحبها بعيدا عنها ، فلا يدفن فيها . ومما يشيد باسم السلطانين : قايتباى والغورى فى ميادين المنشآت المعمارية ، وكالة قايتباى عند باب النصر ، ووكالة الغورى فى نهاية شارع الغورية ، وكلاهما كنز زاخر بالمعلومات الدالة على المستويات التجارية والفنية أواخر عصر سلاطين المماليك .

واحتذى عدد من أمراء الدولة المملوكية الثانية حذو سلاطينهم فى البناء والعمارة ، كما حدث أيام الدولة المملوكية الأولى ، ولكن على مقياس أصغر من حيث الفخامة والضخامة والكثرة العددية ، فبنى جركس الخليلى الخان المعروف باسمه ، وهو السوق الذى يعد أحد المباهج السياحية بقاهرة العصور الوسطى ، وبنى القاضى يحيى مدرسته الكائنة بشارع الأزهر الحالى ومسجده الأول بشارع المحكمة ببولاق ومسجده الثانى بالحبانية ، وترجع لعهد قايتباى عدة مبان أميرية ، أولها مدرسة الأمير قجماس الأسحاقى ، ومدرسة أبو بكر مزهر ، وقبة يشبك بن مهدى الدوادار ، وهى القبة الفداوية بالعباسية .

وهناك كذلك مدرسة أزبك اليوسفى فى طولون ومدرسة تغرى بردى المؤذى بالصليبية .

وفى هذه المبانى السلطانية والأميرية ما يبرهن على أن سلاطين الدولة المملوكية الثانية وأمراءها لم يكونوا أقل اهتماما بالمبانى الدينية والتذكارية عن سلاطين الدولة المملوكية الأولى وأمرائها ، طواعية لنفس العوامل السابقة ، واشباعا لنفس الأغراض الدنيوية والأخروية .

واعتز سلاطين الدولة المملوكية الثانية

بالقلعة اعتزازا ملحوظا ، وهم الذين نشأوا بها — واشتهروا باسم البرجية نسبة الى سكنهم بأبراجها ، ولم يكن لديهم من الحروب الخارجية ما يضطرهم الى التنقل والسفر بعيدا عنها ، بل كان لديهم من الفتن الداخلية ما جعلهم يعتصمون بها ، ولذا أقاموا ببيوتها أكثر مما أقام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . على أنهم لم يحدثوا بها جديدا ، نظرا لاكتمال مبانيها وأسوارها وأبوابها وأبراجها وأحواشها ، فضلا عن بيوتها السكنية والحكومية ، منذ أيام سلاطين الدولة المملوكية الأولى . ولذا اقتصر اهتمامهم بها على أعمال ترميمية واضافات تكميلية وتجديدات تحصينية ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن السلطان برقوق عمّر بها صهريجا وطاحونا ، واشترى بسطا جديدة لدار العدل ، وأن السلطان جقمق جدد باب المدرج ، وأن السلطان قايتباى جدد عمارة الايوان الكبير ، وأنشأ مقعدا وبيتين بالحوش السلطانى ، كما أن السلطان الغورى جدد عمارة المطبخ الكبير ، وأنشأ المقعد القبطى الشهير .

* * *

والى هنا تكون الدولة المملوكية الثانية صورة مكررة تقريبا من الدولة المملوكية الأولى ، بعد تصغيرها . غير أن هذه الدولة المصغرة امتازت على سالفتها بما أنجبت من حركة جديدة فى كتابة التاريخ ، بفضل قدوم ابن خلدون الى القاهرة وقيامه بشرح نظرياته الاجتماعية والاقتصادية فى حلقات دروسه ، وتأثيره فى تلميذه أحمد المقريزى وغيره من المعاصرين الذين تتلمذوا عليه . ووضح ذلك أول ما وضح فى كتاب صغير عنوانه : « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » حيث أرجع المقريزى مشكلة اسلامية كبرى الى جذور قبيلة قديمة ، كما وضح فى كتاب : « السلوك لمعرفة دول الملوك » حيث خصص المقريزى تأليفا عظيما فى أربعة أجزاء ضخمة لتاريخ مصر زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية حتى سنة وفاته ، وهو الكتاب الذى تقدمت الاشارة اليه فى الفاتحة من هذا الفصل .

ويلاحظ أن المقريزى خصص كتبا أخرى لعصور معينة من التاريخ المصرى ، مثل « عقد جواهر الأسفاط فى ذكر تاريخ الفسطاط » . واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء الفاطميين .

وتبدو هذه النزعة المصرية القومية الخالصة فى مؤلفات أخرى للمقريزى مثل : « المقفى الكبير » الذى أراد المقريزى أن يجعل منه معجما مصريا قوميا من أقدم العصور الى عصره ، ومثل « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » وهو معجم قومى لمعاصريه . واستمرت هذه النزعة القومية فى تلاميذ المقريزى والتابعين لهم ، فكتب يوسف بن تغرى بردى تاريخه الضخم المسمى : « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » وكتب عبد الرحمن السيوطى : « حسن المحاضرة فى

تاريخ مصر والقاهرة » كما كتب محمد بن اياس : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، وهو كذلك فى التاريخ المصرى .

ويبدو تأثير ابن خلدون واضحا فى نوع جديد من المؤلفات ، منها : « اغاثة الأمة بكشف الغمة » للمقريزى ، « واعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » للسخاوى ، « والشماريخ فى التاريخ » للسيوطى .

وفى هذه العناوين شواهد بليغة ناطقة بالتطور فى مفاهيم التاريخ ، ولكنها شواهد لم تلبث أن زالت بزوال ما لمصر من كيان سياسى ، نتيجة للفتح العثمانى الذى جعل البلاد المصرية ولاية تابعة لدولة لا تعرف ولا تدرك من اللغة العربية وتراثها سوى النزر اليسير الضرورى لشئون الدين .

الحياة الدينية في مصر الإسلامية

من ظهور الإسلام إلى مطلع العصر الحديث

للأستاذ أمين الخولى

حول المنهج :

الدين .. والتدين

« هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ، وينشىء السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء .. »

(سورة الرعد آيتى ١٢ و ١٣)

منذ وجد الانسان على ظهر هذا الكوكب الأرضى ، قبل أن يكتب تاريخه وبعد ما كتبه ، كان يحتكم فى حياته هذان الشعوران : الخوف والطمع ، أثرا لموقفه أمام الظواهر الحيوية ، أرضية وسماوية ، واحساسه الواضح بضعفه ، وعجزه ، وجهله ، أمام ضخامتها ، وشمولها ، وغموضها ، وتكرارها .. وما الى ذلك .

ولذلك تدين الانسان فى كل زمان ، وكل مكان لونا ما من ألوان التدين ، بنوع ما من أنواع الدين .. فعرفت له ديانات وثنية مختلفة فى أنحاء الأرض ، كما كانت له ديانات توحيدية ، فى أرجاء من الدنيا .

والدرس العلمى لظاهرة التدين ، والأديان المختلفة يمضى على منهجه المحرر ، فيحدث عن نشأة — وتطور — ومقارنات .. ونواميس تنظم الحياة الدينية .. وسنن اجتماعية لها .. ونحو ذلك ..

وهو منهج لا يد لأحد بالخروج عليه ، ولا قدرة على انكاره .. وما أخالنا فى الحديث عن الحياة الدينية المصرية الا مصغين لما يقوله فى هذا ، غير منكرين لما يرى من صلات مثلا ، بين ألوان التدين المختلفة ، فى مصر ، وفى سواها من بلدان أخرى ، وما يجد من روابط بينها ، أو مشابه ، وما يفسر به شيئا من هذا كله .

وهو اتجاه يخشى أن يجد فيه صاحب دين سماوى : مسلما أو مسيحيا ، أو غيرهما شيئا من غضاضة ، أو مساسا بكرامة عقيدته ، اذا جمع الدرس بينها وبين ألوان من التدين

البدائى أو المتطور ، لا يعدها صاحب الدين السماوى الا أساطير ، أو خرافات ، أو تحريفا شوهت عقائد سليمة الأساس ، كريمة المصدر .

ومن أجل هذه الخشية المتحرجة قدمنا هذه الكلمة عن « الدين .. والتدين » لنقول فيها لمثل هذا المتحرج أو المنكر لبعض مقررات المنهج العلمى الاجتماعى ، فى درس تاريخ الأديان ومقارناتها .. الخ : ان هذا المنهج لا يسىء الى الأديان السماوية المنزلة ، حين يقرنها فى درسه الى الديانات الأخرى ، التى تعدها الديانات السماوية ضلالات ، وخرافات ، أو تحريفات لحقائق صحيحة .

نعم .. لا يسىء ذلك الى الأديان السماوية فى شىء ، ويبين هذا بيانا كافيا وقوف الاسلام بخاصة ذلك الموقف الذى يقدم لنا تفسيرا يقر العلم فيما يصل به بين هذه الديانات التى يختلف نظر المعتقدين اليها ، وهو موقف يتجلى فى أصلين اجتماعيين دينيين ، قد قررهما القرآن فى صراحة ووضوح ، وفيهما التوفيق بين تناول العلم ، وتكريم المؤمن لعقيدته ، وبهما تفسر الجمع بين أديان هى تحريفات ، أو ضلالات فى رأى المؤمنين مع غيرها من الأديان المنزلة ، فبهما يمكن للعلم أن يسلكها معا ، حينما يدرس ظاهرة التدين الانسانية .

وهذان الأصلان الاسلاميان اللذان يهيئان هذا التوفيق هما : —

أولا — وحدة الأديان ، التى يقررها القرآن ، بوضوح وصراحة تكررت فى مثل[1] آية ١٣ من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه .. الآية .. فهو يقرر أن الحقيقة التى شرعها فيما وصى به الرسل المتعددين واحدة .. والوحى الذى أوحاه اليهم جميعا متماثل .. وهذه الرسالات قد دخل عليها مع الزمن من التغيير ما دخل ، وجرى حولها من التخالف والتناكر ما جرى ؛ كما يحدث القرآن نفسه عن ذلك فيما بين اليهود والنصارى وسواهم ، لكنه مع ذلك كله يقرر وحدة أصلها ، وأن ما أوحى الى رسلها ، وأوصوا به واحد .. والصلة بينها قائمة فى الأصل ؛ وفهم العوامل التى طرأت عليها فى تأثرها وتطورها يبيح لباحثها أن ينظر اليها فى ظل هذه الوحدة ، وأن يلتمس العوامل الفعالة فى حياة هذا الأصل الموحد ، وما طرأ عليه من تغيرات ، دون أن يجد المتدين المؤمن غضاضة فى الجمع بينما صارت اليه رسالة نوح وابراهيم ، وما فى رسالة موسى وعيسى ومحمد بعدهما مثلا .

(١) فى معنى هذه الآية المقررة للوحدة الدينية آية ١٦٣ من سورة النساء : انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق .. الآية . وآية ١٣٦ من سورة البقرة . وآية ٨٤ من سورة آل عمران ، وغير هذه الآيات مما لا حاجة بنا الى احصائه .

وثانى الأصلين اللذين يقررهما الاسلام، ويسمحان للمنهج العلمى بخطته هو : أن كل أمة قد جاءها نذير ، أى أنه قد ألقيت اليها رسالة مبلغة ، كانت مناسبة لوقتها ، ملائمة لحالها وهو ما تقرؤه قويا ، بصيغة القصر فى آية ٢٤ من سورة فاطر : وان من أمة الا خلا فيها نذير .. وتظاهرها الى حد ما آية ٤ من سورة ابراهيم : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ..

وما دام الأمر كذلك فممكن أن يقال : ان ما عند كل جماعة بشرية من دين قد جاءها على يد نذير ، وله أصل سماوى،.. ثم تغير مع الزمن كما تقضى بذلك طبيعة التطور ، فان كانت فيها حقيقة أو حقائق قد جاءت بها رسالات سماوية أخرى فليس ذلك مما اتفق فيه تدين خرافى أو ضـال مع تدين سماوى ، ينزهه المؤمنون ، بل هى من الحقائق التى اشتركت فيها الوحدة الدينية فى الرسالات ، ووصية السماء ، وما حولها من باطل فى رأى المؤمنين هو ما لحقها من تشويه أو تحريف أو تغيير .. وخذ لذلك مثلا يزيد الأمر وضوحا وهو الميزان الأخروى ، ووزن الأعمـال فى دار الجزاء على النحو الذى يوضح به ويرسم فى الوثنيـة المصرية ؛ فهـل هو من الوثنيـة المصنوعة ، وقد انتقل الى الديانات الموحاة المنزلة بعد ذلك ؟ وفى هذا ما فيه من المساس بحرمة تلك الأديان المنزلة ؟ أو أن هذا الوزن والميزان فى الوثنية المصرية يمكن أن يقال — فى ظل ما يقرره القرآن من الوحدة الدينية ، وارسال النذر الى جميع الأمم قاطبة — انه حقيقة دينية موحاة خلا بها نذير ، ثم تغـير من أمر هذه الرسالة ما تغـير ، وحفت بها التغييرات والتحولات الوثنية ..

واذا ما أمكن أن يقال هذا فلا بأس على الدارس المصطنع للمنهج العلمى فى فهم ظاهرة التدين الانسانى أن يقرر الصلة بين التدين فى مختلف ألوانه ، ومتعدد صوره ، وأن يقارن، ويوازن بين الأديان المختلفة ، وأن يخضـعها لقوانين مطردة ، وسنن موحـدة ، لأنها فى حديث الوحى المنزل ، من القرآن ، ليست الا حقيقة واحدة ، ولا غرابة فى أن يكون قد خلا فى أمتهـا — حيث كانت — نذير من السماء بها .. ولا بدع فى الربط بين الأديان المختلفة ، فى أى زمن من الأزمان ، ولا يصح أن يشق ذلك على مؤمن ، أو يرى فيه بأسا ، أو منالا من دينه الذى يدين به .

وهكذا يزيل الهدى القرآنى كل صعوبة تعترض المنهج العلمى فى درس الأديان على مستوى اليوم .. فيستطيع المتحدث فيها أن يقول ما يجد عن صلة بين الدين .. والتدين فى الحياة المصرية ، على اختـلاف أزمنتها ، وتنوع دياناتها ، وأن يلمح أوجه المشابهة بين هذه الصور المختلفة .. وأن يستخرج منها دلالات على الشخصية المصرية الدينية مثلا ، غير مشفق من أن يظن ظان بهذا المنهج خطرا على ايمان مؤمن برسالة سماوية ، أو نيـلا

منها فى شىء .. وعلى هذا المنهج تتقدم الى الحديث عما نقصد اليه من :

التاريخ الحضارى

فنقول : لئن أمكن — بكل تساهل — أن يكتب التاريخ العام ، أو التاريخ السياسى ، وما أشبه ، على أنه أحداث مسرودة ، وأسماء معدودة ، وسنين مرقومة ، فانه لا مجال مطلقا لأن تقبل — بأى تساهل — كتابة التاريخ الحضارى على مثل هذه الصورة .

انما تاريخ الحضارة حديث عن خصائص ومميزات لجماعة من الناس ، وطوابع لها ، ومقومات ، يمكن فى ضوئها تفسير اتجاه خطوات تلك الجماعة المؤرخة ، فى طريق التقدم الانسانى ، ومسير التمدن البشرى .. وفهم أهدافها فى نشاطها ذاك ، وكشف البواعث والدوافع التى صدرت عنها أعمالها ، فى هذا المجال .. وتبين العوالم النفسية التى سيطرت عليها فى أدوارها المختلفة وسادت أنفس أجيالها المتتابعة .. وتحديد الفكرة الثابتة التى دارت عليها حياتها ، وصنعت تاريخها ، وكانت محور فلسفتها الخاصة ، ومدار تقديرها لشئون الكون ، ومنهج ادراكها لمشكلات العالم ، وآفاق المستقبل ..

وعن طريق معرفة ذلك وما اليه فى حياة مجموعة انسانية موحدة يمكن فهم شخصيتها المميزة ، وهل هى متماسكة ، واضحة ، متسقة ، كما يكون الانسان الفرد القوى ، فى شخصيته .. أو هى منها فئة مهتزة منهارة ، كما يكون الانسان الفرد الضعيف ، وتكون شخصيته ..

ومن هنا يدق القول فى هذا التاريخ الحضارى ، دقة هذا التمثيل للشخصية .. والاهتداء لعناصرها ، بالجمع والتتبع تارة .. وبالتحليل والتجزئة تارة .. وما يتطلب كل أولئك من النظرة الشاملة ، العميقة ، الفاحصة .. المنتظمة للحياة المؤرخة فى مختلف عصورها ، ومتغير أحوالها ، ومتنوع مجالاتها ، منذ عرف عنها خبر ، أو كتب لها تاريخ ، وتقلبت بها الظروف ، بين بؤس ونعيم ، ونصر وغلبة ، أو هزيمة وضعف ، ورخاء وجدب ، وجهل وعلم ، وما الى ذلك.. تجول هذه النظرة النفاذة المستشفة فى حياة الجماعة ، على أنها كل لا ينفصم .. ووحدة لا تتجزأ ، مثلها مثل النهر المتواصل الجريان ، المتلاحق الأمواج .. لا تجد فى تياره فجوة ، ولا ترى بين أمواجه ثغرة .. وان تقسمت واديه دولات .. أو توزعته سياسات ..

وليس من الصواب فى شىء أن يخال باحث يقظ أن حاضر جماعة بشرية ينبتر من ماضيها ، أو ينبت ما بين مستقبلها وحاضرها ، فذلك ما لا تسمح به الحياة ، ولا يجيزه تسلسل الوراثة ، ولا يمكن منه تأثير البيئة ، ولا تقبله النواميس الكونية والاجتماعية المطردة ..

وما دام الأمر كذلك فلن نستطيع الحديث عن شىء من أمر الحياة الدينية ، فى مصر الاسلامية ، خلال وسيط التاريخ وحديثه

الا تحت أضواء من الشخصية المصرية الدينية فى قديم تاريخها وأوله ..

وكذلك لن يكون حديثنا الحضارى عن هذه الفترة الا حقائق اجتماعية عامة تفسرها، وتعللها ، وتقررها ، عوامل الشخصية المصرية، التى سيرت تاريخ هذه الأمة ، منذ سعت فى هذا الوادى ، وما رست الحياة فى جنباته .

ولئن ألزمنا ذلك — ولا محالة — بأن نستحضر فى أنفسنا ، ونحضر القارىء معنا صورة واضحة الملامح للشخصية المصرية الدينية بخاصة — على الأقل — فانا سنحاول ذلك ، فى أقصى ما يمكن من الايجاز والاجمال ، تاركين كل تفصيل أو استدلال لثقافة القارىء ، ونحن نعتقد أن التاريخ الحضارى لمصر ، فيما كتب من هذا الكتاب قبل الفترة الاسلامية التى نحدث عنها ، لابد أن قد هيأ القارىء لما نحيل عليه ، ونجمل القول فيه ، من سمات هذه الشخصية ، وسلوك الأمة المصرية ، فى أعصرها السابقة على العهد الاسلامى من حياتها .

والى القارىء ما لا بد منه ، أساسيا ، من الفكرة القصيرة المركزة عن :

ملامح الشخصية المصرية الدينية

ولمصر — على سير التاريخ — شخصية واضحة السمات ، بادية القسمات ، بينة الملامح ، راسخة العرق ، ثابتة الخطو .. بعيدة عهد بالتحضر ، قديمة الأثر فى التمدن .. مؤسسة معلمة ..

وتلك الشخصية المصرية حقيقة يعرفها العلم ، فيما يدرس من شئون الجنس ، والوراثة ، والبيئة ، ويقررها الدرس حين يحايد ولا يتحيز .. وليس القول بتلك الشخصية زخرفا من الكلام ، وسحرا من البيان ، أو اندفاعا من عواطف قومية .

وكما رسمنا خطة الحديث لا تتعرض لشىء من أصول ذلك ودلائله ، بل نكتفى بالاشارة الخاطفة ، بعبارة موجزة لجوستاف لوبون ، تشير من أمر هذه الشخصية الى أصول عامة ، وعوامل جامعة ، وهى : —

« .. ندرك الآن السبب الذى أدى بالجنس المصرى ، بعد تكونه البطىء ، فى عزلة عن الدنيا بحاجزى الصحراء والماء الى بلوغ الوحدة القوية ، التى استخرجها من أصله الغامض ، واحتفظ بها الى أيامنا هذه ظاهرة على أبنائه ظهورها على غرانيت معابده ، وقبوره القائمة من آلاف السنين » .

* * *

ولتلك الشخصية المصرية جوانبها المختلفة ، ونواحيها المتعددة ، من دينية ، وخلقية ، وعقلية .. وسواها ، ويعنينا هنا من ذلك الجانب الدينى ، الذى نمضى الى الحديث عن بضعة عشر قرنا من تاريخه .. فنحاول بتمثل ما قدمنا الآن من اشارة خاطفة أن نصف ملامح تلك الشخصية الدينية ، لنضع فى يد القارىء بذلك ما يفسر ظواهر الحياة الاسلامية فى مصر ، ويردها الى المستقر المعروف ، من أمر شخصيتها على الزمن .

ومن أبرز ملامح الشخصية المصرية الدينية :—

فمنذ أول الدهر عرف المصريون بقوة التدين ، ولا نطيل فى ذلك ، بل نكتفى بما قاله أبو التاريخ هيرودوت : ان المصريين أشد البشر تدينا ، ولا يعرف شعب بلغ من التقوى درجتهم فيها ، فان صورهم بجملتها تمثل ناسا يصلون أمام الرب ، وكتبهم — على الجملة — أسفار عبادة وتنسك ..

وسنرى لسيطرة الشعور الدينى ما يمكن أن نلمحه من أثر فى حياة المصريين الدينية على اختلاف العصور ، ومع مختلف الأديان..

ثم ان من أوضح ملامح الشخصية المصرية الدينية أيضا : —

قوة الايمان بالحياة الأخرى

فحين لا تجد فى أصول اليهودية مثلا عناية بتلك الحياة تجد أن المصريين قد احتقروا الحياة الدنيا مخالفين كل جنس سواهم ، وتملقوا الموت — كما قيل — فلم يكن المصرى يهتم بما يسر أو يحزن ، أو بمن يحب ويعمل ، ويبكى ويغنى ، على ضفاف النيل ، وانما يصرف همه الى المومياء الخالدة .. والمصريون — وهم أقدر البنائين القدماء فى العالم لم تكن قصور ملوكهم الا خانات بالنسبة للقبور ، وذلك لأن المسكن يبنى عندهم ليأوى اليه الانسان فى حياته ؛ والقبر يبقى خالدا على الدهر ، ومنذ القدم قد لحظ هذا المعنى فى فنهم المعمارى من حولهم من الأمم ، كاليونان .

ومن الأثر القريب لهذا الايمان القوى بالحياة الثانية : سيادة عقيدة البعث ، وما اتصل بها من الايمان بالخلود ، وتفنن المصريين فى بيان ذلك ، ثم فى العمل من أجله.

فعقيدة البعث فى النفس المصرية هى محور النشاط العملى فى وجودها ، وهى أوضح البواعث والدوافع فى أعمالها ، وهى سر تاريخها ، وخلاصة فلسفتها فى تفسير حياة الكون والانسان .

وقد وجدت فى البيئة المادية حولها تعبيرا وتصويرا لهذا المعنى ، فالشمس تحكى ذلك كل يوم بشروقها الناشىء فظهيرتها الشابة ، الى أصيلها الكهل ، فغروبها الفانى فى ظلام ، يعقبه بعث وميعاد مصبح ، اذا الصبح تنفس..

والنيل يكتسح بفيضانه الزاخر رمال الصحراء ، وجمود الجدب الميت ، فيحيى الأرض بعد موتها ، ثم اذا هو يهبط ويفتر فى تحاريقه فتتسرب الحياة من الأرض الرابية رويدا ، ويسودها الموت الى بعث جديد بفيضان معاود ؛ وكذلك عمر القلب المصرى بأمل لا يخيب فى الحياة الدائمة بفضل ما يمثله من ذلك نيلها الدافق وشمسها الوضاءة .

وفى سبيل هذه العقيدة وبتوجيهها دبرت مصر ما دبرت ، وبذلت ما بذلت لأجلها من التماس عوامل البقاء ، ومهيئات المعاد ، فكانت قبور راسيات كالأطواد ، وأهرام شامخات ، راسخات ، ومعارف ، ومباحث

تهيىء لذلك كله ، وتمكن من صون الجسم ، ليتلقى الروح فى الوقت الموعود .. وانتشرت فى الوادى تلك المعاقل الخفية فى جوف الأرض ، وتلك المعالم الشامقة على سطحها..

وكانت مصر بذلك بيئة دينية لها بتلك الجهود الجبارة ايحاءاتها وتأثيراتها الراسية الأصل ، وان اختلفت صورها . فمصر البرابى هى هى مصر الأديرة ، ثم هى هى مصر السياحة الصوفية .. بعمق روحها الدينية ، وتمثلها للحياة الأخرى — واطمئنانها الروحى الآمل..

ومصر بهذه المعانى هى مصر التى سنحس من معانى تدينها فى اخلاصه ، وتشبثه ، ونضاله عن العقيدة أصداء تلك الجهود الجبارة التى كانت صورها صلوات .. وكتبها أسفار عبادة .. وفنونها اعدادا للبعث وتمكينا من الخلود .. وسنرى حياتها الدينية الاسلامية — فيما يلى — امتدادا متصلا لهذه المعانى المتدينة بلا تخلف .

ثم من أبين ملامح الشخصية المصرية الدينية التى تؤازر عمق التدين ، وقوة اليقين الأخروى .

سعة الأفق الدينى

فقد أوتيت مصر بسطة فى النظر الدينى ، وتطلعا الى فسيح الآفاق وبعيدها فى عالم التدين . وكان من ذلك أن عرف البحث المقارن فى الأديان البشرية صلات لها ، وروابط ، ومشابه بأديان مختلفة فى مواطن عريقة التدين ، فاذا لمصر مشاركة واسعة المدى فى تدين البشرية بما هو ظاهرة اجتماعية ، فى حياة الجنس الانسانى .

وحينما كان التدين وثنية تجسيمية عرفت مصر من هذه الوثنية الكثير جدا ، مما عرفت الوثنيات القديمة فى أقاصى الأرض واتصل بعقائد مختلفة الصور فى ديانات متعددة .. فوثنية مصر قد عرفت تعدد الآلهة ، بمختلف الأقانيم من ثلاثة الى ما بعد التسعة .. كما عرفت تلك الوثنية عقيدة الفداء والتخليص وولادة المخلص الالهى ، وقيامه من بين الأموات .. وكما عرفت أمومة العذراء .. وما يتصل بذلك .. وكان لها من الطقوس الكثير ، فعرفت التعميد والرهبنة و .. و .. مما تكشف مقارنة الأديان عن قوة المشاركة المصرية فيه ..

ثم اذا ما كان التدين توحيدا عرفت الديانة المصرية فى هذا التوحيد ما لها من محاولات وتفسيرات . وهكذا تدرك من هذا الاجمال ما فى الشخصية المصرية الدينية من سعة الأفق ، وبسطة النظر الدينى .. وتقدر أنها بذلك وما اليه من مشخصات تشارك فى حياة التدين البشرى بعامة ، وفى حياة الأديان الكبرى المعروفة اليوم بخاصة .. مشاركة نظرية اعتقادية .. وعملية ايجابية .. فاليهودية ربيبة مصر ، وفى حجرها ربى رسولها موسى — عم — والصلة بين التوراة والبيئة المصرية موضع الدرس الواسع عند المختصين ..

والمسيحية لا تنقض العهد القديم ، بل

تعد تراث اليهودية شطرا منها .. والاسلام مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل .. وتلك لفتة الى المشاركة النظرية الاعتقادية من مصر فى حياة الأديان الكبرى عندنا ..

وأما المشاركة الايجابية العملية وما أدت مصر فى مختلف عصورها ، من خدمات جلّى لحياة هذه الأديان فقدمها فيها راسخة ، وجهدها عبقرى ، فى لحظات دقيقة ، ومواقف حاسمة ، تعدل فى عظمتها ما أدته كذلك من الخدمات الجليلة الخالدة لحماية الحضارات وصون التراث الانسانى ، العقلى ، كما صانت التراث الانسانى الوجدانى الاعتقادى.. وهذه المشاركة العملية الايجابية فى حياة الأديان والحضارات مما لا فرصة هنا للقول فيه بتفصيل ولا باجمال ، وحسب القارىء ما تذكره به هذه الاشارة من ثقافته التاريخية، عن تلك المشاركة المصرية .

* * *

ويعنينا هنا أن نقول أن هذه الشخصية المصرية الدينية قد هيأت لمصر المشاركة فى الأديان الكبرى ، بمعرفتها .. ولقائها .. وتقبلها فى أناة ويقظة .. وتمكينها من الحياة فى بيئتها الاعتقادية ؛ ثم الوقوف الى جانبها بعد التمثل الصحيح لها ، وقوف المستشهد العميق الايمان .

ولعلك بعد هذه الاشارات العابرة ، المصورة لقسمات الشخصية المصرية وملامح تكوينها تستجيب لما قصدت اليه من هذا التصوير ، فندرك المظاهر العامة المطردة التى تجلوها هذه الشخصية ، فتسلم معى بأن : مصر صاحبة هذه الشخصية الدينية قد حققت على اختلاف الأدهار معانى نعتمد عليها فى فهم حياتها الدينية الاسلامية ، ليتسق فهمنا للتاريخ الحضارى من جانبه الدينى .. وتلك المظاهر العامة هى أنها : —

(أ) ثابتة التدين ليست كما يقول التعبير العربى ، قبضة رفضة ، فتعتقد فى سهولة وتصبأ فى سهولة .. كلا .. بل هى مستأنية فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلا فى أقدم تدينها ، وسترى ذلك فى الحديث قريبا عن تلقيها الاسلام ..

ثم هى اذا ما تقبلت فى أناة ظهر أثر هذا التأنى فى تدينها ، فرأيت لذلك أنها : —

(ب) متعمقة روح الدين الذى تعتنقه .. لا تقف منه عند القشور والمظهريات بل تستشف اللباب وتدرك الجوهر ، وسنرى هذا فى اسلامها بعد اعتناقه .. ولعلها لهذا لاتبذل جهدا كبيرا فى شقشقة الخلاف الدينى، وافتراق المقالات الاعتقادية ، بل ترى موقفها فى هذه النحل والخلافات هو موقف غير المقبل ولا المسرف .. وهو ما سنجد أمثلة له فى الكلام على حياة الاسلام فيها ..

ثم اذا ما تعمقت فى تدينها رأيت لذلك انها :

(ج) مضحية فى سبيل الدين الذى تلقته فى أناة وتعمقت روحه .. وكذلك تجد لها الضحايا فى مختلف الأديان على شتى الصور:

ناضلت عن الوثنية التى عاشت بها أجيالا .. ثم لما تلقت المسيحية قدمت لها شهداءها مقاومة عن مسيحيتها ، حتى تلقت الاسلام فى أناة — ولما تعمقته بذلت فى سبيل حماية عقيدته ودولته ما بذلت فى صراعها الدامى ، مع الغرب الصليبى، والشرق التترى الهمجى، وقد كادا يطبقان عليها من الجانبين فى عصر واحد .

وبمثل هذه الملاحظة العامة تشعر أننا قد مهدنا للقول الاجتماعى فى التاريخ الحضارى الدينى لمصر الاسلامية ، وأقمنا من المعالم ما يرد الحديث عن هذا العهد الاسلامى الى معان عامة ، تدل على تتابع أمواج نهر الحياة المصرية ، متلاحقة متواصلة يهيىء السابق منها للاحق .. ويزيد الأول وضوح الثانى .. ويتسق به التبيان مترابطا متواصلا ، متطورا متدرجا .. كما ينبغى أن يكون الأمر فى تاريخ الحضارة ، ليمكن أن يلقى أضواء جلية مركزة على الأحداث وتطورات للحياة ، وليجعل القول فى شخصية مصر الحضارية ثابت الأسس ، أصيل المنهج ، لا تكثرا .. ولا تحيزا .. ولا تعصبا .. ولا افتراعا مدعى .

وعلى هذا الأساس ننظر الى :

مصر تتلقى الاسلام

ولمصر بمهد الاسلام ووطنه الأول صلات كثيرة ، بعضها يحدث عنه التاريخ الدينى الرواية .. وبعضها يحدث عنه التاريخ المادى المصادر .

فأما ما يحدث عنه التاريخ الدينى فأمومة هاجر المصرية للعرب المستعربة ، اذ أهداها صاحب مصر لابراهيم — عم — حين دخل مصر ومعه زوجته سارة ، وكان من أمره وأمرها مع ملك مصر ما يحكى ..

ثم هى صلة يجددها اهداء المقوقس مارية القبطية التى ولدت للرسول محمد — عم — ولده ابراهيم على ما هو معروف .

ويلحق بما يحدث عنه التاريخ الدينى من صلات ما تحكى الرواية العربية من دخول العرب الى مصر ، وقصة عمرو بن العاص ، ووقوع الكرة فى كمه ، بملعب الاسكندرية ، وان من كانت تقع فى كمة تلك الكرة يملك مصر ، ولذا عجب المصريون من وقوعها فى كمهذا الأعرابى.. ولكنه أخيرا ملك مصر..!!

ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات كلها فان لها دلالة اجتماعية على صلة ما بين الاقليمين القائمين على شاطىء بحر واحد هو البحر الأحمر .. ولهذا الجوار ما يكون لمثله من اتصالات ، ومبادلات ، مادية ومعنوية لا مفر منها .

والتاريخ المادى المصادر يحدث من هذه الاتصالات بأشياء معينة ، من رحلات مصرية وتجارات لا نخوض فى شىء منها ، ولكن نشير الى ما يذكره ذلك التاريخ من صلة دينية بين الوثنية المصرية ، والوثنية العربية جعلت المعبودات الوثنية العربية ترجع فى أصلها الى معبودات مصرية ، حتى أمكن رد

أسماء الآلهة المشهورة التى ورد ذكرها فى القرآن وهى : اللات ، والعزى ، ومناة — بل رد غيرها أيضا — الى نظائر من آلهة مصر ، اسمها شبيه بالاسم العربى ، وصفها شبيه بوصف مصر لتلك الالهة وعملها ، فاسمها ورسمها مصرى .

واللات مثلا ، هى معبودة مصرية ، اسمها المصرى شبيه بالاسم العربى ويرمز بها فى مصر الى الحصاد ، حين يذكر فى العربية أن الاسم من لتّ السويق ، المتخذ من الحنطة والشعير .

وقد تولى هذا البيان الأثرى المصرى المرحوم أحمد كمال باشا .. ولا يتسع المقام للخوض فى شىء منه هنا ، لكنما هى الاشارة الى تلك الصلة بين مصر والجزيرة العربية على أساس أقوى من مجرد الخبر الذى تعرضه الروايات الدينية الشائعة .. هو اتجاه الى الناحية الدينية فى البلدين بخاصة ، وهى موضع عنايتنا هنا .

ولا نعرض كذلك لشىء من أخبار تلك الصلة بين البلدين فى العهد القريب من الاسلام . ولكنا بالنظرة الجامعة نشعر فى اطمئنان أن بين البلدين من المشاركة الناتجة عن الجوار ما يمتد الى جذور عميقة فى حياتهما ، ويجعل لهما من الروابط الدينية والاجتماعية ما يتطلب الدرس المفرد باعتبارهما جارتين متقاربتين على جانبى بحر واحد — كما قلنا — .

ولعله ليس من البعيد أن نجد الصلة بين قيام المركز الدينى الهام فى الحجاز غرب الجزيرة العربية وبين مقابلة هذا الغرب لمصر بلد الحياة الدينية الحافلة القوية ، الواسعة الأفق .. وهو احتمال نكتفى منه هنا بالاشارة الى قوة الاتصال بين مصر وبين مهد الاسلام ومنشئه الأول ، لنرى أن الاسلام لم يكن دعوة غريبة على مصر . ولا بعيدة عن جوها وبيئتها الدينية ، على ما أشرنا اليه ..

وقد كان لهذا الجوار أثره فى أن وجهت الدعوة الاسلامية الى مصر برسالة من محمد نفسه الى المقوقس أو — قيروس — حاكمها السياسى وزعيمها الدينى ، فى السنة السادسة من الهجرة .. وكان الرد على هذه الرسالة من خير الردود على ما وجهه الاسلام من رسائل الى الملوك والحكام حوله ، ان لم يكن خيرها .. وتتوسع المصادر العربية فى وصف تقبل المقوقس للرسالة ، وسؤاله حاملها فى خلوة خاصة ، عن صفة رسول الاسلام — عم — واعلانه فهم الدعوة الاسلامية ، وانتظار ظهورها وغلبتها الى حد القول بأنها ستنزل بساحتهم هذه — مصر —

وان لم يكن هذا كله قد كان كما وصفت الروايات الاسلامية فان الهدايا المرسلة ، والرد الحسن يكفى فى وصف تقبل المقوقس لهذه الدعوة .. وسواء أكان هذا التقبل الحسن سياسة من الرجل ، أم كان حسن فهم لسير الحياة الدينية فانه يتصل — على كل حال — بما وصفنا فى ملامح الشخصية

المصرية ، من سعة أفقها الدينى ومشاركتها الواسعة فى حياة التدين الانسانى .

ولعل مما يؤيد هذا المعنى أيضا ما تسوقه المصادر العربية كذلك من أن المغيرة بن شعبة فى خرجة له الى مصر ، قبل أن يسلم ، قد تحدث الى المقوقس بشأن صاحب الدعوة الاسلامية الجديدة فى بلاد العرب ، كما تحدث الى أسقف قبطى ، بهذا الشأن ، لم ير المغيرة أحدا أشد اجتهادا منه ، فأخبره عن آخر الأنبياء ، النبى الأمى العربى .. الخ .. وهى روايات ، ان لم تصح كلها فان لها دلالتها على ما كان فى البيئة المصرية من علم بالشئون الدينية ، يؤيد ما وصفنا لها من أفق واسع فى التدين .

ثم لم تمض بضعة عشر عاما من هذه الدعوة السلمية حتى جاءت دعوة الاسلام الموجهة .. فأقامت له دولة داعية فى مصر ، بعد ما كان من وقائع الفتح التى لم تستغرق وقتا قصيرا .

ولا نبعد اذا ما قلنا ان مصر القوية التدين ، العليمة بالأديان قد كانت لها مشاركة فى حياة الدين الاسلامى ، خارج مصر ، فى مهده بالحجاز ، ثم فى مصر نفسها ، على عصور مختلفة .

ففى الحجاز يعد بين صحابة الرسول — عم — غير واحد ينعت بالقبطى ، مثل :—

جبر بن عبد الله — ت ٦٣ هـ — الذى ينعت فى كتب الصحابة بالقبطى ، ويروى السيوطى أن القبط تفخر بأن منهم من صحب النبى — عم — ..

وفى بعض خبر القوم عن هذا الصحابى القبطى : أنه كان رسول المقوقس بمارية الى رسول الله — عم — فبقى هناك وأسلم وصحب .. وان كانوا يقولون مع هذا : ان منهم من رأى بعض ولده بمصر .. فهو على هذا ليس مجهولا ، قد هاجر الى الحجاز نهائيا ، بل عاد هو أو بنوه الى مصر ، وكانت لهم فيها أسرة .

ومن الصحابة المنعوتين بالقبطية أيضا صحابى قوى الصلة برسول الاسلام نفسه هو :

أبو رافع القبطى مولى النبى — عم — لأنه هو الذى حرره — فى رواية — وليس فيما رأيت من خبرهم عنه ما يبين مصريته ، أو سبب انتقاله الى الحجاز الا شيئا واحدا هو رواية لهم ، فى اسمه الأول ، اذ يقولون : كان اسمه «قزمان» ثم غيّر الى أسلم ، أو ابراهيم أو « بريه » بصيغة التصغير التى كان يلقب بها ..

وفى كل حال فان لهذا الذى نعتته كتب الطبقات بالقبطى رواية للحديث عن النبى — ص — وعن عبد الله بن مسعود ، كما روى عنه أولاده ، وأحفاده ، وغير قليل من الصحابة .

وفى هؤلاء وأمثالهم ممن اتصلوا بالاسلام فى مهده ، ولأول عهده مشاركة من مصر

وبيئتها فى تلقى الدعوة الاسلامية التى وجهت لمصر منذ عهد مبكر — كما رأينا — .

ثم تصل مصر حبلها بالاسلام ، وتتجه العناية الى الثقافة الاسلامية الخاصة فى مدارسة القرآن ، والحديث ، وما يتصل بذلك من العلوم الدينية كالفقه ونحوه فاذا مصر تشارك فى ذلك برجال غير مغمورين ، ولا يزالون ينعتون بالقبطية ، عند الحديث عنهم بين المعدودين فى حياة تلك الثقافة الدينية الخاصة .

ففى قراءة القرآن وتلقيه ، وتحرير نصه ، ووصل السلسلة فى تناقله يشترك قبطى من وجوه القراء السبعة المعروفين ذوى الأسماء الشائعة الى اليوم ، هو القارىء :

ورش — القبطى المصرى مولدا ووفاة — ١١٠ هـ — ١٩٧ هـ .. الثقة الحجة فى القراءة ، والذى ينعته أصحاب هذه المادة فيهم بأنه : شيخ القراء المحققين ، وامام أهل الأداء المرتقين .. وأنه انتهت اليه رياسة الاقراء بالديار المصرية فى زمانه .. أخذ عن نافع بن أبى نعيم .. وله اختيار — فى القراءة — خالف فيه نافعا .. وكان جيد القراءة ، حسن الصوت ، لا يمله سامعه ..

ثم فى ميدان الفقه ، ولعهد مبكر نجد بين الطبقة الأولى من أصحاب الشافعى الذين جالسوه قبطيا فقيها هو :

أبو حنفية الأسوانى القبطى — ت ٢٧١ هـ — واسمه قحزم بن أبى قحزم ، ولعله اسم مسرف فى التعرب — صحب الشافعى ، وكتب الكثير من كتبه وروى عنه عشرة أجزاء من السنن والأحكام .. وكان آخر من صحب الشافعى موتا .. وبلغ فى الفقه مبلغا طيبا فكان مفتيا .

* * *

هذه وما اليها شواهد على مشاركة من مصر وبيئتها فى تلقى الاسلام تلقيا مبكر الوقت ، واضح المساهمة ، بعيد الغور والتأثير فى حياة الاسلام عقيدة ، وعلما دينيا..

وهى شواهد نعدها لمصر مع ما نعرفه من أن الكتاب العرب فى الموارد المختلفة ينعتون بالقبطية من فى مصر ، ولو كان رومانيا مثلا .. ومع ما نعرف من أن المسيحية قد اعتنقها فى مصر أخلاط من عناصر شتى . ومع هذا وما اليه نعد تلك الشواهد مشاركة لمصر وبيئتها وطابعها الدينى ، الذى عرفنا معالمه قريبا ، لأن ذلك فى التاريخ الحضارى صواب ، ولا يتغير بشىء من عرق أو جنس .. فالبيئة بوتقة تمزج العناصر المختلفة التى تستقر فيها وتطبعها بطابعها ، على قدر قوته وأصالته ..

ونحن لا نعتمد الا على مثل هذا الأصل فيما قررناه ونقرره من المبادىء الاجتماعية التى نرى فيها التفسير المتسق للشخصية المصرية ، والحياة المصرية ، فى العصور المختلفة ، فرغم اختلاف الأشكال والصور الخارجية تظل الحقيقة الجوهرية — فيما عرفنا من قوة الشخصية المصرية — واضحة

ثابتة .. وهو ما نرجو أن يجد القارىء صحته فى هذا التفسير التاريخى بشواهد متعددة ، واطراد متسق .

ولئن كنا قد قدمنا شواهد المشاركة المصرية الاسلامية التى تشجع عليها قوة التدين المصرى ، وسعة الأفق الدينى المصرى — كما بينا — فانا لا ننسى ما لمحناه من المعالم الثابتة لتلك الشخصية ، وأنها مستأنية فيما تقبل من عقيدة ، لا تعدم أصلا فى تدينها — ص ٥٣٦ — فهل تختلف هذه المظاهر فى تلقى مصر للاسلام ؟ سنرى الجواب فيما كان فعلا من :

تحول .. غير سريع

اذ انك تقرأ فى تاريخ الطبرى ، من حوادث سنة ٢٠ هـ : أن صاحب الاسكندرية عرض على عمرو بن العاص ، بعد ما أصاب سبيا كثيرا ، بلغ بعضه المدينة ومكة ، أن يعطيه الجزية على أن يرد عليه ما أصاب من سبى . وأن عمرا استأذن عمر فى ذلك ، فرأى عمر أن ما تفرق من السبى بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن لا قدرة على رده ، وأما من فى أيدى المسلمين بمصر من السبى فيخيرون بين الاسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . وان صاحب الاسكندرية قبل ذلك .. قال : فجمعنا ما فى أيدينا من السبايا ، واجتمعت النصارى ، فجعلنا نأتى بالرجل ممن فى أيدينا ، ثم نخيره بين الاسلام ، وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هى أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه الينا ، واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ، ثم حازوه اليهم ، ووضعنا عليه الجزية ، وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم .. قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم ، وقد أتى فيمن أتينا به بأبى مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال : وقد أدركته وهو عريف بنى زبيد — قال : فوقفنا فعرضنا عليه الاسلام والنصرانية ، وأبوه وأمه ، واخوته فى النصارى ، فاختار الاسلام . فحزناه الينا ، ووثب عليه أبوه وأمه واخوته يجاذبوننا حتى شققوا عليه ثيابه . ثم هو اليوم عريفنا ..

وأحسب أنا لو أردنا أن نتمثل هذا التجاذب الدينى فى مصر منذ عرفت الاسلام لما وجدنا أوضح صورة مما تصور هذه الرواية التى ساقها الطبرى ، فهى تصوير مادى ونفسى قيم لهذا التجاذب فى أرض مصر على اختلاف الأزمان ، ومع سلطان العقيدة الدينية اذ ذاك .

ولهذا التصوير فى الوقت نفسه دلالة على ما لمحناه فى شخصية مصر من عدم سرعة تحولها من دين الى دين .. وأناتها فى ذلك بل بطئها .. ان شئت أن تقول :

* * *

وتقرأ فى الطبرى ، من خبر هذه السنة نفسها — ٢٠ هـ — ما يلى :

.. وحضرت القبط باب عمرو ، وبلغ عمرا أنهم يقولون : ما أرث العرب وأهون عليهم أنفسهم ، ما رأينا مثلنا دان لهم ، فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجزر فذبحت ، فطبخت بالماء وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس ، وأذن لأهل مصر ، وجيء باللحم والمرق ، فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا : انتشلوا وحسوا ، وهم فى العباء ، ولا سلاح ، فافترق أهل مصر ، وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، وبعث فى أمراء الجنود فى الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا فى ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر فرأوا شيئا غيرما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .. وبعث اليهم أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم ، فعرضهم عليهم . ثم قال : انى قد علمت أنكم رأيتم فى أنفسكم أنكم فى شيء ، حين رأيتم اقتصاد العرب وهون تزجيتهم فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت أن أريكم حالهم ، وكيف كانت فى أرضهم ؛ ثم حالهم فى أرضكم ؛ ثم حالهم فى الحرب فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم فى اليوم الثانى ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى ، وراجع الى عيش اليوم الأول .. فتفرقوا وهم يقولون : لقد رمتكم العرب برجلهم .. وبلغ عمر فقال لجلسائه والله ان حربه للينة ، ما لها سطوة ، ولا سورة كسورات الحروب من غيره ، ان عمرا لعض .. ثم أمره عليها وقام بها » .

وأحسب أن هذه القصة — مهما يكن أصلها — لتمثل أبين التمثيل التنافس الاجتماعى بين العرب والمصريين ، وعوامله ، وأهدافه ، حتى ما نجد أبلغ منها فى عرض ذلك كله موجزا دالا .. وان فيها من هذا التمثيل الصادق الاشارة لما يجلى نظرة المصريين للعرب تلك النظرة التى تفعل فعلها فى هدوء التحول الدينى أو الاجتماعى — ان لم يكن فى بطئه — ان شئت أن تقول .

وتحت كل ما سبق من موجهات مؤثرات مضت الحياة فى طريقها .. وكانت ثورات فى مصر خلال القرنين الأول والثانى الهجريين ، وصدرا من القرن الثالث ، تارة من المصريين منفردين ، وتارة مع عناصر عربية شاغبة ، حتى أوفد اليها المأمون ولى عهده المعتصم ، ثم لم يكف ذلك ، واقتضى الأمر مجيء الخليفة بنفسه ، من بغداد الى مصر ، وحضر المأمون ، فدبر للحرب وأشرف .. وأسرف أيضا .

وكل أولئك وما اليه تقضى به السنن الاجتماعية فى سير الحياة .. وعلى مر الزمن تم هذا التحول البطيء ، وانتقلت مصر — فى

أناتها — الى الاسلام ، وقد أبقت الى جانبه ما أبقت من مسيحيتها وكنيستها المرقسية ، وما لها من شأن فى المسيحية وحياة أهلها فى هذه البقعة من أفريقية ، وملتقى القارات الثلاث .. وما لها من ميراث لاهوتى ، وفلسفى من مدرسة الاسكندرية ، وأديرة الوادى .

* * *

استقر الاسلام فى مصر ذات الشخصية البارزة ، الواضحة المعالم الدينية ، على ما تبينتها — أول هذا الحديث — وجعلت طوابعها التى ذكرناها فى كبريات واضحة — ٥٣٤ ، ٥٣٥ — توجه حياة الاسلام فى مصر توجيها بينا ، يميز حياة هذا الاسلام فى مصر عن حياته فى غيرها ، ويغذى التفكير فى الاسلام ، كما يغذى العمل كذلك بعناصر غير خافية .. نشير هنا الى أمهاتها فى اجمال لا يسمح المقام بأكثر منه .. فنتحدث عن :

روحية مصر .. فى الاسلام

وتتجه فى ذلك أول ما تتجه الى التصوف ، الذى هو حركة انسانية عالمية عامة ، متصاعدة ، فى حياة التدين البشرى ، على اختلاف ألوانه ، وتعدد صوره ، وتباعد دياره .. حركة انسانية من دقة الحس الدينى ، ورفاهة الوجدان الاعتقادى ، تمضى بالتدين الى أعمق من التكاليف العملية ، والعبادات المرسومة ، وتتمثل روح الايمان ، ودفعه الى التفانى فى المعبود ، وامتلاء القلب بتمثله ، وحبه ، ونسيان كل ما سواه ، والصدور فى كل شىء عن رضاه ، وهى مشاعر لا تتم الا عن تطهير للروح ، وتصفية للقلب ، وتهذيب للنفس ، وتحطيم لضراوة الشهوة ، وتخلص من ظلام المادة .. كما يعرف الفضل ذووه ..

وقد كان للمسلمين نصيبهم من هذا الاتجاه منذ ظهور الاسلام ، بما فى كتابه ، وهدى نبيه ، من زهد مترفع عن الشهوات ، لا يمد عينيه الى زهرة الحياة الدنيا ..

ثم تقدم عمل المسلمين فى ذلك الى الأخذ بصور من الرياضة الخاصة فى العبادة ، والعمل ، ثم الى امداد ذلك بتفكير روحى دينى ، يأخذ بأسباب من الفلسفة وآراء قوية التمثل فى تفسير الكون والحياة والصلة بالله ، وهو تفكير لا يعدم تأثرا بمذاهب الحياة من الفلسفة العامة ، والأديان القديمة ، من أقصى الشرق أو أدناه ، قد توثقت الرابطة بينها وبين الفكر الاسلامى ، حين خالطها فى بيئات كانت موائل لها ومواطن ..

وما ننس لا ننس أن هذه الصورة الجميلة من التصوف الانسانى ، أو التصوف الاسلامى ، لا تثبت حيث تمثلناها فى تلك الآفاق المتسامية ، بل تتغير مع الزمن حتى تصير الى صور من الشكليات التافهة ، والظواهر السطحية الجامدة ، يوجهها جهل بشئون الدين وشئون الدنيا جميعا ، وتسودها مخرقة وشعوذة ، يتأذى بها الدين والدنيا ، أخيرا .. وهو ما لن ننساه ، ولا نحب أن ينسى القارىء أنا لا نعنيه حين نحدث هنا

عن التصـوف ، وعن أثر الروح المصرية فى تصـوف الاسـلام ، فـلا نريد من ذلك الا التصوف فى نشأته ، وتطوره نحو الكمال لا فى فترة تدهوره الأخيرة .

* * *

وقد كانت مصر بما هى بيئة دينية ، قوية التدين ، واسعة الأفق ، على ما بينا ، .. ثم بما هى بيئة فكرية أيضا ، قد شاركت فى جهاد الانسانية العقلى ، وأعطت ما حولها من أقطار ذات ماض فكرى ، وأخذت منها ، وجمعت الثقافات والحضارات — كما أشرنا — .. كانت مصر بكل أولئك فى عهد انتشار الاسلام بأنحاء الدنيا القديمة ، ذات تأثير واضح ، فى بعث النشاط الروحى الصوفى للمسلمين .. وفى امداده بغير قليل من العناصر الدينيـة والفلسفية جميعا ، وبمشاركتها فى عمق هذا التصوف وتطوره .. ولو اكتفينا بهذا الاجمال لكان فى ثقافة القارىء ما يبينه وجهـا من البيان ، قريبا أو بعيدا .. وذلك لأن الزهد الاسلامى الذى حمله القرآن ، وسارت به السنة قد اتصل فى مصر — خاصة — بمؤثرات دينية ، من الأديان الشرقية المختلفة ، وصلت لمصر عن طـرق متعـددة ، من الحـروب والرحلات ، ووفادة الأمم المختلفة ، وحيـاة الأديان المتعددة فى مصر نفسها ، من وثنية .. ويهودية .. ومسيحية ..

واتصل الزهد الاسلامى كذلك فى مصر — خاصة — بتراث فلسفى من الأفلاطونية الحديثة ، والفلسـفة الدينية اليهـودية ، والفلسـفة الدينيـة المسـيحية ، والمذهب الغنوصى ، وهو المذهب الفلسـفى الدينى الذى نستطيع أن نسميه « المذهب اللدنى » لأنه يقوم على المعرفة بلا واسطة ..

فكل أولئك وما اليه من النماذج الفكرية كانت الاسكندرية من أهم مراكزه .. اذ فى مصر تأثرت الفلسفة بالدين ، وتأثر الدين بالفلسفة .. واليها هاجرت الثقافة اليونانيـة بعد سقوط عاصمتها .. وبعد اتصال طويل أصيل بين مصر وهذه الثقافة والحضارة ..

ومؤرخ الفكر الاسلامى يعرف جيدا أن المسلمين قد عرفوا فلسفة أرسطو نفسها عن طريق الأفلاطونية الحديثة التى انتشرت بينهم أوسع الانتشار .. ومصر وما حولها قد كانت موطن تلك الفلسفة ، ثم موطن ما أشرنا اليه من التيارات الأخرى ، عقلية واعتقادية .. كما يعرف مؤرخ التصوف الاسلامى أن هـذه المنطقة نفسها كانت وطن الصوفية والتصوف الاسلامى المتطور ، الذى تبدو فيه آثار تلك الروافد الفكرية والاعتقادية واضحة ، يتولى بيانها الباحثون .

ولو اكتفينا كذلك بهـذا الاجمال من البيان اعتمادا على ثقافة القارىء العامة لكان له من ذلك ما يفتح السبل الى ادراك تأثير روحية مصر على الاسلام فى تصوفه ، الذى هو أعمق شعور دينى فيه .. لكننا نجد كذلك وراء هذا من مظاهر التأثير ما لابد من الاشارة الى بعض خطوطه الكبرى ..

فهذا مصرى — أو ثوبى — من اخميم، كان كثير الملازمة لبربا اخميم ، لأنها بيت من بيوت الحكمة القديمة — فيما يقول القدماء — كما يقولون أيضا : انه قد فتح على هذا الاخميمى علم ما فيها من كتابات !!! .. ذلكم هو الحكيم الصوفى :

ذو النون المصرى — ت ٢٤٥ هـ — تقول عنه المصادر الاسلامية : انه وحيد دهره علما وعبادة ، وحالا ، ومعرفة ، وأدبا .. وانه : هو رأس هذه الفرقة — الصوفية — ، فالكل قد أخذ عنه ، وانتسب اليه ، وقد كان المشايخ قبله ، ولكنه أول من فسر اشارات الصوفية ، وتكلم فى هذا الطريق ..

ويقول الباحثون المحدثون عن هذا المصرى : هو أحق رجال الصوفية — على الاطلاق — بأن يطلق عليه اسم واضع أسس التصوف .

ولو كان فى المجال شىء من سعة لبينا من أقوال ذى النون المصرى وأفعاله ما يكشف السبيل الواضح للتأثير على التصوف الاسلامى من البيئة المصرية الخاصة ، بمذاهبها الفكرية عن المعرفة ، وبالمتداول فيها من معارف كيماوية ، وغيرها ، وبالنشاط التعبدى فى صور مختلفة .. الخ .. لكنا ندع ذلك كله للبحث المختص .. وحسبنا ما قيل برهانا على ما دلت عليه ملامح الشخصية المصرية من بث الروحية .. فى الاسلام ، بتوجيه تصوفه واعلائه ..

على أن الصوفية يكون لهم ما لهم من المواجد ، والأذواق ، والأحوال ، فاذا هم يفتحون من الفن آفاقا رفافة شفافة ، تتجاوب فيها أنغام موسيقية ساحرة من شعرهم ، وحبهم ، وتفانيهم .. فاذا مصر تقدم فى هذا الميدان الصوفى ، المحب ، الشاعر :

ابن الفارض — ت ٦٣٢ هـ — الذى يوضع فى الطبقة الأولى ، من أصحاب الشعر الصوفى ، بما فى كثير قصائده من جمال النظم ، ورقة الأسلوب وأناقته ، وقوة الروح، وعمق المعنى ، مما يقول الباحثون المحدثون عنه : انه من البعيد أن يكون عملا تنبهيا ، بل هو نتيجة لوحى أحوال الوجد الصوفى ، الذى يشابه ما يسمى فى عرف علم النفس الحديث « الكتابة الآلية » .

وكذلك قدمت البيئة المصرية العنصر الفنى ، الفعول بالألباب ، يمتع التصوف ذى الحب الالهى المتفانى .. ولا أمعن من هذا فى الروحية .. ولا أدل منه على ما أشرنا اليه من روحية مصر .. فى الاسلام .

* * *

والحديث عن التصوف جدير بأن يضع القارىء فى جو من التسامح الوديع ، يشعره بجوهر التدين ولبابه ، ويشرف به على الوحدة الدينية ، التى سمعنا القرآن نفسه يقررها فى قوة وجلاء — ص ٥٣٠ —

وفى هـذا الجو يتمثل القـارىء كذلك شخصية مصر واضحة القسـمات ، جليـة المعارف ، تعبر الأجيال ، وتمضى فى التاريخ بخطى ثابتة ، وطيدة ، متسقة .. فهى فى تاريخ الرهبنة المسيحية ، أو الرهبنة العالمية ، هى هى فى تاريخ التصوف الاسلامى ، أو التصوف العالمى .. هى فى كليهما بيئة صالحة — بقوة التدين التى استقرت فيها منذ قديم الزمن — لانعاش التجرد الروحى ، والتبتل النفسى ، والخشوع القلبى ، واستشفاف أسمى معانى التـدين وأنبل أغراضـه .. وبين الترهب والتصوف مشابه شاخصـة ، بل مسـالك واصلة ، لا يسهل على النظر الثاقب تجاهلها أو تناسيها .. وللقـول فى مثل هـذا مكانه الخـاص .

ويتغير الحـال بالرهبنـة ، على الزمن وأحداثه ، كما يتغير بالتصوف كذلك ، فيكون فيهما من السوء والفساد ما يكون .. وتشقى منهما الحياة بما تشقى به .. وهو ما قد نشير الى شيء منه فى الكلمة عن الدين والمجتمع المصرى .

وفى الذى أجمل عن روحية مصر .. فى الاسلام ما يهيىء لاشارات عامة كذلك عن :

حيوية مصر .. فى الاسلام

ففى هذه البيئة التى قاد حياتها الايمان بالبعث .. وفسر تاريخهـا هـذا البعث دينا يعتقد ، وفلسفة تتوارث .. فى هذه البيئـة تكون الحياة الدائمة المتصلة واقعاً شاهدا ، وفكرة سائدة .. وأنت واجد ذلك فى قرب قريب ، ووضوح سافر ، يشخص أمامك حين تمر بذاكرتك شريطا تاريخيا سريعا ، لمعالم الحياة فى مصر ، منذ تقـدمت سكان هـذا الكوكب ، ترتاد طريق الحضارة ، الى الساعة التى أنت فيها .. فسيبدو لك جليا أنها كانت دائما على مسرح هذا التاريخ ماثلة ظاهرة .. لم تختف عنه لحظـة ما ، كما اختفت أمم قديمة ذات يد على الحضارة ، بعد ما لعبت دورها القصير أو الطويل ، فاليونانيون .. والفينيقيون .. والأشوريون .. الكلدانيون .. وسواهم قد قاموا بنصيبهم من المشاركة فى الحياة ، ثم شملهم ظلام غامر ، حجبهم عن الأنظار ، فخفتت أصواتهم ، وفتر نشاطهم ، فاذا بلادهم أقاليم مهملة ، أو مناطق مستعمرة ، لا تنهض فيها دولة ، ولا يتميز لها كيان .. على حـين ترى مصر فى قـديم التـاريخ ، ومتوسطه ، وحديثه ، تقدم للدول المجـال الحيوى الصالح المسعد على الثبات والنهوض ، فى مصر .. ولمصر .. وباسـم مصر .. فتراها يوم كانت تحمل مشعل الحضارة : دولة واحدة تنافس أمهات العواصم ، التى دارت حولها الدنيا .. لا يفترق حالها مع روما ، عن حالها مع بغداد ، ولا يتغير عن مركزها مع الاستانة .. يعوذ بها البراطرة .. ويحتمى الخلفاء .. ويعتز السلاطين ، ويجد الطامحون من الفرصـة للاسـتقلال المتفرد عن العاصـمة الكبرى

ما يهيىء لهم الدولة القوية ، والمغالية الناجحة ، ويجرى الأمر فى ذلك على نسق متماثل ، بل يكاد يكون موحدا فى صميمه .. « فابن طولون » والخلافة فى بغداد فى القرن التاسع الميلادى كمحمد على وخلافة الاستانة فى القرن التاسع عشر ، ترسم البيئة لأهدافها سياسة متماثلة .. تنهض بهم مصر ، وينهضون هم بمصر ليساموا الخلافة الكبرى ، ويرابوا منها ما انصدع بيد مصر .. فأنت واجد دائما ، وعلى مر الأيام ، وفى كل حين « مصر » فى الميدان التاريخى ، والملعب الحيوى لاعبة مرموقة ، فعالة مؤثرة .. دائمة الحيوية ..

وتلك الحيوية الزاخرة هى التى نحاول أن نلمح أشعتها الدافئة فى حياة الاسلام بمصر .. ونقدر — بين يدى ذلك — ما فى طبيعة التدين من ميل الى المحافظة ، وجنوح الى الثبات ، ونفور من التغير ، بل شبه انكار للتطور .. ولكننا واجدون مع هذا فى الاسلام انبعاثا حيويا ، يتطلع لاستئناف النشاط ، وتجديد النظر ، واستدامة النماء ، واسعاف الحياة بالتطبيق الجديد ، والتصرف المرن ، الذى يحفظ للأصول الحيوية صلاحيتها ، ويقيها من عوامل التجمد والجفاف — وهذا هو ما يشير اليه حديث ، « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها .. » أو ما فى هذا المعنى .

وهو تعبير عن تلك المحاولة المرنة التى عاشت فكرتها فى العالم الاسلامى ، وأعانت المصلحين على شق الطريق للتيار الاسلامى الجارى مع الأجيال .

فى حياة هذه الفكرة التجديدية تجد مصر — كدأبها — مشاركة بحيويتها ، حاضرة بانبعاثها ، الذى يجدده تدينها المتفلسف ، وتفلسفها المتدين ، وعملها العتيد فى البعث .. ومن أجل البعث ..

فهذا التجديد كل قرن ليس الا صورة من صور البعث الذى آمنت به مصر وعملت له ، فكان من عملها الاسلامى أن قدمت جمهرة من الرجال ، الذين ربتهم وأنضجتهم ، فكانوا مجددى قرون متعددة ، بين أولئك البضعة عشر نفرا ، الذى نهضوا على رأس البضعة عشر قرنا من حياة الاسلام ..

ويبدأ العادون من القدماء ، والمحدثين بعمر بن عبد العزيز ، ربيب مصر ، وساكن حلوان ، ويمضون فيعدون غير واحد حتى تكون الكثرة — أو الأغلبية المطلقة — بلسان اليوم — ممن نمتهم مصر ، وانتسبوا لمصر ، من وجوه رجال الدين — ثم يطمئن المحدثون الى أن يعدوا مجدد القرن الرابع عشر الهجرى فى الاسلام مصريا .. مصريا .. وهو ما نشير اليه حين نحدثك ، عن الحياة الدينية بمصر فى العصر الحديث .

ولا نجد المجال لشىء من التفصيل لفكرة التجديد ، والمجددين المسلمين ، فلهذا مكانه

كذلك — وحسبنا هنا تلك المعالم العامة ، التى تهيىء لمؤرخ الحضارة أن يحدث عن حيوية مصر فى الاسلام ..

ولنمض بعد ذلك الى لمحة من خصائص تدين مصر بالاسلام ، واعتقادها له فنرى :

اسلام مصر .. بلا نحل ولا مقالات اعتقادية

ونحب أن نرد هذا — كما اعتدنا — الى خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، بعد الذى عرفنا ، من ملامح شخصيتها الدينية فنجد أن مصر القوية التدين ، الواسعة الأفق الدينى ، المستشفة لجوهر الدين الذى تؤمن به وروحه — ص٥٣٤ ، ٥٣٥— نجد أن مصر الذى هذا شأنها — كما عرفنا — لم تهش كثيرا للجدل الاعتقادى فى الاسلام ، ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل، وأرباب المقالات الاسلامية .. وقبل أن نمضى فى بيان هذه الظاهرة وتعليلها نقف أمام :

سر تاريخى .. نفتشه .. وذلك ما يذكره بتلر صاحب «فتح العرب لمصر» ، عند حديثه عن مقاومة المصريين لما أراده « هرقل » من حملهم على المذهب الدينى الذى قرره بطاركته ، وانهم تلقوا ذلك بكراهة شديدة .. ثم تفسيره لهذه الكراهية بقوله « .. وقد كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتعلق به نفوسهم فانهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، وأما الاستقلال فى أمر الدين فقد ناضلوا من أجله وجاهدوا فى سبيله ، لم ينثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ مجلس خلقدونية ، وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض لا تغفل عنه قلوبهم ولا يحجمون عن بذل كل شىء فى سبيله مهما يعظم . ذلك هو سر حوادث تاريخهم جميعا ».

هكذا يصل المؤرخ الى أن سر تاريخ هؤلاء المصريين — أو القبط ان شاء — هو أنهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط ، ولعلهم لم يحلموا يوما بمثل ذلك الأمل ، وانما عرفوا الاستقلال الدينى ، وناضلوا من أجله ولم يحجموا عن بذل أعظم شىء فى سبيله .

ونقول للسيد المؤرخ : انها شنشنة لقومك معروفة .. فسرتم بها تاريخنا تفسيرا ضالا مشوها مغرضا مفسدا .. تزعمون به أننا لم نعرف هذا الاستقلال القومى منذ آخر عهد الفراعنة .. ولم نحكم نفسنا منذ ذلك العهد .. ولم .. ولم .. مما افتريتم وجاراكم فيه سذج منا ، لعلهم حتى اليوم ، وبعد ذهاب ريحكم يرددونه .

وانكم بذلك لتنكرون خاصة ظاهرة جلية من خصائص هذه البيئة المصرية ، وتلك هى صلاحيتها بتكوينها المتميز المتحيز ، المتجدد ، المحوط بفواصله من الصحراء والماء ، لأن تكون مهدا للوجود المستقل ، والدولة المتفردة ، والقومية الشاخصة..وبهذه الخاصة الفطرية الطبيعية ، وما تكسبه لأهلها

من خصائص معنوية وفنية تهيأت لقيام الدول ذات الشخصية فى ابان قوة الأمم التى اتصلت بها ، وناوأت — كما أشرنا — آثينا وروما ، وبغداد ، والقسطنطينية .. وكانت متفـردة عاليـة الرأس فى كل الامبراطـوريات التى وصلت حبلها بها ، وظلت على مسرح التاريخ لم تختف منه أبدا ، بل لم تسقط عليها ظلال مّا تقلل الأضواء على قسماتها ومميزاتها .

فحديث التاريخ الصريح : ان مصر بيئـة استقلال بطبيعتها .. واهلهـا بذلك من أكثر الناس شعورا بهذا الاستقلال .. وليس هـذا العناد الذى وصف « بتلر » منـه روائع فى المقاومة ، الا لونا من قوة تلك الشخصية التى لا تتجزأ .. ولا ينفصل منها جانب عن جانب.

وحديث غير المصريين من الحاكمين بمصر ليس الا سـذاجة وغرارة أو هـو تغرير بالسامعين ، لأن تلك العهود لم تعرف القومية الاقليمية ، والوطنيـة المحليـة .. بل كانت تطويها وتشملها عصبيات من غير هذا اللون ، هى فى الأعم الأغلب عصـبيات دينيـة أو سياسية ، تلونها أمة غالبة حينما كانت ظروف الحياة المادية ومواصلاتها تتيح لأمة واحدةأن تحمل شعلة الحضارة .. حتى يهن سـاعدها فتتلقاها أمة أخرى .. فلم يقف المؤرخ «بتلر» بقوله هـذا على شىء من سر تاريخ المقاومة المصرية للمذهب الدينى الوافد ، ولعله بعد وقفتنا هذه أمام زعمه الذى زعم يطمئن الى ما نجد من تفسير لهذه الظاهرة الدينية ، بعد أن نصف عمل مصر الاسلامية فيها ، وتشير الى شواهد عليها .

ففى الحـادث الذى تقدم جاء الخلاف الدينى من القسـطنطينية بأمر « هرقـل » وقاومته مصر مقاومة شديدة ، يمثلها ما يروى من أمر أحد رجال المسيحية فيها ، اذ يعذب بالقاء المشاعل ، وتسليط نارها على جسمه ، حتى يسيل دهنـه من جانبيه الى الأرض ، ولكنه لم يتزعزع عن ايمانه ، فخلعت اسنانه، ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل ، وحمل فى البحر ، حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضوا عليه الحياة اذا هو آمن بما يعرضونه ، وفعلوا ذلك ثلاثا ، وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر ، فمات غرقا ... !

ولك أن تجد فى هذا مبالغة ، أو كثيرا منها ، بل لك أن تعده مختلقا .. لكن له على كل حالة دلالته النفسية والاجتماعية ، بما فيه من تعبير الذين صاغوه أنفسهم عما يجدونه من شعور دينى ، يقتضى المؤمن مثل هـذه المقاومة العنيدة ، ويتجسم هذا الشعور فى تعقيب راوى خبر هذه المقاومة بقوله بعدها : ولكنهم بفعلهم هذا لم يقهروا « فلانا » الذى مات شهيدا ، بل قد غلبهم هو بصبر الايمان المسيحى .. !

ثم يمضى أكثر من مائتى عام ، وتتجدد

الأحداث فى الميدان الدينى بمصر فاذا الليلة أشبه بالبارحة ، فهذا المأمون شبيه « هرقل » فى فرض مسألة اعتقادية ، هى قضية خلق القرآن المعروفة التى تطول وتتجدد بعد عصره ! ويكتب الخليفة الواثق الى الولاة بالامتحان فيها ، كما فعل المأمون ، ويجىء الأمر الى والى مصر ، بامتحان البويطى الفقيه الصعيدى، أكبر أصحاب الشافعى، ت ٢٣١ هـ — .. وامتحنه الوالى : فلم يجب ، وقرر المخالفة ، وكان الوالى حسن الرأى فيه فيقول له : « قل فيما بينى وبينك » ، فيرد عليه البويطى : انه يقتدى بى مائة ألف لا يدرون المعنى !! : ثم يحمل البويطى من مصر الى بغداد ، على بغل ، فى أربعين رطل حديد ، هى غل فى عنقه ، وقيد فى رجليه ، وبين الغل والقيد سلسلة ، فيقول : لئن أدخلت عليه — يعنى الخليفة — لأصدقنه ولأموتن فى حديدى هذا حتى يأتى قوم يعلمون أنه قد مات فى هذا الشأن قوم فى حديدهم . ويسجن فى هذا الحديد وقد عجز عن أداء الفرائض من الطهارة والصلاة ، اذ كان مقيدا الى أنصاف ساقيه ، مغلولة يداه الى عنقه ، ويموت البويطى فى سجن بغداد ، فى القيد والغل ، كما مات أخ له ذو دين فى البحر قديما ..

وما نشك فى أن ناسا كانوا يفتنون بمثل هذه الاضطهادات ، وينزلون على ارادة أمثال « هرقل » « والمأمون » لكن الذى يلفتنا هنا هو الحال العامة ، وان مصر لا تلجج فى النزاع الاعتقادى ، ولا تتولاه بتأليف أو كتابة تنبىء عن رواج ، وحسن تقبل ؛ بل تعارضه مثل هذه المعارضات المسرفة فى التحدى ، على نحو ما سمعنا فى حادثين ، من دينين مختلفين ، فى زمانين متباعدين ، يؤكدان أن للبيئة فى هذا ميلا خاصا ..

ولو نظرت النظرة الجامعة الى موقف مصر من مقالات الاسلاميين الكلامية على اختلافها لخرجت بالنتيجة التى صدرنا القول بها ، وهى عدم الاقبال فى اسلام مصر على هذا الجدل الاعتقادى .. وعدم رواج النحل الاسلامية فى مصر ، مهما تشتد عناية المسلمين بها فى غير مصر .. ومهما ينصبوا للتأليف فيها، والخصومة حولها ومهما تساعد الظروف العملية السياسية أو غيرها على رواج هذه النحلة أو الفرقة أو المقالة ، ومهما تظفر فعلا بشىء من ذلك فى مصر ، تحت تأثير العوامل المختلفة فانها لا تلبث أن تفتر ، ولا تترك من الانفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة ، فى المقالات الكلامية ، أو يجعلها وطنا خاصا لفرقة من الفرق ، كما كانت ايران مثلا مركز التشيع قديما وحديثا ، أو كانت اليمن موطنا خاصا للزيدية .. أو ما الى ذلك .. بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع ، والكلمة الشاملة ، أى بالجوهر الخالص ، واللباب من الدين .. وكانما تحول سعة أفقها الدينى دون

الاندفاع الحاد ، والتحزب المتطرف لفرقة دينية دون فرقة .

ولعلنا واجدون فيما يلى من قول عن النظرة المصرية فى الأمور العملية ، والنظم القانونية الفقهية ما يؤيد هذه السعة الفسيحة فى الأفق .. والرحابة السمحة فى ادراك هذه الشئون الحيوية والتدبير لها .. وعدم الاطمئنان الكثير الى الافتراق المذهبى فيها ..

* * *

وفى عرض موجز عابر ننظر الى بعض الفرق الاسلامية فى البيئة المصرية ، وما كان من أمرها .. مختارين لذلك أولا :

نحلة ذات صفة سياسية واضحة ، هيأت لها الحياة العملية من أسباب التأثير القوى قدرا كبيرا فخدمت السياسة دعوتها ، وعملت القوى الحكومية على نشرها وحمايتها بمختلف وسائل الترغيب والترهيب ، وتلك هى :

التشيع : فقد جاء مصر أصله وجذره المسمى « ابن سبأ — مهما تكن شخصيته — حين طورد فى خارجها ، فاستقر بها وجعل يعمل لما يعزى اليه من توهين الاسلام ووحدة المسلمين بمختلف الوسائل .. ومن ذلك حديثه عن وصاية على ، وأخذ عثمان الخلافة منه بغير حق . فكان لمن بمصر نشاطهم ضد عثمان — كما هو معروف — واتجه الاهتمام الى التشيع لعلى — لكن مشاطرة عمرو بن العاص لمعاوية ، واطعام معاوية عمرا مصر جعل الأمر يستقر لمعاوية والعثمانية ، ويخف صوت التشيع .. ويتظاهر الناس بسب على..

ثم بسقوط الأموية خمدت العثمانية .. وفى عهد العباسيين كان يخرج بمصر علويون، أو كانوا يظاهرون الخارجين على أبناء عمهم العباسيين ، فتكون النتيجة هى اخراج العلويين من مصر الى العراق ، غير مرة .. ويضطهدون فيخرج الأمر فى مصر بألا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن يمنع العلويون من اتخاذ العبيد ، الا العبد الواحد .. وأن من كان بينه وبين علوى خصومة يقبل قوله فى العلوى ولا يطالب ببينة .. الخ .

ثم يجىء العصر الطولونى فيثار الحديث عن أفضلية أهل البيت وينقسم الناس بشأنه حتى يرجح القول به .. فيقوى أمر الشيعة بمصر شيئا ما .. لكن لايستمر ذلك ولا يزداد .. ففى منتصف القرن الرابع الهجرى يهيج السودان على الناس منكرين ذلك ، مشتدين فيه ، حتى ليسألون الذى يلقاهم فى الطريق : من خالك ؟ .. فان لم يقل : خالى معاوية بطشوا به .. وكان فى مصر من يهتف على باب المسجد يوم الجمعة معاوية خالى ، وخال المؤمنين ، وكاتب الوحى ، ورديف رسول الله — عم — .. وكان المتشيعون يعذبون ..

ويبث الفاطميون من الغرب دعاتهم ؛ ويجدون فى مصر تلك البيئة التى تقوم بدولة

متميزة فينقلون اليها دولتهم الجديدة من المغرب ، وتستقبل مصر عهدا من التشيع السياسى ، تدبر الدولة فيه للدعوة المتشيعة الخاصة بأولئك الفواطم تدبيرا فسيح المدى ، عميق الأساس ، معانا من المال والرجال ، بمثل ما تبذل اليوم وزارة الدعاية الحديثة أو بأكثر منه .. وحديث التاريخ عن رجال الدعوة ، ونظمها وخطواتها ، والسرى منها والعلنى .. الخ مما يستهلك وصفه كتبا لهم ، وكتبا عنهم.

وهكذا يسود التشيع فى مصر ، ويجرى العمل على الفقه الشيعى ، فمثلا : لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ، ولا عم ، ولا جد ، ولا ابن أخ ، ولا ابن عم .. لأن فى ذلك عداوة لفاطمة بنت الرسول — عم — .

ويمتد ذلك الى الأعمال العادية فى حياة الناس الخاصة فيصدر مرسوم حكومى بتحريم بيع شربات الشعير ، وضرب من يبيعه لأن عليا كان يكرهه ، والى مثل هذا ترجع نزوات الحاكم بأمر الله فيما كان يصدر من الأوامر بتحريم الطعام أو الشراب ..

وبدل أن كان يسب علىّ على المنابر يكتب سب الصحابة على أبواب المساجد ، وفى داخلها ، وعلى الدكاكين بل على المقابر وفى الصحراء ، ويلون ذلك بالأصباغ ويذهّب بالذهب .

وبانتهاء الدولة الفاطمية يتبخر كل هذا ، ولا يمضى كثير من الزمن حتى تنبش قبور خلفائهم التى كانت فى مكان خان الخليلى ، وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وتحمل عظامهم على الحمير لترمى فى المزابل . وتلك نهاية مقالة اسلامية سياسية أيدتها قوى الدولة ، وأتيح لها من أسباب التشجيع والانتشار ما لعله لم يتح لمقالة أخرى من مقالات الفرق الاسلامية .. ولكن مصر فيما رأينا لا تتشبث بمثل هذا ، ولا تعده شيئا فى التدين ..

ويزيد الأمر بيانا أن نلمح فى سرعة لونا آخر من ألوان النزاع الاعتقادى غير السياسى فى أصوله وهو :

الاعتزال : فانه مقاله كلامية ، فلسفية ، ليست سياسية فى أساسها كالتشيع ، وان انغمست عمليا فى السياسة بعد .. والاعتزال — كما نعرف — قد هز أركان الحياة العقلية الاسلامية بدعوته الى احترام العقل ، وتمكينه من النظر ، كما هز أركان الحياة الاسلامية العملية مدى طويلا ، اذ جعل الخلفاء قضاياه عقائد يلزم الناس بها ، ويضطهدون أقسى اضطهاد لمخالفتها ، كما فعل المأمون وخلفاء بعده فى مسألة خلق القرآن ، التى هى فكرة اعتزالية ... قاسى الناس بسببها العنت الكثير ، وكان منه فى مصر ما سمعنا قريبا من أمر البويطى الفقيه الصعيدى . حتى سميت فى التاريخ بحق « محنة خلق القرآن » .

ونسأل ماذا كان أمر هذا الاعتزال فى مصر فنعرف أنه كانت بمصر ، فى حين ما حلقه للاعتزال تحدث عن خلق القرآن ، لأن

السياسة قد تدخلت فيه .. وقد جاءت المقالة الى مصر من الخارج .. وفيما وراء ذلك تشعر أن الاعتزال لم يأخذ فى مصر أهمية تقاس فى شيء الى ما كان له فى بغداد ، وغيرها من ضجة .. وتأليف .. ومؤلفين .. وخلافات .. ومجادلات .. وكذلك تثبت مصر اسلامها .. بلا خلاف اعتقادى هام — ولا فرق .. ولا مقالات رائجة .

* * *

والجدل الاعتقادى فى الاسلام انما كان صدى من أصداء الصناعة المنطقية ، وضربا من عدوى الفلسفة الميتافيزيقية النظرية ،التى تلقاها العرب عمن قبلهم ، وكانت فى تقدير بعض المقدرين مشغلة للقوم عن النزوع العملى الجاد ، وسواء أكان الرأى الحق انها كذلك ، أو لا ، فان صلة علم الكلام الاسلامى بالفلسفة قوية واضحة .. ومن هنا تشعر أن صدوف مصر عن الجدل الكلامى ذو صلة — الى حد غير قريب — بنظرها الى الفلسفة ، وقلة نشاطها فى ذلك .. ولبعض القائلين تعليلات فى هذه الظاهرة تستحق المناقشة — ولكن ليس من عملنا الأول هنا أن نؤرخ لمركز مصر الفلسفى ، فى العصر الاسلامى .. فنترك ذلك كله للناظرين فى الحياة العقلية ، من هذا التاريخ الحضارى ، شاعرين بأن نظرة مصر المسلمة الى الفلسفة لم تكن نظرة الحفي بها ، ولا المهتم .. ولذلك سببه من طابع الحضارة المصرية العام .. ومن الظروف الخاصة فى مصر الاسلامية مما يقف عنده المختصون .

وتمام القول فى خصائص اسلام مصر أن نتحدث عن :

مصر .. وراء الخلاف الفقهى

ونعرف أن هذا الخلاف الفقهى فى استخراج الأحكام العملية مما يقتضيه اختلاف طبائع البيئات ، التى عاش فيها المسلمون ، واختلاف عاداتهم ومعاملاتهم .. كما نقدر أن هذا الاختلاف رحمة — كما يقولون — . ولكنا فى الوقت نفسه لا ننسى أن التطلع الى وحدة تشريعية جامعة قد وجد منذ عصر مبكر ، حينما ظهرت آثار هذا الاختلاف التشريعى ، ولا نشير من هذا الى أكثر مما يذكر من سبب تأليف « مالك » لمجموعه الحديثى الفقهى المعروف باسم « الموطأ » وأن طلب تأليفه من الخليفة العباسى الذى طلبه — على اختلاف الرواية فى تعيينه — انما كان تطلعا الى هذه الوحدة التشريعية ، وبرما بآثار هذا الخلاف ، كما يبدو ذلك صريحا فى رسالة « ابن المقفع » المعروفة برسالة الصحابة .. وفى الحوار بين الخليفة ومالك .. ورغبة الخليفة فى حمل الناس على الموطأ ..

وهذا التطلع الى وحدة مركزة فى التشريع الاسلامى قد أيدت حوادث التاريخ بعد ذلك حسن أثره ، اذ كان بين الفقهاء من سبعة

الخلاف وعنفه ما كان مما رأينا معــه تنابذ القوم وتناحرهم بقسوة ، من كل منهم على صاحبه ، قسوة لا نشغل القارىء فى هــذا الموجز بشىء من تفاصيلها .. وخلطهم الفقه بالكلام أحيانا فكانت الفتن بين الشــافعية والحنابلة .. وفرق كل ذلك كلمة المسلمين ، حتى شعر أبناء عصرنا هذا بالحاجة الماســة الى التقريب بين المذاهب ، وكانت لهــم فى ذلك التقريب محاولة تأخذ طريقهــا .. كما اشتغل بعض العصريين بجمع ما سموه الفقه الموحد .. يرجون رجوع المسلمين كلهم اليه .

وكل أولئك كاف لبيان الآثار الاجتماعية غير المحببة للمذهبية الفقهية ، واعتبار الشعور بضررها فى العصور الســابقة ضربا من دقة الايمان وسلامة الفطرة ، ونقاء التدين .

وبعد هذا البيان نستطيع أن نقدر عمل مصر فى هذه الناحية اذا ما وصفنا موقفها من الخلاف الفقهى .

* * *

وما عرفنــاه عن الســلوك المصرى فى الخلاف الكلامى يهيىء للرأى فى شعور مصر نحو الخلاف الفقهى ، منذ أول شيوع لهذا الخــلاف ..

لقد عرفت مصر المذهب المالكى ، لتقدمه، وصلته بدار الهجرة ، ثم وفد عليها الشافعى فى القرن الثانى الهجرى ، وقد أصــاب من فقه الرأى حظا بتلمذته على محمد بن الحسن الشيبانى ، وصيرورة كتبه اليه ، لتزوج محمد أم الشافعى ، فكان له حظه من النظر والنقاش، الذى لم يعرف قبــله بمصر .. وقد شــعر المصريون بما لهذه الوفادة من خطر الفرقة ، فكان قاضى مصر اذ ذاك يصيح بالشافعى : ويقول له : يا كذا .. دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا ، وألقيت بيننا الشر ، فرق الله بين روحك وجسمك .. ومهما يكن لقول هذا القاضى من أسباب شخصية أو غيرها فانه يدل على رغبة البيئة فى هذه الوحــدة فى الأمر والرأى .. وعلى أن افسادها مما يعاب به فاعله .

ولعله لشىء من ذلك لم ينتشر المذهب الحنفى بمصر ، لأنه فقه الرأى الواضح ، وان كان المقريزى يعلل ذلك بأن مذهب أبى حنيفة ابطــال الأوقاف ، فثقل أمره على أهل مصر وسئموه .. وهو تعليل غير كاف وحده لأن صاحبى أبى حنيفة لا يبطلون الأحبــاس ، والعمل قد جرى على قولهما ..

وفى كل حال فقد هيأت الشخصية المصرية التى عرفنا خصائصها لكراهية الجدل ، فى أى لون ما ، ويزيد تلك الكراهية وضوحا عند هذه الشخصية ما نقله الينا التاريخ من شعور الفقهــاء بعد تفشى الاختلاف وتأصله بأن التوفيق الموحد لهذه المذاهب المختلفة نعمة يقوم بها فقيه جليل ، رشحوه هم من فقهاء مصر البارزين ، ففى مطلع القرن الســابع الهجرى جلست بمكة طائفة من العلماء يقولون لو قدر الله تعالى بعد الأئمة الأربعة فى هذا

الزمان مجتهدا عارفا بمذاهبهم أجمعين يركب لنفسه مذهبا من الأربعة بعد اعتبار هذه المذاهب المختلفة كلها لازدان الزمان به ، وانقاد الناس له ، فاتفق رأيهم على أن هذه الرتبة لا تعدو الشيخ تقى الدين السبكى ، ولا ينتهى لها سواه ، والسبكى هذا هو الذى انتهت اليه رياسة العلم بمصر ، وقالوا : ما جاء بعد الغزالى مثله ، فقال الصفدى : انهم يظلمونه بهذا ، وما هو عندى الا مثل سفيان الثورى .. ولعل العلماء رشحوه لهذا التوفيق المصلح لأن نزعته نحوه معروفة ...

واذا لم يكن هذا الميل الى التوفيق مصريا فقط فى هذا الشاهد فانا لنجد هذا الميل المصرى للتوفيق ، بل الدعوة اليه يتجه اليها صوفى مصرى بلدى السبكى المنوفى هو الشعرانى المنوفى أيضا ، وهو أصيل فى الفقه فوق كونه صوفيا من الطراز الأول وقد حاول التوفيق بين المذاهب الأربعة ، كمحاولته التوفيق بين أهل الكشف والعيان وأهل النظر والاستدلال ، ويقول الباحثون الغربيون : انه مصلح يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا .. وحسبنا به تزكية لميل البيئة المصرية الى هذا التوفيق الفقهى ، الذى لا نسمع فيه لهذه العصور صوتا أجهر من هذا الصوت ..

* * *

وبذلك يبدو اسلام مصر متسق الجوانب ، متماسك الأجزاء : فى روحيته التى قادت التصوف .. وفى ايمانه الذى لم يهش للجدل .. وفى فقهه الذى ارتفع عن الخلاف المذهبى المفرق .. ودعا الى التوفيق الموحد منذ بضعة أجيال .. وحاوله فعلا .. وكل أولئك يؤيد ما تمثلناه من ملامح الشخصية المصرية الدينية .. فى عمق تدينها .. وسعة افقه .. وادراك الجوهر الصافى للدين ..

* * *

على أنا حين نلتمس الدلالات الاجتماعية العليا لموقف مصر من المذاهب الفقهية ، ونظرتها الى الاختلاف والتحزب لا ننسى مع كل ذلك ان هناك عوامل سياسية واجتماعية وغيرها تؤثر فى انتشار المذاهب الفقهية وشيوعها ، فتستقر مذاهب غير قليلة فى مصر ، أو يسود مذهب منها لمثل هذه الاعتبارات .. أو تقدم البيئة المصرية العلمية أعيانا ووجوها من علماء المذاهب المختلفة .. أو يكون فى مصر قضاة ممثلون لتلك المذاهب على اختلافها .. فذلك كله وما اليه لا يؤثر على ما اطمأننا اليه ، من تشوف الروح المصرية الاجتماعية الى تلك الآفاق العليا ، والغايات البعيدة من الترفع على الخلاف ، والدعوة الى الوفاق ، فى الأصلين الاعتقادى والعملى ، مما سمعناه عن كلامها وفقهها .. ولا تأثير لهذا على ذلك ، ولا ابطال لهذا بذاك .. وليمض مؤرخو الفقه مثلا الى وصف جهود مصر وأثرها فى حياة المذاهب الفقهية المختلفة ، مع كل هذا الذى يقرره التاريخ الحضارى فى نظرته التكاملية العامة .. ولكل وجهته .

والآن وقد تبينا اتجاه مصر ، وآمالها فى الحياة الاسلامية الاعتقادية ، والحياة الاسلامية العملية وما نمته بيئتها ذات الطابع المتميز الواضح .. الآن نشعر بضرورة توجيه مثل هذه النظرة الكلية الشاملة الى :

الاسلام .. والمجتمع المصرى

الشعب :

هذه العصور التى نتحدث عنها من القرن السابع الهجرى الى قرابة القرن الثانى عشر الهجرى أيضا عصور تسود فيها النزعة الدينية ، وتسيطر الروح الدينية فى توجيه الحياة وتدبيرها .. ومصر هذه بخاصة قد عرفنا لها هذا النزوع الدينى القوى ، وذلك التعمق الروحى فى التدين فلا غرابة فى أن يكون الدين فى تلك العصور مسيرا قويا للشئون السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها .

* * *

وقد كان المجتمع المصرى يتألف من مسلمين ، وذميين ، من أصحاب الديانات السماوية الأخرى ، كالنصرانية واليهودية .. ودون أن ننظر الى نظام الذمة النظرى فى الاسلام ، ومدى انسانيته ، نستطيع أن نقرر فى ثقة أن النظام الاسلامى للذمة لم يكن دائما وفى كل حين هو النظام الواقعى الفعلى فى الحياة ، اذ لابد من وجود الفرق — رغم كل شىء — بين المثال المتمثل ، والواقع المتحقق.. والتاريخ الحضارى انما يلتمس وصف سير الحياة الفعلى ، وان لم يبخس التنظيم المثالى حقه ، فى الدلالة على حسن استعداد منظميه.

وبملاحظة الواقع العملى نجد أعمالا مختلفة : بعضها لا يحقق المثال الاسلامى لحياة الذميين ،وبعضها يحاول أن يحمى المثل الصحيح الذى أراده الاسلام .. فحينا يعتسف وال مسلم فيهدم الكنائس المحدثة مثلا .. وآنا يأذن وال آخر ببنائها ، بمشورة الفقهاء أو القضاة الخيرين ، الذين يحتجون بأن بناء الكنائس من عمارة البلاد ، وأن الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام زمن الصحابة والتابعين .

واذا ما قدرنا أن حكومات هذه العهود لم تكن تفكر فى شىء من اصلاح عقلى أو اجتماعى ، للشعوب المحكومة الا بقدر ما تسير الأمور ويستقر النظام ، وأن الأعمال الاصلاحية الاجتماعية كانت نشاطا فرديا شخصيا من تفضل الخيرين ، يتقربون به الى الله .

ثم اذا ما قدرنا أن حكام هذه العصور أيضا لم يكن لهم من سعة الأفق وبعد النظر ما يفهمون به المعانى الدينية السامية أو يتشربون روح التسامح الذى توجيه نظرة الاسلام الى الوحدة الدينية الانسانية مثلا ... وكان العامة اغمارا جاهلين يدركون من التدين معناه القريب ، ويرون المخالف عدوا محاربا ، وضالا مضلا ، والحكام فى حاجة الى ترضيهم اذا شغبوا على أهل الذمة أو بطشوا بهم ، ثم الحكام أنفسهم — كما قلنا — ضيقوا الآفاق..

والى جانبهم علماء ، منهم من كانت تنقصهم تلك السماحة الروحية .. وبكل أولئك يقع ما يقع من ارهاق أو اعنات للذميين بالزامات قاسية ، وتشريعات خشنة ، دفعت اليها طبيعة الحياة اذ ذاك وروح العصر نفسه .

وهكذا يتردد الأمر بين تسمح يولى الذميين من النصارى واليهود مراكز رئيسية فى الوزارة والادارة .. وتعنت يضطهدهم ويتطرف فى ذلك .. فلا يستطيع المنصف أن يتخذ من التسمح الأول صورة لحياة هؤلاء الذميين فى المجتمع المصرى لعهد من العهود ، أو فى العهود جميعا .. كما لا يستطيع أن يتخذ تلك الصورة لحياة الذميين فى المجتمع المصرى من الاضطهاد الذى قد تمارسه قلوب قاسية شرسة ، وتقشعر الأبدان من فظاعتها .. ولعل الانصاف أن يقدر المؤرخ الحضارى الدرجة التى يقف فيها هؤلاء الناس — حكاما وأفرادا — من سلم الرقى الانسانى .. ويدرك أنهم لم يكونوا يستطيعون أن يرتفعوا على آفاق عصرهم ، ويطفروا الى درجة فوق الدرجة التى أهلهم زمنهم للصعود اليها .

والحق الذى ينبغى أن تنتهى اليه اليوم هو عدم التكثر فى ادعاء الانصاف دائما .. مع عدم التجنى فى المؤاخذة بالاعتساف دون تقدير الظروف المخففة .. ولو قدرنا أن السياسة لا قلب لها .. وان الملك — كما قالوا — عقيم .. وأن هؤلاء الحكام فى معاملتهم للمسلمين أنفسهم ، بل فى معاملة أعضاء الأسرة الحاكمة منهم بعضهم بعضا ، قد كانوا يقسون بل يتوحشون ، لرأينا ما يقضى به الواجب الاجتماعى علينا من الحكم المنصف الذى يهب أخطاءهم لعصرهم ومستواه الانسانى .. ولا يحمل ذلك للدين فى نظامه النظرى وروحه الاجتماعية .. ولا يثير به شيئا فى الأنفس اليوم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ولا يسأل عن أخطائها دين أو نظام .. بل يفسر تصرفها مستوى الحياة لعهدها ، ودرجة الشعور بالمعانى الانسانية فى أيامها .

وعلى كل حال فقد كان العنصر الاسلامى فى المجتمع المصرى يقدر العنصر المسيحى بخاصة ، ويعرف عند اللزوم ما له من أثر فى خدمة المصالح المصرية ، عن طريق الصلة الدينية بين مسيحيى مصر ومن حولهم من أصحاب مذهبهم ، كالذى كان فى القرن الخامس من ارسال الخليفة المستنصر بطرك مصر الى بلاد الحبشة بهدية سنية لملكها ، من أجل نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر ملك الحبشة بفتح سد يجرى منه الماء الى أرض مصر ، ففتح ، وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع .. — على ما يروى — .

الحكومة : فى مثل هذا الجو تكون الحكومة تيوقراطية — الى حد ما — فأساس السلطان فيها الأمر الالهى بطاعة أولى الأمر مع الأمر بطاعة الله ورسوله « وأطيعوا الله

وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول » ..

وقد يكون من حكامها — ولاة أو أمراء أو خلفاء أو سلاطين — من هو خير يستشير من حوله ، دون نظام مقرر أو ترتيب ملزم ، مع الأمر القرآنى الصريح بالشورى « وشاورهم فى الأمر » وأنها الشأن الثابت « وأمرهم شورى بينهم » .

وفى هذا الوضع كان العلماء الدينيون ، بطبيعة ثقافتهم وعقيدتهم ، هم الذين يمثلون سلطة الشعب ، لأنهم كما قيل « يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء ».. وهم يعرفون: أن أفضل الجهاد عند الله كلمة حق فى مجلس حاكم ظالم ؛ وهم يعلمون أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى صارت به هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس . وأن تغيير المنكر مأمور به : باليد ، أو اللسان، وأضعف الأيمان أن يكون التغيير بالقلب .

ولكن العلماء المثاليين ليسوا هم الموجودين دائما ، فمنهم — كما رأينا — حتى فى أعصرنا — من يتأول الآية القرآنية « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » بترك الأمر وعدم التدخل . بل منهم من كانوا أدوات ووسائل لتحقيق رغبات الحكام ، وافتائهم بما يريدون ، والتوقيع الكتابى بذلك على ما يطلب منهم الافتاء به .

وفى مصر بالذات قد عرفت لممثلى سلطة الشعب هذه وقفات مذكورة فى مقاومة الظلم، ومواجهة الطغيان ، ففى القرن الثالث رأينا البويطى يريد أن يموت فى حديده ليعرف من بعده أن ناسا ماتوا فى حديدهم ، كما رأينا الليث بن سعد وغيره قبل ذلك يقاومون هدم الكنائس ويرون تعميرها من عمارة البلاد ، وفى القرن الثامن الهجرى نرى بين مؤلفات السبكى كتابا اسمه « كشف الدسائس فى هدم الكنائس » وهو اسم ان دل على شيء فانما يدل على مقاومة رغبة هوجاء فى هدم الكنائس والاستيلاء على ما فيها كما كان يحدث فى الظروف التى أشرنا اليها سابقا .

بل اننا فى القرن السابع الهجرى نسمع العز بن عبد السلام الفقيه الشافعى الجليل — ت ٦٦٠ هـ — يعلم فى مصر والشام : أن المخاطرة بالنفس مشروعة فى اعزاز الدين ، وكذلك المخاطرة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وأن من قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب ..

وقد عرف هذا العالم الكريم بأنه سلطان العلماء وامام عصره بلا مدافعة ، والقائم بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر فى زمانه.. وله فى الشجاعة والمخاطرة ، وتحدى الطغيان مفاخر جديرة بأن تذاع ، وهى من الكثرة بحيث لا نجد لها المكان هنا ، وحسبنا منها واحدة هى : موقفه من أمراء دولة المماليك

الأتراك فى مصر : اذ لم يثبت عنده أنهم أحرار ، بل أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، ومن جملتهم نائب السلطنة نفسه .. فهالهم ذلك واستشاطوا غضبا فاجتمعوا وأرسلوا اليه فقال : نعقد لكم مجلسا ، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ويحصل عتقكم بطريق شرعى .. فرفعوا الأمر الى السلطان ، وبلغ الشيخ أن السلطان أنكر دخوله فى الأمر ، وقال : ان هذا لا يتعلق به.. فغضب الشيخ « عز الدين » ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمير ، ومشى خلفهم خارجا من القاهرة ، قاصدا نحو الشام ، فلحقه غالب المسلمين : لم تكد امرأة ولا صبى ولا رجل لا يؤبه اليه يتخلف ، ولا سيما العلماء والصلحاء والتجار فبلغ نبأ هذه المظاهرة الهائلة الى السلطان ، وقيل له : متى راح ذهب ملكك ؛ فركب السلطان بنفسه ، ولحقه ، واسترضاه ، وطيب قلبه فرجع .. واتفقوا معه على أنه ينادى على الأمراء .. ثم أرادوا ملاطفته فلم يفد ذلك معه وأصر على رأيه .. وفزع هؤلاء الأمراء : كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض !! وقال نائب السلطنة : والله لأضربنه بسيفى هذا .. وركب بنفسه فى جماعته ، وجاء بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده فطرق الباب .. وعرف الشيخ الحال فما اكترث ، ولا تغير ، وقال لابنه الذى وصف له ما رأى : يا ولدى ، أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله .. ثم خرج ، وكأنه قضاء الله قد نزل على نائب السلطنة ، فحين وقع بصره على النائب يبست يده وسقط السيف منها وأرعدت مفاصله ، فبكى ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدى خير .. أى شىء نعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم .. قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : فى مصالح المسلمين — قال : من يقبضه ؟ .. قال أنا .. فتم له ما أراد ونادى على الأمراء ، واحدا واحدا ، وغالى فى ثمنهم ، وقبضه وصرفه فى وجوه الخير ..

فمع كل اعجابنا بهذا الموقف وغيره مما يروى عن حياة العز بن عبد السلام لا نقول الاكما قلنا من قبل عن مظاهر الانسانية ، وأحداث الاضطهاد فى معاملة الشعب ، نقول: اننا لا نستطيع أخذ الصورة الصحيحة لموقف علماء الدين من الحكومة عن مثل هذه المواقف البطولية وحدها .. كما لا نستطيع التقاط تلك الصورة عن مواقف الممالأة والتراجع أمام الحكام .. فلا هناك سلطة مقررة لمعارضة العلماء ، ونهيهم عن المنكر .. ولا هناك ضعف دائم أمام السلطة الحاكمة .. وانما هو مجتمع فى مرحلة مناسبة لعصره : لا حماية مقررة لحقوقه .. ولا اهدار مستمر لهذه الحقوق .. هى نوبات من الصدف والاتفاق .. والجود المتفضل .. لم تشعر الحكومة فيها بواجب فتلتزمه .. ولم يشعر

العلماء فيها دائما شعورا واضحا بحق فيقرروه .. ولا الشعب بين هذين يدرك حقه فيصمم على طلبه .. ويقدم من يقتضيه كما اقتضى الشيخ العز بن عبد السلام أثمان الأمراء الأتراك الحاكمين ، وصرفها فى المصالح العامة — فذلك كما قال ناقلو هذه الحوادث « مما لم يسمع بمثله » .

* * *

الى هنا حدثنا عن الحياة الدينية ، فى سير الحضارة الانسانية بمصر خلال أجيال تاريخها المتوسط عصر الاسلام ، من القرن السابع الهجرى الى مطلع التاريخ الحديث ، فوضعنا بين يدى القارىء — فيما نرجو — الاطار العام ، الذى يحدد ويضبط صور الحياة ، وأحداث الزمن فى هذه العصور ، واضحة الدلالة ، مفسرة الأسباب ، مفهومة الأهداف فى الحياة الدينية ، وجانب من الحياة الاجتماعية بما يؤثر فيها الدين بعامة .. والاسلام بخاصة

ولعلنا بهذا الاطار قد ميزنا صورة مصر المسلمة ، أو صورة اسلام مصر عن غيرها من البيئات الاسلامية الأخرى .. أو عن الاسلام فى تلك البيئات .

... وفى كل حال فالذى قدمناه يهيىء للحديث عن :

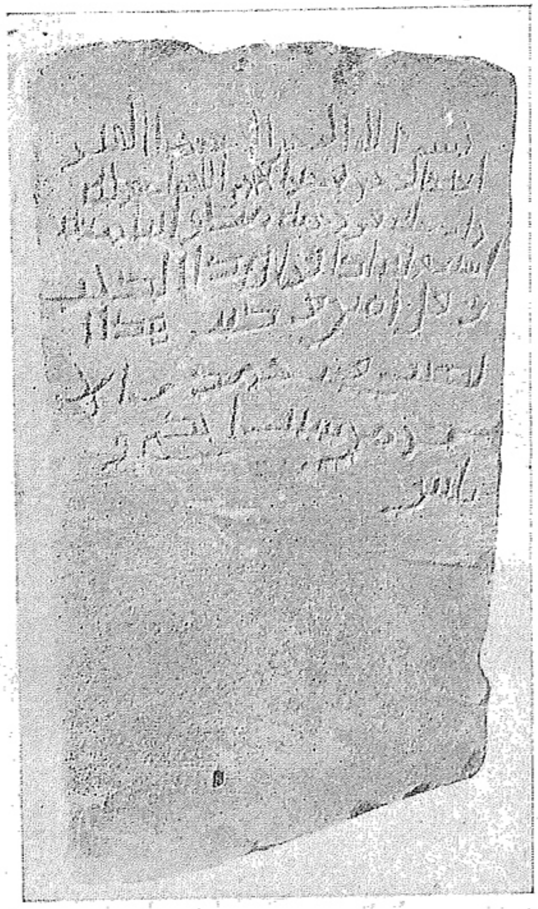
الحياة الدينية بمصر فى العصر الحديث .

الحياة الفنية فى مصر الإسلامية

من الفتح العربى إلى الفتح التركى

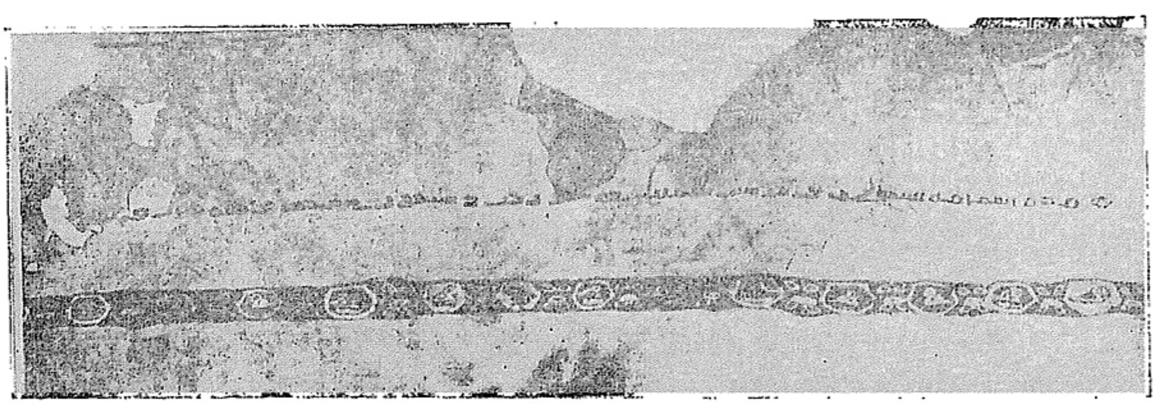
للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

لئن كانت الروح الموجهة للحضارة الاسلامية — وهى الاسلام — قد بزغت أول ما بزغت فى بلاد العرب ثم بدأت تؤتى ثمارها فى البلاد التى أشرقت عليها والممتدة من المحيط الأطلسى الى ما وراء الخليج الفارسى فى بلاد الهند والصين ، الا أن تراث هذه الحضارة قد ضاعت معظم معالمه — بفعل الحروب أو الاهمال أو بفعلهما معا — من كثير من تلك البلاد الا مصر فقد بقى فيها جانب كبير من هذا التراث نشاهده فى مساجدها وكنائسها وفى مدارسها وقصورها وفى خوانقها وقلاعها وأسوارها وفيما تنطوى عليه جوانح متاحفها الاسلامية من تحف منقولة .

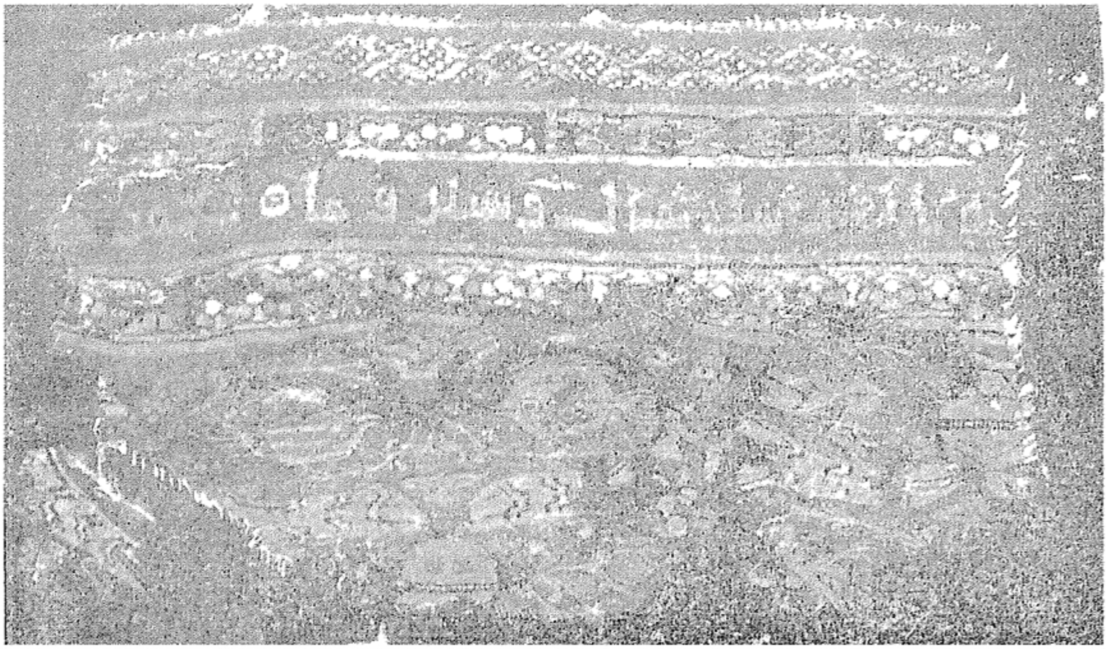


١ - أثر من عصر الخلفاء الراشدين (شاهد قبر مؤرخ سنة ٣١ هـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة) .

وتكوّن هذه الآثار ، سواء ما كان منها ثابتا أو منقولا ، سلسلة متماسكة الحلقات



٢ - أثر من عصر الامويين (قطعة قماش مؤرخة سنة ٨٨ هـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة) .



٣ - أثر من عصر العباسيين (قطعة قماش من مدينة القيس من عصر الخليفة المهدى (١٦٨ هـ) بالمتحف الاسلامى بالقاهرة) .

تنتظم العصور المختلفة للحضارة الاسلامية : ففى مصر آثار من عصر الراشدين (صورة رقم ١) ، وفيها آثار من عصر الأمويين (صورة رقم ٢) . وفيها آثار من عصر العباسيين يوم كانوا أقوياء (صورة رقم ٣) ، وآثار من عصرهم يوم أصبحوا ضعفاء ، وفيها آثار يتجلى فيها قيام المذهب الشيعى وثبات أركانه ، وفيها آثار تنطق باستعادة المذهب السنى لمكانته ونفوذه .

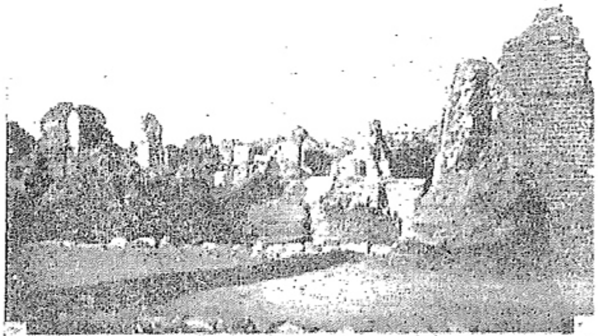
وهذه الميزة التى تتمتع بها مصر دون غيرها من بلاد العالم الإسلامى انما ترجع الى أمرين : الأول أنها كانت بمنجاة من بعض الكوارث التى تعرض لها العالم الاسلامى لاسيما فى جانبه الشرقى ، والثانى أن الشعور بأهمية تراث الماضى قد استيقظ فيها قبل غيرها من البلاد الاسلامية فقامت تكشف عنه ، وتحافظ عليه ، وتقوى ما تداعى منه ، وتكمل ما ضاع من أجزائه ، وتسعى جاهدة لكى تجليه على الناس فى الصورة الرائعة التى كان عليها يوم شيّده أو صنعه المصريون فى العصور الوسطى .

والصفحات القليلة المحدودة لى فى هذا الكتاب لا تكفى لابراز الصورة الكاملة لهذا الجانب الفنى من حياة مصر الاسلامية ، ولكننى سأبذل قصارى جهدى فى أن أرسم لهذا الجانب صورة ان أعوزها التفصيل فى كثير من أجزائها فلا يعوزها الوضوح ، ولعل فى هذه الصورة الصغيرة ما يحفز القارىء الى مشاهدة هذه الآثار ويستهويه الى مطالعة المراجع المطولة التى تعنى بها فيزداد ايمانا بعظمة مصر فى العصور الوسطى ، ويؤمن بأنها قد شغلت نفس المكانة السامية التى شغلتها مصر من قبل فى عصورها القديمة .

العمارة

(العصر ما قبل الطولونى)

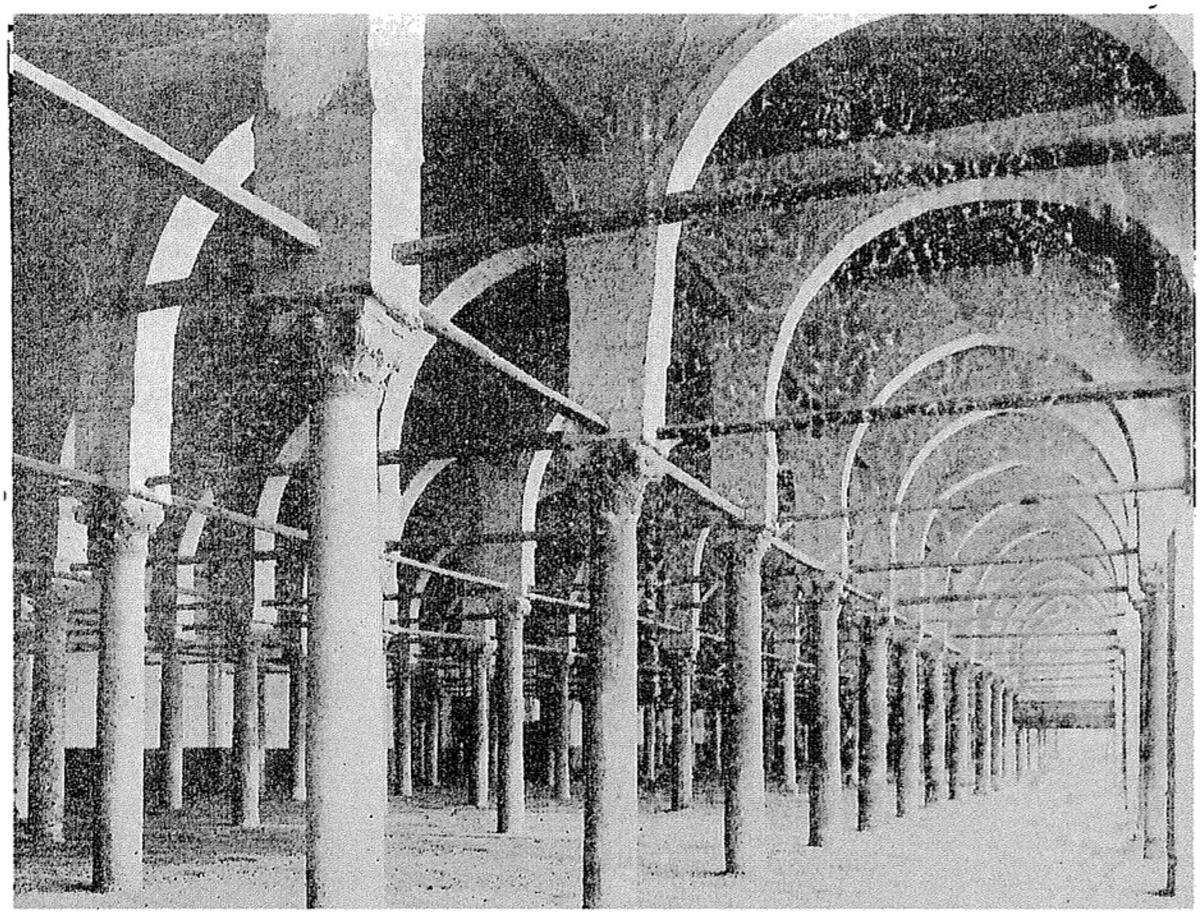
وتعتبر الفسطاط — أولى العواصم التى شيدها العرب فى مصر — نقطة الابتداء فى هذا العرض السريع ، وخرائبها التى كان للمرحوم على بهجت فضل الكشف عنها فى سنة ١٩١٢ تروى لنا فصلا شيقا من تاريخ المدن (صورة رقم ٤) ، فقد بدأت ساذجة ، تنم بسذاجتها عن بساطة منشئيها ، ثم تطورت بمرور الزمن حتى وصلت الى ما وصلت اليه المدن الراقية فى



٤ : الفسطاط أولى عواصم مصر الإسلامية

شكل — ٤

عصرنا الحاضر فقد كان فيها الأحياء الراقية بعمائرها العالية التى وصل بعضها الى أربع عشرة طبقة ووقف بعضها عند سبع طبقات حيث أنشئت حديقة غناء Roof-garden

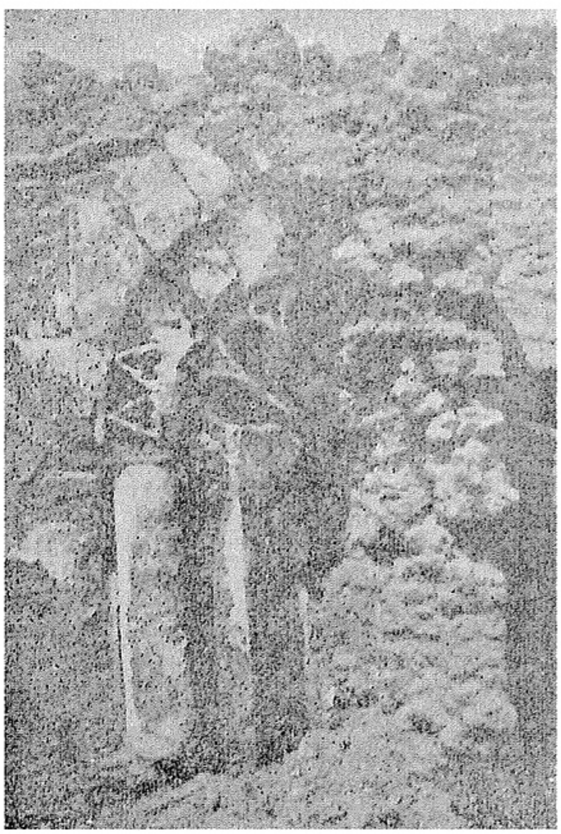


٥ — جامع عمرو كما هو الآن وترى فيه تيجان الأعمدة ذات الطرز المختلفة

فيها الأشجار والأزهار من سائر الأنواع على حد وصف الرحالة الايرانى ناصر خسرو الذى زارها فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) . وكان فيها أيضا الأحياء الفقيرة بمساكنها المتواضعة وشوارعها القذرة ، وكان فيها الأسواق العامرة بالمتاجر ، ومصانع السكر ، والصابون ، ومسابك الزجاج والنحاس ، وأفران الخزف والفخار ، ولا تزال بعض أطلالها تؤيد الى حد كبير ما ورد فى بطون الكتب عنها .

والأثر الوحيد القائم بين خرائب هذه المدينة والذى لا يزال الى اليوم يحقق الغرض الذى من أجله أنشىء هو جامع عمرو (صورة رقم ٥) الذى بدأ ساذجا كما بدأت الفسطاط، ثم أخذ ينمو ويتطور على مر السنين ، وكلما ازداد عدد المسلمين ، وكلما ارتقت حياتهم ، انعكس ذلك فيه فاتسعت رقعته ، وارتفع سقفه ، وكثرت أبوابه ، وأخذ الشكل الذى هو عليه الآن : صحن مكشوف ، يحيط به من جوانبه الأربع أروقة أربعة مسقوفة بعضها ضاعت معالمه ولكن بقايا الأعمدة تدل عليه ، وبعضها لا يزال محتفظا بشكله .

ومهما اختلفت آراء علماء الآثار فى مصدر هذا التصميم فالذى لاشك فيه أنه نابع من أعماق نفوس العرب ، متكيف بظروفهم ، وليس منقولا عمن سبقهم من الأمم . فاذا نحن تذكرنا حالة العرب قبل الاسلام وتذكرنا بساطة الاسلام وبعده عن الطقوس المعقدة سهل علينا ادراك هذه الحقيقة ، فالمسجد الذى أسسه محمد ، صلوات الله عليه ، فى المدينة والذى اتخذ نموذجا للمساجد من بعده لم يكن سوى قطعة أرض مربعة الشكل أحيطت بجدران أسسها من الحجر وقوامها من اللبن وتجاه بيت المقدس — قبلة المسلمين الأولى — أقيمت سقيفة من الجريد المغطى بالطين فوق جذوع النخل ، ولما تحولت القبلة الى الكعبة فى مكة أقيمت سقيفة جديدة مثل السابقة وتركت الأولى حيث هى ليستظل بها فقراء المسلمين وبذلك أصبح للمسجد سقيفتان بينهما مكان مكشوف أحداهما الى الشمال والأخرى الى الجنوب ، ولما زاد عدد

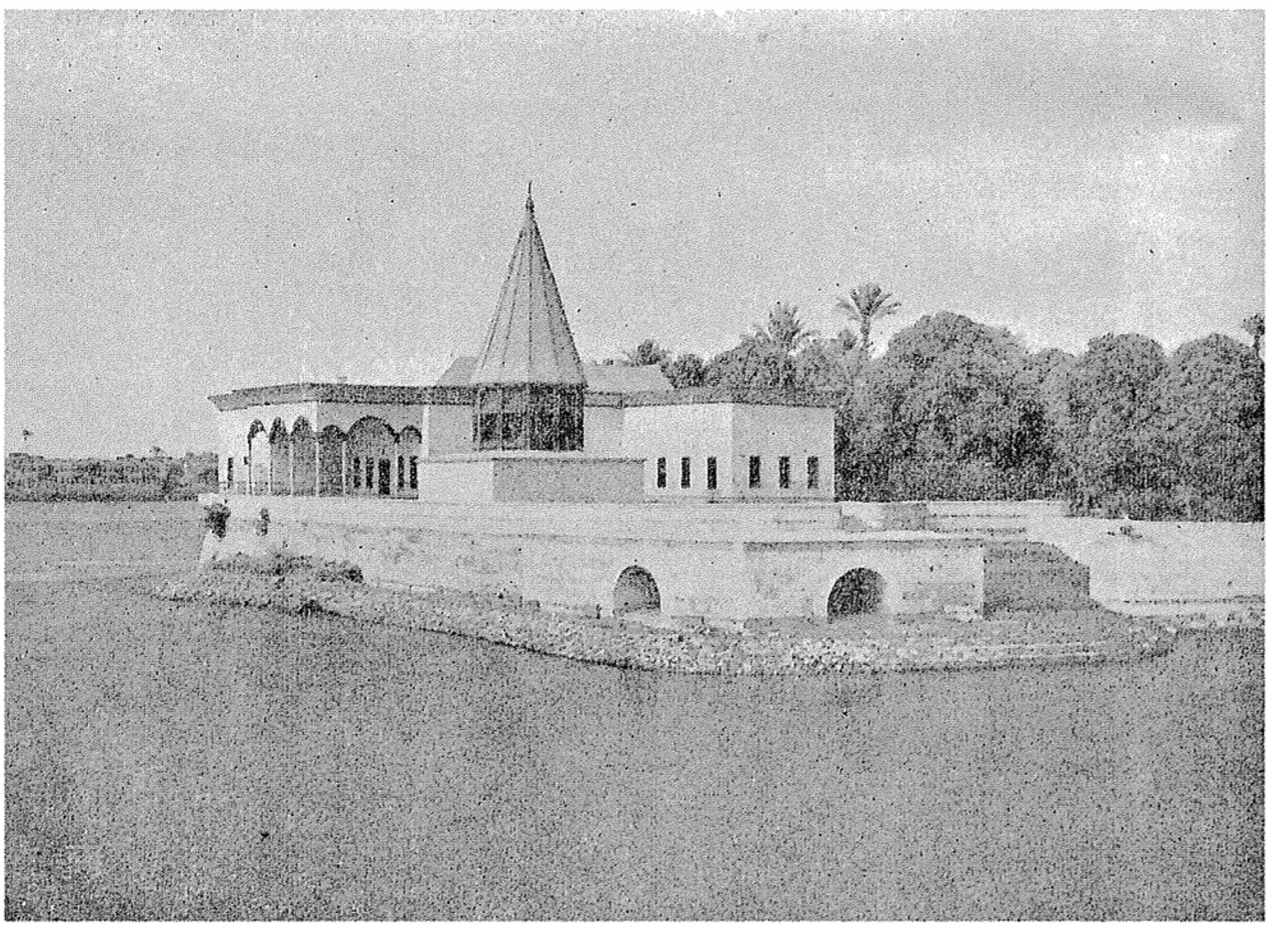


٦- من زخارف نوافذ جامع عمرو كما كان فى العصر العباسى الأول

المسلمين ، ومست الحاجة الى قدر أكبر من الظل ، وصل ما بين هاتين السقيفتين بسقيفتين جانبيتين أحداهما لليمين والأخرى للشمال ، وهكذا ولد تصميم بناء المساجد .

وطبيعى أن يتطور المسجد بتطور العرب الذين تأثروا بما رأوا فى البلاد التى فتحوها من الأبنية القديمة فاستبدلت جذوع النخل التى كانت تحمل السقف بعمد الرخام (صورة رقم ٥) . واذا نحن تأملنا فى رؤوس الأعمدة التى تحمل سقف جامع عمرو ، وجدنا أن تيجانها من طرز مختلفة ، ذلك أن العرب استخدموا ما وصلت اليه أيديهم من عمد المعابد والكنائس المهدمة ، شأنهم فى ذلك شأن الرومان من قبلهم الذين كانوا يفضلون نقل العمد اليونانية القديمة الى معابدهم . ولم يثبت قط أن العرب قد هدموا قصدا معبدا أو كنيسة لكى يحصلوا على أعمدته كما يدعى بعض الناس . وينبغى أن نبادر فنذكر أن الصور التى نراها اليوم فى مسجد عمرو انما هى من عمل السلطان مراد بك أحد سلاطين المماليك فى العصر التركى ولا علاقة بينها وبين المسجد الأصلى الا فى البقعة المشيد عليها .

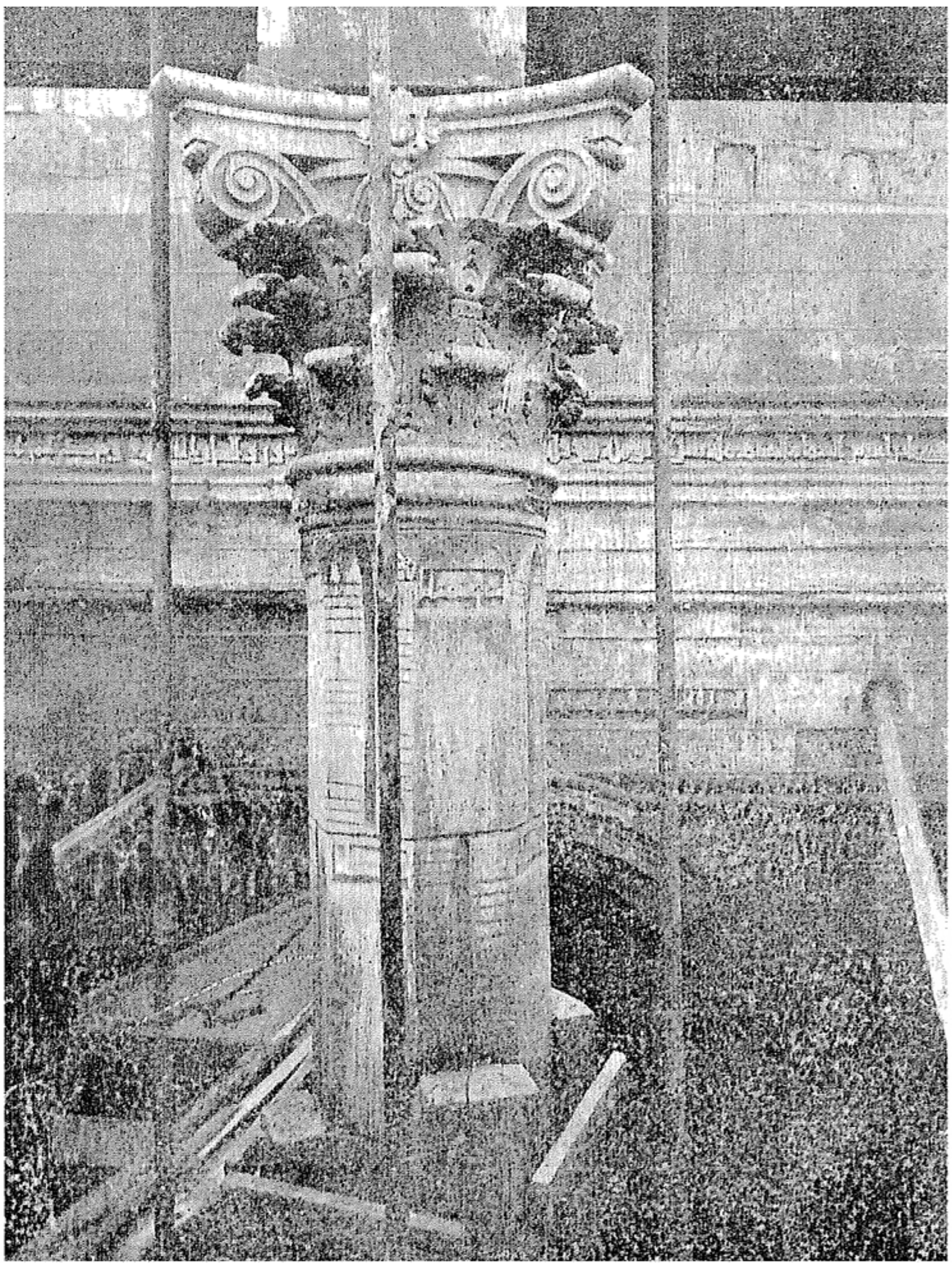
* * *



٧ - مقياس النيل من الخارج بعد ان جددته مصلحة الآثار .

وانتهى عصر الراشدين ثم عصر الأمويين وجاء عصر العباسيين الذين انشأوا فى شمال الفسطاط وعلى مقربة منها عاصمة جديدة هى العسكر التى ضاعت معالمها ولكننا نستطيع أن نتصور موضعها فى المنطقة القريبة من المدبغة النموذجية ومسجد ابى السعود .

والأثر الباقى من هذا العصر العباسى والذى يعد أقدم أثر مصرى اسلامى محتفظ بشكله وتفاصيله ، هو مقياس النيل بجزيرة الروضة الذى أمر بانشائه الخليفة العباسى

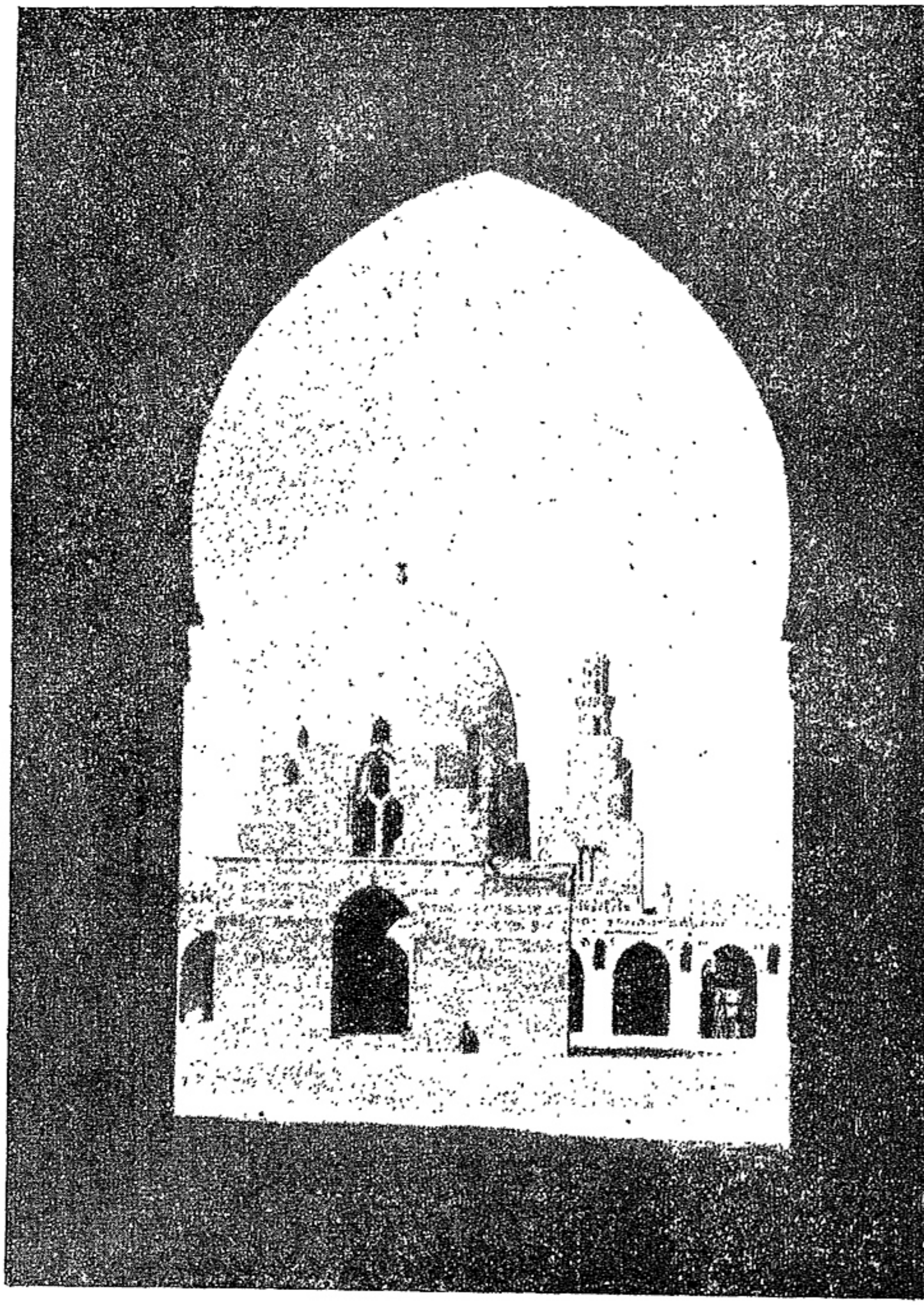


٨ ـ صورة مقياس النيل من الداخل ويرى بها أقدم طراز للكتابة الكوفية فى مصر وأقدم مثال للعقود المدببة .

المتوكل على الله سنة ٢٤٥ هـ (صورة رقم ٧). وانشاء هذا الأثر يفصح لنا عن مدى عناية أجدادنا فى العصور الوسطى بأمر النيل كما كان يعنى به أجدادهم فى العصور القديمة . ولهذا الأثر الذى جددته مصلحة الآثار أهمية كبيرة للذين يعنون بالناحية الأثرية ففيه أقدم طراز للكتابة الكوفية فى مصر وفيه أقدم مثال للعقود المدببة بها . (صورة رقم ٨) .

(العصر الطولونى)

وبدأ فى مصر عصر جـديد عندما ولى أمرها أحمد بن طولون ، عصر أصبحت فيه أمة جديدة يدين معظم أهلها بالاســـلام ،



٩ ـ مسجد ابن طولون من الداخل وترى فيـه المئذنة والنافورة .

ويتكلم معظم أهلها العربية (بدلا من القبطية) واتجهت فيه الى استكمال شخصيتها الجديدة بالاستقلال ذاتيا عن الخلافة العباسية التى كانت عاصمتها فى « سر من رأى » ، وقد حقق لها حاكمها سالف الذكر هذه الرغبة فأنشأ عاصمة جديدة الى الشمال من مدينة العسكر سماها القطائع وشيّد فيها مسجده الرائع الذى لا يزال قائما يحدد لنا مكان هذه العاصمة الجديدة على وجه التقريب ، ثم أقام الى جواره قصره الذى أتمه من بعده ولده خمارويه وكان آية فى العظمة على حد وصف المؤرخين له ، فقد ضاعت معالمه من الوجود وبقيت فى بطون الكتب .

أما المسجد فيسير فى تصميمه على النهج الذى شاهدناه فى مسجد عمرو ولكنه خطا نحو التطور خطوات تتجلى فى خمسة عناصر هى النافورة والمئذنة والدعامات والزخرفة واللوحة التأسيسية .

أما النافورة التى تتوسط الصحن فقد أعدت فى الأصل ليشرب منها الناس ولكنها فى عصر المماليك ، عندما جدد هذا المسجد ، انقلبت الى ميضأة كما تدل على ذلك الآية القرآنية المنقوشة بداخل القبة التى تغطيها .

وأما المئذنة فهى الوحيدة فى مصر التى لها هذا الشكل العجيب ، وهى متأثرة بمئذنة المسجد الجامع فى مدينة « سر من رأى » بالعراق ، وكلتا المئذنتين قد استمدت تصميمها فى الأصل من معابد النار الفارسية المعروفة باسم الزيجورات .

وأما الدعامات التى تحمل العقود فهى الأولى من نوعها فى مصر الاسلامية ، وهى كذلك من خصائص العمارة العراقية التى انتقلت الى مصر فى هذا العصر الذى سيطر فيه الفن العباسى الذى شاع فى العالم الاسلامى أجمع (الصورة رقم ٩) .

وأما الزخرفة فهى تجلو علينا صورة صادقة للفن الاسلامى كما ازدهر فى العراق ونحن اذا تأملنا فى هذه الزخرفة قليلا وجدنا اننا لا نستطيع أن ننسب الى الفنان المسلم فضل ابتكار وحداتها لأن هذه الوحدات كانت موجودة بالفعل فى الفنون السابقة على الاسلام ، الا أننا لا يمكننا أيضا أن نجحد مقدرة الفنان المسلم فى طريقة توزيعها ، والتأليف بينها ، وتنسيقها تنسيقا جعلها تبدو كأنما اخترعت لأول مرة وما هى كذلك ، ولكنه صهرها فى بوتقته ، وسلط عليها أشعة عبقريته ، فخرجت من بين يديه فنا جديدا ، لا يخفى علينا أصله ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه شخصيته القوية .

وأما اللوحة التأسيسية المثبتة على احدى الدعامات ، فتدلنا على ما للكتابات التاريخية المنقوشة على الآثار من أهمية عظيمة ، فقد استطعنا بفضلها أن نقف على التاريخ الحقيقى لانشاء هذا المسجد (٢٦٣ هـ) بعد أن أعطانا المؤرخون له تواريخ مختلفة جاءت من غير شك نتيجة لأخطاء الناسخين ، أو عدم الدقة فى نقل الأخبار .

والمنزل الطولونى الذى كشف عنه المرحوم حسن الهوارى سنة ١٩٣٤ م بالقرب



١٠–أحد جـــدران المنزل الطولونى ويرى به زخارف من طراز « سر من رأى » الثالث .

من منطقة أبى السعود من الأمثلة النــادرة للعمارة المدنية فى مصر (الصورة رقم ١٠) ، وهو فى تخطيطه وزخرفته يسير على نهج دور مدينة « سر من رأى » بالعراق . وعـــلى أساس هــــذا التخطيط ، وتلك الزخارف ينسب هذا المنزل الى العصر الطولونى .

(العصر الفاطمى)

واذا لم يكن استقلال مصر تاما فى العصر الطولونى ، فانه قد أصبح كذلك فى العصر الفاطمى اذ صارت مصر مركزا لخلافة مناهضة للخلافة العباسية فى العراق ، والخـــلافة الأموية فى الأندلس ، وكان من أثر ذلك أن خطت البلاد فى سبيل الحضارة المادية خطوات واسعة ، وسادت روح الترف فى كل شىء ، وكتب التاريخ ، والآثار الثابتة ، والتحف المنقولة تعكس هذه الحياة المترفة ، وتبرز شخصية الفن المصرى الاسلامى الذى تجلت فيه براعة المصريين فى صـــور كثيرة تفرض الاعجاب على كل من يشاهدها .

واذا كانت حدود العواصم الاســـلامية السابقة — الفسطاط والعسكر والقطائع — قد ضاعت ، فحدود القاهرة الفاطمية لا تزال قائمة نستطيع أن نتعـــرف عليها فى يسر :
فسورها الشمالى لا يزال قائما نشاهد فيه

باب النصر (الصورة رقم ١١) وباب الفتوح ، واذا دققت النظر فى الكتابة المنقوشة على السور القائم بين هذين البابين وجدت أن اسمهما هو باب العز ، وباب الاقبال .

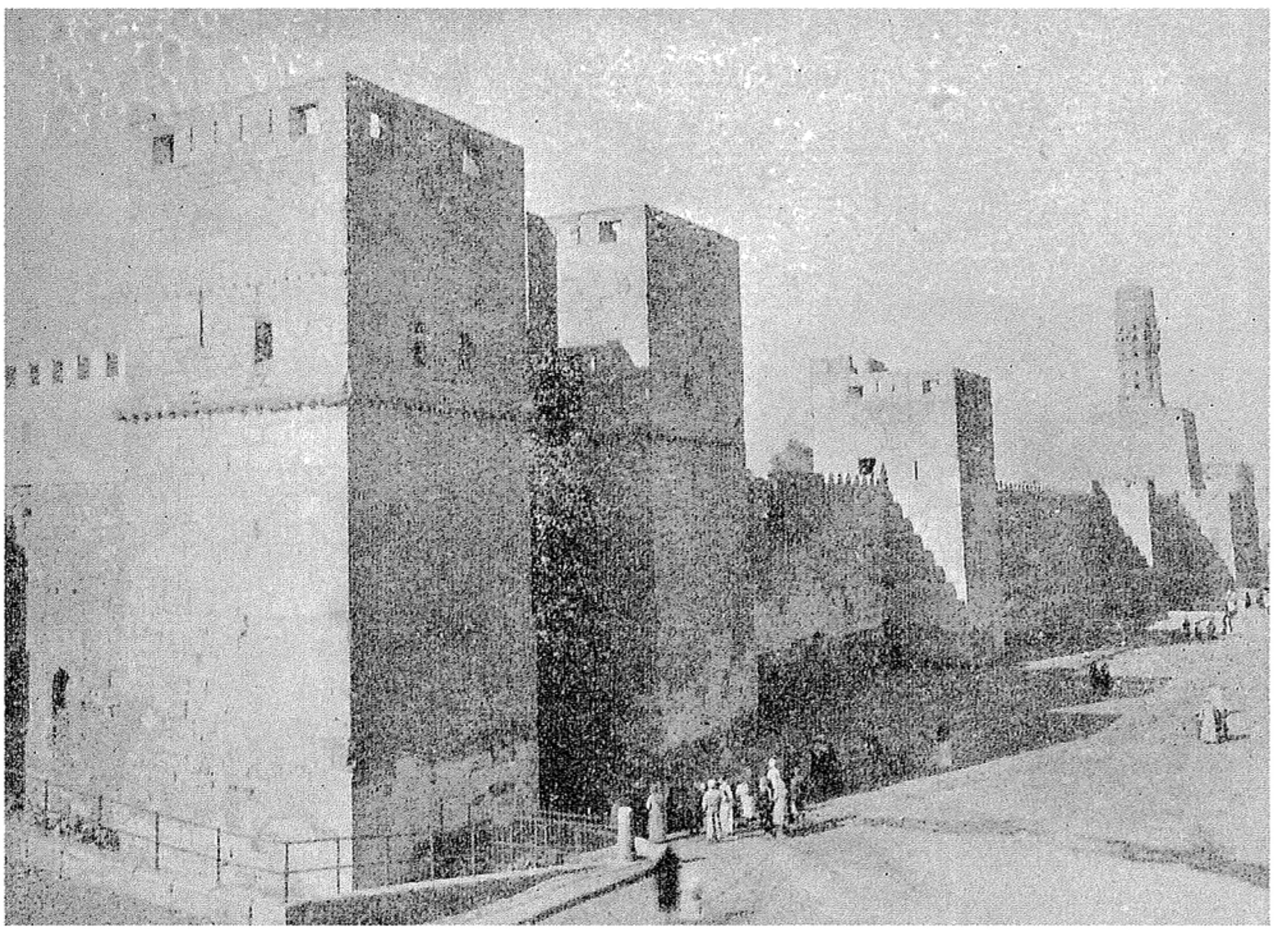
وسورها الشرقى لا يزال يجرى فى موازاة تلال الدراسة ، وقد كشفت معاول عمال البلدية وهم يعملون لتوسيع رقعة القاهرة الحديثة عن باب التوفيق منذ بضعة شهور .

وسورها الجنوبى لم يبق منه الا باب زويلة أو بوابة المتولى كما يسميها العامة .

وسورها الغربى كان يسير بموازاة شارع الخليج ، ولم يبق منه الا القليل الذى لا يستأهل الذكر ، ولكن « درب سعادة » المجاور لمحافظة القاهرة يذكرنا بحدود القاهرة فى هذه الجهة .

وتعد أبواب القاهرة وأسوارها من أروع العمائر الحربية فى العصور الوسطى فى العالم أجمع ، وقد كانت ، ولا تزال ، موضع الاعجاب والتقدير من كل من رآها أو يراها (الصورة رقم ١٢) .

وفى داخل أسوار هذه العاصمة الجديدة شيد الفاطميون قصرين عظيمين ضاعت معالمهما وبقيت مواقعهما : القصر الكبير ويشغل اليوم المشهد الحسينى وخان الخليلى جزءا من

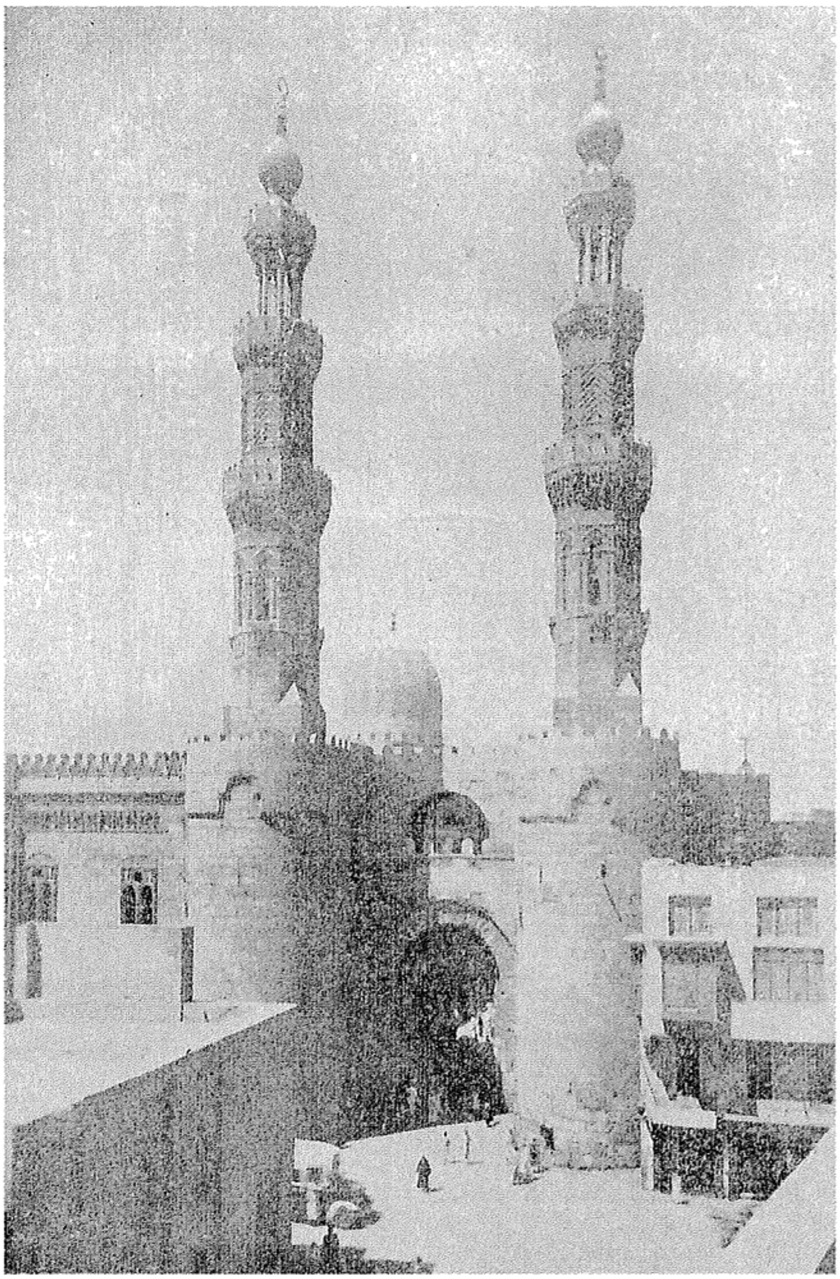


١١ - باب النصر احد الابواب الشمالية للقاهرة

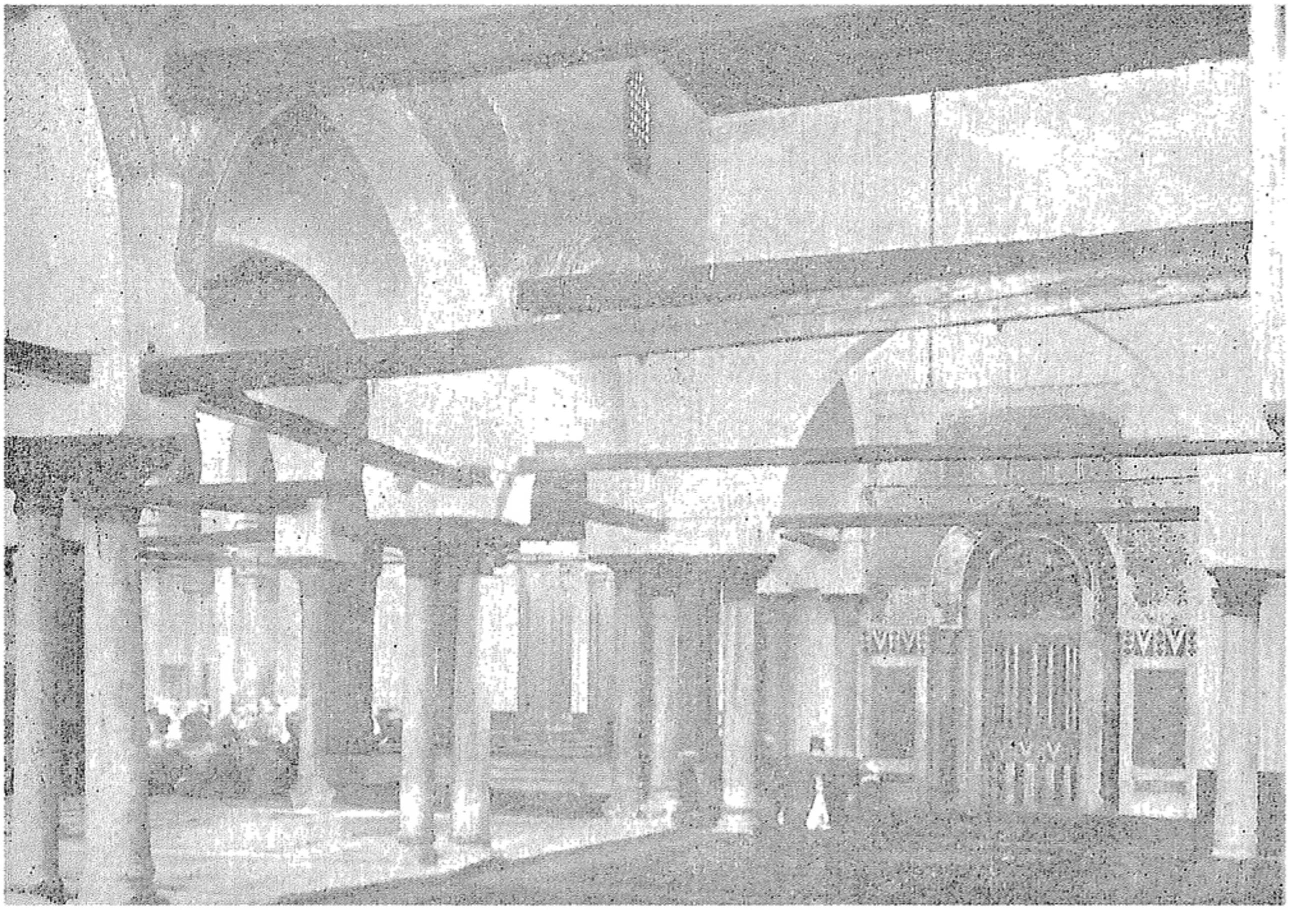
موقعه ، والقصر الصغير وتشغل اليوم الصاغة ومستشفى قلاوون جزءا من موقعه .

وفى القاهرة المعزية وفى خارجها شيّد الفاطميون المساجد والمشاهد ولا يزال معظمها قائما حتى اليوم .

ويفرض علينا ضيق المجال أن نختار من بين الآثار الفاطمية الكثيرة ما كان محتفظا بمميزات هذا العصر فى فن البناء ، فالأزهر (صـــورة رقم ١٣) على شهرته العظيمة لا يستطيع أن يحقق لنا هذا الهدف ، لما ضاع منه ، ودخل عليه من التعديل والتحوير ، بينما الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله ، على



١٢- باب زويلة أحد الأبواب الجنوبية للقاهرة



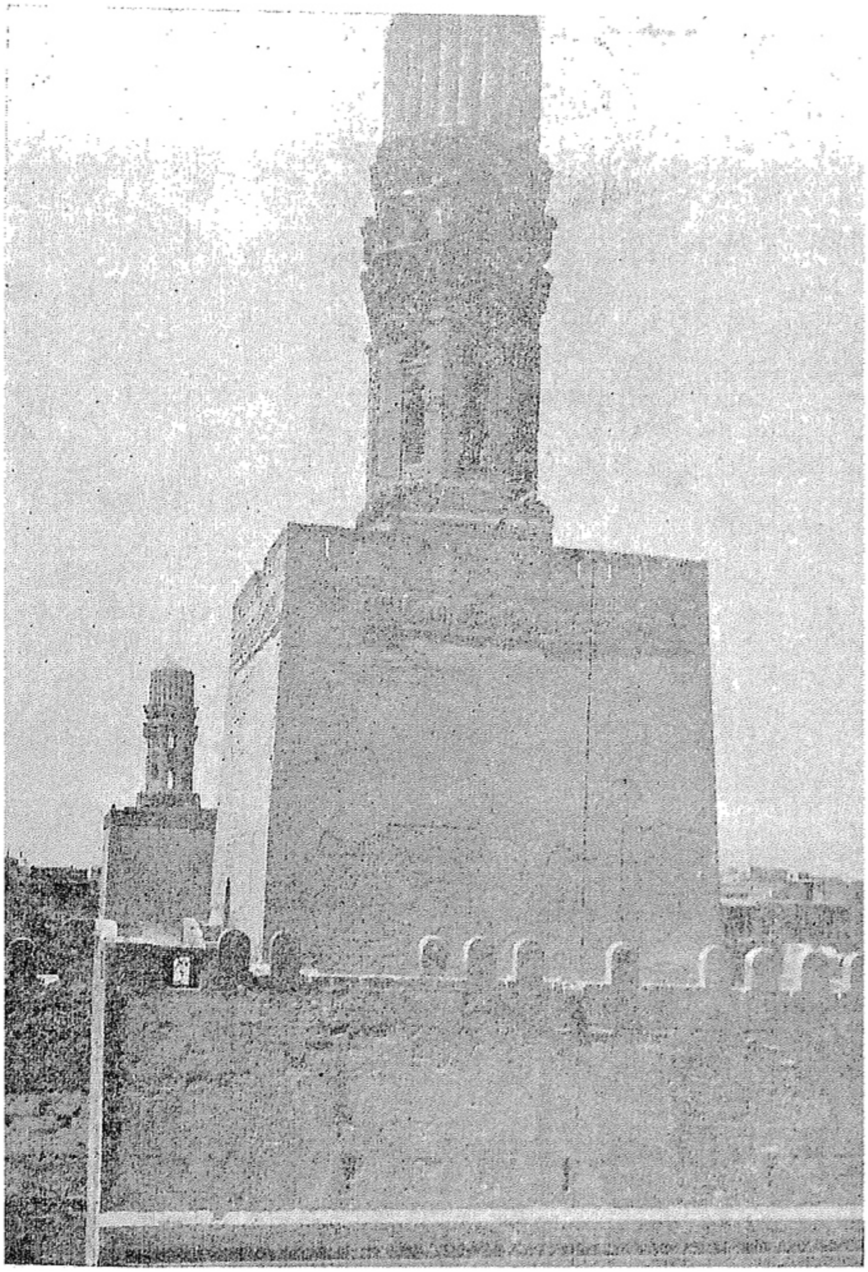
١٣– الجامع الأزهر من الداخل .

سوء حالته ، يبرز لنا هـذه الخصائص ، والجامع الأقمر على صغر حجمه يجلو علينا جمال الفن الزخرفى فى صورة واضحة قوية ، ومشهد الجيوشى يكفى لبيان الغرض من مثل هذه الأبنية التى ظهرت لأول مرة فى مصر فى هذا العصر ، والحمّام الفاطمى هو أقدم بناء موجود من نوعه فى هذه البلاد .

فجامع الحاكم يحتفظ بالعناصر الرئيسية للمساجد الفاطمية وهى الواجهـة الفخمة ، والمدخل البارز ، ومجاز القبلة ، والقبـاب الثـلاث .

أما الواجهة فمنقطعة النظير فى مساجد مصر السابقة ، يقوم فى زاويتها برجان عظيمان يكسبان المسجد مظهر القلاع ، يخرج من كل منهما مئذنة عالية تعد أقدم المآذن المؤرخة فى مصر (صورة رقم ١٤) ، تزدان كل منهما بزخارف رائعة ، وبكتابة كوفية تتضمن اسم الحاكم بأمر الله ، وقد تصدع الجزء العلوى من هاتين المئذنتين اثر زلزال شـديد أصاب البـلاد فى عصر المماليك ، وأعيـد تشييد هذين الجزءين على الصورة التى نراها الآن .

والمدخـل الرئيسى واقع فى منتصف الواجهة ، وبارز عن سمتها بروزا قويا ، وقد



١٤ـ صورة جامع الحاكم من الخارج وتبدو فيها المئذنتان ٠

كان يتوجه لوح من الرخام ضاع أثره وبقى لنا رسمه الذى يتضمن اسم الحاكم بأمر الله مع الآية الكريمة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » . واختيار هذه الآية فيه اشارة الى ما عاناه الفاطميون من الناحية السياسية حتى ظفروا بالخلافة أخيرا وأصبحت لهم قوة عظيمة يناهضون بها الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الأموية فى الغرب .

ومجاز القبلة ممتد من الصحن الى المحراب مباشرة ، ويمتاز بعلو سقفه عن سقف المسجد ، وبوجود سلسلة من العقود على كل

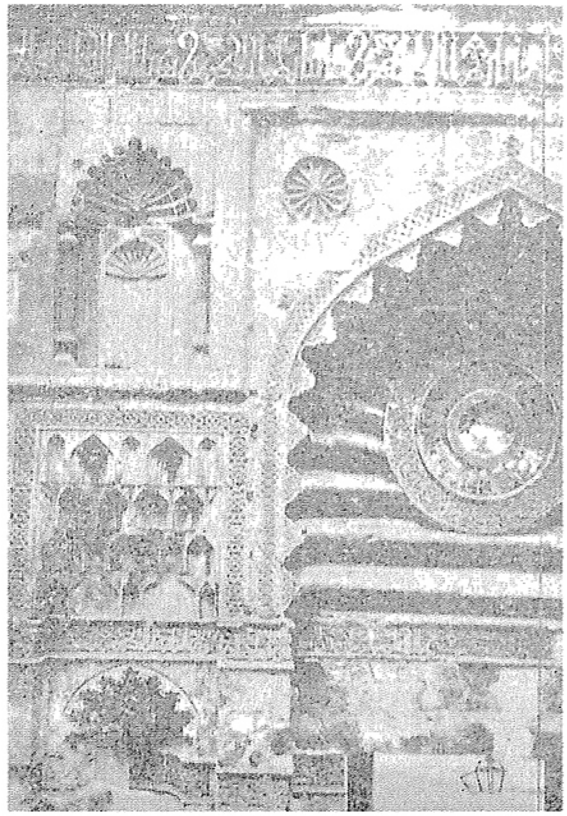


١٥- من زخارف جامع الحاكم بأمر الله

من جانبيه الأيمن والأيسر تسير فى اتجاه عمودى على جدار القبلة بينما تسير باقى عقود المسجد فى اتجاه مواز لجدار القبلة . والغرض من هذا المجاز هو ابراز أهمية المحراب فى المسجد باعتباره أهم بقعة فيه .

والقبة لم يبتدعها المصريون فى العصور الوسطى ولكن فضلهم فى تطورها عظيم ، فقد عرفها أجدادهم الفراعنة من قبل كما عرفها العراقيون والرومان ، ثم تسلمها المسلمون ساذجة بسيطة محدودة الاستعمال وأخذوا يتطورون بها حتى لقد أصبحت من المميزات البارزة فى الفن الاسلامى ، ولم تقف القبة المصرية الاسلامية عند الحد الذى نراه فى القباب الثلاث الموجودة فى هذا المسجد والتى نشاهدها فى أقصى اليمين وأقصى اليسار من جدار القبلة كما نراها أيضا أمام المحراب — بل نراها قد تطورت تطورا بلغ أقصاه فى عصر المماليك . والزخارف التى نشاهدها فى هذا المسجد : فى مئذنته (صورة رقم ١٥)، وفى مدخله ، وفى واجهته كلها تنطق بأن الفنان المصرى قد تخلص من تقاليد الفن الطولونى الذى ظل مستعملا فى الجامع الأزهر ، وقد بدأ يستعين الآن بالعناصر الزخرفية التى كان يعرفها أجداده قبل الاسلام . والتى انتقلت اليه عبر العصور . كما تدل أيضا زخارف بعض نوافذه على بدء ظهور الروح الأندلسية فى الزخرفة المصرية الاسلامية .

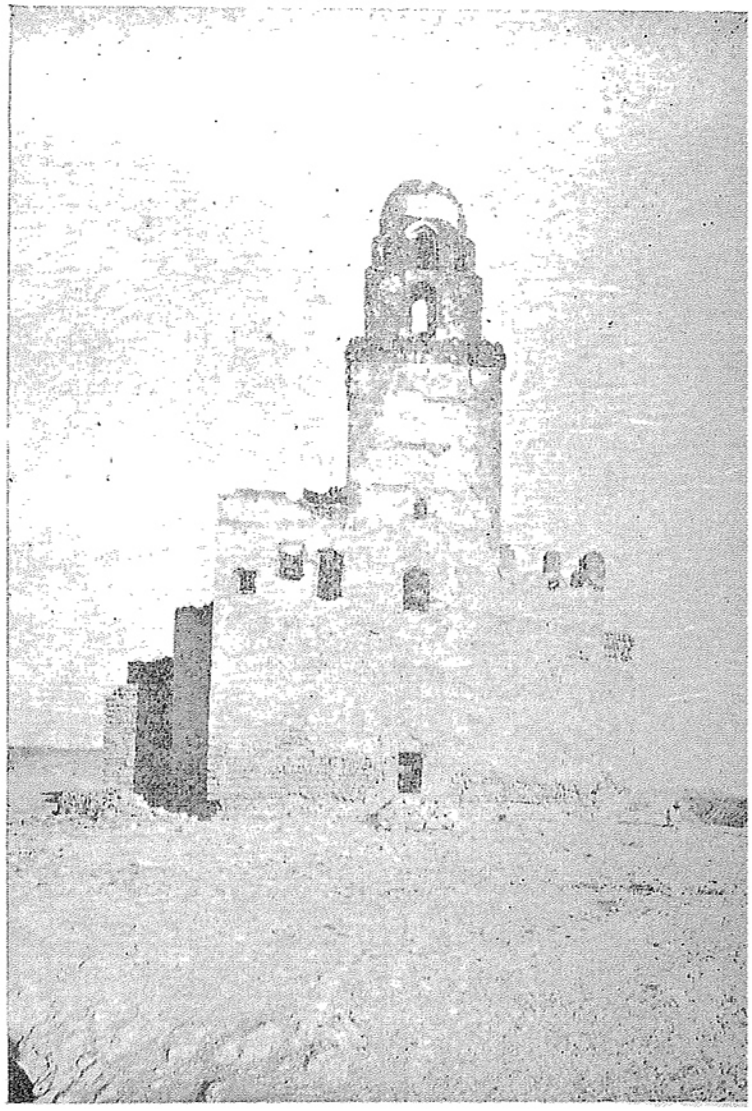
والجامع الأقمر له واجهة تعتبر قطعة من الفن الجميل (صورة رقم ١٦) ، تنطق بالنضوج الفنى الذى وصل اليه أجدادنا فى القرن السادس الهجرى (١٢ م) ، وتدل على أنهم يقفون بحق على قدم المساواة مع رجال الفن ، السابقين منهم واللاحقين . ولن نفصل القول فى العناصر الزخرفية المختلفة الموجودة فى هذه الواجهة انما يكفى أن نقول اننا نشاهد فيها لأول مرة الزخرفة المعروفة بالمقرنص Stalactite ، والتى أصبحت من أخص مميزات الفن الاسلامى ، كما نشاهد فيها الأحجار التى



١٦- جزء من واجهة الجامع الأقمر .

تفنن البناء فى قطعها وتعشيقها وهى ظاهرة معمارية ظهــرت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة فى مقابر كوم أبوبلة ثم اختفت لتظهر من جديد فى هذه الواجهة . كما نشاهد أيضا كثيرا من العناصر الزخرفية التى كانت مألوفة فى العصر القبطى قد رسمت هنــا بطريقة متقنة تدل على نضوج الملكة الفنية عنـــد راسمها . والواقع أننا نلمس فى زخارف هذا المسجد والمسجد السابق ، الــروح الفنيــة المصرية ، وندرك أنها أخذت تبرز من جــديد قوية واضحة بعد أن تخلصت من الفن الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العصر الطولونى .

والكلام على المشاهد الفاطمية التى اخترنا منها الجيوشى (صورة رقم ١٧) يفرض علينا أن نشير أولا الى تلك البدعة التى استحدثت فى الاسلام ، ولقيت رواجــا عظيما عنــد المسلمين فى شتى البقاع ، وهى تشييد القباب وانشاء المساجد فوق قبور البارزين والعظماء من رجال الدنيا والدين ، وأغلب الظن أن الدافع الى هذه البــدعة انما هو الرغبــة فى تمييز هــؤلاء النــاس بعــد وفاتهــم كما كانوا مميزين فى حيــاتهم ، وقد ظهرت هــذه البدعة أول ما ظهرت عندما اتجهت النية الى تمييز بعض البقاع التى تحتل من نفوس المسلمين مكانة سامية لاتصالها بتاريخ النبى الكريم مثل صخرة بيت المقدس التى يقال ان النبى عرج منها الى السماء ليــلة أسرى به ، فشيدوا عليها قبة عظيمة تعد حتى اليوم من أروع الآثار الاسلامية ان لم تكن أروعها جميعا ، وقد كان طبيعيا أن ينتقلوا من تكريم البقــاع التى قدســتها الذكريات الى تكريم القبور التى تضم رفات من كانوا أعزاء عليهم ، وهكذا ظهر هذا النوع الجديد من الأبنية التى سماها الفاطميون بالمشاهد أى مكان الشهداء لأنهم كانوا يرون أن أئمتهم وعظماءهم قد استشهدوا واستحقوا درجة الشهداء فى سبيل نصرة مبادئهم ، ومشــهد الجيوشى قد شيّد ليدفن فيه الأفضل بن بدر الجمالى كما تدل على ذلك الكتابة التأسيسية التى تتــوج مدخله ، ويستلفت النظــر فيه استعمال القبو فى التسقيف لأول مرة فى مصر ،



١٧- مشهد الجيوش من الخارج .

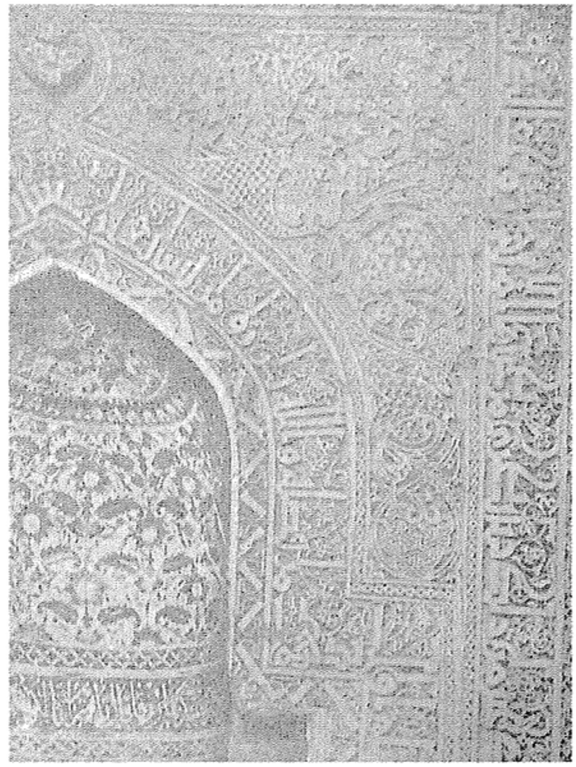
وهذا الاستعمال يكشف لنا عن ميزة معمارية تجعل للمهندس المصرى فى العصور الوسطى فضل السبق على زميله الأوربى المعاصر له ، ومحراب هذا المشهد يعد آية من آيات الفن الاسلامى تجلت فيه عبقرية الفنان فى أروع صورها وأبدع مظاهرها .. (صورة رقم١٨).

وآخر ما نذكره من العمائر الفاطمية « الحمام الفاطمى » الذى كشف عنه المتحف الاسلامى بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ، وهو يقع بالقرب من المنزل الطولونى الذى أسلفنا الاشارة اليه . وهو يعد أقدم حمام اسلامى فى مصر .

والحمامات عامة ليست من ابتداع العرب بل عرفها الفراعنة واليونان والرومان من قبلهم ، ولقد سار المسلمون فى تخطيط حماماتهم على النهج الرومانى الذى وجدوه بين أيديهم ، وتحدثوا عنها طويلا فى كتب الأدب والتاريخ فذكروا صفاتها ومزاياها وآدابها ، ووصفوا ما ازدانت به جدرانها من صور جميلة ، وأوضحوا ما لهذه الصور من أثر فى نفوس المستحمين ، ولقد لعبت الحمامات دورا هاما فى الحياة الاجتماعية فى العصور الوسطى فى مصر وغيرها من بلاد العالم الاسلامى ، والحمام الفاطمى كان ، فى أغلب الظن ، حماما خاصا ملحقا بأحد القصور لصغر مساحته ، ولكنه على صغره يعطينا فكرة واضحة عن تصميم الحمامات ، وطريقة ايقاد النيران فيها ، وتوزيع المياه فى أجزائها المختلفة ، ولا تزال البئر التى كان يرفع منها الماء موجودة حتى اليوم ، أما الصور التى كانت تزين قبته وجدرانه فقد نقلت الى المتحف الاسلامى بالقاهرة (صورة رقم ١٩).

(العصر الأيوبى)

ولقد ضعفت مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، وطمع فيها من جهة مسيحيو الغرب (الصليبيون) الذين أنشأوا لأنفسهم ممالك



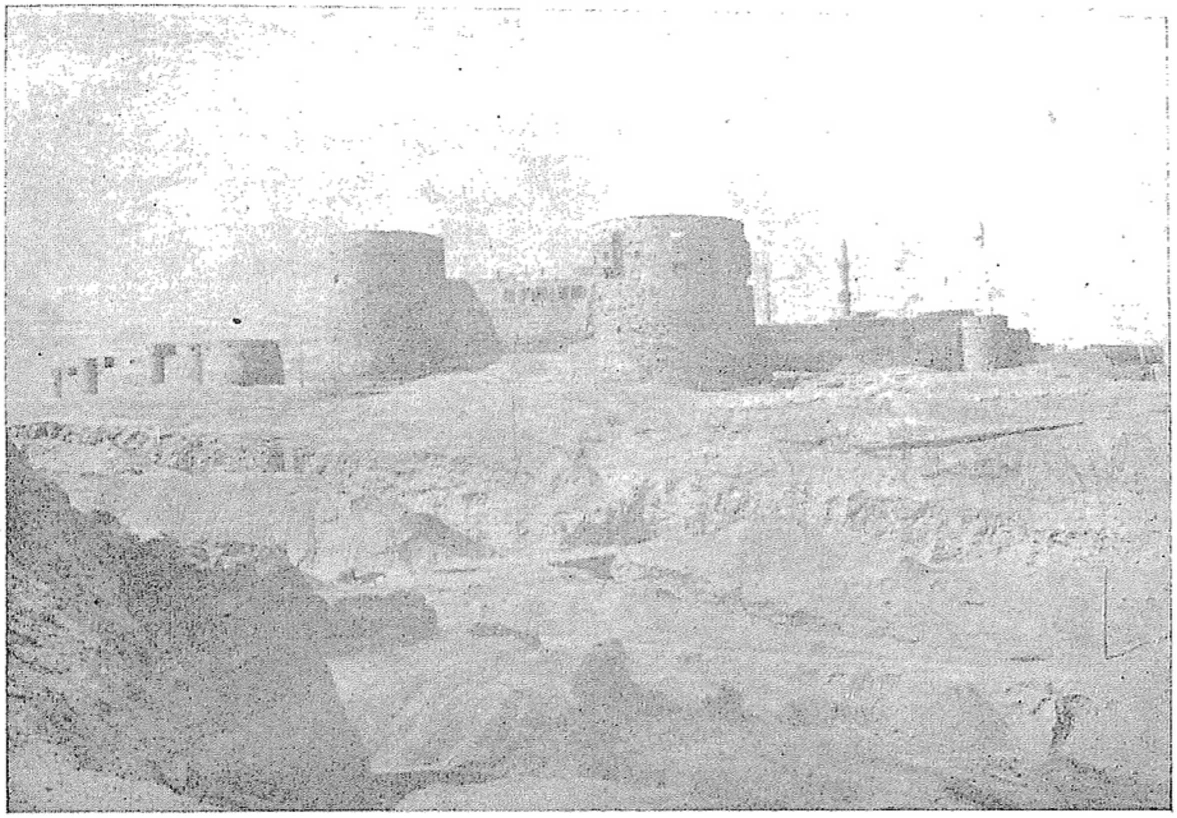
١٨ — محراب مشهد الجيوش ·



١٩ —صورة على الجص (فرسكو) كانت بالحمام الفاطمى ومعروضة الآن فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ·

صغيرة فى بلاد الشام ، ومن جهة أخرى مسلمو الشرق (الأتراك السلاجقة) ، وكان الممسك بأعنة الوزارة فى مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى انتهز فرصة موت الخليفة الفاطمى العاضد ليعلن سقوط الخلافة الفاطمية وعودة الخلافة العباسية ، وسرعان ما كوّن هو الدولة الأيوبية التى رصدت نفسها للقضاء على الشيعة فى مصر ، وعلى الصليبيين فى الشام .

ولقد وجد صلاح الدين نفسه مهددا بثورات داخلية من المتشيعين للفاطميين الراغبين فى اعادة ملكهم ، وبحروب خارجية من الصليبيين الطامعين فى مصر لتأمين ملكهم فى الشام والاستفادة بخيراتها العميقة ، فأوحى اليه هذا الموقف أن يبحث عن مكان حصين يتخذه مقرا له ، ويدفع به عن عاصمة البلاد شر العدو المهاجم ، ووقع اختياره على مكان القلعة المشرفة على القاهرة اليوم . (الصورة رقم ٢٠) . ولا تزال الكتابة الأثرية التى تتوّج باب المدرج — وهو أقدم أبواب القلعة — تتضمن نصا تاريخيا يشير الى بناء صلاح الدين لهذه القلعة سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) باشراف أخيه الكامل وعلى يدى وزيره قراقوش الذى



٢٠– قلعة صلاح الدين من الخارج .

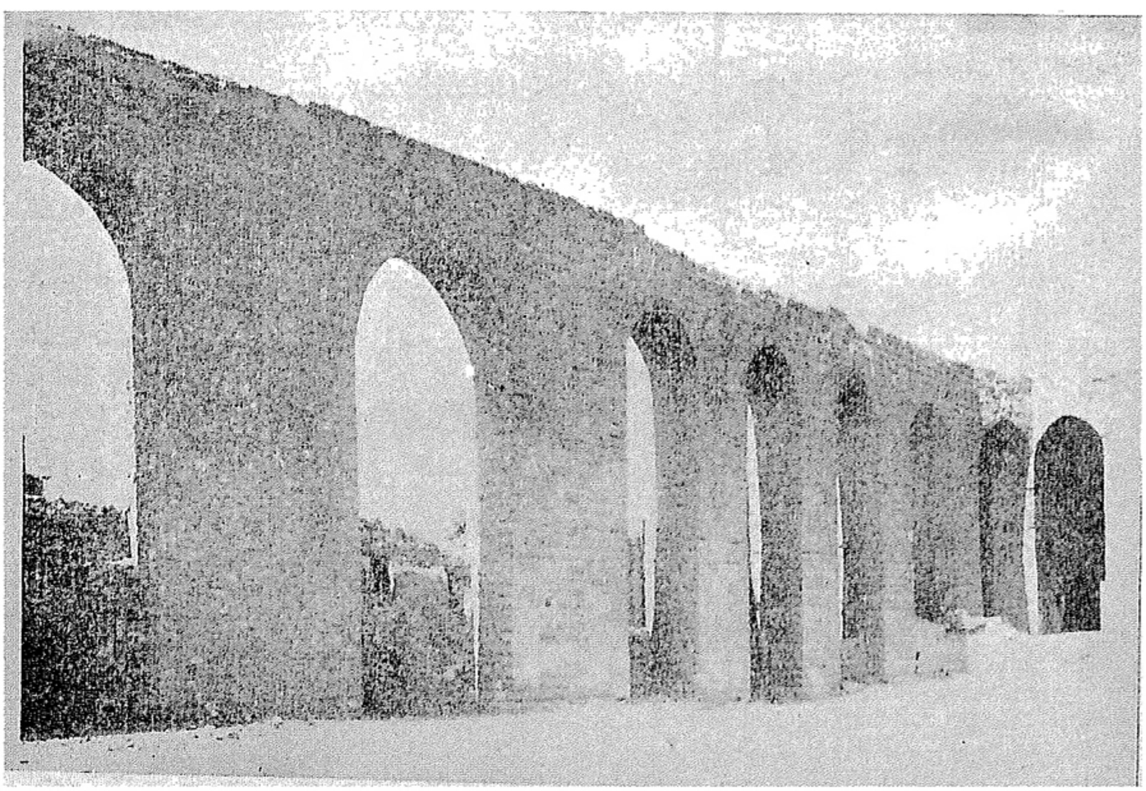
لا يزال يردد العامة اسمه حتى اليوم للدلالة على جمـود الفكر والعسـف فى الحكم . (الصورة رقم ٢١) .

وامتد العمار بين الفسطاط والعسـكر والقطائع حتى أصبحت مدينة واحدة كانت تسمى مصر أحيانا وأحيانا الفسطاط . وأمر صلاح الدين باحاطتها بأسوار تتصل بأسوار القاهرة الفاطمية . وفقدت القـاهرة أهميتها بعد أن انتقل منها الحاكم والحكم الى القلعة التى ارتفع نجمها منذ ذلك العصر حتى أيام الخديو أسماعيل الذى بنى قصر عابدين .

وتحدثنا القلعة بأسوارها وأبراجها ، وبما فى ساحتها من أبنية مختلفة ، أصدق حديث عن تاريخ مصر منذ عصر الأيوبيين حتى عصر محمد على ، فالعصر الأيوبى يتمثل لنا أوضح ما يتمثل فى الأبراج التى نشاهدها فى الجانبين الشرقى والجنوبى ، وعصر المماليك يتمثل لنا أجمل ما يتمثل فى مسجد الناصر محمـد ذى المئذنتين الرائعتين اللتين تزدان قمة كل منهما بألواح القاشانى الأخضر الجميـل ، والعصر التركى يتمثل لنا بطرازه الجديد فى بناء المساجد فى جامع سليمان باشـا والى مصر ، وهو أول مسـجد يذكرنا بمساجد القسطنطينية التى تأثرت فى تصميمها بكنيسة أيا صوفيا حيث نشاهد فى وسـط رواق المحراب قبة عظيمة تحيط بها أربعة أنصاف



٢١–الكتابة الأثرية على اقدم ابواب قلعة صلاح الدين



٢٢–قناطر المياه التى كانت تحمل الماء من النيل الى القلعة .

قباب حافلة بالزخارف الملونة والكتابات ، كما يتمثل أيضا هذا العصر فى باب القلعة المشرف على ميدان صلاح الدين المعروف بباب العزب والذى يحف به من جانبيه برجان عظيمان ينطقان بأن البنّاء المصرى كان لا يزال فى هذا العصر يحتفظ ببراعته القديمة . وعصر محمد على يتمثل لنا فى المدخل الرئيسى للقلعة الذى نستعمله الآن ، وفيما وراء هذا الباب من المصانع الحربية والدواوين والمدارس ، وفى قصوره التى من أهمها قصر الجوهرة الذى ردت اليه الحياة وزارة الثقافة والارشاد بما وضعت فيه من أثاث فبدا فى الصورة الجميلة التى كان عليها ، وفى مسجده العظيم الذى دفن به والذى يشرف بمئذنتيه الرشيقتين على القاهرة .

وطريقة ايصال الماء الى تلك القلعة العالية فى العصور الوسطى جديرة أن نقف عندها قليلا فهى تكشف لنا عن مدى نضوج أجدادنا فى تلك العصور فى الهندسة المدنية اذ كانت المياه ترفع من النيل بواسطة ست سواق كل منها ترفع الماء الى حوض كبير يجرى منه الماء فى قناة محفورة فى أعلى قناطر بنيت خصيصا لهذا الغرض تمتد من جوار مجرى النيل وتنتهى الى القلعة (صورة رقم ٢٢) ، ولا تزال حتى اليوم — عند فم الخليج — آثار هذه السواقى وكثير من قناطر المياه التى جددت فى عصر الغورى أحد سلاطين المماليك ، وتعمل مصلحة الآثار من جهة



٢٣– قبة الامام الشافعى من الداخل

وبلدية القاهرة من جهة أخرى لاظهار هذه القناطر وتعبيد الطريق الذى يحف بها من الجانبين لتبدو فى الصورة التى كانت عليها عند انشائها . ولكن سكان القلعة ليسوا دائما فى مأمن من انقطاع مياه النيل عنهم لسبب من الأسباب ، لذلك حفرت فى داخل القلعة بئر عميقة تستخدم مياهها عند الضرورة ، وهى لا تزال موجودة حتى اليوم وتعرف ببئر يوسف .

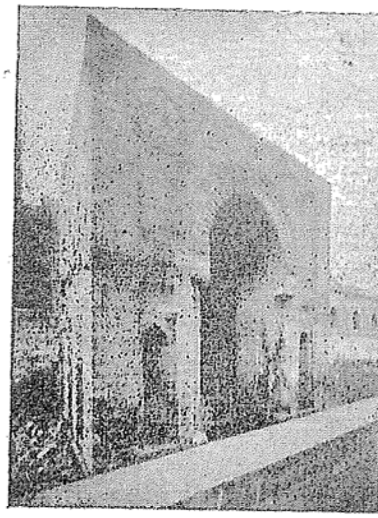
وأنشئت فى هذا العصر فوق قبر الامام الشافعى قبة عظيمة تعد من آجل القباب وأجملها وأغناها بالنقوش من الداخل

والخارج . وتتجلى فى الزخارف المحفورة فى رقبة هـذه القبة من الخارج روح أندلسية لا يخطئها المشاهد . (صورة رقم ٢٣) .

وفى أواخر هذا العصر أنشأت «شجرة الدر» قبة فوق قبر زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب نشاهد فيها لأول مرة فى مصر الفسيفساء المذهبة تزين المحراب .

(العصر المملوكى)

وضعفت الدولة الأيوبية ، واشتد النزاع والتحاسد بين أفـراد أسرة بنى أيوب ، واستكثر أغلبهم من شراء المماليك ليكونوا عونا لهم ضد منافسيهم من أقاربهم ، وسلموا هؤلاء المماليك زمام الجيش والقصر فوصلوا الى درجة عظيمة من النفوذ ، ونجحوا أخيرا فى الاستيلاء على الملك والتربع على عرش مصر أكثر من قرنين ونصف قرن كانت البلاد فيها من الناحية السياسية مسرحا للفوضى ولكنها بلغت من الناحية الفنية درجة سامية لم تبلغها من قبل فى عصرها الاسلامى . وفى الحق لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يكتبوا لأنفسهم فى تاريخ الفن المصرى صفحات تشع من بين سطورها آيات النضوج الفنى التى نقرأها فيما تركـوه وراءهم من ثروة عظيمـة من المساجد ، والقباب ، والخوانق ، والقصور ، والمدارس ، والخانات ، والقلاع ، والأسبلة ، والمارستانات ، ومن التحف المنقولة التى يفخر بها المتحف الاسلامى بالقاهرة ، ودار الكتب المصرية ، وكثـير من المتـاحف فى الشرق والغرب .



٢٤ – مسجد الظاهر بيبرس من الخارج .

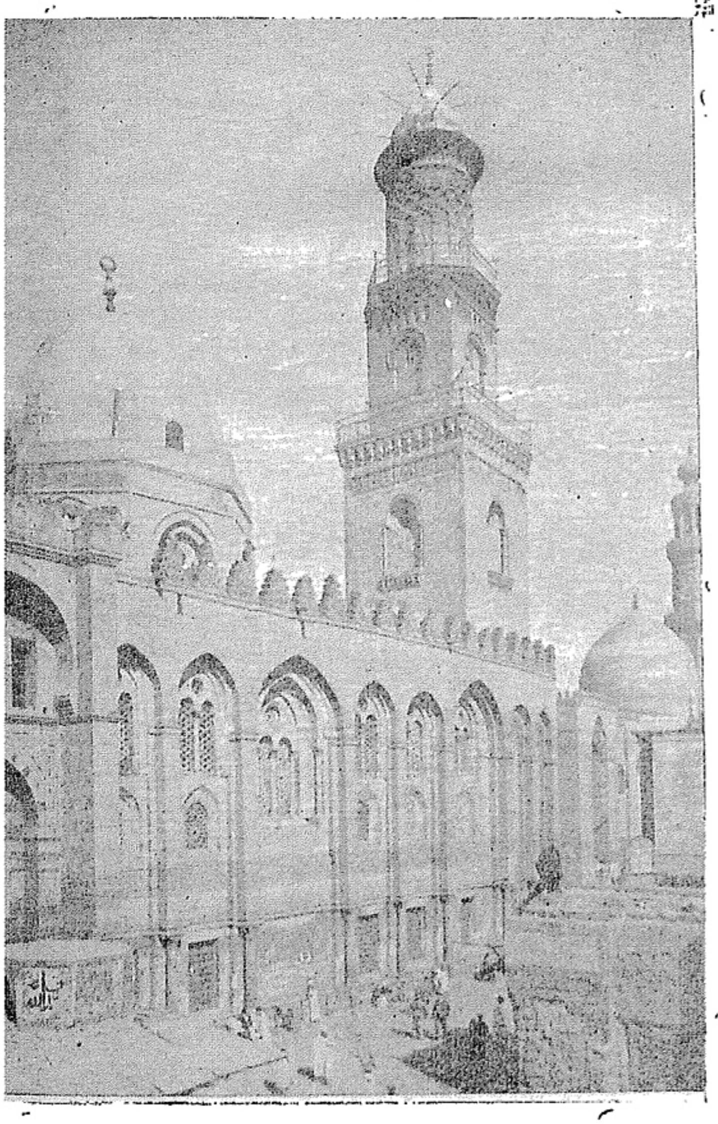
المساجد :

وأقدم المساجد المـلوكية هـو مسجد الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ) الذى خلع اسمه على حى عظيم من أحياء القاهرة (حى الظاهر) (الصـورة رقم ٢٤) والذى يعـد تاريخه مختصرا لتاريخ مصر منـذ أمسك المماليك بزمـام الحكم فيها حتى العصر الحـديث : ففى بنائه الفخـم مظهر لعظمة مصر فى عصر المماليك ، وفى اهماله وبيع أنقاضـه مظهر للفوضى التى شاعت فى البـلاد بعـد الفتح التركى ، وفى جعـل الفرنسيين منه قلعـة فى وسط القاهرة مظهر للغزو الفرنسى ، وفى تحويله على يد الانجليز الى مذبح يجهزون فيه ما يأكلونه من الحيوان حتى ليعـرف الى اليوم عند العامة بمذبح الانجليز مظهـر للاحتلال البريطـانى ، وفى بدء العنـاية به ومحاولة اعادته الى أصـله عـلى يد مصلحة الآثار مظهر لعهد الاستقلال . وهو أول مسجد

تمتاز واجهته بتلك الظاهرة التى لعبت دورا هاما فى العمارة الاسلامية حتى كادت تصبح علما عليها وهى تزيين الواجهة بأشرطة عريضة أفقية متوازية لونها أحمر وأصفر على التوالى، ويلاحظ أنها هنا انما أتت نتيجة لاستعمال نوعين من الحجـارة يختلف كل منهما عن الآخر فى لونه ، وصحن المسجد تشغله اليوم حديقة عامة ، وقد ضاعت معظم معالمه من الداخل الا بعض النـوافذ الجميلة ورواق المحراب ، الذى بقى منـه جزء تقام فيـه الشعائر .

القباب :

وأجمل القباب قبة قلاوون (٦٨٣ هـ) التى تعتبر من أروع المدافن الأثرية الاسلامية فى مصر ، (الصورة رقم ٢٥) وهى تتكون من غرفة مربعة الشكل يتوسطها مثمن تعتمد عقوده على أربعة أكتاف وأربعة أعمدة من الجرانيت الأحمر تنم تيجانها وقواعدها على أنها من صـنع المصريين فى عصر البطـالمة ، ومحرابها قطعة من الفن الجميل ، وواجهتها من الداخل ومن الخارج مثال ناطق على مدى ما وصل اليه البنّاء المصرى فى عصر المماليك من النضـوج الفنى (الصورة رقم ٢٦) ، والواقع ان هذه القبة لترهف الوجدان بجمالها الرائع ، وتغذى النفس بصنعتها المحكمة ، وتوسـع أفق العقل بما فيها من كتـابات تاريخية . واذا كانت التأثيرات الأندلسية قد ظهرت على استحياء فى العصر الفاطمى فى بعض نوافذ جامع الحاكم ، وأسفرت قليلا عن نفسها فى العصر الأيوبى فى زخارف قبة الامام الشافعى ، فهى فى عصر المماليك تبدو قوية واضحة فى زخارف الواجهة الداخلية لهذه القبة (الصورة رقم ٢٧) التى تذكرنا عند مشـاهدتها بالزخارف الجصـية لقصر الحمراء .

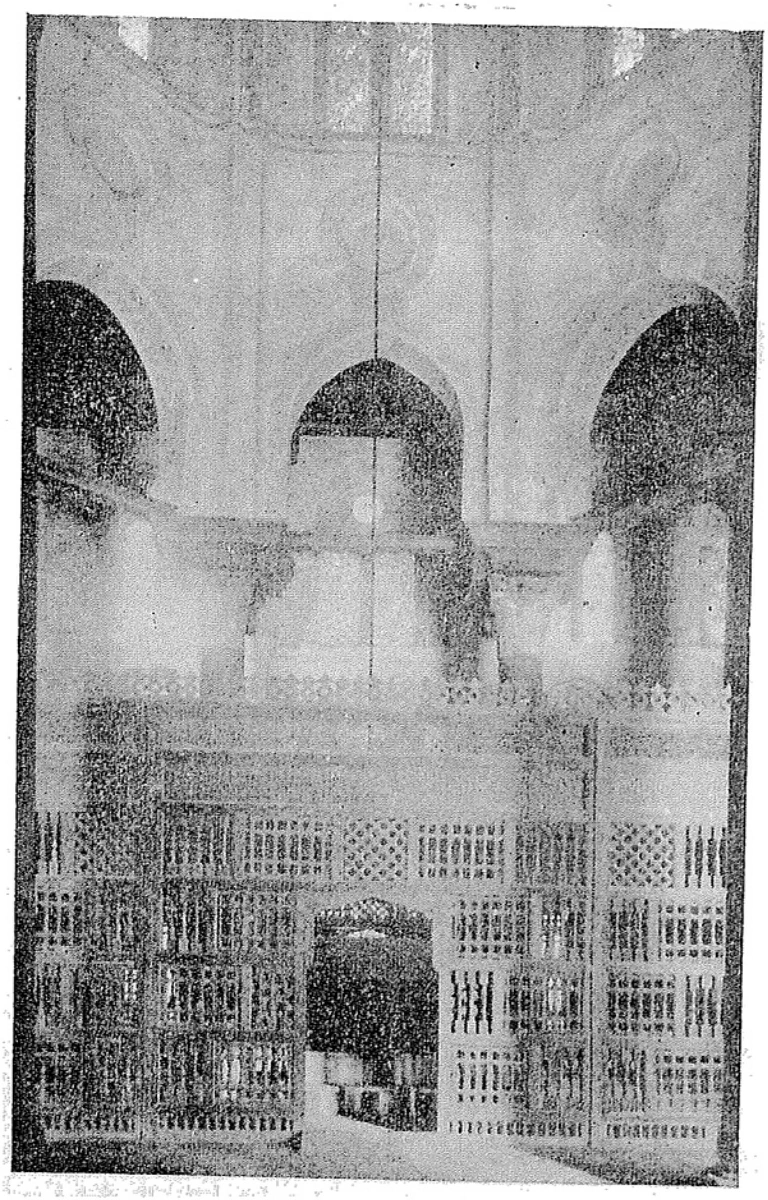


٢٥ ـ واجهة قبة السلطان قلاوون من الخارج .

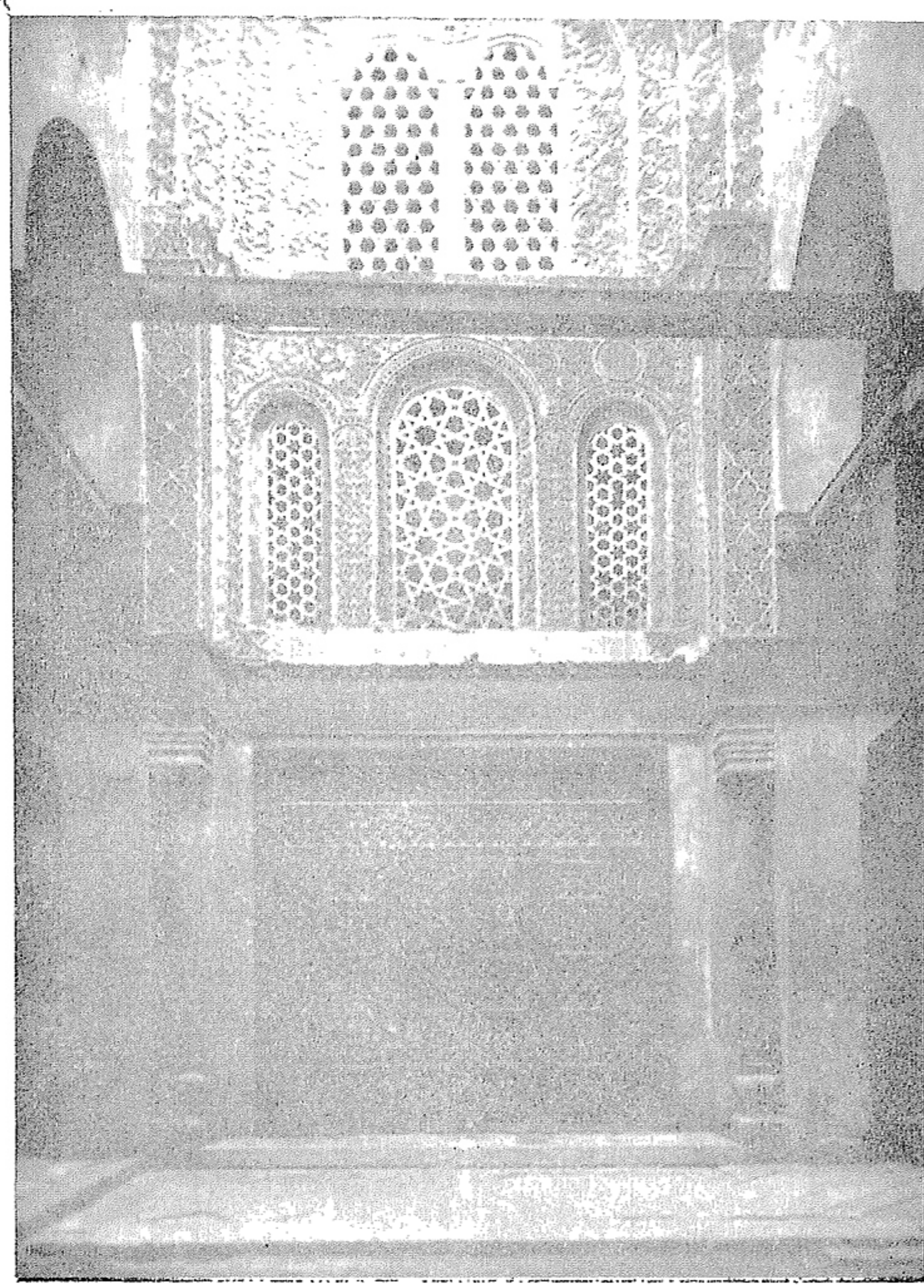
المارستانات :

والمارستان (دار الشفاء) بناء يتكون من أبهاء وحجر بها أسرة بعضها للنساء وبعضها للرجال ، ولكل مرض قسم خاص ، وفى مخازنه الملابس التى يرتديها المرضى عند تواجدهم به ، كما هو الحال فى أحدث المستشفيات اليوم ، وقد كان يتفقد شئونه أطباء من قبل الدولة يعاونهم موظفون يقومون بطبخ الأدوية والأغذية .

ومارستان قلاوون (٦٨٣ هـ) قد امتدت اليه يد الزمن فلم يبق منه الا الأرض التى يشغلها اليوم مستشفى حديث للرمد يحمل اسم قلاوون ، والا بقايا لا تستأهل الذكر ، وهو لم يكن الأول من نوعه فى مصر بل سبقته مارستانات أخرى ضاعت معالمها .



٢٦–قبة السلطان قلاوون (من الداخل)



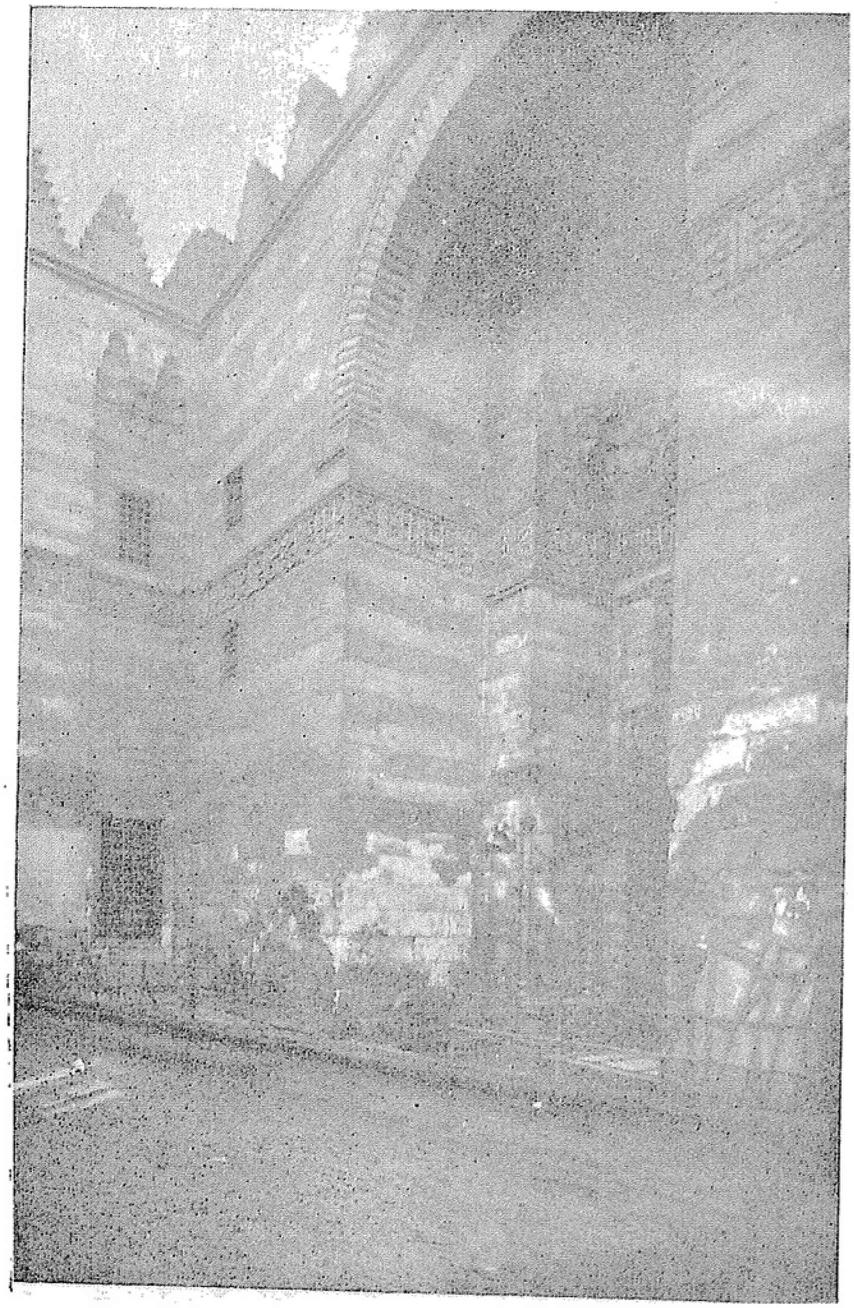
٢٧–واجهة قبه السلطان قلاوون من الداخل

وهذه المنشآت العامة التى كانت تنشئها الدولة لكى توفر وسائل العلاج للشعب كما هو الحال فى هذه المارستانات ، ولكى توفر المعرفة لهم كما هو الحال فى المدارس التى سنذكرها فيما بعد ، ولكى تخفف عنهم وطأة الظمأ فى بلد حار — كما هو الحال فى الأسبلة التى سنشير اليها — تعد من مفاخر الحضارة الاسلامية (التى كان لمصر النصيب الأوفر فيها) والتى سبقت بها غيرها من الحضارات ، وأوربا عندما نهضت نهضتها العظيمة ، واتجهت الى هذه النواحى الانسانية انما اقتفت أثر الشرق واقتدت بأجدادنا ، ولعل خير ما يترجم

عن سمو حضارة هؤلاء الأجداد فى العصور الوسطى — عصور التعصب للجنس وللدين وللطبقة الاجتماعية — هو تلك العبارة التى قالها قلاوون عند الفراغ من بناء هذا المارستان : « انى بنيته لوجه الله ، لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ، ممن هو مثلى أو دونى ، للغنى والفقير ، للحر والعبد ، للذكور والاناث » .

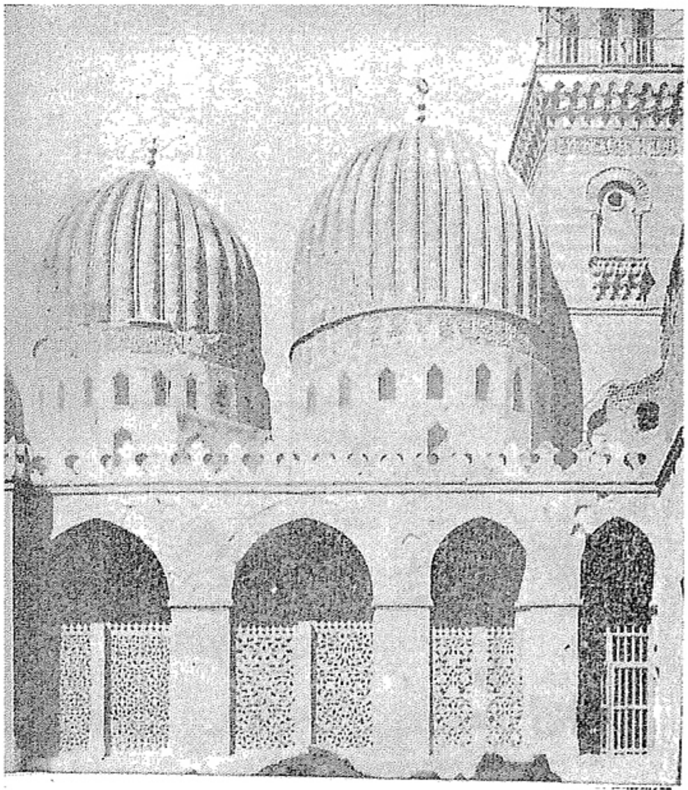
الخوانق :

والخانقاه (دار الصوفية) أشبه ما تكون بالدير عند المسيحيين (الصورة رقم ٢٨) ،



٢٨—خانقاه بيبرس الثانى (من الخارج) .

وقد نشأت فكرتها عند المسلمين عندما ضعفت روح الدين فى النفوس مما دفع ببعض الناس الى العزلة زهدا فى الحياة الاجتماعية التى اصبحت حافلة بألوان اللهو فشيدوا هـذه الأبنية التى تحتوى على غرف متعددة يعيش فيها هؤلاء المتصوفون ، وقد ظهرت الخوانق فى مصر أول ما ظهرت فى عصر صلاح الدين ، وتعد الخانقاه الجاولية (٧٠٣ هـ) من أجمل ما شيد من هذا النوع ، وواجهتها المطلة على شارع مارسينه تفصح عن مقدرة المهندس الذى خططها ، والبنّاء الذى نفذ هـذا التخطيط ، فالقبتان المتماثلتان مظهرا ، المختلفتان ارتفاعا ، والمئذنة القائمة الى جوارهما تكوّن معا لوحة فنية تتوفر فيها أصول الجمال الفنى بصورة رائعة ، ولقد امتدت يد التخريب الى الغرف المعدة للصوفية ، ولكن بقى لنا بعض النوافذ التى تغطيها شبابيك من الحجر مزخرفة بزخارف جميلة لا مثيل لها فى العمارة الاسلامية فى مصر . (الصورة رقم ٢٩) .



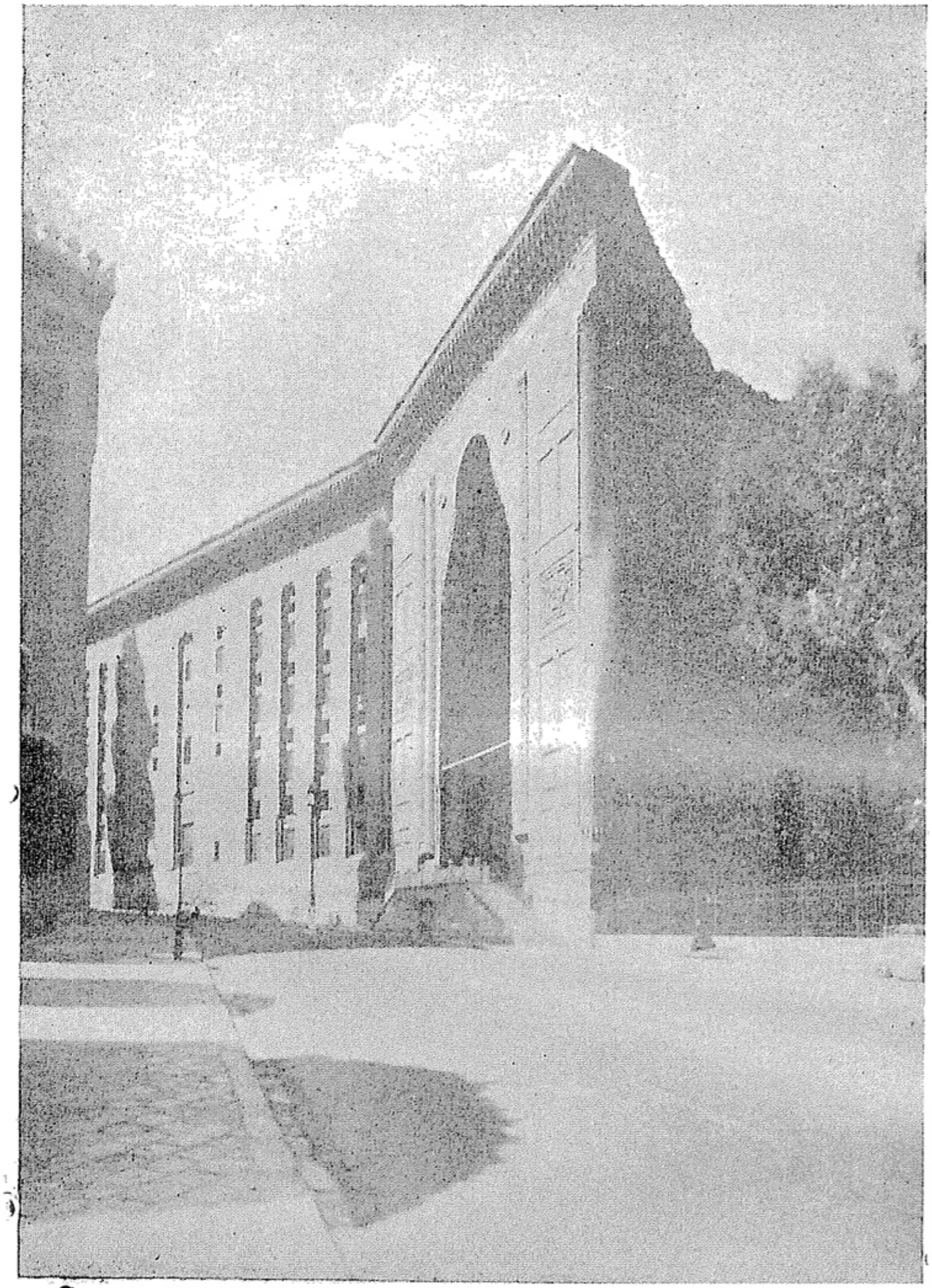
٢٩- الخانقاه الجاولية من الداخل وتبدو فى الصورة الشبابيك الحجرية الجميلة .

القصور :

وقصر الأمير بشتاك (٧٣٥ هـ) كان من أعظم مبانى القاهرة يستطيع الانسان أن يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والنيل والبساتين ، كما يقول المقريزى ، ولم يبق لنا منه الا قدر قليل يتمثل فى قاعة عظيمة ذات سقف جميل ونافورة رائعة ، ثم بعض الأجزاء التى تعاون على اعطاء فكرة عن شكل القصر من الخارج فى هذا العصر الذى ندرت فيه القصور كما ندرت فى جميع العصور المصرية الاسلامية قبل الفتح التركى ، ولعل السبب فى ذلك خشية الناس من الاعتداء على بيوت الله من عقاب الله فعاش الكثير من هذه البيوت حتى وصل الينا ، أما بيوت الأعداء من البشر فما أهون الاعتداء عليها اذا ما ملك الانسان السلطة والنفوذ .

المدارس :

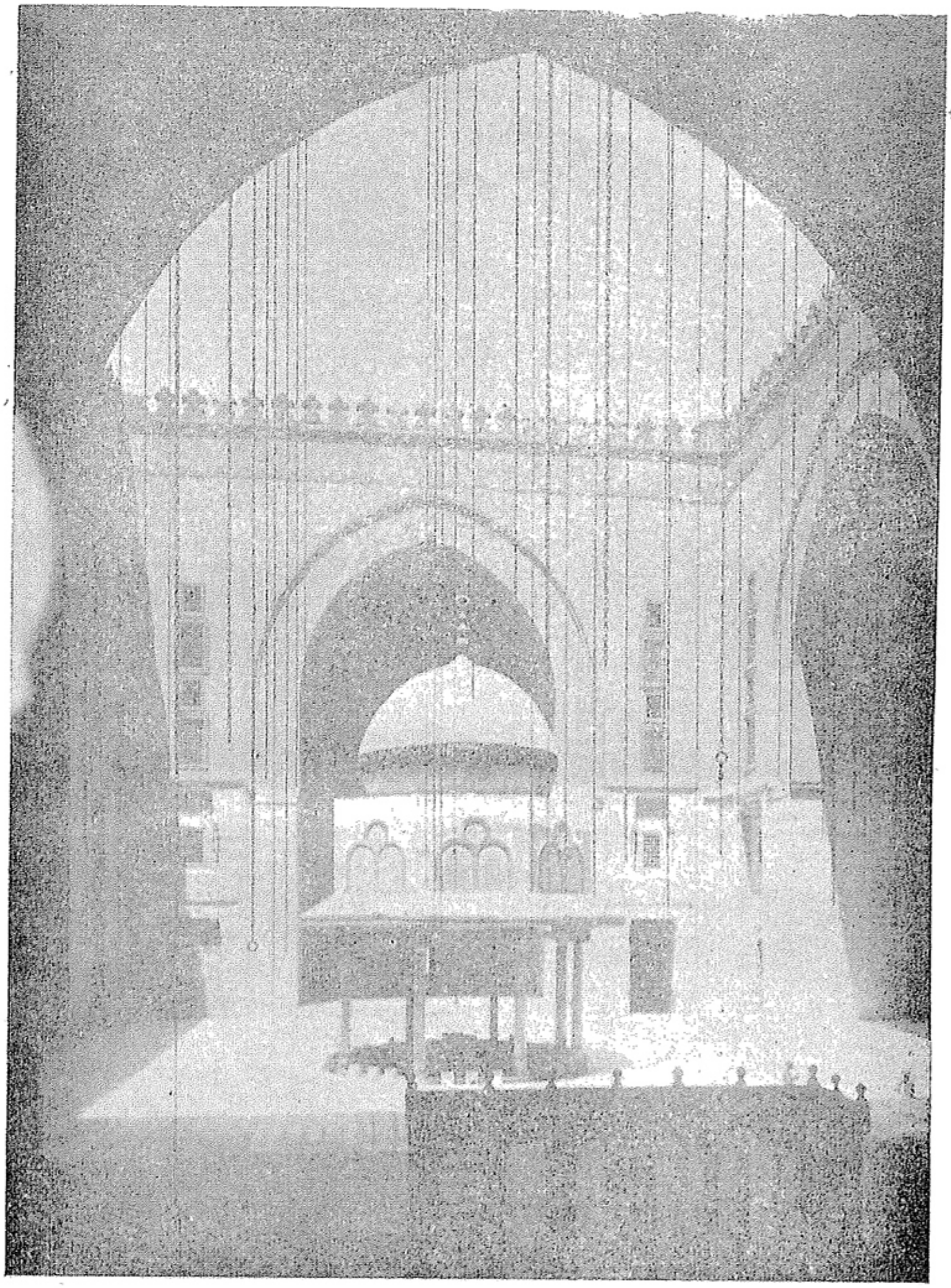
وقد كانت مجالس العلم تعقد فى المساجد ، وظلت كذلك الى ان اتسعت دائرة المعرفة وتشعبت فروعها ، وحينئذ أحس الناس ان المناظرة والجدل — وهما من أسس الدراسة — قد يخرجان بالطلاب والأساتذة أحيانا عن



٣٠–مدرسة السلطان حسن (من الخارج) .

حد الهدوء الواجب توفره فى المساجد ، فرأوا أن يخصصوا للدراسة قاعة فى دورهم ، فلما ضاقت القاعات بالطلاب أنشأوا أماكن خاصة هى المدارس التى عرفها المسلمون لأول مرة فى القرن الخامس الهجرى فى ايران ثم انتشرت بعد ذلك فى العالم الاسلامى . ودخلت مصر مع صلاح الدين ، ثم أقبل الناس على انشائها بعد ذلك اقبالا شديدا .

وتعد مدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) (صورة رقم ٣٠) من أعظم الآثار الاسلامية

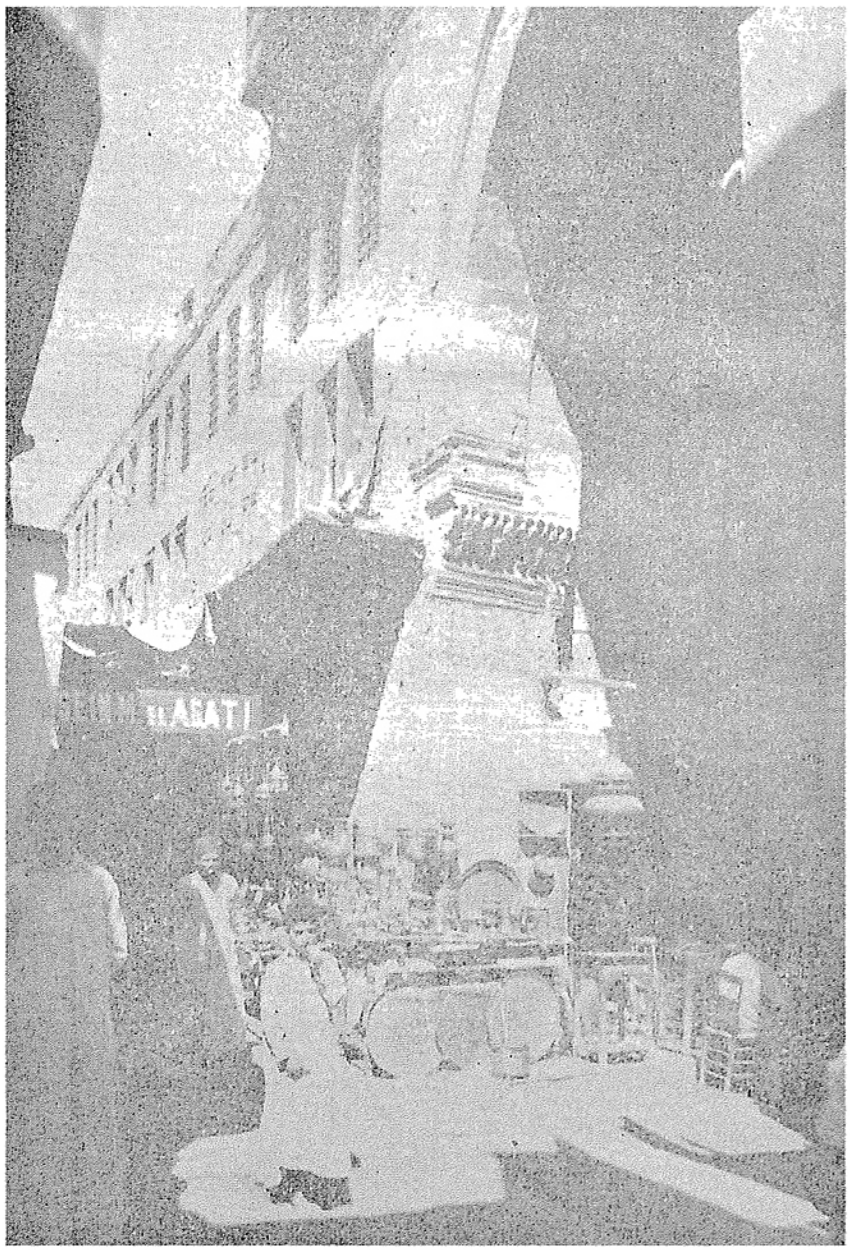


٣١-مدرسة السلطان حسن (من الداخل) .

فى العالم وأروعها فى مصر ، والواقع ان عظمة الفن الاسلامى وجلاله يبدوان واضحين فى كل جزء من اجزاء هذه المدرسة العظيمة . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص هذا الفن : ففيها الخط الكوفى والخط النسخى ، وفيها الزخارف التى تعلمها المسلمون ممن قبلهم من الأمم ، والزخارف التى أبدعوها وصارت من أخص مميزات فنهم .

وتصميم المدرسة يقوم على صحن

مكشوف تتوسطه نافورة ، وتطل عليه من الجهات الأربع أربعة عقود عظيمة (الصورة رقم ٣١) . وفى الزوايا الأربع لهذا الصحن أقيمت أربع مدارس يتكون كل منها من ايوان ، وفناء تتوسطه نافورة ، وتحف به مساكن بعضها فوق بعض ، أعدت ليعيش فيها الطلاب والأساتذة . واختصت كل مدرسة بتدريس مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ، ويتصل بهذه المدرسة أو الجامعة على الأصح مدفن أعد لكى يدفن فيه مؤسسها السلطان حسن ، تعلوه قبة شاهقة وتزينة زخرفة جميلة وقد يكون من الطريف



٣٢ـ خان الخليلى .

أن نذكر أنه كان فى هـذه الجامعة بكلياتها الأربع مراقبان لمراقبة الحضور والغياب ، أحدهما يعمل بالنهار والآخر بالليل ، وكان لها اطباء ثلاثة اختص أحدهم بالطب الباطنى والثانى بطب العيـون والثالث بالجراحة .
وكان فى كل كلية مكتبة عظيمة لها أمين خاص بها .

الخانات :

وخان الخليلى الذى ذاعت شهرته يستمد اسمه من سيف الدين جركس الخليلى أحد امراء المماليك الذى كان يعيش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وقد كان الخان فى الأصل أشبه ما يكون بفنادق اليوم مع فارق واحد هو أنه كان يتسـع لدواب



٣٣ــ سبيل السلطان قايتبـــاى ويرى باعلاه الكتّاب .

المسافرين — وقد كان أغلبهم من التجار — ويتسع كذلك لما يحملونه من بضاعة ، ففى صحنه المكشـوف كانت تربط الدواب — وهى وسيلة السفر فى تلك الأيام — وفى غرفه التى تطل على الصحن كانت تحفظ البضاعة، وفى غرفه التى تفتح على الطريق العام كان يعرض البعض من هذه السلع للبيع أوالمبادلة، وفى الطبقة العليا غرف متعددة أعدت لنزول التجار وغيرهم من المسافرين . وقد هدم السلطان الغورى هذا الخان وانشأ مكانه حواصل وحوانيت وجعل له ثلاثة أبواب لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم . (الصورة رقم ٣٢).

الأسبلة :

وسـبيل السـلطان قايتباى (٨٨٤ هـ) بالصليبة يعد من أروع ما شيده هذا السلطان من عمائره الكثيرة ، ومن أجمـل ما يجلو علينا هذا النوع من الأبنية ، وهو يتكون فى أسفله من مورد ماء عذب يشرب منـه الناس ، وفى أعلاه « كتّاب » لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والحساب ، وقد كان السبيل « والكتاب » جزءا من المدرسة أو المسجد ثم استقلا بوجودهما كما هو الحال هنا . وأقبل الناس على الاكثار منهما ، وحبّسوا عليهما الأعيان التى يصرف ريعها على التلاميذ ومعلميهم وعلى توفير ماء الشرب للناس فى بلد اشتهر بجوه الحار ، فليس أقرب الى الله من سقى الماء ونشر العلم . (الصـورة رقـم ٣٣) .

الفنون الزخرفية

بقى علينـا ان نتحدث فى ايجـاز عن المصنوعات وما كان يزينها من فنون زخرفية وهى الركن الثانى من ركنى الحياة الفنية فى مصر الاسلامية .

واذا كان للعمائر الدينية التى درسناها طابع خاص يكاد يكون منقطع الصـلة بما سبقه من عمائر دينية فى مصر ، طابع يترجم عن الدين الجديد الذى دخل الى هذه البلاد ويتمشى من حيث التصميم والمظهر مع العمائر الدينية الاسـلامية خارج مصر فالأمر ليس كذلك فى المصنوعات ، وما تزدان به من فن زخرفى اذ ظلت التقاليد المصرية السابقة على الاسلام واضحة وضـوحا قويا فى العصر السابق على الطولونى حتى ليصعب علينا فى بعض الأحيان أن نفرق فيها بين ما صنع قبل الفتح العربى وما صنع بعده بقليل .

ولكى ندرك مدى ما أحدثه أجدادنا فى العصور الوسطى من تطور فى هذه المصنوعات وزخارفها نرى لزاما علينا أن نخص كل مادة من المواد التى استخدمت فى الصناعة بكلمة خاصة نبدؤها بما كانت عليه قبل الفتح العربى ثم نسير معها متتبعين تطورها حتى الفتـح التركى .

مواد البناء

ففى مواد البناء نلاحظ أنه على الرغم من وجود المحاجر التى استمد منها المصريون فى عصورهم السابقة الأحجار لتشييد عمائرهم

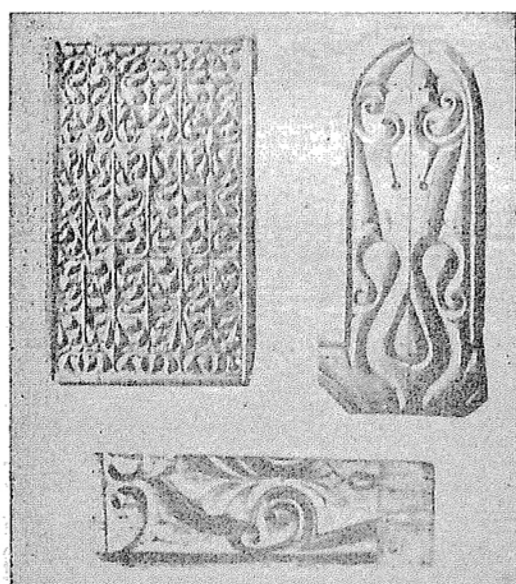
فان العرب استصعبوا قطع الحجر واستسهلوا عمل اللبن فبنوا به مساجدهم الأولى . وعندما جاء ابن طولون الى مصر حمل معه تقاليد العراق فى البنـاء وهى تقوم كذلك عـلى استخدام اللبن والطوب المحروق لعدم توفر الحجر عندهم فظلت مصر تسير على نهجها السابق ، وقد كان طبيعيا أن يغطى الطوب بالجص وأن تنقش الزخارف على هذا الجص.

وفى العصر الفاطمى — ذلك العصر الذى أحيا تقاليدنا القديمة كما ذكر من قبـل — نجد البناء بالحجر يظهر من جديد ، ويعود النشاط الى المحاجر ، ونلمس فى واجهة جامع الحاكم ومئذنتيه ، وفى واجهة جامع الأقمر ، وفى أبواب القاهرة وأسوارها ، أمثلة رائعة للمهارة الفائقة فى البنـاء وفى النقش عـلى الحجر .

وظل استعمال الحجر بارزا فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وتجلى فى هـذا العصر حذق أجدادنا فى نقشه ، وفى طريقة استعماله فى المآذن والقباب والشبابيك .

ولم يستخدم الحجر فى البناء وحده بل اتخذت منه شواهد للقبور (الصورة رقم ١)، والمتحف الاسـلامى بالقـاهرة غنى بهـذه الشواهد التى تعطى الباحث فكرة واضحة عن تطور الخط الكوفى والنسخى ، كما عملت منه أيضا المنابر والأوانى والتماثيل ، وهذه الأخيرة وان كانت نادرة الا انها كافية لكى تثبت أن الفن الاسلامى قد عرف **فن النحت** وهو وان كان لم يصـل فيه الى الدرجة التى سمت اليها الفنون القديمة السـابقة عـلى الاسلام الا أن هذا لا يعد دليلا على تأخر المبدعين له وليس فيه ما يزرى بمكانة هـذا الفن بين الفنون ، لأن لكل فن بيئته التى نشأ فيها والعـوامل التى تحكمت فى نشـأته ، والقرآن الكريم لم يحرم فن النحت (صناعة التماثيل) وقد أدرك أسلافنا أن التحريم ان وجد فهو منصب على التماثيل التى تعبد من دون الله ، وأما غيرها فـلم يتـحرجوا من استعمالها فى تزيين قصـورهم وقد وصـلت الينا أمثلة عدة ، منها ما هو على هيئة الانسان ومنها ما هو على هيئة الحيوان ، وفى القاعة الفاطمية بمتحفنا بالقاهرة تمثالان من الحجر يمثلان أسدين يزحفان على مهل تتجلى فيهما العضلات واللبد بشكل واضح .

ولا ينبغى أن ننسى أن استعمال الحجر



٣٤-طريقة الحفر المائل كمـا تتجلى فى قطع أخشاب طولونية بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

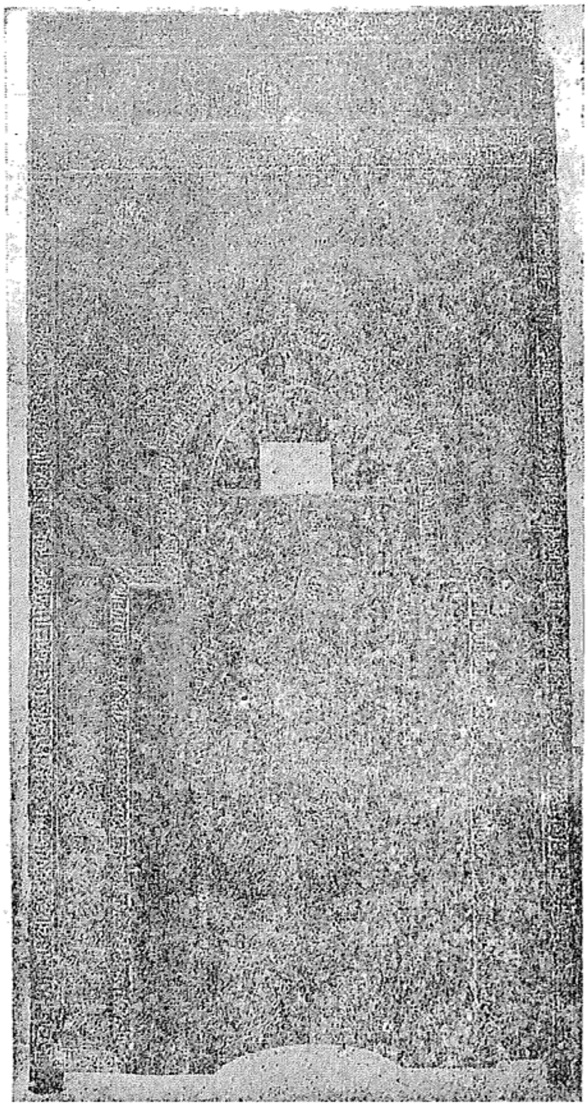
ليس معناه عدم استعمال الطوب والجص بل لقد سارا معا ، والخبرة التى اكتسبناها منذ العصر الطولونى فى استعمال الجص ظلت تتطور وتتبلور حتى وصلت الى غاية نضجها فى عصر المماليك الذى شهد أروع أمثلة الزخارف الجصية سواء فى النوافذ أو على الجدران .

والرخام الذى استعمل على قلة قبل عصر المماليك قد شاع استعماله فى هذا العصر ووصلت الينا منه ثروة عظيمة منها ما نراه فى الأبنية القائمة ومنها ما هو معروض بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . ويكفى أن نشير الى أرضية كثير من المساجد التى تكسوها ألواح الرخام المختلفة الألوان ، والى النافورة الرائعة فى المتحف سالف الذكر .

الأخشاب

ولقد كانت مصر طوال تاريخها فقيرة فى الأنواع الجيدة من الأخشاب ، فاستوردتها من لبنان (الأرز والصنوبر) ، ومن السودان (الأبنوس) ومن الهند (الساج) ، واستعملتها مع بعض الأنواع المحلية (الجميز والنبق) فى صناعاتها المختلفة ، وفى المتحف المصرى وفى المتحف اليونانى الرومانى ، وفى المتحف القبطى أمثلة رائعة تدل على المهارة والحذق فى صناعة النجارة .

وسار المصريون فى العصر الاسلامى على النهج القديم فى الصناعة وفى الزخرفة ، فاستعملوا الحفر ، والتلوين ، والتطعيم كما



٣٠ ـ محراب السيدة رقية من الخشب وتتجلى فيه طريقتا التجميع والحفر بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

فعل أجدادهم ولكنهم فى العصر الطولونى خرجوا على ما ألفوه من قبل ، واستعملوا طرازا زخرفيا جديدا جلبه معه أحمد بن طولون هو الحفر المائل (الصورة رقم ٣٤)، ويشير المقريزى الى التماثيل الخشبية التى كانت تزين قصر خمارويه والتى تدل من غير شك على استمرار تقاليدنا القديمة فى هذه الناحية .

على أننا قد عدنا الى التقاليد القــديمة بشكل واضح فى العصر الفاطمى ، فظهرت من جديد طريقة الحفر العميق التى ألفها أجدادنا ، وتجلت فى صور رائعة نشاهدها فى حجاب كنيسة الست بربارة بالمتحف القبطى وفى المنبر الموجود فى مسجد قوص ، وفى محـــراب السيدة رقية (صورة رقم ٣٥) ، وفى ألواح القصر الفاطمى الصغير فى المتحف الاسلامى . واذا كانت هذه التحف الخشبية تعكس لنا رقى الذوق الفنى عند أجدادنا فى العصــور الوسطى فالتحفتان الأولى والأخيرة تساعدنا على تكوين فكرة عن الحياة الاجتماعية فى تلك العصور بما عليها من صور تمثل مناظر الصيد ، ومجالس الطرب ، وأشكال الرقص، وطرق الانتقال ، ومظاهر الزى .

وتقدم فن الحفر على الخشب تقــدما ملحوظا فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، وقد عنى النجارون فى هذين العصرين أكثر ما عنوا بالزخارف الهندسية والنجمية التى أتقنــوها اتقانا ينتزع الاعجاب من كل من يراها ، ويكفى دليلا على ذلك ما نراه فى تابوت الامــــام الشافعى (بقبته) وتابوت الامام الحســين (بالمتحف الاسلامى) ، والمنبر الموجــود بمسجد ابن طولون .

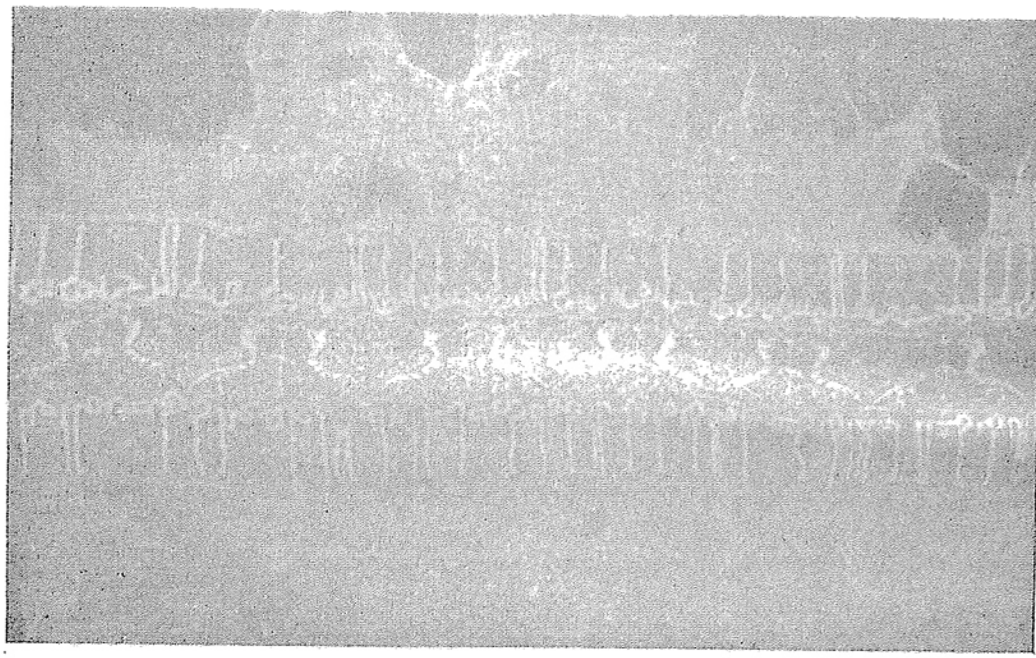
على أننا لم نقف فى العصـــور الوسطى جامدين عند تلك الطــرق التى ورثناها عن أجدادنا فى زخرفة الأخشاب بل ابتدعنا طرقا جـــديدة لم تكن معروفة من قبل ، وذاعت بفضلنا فى شرق العالم وغربه كطريقة التعشيق، وطريقة التجميع ، وطريقة الخرط ، والطريقتان الأولى والثانيــة نشاهدهما فى التحف التى ذكرناها وفى غيرها من منابر كثيرة ، والطريقة الثالثة تتجلى فيما يعرف « بالمشربيات » التى كانت تزين واجهات كثير من منازلنا وقصورنا فى العصور الوسطى والتى كانت من غــير شك متفقة مع جو بلادنا ، ومتلائمة مع نظامنا الاجتماعى حينئذ ، فهى تساعد عــلى دخول الضـــوء اللطيف ، ومرور النسيم العليل ، فتوفر بذلك فى المنزل جوا مناســبا فى بلد اشتهر بشمسه الساطعة ومناخه الحار ، وفى المتحف القبطى ومتحف أندرسون أمثــلة جميلة لهذه المشربيات .

التصــــوير

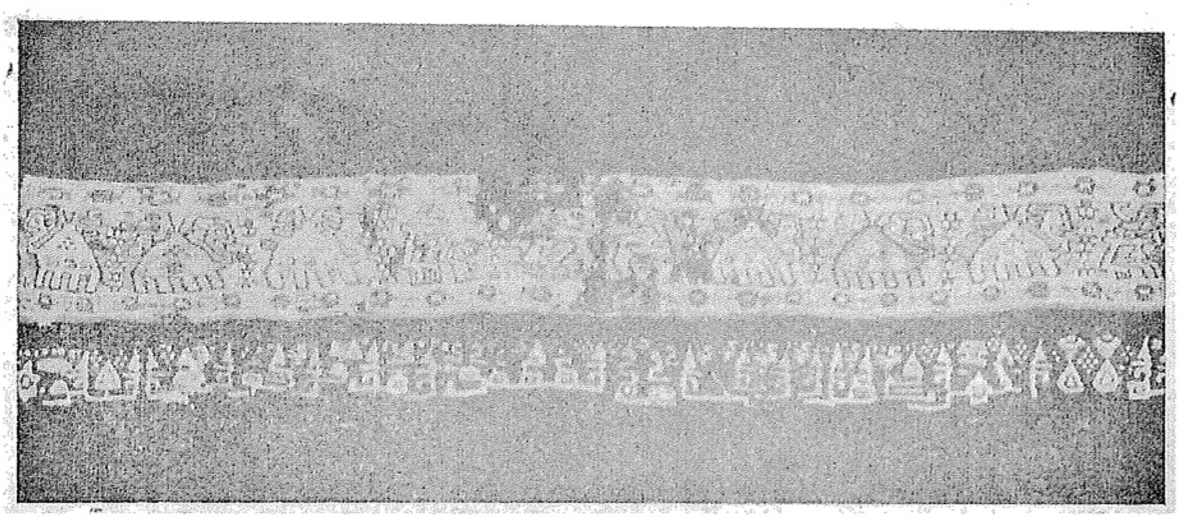
والاستعانة بالتصوير فى تزيين الجدران أمر كان معروفا عند أجدادنا المصريين ، وكان معروفا أيضا عند العرب فى جاهليتهم فقــد زينوا دعائم الكعبة — قبل الاسلام — بصور الأنبياء ، وكان من بينها صورة ابراهيم خليل الرحمن ، وصورة السيد المسيح وأمه على حد قول الأزرقى فى كتابه أخبار مكة وما جاء فيها من الأثر .

ولما جاء الاســـلام اقتصر المسلمون فى اســـتعمال التصـــوير على تزيين القصـــور والحمامات دون المساجد ، ولم يكن الدافع الى ذلك كراهية التصوير كفن ولكن كان سموا بالاسلام كدين يرتفع فوق الماديات ، ويجعل الصلة بين العبد وربه صـــلة روحية

قوامها التجــرد من كل ما هو مادى ، وقد كشفت الحفائر الأثرية سواء فى مصر أو فى خارج مصر عن حمامات وقصور ترجع الى القرن الثانى والثالث والرابع بعد الهجرة كانت تزدان بالصور الجميلة ، وفى القاعة الفاطمية بمتحفنا الاسلامى مثال رائع للتصوير على الجدران نقل من الحمام الفاطمى الذى أشرنا اليه من قبل (الصورة رقم ١٩) ولعل فيما ذكرناه هنا أبلغ رد على الذين يتهمون الاسلام بتحريم التصوير ، فعلى الرغم من أن القرآن الكريم خلو من أى نص يحرم هذا الفن فان المنطق السليم يأبى أن يسلم بأن هذا الدين



٣٦ـ قطعة نسيج من العصر الفــاطمى بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠



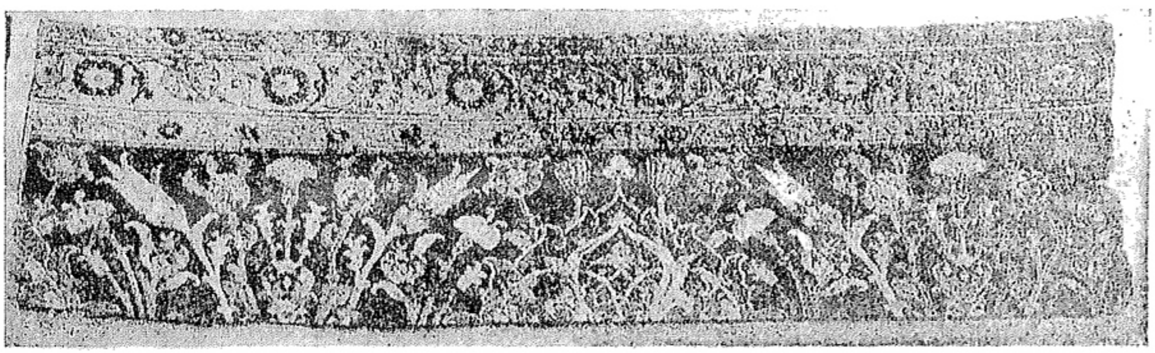
٣٧ـ قطعة قماش نسجت فى اقليم الفيوم تتجلى فيها زخارف الفن القبطى والكتابة العربية التى لها هنا طابع خاص بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠

قد حرم التصوير مع ما له من دور خطير فى الحياة العلمية والحياة الاجتماعية .

المنســـوجات

ومنذ فجر التاريخ بل وقبل أن يشرق هذا الفجر عرفت مصر صناعة المنسوجات ، والأمثلة التى تنطق بمهارة أجدادنا فى هــذه الناحية فى كل العصور تفخر بها المتاحف فى مصر وفى الخــارج . والمكانة السامية التى وصلنا اليها فى العصور القديمة فى هـــذه

النساجين وأشــهر الرســامين وأغلى المواد الخــام حتى تستطيع أن تخرج من الأقمشة ما يليق بالخلفاء والأمراء والحكام ومن يلوذ بهم ، وقد كان الشعب من ورائهم يترسم خطا هـــذه المصــانع ، ويســير على هــديها (الصورة رقم ٣٧) وليست «دار الكسوة» الموجودة حتى اليوم الا بقية من «دور الطراز» القديمة ، وهى لا تختلف عنها الا فى انكماش اعمالها ، واقتصارها على نسج كسوة الكعبة التى ترسلها كل عام الى مكة .



٣٨-قطعة من طنفسة مصرية عملت للبـــلاط العثمانى بأيد مصرية .

الناحية بلغناها أيضا فى العصور الوسطى ، (الصورة رقم ٣٦) وكان فى تقاليدنا فى تلك العصور من كسوة الكعبة ، وعادة منح الخلع ما عاون على بلوغ هذه الدرجة بل وتجاوزها فى كثير من الأحيان كما تشهد بذلك قطــع النسيج الاســلامية المعروضة فى المتحف . والفضــل فى ذلك راجــع الى الدور الذى لعبتــه « دور الطــراز » أو بعبارة أوضــح المصــانع الحكومية للنسيج التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها وكانت تســتخدم أمهر

ولقد ساهم اجدادنا فى العصور الوسطى فى نشر الحرير فى مشارق الأرض ومغاربها ، وقد تزعموا تجارته فى تلك العصور ، ولعبت الاسكندرية دورا هاما فى هذه التجارة اذ كانت هى التى تحدد اسعاره للعالم المتحضر حينئذ .

الطنـــافس

وهناك صفحة من عظمة مصر فى الصناعة طواها النسيان ، وكشف عنها البحث الأثرى هى تفوق مصر فى العصور الوسطى فى صناعة

الأبسطة ذات الخمل أو الطنافس كما ينبغي أن تسمى . وقد كانت حيئنذ أكبر منافس لبلاد العجم فى هذه الصناعة ، وأمدتنا حفائر الفسطاط بما يثبت قيام هذه الصناعة عندنا منذ العصر العباسى ، واستمرت كذلك حتى العصر المملوكى الذى بلغت فيه ذروة نضوجها (الصورة رقم ٣٨) والأمثلة القليلة الموزعة بين متاحف أوربا لا سيما فى ڤينا تشهد بهذا النضوج ، وفى متحفنا بالقاهرة مثال منها يقل فى أهميته وجماله عن تلك الأمثلة التى تعيش فى دار الغربة ، وتؤدى لنا هناك رسالة عظيمة اذ هى فى الواقع سفير صادق يكشف للغير عن مجدنا وحضارتنا فى العصور الوسطى .

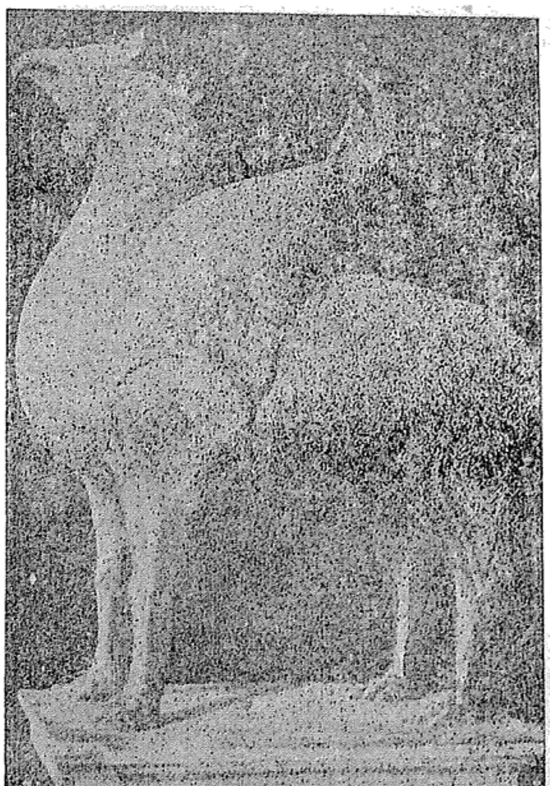
المعـــادن

ولقد سرنا فى صناعة المعادن فى العصور الوسطى على النهج القديم الذى كان يسير عليه أجدادنا من قبل ولكننا أضفنا الى طرق الزخرفة القديمة : من حفر غائر أو بارز ، أو تخريم ، أو ترصيع بالمينا ، طريقة جديدة هى طريقة التكفيت — أى تطعيم الأوانى بالذهب أو بالفضة أو بهما معا — التى ابتكرها أجدادنا من المسلمين ، وقد شاعت هذه الطريقة ، وتعلمها الأوربيون على أيدينا ، ويمكن أن نشاهد فى المتحف الاسلامى عندنا أمثلة مصرية اسلامية ، وأمثلة قد صنعت فى ايطاليا تقليدا لهذه التحف الاسلامية حتى ندرك مدى الفرق بين عمل الأستاذ وعمل التلميذ .

ويلاحظ أنه لم يصل الينا من التحف

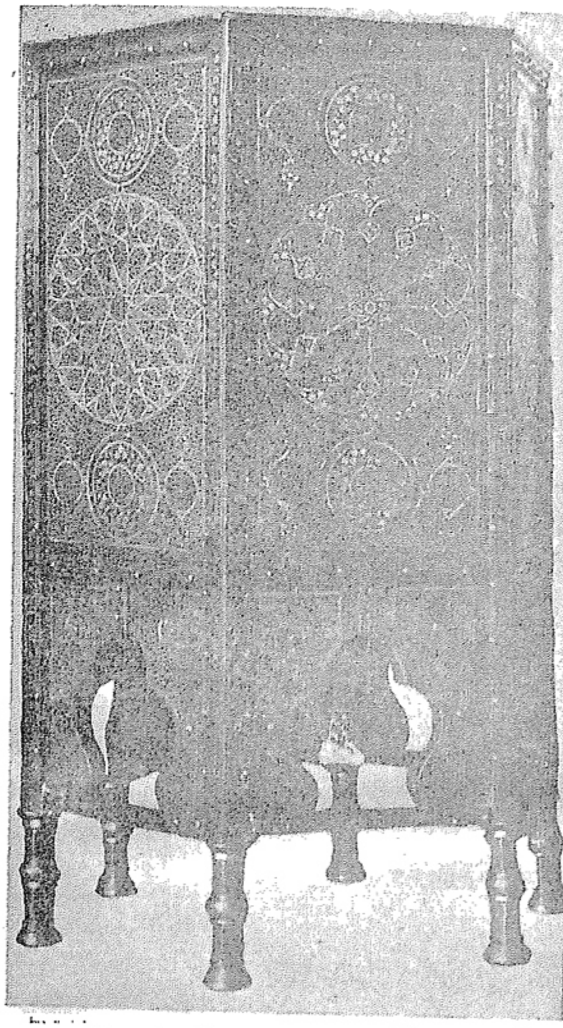


٣٩- تمثال صغير من البرونز وجد فى خرائب الفسطاط ـ بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

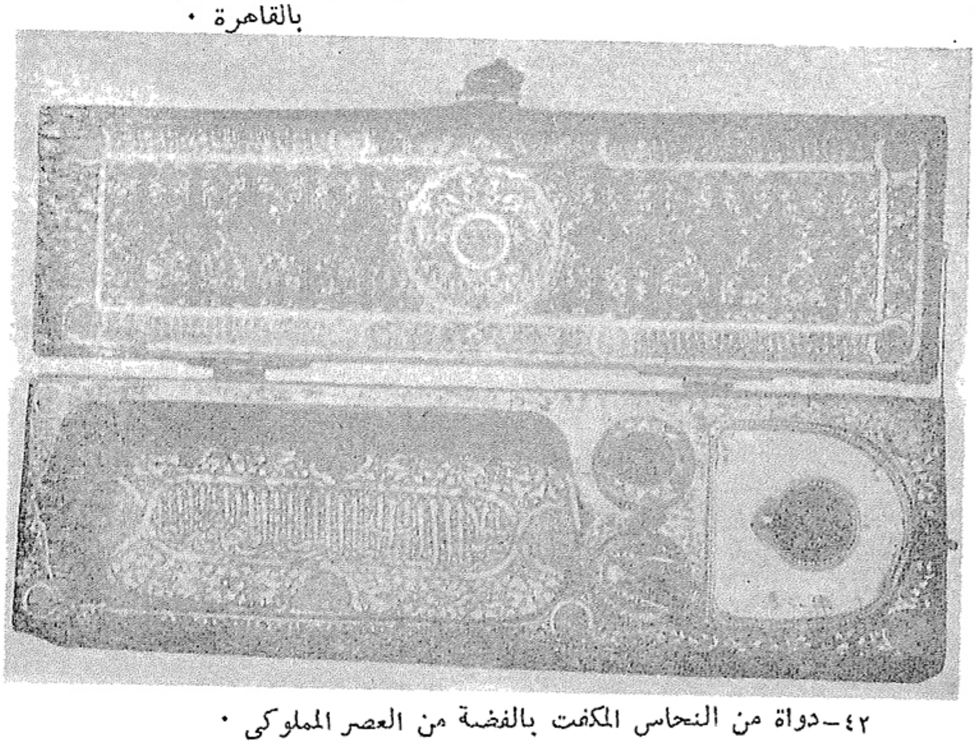


٤٠- تمثال من البرونز من العصر الفاطمى موجود الآن فى مدينة بيزا بايطاليا .

المعدنية الا القليل ، اذ جرت العادة بصهر الأوانى المعدنية كلما تقادم عليها العهد لكى تستبدل بأوان جديدة . وفى المتحف الاسلامى بالقاهرة بعض التماثيل الفاطمية المصنوعة من البرنز (الصورة رقم ٣٩) على أن أروع تمثال برنزى من هذا العصر موجود فى مدينة بيزا بايطاليا وهو يمثل حيوانا له جسم أسد ورأس نسر وبه زخارف محفورة من بينها كتابات عربية (الصورة رقم ٤٠) . وقد أولع الناس فى عصر المماليك — كما يقول المقريزى — بالأوانى المعدنية ، وفى المتحف مجموعة قيمة من هذا العصر تتمثل فى تلك الثريات والشماعد والأباريق والأوانى ، ونخص بالذكر منها كرسى (مائدة صغيرة) من عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (الصورة رقم ٤١) ودواة من عصر حفيد هذا السلطان (الصورة رقم ٤٢) وكلاهما من أروع التحف المعدنية فى العالم .



٤١ - كرسى (مائدة صغيرة) من النحاس المكفت بالفضة من عصر المماليك — بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .



٤٢ - دواة من النحاس المكفت بالفضة من العصر المملوكى .

الخــــزف

وإذا كانت التحف المعدنية التى وصلت الينا قليلة كما ذكرنا فان التحف المصنوعة من الفخار والخزف كثيرة لا تحصى ولا عجب فى ذلك ، فالأولى من اليسير صهرها والثـانية لا تبلى مهما تقادم عهدها .

وصناعة الأوانى من الفخـار عريقة فى القدم ، أتقنها أجدادنا الفراعنة فأخرجوا لنا أوانى فخارية جميلة ، وابتكروا الخزف أى الفخـار المغطى بطبقة زجاجيـة ، وحذقوا صـناعته ، وعلّمـوها لغيرهم من الأمم . والملاحظ أن صناعة الأوانى الفخارية أو الخزفية فى العصـور السابقة على الاسلام لم تكن موضع رعاية الحكام والملوك لأن هؤلاء قد اتخـذوا معظم أوانيهم من الذهب والفضة والبرنز ، وعندما ظهر المسلمون على مسرح التاريخ لم تشهد هذه الصناعة فى أول الأمر تطورا يذكر ، ويظهر أن الخلفـاء الأمويين فى الشام قد ساروا على نهج ملوك الدولتين الساسانية والبيزنطيـة ففضـلوا اسـتعمال الأوانى المعـدنية على غـيرها ، أما فى العصر العباسى فقـد تغـير الحال ، اذ كان من أثر تبـادل الرحـلات والتجـارة بين البـلاد الاسلامية وبلاد الصين أن وجـدت الأوانى الخزفيـة الصينية طريقها الى أسـواقنا ، وأصبح لها مكانة ممتازة بين السلع المختلفة مما حملنا على تقليدها وقد نجحنا فى هـذا التقليد نجاحا باهـرا يتجلى فى « خـزف الفيوم » الذى نشاهد منه أمثلة جميلة فى المتحف الاسلامى . ثم انتقلنا من مرحلة التقليد الى مرحلة الابداع وكان لبعض الأحاديث النبوية التى كرّهت الناس فى استعمال الأوانى المصنوعة من الذهب أو الفضة أثر واضح فى هذا الابتداع فظهر نوع جديد من الخـزف لم يعرفه الشرق القديم ولا الصين نفسها ، له بريق كبريق الذهب هو المعروف « بالخزف ذى البريق المعدنى » الذى نراه لأول مرة فى العصر الطولونى (ولا يسـتبعد أن تكون الفكرة قد أتت الينا من العراق مع أحمد بن طولون) ، وتفوقنا فى صنعه فى العصر الفاطمى فوصلنا فيه الى درجة سامية يؤمن بها كل من يشاهد الأمثلة الفاطمية المعروضة من هـذا الخزف فى المتحف الاسـلامى (الصـورة رقم ٤٣) .

وقد استمر انتاجنا فى شتى أنواع الخزف يتقدم عبر العصور ، وأبدعنا فى عصر المماليك أنواعا جديدة منها ما هو مبتكر (الصـورة رقم ٤٤) ومنها ما هو تقليد لأنواع شتى من خزف الصين (الصورة رقم ٤٥) وخـزف ايران .

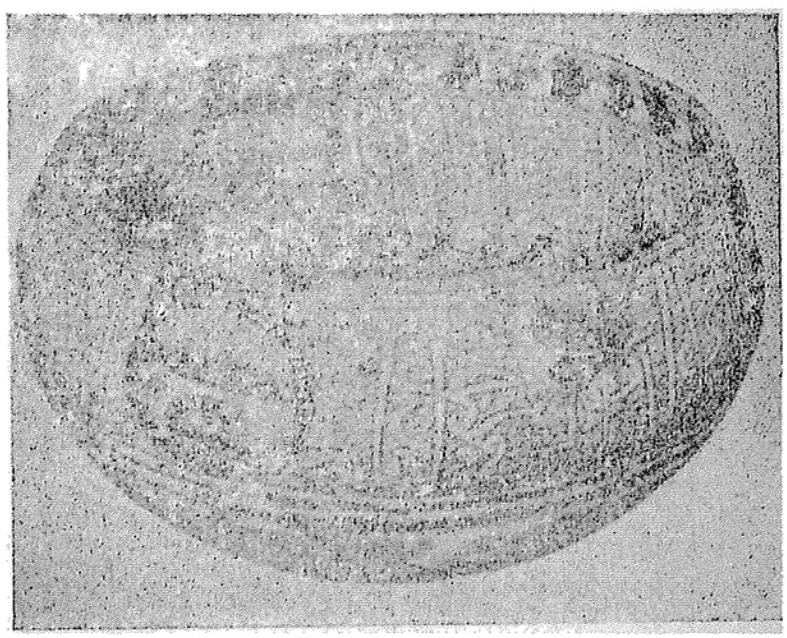
وقد عرفنا الكثير من أسـماء الخزافين الذين عاشوا فى العصر الفـاطمى أو العصر المملوكى ولكن معرفتنـا بهم لا تتجـاوز أسماءهم المنقوشة على الأوانى التى صنعوها.

وفى خـلال عصر المماليك ظهرت صناعة القراميد (ألواح القاشانى) التى تستعمل فى تكسية الجدران ولا تزال بقاياها ماثلة فى بعض العمائر المملوكية . (الصورة رقم ٤٦).

وثمة سلعة تعتبر أرخص مما يمكن أن يصنعه صانع ، وهى على رخصها تكشف لنا عن ميزة توفرت لأجدادنا فى العصور الوسطى هى انهم أحبوا الفن للفن ، وحرصوا على أن يضفوا على كل ما أخرجته أيديهم جمالا زخرفيا يشيع الغبطة فى النفوس ويشهد لمبدعه بحسن الذوق يستوى فى ذلك آنية الأمير المصنوعة من الذهب ، وآنية الفقير المصنوعة



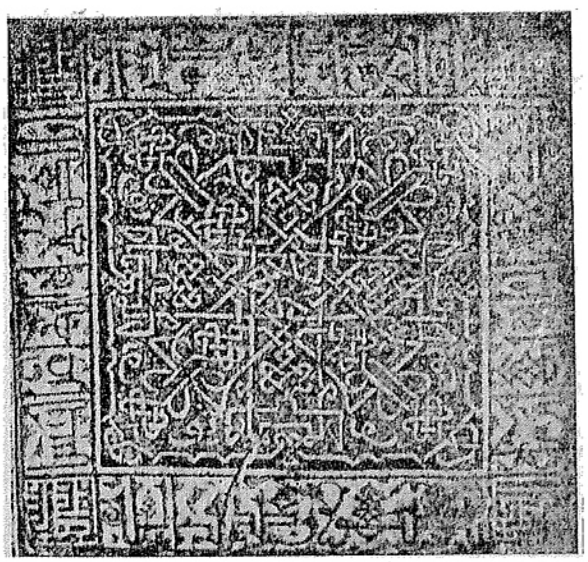
٤٣-قطعة من الخزف ذى البريق المعدنى به صورة للسيد المسيح بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠



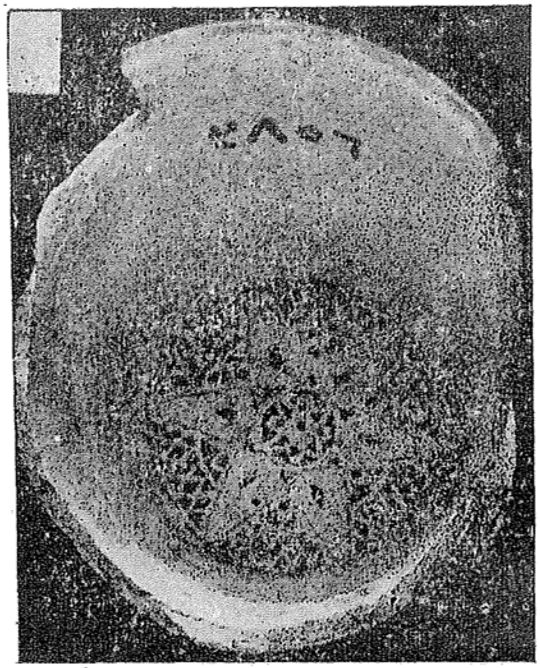
٤٤-آنية من الفخار المطلى فى العصر المملوكى بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠



٤٥-آنية من الخزف الذى قلدنا به خزف بلاد الصين فى العصر المملوكى - بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠



٤٦-تربيعات من القاشانى من العصر المملوكى - بالمتحف الاسلامى بالقاهرة ٠



٤٧ ــ شباك قلة من الفخار بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .

من الطين ، هذه السلعة الرخيصة ليست سوى « قلل » من الفخار تفنن الفخرانى فى زخرفة شبابيكها (الصورة رقم ٤٧) تفننا ينتزع الاعجاب من كل من يراها .

الزجاج

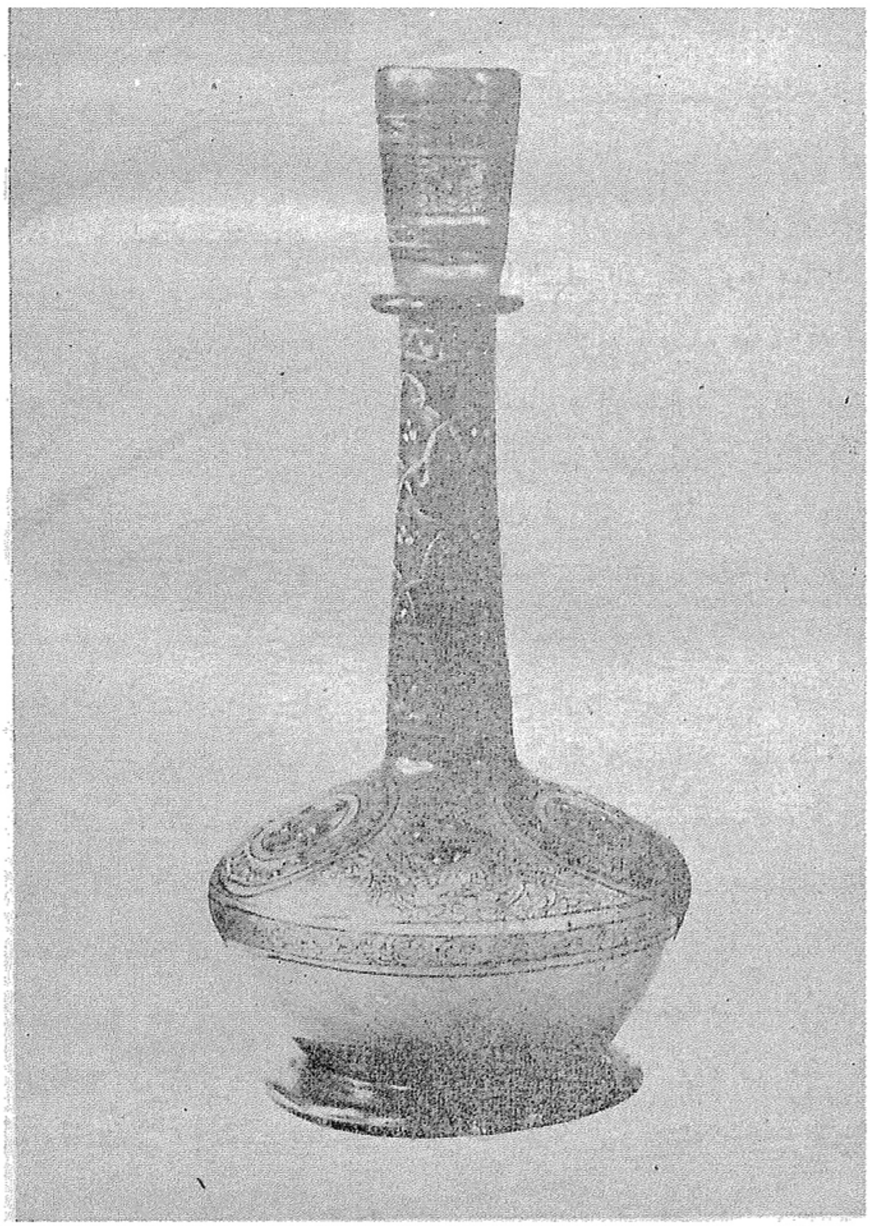
ولقد كانت صناعة الزجاج مزدهرة فى مصر منذ عصر الفراعنة ، وكانت مدينة الاسكندرية فى عصر البطالمة والرومان والبيزنطيين من أعظم مراكز صنعه فى العالم ، وقد حافظت مصر فى العصور الوسطى على هذه المكانة ، ولا عجب فلقد أدرك أجدادنا حينئذ الدور الذى يلعبه الزجاج فى الحضارة فأقبلوا على صنعه ، وأشاروا فى كتب الأدب الى ما له من مزايا على غيره من المواد ، فقالوا ان أوانيه لا تصدأ ، ولا تندى ، ولا يتخللها وسخ ، واذا اتسخت فالماء وحده ينظفها ، ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن يشرب فيها فكأنما يشرب فى اناء وماء وهواء وضياء .

وفى العصر الطولونى أخذت الفسطاط مكان الصدارة فى صناعته ، وأمدتنا حفائرها بكثير من القطع الزجاجية ومن القنينات الصغيرة ذات الأشكال المختلفة الجميلة ما يدل على أننا قد سرنا بهذه الصناعة الى الأمام خطوات واسعة . (الصورة رقم ٤٨) .

وفى العصر الفاطمى استمرت عجلة التطور تدور ، وقد أثبت ذلك الرحالة ناصرى خسرو اذ قال انه كان يصنع بمصر زجاج شفاف عظيم النقاوة ، وقال أيضا ان التجار فى مصر كانوا يمنحون المشترين أوانى من الزجاج لكى يضعوا بها السلع التى اشتروها مما يدل على انتشار صناعة الزجاج وشيوعها ، وقد ابتكرنا فى هذا العصر « الزجاج ذا البريق المعدنى » وأضفنا الى هذا الابتكار ابتكارا جديدا اهتدينا اليه فى العصر الأيوبى هو « الزجاج المموه بالمينا » الذى وصلنا فيه الى ذروة الاتقان فى العصر المملوكى (الصورة رقم ٤٩) والمصابيح الزجاجية أو « المشكاوات » كما تسمى عادة التى يفخر بها متحف الفن الاسلامى (الصورة رقم ٥٠) هى خير ما يعرض علينا جمال هذه الطريقة التى ابتدعناها لزخرفة الزجاج فى العصور الوسطى ، والتى تعلمها منا الايطاليون وقلدونا فيها تقليدا نراه فى بعض التحف المعروضة بقاعة الزجاج فى المتحف الاسلامى .



٤٨ ـ آنيـــة من الزجاج من العصر الطولونى بالمتحف الاسلامى بالقاهرة٠



٤٩ ـ دورق من الزجاج المموه بالمينا من العصر الايـوبي بالمتحف الاســلامى بالقاهرة ٠



٥٠ ـ مشكاة من الزجاج المموه بالمينا من عصر المماليك بالمتحف الاسلامى .

فن الكتاب

ولعل خير ما نختتم به هذا العرض السريع للجانب الفنى من حياة مصر الاسلامية هو ما كان لأجدادنا فى العصور الوسطى من فضل عظيم على « فن الكتاب » أى فن اخراج الكتاب فى الصورة التى نراه عليها الآن ، وهو فن متشعب النواحى يتصل بالمواد التى كان يكتب عليها ، وبالخط الذى كان يكتب به ، وبالصورة التى توضح موضوع الكتاب ، وبالتذهيب وبالتجليد .

ولقد كتب أجدادنا على الحجر والخشب وعلى الفخار والعظم وعلى الكتان والجلد ، وفى معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة أمثلة كثيرة لذلك ، على أن أهم ما استخدم للكتابة عليه هو البردى والرق والورق ، والبردى نبات كان ينبت بكثرة فى مصر ، وقد لعب فى العصور القديمة والعصور الوسطى نفس الدور الذى يلعبه الورق فى عصرنا الحاضر ، ولم يكن لمصر منافس فى انتاجه ، والكتاب المتخذ منه كان يتكون فى معظم الأحيان من صحائف مختلفة يلصق بعضها الى بعض بحيث يتكون من ذلك شريط طويل مستطيل الشكل يلف ليصبح فى شكل الاسطوانة ، وقد كانت الصحيفة الأولى فى هذا الملف أكثر سمكا من الصفحات الأخرى لأنها كانت تغطى الملف وتكون له بمثابة غلاف .

ولكن سرعان ما اتخذ الكتاب شكلا آخر غير شكل الملف هو الشكل الذى نراه عليه الآن وذلك فى الغالب عندما استعمل الرّق (وهو ما اتخذ من معدة الحيوان لا سيما الماشية والغزال) للكتابة عليه ، اذ كان جمع الرقوق المختلفة بعضها الى بعض يحتاج الى غلاف يمسكها ، ويحفظها من التلف ، فوضعت بين لوحين من الخشب . وقد عنى أجدادنا قبل الاسلام بزخرفة هذه الألواح الخشبية ، وتجميلها بالمعادن النفيسة والأحجار الكريمة ، ثم خطوا نحو التطور خطوة جديدة عندما استبدلوا هذه الألواح الخشبية بقطع من البردى قد أحكم لصقها بعضها الى بعض حتى أصبحت كأنها الورق المقوى (الكرتون) ثم كسوها بالجلد ، وزخرفوا هذا الجلد وهذه تكاد تكون نفس الطريقة التى تتبع اليوم فى تجليد الكتب .

واختراع الورق ، ثم استعماله بدلا من الرق ، لم يحدث تغييرا فى صناعة التجليد التى ظلت تسير على نهجها القديم ، على أننا نستطيع أن نسجل لأجدادنا فى العصور الاسلامية فضل التقدم نحو الأمام خطوة جديدة فى هذه الناحية هى ابتكار « اللسان »



٥١ – الصفحة الأولى من مصحف السلطان شعبان أحد سلاطين المماليك – فى معرض دار الكتب المصرية بالقاهرة .

الذى يطوى لحمـــاية الأطراف الأماميـــــة للصفحات . واذا كنا قد تعلمنا صناعة تجليد الكتب من البيزنطيين فقد علّمناها بدورنا للايطاليين فى البندقية ومن هناك تعلمها باقى الأوربيين .

ولقد عنى أجدادنا بانشاء المكتبات فى كل عصور حياتهم عنــاية عظيمة ، ومكتبة الاسكندرية الشـــهيرة ، ومكتبات الأديرة والكنائس والمساجد خير شاهد على ذلك ، ولولا الفتن والاضطرابات الداخلية لوصلت الينا أمثلة كثيرة من كتبهم التى ســـاهم فى عملها الخطاطون ، والمذهبون ، والمصورون ، والمجلدون ، ولكن القليل الذى وصل الينا والذى نســـتطيع أن نراه بالمتحف القبطى ، ونراه فى المجموعة الرائعة بدار الكتب المصرية يعوضنا بعض العوض .

والواقع أن « فن الكتاب » قد بلغ ذروة نضجه فى عصر المماليك ، كما تشهد بذلك المصاحف الجميلة المعروضة فى دار الكتب . (الصورة رقم ٥١) .

فهرس

سلسلة تاريخ الحضارة المصرية

العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى

المجلد الثانى

القسم الأول

صفحة

العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى ـ للدكتور ابراهيم نصحى

مصر فى عصر البطالمـــة : ـ

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الثانى

العصر الاسلامى :

تاريخ مصر من الفتح العربى الى أن دخلها الفاطميون ـ بقلم الدكتور حسين مؤنس

صفحة

صفحة

الحياة الفنية فى مصر الاسلامية